مَلَكُوت

رواية

شريف عبد الهادي



إهداء

إلى أبينا آدم، وأولادِه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب..

إلى موسى بن عمران، والمسيح ابن مريم، ومحمد بن عبد الله..

أغيثونا.. أدركونا

إلى جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وجميعِ الملائكةِ الكِرام..

كم تمنيتُ رؤيتكم بعد أنْ سحرتني سيرتُكم العطِرة وقدراتكم المدهشة.. أحببتكمُ في الله، وتمنيتُ صُحبتكم في الدنيا قبل الآخرة، فعسى أن يكونَ ذلك على كلِّ خير...

مَن الذي قال إن الصوابَ صوابٌ، والخطأَ خطأٌ، ما دام لكل منا كتالوج مختلف؟!

شريف عبد الهادي



(1)

أواخر السبعينيات

انطلقت سيارةٌ زرقاء، موديل مرسيدس "خنزيرة" – من تلك النوعيةِ التي لم يقتنها إلا أثرياءُ ذلك العصر – بسرعة متوسطة نسبيًّا على طريق مصر الإسكندرية الزراعي، حاملةً داخلها أسرةً تتكوَّن من 3 أفراد.

جلس على مقعدِ القيادة أب في الثلاثينيات من عمره، ذو شَعر كثيف مكوي، وسوالف عريضة تجعلك تشعر أنه كان يُربِّي لحيته بالعرض! يرتدي قميصًا مشجرًا، وبنطلونًا موديل «شارلستون» فضفاضًا، كان قمة الموضة في تلك الحقبة. أمسكت يدُه اليُسرى بعجلةِ القيادة، بينما راحت قدمُه اليمنى تضغط كماحة البنزين في بطءٍ مشوبٍ بالحذر، حتى لا تلحظ زوجتُه التي تجلس إلى جواره زيادة السرعة، وداري على الموقف بنظرة تفيض بالحنان الجارف والحب الدفين وهو يتأملها في ذلك الفستان الأبيض الدانتيل، ذي الأكمام القصيرة التي تتجاوز عظمة المرفق بسنتيمتراتٍ قليلةٍ ليظهر باقي ذراعيْها الحليبيتين وقد أحاطت معصمها الأيمن أسورةٌ من حبات اللؤلؤ البيضاء، في تناغمٍ مع نفس الحبَّات المصنوع منها ذلك الكوليه الذي يُحيط جيدَها، فيما أحاط خصرَها حزامٌ أسود اللون من القطيفة، معقودٌ في صورة فيونكة مطرزة بحبات الخرز الأبيض، ليقفَ الفستانُ على حدود الركبة التي تجلس عليها طفلتهما الوحيدةُ النائمة فى سَكينةٍ وطُمأنينة، لتنطق ملامحُها الجميلةُ ببراءة العامين اللذين لم تتجاوزهما بعد، في حين يخرجُ صوتُ عبد الحليم حافظ من كاسيت السيارة وهو يُردد بصوتِ العندليب: «افرح واملا الدنيا أغاني.. لا أنا ولا إنت هنعشق تاني».

مع نغمات الأغنية وكلماتها التي تدعو للتفاؤل، بادلت الزوجة زوجها بنظراتِ العشقِ والوَله، قبل أن يجذبَ نظرَها عقربُ عدَّاد السرعة الذي وصل إلى الرقم ١٢٠.

ما أن يلمحَ الزوجُ نظرتَها حتى يتراجعَ المؤشرُ إلى الرقم ٨٠ لتهدأ سرعةُ السيارة وسط الطريق السريع، ثم عاد ينظر لها مجددًا وهو يبتسم ابتسامةً تُعلن عن اعتذاره، فردَّت عليه بابتسامةٍ مرحةٍ شقية، تؤكد أنها قبلت الاعتذار، قبل أن تتراجعَ برأسِها للخلف وكأنها تغوصُ في مقعدها وهي

تتأمل تألق البدر ليلة تمامه وبزوغه وسط السماء في لوحةٍ إلهية بديعةٍ تُرسل خيوطها الفضية للناظرين، لتسرحَ في روعةِ المشهد وهي تقول بلهجةٍ حالمةٍ سعيدة:

- أعشقك حين تفهمني من عينيّ.

ثم عادت لتلتفتَ نحوه في غنج بينما ما زالت خصلاتُ شعرها تتلاعب على صفحة وجهها الملائكي، وقد أفاضت عيناها بالهيام، وأطل من شفتيها العشقُ والعطش، وزحفت يدها اليسرى نحو يده اليمنى لتمسكها بشدةٍ انتهت برعشةٍ فككت أوصاله، حتى إنه تحكّم في أعصابه بالكاد واستبدل رغبته المحمومة في عناقٍ حار برفعةٍ بسيطةٍ ليدها الرقيقةِ الملكية ثم جذبَها نحو فمه ليلثمها بقبلةٍ حانيةٍ امتزجت بأنفاسه الحارة التي نطقت بعشقه لها.

في تلك اللحظات، كان هناك شبحُ رجلٍ يرتدي بذلة رمادية اللون، ذات تفصيلةٍ غريبةٍ جدًّا لا تُشبه أي شكلٍ سائدٍ أو موجودٍ في هذا العصر، ورغم ذلك كانت لافتةً للنظر وهو يسير في الزراعاتِ المترامية الأطراف على جانبيْ الطريقِ مُعطيًا ظهره للحقول، متوجهًا نحو الطريق الأسفلتي وهو يسير بمفرده وسط الأغصان، وقد بدتْ عيناه الزرقاوان مضيئتيْن كعينيْ القطط في الظلام، أما هيئتُه الضخمةُ فكانت أقرب إلى ضلفتيْ دولابٍ متجاورتيْن منها إلى هيئة بشر!

بدا شَعره الأسود الفاحم شديدَ النعومة مع خصلاته التي تطايرت بفعل الهواء البارد، متناغمًا مع وجهه الطويل شديد البياض، يتوسطه أنفٌ دقيقٌ، وينتهي بذقن حادة، فيما برزت عظمتا الوجنتيْن، لتجمع ملامحه بين الوسامةِ والغموض، دون أن يطرف له رمشٌ إزاء عواء الذئاب الذي أخذ يشق السكون حوله في الحقول.

ما أنْ لمحت الذئابُ هذا الغريبَ الذي اقتحم مملكتها في جُنح الظلام، حتى ركضت جميعها نحوه ومخالبها تنهش الأرض نهشًا، قبل أن يلتفتَ لها ببطءٍ ممزوج بالثقةِ والتحدي، ويصوب نحو القطيع نظراتٍ قاسيةً يطل منها البريق، فإذا بالذئاب تتجمد في أماكنها بشكلٍ مفاجئ، وتجثو على قوائمها في خضوعٍ ومذلةٍ كتماثيل إغريقية مسخوطة، بعد أن استكانت ملامحها وتبددتْ منها الشراسة، وصارت أنيابُها الحادة مجرد

سكاكين باردة لا تصلح كسلاحٍ مناسبٍ لمواجهة هذا الغريب!

وعلى نفس الطريق الزراعي، سارت سيارة «رمسيس» حمراء، يقودها رجل ملتح في نهاية الثلاثينيات من عمره وقد أكسبته تلك الشعيرات البيضاء المتناثرة في لحيته عمرًا أكبر من عمره الحقيقي، ليُشنّف أذنيه بصوت الشيخ (رفعت)، قيثارة السماء وأيقونة قارئي القرآن وهو يتلو آياتٍ قرآنيةً من الذكر الحكيم، وإلى جواره جلس طفلٌ صغيرٌ سأله ببراءة:

- متى سنصل يا أبا الحاج؟

"حين يأذن الله يا ولدي.. كل ما علينا أن نضغط كماحة البنزين فحسب"

أجابه الأب بحكمةٍ ونبرةٍ إيمانيةٍ دون أن يلتفت إليه، ثم ارتجّت السيارةُ فجأة وأطلق محركها زمجرةً بائسةً أجبرت الرجل على الإمساك بعجلة القيادة بكلتا يديه بقوةٍ وهو يعقدُ حاجبيْه وعلى ملامح وجهه الدهشة والحيرة وهو يردد في توتر:

- الله أكبر.. سترك يا رب

ومن جانبه، انكمش الصغير في مقعده وهو يغوص في الدوّاسة، وعلى ملامحه الرعب والهلع، قبل أن ينجح والده في السيطرة على السيارة، والوقوف بها على الجانب الأيمن من الطريق، ليغادر السيارة مُسرعًا نحو غطاء السيارة الأمامي الذي أزاحه بتوتر وبدأ في فحص الموتور.

ما أن فتح الغطاء حتى غشي عينيه دخانٌ كثيفٌ، قبل أن يظهر على الجانب الآخر من الطريق ذلك الرجل ذو العينين الزرقاوين، ليتأمل المشهد بابتسامة ساخرة.

ومع تطلعه للمشهد من بعيد، رأى الرجلُ الغامضُ هالةً من اللون الأخضر المريح للعين، تتألق بوهجٍ حول الرجل المُلتحي وطفله الصغير!

* * *

في حنانٍ ورفق مسحت الأم شَعر طفلتها الجميلة النائمة داخل العربة المرسيدس، قبل أن تنظر لزوجها قائلةً في حب:

- من قبل مجيئها وأنا أعرف شكلها.. كنت أعرف أيضًا أنها ستكون شبهك.. وقد كان.

التفت لها الزوج ساخرًا وتابع:

- مرة أخرى ستقولين لي جاءك هاتف من السماء؟

- مرة أخرى لا تريد أن تصدقني؟.. كنت إذا أخبرتك أن الشمس تشرق من مغربها تثقُ في صحة كلامي بلا ذرة شك، فلماذا ترفض تصديقي في هذه المسألة تحديدًا؟

توترت ملامح الزوج وتنهَّد تنهيدةً حارةً قائلًا:

- ليس كل ما نسمعه في خيالاتنا هاتفًا من السماء بالضرورة.. طوال عمري وأنا أسمع صوتًا داخلي يُنبئني أن الله سيمنحني الثروة والزوجة الصالحة والبنت الجميلة.. لكن القدر لن يمهلني أن أفرح.. فهل أصدق ذلك الصوت بدوري وأجلس في بيتنا دون أن أغادر؟

اتسعت عيناها في قلق، ثم ما لبثت أن وضعت يدها على كتفه هامسةً بلهجةٍ حنونةٍ في محاولةٍ لطمأنته:

- لا يا حبيبي.. افرح واملا الدنيا أغاني كما يقول عبدالحليم.. ثم إنك لا تكتفي بابنتنا الجميلة فحسب.. **(تغمز بشقاوة وتتابع)** أخبرني لماذا نسافر للإسكندرية إذن؟ أو ليست رغبة منك في أن تمنحها أخًا؟

نجحت كلماتُها في تفريغ شحنة التوتر داخله نسبيًّا، لتتسلل إلى ملامحه الراحة والطمأنينة وهو يلتفت لزوجته ويبتسم، رغم عينيه اللامعتين بدموعٍ متحجرة.

* * *

داخل السيارة «الرمسيس» الحمراء تأمل الطفلُ الصغير من النافذة ابتسامة ذلك الرجل ذا العينين الزرقاوين والبذلة الرمادية والملامح المريبة، وقد وقف على الجانب الآخر من الطريق، قبل أن يشاور له الرجل بالمجيء إليه..

تأمل الطفل إشارات الرجل في دهشة، ثم اتسعت عيناه في ذهول وهو يراقب ذلك المشهد الذي بدا وكأنه فقرة الساحر!

أشار الرجل بيديه لأرضٍ ترابيةٍ لم تتم زراعتها بعد، فنهضت وتحوَّلت من وضعها الأفقي لوضع رأسي ليصبح ترابُها واقفًا في وضعٍ عمودي على الطريق الأسفلتي، قبل أن يبدأ الرجل بالرسم على الترابِ صانعًا أشكالًا جميلةً تُشبه العرائس والشخصيات التي يُحبها الطفل، ليفتح الصغير باب السيارة ويُغادرها كالمشدوه، دون أن يشعر بوالده الذي يُصلح السيارة بانهماكٍ شديد..

* * *

في السيارة المرسيدس، مسحت الأم شعر طفلتها التي استيقظت وقالت لها:

- لقد استيقظتِ مبكرًا يا حبيبة ماما.. إننا لم نصل بعد.

فيما ألقى الأب نظرةً على عداد السرعة الذي ظل على رقم ٨٠، ثم التفت لصغيرته قائلًا:

- عذرًا يا ملاكي الصغير.. تعرفين والدتك التي لا تُحب سرعة بابا خوفًا علينا من أي مكروه.

ارتسم الضيقُ على ملامح الطفلة وكأنها تفهم كلامه، لتمط شفتيها للأمام بغضبٍ طفولي مثيرٍ للضحك..

وفي تلك الأثناء كان القدر يُخرج مشهدًا سينمائيًّا لأحداثٍ حقيقيةٍ تحدث بالفعل على أرض الواقع، رابطًا فيه مصير أسرة السيارة المرسيدس بأسرة السيارة الرمسيس..

- **خارج السيارة "الرمسيس" على طريق مصر إسكندرية الزراعي**

تقدَّم الطفلُ نحو الرجل ذي العينين الزرقاوين كالمسحور، فيما ظل الرجلُ يرسم على التراب، ليلحظ الأب الملتحي حركة ابنه الذي يسير نحو المجهول، إذ لا يرى الأب ما يراه الابن الصغير، فصاح به:

- أيمن.. عُد للسيارة ولا تبرحْ مكانك!

– **في السيارة المرسيدس**

ضغط والد الطفلة دواسة الوقود خلسة، ليتجه مؤشرُ عداد السرعة إلى الرقم 120، لكن زوجته لاحظت ذلك وهتفتْ بضيقٍ واستنكار:

- ما هذا.. هل عدت لجنون السرعة من جديد؟

الزوج **(محاولًا تغيير الموضوع):**

- دعكِ من الطريق الذي أريد أن أقطعه سريعًا لأنفرد بمولاتي الجميلة واتركيني أسألك سؤالًا مهمًّا.. ألم يخبرك الهاتف اسم المولود الجديد ومن أين سيأخذ الشبه هذه المرة؟

إلا أن الزوجة اكتفت بالنظر له بوجومٍ وسرحت دون أن تحرك ساكنًا..

– **على طريق مصر إسكندرية الزراعي**

توقف والد الطفل عن تصليح سيارته، واتجه مسرعًا نحو الطفل الذي سار مسحورًا نحو الرجل ذي العينين الزرقاوين، فأشار الرجل الغامض للطفل أن يُسرِّع، ليركض بالفعل قبل أن تتحول الرسوماتُ الترابية فجأةً إلى نيرانٍ شديدة، ليتجمد الطفل في مكانه من هول المنظر، ويرفع يده نحو وجهه ليحمي نفسه قبل أن يختفي الرجل ذو البذلة الرمادية فجأةً وكأنه قد تبخَّر بينما يتردد صدى ضحكاته في الأفق ليصك مسامع الصغير، الذي يكتشف بعد أن ينزل يده من على عينه أن الأرض الترابية قد عادت إلى طبيعتها، في اللحظة التي يصل فيها والده إليه حتى ينقذه من السيارات القادمة بعد أن أصبح في منتصف الطريق السريع.

– **في السيارة المرسيدس**

فجأة لمح الزوج وزوجته، الطفل ووالده الملتحي وكأنهما برزا من العدم، في الوقت الذي كانت السيارة تتجه فيه نحوهما بسرعةٍ شديدةٍ تكفي لدهسهما، بعد أن جاوز مؤشر عداد السرعة رقم 120، لتقفز قدم سائق المرسيدس على كماحة الفرامل وهو ينحرف بعجلة القيادة في رد فعل سريعٍ وغير حكيم، ترتب عنه انحرافُ سيارته الحاد لتعبر الخطَّ الفاصل بين اتجاهيْ الطريق وتنقلب على ظهرها في الاتجاه المعاكس وسط صرخات زوجته المفزوعة التي احتضنت طفلتها بشدةٍ محاولةً أن تُخبئها

بين ضلوعها، فيما تطاير الشرر من احتكاك سقف السيارة بالأسفلت، قبل أن تتدحرج السيارة بشكلٍ عشوائي وتتجه نحو سيارة نقل ضخمة قادمة بسرعة..

في هذه اللحظة.. هبط من السماء طيفٌ نوراني هائلٌ أخذ يتصاغر كلما اقترب من الأرض حتى تحوَّل حين لامس الأسفلت إلى هيئة بشريةٍ في صورة شاب، فاق جماله (يوسف الصديق) بأضعاف مضاعفة، حتى إن عينيْك لن تملكا – لو أسعدك الحظ برؤيته – إلا الاتساع والتحديق بانبهار حيال هذه الصنيعة الإلهية التي فاقت خيال البشر في الروعة والجمال، سواء في بشرته البيضاء ووجهه المشرق، وعينيْه الذهبيتين كسبيكة من الذهب الخالص، وشعره البني الفاتح الطويل، شديد النعومة، وشفتيه الورديتين، وقد حفت وجهه لحيةٌ خفيفةٌ ناعمة ذات لون بني فاتح لتزيد من جماله وتضفي عليه المهابة والإيمان، فيما أكدت أجنحته الستة انتماءه لعالمٍ آخر غير عالمنا، قبل أن تنكمش هذه الأجنحة وتدخل في ملابسه الفضفاضة ناصعة البياض، لتختفي تمامًا وهو يتجه بسرعة شديدة – تفوق سرعة البشر – نحو السيارة المرسيدس ليخترقها ويصبح داخلها في لمح البصر، ويظل يتدحرج داخلها مع من فيها، في نفس اللحظة التي لم يستطع فيها سائقُ السيارة النقل تفادي المرسيدس التي تتدحرج نحوه ليدهسها دهسًا.

وداخل السيارة، أخذ الشاب النوراني الوسيم الطفلة الصغيرة من يد أمها وجعلها في الكنبة الخلفية في اللحظة التي انسحقت فيها مقدمةُ السيارة وتحوَّل زجاجُها ومعدنها إلى أسلحةٍ حادةٍ مدببة، أعدت خصيصًا لاختراق اللحم وسحق العظام ودك الرؤوس بلا أي وفاء لأصحابها الذين لهم معها ذكرياتٌ لا تُنسى، ليتحول جسدا الأب والأم إلى عصيرٍ من اللحم المفري والعظام المقرمشة بصوص الدم، بينما حمى الشاب جسد الطفلة الصغيرة، وتلقي بدلًا منها شظايا الزجاج لينغرس حطام الحديد فيه دون أن يمسه أو يمسها بأدنى سوء، ثم أمسك بجسدها الصغير وطار بها خارج السيارة ليلقيها في حقول الطريق الزراعي على مسافةٍ بعيدةٍ عن الحادث، قبل أن يتحول جسدُه إلى طيفٍ نوراني بينما انفصل عن جسد الطفلة نورٌ له نفس هيئتها وملامحها وكأنه نسخة منها، لكنها نسخة روحانية بلا لحم أو دم، وصعد كلاهما إلى السماء في اللحظة التي توقف فيها المشهد على الطريق الأسفلتي، ليسود الهدوء أخيرًا بعد أن

سالت الدماء وعم الخراب..

وفي سماء طريق مصر إسكندرية الزراعي، تابع طيفا الشاب والطفلة الصغيرة المشهد المأساوي من أعلى، حيث بدت السيارة المرسيدس من أسفلهما محطمةً تمامًا تحت عجلات السيارة النقل الضخمة، وقد سالت دماءُ الزوج وزوجته منها، في حين هبط سائق السيارة النقل ليتفحص الحطام، وانضم إليه الرجلُ الملتحي صاحب السيارة "الرمسيس" وهو يردد في هول وهلع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون

ومن جانبه، وقف الطفل الصغير يبكي بارتجافٍ وهو يمسك طرف ثوب والده، متأملا المشهد بارتياع، لتمتزج دموعه بدموع علوية سالت من عينيْ الطفلة الباكية وهي تتأمل مصير والديْها المؤسف بحرقةٍ وحسرةٍ فاقت سنوات عمرها الصغيرة، ثم لاحت منها التفاتة نحو الشاب الوسيم الذي أنقذها، وقد بدا عليه الجمود والهدوء دون أن يتأثر مثلها، لتسأله بعد أن صار بمقدورها أن تتكلم في هيئتها الجديدة:

- هل توفي الاثنان؟

التفت لها وقال بهدوء وحكمة:

- ولماذا لا تقولين إنهما ذهبا لعالم آخر أفضل بكثير..
على الأقل سيعيشان مع أناسٍ أفضل، ومخلوقاتٍ أجمل..
وسيشاهدان الخالق.

الطفلة **(باكيةً):**

- لماذا لم تتركني أذهب معهما إذن؟

الشاب الوسيم:

- الخير لهما في الذهاب.. والخير لكِ في البقاء

- ليس لي في الدنيا أحد سواهما

- لكِ الله، ومثلما أرسلهما ليعتنيا بشأنك في عمرك المنصرم، سيرسل لك حتمًا من يرعاكِ في عُمرِك المُقبل.. الرب يعلم مصلحتنا أكثر منا.. مفهوم؟

الطفلة **(وقد بدأت تتفهم):**

- مفهوم.

الشاب الوسيم:

- الآن تنتهي مهمتي.. لا بد أن تنسِي كل ما شاهدتِ من أجل مصلحتك.

الطفلة **(ببراءة شديدة):**

- وكيف أنساه؟

- سألقي عليكِ النسيان، وبمجرد أن تفتحي عينيكِ لن يصبح لي في ذاكرتك أي أثر.

- هل تأذن لي بطلب؟

الشاب **(وهو يتأمل ملامحها بحنان):**

- تَفَضَّلي!

مدت يدها نحوه ببراءة، قائلةً بصوتٍ حزين:

- أريد مصافحتك.

ارتسمت ابتسامةٌ طيبةٌ على ملامحه المنحوتة من الجمال الأخَّاذ وهو يصافحها برقة، ثم احتضنها بحنانٍ شديدٍ وهو يُقبل رأسها، لتسأله وهي بين ضلوعه وقد تسللت لنبراتها الطّمأنينةُ والسكينة:

- هل سترى أبي وأمي؟

- ربما!



- لو رأيتهما فلتقرئهما مني السلام.. (**تقلت دمعة ساخنة على وجنتها وتستطرد**) أخبرهما أنهما سيوحشانني كثيرًا!

تأمل ملامحها بابتسامته الطيبة، ثم أومأ برأسه وهو يُغمض عينيْه ثم يفتحهما سريعًا بما معناه (**لكِ ما أردتِ**) ثم نظر لها مشجعًا، وتابع:

– والآن استعدي!

ثم مد يده نحو وجهها ليمسحه برفقٍ وهو يُردد بإيمان وخشوع:

- فلتسقط ذاكرتك تلك اللحظات من عمرك الفاني، وتنتبهي إلى ما هو آتٍ بأمر الله.

ومع مغادرة آخر حرفٍ من شفتيْه، تجمَّد طيفُ الطفلة في السماء وقد أُلقي عليها السبات، قبل أن يسبح جسدها النوراني في الهواء نحو جسدها المادي فاقد الوعي في زراعات الطريق الزراعي على بعد مسافة طويلةٍ من سيارة والدها المحطمة، فيما أخذ الشاب يتأمل ملامح وجهها التي غشيتها السكينة، والهدوء، قبل أن يلقي نظرة على الرجل الملتحي والسائق وهما يُحاولان إخراج جثتيْ الأب والأم، ويُعاونهما في ذلك حشدٌ من الناس التف حول الحادث، قبل أن يخترق السحب ويغادر سماء الدُنيا بسرعةٍ فائقةٍ ليختفي في لمح البصر.

* * *

مع اختراق الحُجُب ومغادرة الأرض، حيث سديم الكون الفسيح وأضواء النجوم المندثرة التي ما زال ضياؤها يصل إلى البرية رغم فنائها من آلاف السنين، تحوَّل جسدُ الشاب إلى طيفٍ نوراني هائل، ليتأمل من أعلى ذلك الكوكب الصغير، المليء بالأحقاد والحروب والمكائد.

أخذ يمخر عباب السديم حتى وصل إلى "بوابة البرزخ"، ليتطلع إلى تدفق الأرواح المُزهَقة التي تتطاير من الأرض زخاتٍ زخاتٍ بأعدادٍ مهولةٍ في كل لحظة، بعد أن حصدها الموات في موسم جني البشر المستمر على مدار الفصول الأربعة، متجهة إلى الدار المؤقتة بين الدنيا والآخرة، في صورة شلالٍ من الأضواء الباهرة، لتصرخ الأرواح الصاعدة بنداءات واستغاثات بكل اللغات في أول لقاء بالحقيقة المطلقة، كل حسب عقيدته التي وقرت في قلبه، لتتضارب الاستغاثات بنبراتٍ متباينةٍ، تحمل أصوات

رجال ونساء وأطفال وكهول.. هذا ينادي على رب محمد، وهذا يقول يا يسوع، وهذا يبحث عن نعيم النجاة الأبدي في النيرفانا بعد أن امتثل لقانون الكارما، ونفرٌ منهم يتساءل بدهشةٍ عارمة: يا للهول.. أهناك حياة بعد الموت؟! هل صدق الأنبياء والرسل الذين كنا نعتبر رسالتهم محض خيال من صنيع البشر؟!

وفي المقابل كان هناك تيارٌ هائلٌ من الأرواح الهابطة من الملكوت العلوي في طريقها إلى الأرحام في شتى ربوع الأرض، حيث منابت بشرٍ جددٍ ينتظر القلم أفعالهم ليخطها في صحائف أعمالهم التي ما زالتْ خاويةً، متساوين في ذلك مع نقاء الملائكة قبل تدوين أول سيئة.

وفي غمار ذلك المشهد المهيب لتلاقي شلال أرواح الموتى الصاعد مع تيار أرواح البشر الجدد الهابط، عاد الملاك النوراني ليسأل سؤاله الأبدي الذي طالما تردد في قرارة نفسه، عن سر صراعات البشر اللا نهائية على التوافه والصغائر، بين سكان كوكب بكل من فيه لا يُساوي عند الرب جناح بعوضة في ملكوته الهائل وأكوانه الفسيحة الممتدة والمتمددة بلا نهاية..

"لو رأوا دنياهم من أعلى مثلما اعتدت رؤيتها لانفض السامر، وهجعوا المضاجع، وهاموا في الساحات والطرقات خاشعين، عابدين، تجأر ألسنتهم وأفئدتهم بالرحمة والتضرع: سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك.

لو عاد إليهم الموتى ليخبروهم بما شاهدوه وهم يتجاوزون الأرض ويخترقون الحُجُب ويصعدون للسماوات العلا، وكيف رأوا الحقيقة في عالم الشهادة، واكتشفوا ماهية الدنيا الزائلة، وحجمها الحقير، وكيف انطلقت صرخاتهم في ساحات الفضاء ندمًا وألمًا على ما بدر منهم حين كانوا أحياء، لاختلف كل شيء، لكن الأحياء أبدًا لن يُدركوا الحقيقة مهما حاولوا تخيلها إلا حين يصبحون في عالم الأمر والإطلاق، حيث الحقيقة المجردة التي لا تكفيها الكلمات، ولن تدركها الحواس القاصرة، وإنما تعبر إلى القلوب، وتمرق في الأنفس، فتستقر في الوجدان وتصبح يقينًا أبديًّا لا رجعة فيه، لكن.. بعد فوات الأوان".

وفي غمرة فكره وتأملاته، انفتح باب الذكريات العميقة داخله، ليتذكر أحداثًا من العصور الغابرة.

* * *

(2)

أصدرت السماء قعقعةً مخيفةً اضطرب لها سكان ذلك العالم العلوي، ليترقب سكانه النورانيون أمرًا جللًا في طريقه لأهل الأرض.

كانت القعقعةُ هي كلمة السر كلما صدر أمرٌ إلهي إلى (جبرائيل)* الملاك المقرب من رب العزة، وإمام السماء الموكل بإرسال العذاب والهلاك على من وصل صراخُ خَطاياهم إلى عرش الرحمن، وناءت بذنوبهم الأرضين السبع.

مع اضطراب المشهد، وانطلاق التسابيح والتكبيرات من أهل السماء هولا وخوفًا مما هو آتٍ، وقف طيفٌ نوراني يرقبُ باهتمامٍ شديدٍ تلك الأحداث الجسام القادمة، ولم يكن هذا الطيف سوى طيف صاحبنا الغارق في ذكرياته الآن.

لكن الفارق بينه وبين باقي المضطربين حوله من الذين نطقت ألسنتُهم بالاستغفار والتضرع، أن السعادة ارتسمت على ملامحه واحتلت كيانه وهو يترقب ذلك العقاب المقبل على فئةٍ جديدةٍ من تلك المخلوقات الصلصالية التي جاء خلقُها وبالًا على الأرض - من وجهة نظره- إذ استكملوا مسلسل القتل وسفك الدماء الذي بدأه من قبلهم الجان والشياطين.

---

* جبرائيل: هو أحد الملائكة المقربين من الله، وبالقرب من عرشه الإلهي, يخدمونه, ويسجدون أمامه, ويعملون بكلمته عند سماع صوت جلاله, يأمرهم بتنفيذ إرادته ومقاصده، وتعني الكلمة في اللغة العبرانية: رجل الله, أو قوة الله، أو جبروت الله، الذي تظهر فيه وبه قوة الله وقدرته التي يعلنها للعالمين، وتعني كلمة (إيل) في العبرية الله، لذا تتصل بها معظم أسماء كبار الملائكة مثل (جبرا..ئيل) و(إسراف..يل) و(ميكا..ئيل) وغيرهم.

وينطق بالقبطية غبريئيل ومنها جاءت كلمة غبريال التي سُمي بها أحيانًا في الكتاب المقدّس، وفي العربية اسمه جبريل، وأشير له في القرآن الكريم بأنه الروح القدس لأنه خُلق من طهارة وقدسية، ولُقب أحيانًا بالروح الأمين لأنه كُلف بأمانة إيصال الوحي الإلهي لمن اصطفاهم الرب من البشر.

وحسب العقيدتين المسيحية والإسلامية، فإن نزول جبريل أو جبرائيل إلى الأرض يكون لأمرين، إما تبليغ رسالة عن طريق الوحي من الله لرسله وأنبيائه في الأرض، وإما تدمير أهلها الفاسقين الضالين بأمر الله في مواعيد إلهية حددها المولى للانتقام والبطش بعد انتهاء المهلة الكافية للبشر.

قرأ الشاب الوسيم في اللوح المحفوظ قصة بدء الخليقة منذ أن كان الله في عَمَاء، مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الماء، ولما أراد أن يخلق عالم التدوين والتسطير خلق أول ملك من ملائكته وسمَّاه القلم، وأمره أن يكتب كل ما يكون في الكون إلى يوم القيامة، ثم خلق الملائكة والجان والجنة والنار والسماوات والأرضين.

في البدء كانت الأرض خربة، وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، في مشهدٍ كوني بديع، لم يشاهده أحدٌ من بني (آدم)، لكن الرب سطره في سفر تكوينه بالتوراة حين قال: «**لتجتمع المياه في مكان واحد تحت السماء**»، فإذا بالمياه تنحسر وتجتمع في أماكن محددة، ثم تظهر اليابسة، ليدعو الله اليابسة أرضًا، ومجتمع المياه بحارًا، ثم أخرجت الأرض عشبًا وبقلا وشجرًا، ثم قال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين، فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، وجعل الله النجوم في جلد السماء لتنير على الأرض، وتحكم على النهار والليل، وتفصل بين النور والظلمة.

قبل خلق (آدم) كانت الأرض تفيض بالخيرات والنعم، حيث جميع المخلوقات لا تملك رفاهية الاختيار، وكل مخلوق يسير بقدرٍ معلوم في مسار حدده له الإله سلفًا حين قال الله: "**لتفض المياه زحافاتٍ ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء**»، ثم خلق الله كل ذوات الأنفس الحية التي فاضت بها المياه أجناسًا مختلفة، وكذا جعل من الطيور ممالك وفصائل، وبارك الله أرضه قائلًا: «**أثمري وأكثري واملأي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض**»، ثم قال: «**لتخرج الأرض ذوات أنفس حية**»، وخلق الوحوش والبهائم والدواب في أيام الخلق السبعة، لتملأ جنبات الأرض خيرات الإله، قبل أن تطأ الأرض أقدام المخلوقات النارية اللعينة التي نشرت الخراب والدمار، وسفكت الدماء، في الوقت الذي امتلأت فيه السماء بتراتيل المحبة والنعمة التي تنشدها الملائكة والمخلوقات النورانية، وهي تحمد الخالق العظيم.

ومع اشتداد هزيم القعقعة الغاضب، تذكر الطيف النوراني الأشبه بشابٍ لا مثال لجماله على وجه البسيطة عندما حانت لحظة الشروع في خلق مخلوق جديد ليكون بمثابة رمانة الميزان لهذا الكون، ما بين مخلوقات نارية تفيض بالشرور إلا قليلا، ومخلوقات نورانية تفيض بالخير لأنها لا تملك خيار المعصية والخروج عن نسق السماء، بعد أن جُبلت على الطاعة وفُطرت على الإيمان، ودواب وطيور ووحوش غير مؤهلة لنشر تعاليم الإله واعمار الأرض، وقد امتلأت نفوسها بالشهوة حتى لم تجد مكانًا للفكر والتأمل وحمل الأمانة، ليقول الله حينها ما ورد ذكره لاحقًا في سفر تكوينه: «**نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض**»، ثم خاطب ملائكته بما ورد في قرآنه بعدها بآلاف السنين: **{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}**، لتبدأ من يومها رحلة الترقب والتحدي، بين النور والنار والطين.. ملائكة كرام بررة، وشياطين وجان ومردة، وبشر صلصاليين. كان ذلك حين سألت الملائكة ربها بدهشة:

– «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟»

وكانت إجابته:

– «**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**»

وأخذ الله الطين اللازب، ثم تركه حتى صار شديد السواد، تنطلق منه رائحةٌ نفاذة، وجعله صلصالا كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه، لتحين لحظة التحدي الكونية وبداية سيناريو أضخم عمل درامي واقعي في الوجود.

– «**اسْجُدُوا لِآدَمَ**»

«فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ»

– «**مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟**»

– «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ»

– «**اهْبِطْ مِنْهَا.. فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا.. فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**»

– «أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»

– «**إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ**»

– «فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ.. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ».

– «**اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً.. لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ.. وَيَا آدَمُ.. اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ.. فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**»

هكذا جاء خلق (آدم) وبالًا على إبليس وذريته التعسة..

وبعد أن خلق الله خليفته الجديد كآخر مخلوقاته، خلق البشر في صلبه، ثم صوّرهم، وخلق الشفرة الوراثية التي فيها صور كل الصفات الوراثية للإنسان على مستوى البشرية كلها، وأمرملائكته بالسجود ليكون سجودهم له، بمثابة سجود تكريم للروح التي دبّت في جسده، ثم أخرج الرب من صلب (آدم) كل ذرية ذرأها ونثرهم بين يديْه كالذر، وأشهدهم على أنفسهم، سائلًا: «**ألستُ بربكم؟**»

فقالوا: بلى.. شهدنا

ثم حانت لحظة التعارف بين (آدم) والملائكة، حين قال له الله:

– **اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك**

فقال لهم (آدم): السلام عليكم

وبدورهم ردوا عليه: السلام عليك ورحمة الله

وغرس الإله بعدها جنة في عدن شرقًا، أسكن فيها (آدم)، وأنبت من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وجعل فيها شجرة معرفة



الخير والشر، وأوصى الرب خليفته قائلًا:

- **من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت.**

وبعد أن أخذ الله الميثاق على (آدم)، استدعى له من الأرض كل البهائم والحيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إليه ليُعلِّمه أسماءها، ويُعَرِّفه بما يناديها، قبل أن يجمع الله الملائكة ويسألهم عن أسماء تلك المخلوقات، فأسقط في أيديهم وعجزوا عن الإجابة قائلين:

- «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»

فكانت الجولة الأولى التي ربحها (آدم) في معركة العلم والمعارف، كمخلوق أمده الله بما لم تحط به باقي المخلوقات خُبرًا، وقال له: **«يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ»**

فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ الله لملائكته:

- **«أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.. وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ»**

فدعا (آدم) جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية بأسمائها، وأما لنفسه فلم يجد معينًا نظيره، فقال الرب: **ليس جيدا أن يكون آدم وحده، فاصنع له معينا نظيره،** وأوقع الرب سباتًا على (آدم) لينام، ثم أخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا، وبنى الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى (آدم).

عندها قال (آدم) هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي.. هذه تُدعى امرأة لأنها من امرئ أُخِذَت، ودعا (آدم) اسم امرأته (حواء) لأنها أم كل حي، وكانا كلاهما عريانين بلا خجل، حيث لا يُدركان معنى الحياء بعد، قبل أن يبدأ إبليس التحدي في إغواء عدوه الذي كان سببًا في إفساد ما بينه وبين الرب، وتلبَّس جسد حية ودخل من خلالها جنة (آدم) المحرم عليه دخولها.

وبعد دخوله، التقى بـ(حواء) وقال لها: أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟

فأجابته (حواء): من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

قال لها بلهجة تفيض بالكراهية والحقد، مغلفة بنبرة الناصح الأمين:

- لن تموتا، «وَمَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ»

فرأت (حواء) أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل.

عندئذ انفتحت أعينهما عن معانٍ لم يُدركاها من قبل، وبدت لهما سوآتهما، وعرفا أن العُري يستدعي الخجل، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليداري كل منهما عورته، وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ (آدم) وامرأته من وجه الرب في وسط شجر الجنة قبل أن ينادي الرب على (آدم): **أين أنت؟**

فأجابه (آدم): سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فاختبأت.

من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟

ولم يجد (آدم) بدًا من الاعتراف:

- المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت

فقال الرب للمرأة: **ما هذا الذي فعلتِ؟**

ليحين دور (حواء) في الندم والأسف بعد فوات الأوان وهي تجيب:

- الحية غرَّتني فأكلت.

فقال الرب للحية: **لأنك فعلت هذا، ملعونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، وترابا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنتِ تسحقين عقبه.**



وعاقب الإله (حواء) بألام الولادة والمخاض، وأن يكون اشتياقها للرجل اشتياقا أبديا، وعليها يسود، وقال لـ(آدم): **«لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، شوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود»***.

وهكذا أصبح (آدم) من العارفين، وما دام عرف، صار عليه أن يحمل أمانة التبليغ والإعمار التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان بكل مشاقها وآلامها، إنه كان ظلومًا جهولا..

وانتصر الشيطان في تلك الجولة.. جولة الحيلة والمكر والدهاء..

وحين لاحت لحظة طرد (آدم) و(حواء)، ترقبت الملائكة حياة البشر وهم يُغادرون جنتهم إلى الشقاء والتعاسة، وفي عقولهم سؤال طالما سألوه من قبل خلق (آدم): هل ينزلق البشر إلى مستنقع الجان، وتعرف أياديهم الطريق إلى القتل وسفك الدماء؟

نعم.. ذاقت الأرض طعم الدم، وابتلعته حين سال من (هابيل) بعد أن قتله أخوه (قابيل)، ليفر الأخ القاتل بفعلته موصومًا بلعنة الله، لكن الإله استبقاه حيًا وحرَّم علي الكائنات قتله، فتناسل (قابيل) مع زوجته وأنجب (حنوك) وشيَّد مدينة سمَّاها باسمه، قبل أن ينجب (حنوك) ابنًا سمَّاه (عيراد)، و(عيراد) ولد (محويائيل)، و(محويائيل) ولد (متوشائيل)، و(متوشائيل) ولد (لامك).

وبعد مقتل (هابيل) عوَّض الله آدم وزوجته بـ (شيث)، وأنجب (شيث) (أنوش)، وأنجب (أنوش) (قينان)، وظلت الأنسال تتابع وتتوالى كطوفانٍ بشري مدعومًا بدفعةٍ قويةٍ من إلهٍ أراد لصنيعته التكاثر والازدياد.

هكذا ظل (آدم) وبنوه في تكاثر، وامتلأت الأرض بشرًا.. ومع تعددهم.. انتشر العصيان، وسفكت الدماء، وارتفع صراخ الخطايا ليجاوز عَنان السماء.

ويمضي الزمن وبعد نحو ٤٠٠ سنة نسي بنو (شيث) وسكان وادي النيل شريعة التوحيد، وعبدوا الأصنام وأشركوا بالله بينما حبست القلة المؤمنة

* جميع ما تم ذكره في قصة الخلق في هذا الفصل مأخوذٌ من سفر التكوين في التوراة اليهودية والعهد القديم في الكتاب المُقدَّس، والقرآن الكريم في الدين الإسلامي.

عقيدتها في صدورها من شدة الخوف من الحكام, إلى أن أرسل الله إليهم نبيه (إدريس)*، ليستكمل علم جدَّيْه (شيث) و(آدم)، ويكون أول من خط ورسم بما يُشبه القلم حاليًا، فذكَّر سُكَّان (مصر) بتعاليم الله الواحد الخالق لكل شيء، ووجَّههم إلى الأعمال الصالحة والزهد في الدنيا، وحدَّثهم عن الكواكب والنجوم وحركاتها، وعن الليل والنهار بعد أن علَّمه الله أسرار الفلك وعدد السنين والحساب، كما علَّم (إدريس) أهل (مصر) بعض الصناعات الصغيرة وتطويرها مثل الغزل والنسج، وحياكة الملابس, وغرس في قلوبهم قدسية الموت حين علَّمهم دفن الموتى والصلاة عليهم، ونشر بينهم السعادة حين جعل لهم أعيادًا كرؤية الهلال وفيضان النيل، وجعل في أعناقهم أمانة الحساب والعدل في المعاملات حين علَّمهم استخدام المكاييل والموازين، وجعلهم يشكرون الله الشافي حين علَّمهم علوم الطب والعلاج بالأعشاب لبعض الأمراض، فأطلقوا عليه (هرمس الهرامسة) أي المُعلِّم الأول للبشر.

ونتيجة لتعاليمه اكتشف المصريون أول تقويم للسنة الشمسية التي قسَّموها ٣٦٥ يومًا، وجعلوا من أيام السنة ١٢ شهرًا، ومن الشهر ٣٠ يومًا، ومن اليوم ٢٤ ساعة ما بين نهار وليل، وأطلق المصريون على شهورهم أسماء (توبة وبابة وهاتور وكيهك وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس وبؤنة وأبيب ومسرى), ثم طاف (إدريس) بالعديد من البلدان خارج وادي النيل، وألهمه الله منطق كل بلدٍ زاره، فعلَّمهم بألسنتهم التعمير والإنشاء والصناعات الصغيرة، ولما عاد إلي (مصر) سار مع الله مُصدِّقًا لكل ما نزل عليه من الوحي، حتى رفعه الله إليه وهو حي في ظروف وملابسات اختلفت أقوال البشر فيها من بعد رحيله، بعد أن أدى رسالته وكان عمره نحو ٣٦٥ سنة، تاركًا أصحابه على الشريعة الإدريسية التي تحورت مع الوقت وباتت أسطورةً جعلت من (إدريس) إلهًا اسمه (أوزوريس)، لتختلط في الأسطورة الحقيقة بالخيال، والواقع

* (إدريس) هو أحد الأنبياء الصِّديقين (إدريس وإبراهيم ويوسف) عليهم السلام, وهو ثالث من أعطوا النبوة بعد (آدم) و(شيث), ويُعتَبر ثاني نبي من الأنبياء العشرة المكرمين الذين استضافتهم مصر على التوالي وهم: (شيث وإدريس وإبراهيم ولوط ويوسف ويعقوب وموسي وهارون وشعيب والمسيح) عليهم السلام، حسب العقيدة الإسلامية.

بالخرافة، غير أن تعاليمه الأساسية تركت في نفوس الأقدمين الرهبة والقدسية تجاه حياة ما بعد الموت، والبعث والحساب، ليصبح للموت جلال وحكايات يرتجف من ذكرها السامعون.

ومع توالي السنين، تسلل الكفرُ إلى النفوس التي خربت، وتبدد العدل في طيات الظلام الذي حلّ على الأرض..

استحلَّ الرجال نساء لا تحل لهن، وذاع القتل والنهب والاغتصاب.. عرفت الأرض من نسل (آدم) قومًا جبّارين لا تعرف الرحمة لقلوبهم موضعًا، ثم تعالت صيحاتُ الغضب لتعم أرجاء الكون الفسيح وتهز عرش الإله حين شيد بنو (آدم) تماثيل ضخمةً لبشر صالحين يعرفون الإله حق المعرفة يدعون (ودا) و(سواعا) و(يغوث) و(يعوق) و(نسرا)، وبعد رحيل هؤلاء الصالحين عبد أتباعُهم وأولادهم هذه التماثيل بعد أن خدعهم إبليس وأعوانه في جولةٍ جديدةٍ واهمًا إياهم أنها آلهة تسمع وترى، وقادرة على البطش والعقاب.

ارتمت البشريةُ في أحضان آلهة من صنع أيديهم بنسخ مزيفةٍ، لا ترقى حتى أن تكون مقلدةً بجودة عالية، ونسوا وتناسوا أن الإله لا توجد منه في الكون كله سوى نسخةٍ وحيدةٍ أصليةٍ يستحيل حتى الاقتراب من قدراتها وصفاتها اللا محدودة!

فسدت الأرض بمن عليها، وأصبحت كتلة من الشرور والقاذورات.

صار كل مولود جديد بمثابة حلقة جديدة في سلسلة الكفر والفساد والمعاصي، ورقم جديد يُضاف لقائمة المتجبرين.

وفي غمار ذلك، أخرجت الشياطين ألسنتها للكون بحاله، وابتسم إبليس لجهنم في تشفٍ قائلًا: لن أدخلك وحدي، بعد أن أشار للجنة في سخرية: لا تنتظري أحدًا، فلن يأتي أحد.

حتى حين ظهرت بوادر الخير مع ذلك الرجل الصالح (نوح) ابن (لامك) وحفيد (متوشالح)، سخر منه الطغاة والجبابرة، واستضعفه العوام، ولم يتبعه من القوم إلا قليلا، بعد أعوام طويلة من الدعوة لعبادة رب الأرض والسماء، ونبذ الشرور والخطايا التي صارت هي الأصل والخير هو

الاستثناء.

وبعد أن وصل (نوح) إلى لحظة اليأس والضعف والانكسار، ارتفعت يداه إلى السماء:

- «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا.. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا»

حينها جاءت لحظة الحسم، لتطهير الأرض من الخلائق، بعد أن أغلقت اللعبة، كدورة دومينو مستحيلة الاستمرار، وتم تهيئة (نوح) ليكون (آدم) جديد لهذا الكوكب، وقرر الرب أن يردع غرور البشر بعينةٍ من عذابه ليدركوا كيف تكون غضبة الإله وانتقامه، بعد أن صاروا كطفلٍ لم يُدرك بعد معني العقاب، ولا يتخيل كيف يكون الهلاك ما دام لم يذقه أو يرى عينة منه.

ومن خلف السماوات جاء وحي الإله لنبيه (نوح):

- **«اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»**

ولم يكن النبي (نوح) على علمٍ أو دراية بصناعة السفن، فكيف بسفينةٍ ضخمةٍ تحمل آخر من سيتبقى من الخليقة والخلائق؟ لكن الإجابةَ جاءت من السماء التي هبطت منها ملائكة خفية أسهمت في صنع السفينة بيد (نوح)، الذي وجد يده تتحرك وتصنع وكأنها حاذقةٌ ماهرة عاشت طوال العمر في مهنة صنع السفن!

ورغم دهشة القوم العارمة من السفينة الهائلة، لكنهم تجاهلوا الإعجاز في صنعها، وسخروا وتهكموا على مكانها الغريب في قلب الصحراء، وكيف ستبحر في الرمال، بينما قهقه البعض منهم:

- نراك صرت نجارًا بعد أن كنتَ نبيًّا

وبعد اكتمال الصنع، جاء النداء الأخير من الرب..

- **ادخُل أنت وجميع بيتك إلى الفُلك لأني إياك رأيت بارا لدي في**

هذا الجيل.. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة، ذكرًا وأنثى، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرًا وأنثى.. ومن طيور السماء أيضًا سبعة سبعة، ذكرًا وأنثى لاستبقاء النسل على وجه كل الأرض، لأني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته

وفي سنة ست مئة من حياة (نوح)، في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر، انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء، وكان المطرُ على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، وتعاظمت المياه كثيرًا جدًا على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة تحت السماء، ومات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور، والبهائم، والوحوش، وجميع البشر، وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط، وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يومًا.

لكن.. ما زال الأمر مبكرًا على الحساب، رغم أن النار صُنعت قبل خلق البشر وطال انتظارها، إلا أن اشتياق الجنة للصالحين يستحق أن تطول الأيام والسنين والقرون، بقدر منزلتها العظيمة وتجليات إبداع الإله فيها بما يليق بقدراته اللانهائية، وكرمه اللا محدود.

وبعد أن عادت الأمور إلى طبيعتها، وعمَّت نعمة الله وسادت تعاليمه ومبادئه، عاد بنو (آدم) مجددًا إلى طبيعتهم البشرية الناقصة، وعاد إبليس وأعوانه إلى لعبة الإغواء والتلاعب بالنفوس المريضة وأطماع وأحقاد الصلصاليين، وقرر الرب الإله أنه لن يغرق الكوكب في كل مرة، بعد أن جعل من طوفان (نوح) نموذجًا مصغرًا للهلاك، وأدرك البشر كيف يكون عقابه، لكن في الوقت نفسه كان الرب يُدرك أن تكرار العقاب الهائل لا يجعله هائلا حق قدره، فهيأ الإله كوكبه وأيامه المقبلة لاستراتيجية مختلفة تناسب طبيعة المرحلة، وما وصل إليه البشر من خطايا وذنوب، بأن أوكل ملائكة -لا تتردد في تنفيذ أوامره طرفة عين- بالبطش والعقاب، ليكونوا على أهبة الاستعداد حين يصدر أوامره تجاه العصاة والمجرمين.

هكذا استرجع الملاك الشاب الجميل بالسماء الرابعة، أنباء مضت لتكون شاهدة على جهل بني الإنسان، متمنيًا أن يصبح ملكًا من ملائكة العذاب

الذين يُرسلهم الرب على الهالكين في لحظات الحسم.

حاول مرارًا أن يكره تلك المخلوقات البشرية الصلصالية الجهولة الظلومة، لكن تكوينه النوراني الطاهر لم يكن به ما يسمح بالكراهية والحقد، فاحتفظ لنفسه على الأقل بالحد الأقصى من الصرامة، والاستعداد التام لتنفيذ وعيد الله وعقابه، منتظرًا لحظةً لم تحنْ بعد يهبط فيها بين أبناء (آدم) ليدوِّر فيهم البطش والعقاب والتعذيب، جزاء ما اقترفت جوانحهم من ذنوب وخطايا لم يستعب أو يدرك يومًا كيف واتتهم الجرأة على إتيانها.

لم يعرف يومًا معنى التبرير ولا حتى التفسير لأي ذنب مهما صغر.. فما قاله الإله واجب التنفيذ على أي حال، وتحت أي ظرف، وفي كل وقت.. هكذا يستحق الإله، ولا عذر لكل من خالف أو قصَّر من المخلوقات.

كيف لم يصبح هؤلاء البشر ملائكة في عباداتهم وطاعتهم لإلههم الوحيد، حتى وإن امتلكوا رفاهية الاختيار؟ فالرب يستحق العبادة والتقديس دون حتى أن تكون هناك جنة ونار.

مرَّت عليه سنون طويلة أخذ يُردد فيها: «آه يا إلهي لو تأذن لي بالانتقام من هؤلاء الحمقى جزاء ما اقترفت أيديهم وأنفسهم الظالمة.. سأسحقهم جميعًا وأتعبَّد إليك بعدد كل نفس هالكة، وآهة عذاب يطلقها كافرون لا يخافون وعيدك».

ومع انتشار دعوات أهل السماء بالرحمة والمغفرة حين لاحت لحظة الحسم تجاه قوم (لوط)، ظل الطيف الملائكي يدعو الله أن يأذن له ويرسله مع المنتقمين..

ظل يردد دعاءه بحرقةٍ وإلحاحٍ ورغبةٍ أكيدةٍ من أعمق أعماقه وهو يضرب الهواء بأجنحته الخفاقة بشدة أكثر وأكثر مع ازدياد صوت القعقعة في لحظة حانت أخيرًا لقطع دابر قوم فاسدين، قبل أن يتجمد في مكانه كتمثال نحتته يد الإله حين لاح أمام عينيه (جبرائيل) في حجمه المهيب وأجنحته الستمائة التي يدوي خفقانها بصوتٍ قادر على زحزحة كوكبٍ بأكمله، وجعله يخرج عن مساره.

كان ذلك حين هبط إمام السماء من عليائه وملكوته العلوي في موكب ملائكي مهيب يشيعه إلى حدود السماء الدنيا انتظارًا للحظة الحسم.

«كم أنت محظوظ سيدي جبرائيل.. كم أتمنى أن تشفع لي عند الإله، وتضمني لجُندك المجندين لأحذو حذوك في الانتقام والبطش»

نظر إليه (جبرائيل) وكأنه سمع همسه إلى نفسه، فارتجَّت أوصاله، واضطربت دواخله قبل أن يمضي (جبريل) مخترقًا السماوات متوجهًا إلى (سدوم) و(عمورة) و(أدومة)، و(صبييم)* ، تلك البلاد الفانية التي ستصبح عبرة لمن يعتبر، بعد أن تمحى آثارها وسكانها للأبد.

ورغمًا عن إرادته، انطلق الطيف النوراني خلف (جبرائيل) ووقف على أبواب السماء الدنيا ليسمع ويرى ما هو آتٍ، مسترجعًا في ذاكرته تاريخ نضال ذلك الرجل الصالح (لوط) مع قومه الذين أتوا بفعلة ما سبقهم بها من أحدٍ من العالمين.

كانت (سدوم) و(عمورة) و(أدومة)، و(صبييم) بلادًا مليئةً بالخيرات والنعم، وكانت تمر عليها القوافل التجارية، ولما ضاق أهلها من تجاوزات بعض أفراد القوافل التجارية حين كانت أياديهم تمتد لالتقاط الثمار والخيرات من على الأشجار لسد جوعهم والتقوّي على وعثاء السفر، قرَّر القوم الإقدام على فعلةٍ شنيعةٍ يطوف أثرها باقي القرى والبلدان ويردع كل من تسول له نفسه التعدي على خيرات البلاد..

كيف؟

«سنطأ الرجال الذين تمتد أياديهم على خيراتنا، ونفعل بهم ما يفعله الذكر بالأنثى!»

هكذا وقعت أول حادثة من نوعها في تاريخ البشر، لكن من ارتكب هذا الجرم وجد فيه حلاوة امتد طعمها ليتذوقه باقي رجال البلدة، ليتحول إتيان الذكور من عقابٍ إلى عادةٍ شعبيةٍ يُمارسها الهالكون على الملأ في نواديهم ونواصيهم.

ولم تكن تلك الفاحشةُ هي إثمهم الوحيد، وإنما أضيفت إلى قائمة الشرور

* يعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن قرية قوم نبي الله (لوط) والقرى المجاورة لها كانت تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن حاليًا.

والآثام الأخرى من قتل، وسرقة، وقطع الطرق والسطو على القوافل التجارية التي يلقيها حظها العاثر في طريقهم.

وعندما صدر ذلك المرسوم الملكي في (سدوم): «**يُعاقَب كُل مَن يُغَذّي الفقراء بالحَرقِ حَتَّى المَوت**» كان هذا بمثابة المسمار الأخير في نعش الإنسانية التي ماتت واندثرت في قلوب أهل هذه البلدان البائسة، وسقطت آخر ورقة في شجرة المغفرة التي اقتلعها خريف البشر، لتتنافس البلدة الغابرة ممالك الشياطين الشريرة التي ما صار فيها بادرة أمل في التوبة، وغدت (سدوم) بلدة (لوط) وما يجاورها عضوًا فاسدًا لا أمل في شفائه، ولا مفر من استئصاله بعملية بتر إلهية.

نسي أهل تلك البلدان وتناسوا ماضيًا قريبًا تكالبت فيه الملوك والممالك عليهم، حين تشكل تحالفٌ بين الحاكم (كدرلعومر) ملك (عيلام)، و(أمرافل) ملك (شنعار)، و(أريوك) ملك (الأسار)، و(تدعال) ملك (جوييم)، ليصنعوا حربًا مع (بارع) ملك (سدوم) و(برشاع) ملك (عمورة) و(شناب) ملك (أدمة)، و(شمئيبر) ملك (صبوييم) وملك (بالع).

وسقطت (سدوم) و(عمورة) و(أدمة) و(صبوييم) مع من سقط في النهاية تحت إمرة (كدرلعومر) الذي استعبدهم ١٢ سنة، وحين عصت الممالك المستعبدة أوامره وخرجوا عن طوعه وطاعته في العام الثالث عشر، أتى (كدرلعومر) والملوك الذين معه لإعادة الثيران الهائجة إلى حظائرها وفرض السطوة من جديد على الممالك المتمردة، لتدق طبول الحرب بين تحالف يقوده الملك (كدرلعومر)، وتحالف آخر بين ٥ ممالك متمردة منها مملكة (سدوم) وقائدها الملك (بارع)، لتحتشد الجيوش في عمق السديم، ويشتد وطيس المعركة التي سالت فيها الدماء ساخنةً تحت سنابك الخيول، قبل أن يفر ملكا (سدوم) و(عمورة) ويسقطان في النهاية، بينما يهرب الباقون إلى الجبل.

ومع سقوط ملكيْ (سدوم) و(عمورة) اقتحم جيش (كدرلعومر) البلدتين انتقامًا وبطشًا، ليأخذ هو وخلفاؤه جميع أملاك أهل البلدتين وجميع وأمتعتهم ثم مضوا برؤوسٍ يرفعها خيلاء النصر والكِبر، لكنهم لم يدركوا أنهم ارتكبوا أكبر حماقاتهم على الإطلاق حين أسروا ذلك النبي الصالح (لوط) ونهبوا أملاكه مع ما نهبوا من غنائم وسبايا.

لم يُدركوا أن الخبر سيصل إلى عمه نبي الله (إبرام) الذي سمَّى (لوطًا) بهذا الاسم لأن حبه (لاط) بقلبه، أي تعلق به ولصق، وسيكون هذا سببًا كافيًا ليجهز (إبرام) جيشًا للذود عن ابن أخيه وفك أسره.

صحيح أن الأرض من قبل لم تحتمل أن يسكن نبيان معًا خاصة أن أملاكهما كانت كثيرة، وحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي (إبرام) ورعاة مواشي (لوط)، لكن العم وابن أخيه افترقا في رفقٍ حين قال (إبرام) لـ(لوط): «لا تكن مخاصمة بيني وبينك، وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحن إخوان.. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني.. إن ذهبت شمالا فأنا يمينا، وإن يمينا فأنا شمالا»، ومن يومها حدث الافتراق بشكل راقٍ حرصًا على المصلحة.

اختار (لوط) أن يرتحل إلى (سدوم) و(عمورة) اللتيْن كانتا جنة الإله في أرضه، بما احتوته أرجائهما من خضرة، وثمار، وجمال، أما (إبرام) فنقل خيامه وأتى وأقام عند (بلوطات ممرا) التي في (حبرون)*، وبنى هناك مذبحًا للرب.

- رفعت يديَّ إلى الرب الإله العليِّ مالك السماء والأرض، لا آخذن لا خيطًا، ولا شراك نعل، ولا من كل ما هو لك فلا تقول أنا أغنيت إبرام.

قبل أن يلقبه الرب منذ هذا اليوم بـ (إبراهيم) بدلا من (إبرام)، ويلقب زوجته (ساراي) بـ(ساراة)

---

* مدينة (حبرون) هي ما تُعرف اليوم بمدينة (الخليل) في فلسطين، وكان يُطلق عليها قديمًا اسم «قرية أربع»، وقد تعود هذه التسمية إلى انقسامها في وقتٍ ما إلى أربعة أحياء، ويرجع الكتَّاب اليهود بهذه التسمية إلى الآباء الأربعة الذين دفنوا فيها وهم: آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب. ولكن بناء على ما جاء في سفر يشوع (١٤ : ١٥، ١٥ : ١٣)، فإن هذه التسمية جاءت نسبة إلى رجلٍ يُدعى «أربع أبي عناق».
وأتى (إبرام) وأقام عند (بلوطات ممرا) التي في (حبرون)، ومن هناك ذهب هو ورجاله وأنقذ (لوطًا) وعاد به بعد أن هزم كدر لعومر، وهنا تغير اسمه إلى (إبراهيم)، وأتى الثلاثة الملائكة إلى (إبراهيم) في ذلك المكان وأعطوه الوعد بأن يكون له ابن، وفي (حبرون) ماتت (سارة) فاشترى (إبراهيم) مغارة المكفيلة ليدفنها هناك، كما أمضى (إسحاق) و(يعقوب) سنين عديدة من حياتهما في (حبرون) ومنها نزل يعقوب وأولاده الأسباط إلى (مصر).

وحين بلغه ما حدث مع ابن أخيه (لوط) كان (إبرام) هو البطل الذي أنقذ في آخر لحظة ممالك مهزومة لا تستحق سوى الذل والهلاك من أجل فرد واحد طالما حاول أن يعيد الأوضاع المقلوبة إلى نصابها.

تحرك (إبرام) بجنده وشقوا عباب السديم الغاسق، مع أعنة أنوف تشمخ لملاقاة الظالمين، وكان في تحركه وتجهيزه للحرب مفاجأة للجميع، وهو الرجل الهادئ الحكيم الطيب، فإذا به فجأة بطلا أسطوريًا يليق أن تنسج حوله الأساطير.

استرجع (إبرام) كل الأملاك، واستعاد (لوطا) والنساء وباقي الشعب الذي سيق عبيدا وجواري.

وعندما خرج ملك (سدوم) لاستقباله بعد انتصاره على (كدرلعومر) والملوك الذين معه، قال الملك لـ(إبرام): أعطني النفوس، وأما الأملاك فخذها لنفسك.

فأجابه (إبرام) بتواضع وترفع:

لقد كانت أنباء قوم (لوط) الذين لم تعرف الموعظة والرحمة إلى قلوبهم أو عقولهم سبيلا، إذ عادوا لآثامهم وجرمهم البشع بعد أن أنقذهم الإله وفك قيود العبودية الناشبة في أعناقهم، فردوا إليه الجميل بالمزيد من الدنَس والنَجس، حتى إن (لوطًا) الذي سكن بيتًا يطل على الطريق لاستقبال المسافرين الغرباء وعابري السبيل حتى يدعوهم إلى الله، ويساعدهم في غسل أرجلهم، والتزود بالقوت والماء، والمبيت في الليالي المظلمة حتى يلوح الصباح، صار محرمًا عليه ذلك بفعل المرسوم الملكي الذي منع مساعدة الفقراء، فبات يترقب مرور المحتاجين في الخفاء ليساعدهم في السر.

وقبل ليلة الحسم، أرسل الله (جبرائيل) ومعه ملكان آخران ليزوروا (إبراهيم) أولًا في (بلوطات ممرا) بـ(حبرون) ليبشروه بميلاد ابنه (إسحق) رغم أن زوجته (سارة) صارت عاقرًا وبلغ منها الكبر عتيًا، وعلم (إبراهيم) أن أمر الله قد نفذ في قوم (لوط)، فتساءل عن مصير ابن اخيه، وبعد أن تأكد أن (لوطًا) من الناجين، طمع (إبراهيم) أن يشفع عند ربه في باقي المقيمين في (سدوم)، عسى أن يكون من بينهم صالحون، وعند (بلوطات ممرا) دار الحوار بين الإله و(إبراهيم):

- أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًا في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًا الذين فيه؟

" إن وجدت في سدوم خمسين بارا في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم"

ولما عجز (إبراهيم) عن حصر ٥٠ صالحًا يقيمون في (سدوم) واصل شفاعته:

- ربما نقص الخمسون بارًا خمسة، أتهلك كل المدينة بالخمسة؟

" لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين "

- عسى أن يوجد هناك أربعون

" لا أفعل من أجل الأربعين"

وظل (إبراهيم) يناجي ربه ويتوسل إليه أن يمنع عذابه من أجل ٣٥ نفسًا صالحة في القرية، بل من أجل ٣٠، ٢٥، ٢٠، ١٠، وفي كل مرة يوافق فيها الرب، يعجز خليل الرحمن أن يجد الرقم الذي توسل به واستشفع من أجله، حتى عاد (إبراهيم) وقد أدرك أنه لن يكون أرحم من إله الرحمة، وأن قرية قد خلت من ١٠ صالحين يدرأون عنها العذاب لهي تستحق عقاب الإله بلا أدنى شك.

هكذا اتجهت الملائكة نحو (سدوم)، لتلمحهم ابنتا (لوط) عند مشارف البلدة وتسألهم إحدى الفتاتين في توتر ارتسم على ملامحها حين لاحظت روعة هيئة الفرسان:

- ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟

فأجابها (جبرائيل):

- جئنا من حبرون، ولدينا رحلة طويلة نود أن نأخذ خلالها قسطًا من الراحة في بلدتكم.
- ولكن قريتنا ملأى بالفواحش أيها السادة، سيفتك بكم أهل السوء

- ألا يوجد بها أحدٌ من الصالحين؟
- بلى، إنه أبونا الشيخ لوط الجالس هناك.

وفي موضعه حيث يجلس (لوط) عند مدخل (سدوم) ليتحرى قدوم المسافرين والمحتاجين، وقع بصره على ابنتيه وهما تصطحبان ثلاثة أشباح تقترب، فنهض وتقدّم إليهم فإذا بهم ثلاثة فرسان مُرد حِسان، أشرقت وجوههم كبدرٍ وضّاء في ليلة التمام، تفيض منهم رائحةٌ زكية، ويطل من أعينهم بريقٌ أخّاذ يفتن من يقع عليه بالحب والهوى.

ثم بادرته إحدى ابنتيه بالحديث قائلة:

- يا أبتِ، إن هؤلاء السادة يريدون النزول في قريتنا للراحة

تأمل (لوط) وجوه الرجال المُرد الحِسان، فرأى خلف وضاحتها وحسن هيئتها نذير شؤم ووبالا سيدفعون ثمنه ما بقي لهم من العمر على يد أهل قريته الجبارين الذين سيطأونهم بالإجبار ويذلون نواصيهم مثلما فعلوا مع سابقيهم من البؤساء، فعقد (لوط) حاجبيه قائلاً وهو يتطلع في وجوههم بنبرة تفيض بالضيق، وبكلماتٍ بطيئةٍ تُوحي بخطورة الأمر الجلل:

- رباه، هذا يوم عصيب.
- لِمَ أيها الشيخ؟

سأله (جبرائيل)، فأجابه (لوط):

- إن تلك القرى تنقضُّ على الغرباء، انقضاض السباع على فرائسها من الغزلان الأليفة.
- وماذا عنك؟
- أنا رجل طاعن في السن.. لا أملك لكم سوى دعوتكم لتبيتوا في بيت عبدكم، وتغسلوا أرجلكم، ثم تبكروا وتذهبوا في طريقكم، لكن..
- يكفينا هذا أيها الرجل الصالح، فلا نملك سوى هذا الخيار

ولما أشار (لوط) إلى ابنتيه لتجهيز البيت، قال (جبرائيل):

- لا؛ بل في الساحة نبيت.

لكن (لوط) ألح عليهم بالمبيت في منزله بإلحاح الكرماء، فمالوا إليه ودخلوا بيته، فصنع لهم ضيافة، وخبزًا، وفطيرًا، دون أن يدري أن امرأته الغابرة قد شاهدت الموقف، وعلمت أنه استضاف الغرباء وساعدهم، فذهبت إلى القوم وأنبأتهم بما فعل (لوط)، وأثناء وشايتها، أفرطت في وصف حُسن الرجال، وأسهبت في تعديد حلاوة ملامحهم وقسماتهم، ووصف روعة أجسادهم، وطيب رائحتهم، فسال لعابُ القوم وعزموا مواقعة ضيوف (لوط).

وأثناء جلوس (لوط) مع ضيوفه فوجيء بطرقاتٍ عنيفةٍ على باب داره:

- افتح يا لوط وسلمنا ضيوفك تنأى بنفسك عن الشر وتنجو من الهلاك.

نظر (لوط) إلى ضيوفه وقال بارتياع:

- امكثوا في أماكنكم أيها السادة، ولا تبرحوا الدار مهما حدث، عسى أن أصدَّ شرور قومي وأبعد عنكم الأنظار.

واتجه (لوط) بخطوات ثقيلة حائرة نحو باب داره، قبل أن يفتحه ويغادر بيته ويغلق الباب خلفه بإحكامٍ قائلًا للحشد الهائل من الرجال الملتفين حول الدار في توسل:

- أيها القوم, هؤلاء الرجال ضيوفي، وأنا الذي ألح في استضافتهم فلا شأن لكم بهم.. إن كنتم تريدون المواقعة خذوا بناتي تزوَّجوهن بالحلال، عسى الله أن يرحمكم ويتوب عليكم!

هتف فيه أحدُهم بغضبٍ وتهكم:

- لا حاجة لنا ببناتك أيها الشيخ الخرف، فلتعطنا ضيوفك وتنجو بنفسك أو تهلك بخرقك للمرسوم الملكي الذي حرم منع استضافة الغرباء وجعل الحرق عقابًا لمن لم يمتثل.

ومع الحرف الأخير للرجل انفتح بابُ الدار وامتدت يد (جبرائيل) لتجذب (لوط) إلى الداخل، فهمَّ بعضُهم بالانقضاض عليه، إلا أن يد (جبرائيل)

لطمتهم على وجوههم فطمست أعينهم ومسحت موضعها تمامًا ليُصبحوا أشبه بالمسوخ البشرية المرعبة، وكأنهم خُلقوا بلا أعين، قبل أن تتألق الملائكة بنور شديدٍ سطع ببريق فاق احتمال أبصار الرجال ليصرخوا في ألم بعد أن غشّيتهم الأضواء الحارقة وفقدوا حاسة البصر وأصابهم العمى الجماعي، فيما اتسعت عينا (لوط) بذهول وقد انهزم قومه في لحظات، وأحاط به أنين الرجال وصرخاتهم التي انتشرت في كل مكان وهم يفرون متخبطي الخطى والأجساد، قبل أن يتقدم نحوه (جبرائيل) بحزمٍ وثباتٍ ويقول بصرامة:

- نعم يا لوط، نحن ملائكة من ربك جئنا لننجيك بعد أن حقَّت كلمته وحانت ساعة الوعيد.. خذ بنيك وبناتك وأصهارك، وكل من لك في المدينة واخرج من هنا قبل هلاك المكان.. فقد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا بالعذاب.

لكن من قال إن حل أزمات البشر ورفع الضُر عنهم يتأتى بالنصيحة؟

خرج (لوط) بالفعل وكلَّم أصهاره المتزوجين من باقي بناته، وتوسَّل إليهم: «قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة الليلة لا محالة»..

لكن كلماته تبددت في الهواء كقبض ريح إزاء تعنتهم وسخريتهم من خشية رب لم يؤمنوا بوجوده، ولم يخشوا يومًا عقابه، فكان النبي المُكذَّب من قومه كمازحٍ في أعين أصهاره.

ولما طلع الفجر، وجَّه (جبرائيل) تحذيره الأخير إلى (لوط):

- قم خذ ابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بآثام المدينة.. «**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ***»..
- امرأتي؟
- نعم، لا تحذرها عن النظر خلفها ودعها تأخذ عقابها مثل باقي قومك، فقد خانتك لأنها مثلهم.. هيا.. اهرب لحياتك وانزح إلى

وأشار (جبرائيل) نحو مدينة (صوعر) كملجأ وملاذ.

وفي جنح الظلام، أخذ (لوط) يهرول نحو الجبل بصحبة ابنتيه وزوجته..

* القرآن الكريم، سورة هود، الآية رقم ٨١

– الجبل، ومهما سمعت خلفك من صرخاتٍ واستغاثاتٍ فإياك أن تنظر وراءك أنت وابنتاك فتهلكوا.. فما سيحدث من عذاب في قريتكم مع مشرق الشمس سيفوق أي وصف، وسيخلده تاريخكم الذي سترويه الأجيال لآلافٍ من السنين.

ومن مكانه في السماء الأولى سمع الطيف الملائكي النوراني تلك الصيحة العظيمة التي كانت بمثابة إشارة البدء لوقوع الهلاك بعد أن حانت ساعة الصفر، ثم شاهد سيده (جبرائيل) إمام السمائيين وهو ينقض انقضاضته الأخيرة على الممالك الهالكة، ليهوى عليها من حالقٍ بأجنحته الستمائة قبل أن تخترق أجنحته أرض تلك البلاد لتصل إلى جذورها في الأرضين السبع، ثم تنسفها من أصولها من العروة السفلى ليطير (جبرائيل) بالبلاد ومن عليها بسرعةٍ رهيبةٍ حتى وصل بها إلى السماء الأولى، ليسمع أهل السماء أصوات الديوك وضغاء الكلاب وصرخات البشر الهالكين في لحظاتهم الأخيرة، ثم حان دور باقي جنود (جبرائيل) من الملائكة حاملي أصوات الرعد وخطف البرق والصواعق العظيمة ليقوموا بدورهم، وأرسلت السماء انتقامها في صورة أمطارٍ من سجّيل، معبأة بالكبريت والنار، على كل حجرٍ منها مكتوب اسم الشخص الموجه إليه ليهلكه، في الوقت الذي انطلقت فيه الآهات والصرخات، لتختلط بأصواتٍ أخرى عالية جدًا كادت أن تصم آذان (لوط) وابنتيه وقد دبَّ الرعب في قلوبهم، إلى حد أنهم خشوا حتى من محاولة تخيل ما يحدث، وكان هذا كافيًا لكي تهز امرأة (لوط) رأسها غير مصدقة أن عذاب الله قد وقع بالفعل.

كيف تُصدق وهي التي عاشت تسخر طوال عمرها من دعوات زوجها في الوقت الذي كانت فيه قلبًا وقالبًا مع باقي القوم المفسدين؟

كيف تؤمن أن ثمة عقابًا سماويًّا يقع خلفها بالفعل؟ وماذا عن باقي قومها؟ هل سيهلكون حقًّا؟ وكيف يكون شكل هذا العقاب؟

وعندما لاحت منها نظرةٌ سريعةٌ للخلف، لم تكن تدري أنها النظرة الأخيرة، حتى إنها لم تلحق أن تستغفر أو تتوب وهي تتجمد في مكانها كتمثال من الملح ثم تذروها الرياح!

ثم قلب (جبرائيل) البلاد ليهوى بها لأسفل عائدًا إلى الأرض وقد صا

أسفلها أعلاها، وجرجر بعضهم على بعض وأتبع شُذّاذ القوم صخرًا منضودًا.

وفي مكانه، ظل الطيف الملائكي الوسيم يخفق بأجنحته بشدة، داعيًا إلى الله من أعمق أعماقه أن يتكرم عليه ويجعله من ملائكة العذاب وقد وجد في فعلة (جبرائيل) قدوة وغاية تمنى لو واتته الفرصة يومًا ليحذو حذوها مع المجرمين.

وعندما فرغ (جبرائيل) من مهمته وعاد إلى الملكوت العلوي، تطلع إليه الطيف النوراني الأشبه بالشاب الوسيم بمهابة وحب واحترام، قبل أن يهتز أوصاله حين التفت إليه (جبرائيل) وتلاقت الأعين، حتى إنه لم يصدق نفسه حين خيل إليه أن عينيْ (جبرائيل) قد ندّت منها ابتسامة سريعة، لكنها كانت تحمل معاني كثيرةً فاقت توقعاته وأمانيه.

* * *

لم يصدق ملاك الرب النوراني أن أمنيته تحققت أخيرًا، حين أخبره رئيس طائفته أن (جبرائيل) قد سمع أمنيته، ورفعها إلى الإله طالبًا إياه بالسماح له أن يضمه إلى جنده السماويين.

رغم احتقاره للكثير من صنيع البشر وأفعالهم الشائنة، إلا أنه كان يتعاطف معهم حين يرفعون أكفَّ الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى القدوس بأسمائه وصفاته العُلا ليجيب أماني عزيزة فشل أمثالهم من البشر في تحقيقها، أو كان في إمكان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، لكنهم بخلوا عليهم في لحظاتِ الأنانية، والجشع، واستخفاف الإنسان بأخيه الإنسان، فلم يعد لهم إلا مجيب أوحد يركنوا إليه في لحظات القهر واليأس، لتعلو أصواتُهم، وتنشرخ حناجرهم، وتسيل الدموع الحزينة في لحظات الضعف والحاجة للمدد، أملا في استجابة السماء وتدخلها، ثم يتجرعون الحزن والألم حين يستبطئون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها الأمنيات بين السماء والأرض.

لقد جرّب الملاك هذا الشعور طويلا حين سهر ليالي لا حصر لها داعيًا وراجيًا أن يتحقق أمله ويصبح من ملائكة العذاب، وهاهو يشترك مع بني

(آدم) حين يصرخون من الفرحة لحظة الإجابة وتحقيق الأماني البعيدة فيتقافزون كطفلٍ بريء أطلق لمشاعره العنان، ليشعر في هذه اللحظة بالتعاطف معهم في الوقت الذي صار فيه جنديًّا في ساحة الحرب عليهم وتوقيع العقاب إزاء ما اقترفت أياديهم، ويا لها من مفارقة!

وهكذا أصبح الملاكُ النوراني جُنديًّا مُخلصًا في زمرة جنود (جبرائيل) وأبدى غاية سعادته عندما بدأ تنفيذ مهامه الجديدة.

* * *

(3)

في العصر الحالي

في أحد الشوارع الرئيسية الفاخرة بمنطقة (مصر الجديدة)، شعر ملاك الرب الوسيم أنه يسمع موسيقى ذات طابع روحاني ساحر، يخلب الأفئدة والألباب بشكلٍ يفوق روعة وجمال إبداعات فرق ERA و Enigma و Gregorian الغنائية التي كانت إبداعاتها تُشبه تلك الموسيقى إلى حد بعيد، ليسير الشاب النوراني مرتديًا نفس ملابسه الفضفاضة ناصعة البياض، ويعبر الشارع مهتمًّا بقراءة ورقة ذات لون ذهبي أنيق في يده دون أن يُبالي بالسيارات المسرعة التي تسيرُ في الطريق وتكاد تلامسه، حتى إن السيارات كانت تمرق على بُعد سنتيمترات معدودةٍ إلى جواره، دون أن يعترض قائدو هذه السيارات أو يُطلقو آلاتَ التنبيه، لأنه ببساطة كان غير مرئي لهم، قبل أن يصلَ الشاب إلى الرصيف الفاصل بين الاتجاهين المتضادين للطريق، ويتطلع من فوقه إلى بنايةٍ ضخمةٍ ذات واجهةٍ زجاجيةٍ أنيقةٍ في دورها الأرضي مطعم شهير تابع لإحدى الشركات العالمية، وكلَّ دور منها يُقل شركةً كبرى، ثم نظر الشاب النوراني لأعلى متابعًا سقالة هيدروليكية تقف في الدور العشرين من الخارج، ويقف عليها عاملٌ يقوم بتنظيف الواجهة، مرتديًا الزي الرسمي لعمال نظافة المنوط بهم تنظيف المبنى.

وفي مكانه، نظر الشاب الوسيم للحبل الحديدي الممسك بالسقالة ثم راجع الورقة الذهبية التي في يده..

وفي تلك الأثناء في سطح البناية، حدث ماس كهربائي مفاجئ، واندلعت النيران لتمسك بالآلة التي تتحكم في السقالة، لتأكل النيران الحبل الحديدي للسقالة بينما ما زال العامل يقوم بتنظيف الواجهة الزجاجية دون أن يشعر هو أو أي إنسان آخر بما يحدث في السطح، إلا الشاب الوسيم الذي لمح النيران فابتسم ثم نزل من الرصيف ووقف في منتصف الطريق الذي تسير فوقه السيارات المسرعة، ثم تحول من طيفٍ غير مرئي إلى هيئة بشريةٍ ظاهرةٍ تجلت فجأة أمام إحدى السيارات الملاكي القادمة نحوه، لينتبه سائقها إلى الشاب الذي برز أمامه من العدم بغتة، فقام بتدوير عجلة القيادة إلى اليمين بسرعة في رد فعل تلقائي غير محسوب حتى يتفادى ذلك الغامض الذي برز من الفراغ، لكن انحرافته المفاجئة

كادت أن تصدم سيارة نقل ضخمة ثُقل في صندوقها أطنانًا من الرمال، فانحرف سائقُ النقل بدوره بعيدًا عن السيارة الملاكي التي كسرت عليه الطريق بشكلٍ مفاجئ، ليتفاداها ويفقد السيطرة على سيارته المسرعة التي اتجهت نحو مدخل البناية في نفس لحظة سقوط السقالة بعامل النظافة وهو يصرخ بقوةٍ متمسكًا بالسقالة وعلى ملامح وجهه أعتى ملامح الهول والفزع.

وحين أخذ الزبائن الجالسون على الموائد المجاورة لواجهة المطعم الكائن في الدور الأرضي يتقافزون في هلع في نفس لحظة اختراق السيارة النقل لواجهة المكان الزجاجية وتدميرها تمامًا، استقر صندوق السيارة النقل المكشوف أسفل السقالة المُحلقة في الهواء، قبل أن تسقط فوق الرمال ومعها عامل النظافة الذي اندفن جسده بفعل قوة السقطة، قبل أن يبرز بعدها بثوانٍ غارقًا في الرمال التي غطت هيئته وملامحه، ليضم إصبعي الإبهام والسبابة ويحركهما على صدره صانعًا صليبًا وهما وشفتاه تمجدان (يسوع) في صمت، في الوقت الذي غادر فيه الشاب الوسيم مبتعدًا عن الأحداث وجموع البشر الذين التفوا حول الحادث، مكتفيًا بالتطلع إلى الورقة التي في يده ليقرأ مهمته الجديدة، بينما أخذ قائد السيارة الملاكي يتلفت حول نفسه باحثًا عن الشاب الذي ظهر فجأة أمام سيارته، فاحصًا وجوه كل المحيطين به دون جدوى!

ومن جانبه سار الشاب في شوارع وطرقات متعددة في شتى بقاع الأرض، (نيويورك)، (بومباي)، (شنغهاي)، (طوكيو)، (استوكهولم)، (برلين)، (مارسيليا)، (بوخارست)، (مقديشيو)، وفي يده تلك الورقة الذهبية التي تحوي التكليف السماوي بإنقاذ البشر فقط مما لم يرد في صحائف أقدارهم، لتتعدد المواقف التي يظهر فيها الشاب في اللحظات الأخيرة ويكون أداة نجاة إلهية لا تدركها الأبصار، وانما تشعر بها الأرواح، وتحار حولها العقول، ثم تسجلها الذكريات والحكاوي في النهاية تحت بند "صدق أو لا تُصدق"!

* * *

في مجمع الأديان بمنطقة "مصر القديمة"، حيث تتعانق اليهودية والمسيحية والإسلام في تلك البقعة الروحانية التي تذوب على أعتابها جميع الاختلافات، وتحتضن – دون قصد من البشر – بين أروقتها

طقوسًا مختلفة لثلاث ديانات سماوية تتجسد في معبد يهودي، وكنائس، ومسجد شاءت الأقدار أن تتجاور.. وقف الشاب النوراني الوسيم في وضح النهار خفيًا عن عيون الزائرين المتوافدين على المكان، مستغرقًا في حالة فريدةٍ من الروحانية والقدسية النابعة من امتزاج صوت الأذان برنين أجراس الكنائس وصوت بوق الشوفار اليهودى إيذانًا بإقامة الصلوات الثلاث..

كانت روحُه الطاهرة شديدة التعلق بتلك البقعة المباركة، وكثيرًا ما تهفو إلى زيارتها والسبح في أجوائها ليضرب بأجنحته الهواء مُطلقًا نسائم الرحمة والقداسة وروائح المحبة على زوار المكان، فيغمض الجميع أعينهم ويأخذون نفسًا عميقًا محملا بعبق الملائكة التي لا تُدركها الأعين لكن الأرواح والأنفس تستشعر وجودها، غير أنه جاء في هذه المرة إلى مهمة جديدةٍ من مهامه المقدسة.

حام حول ما تبقى من حصن بابليون الروماني، قبل أن يُنصت إلى ذلك المرشد السياحي الشاب الذي يصاحب مجموعةً من الشباب المصريين الذين حرصوا على زيارة تلك المنطقة المهمة في بلادهم لاستكشافها، بدلًا من الجهل بها مثل باقي المواطنين الذين لا يعرفونها حق المعرفة رغم مجيء السائحين إليها من كل أنحاء العالم.

وسط الجمع، أشار المرشدُ السياحي الشاب لسور الحصن قائلا:

نحن الآن في منطقةٍ تاريخيةٍ نادرة الحدوث في العالم، تجمع بين آثار ودور عبادة إسلامية ومسيحية ويهودية، وتتجاور كل هذه الدور مع بعضها منذ قرون طويلةٍ، لتكون شاهدًا على طبيعة مصر النادرة، وخصوصيتها الفريدة التي حباها بها الله كدليلٍ على إمكانية تآخي الأديان والعقائد، ومعيشة معتنقيها جنبًا إلى جنبٍ في سلام..

يُحيط بالمنطقة كما ترون حصن بابليون الروماني، وهو الحصن الذي يُحيط جميع الكنائس، بالإضافة إلى المتحف القبطي والمعبد اليهودي، وعلى بعد أمتار يقع مسجد عمرو بن العاص، أول مسجد بُني في مصر وافريقيا، ورابع مسجد بُني في الإسلام بعد مساجد المدينة المنورة والبصرة والكوفة.

أنشئ حصن بابليون الأشبه بالحصون الرومانية التي كانت في أوروبا وشمال إفريقيا على يد الإمبراطور الروماني تراجان عام 98 ميلاديًا على نهر النيل عندما كان يمر من هنا، وأخذ اسمه من مدينة مصرية قديمة مجاورة له وهي بابليون، واستُعملت في بنائه أحجارٌ أُخذت من معابد فرعونية وأُكملت بالطوب الأحمر. ويتميز هذا الموقع بأنه يتوسط مصر بين الوجه البحري والوجه القبلي، لذا تم بناء حصن بابليون به للحماية العسكرية الرومانية ليكون خط الدفاع الأول لبوابة مصر الشرقية، ومن خلاله يُحكم الرومان السيطرة على أي ثورات تقوم ضد حُكمهم في الشمال أو الجنوب.

ثم تابع الشاب النوراني ببصره المرشد السياحي وهو يشير للشباب المصاحبين له فيتبعونه إلى حيث كنيس (بن عزرا) اليهودي، وعندما أصبحوا داخله، تأمل الشاب النوراني أرجاء المعبد شديدة الروعة والبهاء، واستشعر اللذة الروحانية التي حملها عبق المكان فيما أردف المرشد:

- يرجع تاريخ معبد بن عزرا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، حيث شيد لأول مرة، ثم تحوَّل إلى كنيسة عُرفت باسم كنيسة الشمَّاعين، وظلت هكذا حتى القرن التاسع الميلادي، حين أخذتها طائفة من المسيحيين اسمها اليعقوبيون، وقاموا ببيعها بسبب ضائقة مالية تعرَّضت لها الكنيسة الأرثوذكسية نتيجة لزيادة الضرائب التي فرضت عليها وقتها، فكان المشتري هو الحاخام اليهودي إبراهيم بن عيزرا، الذي قدم من القدس في فترة حكم أحمد بن طولون وحوَّلها إلى معبدٍ يهودي يحمل اسمه إلى الآن، وهو أقدم وأكبر المعابد اليهودية الباقية في مصر، ويحوي مكتبةً ضخمة تضُم كُتُبًا ودورياتٍ يهوديةً، تؤرخ لوجود اليهود في مصر، وتعود أهمية المعبد إلى الاعتقاد السائد لدى اليهود بأن سيدنا موسى عليه السلام كان يعبد الله في هذا المكان، وأنه دعا ربه بألا يبعثَ كوارث أخرى على مصر، فهناك عدة عبارات على الشاهد الرخامي باللغة العبرية بوسط المعبد توضح ذلك.

قالها وترك الشباب يمرون بأعينهم على الكلماتِ العبرية، وهم يتمنون التقاط صورٍ لها بهواتفهم المحمولة غير أنه كان ممنوعًا التصوير للأسف، قبل أن يشير المرشد الشاب إلى منتصف

المعبد ويستطرد:

- يتوسط المعبد أطلس سيدنا موسى عليه السلام، وهو يُسمى بصخرة المعجزة، وهو عبارةٌ عن شاهدٍ رخامي يحمل كتاباتٍ مُذهَّبةً، تشير إلى أن سيدنا موسى زار هذا المكان، وتعبَّد فيه، بينما رُدِّدَت بعض الأقاويل بأنه مكان رسو الصندوق الذي كان به سيدنا موسى حين ألقته والدته في قاربٍ صغير لينجو من أمر فرعون بقتل الأطفال، كما نجد البيما وهو يُشبه المنبر المخصص لخطبة الإمام عند المسلمين لكنه مصنوعٌ من الرخام، وكان يصعد عليه الحاخام لإلقاء الخطبة وقراءة أسفار التوراة، كما يوجد بالمعبد الجنيزة التي يُحفظ فيها التوراة، وكذلك المينوارة، وهي الشمعدان ذو السبعة فروع، وترمز إلى أسباط اليهود وأيام الأسبوع السبعة، بخلاف الشمعدان السداسي الذي يرمز إلى الأيام التي خلق فيها الله السماء والأرض، والشمعدان ذو الفروع التسعة التي ترمز لعيد حانوقا أحد الأعياد اليهودية، وينبع جمال المعبد في الثراء المعماري الداخلي له، الذي يُحاكي ثلاثة طرز، منها الإسلامية والتي تتجسد في تصميمات نوافذه والرسومات الموجودة على الجدران، ثم الطراز الكنائسي المتمثل في الأعمدة الاثني عشر، والتي ترمز لتلاميذ السيد المسيح، إضافة إلى الأجواء اليهودية كنجمة داود والهيكل، والنقوش التي تحوي الوصايا العشر.

بعد وصف المعبد اليهودي انتظر المرشد دقائق قليلة مسح فيها بعض الشباب أرجاء المعبد وفي أعينهم الدهشة والانبهار، في الوقت الذي جاء فيه وفدٌ سياحي أجنبي من خارج المكان، ثم غادر الشباب ومرشدهم المكان دون أن يشعروا بملاك الرب وهو يسير معهم حين اتجهوا يمينًا حيث تقع كنيسة القديسة (بربارة) ذات الطراز البازيلكي، وهو الطراز المتبع في الكنائس القديمة، بسقفها المصمم على شكل سفينة نوح، وقد سُميت بذلك تيمنًا بسيدةٍ كانت من أسرة ثرية وثنية، وبعد أن اعتنقت الدين المسيحي على يد العالم المصري (أوريجانس)، غضب عليها والدها وعذبها حتى الموت، ليشرح المرشد تفاصيل الكنيسة ثم يُغادرها متوجهًا إلى وسط الحصن الروماني حيث كنيسة (أبي سرجة)، التي نزل

إليها المرشد والفوج المصاحب له بواسطة درجات من السلالم الحجر
يتقدمها سياجٌ حديدي قائلًا:

- والآن أنتم في حضرة المكان الذي أقامت به العائلة المقدس
هربًا من وجه هيرودوس ملك اليهود، الذي أمر بقتل جمي
أطفال بيت لحم وفقًا لإنجيل متى.. فَبَعْدَمَا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْ
لَحْمِ الْوَاقِعَةِ فِي الْمِنْطَقَةِ الْيَهُودِيَّةِ بِعَهْدِ الْمَلِكِ هِيرُودُسَ، جَا
إِلَى أُورُشَلِيمَ بَعْضُ الْمَجُوسِ الْقَادِمِينَ مِنَ الشَّرْقِ يَسْأَلُونَ: أَيْ
هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَقَدْ رَأَيْنَا نَجْمَهُ طَالِعاً فِي الشَّرْقِ، فَجِئْ
لِنَسْجُدَ لَهُ. وَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ هِيرُودُسُ بِذلِكَ، اضْطَرَبَ وَاضْطَرَبَ
مَعَهُ أُورُشَلِيمُ كُلُّهَا، فَجَمَعَ إِلَيْهِ رُؤَسَاءَ كَهَنَةِ الْيَهُودِ وَكَتَبَتَ
جَمِيعاً، وَاسْتَفْسَرَ مِنْهُمْ أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ. فَأَجَابُوهُ: "فِي بَيْتِ لَ
بِالْيَهُودِيَّةِ"، فَاسْتَدْعَى هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرّاً، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَ
ظُهُورِ النَّجْمِ. ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ، وَقَالَ: "اذْهَبُوا وَابْحَثُ
جَيِّداً عَنِ الصَّبِيِّ. وَعِنْدَمَا تَجِدُونَهُ أَخْبِرُونِي، لأَذْهَبَ أَنَا أَيْضً
وَأَسْجُدَ لَهُ". فَلَمَّا سَمِعُوا مَا قَالَهُ الْمَلِكُ، مَضَوْا فِي سَبِيلِهِمْ. وَا
النَّجْمُ، الَّذِي سَبَقَ أَنْ رَأَوْهُ فِي الشَّرْقِ، يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَتَوَقَّ
فَوْقَ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ الصَّبِيُّ فِيهِ. فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَ
عَظِيماً جِدّاً؛ وَدَخَلُوا الْبَيْتَ فَوَجَدُوا الصَّبِيَّ مَعَ أُمِّهِ مَرْيَمَ. فَجَثَ
وَسَجَدُوا لَهُ، ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا، ذَهَباً وَبَخُوراً وَمُرّ
ثُمَّ أُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَلاَّ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، فَانْصَرَفُ
إِلَى بِلادِهِمْ فِي طَرِيقٍ أُخْرَى، وَبَعْدَمَا انْصَرَفَ الْمَجُوسُ، إِ
مَلاَكٌ مِنَ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ، وَقَالَ لَهُ: "قُمْ وَاهْرُبْ
بِالصَّبِيِّ وَأُمِّهِ إِلَى مِصْرَ، وَابْقَ فِيهَا إِلَى أَنْ آمُرَكَ بِالرُّجُوعِ، فَإِ
هِيرُودُسَ سَيَبْحَثُ عَنِ الصَّبِيِّ لِيَقْتُلَهُ".

وهكذا فرَّت السيدة مريم العذراء مع ابنها المسيح إلى مصر
ورافقها هي ومسيحها في رحلتهما القديس يوسف النجار ونف
من الملائكة، وحين جاءوا إلى مصر أقاموا في المغارة المقدس
الموجودة أسفل هذه الكنيسة، وكما تشاهدون يحتوي المكا
على عدة أيقونات ترجع للقرنين الخامس عشر والسادس عش

الميلاديين، منها صور لميلاد المسيح، والقديسين ديمتريوس
ومار جرجس، وصورة العشاء الأخير.

ارتسمت الدهشة والذهول على الوجوه، وشعر الشباب على اختلاف
دي اناتهم بحالةٍ عجيبةٍ من العشق والمحبة، حتى إن آذانهم استشعرت
تراتيل الحواريين وأناشيد الملائكة وغناء شعب الكنيسة في الليالي
المباركة، بينما واصل المرشد:

- وترجع تسمية الكنيسة إلى اسم قديسين لهما شهرة في تاريخ
الاستشهاد الديني المسيحي، وهما سرجيوس وواخيس، كما
توجد بئر المياه المقدسة بين ملحقات الكنيسة، حيث شربت منه
العائلة المقدسة، وما زالت مياهه المباركة تفيض حتى الآن.

وعلى بعد أمتارٍ قليلةٍ من كنيسة (أبي سرجة)، سار المرشد متقدمًا الفوج
المرافق وهو يواصل الشرح مشيرًا إلى الكنيسة المُعلَّقة:

- والآن، ها هي ذي الكنيسة المُعلَّقة التي تُعرف باسم كنيسة
العذراء، وهي من أعظم كنائس حصن بابليون، وسُميت بالمُعلَّقة
لأنها شُيدت على برجين من أبراج الحصن الروماني، حتى
تكون رمزًا لانتصار المسيحية على الطغيان الروماني وجبروته،
وما لا نستطيع أن نغفله، أنه في عام1671 ميلاديًا، أثبت
العالم فانسليب، الذي زار الكنيسة المُعلَّقة في عهد لويس الرابع
عشر ملك فرنسا، أن على أحد جدران الكنيسة حمل كتابات
بخط القائد العربي عمرو بن العاص، تتضمن وصيةً بعدم
التعرض لهذه الكنيسة بأي أذى.

ثم سار الجمع ليصلوا إلى دير (مارجرجس) للراهبات، وقد تصدَّر مدخله
تمثال محفورٌ على الحجر لـ(مار جرجس)، وهو يقتل التنين رمز الشر
بحربته، قبل أن يقول المرشد:

- وفي هذا الدير المقدس، يتردد الكثير من البشر، تبركًا منهم
بالشهيد مارجرجس، خاصة المصابين بأمراضٍ عصبيةٍ وعقليةٍ،
حيث يضعون حول أعناقهم السلسلة التي رُبِط بها مارجرجس
حول عنقه ولاقى عذابًا وأهوالًا شديدة لتحل بركته على السلسلة
وتصبح طاردةً للأرواح الشريرة.

ومع آخر حروف كلماته الأخيرة، تهافت الشباب على وضع السلسلة حول أعناقهم وأخذ البعض يلتقطون الصور التذكارية على هواتفهم المحمولة وهم يرتدونها مُلوِّحين بعلامات النصر وعلى وجوههم البسمة.

بعدها بدقائق كان المرشد والشباب المرافق له في ساحةِ مسجد (عمرو بن العاص) المُلَقَّب بتاج الجوامع دون أن يلمحوا طيف الشاب النوراني الذي سبقهم إلى المكان مُحلقًا في السماء بأجنحته الضخمة قبل أن ينزل وسطهم، فيما استطرد المرشد:

- وفي عام ٦٤١ ميلاديًّا، سقط حصن بابليون في يد القائد العربي عمرو بن العاص بعد حصار دام نحو سبعة أشهر، ليُخلِّص أهل مصر من ويلات الرومان الذين استعبدوا الشعب، وذلوا ناصيته، ونهبوا خيراته وتنعموا فيها وصدَّروا الجزء الأكبر منها لخزينة الدولة الرومانية، وكان سقوط الحصن إيذانًا بدخول الإسلام في مصر، حيث اختار ابن العاص منطقة شمال حصن بابليون الصحراوية بعد أن وجدها من الناحية العسكرية موقعًا استراتيجيًا ممتازًا، وأقام فيها مدينة الفسطاط فوق عدة تلال، لتكون مدينة للجند العرب، وبُنِيَ مسجد عمرو بن العاص عام ٢١ هجريًا، وشارك عدد من الصحابة في تصميمه وأهمهم أبوذر الغفاري، وكان المسجد في بداية الأمر يختلف كليًا عما هو عليه الآن، فكان سقفه من الجريد والطين ومحمولًا على أعمدةٍ من جزوع النخل وارتفاعه كان منخفضًا، ولم تكن به مآذن ولا أي نوع من أنواع الزخارف سواء في الداخل أو الخارج، وكان محراب الصلاة مسطحًا ومرسومًا على الحائط دون تجويف، ثم أُدخلت التجديدات والتوسعات على الجامع بعد ذلك على مرِّ العصور لتتوالى عملياتُ توسعة وتطوير المسجد، ومن أشهر من ألقى خطبًا فيه كان الإمام الشافعي والشيخ محمد الغزالي، واشتهر الجامع بحلقاتِ العلم، حيث كان مقصدًا للطلاب من شتى أنحاء الدولة الإسلامية و....

بوووووووووووووم

كان هذا صوت انفجار قنبلةٍ شديدة الفتك وضعها أحد الإرهابيين في ذلك الممر الذي يربط بين ساحة المسجد والكنائس القبطية بهدف

استهدافِ الوفد السياحي، في اللحظة التي احتضن فيها ملاك الرب القنبلة فور انفجارها ليحتوي شظاياها ولهيبها الهائل بين أجنحته دون أن يسمح لها بالتمدد الأفقي والحاق الضرر بالحاضرين، فيما اتسعت أعينُ الجميع وانخفضت أياديهم التي ارتفعت أمام وجوههم ببطء غير مستوعبين ما تشاهده أعينهم الجاحظة حين توجه عنف الانفجار في صورةِ لسان من اللهب امتد للسماء، وكأن حواجز من الزجاج المصفح وُضِعَت حول القنبلة وسمحت للناظرين برؤيتها دون أن يمتد ضررها إلى أي مخلوق.

وبعد أن أكمل الشاب النوراني مهمته، أخذ يتأمل ملامح البشر بحنق، متمنيًا أن يتذكروا نعمة الله عليهم ولو لنهاية اليوم، بعد أن اعتاد رؤية من ينقذهم من الهول والهلاك وهم يعودون إلى غَيِّهم واستكبارهم عن عبادة الله بعد نجاتهم بساعات!

"أحسنت"

قالها من خلفه صوتٌ عميقٌ تملأ الثقة والرزانة نبراته، ليلتفت الشاب النوراني إلى القائل الذي ميَّز هويته وفعلا كان هو..

رجلٌ يبدو وكأن النور يشع من وجهه وعينيه. يرتدي ملابس بيضاء فضفاضة واسعة، أكثر بريقًا من التي يرتديها الشاب النوراني، ليتضح من تحتها جسده الفارع الضخم الذي زاد من هيبته، وقد بدا في مكانةٍ أرقى وأعلى من مكانة الشاب الذي تأمل ملامحه في مهابة واحترام، قبل أن يقول باحترام وتبجيل وهو يصوِّب عينيْه إلى الأرض:

- شكرًا سيدي، ما فعلت إلا ما كُلِّفت به

ثم أخرج الشاب النوراني من طياته تلك الورقة الذهبية التي انتهى من تنفيذ تكليفاتها، ليناولها إلى رئيسه الذي التقطها منه وهو يتأمله ثواني أطال فيها النظر وهو يمسحه مسحًا، قبل أن يسأله:

- كيف حال أهل الأرض؟

أرسل الشاب النوراني نظره إلى حيث لسان النار الذي وصل إليه رجال الإطفاء ويُحاولون إخماده، فيما فرضت قوات الأمن كردونًا وهم يخلون



المكان من البشر، ثم أجاب بلهجة بدت ناقمةً رغمًا عنه:

- كما ترى يا سيدي.. يقول بنو آدم أحيانًا إن الصورة قد تُغني عن ألف كلمة، وهم في ذلك محقون.. حتى الأماكن المقدسة يطردون منها بركات الرب بالدنس والرجز، وأخشى من ذلك اليوم الذي لن يعُود في الأرض شبرٌ واحدٌ يصلح لبقائنا فيه

ثم احتدت كلماته كسيفٍ صارمٍ وهو يُردف:

- هؤلاء بني آدم من أغرب مخلوقات الله.. لديهم العقل القادر على التمييز بين الصواب والخطأ، لكنهم يعشقون السباحة ضد التيار.. يذهبون إلى البؤس والشقاء في طرقٍ وعرة مظلمة، يسيرون فيها حفاةً على الأشواك بمحض إرادتهم وأمام أعينهم طرق أخرى ممهدة بنعومة الحرير، وفي نهاياتها يسطع الضياء.

لا تملأ الكنوز أعينهم ما دامت في أياديهم، ويعشقون السير في جنح الليل للبحث عن اللمم والصغائر ذات الروائح العفنة التي تزكم الأنوف، ورغم ذلك يبذلون من أجلها الغالي والرخيص.

عقولهم تستصعب السهل، ورغباتهم وشهواتهم مغناطيس لا ينجذب إلا لما هو وضيع، وأينما حل الخطأ والخطيئة يحتشدون. وعلى الرغم من أن الله تبارك وتعالى قد جعل لهم كونه الفسيح آياتٍ محكماتٍ ليتدبروا ويتأملوا، إلا أنهم يُحجمون عن المعرفة والتأمل، وينغمسون في المجاهل والملذات الزائلة، صانعين من أنفسهم آية لقومنا تزيدنا هُدى على هدى، وتجري على ألسنتنا المحامد والمشاكر على أننا لم نُخلَق من نسل آدمهم.

لقد خُلقوا للتعاسة والشقاء، وجعلوا من الألم صنمًا يعبدونه من

أجل الفوز بجنةٍ تجري من تحتها الدموع!

ابتسم رئيسُه وهو يناوله ورقةً ذهبيةً جديدةً قائلًا:

- هذه طبيعتهم التي جُبلوا عليها، منذ أن عرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها

وحملها الإنسان الظلوم الجهول.

استلم الملاك النوراني الورقة واستطرد:

- مع كل مرة أؤدي فيها مهمةً جديدةً يزداد يقيني أني كنتُ على صوابٍ حين قلتُ مع من قالوا "أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء.. ونحن نُسبح بحمدك ونقدس لك"*

رفع رئيسُه سبابته بحزمٍ وصرامةٍ مستطردًا:

- "قال إني أعلم ما لا تعلمون".. لا تنس إجابة الرحمن حينها

في لهجةٍ أقرب للتحدي قال الشاب النوراني:

- لكن هذا لا يمنع أنه قد شرع لنا السؤال.. لذا أتساءل طوال الوقت: كيف يصبرُ الرب على كل خطاياهم وذنوبهم التي تفاقمت وتخطت كبائر الأمم التي أهلكناها من قبل؟ إنه لا يصبر عليهم فحسب؛ بل يسخر نفرٌ منا لحمايتهم وانقاذهم رغم كل الجرائم والآثام والذنوب والحروب التي لا تتوقف بينهم.. لماذا أهلكنا من كانوا هم أقل منهم في الخطايا إذن؟

عادت الابتسامة لتملأ ملامح رئيسه وهو يُجيبه:

- دعوت الله أن تكونَ من ملائكة العذاب وشفع لك جبرائيل فكنت، ودعيته أن يجعلك من الحفظة واستجاب.. وفي الحالتين لا أراك إلا ناقمًا.

سرح الشاب الوسيم في الكلام، وحارت على شفتيْه الكلمات للحظاتٍ، ثم قال ببطءٍ ممزوج بالحزن:

- ليتني ظللت أعذبهم ولم أتعاطف معهم.. مع كل واقعة عذاب كنت أظن أن الهول الذي أسوقه إليهم سيكون عبرةً رادعةً لكل من تُسوِّل له نفسُه في الأزمان التالية، لكنهم كانوا يزدادون فسقًا وفجورًا عصرًا بعد عصر.

---

* القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم 30



(4)

حضر ملاكُ الرب واقعة غرق فرعون (موسى) وجنوده، حين شقت عصا (موسى) البحر وعبر كليم الله وأتباعه بخير، قبل أن يقع فرعون وجنده في الفخ الإلهي حين عاد البحر إلى طبيعته وغشت أمواجُه فرعون وجنوده، ليتلقوا في لحظات الغرق والنزع الأخير انتقام ملائكة العذاب وبطشهم.

(جبرائيل) تولى أمر فرعون، بينما انطلق الشاب الملائكي يبطش ويدمر الجند الهالكين في عرض البحر، بعد أن عبدوا فرعونهم من دون الله، واستبدلوا عبادة الخالق بعبادة المخلوق أملًا في مُلكٍ زائلٍ، وخيراتٍ لن تدوم.

حضر أعتى المواقف في تاريخ الجنس البشري، وكان في كثيرٍ من الأحيان عنصرًا فعالًا وسلاحًا غليظًا من أدوات انتقام الرب.

وبعد أن حضر وقائع عديدة انتصر فيها مع أقرانه من الملائكة لكلمة الحق، وفتكوا بأعداء الرب وأعداء أنبيائه وأوليائه، لم يصدق الملاك النوراني الجميل نفسه وهو يتلقى أول مهمة يُوكل بها وحده.. وكانت تلك المهمة ضد جيش (سنحاريب)*.
ميزان القوى في ذلك الوقت كانت تتصارع على كفتيه 4 ممالك..

* سنحاريب: هو ابن الملك سرجون حاكم مملكة (آشور)، وقائد جيوشه، قبل أن يتولى الحكم بعد مقتل أبيه، ليصبح أحد أقوى ملوك (آشور) عبر التاريخ، وكان ملكًا وثنيا لا يؤمن بالله، وعُرف عنه قوته وجبروته الذي هدد الأمم والممالك المجاورة له، نظرًا لجيوشه الجرارة، وقدرته على غزو البلاد وبسط سلطانه عليها وإخماد أي ثورات ضده.

المملكة الجنوبية (يهوذا)* وعاصمتها (أورشليم)، والمملكة الشمالية وعاصمتها (إسرائيل) وكانت تتبع إمبراطورية (آشور) بعد أن اجتاحها وأمرها الملك (سنحاريب) بجيوشه الجرارة، بخلاف (مصر)، و(بابل)..

وحين حاصر جيش الملك (سنحاريب) الوثني مملكة (يهوذا) وأراد إخضاع أهلها له وإجبارهم على عبادة أوثانه، أرسل مع رسله رسالة يسخر فيها من الله قيوم السماوات، وقدوس الجنود الذي يعبده أهل البلدة، فأخذ (حزقيا) ملك (يهوذا) رسالة (سنحاريب) ثم صعد إلى هيكل (سليمان)، وهناك مزق ثيابه، ولبس المسوح ليستشعر الذل والخضوع لربه، وبعث رُسُلًا إلى نبي الله (إشعياء)، أخبروه أن الملك يطلب منه الصلاة من أجله ومن أجل تمجيد اسم الرب في تلك اللحظات العصيبة التي تسبق مواجهة جيش لا قِبل لهم به، ونشر الملك (حزقيا) رسالة (سنحاريب) الساخرة المستهزئة من الرب في الهيكل ثم صلى طلبًا للمدد في اللحظات الأخيرة قبل قدوم الهلاك.

وحين أخلص (حزقيا) في صلاته، وسقطت الحواجز المادية واختبأت روحه الخائفة في روح الله، جاءت إجابة السماء سريعًا، وأوحى الله إلى (إشعياء):

- **أني سمعتُ دعاء حزقيا، فامضِ إليه وقل له: يقول لك الرب إله إسرائيل الليلة سينجيك من سنحاريب**

وفي السماء، استقبل الملك النوراني الوسيم مهمته الجديدة تجاه جيش (سنحاريب)..

* بعد وفاة نبي الله (سليمان) انقسمت مملكة إسرائيل الموحدة التي أسسها (شاول) واسمه (طالوت) في العقيدة الإسلامية ومن بعده (داوود) وضمت أسباط اليهود إلى مملكتين.. مملكة (يهوذا) بالجنوب وكان من ضمنها بلدة (أورشليم) التي ضمت هيكل (سليمان) وكانت المركز الديني لبني إسرائيل، ومملكة (إسرائيل) بالشمال، واستمر القتال بينهما لفترةٍ طويلةٍ رغم إحاطة الأعداء بهما من الآشوريين والبابليين، وخلال قتال بني إسرائيل في المملكتين الجنوبية والشمالية، نسوا وتناسوا وصايا الأنبياء، وأعراف ومواثيق السماء التي تُحدد شكل عبادتهم وخضوعهم للرب، ففجروا وكفروا، حتى اختار الله نبيه (إشعياء) بن (آموص) لتصحيح الأوضاع المقلوبة.

«لقد تطاول صاحب المُلك الزائل والقلب البائس على قيوم الوجود، وباعث الكون من العدم.. لا يستحق سوى إشارة خفية تتجلى فيها حقيقة جيشه الضعيف، على يد ضربة من أحد جنود الرب الأرقى من عقاب هذا الفاني بيده.. الليلة يُدرك الفارق بين إله إسرائيل وآلهة ظن أنه سحقها وتسيد على أتباعها في حروبه السابقة ضد أمم وثنية مثله.. فليهلك جيشه، وينكسر عرشه، ويبقى في عين العبيد مثلهم وحيدًا شريدًا ما بقي له من العمر، بلا جنود أو سلطان»

لا يهم من القائل، فقد أُلقيت تلك الكلماتُ إلى الشاب النوراني في عالم المعاني، حيث يصل المراد إلى الذات بلا لغة أو وسيط، فيصبح يقينًا في القلب واجب التنفيذ..

وسهر جنود (سنحاريب) في تلك الليلة الليلاء يسكرون ويُعربدون في حصار قوي ومحكم حول المدينة المقدسة (أورشليم) في مملكة (يهوذا) الحبيسة بين المطرقة والسندان، ليقهقهوا على نكاتٍ رخيصة، ويتفاخروا بما سيصنعونه في تلك المملكة المقدسة بعد اقتحامها، قبل أن تهب عليهم عاصفةٌ رهيبةٌ، ويدوي صوتٌ هائل اخترق آذانهم، ثم حدثت مفاجأة عظيمة ظنوا وهم يُشاهدونها أنها حتما مجرد خيال بعدما تلاعبت الخمر برؤوسهم!

فقد أنارت السماء بوجه ملاك الرب الذي ملأ صفحتها الواسعة، لينظر الجنودُ إلى أعلى وقد وجِلت قلوبُهم وانتفضت أجسادهم المذعورة التي فقدت القدرة على الحركة ليبقوا في أماكنهم كعجزة عديمي الحراك، ثم هبط عليهم الطيف النوراني في هيئته وحجمه الحقيقي ليخفق بأجنحته الستة، وتطير مع عاصفته الشديدة دروعهم وأسلحتهم والخوذ التي يرتدونها، ليعبث الهواء بشعر رؤوسهم ويرسم بقوة حركته تموجاتٍ على ملامح وجوههم البائسة التي كاد جلدها أن ينفصل عن الجماجم من شدة الرياح، فيما اختلط بصوت العاصفة أصوات صراخهم وهم يتطلعون إليه في هول وهلع بعيون متسعة، فيما ألقى ملاك الرب كلماته ببطء وصوت عميق اخترق الحواس، ووقر في القلوب، بينما ما زالت صفافير العاصفة تضرب مواضع السمع عند الجنود وتعمل كخلفيةٍ للحديث الدائر من طرف واحد:

- الآن تتكشف عن أعينكم الحُجُب بعد أن أينع الحصاد لأعماركم

الفانية، التي استخدمتموها في مبارزة الرب بحثًا عن مجدٍ زائف، وخيراتٍ لم تنلها يدُ الإنس إلا بأمره، فمن يدرأ عنكم النهاية ويحول بينكم وبين مصيركم البائس وأنتم على مشارف اللحاق بمن سبقوكم إلى الجحيم؟

قالها وهو يلقي حفنة من التراب أخذتها العاصفة ونثرتها في الهواء لتلتقطها أنفاسهم المتسارعة، دون أن يدركوا أن تلك الحفنة لا تحوي إلا وباءً فتاكًا قرر الرب إرساله مع جندي واحد فقط من جنوده، لتدرك الأمم الفارق بين جنود الطغاة وجندي واحد من أهل السماء.

وفي لحظاتٍ معدودةٍ تفشت الحمى في أجساد الجنود، لتنتشر فيها السخونة الشديدة، في الوقت الذي أخذوا يخرجون فيه ما في أجوافهم مع القيء الشديد الذي اعتصر أمعاءهم وأخرج كل ما فيها دون أن يُبقي حتى على العصارة الهضمية الصفراء، لتخيم على المكان الروائح القذرة، وتخور الأجساد العتية وتنهار كثورٍ مذبوحٍ ترتعد فرائصه في لحظات الاحتضار.

ومع حلول الصباح اقتحم قائد حرس الملك خيمة (سنحاريب) ليصيح فيه مذعورًا:

- النجدة يا سيدي!

عقد (سنحاريب) حاجبيْه وتساءل في توترٍ سرَى في جسده مع ملامح الرجل ونبرته المرتعدة:

- ماذا هناك؟

- لقد.. لقد صرع ملاك الرب ١٨٥ ألف جندي من جنودنا وصرنا كشمعةٍ في مهب الريح على أبواب أورشليم.. حتى قائد الجيوش نفسه هلك مع من هلكوا.

- هل أصابك مسٌ من الجنون يا رجل.. عن أي ملاك تتحدث؟

- إنها الكلمات الأخيرة التي استخلصتها من آخر جندي فارق الحياة.. فلتصحبني إلى الخارج وتُعاين المشهد بنفسك سيدي.. رجالنا يفترشون الأرض وكأنه حقل من العطايا.. لم يعد هناك

جيش نثير به الرعب في قلوب الأمم، وسرعان ما سينتشر الخبر لنصبح فريسة الممالك المحدقة بنا وتتأهب للانتقام مما فعلناه بهم في الأمس.

وحين ذهب (سنحاريب) مع قائد حرسه إلى حيث لقي الجيش حتفه، أدرك متأخرًا أن لـ (أورشليم) ربًا يحميها بحق، ليلقي سؤالا يائسًا في لحظة الانكسار: إلى أين أهرب وقد بارزت إلهًا ظننته أكذوبة من صنع الملوك فإذا به حقيقي ويقف في صف أعدائي؟

لكن (سنحاريب) لم يتلق الإجابة وقتها، حتى رحل مع من بقي لديه من رجال، يجرون خلفهم أذيال الخيبة والعار، ليمضي ما بقي من عمره ذليلًا مكسورًا، ثم أدرك الإجابة فقط وهو يُقتل على يد ابنه (تدين) الذي تحالف مع أعداء أبيه، مقابل أن يجلس على العرش!

وفي (أورشليم) احتفل (حزقيا) مع (إشعياء) النبي وباقي الجموع بتحقيق الرب لكلمته، وتنفيذ وعده، وأعطى الله لـ(حزقيا) علامة مجيدة لينزع عنه الرعب من المصاعب التي حلت عليه بسبب غزو (سنحاريب)، فكان العدو قد استولى على الحصاد حتى لم تبق بذورًا للزرع، الأمر الذي يقود إلى حدوث مجاعة أو على الأقل عجز في الطعام، فإذا بالزرع يخرج في تلك السنة دون حاجة إلى بذور، وهكذا في السنة التالية، وفي السنة الثالثة استرد الشعب طاقته، وعادت الأرض إلى ناموس الرب الذي عطله عامين خرق فيها الطبيعة من أجل من آمنوا به واختبأوا في ذاته، وكأن الله يعمل معهم عجبًا ما داموا عاجزين وإمكانياتهم معدمة، حتى متى صاروا في وضعهم الطبيعي عاد لكل شيء نصابه الصحيح.

لكن الأمور ما كانت لتسير في الأرض على نسق واحد مهما طال الزمن، ليموت (حزقيا) ويخلفه ابنه (منسي) وهو ابن 12 عامًا، دون أن يشتد ساعده، أو يمهله القدر لينهل من حكمة أبيه، وقوته، وتعليمه، وإرشاده، فتزعزعت عقليته وتلوثت بهيلمان المُلك حيث لم يشرب السُلطة بشكل صحيح، فسار (منسي) في الاتجاه المضاد لأبيه على طول الخط، فما بناه الأب هدمه الابن، وما هدمه الأب بناه الابن، وما رآه الأب حكمة رآه الابن الجهالة بعينها، حتى ارتمى في أحضان الأوثان مجددًا، وفجر ونكص على عقبيه في عكس اتجاه تعاليم ووصايا الإله.

وهنا، جاء دور (إشعياء) الذي صار في الثمانين من عمره، ووهنت عظامه واشتعل الرأس منه شيبًا، لكن الكهولة وخوار قوة الجسد ما كانت لتحول نبيًا عن التراجع عما كُلف به من الرب، فجاءت لحظة الصدام بين (إشعياء) و(منسي) لتنتهي بأغرب وأسرع مما توقعه البشر، في لحظة استشهاد (إشعياء) حين أمر (منسي) بنشر جسده العجوز البالي على جذع شجرة، لتودع (أورشليم) أعظم أنبياء العهد القديم قاطبة، ويفقد أهلها أعظم من تفوّه لسانه بكلمات ليست كالكلمات، ومفردات وبلاغة كانت تنفذ إلى العقول والقلوب عبر تعاليم الإله التي صاغها في أشعار عبرية راقية مُعجِزة، ليكون نبيًا بدرجة أديب، ومستشار سياسي، ومصلح اجتماعي، اجتمعت فيه الحكمة، والبلاغة، والحنكة السياسية، وقارئًا لصفحة الغيب بأمر ربه، فتنبأ في سفر نبوءاته بوقائع وأحداث كان ذكرها كفيلا بتحقيقها حرفيًا مهما طالت الأيام ومضت السنون، حتى حقّت كلمة الله على شعب (أورشليم) حين قست قلوبهم وكفروا بنعم الرب وخالفوا تعاليمه ووصاياه، فاجتاح (نبوخذ نصّر) ملك (بابل) بجيشه الهائل أرض المدينة، وساق الشعب والأسرة الحاكمة عبيدًا وجواري إلى (بابل)، لتتحقق نبوءة (إشعياء) حين حذّر (حزقيا) مما سيفعله البابليون بشعب (أورشليم) ذات يوم، وتبقت في الأفق نبوءة انتظرتها البشرية طويلا، حول ميلاد السيد المسيح المنتظر.

ومع استشهاد (إشعياء) بكى الملاك النوراني كما لم يبك من قبل. بلغ نحيبه أفاق الكون دون أن يملك التنفيس عن الجحيم المستعر في أعماقه.. تمنى لو فعل ما فعله (جبرائيل) بقوم (لوط) حين انتسف القرى من أعماقها وقلبَها رأسًا على عقب، لكن وحي الله هدأ من روعه وثبّت جنانه حين ألقيت المعاني في قلبه أن تكريم الصالحين ليس شرطًا أن يكون دائمًا بنصرهم وسحق الأعادي، وأن ظلم بعضهم وقتله يكون أحيانًا أرقى من الانتصار، ليبقوا في الأسفار والمزامير والصحف آياتٍ مضيئةً للبشر في مسار الزمن الحالك، حتى يُعلموا المؤمنين الصبر والثبات، ويحل بظلمهم وقتلهم على الأمم ما تستحق، فتصل لأسلافهم دروسًا تحتاج البشرية إلى أن تتعلمها من الظلم، كنفس حاجتهم للدروس المستفادة من العدل وانتصار الحق!

وبعيدًا عن وقائع لم تذكرها التوراة ولا الأسفار ولا المصاحف ولا الأناجيل، هبط الطيف النوراني في وقائع ومواقف كثيرة للانتقام والردع بكل حزم

وصرامةٍ.. بعضها كان انتقامًا لأنبياء ورسل قتلهم بنو إسرائيل ودُفنت مَعهُم قصصهم في قبر التاريخ الخفي الذي لم تصل إليه علوم بني (آدم) ولا أسماعهم، والبعض الثاني في مواقف إنسانية لبشر عاديين تعرَّضوا للظلم وارتفعت أياديهم للسماء في لحظة يأس، فإذا بالأمل يأتي بأسرع مما يتوقعون، قبل أن ينسوا ويتناسوا ما رأت أعينهم، ويتحولوا مع مرور الوقت من مظلومين إلى ظَلَمة وظالمين!

ومن واقعة إلى واقعة، ومن عصر إلى عصر، راح الملاك الوسيم وجندي الرب يزاور أهل الأرض ويُحقق غايته في الانتقام والبطش من المجرمين المتجبرين بأوامر إلهية، دون أن يعرف الملل أو الروتين إلى حواسه وقلبه سبيلا مهما طالت السنين وتوالت الأعوام وتكررت الأفعال.

وقبل ميلاد السيد (المسيح) هبط الملاك الوسيم مع زمرة (جبرائيل) ليبشر رعاة الأغنام بمولد كلمة الله وروحه القدس لتنشد جنبات الكون أنشودة الترحاب، ويحين موعد تحقيق نبوءة (إشعياء) بمولد ابن العذراء التي لم يمسسها بشر بعد مرور ثماني قرون على نبوءاته التي لا تخيب، وفي تلك الأثناء، كانت السماء على موعد مع أمر جللٍ احتشد له الجند السماوي في واحدةٍ من أضخم ملاحم الكون التي لم يشهدها بشر..

وقف ملاك الرب النوراني ضمن الجموع يتلقون تعليماتٍ عملية (الرَّقّ المنشور)، التي سيشنونها على "الأرواح النجسة"..

فقبل خلق (آدم) لم تكن المكانة العلية حكرًا على الملائكة النورانيين فقط، بل نال شرف التقديس والقرب من ذات الله بعض الأرواح النارية ذات القوة المفرطة التي عبدت الله حق عبادته، فارتقت وسمت، قبل أن تغار من عظمة قيوم السماوات ومجده العالي فوق الكواكب والأكوان، فقال أحدها في قلبه: أصعد إلى السماوات أرفع كرسي فوق كواكب الله فأصير مثل العليِّ، فانحدر إلى الهاوية وتنجست مقادسه، وأخذ معه طغمة من تلك الأرواح التي صارت على نهجه واتبعته، ليُحدث صراعًا بين تلك الأرواح النارية التي صارت نجسة وملائكة الله النورانيين، حتى انتهى الأمر بطرح عدد هائل من هذه الأرواح في سلاسل الظلام الأبدي وتسليمها للقضاء تمهيدًا لمحاسبتها يوم الدينونة، فيما دأبت الأرواح الناجية على مزاورة السماء من حين لآخر والتجسس على الملأ الأعلى والاستماع إلى ما يُمليه الرب على ملائكته لمعرفة أسرار الكون والإنسان

من أمور تُوشك على الحدوث، من موت، أو ميلاد، أو رزق، أو معارك، ونقل تلك الأسرار إلى السحرة والكهان ليفشوها بلهجة العارفين بالغيب، وسط الجموع والحشود من البشر، ليكتسبوا القداسة الزائفة في نفوس الضعفاء والعوام لا سيما حين تتحقق نبوءاتهم وتصير واقعًا.

لكن تلك الأرواح النجسة سئمت التنصت لحساب شياطين الإنس، وقرروا اللعب لحسابهم في خطة أطلقوا عليها (يوم القيامة)!

باختصار سيستغلون ما تصل إليه مسامعهم في الملأ الأعلى، وينتحلون صفة أنبياء في شتى ربوع الأرض ليبهروا البشر بأسرار وخفايا يكشفونها وسط الجموع في النوادي والأسواق والمجالس، ثم يضيفون إليها قدراتهم الهائلة وتصويرها على أنها معجزات وتأييد سماوي من الخالق حتى يحشدوا البشرية خلفهم، وحين يصير لهم أتباعٌ سيُطلقون التحذير من مدعين سينتحلون صفة الأنبياء والمرسلين ليضلوهم عن سبيل الله، حتى يسدوا الأسماع ويصرفوا العقول عن الإيمان بالرسل والأنبياء الحقيقيين الذين سيكونون في أنظار الناس مجرد كاذبين محتالين بعد أن يتم تدمير مصداقيتهم قبل بعثتهم، حتى يتم نشر الكفر ومبارزة الخالق ويُقضى على الإيمان في قلوب العالمين، فتحل اللعنة على الكوكب بمن فيه وتقوم قيامته بعد أن يصير إصلاحُه أمرًا مستحيلا!

كل هذه المعلومات تلقاها ملاك الرب النوراني مع جنود السماء في لحظات الاستعداد لملاقاة الأرواح النجسة والهجوم عليها أثناء صعودها إلى السماوات لإفساد مخططها..

وصعدت الأرواح النارية النجسة بالفعل في حشود هائلة لاستراق السمع من الملأ الأعلى ليجدوا الملائكة في انتظارهم عند السماء الأولى، ولم يكن هناك بد من المواجهة..

حربٌ كونيةٌ جبارة دارت رحاها في السماوات العلا، لا يستطيع وصفها والحديث عنها أبلغ أهل الأرض فصاحة مهما تفتقت قريحته عن إبداع في الوصف والتصوير، لتتقصها فقط أصوات الهمهمات وأوتار الكمان والفيولا وسحر الساكس والفلوت ودقات الطبول لتكون ملحمة أسطورية جديرة بالتدوين في موسوعة الأساطير الخالدة والملاحم الكونية التي لم تصل لأسماع البشر.

لم تكن تلك الأرواح النارية بالسهولة حتى وإن كانت في مواجهة ملائكة أولي بأس شديد.. لذا اندلعت النيران عند المواجهة وأنارت السماوات بلهيب هائل وشرر يتطاير في كل مكان..

المخلوقات النارية أخذت تقذف حممها وتخلق حول نفسها جحيمًا مستعرًا يحول بينها وبين الملائكة، وجنود السماء أرسلوا موجات من البرق والعواصف، وخفقت أجنحتهم بشدة لإطفاء جحيم الأرواح النجسة، قبل أن تهبط من السماء السابعة ملائكة تحمل قذائف من جهنم انطلقت معها صيحاتُ وصرخاتُ المخلوقات النارية، ليبدأوا في التقهقر والتراجع ناكصين على أعقابهم باحثين عن خروج آمن من المعركة، لتنقض الملائكة على فلول الهاربين وتقبض عليهم في الوقت الذي فرَّ فيه البعض عبر دروب الكون ليختبئوا في الكواكب والنجوم..

ووسط كل ذلك انطلق صاحبنا ملاك الرب النوراني نحو أحد الأرواح الهائلة دون أن يدري أن هذا المخلوق لم يكن سوى ابن القائد الذي أعده والده لانتحال دور الإله حين تنجح الخطة!

وبسرعة فاقت سرعة الضوء فرَّ ابن القائد مارقًا بين الكواكب والنجوم، وخلفه ملاك الرب النوراني الوسيم، الذي فرد أجنحته وهمَّ أن يطبقها عليه، لكن ابن القائد فلت في اللحظة الأخيرة ليخترق الغلاف الجوي للأرض وخلفه جندي الرب لتتقارب المسافة بينهما، وحين شارفت أن تذوب فوجيء ملاك الرب النوراني بصوت فحيح يأتيه من خلفه ليلتفت بسرعة البرق فإذا بالقائد نفسه ينقض عليه لإنقاذ ولده، فاستقبله جندي السماء وأحاطه بأجنحته ثم توهج جسده بنور ساطع، أجبر قائد الأرواح النجسة على إطلاق أعتى موجات الألم ليستسلم ويقع في الأسر، وحين عاد الملاك النوراني الوسيم ينظر حيث ترك ابن القائد كان قد اختفى تمامًا تاركًا خلفه رسالة مكتوبة على الأرض بالنيران، وبلغة لا تمت إلى اللغات البشرية بصلة على الإطلاق جاء فيها:

- في يوم مثل هذا، سنلتقي مجددًا يا ابن النور.. لكنك ستكون الطرفَ المهزوم الخاضع لسلطاني لتدرك أن النار لا يمكن هزيمتها أبدًا.

وانطوت صفحة الصراع مؤقتًا بعد نجاح عملية (الرَّق المَنشور)، وإيداع

تم القبض عليهم من الأرواح النجسة في سلاسل الظلام في ليلة ميلاد السيد (المسيح)، فيما تم تشفير الملأ الأعلى بإغلاق آخر ٣ سماوات لعدم وصول المخلوقات النارية إليها والتنصت على حديث الرب مع ملائكته مجددًا..

يوم ميلاد ابن العذراء، وجد جندي الرب نفسه أمام نموذج نادر فاق الملائكة في أخلاقهم وقدراتهم اللا محدودة..

منذ ميلاده المعجز لم يكف عن إدهاش البشر بأعاجيبه وقدراته الفائقة..

تكلم في المهد وحاجج بني إسرائيل فأظهر عجزهم وكسر أنوفهم..

أحيا الموتى، وأبرأ الأعمى والأبرص، وحلت بركاته على المحاصيل..

قابل إساءات البشر بالإحسان، وأمر أتباعه بتنفيذ تعاليم لم تعهدها البشرية من قبل:

من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر..

أحبوا أعداءَكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مُبغِضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئُون إليكم ويطردونكم..

حتى حين تكالبت عليه اليهود، واتهموه بالسحر، ورموا أمه العذراء المظلومة بالزنا، وكادوا له المكائد، ظل شغله الشاغل فقط هو تخليص البشرية من الذنوب والخطايا ليطهر الأرواح من النجس، والقلوب من الدنس، ويعمل عقل بني الإنسان في محل عمله بعد أن صار عبدًا للشهوات ووساوس الشيطان..

لم يجد ملاك الرب تكليفًا بتوقيع العذاب على أحد، وقد فاضت السماحة من قلب (المسيح) فطغت على المشهد، وعمت أرجاء البسيطة حيث لا مكان للانتقام والبطش وتدخل الملائكة..

عندها تعلم ملاك الرب النوراني كيف يمكن أن تحقق مخلوقات الله بالحب والرحمة ما لم يحققه العنف والبطش والانتقام..

تعلم كيف ينتصر الضعف والصبر على الجبروت والطغيان..

وحين لاحت لحظة الصلب التاريخية، فوجيء ملاك الرب بابن النا[illegible] واقفًا إلى جوار الصليب ليطلق أقوى وأعلى ضحكاته التي تردد صدا[illegible] في أرجاء الكوكب، لينشر بعدها بخبثه ودهائه حالة من البلبلة بين البشر ما بين مؤيدٍ ومعارض لواقعة الصلب، وحين همَّ جندي الرب أن يتحرك لردع صاحب الروح النارية النجسة وطرحه في سلاسل الظلا[illegible] الأبدي ليلحق بأسلافه، جاءه الأمر من السماء بالكف عنه، وتركه إلى يومٍ معلوم..

وصعد (المسيح) إلى السماء تاركًا خلفه أسطورة حية فاقت الخيال ليرويها من بعده تلامذته الذين لاقوا الويلات وثابروا من أجل استمرار الرسالة المقدسة، ثم اضطلع بالتبشير بها ونشرها قديسون وآباء سار[illegible] على النهج، ووهبوا أنفسهم للعذاب والهلاك أملًا في الخلاص، لتتداو[illegible] البشرية تعاليم ومعجزات قلما جاد الزمان بمثلها.

وحين تم إلقاء محبي (المسيح) وأتباعه إلى الأسود الجائعة من الملو[illegible] الظالمين، لم يجد الملاك الوسيم من يطلب من الرب المعونة، و[illegible] قدَّموا أجسادهم الفانية قربانًا وطواعية إلى نور الحق، لتخلد أرواحهم في السماوات العُلا أمام عرش السر الخفي، فحانت لحظة الدهشة والانبهار من ملائكة الرب نحو مثابرة وقوة بعض أهل الأرض، بعد أن كان الجهل والحماقة والغرور هي الصفات الغالبة التي تصدر عنهم نحو السماء.

حينها أخذ الملاك النوراني، يصلي إلى الله، ويمجد اسمه، ويتوسل إليه أن يعفيه من مهامه في الانتقام من البشر والبطش بهم، ليندهش من نفسه حين وجد ذاته تتضرع إلى الله ويطلب بلسانه –بلا وعي– من الرب أن يجعله من الملائكة الحفظة، ليذود عن أنصار (المسيح) وأتباعه!

توقف ملاك الرب عن عذاب البشر والبطش بهم، بعد أن تأثر بـ(المسيح) وتعلَّم من أخلاقه في سنوات قليلة من عمر البشر ما لم يتعلمه طوال عمره على مدار ملايين السنين في حياة الملائكة، ليدرك كيف يعذر ويصبر، ويمهل، لتأتيه الإجابة والبشرى من الملأ الأعلى حين أخبره أحد أكابر السماء أنه انتقل فعليا من طائفة ملائكة العذاب إلى قائمة

الملائكة الحفظة الذين يمرقون من السماوات العلا لإنقاذ أبناء (آدم) من الهلاك.

وبالفعل، أخذ يقتحم أقفاص الأسود الذين يتم إلقاء المسيحيين فيها ليدفع أفواه السباع الجائعة، ويحرم مخالبهم المفترسة وأنيابهم الضارية على أجساد المؤمنين الذي انبهروا حين ركعت أمامهم الأسود وتحولت إلى حملان أليفة منزوعة الشراسة والافتراس، وأخذوا يرددون الابتهالات لرب المجد وهم يشعرون بعبق الملائكة حولهم حتى وإن لم تتبين ملامحهم الأعين، وحالت دون رؤيتهم حُجُب الغيب.

غاص في الآبار التي تم إلقاء العبيد فيها وأنقذهم، وتدخل في اللحظات الأخيرة ليخرج أنصار ابن العذراء من الحُفَر المليئة بالحيات والأفاعي بعد أن ألقى عليها الجمود والسبات، ومنعها من إطلاق السموم وغرس الأنياب في أجساد القديسين والأتباع الصالحين.

لكن دهشة الملائكة لم تقف عند صمود أتباع (المسيح)، وامتدت لتتفاقم وتزداد إزاء جهل الكثيرين من بني إسرائيل الذين أنكروا عظمته وقداسته رغم معجزاته الهائلة، ليظلوا على صلفهم وعنادهم، فقط لأن تعاليمه لم تأت على هواهم، فرماه البعض بأبشع الصفات، واتهموه – حاشا لله – بأنه ابن زنا، وأنكروا ما جاء به من البينات، وذهب تأويلهم لمعجزاته بأنها لا تعدو كونها سحرًا، فرفضوا الإقرار والتصديق بأنه المسيح الذي بشرت به كتبهم، وانتظروا مسيحًا ومخلِّصا آخر ستكون علامته أنه سيُحيي الموتى!

وفي غمار هذا كله، كان ملاك الرب النوراني على موعد مع مفاجأة مذهلة..

كان هذا حين هبط من السماء بسرعة تفوق إدراك البشر ولم تخلق بعد الألفاظ والتشبيهات القادرة على وصفها، في مهمةٍ جديدةٍ لإنقاذ أحد

(دقلديانوس)* الذي أمر بهدم الكنائس وإزالتها من الوجود، وحر
الأناجيل، وقتل المسيحيين..

تجمعت الجنود على باب ذلك الدير السري الذي أسَّسه ذلك القديس بـ
أن ترهبن في عبادته للرب، ودعا الأقباط إلى عبادة الله في الصحار
وصومعته التي لا يعرفها سوى ثلة من المؤمنين للحفاظ على الدين مـ
الزوال..

وحين همَّ ملاك الرب النوراني بالتعامل مع جنود الإمبراطور الباطش
لإنقاذ ذلك القديس العابد، فوجيء بكرات من النار تهوي على الجنو
لتبيدهم في ثوانٍ معدودة، لينجو واحدٌ فقط منهم قبل أن يتجسد كيا
هلاميًّا من النارِ أمامه ويصيح فيه بصوت أجش عميق:

- أخبر امبراطورك أن لهؤلاء المستضعفين مخلوقات وهبت نفسـ للذود عنهم بعد أن آمنت بما يؤمنون، وسخرت من أوثانـ الضالة.

صرخ الجندي الناجي وركض في الصحراء كالممسوس مطلقا صيحا
لم تتوقف حتى اختفى، قبل أن يظهر ملاك الرب النوراني لصاحـ
الكيان الهلامي الناري ويسأله:

- من كلفك بما فعلت؟

---

* ولد الإمبراطور دقلديانوس عام ٢٤٥ م في مدينة سالونا بولاية دالماشيا غر
كرواتيا، وكان أبواه فقيرين، وكان يعمل في إسطبلات الإمبراطورية الرومانية كسائـ
للأحصنة، ثم انضم إلى طبقة الفرسان ووصل إلى رتبة دوق (أي قائد الفرسان)
في ولاية ميسيا، ثم أصبح قائد قوات الحرس الإمبراطوري الخاص، وتجلت كفاء
العسكرية في حرب فارس، وبعد موت الإمبراطور نوريانوس، كان دقلديانوس أجد
شخص بعرش الإمبراطورية. حرص دقلديانوس طوال معظم سنوات حكمه على اتبا
سياسة التسامح الديني مع المسيحيين، ثم تحولت سياسته ضد المسيحيين في أواخر
حكمه، فأصدر دقلديانوس أربعة مراسيم فيما بين سنتيْ ٣٠٢-٣٠٥ م تحث على
اضطهاد المسيحيين.

الرب»

أجابه الكيان الهلامي الناري بنبرة واثقة لم يتردد أو يفكر قبل أن ينطقها،
فاتسع عينا ملاك السماء في دهشة متسائلا:

- كيف.. هل تَمَجَّد اسمُك بالحديث معه؟

- كلام الرب غير مرتهن بالحديث المباشر مع مخلوقاته يا ابن النور، فصوته يتردد في أعماق كل نفس مؤمنة لينبع من إيمانها أوامر تملي على صاحبها ما يجب القيام به.

- وماذا عن قومك.. هل سمحوا لك بالإيمان بالمسيح ومناصرة أتباعه؟

ابتسم الكيان الهلامي وأردف:

- ربما حان الوقت ليجرب أمثالي معنى العذاب والاستشهاد في سبيل ما آمن به.

قطب ملاك الرب النوراني حاجبيْه وهو يتأمل صاحب الكيان الناري
الهلامي، ثم قال له:

- وربما جاء الوقت ليقدم بني جنسي خدماته لمخلوقات أخرى غير البشر.. لقد نذرت نفسي لحمايتك من بطش بني جنسك الكفار.

سأله صاحب الكيان الناري:

- بدون تكليف إلهي؟

ابتسم الملاك النوراني مجيبًا:

- كلام الرب غير مرتهن بالحديث المباشر مع مخلوقاته.

* * *

بعد فترة من الزمان لم تمض الأمور كسابقتها، وحان موعد تغيير النفوس
والقلوب، لتتوزع الحقيقة الكاملة إلى أنصاف حقائق متضاربة ومتصارعة

بين حملة الصليب، ليزعم كل فريق أنه الأحق والأصوب، ما بـ
كاثوليك، وأرثوذوكس..

فسد الكثير من الآباء والقساوسة، وطوَّعوا الكهنوت لخدمة مآربهم، ليبيـ
المغفرة والعفو الإلهي في صكوك الغفران، وجعلوا التوبة مستحيلة بدو
شرائها، ليتألم بنو الإنسان في العصور الوسطى باحثين عن رحمة الـ
لتنتشلهم من جشع القياصرة وظلم رجال الكنيسة.

وبعد قرون لم تعرف الأرض فيها نبيًّا ولا رسولًا، حانت لحظة إتمام بـ
النبوة بآخر لبِنة في الصرح الإلهي، ببعثة (محمد بن عبد الله) في شـ
الجزيرة العربية، حيث الكفر والنفوس الخربة، ما بين أتباع آلهة اللا
والعزى، وهُبَل، وغيرها من أصنام صُنعت من أيادي البشر، فلا تقدم نـ
ولا ضرا، ومع ذلك عبدوها!

التعصب للقبيلة هو الانتماء الحقيقي، والتباهي بعدد العبيد والجواري
ديدن الأكابر وعلية القوم..

حروبٌ وغاراتٌ تشتعل لأتفه الأسباب.. دماء تسيل بلا ثمن، وثأر يستـ
لسنواتٍ طويلةٍ ثم ينتهي بصلحٍ وكأن شيئًا لم يكن..

الرجل يتزوج من أمه، ويعاشر أخته، ونساء تُحرَم من الميراث الـ
يذهب للرجال فقط..

الخمر هو المشروب الرسمي، وكهنة الآلهة مستعدون لتقديم المغـ
والعفو لمن يُغدق عليهم من عطاياه..

حتى الكعبة وبيت الله الحرام الذي بناه (إبراهيم) وابنه (إسماعيل)
سكنتها الأصنام والآلهة الزائفة، وأحاطتها الأنصاب والأزلام..

ووسط كل هذه الجاهلية الدينية وانعدام الروحانيات في أجساد غرقـ
في وحل المادة حتى أذنيها، ظهرت بلاغة الشعراء اللغوية وقصائدهـ
المذهلة، لتقف الأمم حائرة أمام بلاغة قريش وروعتها الأدبية والفنية.

كانت هناك تجارة رائجة، وأسواق تعج بكل صنوف السلع التي تُباع
ساحاتٍ ينطلق فيها الفن والشعر، وكذلك السُّكر والعربدة والقتل وسفـ
الدماء والحروب القبلية الطاحنة..

وقيمًا مذهل بين الجمال والقبح، الرقي والانحدار، وكيف لا وقد فقدوا
البوصلة التي تصوب العقول والقلوب نحو السماء، فضاع من الميزان
ركائزه، واختلت المكاييل، وانتظر يهود قريش بعثة آخر رسول كما
أشارت إلى قدومه ومولده كتبهم ونبوءاتهم..

وفي عام مولد آخر الأنبياء والمرسلين، عرفت (قريش) معنى الذل
والانكسار، وأسقط في أيدي جبابرتها وسادتها حين لاقوا من هم أشد
منهم قوة وبأسًا..

ها هو الملك المسيحي (شميفع أشوع) يتولى حكم مملكة (اليمن) بعد
الانتقام من اليهود وزعيمهم (يوسف أسأر) بسبب المجازر التي ارتكبوها
في حق نصارى (نجران) و(المخا) و(ظفار يريم) ليعيد إعمار كل
الكنائس التي هدمها يهود (اليمن) وحلفاؤهم، ويأمر ببناء كنائس جديدة،
قبل أن يقتله (أبرهة الأشرم) ويستولي على الحكم بحثًا عن المجد
والسلطان، فاستمال القلوب إليه بتشييد كنيسة عظيمة مزخرفة لم يبن
أحد قبله مثلها، وسمَّاها العرب كنيسة (القليس)، لأن الناظر اليها تكاد
تسقط قلنسوته على رأسه من ارتفاع بنائها، دون أن يتبين أحد في بداية
الأمر نية (أبرهة) الخفية من وراء هذا الصرح العظيم، الذي أراد من
خلاله اجتذاب الحجاج، فتحج القوافل التجارية والقبائل إليها، ويصنع
في (اليمن) سوقًا تجاريًّا ضخمًا يجذب البساط من أسفل سوق (قريش)،
وتنادى بذلك في مملكته.

وفي جنح الظلام بإحدى الليالي، تسلل بعض شباب (قريش) وأشعلوا
النيران بالكنيسة وفرُّوا هاربين، فلما رأى السدنة ذلك أخبروا (أبرهة) وقالوا
إنما فعل ذلك بعض فتية (قريش) لغضبهم على بيتهم الذي ضاهيته بهذه
الكنيسة، فأقسم ليسيرن إلى بيت (مكة) بجيشه العرمرم ويهدم كعبتها
المكرمة التي يُقدسها العرب.

وفي طريقه من (اليمن) إلى (قريش) خرجت القبائل والممالك تقدم فروض
الولاء لملك (اليمن) الغاضب الذي يقود جيشه بنفسه ومعه فيلٌ خصَّصه
لهدم بيت الله الحرام.. أنحنت له الملوك وركعوا وأجزلوا العطاء والهدايا
لإرضائهم وواصل مسيرته، حتى وصل على مشارف (قريش) وأغار جيشه
على سرح من الإبل تملكه قبيلة (بني هاشم)، وطلب (أبرهة) أن يأتوه

بشريف مكة وسيدها (عبد المطلب بن هاشم)، فلما رآه (أبرهة) نظ... له بعين الإجلال والإعجاب، إذ كان رجلا جميلا حسن المنظر، ون... (أبرهة) عن سريره وجلس معه على البساط وقال لترجمانه:

- قل له ما حاجتك؟

فقال (عبد المطلب) للترجمان:

- إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أخذها جيشه بغ... حق.

غضب (أبرهة) وقال للترجمان:

- قل له لقد أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلَّمتني أتُكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ود... آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟

فقال له (عبد المطلب):

- أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا يحميه.

فقال (أبرهة):

- ما كان ليمتنع مني.

فقال (عبد المطلب):

- والله لا نريد حربك وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الح... وبيت خليله (إبراهيم)، فإن يمنعك منه فهو بيته وحرمه، و... يخل بينك وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنك.

ورجع (عبد المطلب) وأمر قومه أن يصعدوا الجبل هاجرين (مكة) ح... يقضي الله بينه وبين (أبرهة)، فلما دخل الجيش (قريش) يتقدمه م... (اليمن) ممتطيًا فيلا ضخمًا، بَرَك الفيل أمام الكعبة ولم يتزحزح من مكا... قيد أنملة. ضربوا الفيل ليقوم فأبى، طرقوا رأسه بالحديد حتى أدموه، ... يستجب. وجهوه نحو (اليمن) فقام يهرول. وجهوه إلى (الشام) ففعل م...

...، ووجهوه مرةً أخرى إلى الكعبة فبرك من جديد، فيما وقف (جبرائيل) و... التي حوت ملاك الرب الوسيم في السماء يتابعون لحظة الحسم ...، حتى أرسل الله تعالى على جيش (أبرهة) من البحر طيرًا أبابيل.

أسراب متتالية ومتعاقبةٌ لا أول لها ولا آخر من الطيور غطت السماء في ... أثار الرهبة والذعر في قلب الجنود الذين تطلعوا نحو الأعالي دون أن يدروا أن مع كل طائر ثلاثة حجارة مشتعلة بنيران جهنم وسجِّيلها، يحمل كل طائر حجرًا في منقاره، وحجريْن في رجليْه، حجمها أمثال الحمص والعدس، ولا يصيب الحجر أحدًا إلا هلك، ومع سقوط الأحجار على الجيش خرجت من الحناجر صيحات الرعب وصرخات الهلع، ... البقية الباقية من فلول الجيش في الصحراء بعد أن تحوَّل (أبرهة) إلى مجرد ذكرى غابرة يرويها التاريخ، وعبرة لمن يعتبر.

وفي العام نفسه الذي سمَّاه العرب بعام الفيل، حل ميلاد (محمد بن عبد الله) في ليلة سارت فيها اليهود في الطرقات يبشرون بمولد رسول بني إسرائيل، ويرددون بعلو الصوت: "لقد ولد فيكم نبي"، ليخرج من بطن أمه ... في موضع السجود، بعد أن دهشت فترة حمله النساء اللاتي فوجئن بعدم مرور (آمنة بنت وهب) بأي آلام، أو وهن على مدار فترة الحمل وكأنها لا تحمل في أحشائها جنينًا، بخلاف ذلك الآتي الذي أتاها قائلا:

- **إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضع في الأرض فليقل لسانك وقلبك أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُصرى من أرض الشام، فسمِّيه محمدًا، فإن اسمه في التوارة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض.**

ومع مولد (محمد) في البرية تم تشفير الأربع سماوات المتبقيات، لتصير السماوات السبع بأكملها محرمة على الشياطين والمردة وذوي الأرواح النارية الذين تبدل بهم الحال ولم يجدوا مقاعد لهم مثلما كان الحال من ذي قبل، ومن يحاول الصعود إلى الملأ الأعلى يجد السماوات «مُلِئَتْ حرسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا»..

البعض حاول التمرد وتقدم لاستراق السمع، فوجد النيازك تنفصل عن النجوم وتتحول إلى شهب حارقة كشظايا من الجحيم الذكي الذي لا يخطئ صاحبه، لتظل تطارده حتى تهلكه حتى وإن هبط إلى الأرض

وغادر السماوات، وهكذا صار الملأ الأعلى حكرًا على الملائكة فقط بـ أن حاوطوا السماء بأجنحتهم الخفاقة، وجعلوها حصنًا حصينًا، وصارت النجومُ التي تُنيرها كالمصابيح سلاح ردع وأجهزة دفاع تعمل بشكل تلقائي تجاه المتطفلين والغرباء غير المرغوب فيهم إذا ما تجاوزوا الحدود المسموح بها في الاقتراب.

ثم كانت اللحظة الفارقة حين جاء تكليف الله تعالى لـ(جبرائيل) بالهبوط على (محمد) في غار (حراء) الذي كان يتأمل فيه السماء ويتفكر في الخلق، كطير يغرد خارج سرب الكفر الذي حل في أرجاء (قريش) رافضًا أن يحذو حذو أقرانه من الرجال في عبادة الأصنام، والزنا بالنساء وشرب الخمر رغم امتلاكه المال الذي كان يديره لزوجته (خديجة) إحد سليلات الحسب والنسب في (مكة)، واثقًا أن خلف تلك السماء أمرًا عظيمًا، وأن وراء هذا الكون إلهًا حقيقيًا، أشرف وأرقى من خيالات البشر الذين جسَّدوه في تماثيل مصمتة من صنع أيديهم، ليبعث في أهل الأشعار والبلاغة بمعجزة لغوية قرآنية شأن كل نبي يبعث بجنس ما اشتهر به قومه وبرعوا فيه، وتحداهم أن يأتوا بمثل كلام الله المرسل، بل بمثل سورة واحدة، بل بمثل آية واحدة فعجزوا جميعًا، وهم أهل البلاغة والفصاحة.

انشرح قلب ملاك الرب لـ (محمد) وعاد لينبهر بأخلاقه ومواقفه بعد أن ظن أن الزمان لن يجود بمثل أخلاق المسيح..

شعر أن كليهما إخوة وإن اختلف الرحمان اللذان حملاهما..

كلاهما مُعلِّم عظيم، تتعلم منه الملائكة قبل البشر..

كل منهما دُعي لقومٍ يغطون في جهالة رغم العذاب الذي يلاقيه، والدماء التي تسيل منه..

من جديد دخل اليهود دائرة التحدي، وبعد أن تنبأوا بمولد (محمد) ورسالته، رفضوا واستكبروا أن يؤمنوا به، فقط لأنه لم يُبعث من نسل (إسرائيل).. وكيف يتبعون رجلا من نسل (إسماعيل) أبو العرب وتخرج عن عباءتهم النبوة والشرف المنتظر؟!

ها هم جبابرة (مكة) وساداتها يبالغون في أذيته وضرره يوم العقبة، فيسير

مهمومًا على وجهه، فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب، حين أظلته سحابة أطل منها (جبريل) قائلًا:

- إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

حينها تمنى ملاك الرب الوسيم أن ينتصر لهذا النبي الذي أحبه، لكنه صمت احترامًا وتقديرًا لسيده (جبريل) ووقف يتابع حديث (محمد) مع ملك الجبال الذي ناداه:

- يا محمد.. بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

- بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا.

ولم تمر السنوات حتى أتى الله بنصره، وحقَّت كلمته التي وعد بها المؤمنين، ليعود الرسول وصحابته إلى (مكة) التي خرجوا منها مهاجرين فقراء أذلاء، ليفتحوا أعظم بلاد الله ويحرروها من الشرك والكفر، ويعفو الرسول عمن ظلمه وقتل أحب الناس إليه، فيعم السلام أرجاء (قريش) وتحدث المصالحة العظمى بين المسلمين ومن ظلموهم وعذبوهم وسطوا على أموالهم وممتلكاتهم، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا، ليبكي ملاك الرب الوسيم مُدركًا أنه ما زال في البشر أملٌ، وأن هناك بديلًا للبطش والعذاب، لتستحق بعض الأقوام والأمم منهجًا آخر في التعامل، متخذًا من النبي الأمي قدوة ونبراسًا يُحتذى به، ليأتيه الدرس هذه المرة من البشر.

وانتهى عصر الرسالة بغروب شمس النبوة وصعود روح (محمد) إلى الرفيق الأعلى حيث الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، تاركًا خلفه قرآنًا عجبًا يُتلى إلى يوم الدين، فيه منهج حياة، وكتالوج يهدي إلى سبيل الرشد عسى ألا يشرك بالله أحدٌ.

وظن ملاك الرب أن الأرض ستعيش في خير وسلام دائم بعد أن اكتملت



سلسلة الأديان، وصارت قيم الحق والخير والجمال واضحة للعيان ﺑ
أزهى صورها..

لم يكن يدري حينها أن الأرض ستعود إلى شرورها، وأن دماء البـ
ستظل هي ثمن المعرفة والوصول إلى الغايات، لتسيل من الصحا
والخلفاء الراشدين، ومن تاجر بدين الله من أجل مطامع دنيوية زائلة
ليتفرق المسلمون إلى فِرق متناحرة، كل فرقة تزعم أنها على الصوا
والباقين في النار، وانقسم الدين بينهم إلى سنة وشيعة، وداخل كل فر
مذاهب وجماعات، ما بين خوارج، ومعتزلة، وزيدية، واثني عشر
وغيرهم كثير.

بخلاف أولئك الذين ارتدوا عن دينهم الذي أعلنوا إيمانهم به ظاهر
ونفاقًا، وأولئك الذين ادعوا النبوة، وأولئك الذين أنكروا رسالة (محمد) لعد
منطقيتها، رغم أن المنطق والعقل يؤكدانها.. فقد بعث كل نبي على قو
ضالين ظالمين.. فهل ظُلم وضلال مكة لم يكن بحاجة إلى نبي؟

لو لم تكن نبوة (محمد) صادقة حقًّا، فكيف نزل قرآن في عمه الكافر
(أبو لهب) مؤكدًا أنه سيموت كافرًا ملعونًا رغم وجود (أبو لهب) على قيد
الحياة، وكان في إمكانه أن يُعلن إيمانه ولو بالكذب ليثبت خطأ القرآن
ويهدم مصداقيته لكنه لم يفعل!

كيف يكون (محمد) مدعيًا للنبوة، ثم يتنزل عليه قرآنٌ لحظة هزيمة
الرومان من الفرس، وشماتة (قريش) في انتصار عبدة النار على عباد
الرب، ليسبق كلام الله حاجز الزمن ويذكر موعد هزيمة الفرس وانتصار
الرومان عليهم مرة أخرى في بضع سنين، وبالفعل تتحقق آيات الله
البينات؟

كيف يكون (محمد) كاذبًا، ولا يموت إلا بعد أن يكتمل الإسلام بكلام
الخالق: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا}**، دون أن يموت في أي غزوة من الغزوات الكثيرة التي
خاضها شأن من زعموا النبوة من بعده، ليحج الرسول في آخر عام من
عمره، ويلقي في قومه خطبة الوداع وآخر وصاياه كنبي ينهي عهده
ورسالته التامة بمدد من السماء، وتنزل آخر آيات القرآن عليه قبل وفاته

ـارة وجيزة: **{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}**؟

قال ملاك الرب يطرح أسئلته وهو يراقب أحوال البلاد والعباد بحزن
وغضب، نادمًا على تمنيه أن يكون من الحفظة الحامين لأبناء (آدم)
وقد عادوا إلى ديدنهم، ودخلوا مجددًا في غياهب الشقاق والصراع لتملأ
الدماء مشارق الأرض ومغاربها في كل زمنٍ وعصر، لكن فات الأوان،
ولم يعد ممكنًا أو مسموحًا أن يعود من جديدٍ لطائفة العذاب والانتقام،
ليجد نفسه مضطرًّا لإنقاذ أبناء (آدم) وحمايتهم مما لم يرد في صحائف
أقدارهم، رغم غضبه الشديد من أفعالهم.. ويا له من ابتلاءٍ عظيم.

* * *

(5)

ونسي ملاك الرب كل هذه الذكريات الهائلة حين بدأت مهمته الجديدة

التمعت في السماء هالةٌ ضوئيةٌ بيضاء أخذت تقترب بسرعة شديدة من الأرض، وما أن صارت قاب قوسين أو أدنى، حتى تحولت تلك الهالة إلى شابٍ وسيمٍ يرتدي بذلة سوداء مميزة ذات تفصيلة غريبة لكنها مثيرة للانبهار، تحتها قميص أبيض ورابطة عنق رفيعة جعلته أشبه بنجم سينمائي في حفل تسلم جوائز الأوسكار، قبل أن يصطدم جسده بالأرض في عنفٍ شديد، ويظل يتدحرج دحرجات متتالية على نجيلة طبيعية خففت قليلًا من شدة الارتطام، ليكتشف أثناء دحرجته أنه سقط في مقابر مسيحية ميز هويتها من صلبانها المتراصة، وإن لم يدرك أنها مقابر "الثغر"* بمنطقة (الشاطبي) في محافظة الإسكندرية ليتدحرج بين شواهد القبور بسرعة وألم شديد، وترتفع أمام عينيْه صلبانها وتنخفض حسب موقع رأسه الذي يتقلب مع دحرجاته العنيفة، قبل أن يرتطم بشاهد قبر رخامي فيكسره بعنفه، ويسقط صليبه، وتخمد حركتها مطلقًا عاصفة من الغبار، وسط نباح الكلاب وزمجرتها الشديدة بعد أن أزعجها ما حدث..

بعد دقائق هدأت العاصفة وانقشع الغبار وما زال الشاب الوسيم راقدًا على بطنه، ساندًا نصف وجهه الأيسر على الأرض ليتجلى نصف وجهه الأيمن وهو مغمض العينين، فاردًا ذراعيْه إلى جوار رأسه..

---

* منح (محمد علي) باشا حاكم مصر منذ أكثر من 150 عامًا، جميع الطوائف من غير المسلمين في الإسكندرية أرضًا شاسعة تقع في المنطقة من أول شارع قناة السويس إلى شارع (أغسطس) الذي صار اسمه فيما بعد (سليم حسن)، لتصبح مقابر لهم نظرًا لأن المدينة ازدهرت في عهده وأخذت تزدهر في عهد أولاده وأحفاده، حتى أصبحت في عهد الخديو (إسماعيل) مدينة عالمية، تضم جميع الجنسيات والملل وأصحاب الديانات، وتجاورت في تلك المنطقة مقابر المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك واليهود، وضمت في جنباتها أشهر الشخصيات المصرية والإيطالية واليونانية وغيرها من الجنسيات الأجنبية المختلفة.

وبعد بُرهة فتح بعدها عينيه بتخاذل، ثم استند بذراعيه على الأرض لينهض بصعوبة وضعف، غارقًا في التراب الذى يُغطي ملامحه، وأحال لون شعره الكستنائي إلى الأبيض بفعل الغفار، وأخذ ينظر حوله بحيرةٍ ودهشة لا يتذكر من أين جاء ولا يعرف إلى أين يذهب، ثم أمسك جبهته بيده اليمنى حتى يُقاوم دوارًا وصداعًا عنيفًا يُسيطر على رأسه قبل أن ينزل به ببطء ليبدأ في السير إلى اللاوجهة، لا يدري إلى أين تأخذه قدماه..

وأثناء سيره المتخبط، أخذ الشاب الوسيم ينظر حوله متأملا مقابر الأرثوذكس، والكاثوليك، والإنجيليين، واليونانيين، واليهود، حيث يمتزج جلال الموت بروعة التصميم الهندسي النابض بالحياة، وكأنه في متحف تاريخي اجتماعي فني ينافس جبانةَ (جنوا) في إيطاليا ذات الجمال التاريخي الساحر، دون أن يدري أن هذه الجبانات تضم بين رفاتها العديد من الشخصيات العالمية الأدبية والفنية، من أمثال المخرج العالمي يوسف شاهين)، والشاعر اليوناني الشهير (كفافيس)، ورجل الأعمال العربي (كونسيكا) الذي أسَّس مستشفى التأمين الصحي الذي تحول اسمُه فيما بعد إلى مستشفى (جمال عبد الناصر)، و(أسعد باسيلي)، أكبر تاجر للخشب في المحافظة، والذي أصبح أحد قصوره فيما بعد المتحف القومي المصري والمركز الأمريكي الثقافي، وغيرهم من الشخصيات اللامعة.

وتطلع الشاب في رهبةٍ إلى شواهد القبور التي تحتمي بالصلبان الرخامية في رحلة أصحابها الأخيرة إلى الأمجاد السماوية، وقد أحاطتها أكاليل الزهور، وحملت لوحاتها عبارات الوداع الحزينة من أهل الموتى الذين اتفقوا على أنه **"مع المسيح ذاك أفضل جدا"**، وفي الخلفية ما زال نباحُ الكلاب يتردد بشدةٍ وقد بدأوا في التجمع على مسافةٍ من ذلك الزائر الذي لم يبال بهم وقد حمل رأسُه مخاوفَ وحيرةً أكبر بكثيرٍ من عوائهم.

وبعد برهةٍ من السير وبينما هو يتأمل هذا العالم، إذا بصوت فتاةٍ باكيةٍ يتسلل إلى أذنيْه كاسرًا حالة صمت البشر المحدق به وقد غرقوا جميعًا في سلطان الموت:

- سامحني!

لفت الصوت حواسه كلها، قبل أن ينتبه إلى أنه يصدر من قبرٍ قريب.

اقترب الشاب من مصدر الصوت حتى لمح فتاةً تجلس على الأرض أمام شاهد قبرٍ وقد غطى ملامحها الظلام، وإن تبين أنها ترتدي تنورة قصيرةً جدًا، وأسفل منها جورب شيفون أسود، في حين اكتسى نصفها الأعلى بملبس أسود شفاف يلتصق بالجسد ويجسده تمامًا، ويظهر أكثر مما يُبطن، بارزًا مفاتنها الصارخة، وقد صبغت شعرها ذا التسريحة الـ"كيرلي" بلونٍ أحمر ناري مثير، وواصلت الكلام بمزيدٍ من النحيب والانهيار:

- لم يكن أمامي بديلٌ آخر.. لا شك أنك تعلم ذلك جيدًا بعد أن انكشفت لك الحقيقة أمام عرش النعمة وقابلت رب المجد يسوع. تعبت كثيرًا وذقت طعم المرار والذل من بَعدك.. كل الأبواب غُلِّقت في وجهي، ولم أجد من يحنو عليَّ في زمن خلا من القديسين، ولم تعد الملائكة تزاور فيه الضعفاء والمحتاجين.. ماذا كنت تريد مني أن أفعل وقد خُلِقَ الإنسانُ ضعيفا؟!

ومع آخر حروفِ كلماتها، لمحت الفتاة الشاب الذي أصبح على بعد مقربة منها فصرخت وهي تهب واقفةً بذعرٍ وفزعٍ واضعةً يديها على صدرها:

- باسم الصليب.. من أنت؟

نظر لها بتوتر، متطلعًا إلى وجهها الخمري المستدير، ذي العينين العسليتين الأقرب في درجة لونهما الفاتح إلى الخُضرة، وتحتهما بقع بنية بسيطة تُثبت أن النمش قد يكون أحيانًا سرًّا من أسرار الجاذبية والجمال، ثم تذكر أنها قد سألته فأجاب بحيرة:

- لست أدري.

مسحته بناظرها في شك، فهالها التراب الذي يُغطيه وكأنه كان مدفونًا بالحياة فرَّ للتو من قبره، لكن كل شيء تغير حين تعمقت في ملامح وجهه ذي البشرة البيضاء الحليبية التي تنيرها شمسا عينيه الذهبيتان، ويتوسطها أنفه الدقيق المرفوع، وشفتاه الورديتان، وكأن وجهه مملكة تحفها لحيته الخفيفة الناعمة، ويظللها شعره البني الكستنائي الحريري،

ويحملها عنقه الشامخ القائم على منكبين عريضين وقوام ممشوق كجبل يمشي على قدمين، لتجد نفسها أمام صورة أسطوريةٍ لجمال خفاق نادر، زاد من أسطوريته ضي القمر المنعكس عليه من السماء، بشكلٍ بث في روحها السكينة والفتنة بهذا الحُسن الذي أنساها رهبتها منه؛ بل وأنساها أمها نفسه حتى انغلق صنبور الدمع في عينيها، وتجمد على وجنتيها خطان سائلان سرعان ما جفا كنهرٍ قديمٍ ضل عنه منبعه، قبل أن يقطع تأملها لملامحه صوت جلبة وحركةً، وقضى على صمت المكان صوت غابط علا بلهجة بها قدر من السطلان والدماغ المُغيَّبة:

- لكني أشعر أن شيئًا ما ناقصا يا رجال.. فأنا ما زلت يقظًا حتى الآن.

أجابه مسطول آخر:

- الله يخرب بيت أمك.. خمر وشربت.. ماكس وضربت.. ماذا نفعل لك بعد كل ذلك؟.. أنلبس لك قمصان نوم ونُغني "آه ونص"؟!

مسطول ثالث:

- عيب يا جماعة.. للمقابر احترامها

مسطول رابع **(ساخرًا)**:

- إنها مقابر مسيحيين يا بغل

وفي مكانه، اشرأب عنق الشاب الوسيم متطلعًا إلى تلك الأصوات القادمة رأى 5 رجال ذي أشكال إجرامية لا توحي بالخير، قبل أن يلاحظ أصحابها وجود الشاب والفتاة، لينظروا جميعًا إلى قوامها وملابسها الصاروخية بعيونٍ وحشيةٍ، فقال صاحب الصوت الأول:

- يا سلام.. أموت أنا في الاحترام!

المسطول الثالث **(بصدمة وهو ينظر للشاب والفتاة)**:

- أستغفر الله العظيم.. في المقابر يا أولاد الكلب؟

المسطول الرابع **(وهو يخرج مطواة قرن غزال ويفتحها)**:

– اخرس.. **(يتطلع إلى الفتاة بعينيْ ذئبٍ جائع ويتابع)** فسنفعل مثله.

ثم يقترب من الشاب الوسيم ويلوح بمطواته ويسير بحدها الآخر الثلم على وجهه قائلاً بمزيج من السخرية والوحشية المقيتة وقد فاضت ملامحه بالإجرام:

– بالطبع لن تمانع من أن تعيرها لنا يا شقيق، **(يضع المطواة على بطن الشاب وتضيق حدقتاه وهو يتابع بلهجة حملت الشر كله)** أم ستطمع في أن تبلعها وحدك ونأخذها من بطنك؟

المسطول الأول يشهر مطواته بدوره ويقترب من الشاب قائلا:

- الله يقرفك.. ستكون بطعم الخراء إذن.. أيُرضيك يا شقيق أن نأخذ حاجة بطعم الخراء؟

ثم وضع مطواته على وجه الشاب الوسيم متابعًا بشراسة:

- فلترحل من هنا بالذوق أحسن لك.. لك وجه وسيم ستحزن عليه أمك لو حمل علامة لن يمحوها الدهر، وفي المرة القادمة خذها إلى البحر أضمن.. ففي المقابر أناس سيئة تحمل المطاوي، وتفعل مع البنات قلة الأدب غصبًا عنهن.

المسطول الخامس وهو يتحسس شعر الشاب الوسيم:

- بل مع الشباب أيضًا لو كانوا بمثل هذه الوسامة.. هذا الفتى يخصني يا رجال!

المسطول الثالث:

- بالهناء والشفاء يا معلم.. ليس لنا في الجنس الخشن لأنه حرام..

الجميع يضحكون ضحكة شيطانية، بينما ينظر الشاب لهم بتوتر وقلق وهو يتراجع وقد وقفت خلفه الفتاة ممسكةً بكتفه في رعب وهي تحتمي به، وما أن ينتهوا من قهقهتهم الصاخبة حتى يقول بعقلانية وهدوء:

- ليس بيني وبينها أي شيء.. لقد وجدتها هنا بالصدفة وهي



تتحدث مع صاحب هذا القبر.

المسطول الأول **(ساخرًا)**:

- كبد أمك.. **(يستدير ببصره نحو الفتاة ويسألها)** وهل رد عليكِ يا كتكوتة؟ أم قال لك أنا ميت الآن، يمكنك معاودة الاتصال في وقتٍ آخر؟ هع هع هع

وفجأة، جذب المسطول الخامس الشاب الوسيم بعنف ووضع المطواة على رقبته قبل أن يقول بغلظة وشراسة:

- تجرد من ملابسك برضاك، أو ننزعها رغمًا عنك!

وفي اللحظة نفسها، كان باقي المساطيل يلتفون حول الفتاة، قبل أن يزيح الشاب الوسيم بيده اليسرى مطواة المسطول الخامس بسرعة، ثم يكيل له لكمة قويةً بيده اليمنى انفجرت في أنفه كالقنبلة، وانتزعت منه صرخة قوية قبل أن يسقط كالحجر، لينتبه الجميع لما حدث ويصفع أحدهم الفتاة بأقسى ما لديه من عزم لتسقط أرضًا غير قادرة على الحراك، قبل أن ينقضوا على الشاب الوسيم انقضاضة رجلٍ واحدٍ ليمزقوا جسده ووجهه بالمطاوي التي انهالت على كل سنتيمتر في جسده بلا هوادة، بينما بقي واحد منهم مع الفتاة وهو يكمم فمها بعنف مانعًا إياها من الصراخ ليخرج صوتها مكتومًا.

وفي مكانه، أخذ الشاب يتلقى الضربات والطعنات لتسيل منه الدماء بعنف وغزارة شديدة، قبل أن تخمد حركته تمامًا وقد تمزقت كل أنحاء جسده وأصبحت بذلته الأنيقة مجرد هراويل وخيش مهترئ وهو ملقى على الأرض مضرجًا في دمائه.

وبعد أن ضمنوا أنه في عداد الأموات، انقض الجميع على الفتاة وبدأوا في تمزيق ملابسها بينما قام أحدهم بغزها بمطواته في فخذها لتسيل منه الدماء وتستسلم الفتاة في رعب، وعلى ملامحها أعتى ملامح القهر والذل..

ومع انفلات دمعة ساخنة أحرقت وجنتها، نظرت للسماء في عتاب وصرخت:

- أين أنت حيال ضعيفة مقهورة تستغيث بك؟ هل تخليت عني يا رب؟

دون أن تهتز ضمائر الذئاب الجائعة بصرخة الفتاة وهي تلعق جسدها بأنياب يسيل منها اللعاب القذر، وقد نافست قلوبهم الميتة موت الموتى المحيطين بهم..

لكن كلمة "**يا رب**" كان لها مفعول لم يتوقعه أحد..

مفعول ظهر حين فتح الشاب عينيه المغمضتين بقوة وقد لمعت ببريق غريبٍ، لينهض في حركةٍ سريعةٍ وقد بدأت ملامح وجهه الممزقة في الالتحام، بينما جفت الدماء بسرعة شديدة وكأنها تتبخر.. حتى بذلته المهترأة عادت إلى ما كانت عليه، دون أن ينتبه أحد المساطيل لتلك المعجزة التي كانت تحدث خلف ظهورهم العارية، وهم يتناوبون تقبيل الفتاة وغرس أصابعهم في مواطن أنوثتها وجمالها الصارخ وهي مستسلمة تمامًا بينما تسيل دموع القهر من عينيها.

وفجأة.. انقض الشاب على الرجال كالعاصفة ليطلق اللكمات والركلات بقوةٍ خارقةٍ وسرعةٍ شديدةٍ تفوق خيال البشر وسط عاصفة ترابية ما أن خمدت حتى رأت الفتاة المصعوقة من هول المشهد جميع المساطيل وقد افترشوا الأرض محطمي الأنوف والفكوك وعظام الوجه، لا تدري من بقي منهم على قيد الحياة ومن هلك وأصبح في انتظار الدفن، لتنهض بذعر وهي تلملم ملابسها الممزقة متطلعة برهبة وانبهار إلى الشاب الذي صار معافى سليما، يقف في مكانه شامخًا كالجبال..

اقترب منها بخطواتٍ قويةٍ، واثقةٍ، مليئةٍ بالهيبة والقوة العتية، وما أن وصل إليها حتى ألقى نظرة أخرى على الرجال ثم قال بلهجة خلت من توتره وقلقه الذي كان مسيطرًا عليه منذ دقائق، وقد حل محله الثقة واليقين بعد أن فوجئ هو نفسه بما يملكه من قوة ومدد لا يدري كيف ولا من أين استمده:

- لم يتركوا لي خيارًا آخر بكل أسف.. **(تفيض من عينيه الفاتنتين نظرة مليئة بالحنان وهو يردف)**: لعلك بخير؟

بادلته النظر بعينين متسعتين دون أن تملك القدرة على الكلام، وتلاحقت

أنفاسها وزادت حدة ضربات قلبها فلاحظ ذلك وهو يسألها:

- أين تسكنين؟

ظلت على ركبتيها وهى لا تزال تنظر إليه بعينين متسعتين وقد فقدت القدرة على النطق بينما تلاحقت ضربات قلبها بسرعة وعنف شديد حتى كاد يخرج من قفصها الصدري، وتسللت انتفاضة ورعشة شديدة إلى ملامحها وأطرافها لتفقد معها السيطرة على حواسها، بينما عقد الشاب حاجبيه وقد شعر بما تعانيه وهو يكرر سؤاله في محاولةٍ يائسةٍ لانتزاع الإجابة:

- أين تسكنين؟

حاولت النطق لكن اصطكاك أسنانها منعها، وهي تتطلع إلى الشاب برهبة تجاوز كل الحدود، قبل أن تبدأ صورته في التلاشي أمام عينيها رغم ذلك الستار الأسود من الغيبوبة الذي بدأ يحل محل النظر بالتدريج لتميد بها الدنيا ثم تظلم الرؤية وهي تغيب عن الوعي تمامًا.

* * *



(6)

في غرفة نومٍ فاخرةٍ، رغم ألوانِها القاتمةِ التي تبعث على الرهبة وتُسبب انقباضًا للنفس، فتحت الفتاة عينيْها على سريرها الكبير جدًا في غرفتها الواسعة، لتتأمل جدران الغرفة وسقفها، ثم تطلعت حولها في دهشةٍ وهي تُمسك رأسَها بألمٍ من صداعٍ يكتنفها، وقد ظنت –في بادئ الأمر– أن ما مرَّت به لم يكن سوى حلم أشبه بالكابوس.

تطلعت للصليب المعلق على الحائط المقابل للسرير، وعليه نموذج مصغر للمسيح وهو مصلوب، لتخفق نبضات قلبها فور رؤيته وكأنها تراه لأول مرة، ثم نهضتْ من سريرها وهي لا تزال ترتدي نفس الملابس التي كانت ترتديها بالأمس.

ما أن اصطدم بصرُها بمرآة التسريحة حتى اتسعت عيناها بذهول حين تأكدت من ملابسها الممزقة أن كل ما حدث لم يكن حلمًا، ثم تحوّل ذهولها إلى مزيج من الاستحقار والاشمئزاز لهيئتها وشكلها، لتظل نظرة البُغض تتفاقم وتتفاقم مع عينيْها التي تضيق وتضيق قبل أن تعودَ برأسها للخلف ثم ترتد إلى الأمام نحو المرآة سريعًا وهي تبصق بكل قرف الدنيا على صورتها، وتنحدر مع بصقتها الغاضبة دمعةُ حزن وقهر. وفجأة.. جذبت شعر رأسها بقسوةٍ فخرجت في يدها تلك الباروكة التي كانت ترتديها ذات الشعر الأحمر الناري، ليتضح من أسفلها شعرها البني الفاتح، الأنعم من الحرير.

وحين تطلعت إلى نافذة حجرتها رأت الغروب يحل وقد شارفت الشمسُ على المغيب في الأفق، فتوجّهت إلى دولابها الكبير وفتحته ليقع بصرُها على العديد من الملابس الفاضحة التي تملأ الدولاب..

أخرجت الفستان الأول المليء بالعري والفتحات الفاضحة لتتأمله بضيق وغضب ثم ألقته أرضًا، ثم أخرجت الطقم الثاني وتأملته بنفس الامتعاض قبل أن تلقيه، وبعدها لحق به على الأرض فستانٌ ثالثٌ، ثم طقمٌ رابعٌ..

وبعد ثوانٍ، كانت كل ملابس الفتاة ملقاةً على الأرض بينما ما زال بالدولاب ثوبٌ واسعٌ فضفاضٌ بُني اللون، يبدو رثًا باليًا، إلا أنها مدت إليه يدها في بطء وكأنها تستحي منه، وما أن لامسته أناملها حتى جذبته



في لهفةٍ واحتضنته في اشتياقٍ وهي تتشمم رائحته كأم تستقبل ابنًا عائدًا من الحرب بعد أن انقطعت أخبارُه منذ عشرين سنة، وتم إدراجه في كشوف المفقودين!

لم تدر كم مرَّ عليها من دقائق وساعاتٍ أخذت فيها تبكي حتى استنفدت دموعها التي شربها الثوب، والتقت في حضنه بذكريات الماضي..

وحين أفاقت، فتحت باب حجرتها وخرجت منها لتتأمل بنفس الاستحقار والكراهية صالون منزلها الفاخر، وصور التابلوهات الفنية الرائعة التي تزين جدرانه، قبل أن تلتقي عيناها بعينيْ (العدرا) التي بدت في صورتها وكأنها تنظر لها خصيصًا، وتوجه لها سهام اللوم والعتاب دونًا عن باقي البشر، فخفضت عينيها خجلا وألمًا، ثم توجهت إلى الحمام.

اغتسلت تحت المياه المنهمرة، بعينيْن مغمضتيْن وهي تأخذُ نفسًا عميقًا وقد امتلأت أرضيةُ الحمام برغاوي الـ «شاور جيل» ثم نظرت إلى لحم جسدها بغير رضا وبدأت في دعكه تحت الماء رغم نظافته، لتظل تدعك وتدعك حتى احمرَّ جلدها الذي كادت أن تَسلُخه كرغبتها في الانسلاخ مما اقترفته، وعندما تيقنت أنه لن ينظف أكثر من ذلك التقطت المنشفة.

وعلى عتبة باب الحمام، خرجت الفتاة ترتدي الثوب المحتشم الواسع الفضفاض القديم، لتبدو في هيئتها فتاةً أخرى غير التي كانت منذ قليل..

فتاة متدينة، فقيرة، بسيطة، لكنها أجمل بكثير بعد أن تخلت عن أنوثتها الصاروخية المفتعلة، لتزيد حبات النمش من جمال وجهها النقي الخالي من المكياج..

وبعد أن غادرت الحمام، تطلعت مجددًا إلى التابلوهات الفنية الأنيقة المعلقة على الجدران، ثم ناجت بعينيها أمها (مريم) وصلّت إليها بلغة الدمع، قبل أن تسمع صوت هاتفها المحمول يرن فوق مائدةٍ أنيقةٍ رغم صغرها وبساطتها، ليرتسمَ الانزعاجُ والارتياع على ملامحها وهي تسير نحو المحمول خائرة القوى، ضعيفة الخطوات، لتمتد يدها برعشةٍ ورهبةٍ إلى المحمول لتضغط زر الرد وتجيب بنبرةٍ خائفة:

– آلو

أتاها صوتٌ أجش فظٌّ غليظ القلب قال صاحبه:

– لعل أعصابك هدأت، وصرتِ أحسن حالاً

حاولتْ أن تستجمع قوتها وابتلعت ريقها، وهي تقول:

– نعم بفضل المسيح، فقد أخذت قرارًا بالتوبة والابتعاد عن عالمك

فقد صاحبُ الصوت الأجش أعصابه وصرخ فيها بغتة:

– هذا عند أمك.. عندما تموتين وتحصلينها.. لكن ما دمتِ حية أنا الذي يُقرر وليس أنتِ.. يبدو أنني أخطأتُ بالأمس حين سمحتُ لكِ بالرحيل مبكرًا حتى ترتاح أعصابك.. وأعدك ألا أكررها قط

بكت الفتاة وهي تقول له:

– لقد ارتاحت أعصابي بالفعل واستيقظتُ مما كنتُ فيه.. فلتأخذ ما أعطيتني وتتركني أعود من حيث أتيت بسلام

– يبدو أنك في حاجة لقرصة أُذن حتى تفيقي.. فالأصناف القذرة أمثالك لا تفيق إلا وهي في عربة الشرطة أو على رقبتها سكين حاد، وتنفيذ كلا الأمرين شيء تافه يمكن أن تجربيه بنفسك الليلة.. الساعة الآن السادسة.. عشرة بالدقيقة أجدك أمامي، عشرة وعشرة لا تلومي إلا نفسك!

ورغم انتهاء المكالمة، ظلت الفتاة ممسكةً بالمحمول لثوانٍ وهي في حالة صدمة وعدم اتزان، قبل أن تلقي هاتفها المحمول وتبكي بشدة، ومن بين دموعها ندَّت منها حركةٌ سريعةٌ إلى جوارها فإذا بالشاب الوسيم واقفًا على يمينها بشموخ، مرتديًا نفس بذلته الأنيقة، يرقبها بنظراتٍ ثاقبة.

صرخت في رعبٍ وهي تضع يدها على فمها في محاولةٍ لكتم رعبها، غير قادرة على الكلام بلسانٍ فرَّت من عليه الحروف، لتكتفي بعينين جاحظتين أطلت منهما كل تساؤلات الدنيا وحيرتها، فأجابها بدوره في لهجة أقرب للاعتذار:

– لقد أوصلتك هنا بالأمس بعد أن فقدتِ وعيك في المقابر.. فتحت حقيبتك وعلمت عنوانك من البطاقة، وخضت معركة من أجل العثور على وسيلة مواصلات تنقلنا.. معذرة على اضطراري للمبيت ها هنا خارج غرفتك.. فلم يكن لديَّ مكانٌ آخر أذهب إليه.

تأملت ملامحه الوسيمة، ثم اقتربت منه في توجس وحذر وهي تمد يديها نحوه في بطءٍ وحذرٍ لتتحسس وجهه وكتفيه، وتتسلل إلى أنفها أعظم رائحة اشتمتها في حياتها..

عطرٌ ليس كباقي العطور.. لا يصل شذاه إلى الأنف فحسب، بل ينفذ أثره وتأثيره إلى الروح والنفس ويلقي فيهما السكينة والطمأنينة والراحة والمتعة في وقتٍ واحدٍ، ويجعل من يشمه يُحلق في جنبات الكون حتى وإن كانت قدماه على الأرض.. الآن فقط انتبهت لروعة العطر بعد أن زال الخطر.

حاولت التملص من سحره، لكنها دون قصد هربت منه إليه حين نظرتْ إلى عينيْه الذهبيتين وقالت وهي تُغالب نفسها وكأنها ما زالت على حالة الانبهار وعدم التصديق:

– لو لم أراك أمامي مرةً أخرى لأقسمت أن ما مررت به بالأمس لم يكن سوى حلم.. كيف فعلت ما فعلت؟ ولماذا لا يوجد أمامك مكان آخر تذهب إليه؟

نظر لها بحيرةٍ ووجومٍ لا يدري ماذا يقول، قبل أن يجمع حروف الكلم الهاربة متمتمًا بحيرةٍ شديدة:

– ليست لدي أي إجابة على أسئلتك.. كل ما أعرفه أنني فتحت عيني في المقابر حيث قابلتك فاقدًا كل ما يربطني بذكرياتي وحياتي السابقة، لم أعثر في ملابسي على أي شيء يدل على شخصيتي، وحين احتجت للدفاع عن نفسي وعنك وجدتني أفعل ما فعلت دون أن أدري كيف.

صوَّبت نظرها على وجهه الجميل وقالت وهي تُحاول استيعاب ما فاق عقلها وتفكيرها:

- ربما تعرَّضت لحادثٍ أفقدك الذاكرة أو اعتدى عليك أحدهم، ملامحك وهيئتك توحي بأنك كنت شخصًا مهمًّا.

أطرق وجهه في الأرض وأجاب وهو يُحاول أن يجلب ويحلب أي تفصيلة من تفاصيل الماضي:

- ربما

ثم رفع عينيْه إليها وسألها وهو يتأملها بعينيْن أقوى من الجاذبية الأرضية:

- وماذا عنكِ؟

تطلعت إلى ملامحه وهى تفنده وتمسحه مسحًا، ثم أجابت على سؤاله بسؤال:

- هل بإمكانك أن تفعل ما فعلت بالأمس؟

زوى ما بين حاجبيه وأجابها:

- لستُ أفهم مقصدك

- أعني لو ظلمني أحدهم واحتجت إلى قدراتك المبهرة التي ما زلت غير قادرة على استيعابها.. هل ستقف إلى جانبي؟

- لا أستطيع أن أعدك بتكرار ما فعلت، لكن ما أؤكده لكِ أني سأبذل قصارى جهدي في مساعدتك لو كنتِ على حق.

سيطر الأمل واللهفة على ملامحها ونبراتها وهي تقول له وكأنها تتوسل:

- أقسم لك إني على حق، لم يعد لي من يُساعدني سواك فلا تتخل عني!

* * *

(7)

في سيارة موديل «شيفروليه أوبترا» ذات لون أحمر، تسير بسرعةٍ متوسطةٍ نسبيًّا على البحر، تأمل الشاب الوسيم كورنيش الإسكندرية الساحر، وشعر بقشعريرة تدب في أوصاله مع أمواج البحر المتلاحقة وقد اصطبغت بلون القمر الفضي، فيما تسللت رائحة اليود إلى أنفه وغمرت كيانه محدثة حالة من المتعة والانتشاء أجزم داخله أنه يمر بها لأول مرة في حياته رغم محو ماضيه وذكرياته، بينما جلست الفتاة إلى جواره على مقعد السائق لتمسك عجلة القيادة بقوة لعلها تفرغ فيها شحنة توترها المستعر في داخلها وهي تقترب من لحظةٍ حاسمةٍ في حياتها، وقد ارتدَّت ملابس مثيرة على غرار التي كانت ترتديها، غير أنها تخلت عن شعرها المستعار الأحمر الناري وبدت في غاية الرقة بشعرها البني الفاتح الذي تطايرت خصلاته على وجهها، لتحكي للشاب حكايتها وهي تقول:

«اسمي آيات صالح الراعي..

لا أملك في الدنيا أي شيء..

حتى اسمى سرقوه مني وصرت أستخدمه على سبيل الاستعارة»

توسدت ذكرياتها أمام عينيها وهي تتحدث حين كانت طفلة صغيرة تنام فوق سريرٍ متواضعٍ في حجرةٍ بسيطةٍ تنم عن الفقر، بينما يوقظها من النوم رجلٌ كبير -نسبيًّا- في السن، ذو شارب كث وحواجب غليظة اختلط فيها اللون الأبيض بالأسود..

«منذ أن فتحت عينيَّ على الدنيا وأنا يتيمة الأم.. أما أبي فكان فلاحًا عصاميًّا ضمن فلاحي بلدة (دميتوه) التابعة لمدينة (دمنهور) بمحافظة البحيرة، وأنجبني في سن متأخرة بعد أن مات كل إخوتي الذين سبقوني في أعمار صغيرة لم تتجاوز ١٠ شهور على أقصى تقدير.. لذا اقترحت عليه أمي أن يطلقوا عليَّ اسم آيات الذي يُعتبر شاذًا وغير مألوفٍ في الأوساط المسيحية، لعل الموت يُخطئني، وليت سهمه أصابني مثلما أصاب من جاءوا قبلي.. فقد جئتُ وبقيتُ حية بعد أن رحلت أمي في يوم مولدي»

ثم عادت تتذكر والدها وهو يجلس معها وهي طفلة على طبلية بها طبق صغير من الفول، ليؤكّلها بيده من الكمية القليلة دون أن يأكل هو..

«كان كل ما يعنيه في الدنيا أن يجعلني أعيش مستورة، حتى وإن نام كل ليلة على لحم بطنه، بعد أن يمنحني آخر لقمة استطاعت أن تصل لها يده»

- الطبلية تزداد بها كمية الأكل، ثم تتحول إلى مائدةٍ كبيرةٍ مملوءة بالطعام، وما زال الأب يقوم بإطعام طفلته..

«ومع الأيام، ازداد رزق السماء ورعاه الله بالبركة، ليظل شغل أبي الشاغل أن يسعدني دون أن يفكر في نفسه يومًا»

- الطفلة تطل من نافذة دار تسكنها لتتأمل أرضًا زراعيةً كبيرة ذات محاصيل مختلفة ومتنوعة، وتنظر لها بفرحة، فيما ينحني والدها ليطبع قبلة على يد قسيسٍ يزور أرضه ويباركها.

- الأب يُغادر سيارته الملاكي مرتديًا قفطانًا فخمًا، وعِمة، وقد تحوَّل شعره وحاجباه إلى اللون الأبيض تمامًا، وفي يده الطفلة (آيات) التي كبرت نوعًا ما وهي تمسك يده متجهين إلى مدخل الشركة الذي يصطف عليه الغلابة والمساكين، فيقوم الأب بإخراج أموالٍ كثيرةٍ يوزعها عليهم والكل يأخذ منه المال ويدعو له.

"في البداية اشترى قطعة أرض صغيرة، ثم وسَّع نشاطه رويدًا رويدًا إلى أن دخل مجال التصدير، وأصبحت لديه شركة صغيرة أسسها في منطقة (محرم بك) هنا في الإسكندرية التي انتقلنا للعيش فيها، وسرعان ما كبرت الشركة وتضخمت نشاطاته لتصبح إمبراطورية باسمه، وانتقلنا للعيش في منطقة (كفر عبده)، أجمل وأرقى مناطق الإسكندرية، لكنه ظل على نفس الحال من الإيمان والمحبة والعطف على المساكين دون أن

تفرق معه دياناتهم، لا سيما أن جذور عائلتنا كانت يهودية كما أخبرني، وشارك جدي الأكبر في بناء ضريح (أبو حصيرة)*"

تفيق من ذكرياتها وهي تقود سيارتها التي تمر من أمام مول (كارفور) وتحديدًا حيز منطقة الـ(داون تاون)، وما زال الشاب الوسيم الذي يجاورها، يستمع إليها باهتمامٍ شديد..

"مع الوقت بدأت أكبر وأفهم أنه ضحَّى بكل شيء من أجلي، بعد أن حرم نفسه من كل متع الدنيا، لكن مع الوقت لم يستطع أن يكمل حياته بلا امرأة تكون سندًا له.. كان هذا حين أخبرني ذات يوم أنه عقد العزم على الزواج من إيريني، سكرتيرته الخاصة.. فلم أملك سوى تقبل الأمر ومباركته على مضض.. وتمنيتُ حينها لو قلت له تزوج من أي امرأة على وجه الأرض إلا هذه المرأة.. لكن يا خسارة.. لم أستطع"

تسبح في ذكرياتها مجددًا لتسترجع فرح والدها على (إيريني) التي يقف إلى جوارها طفل صغير، بينما كانت (آيات) أكبر منه قليلا، لتنظر لوالدها في فرحةٍ مزيفةٍ لم تنجح أن تخفي دموعها التي تلمع في عينيها..

"كانت إيريني أرملة ولديها طفل صغير اسمه أمير.. وعدها أبي أنه لن يفرق في المعاملة بيني وبينه"

(إيريني) تقوم بضرب (آيات) وتطردها من على مائدة الطعام في غياب الأب، بينما تحنو على ابنها وتطعمه بيديها.

"لكنها هي التي فرَّقت بيننا.. وكان العقاب والقسوة دائمًا من نصيبي.. والضحك والحنان والأكلة الحلوة من نصيبه"

---

* أبو حصيرة: هو لقب الحاخام اليهودي يعقوب بن مسعود.. عاش في القرن التاسع عشر، وينتمي إلى عائلة يهودية كبيرة اسمها عائلة الباز في المغرب، ثم هاجر بعض أفرادها إلى مصر ودول أخرى وبقي بعضهم في المغرب على مرِّ العصور. وتذكر رواية شعبية يهودية أنه غادر المغرب لزيارة أماكن مقدسة في فلسطين إلا أن سفينته غرقت في البحر، وظل متعلقًا بحصيرة قادته إلى سوريا، ثم توجه منها إلى فلسطين، وبعد زيارتها غادرها متوجهًا إلى المغرب عبر مصر ونزل في قرية (دميتوه) في (دمنهور)، ليدفن هناك عام ١٨٨٠ بعد أن أوصى بدفنه هناك.

الأب يعود للمنزل فتمثل (إيريني) دور الأم الحنون وتقوم بتقبيل (آيات) والمسح على شعرها..

"كنتُ أخشى على مشاعر والدي الذي رأيت السعادة والبهجة على ملامحه بشكلٍ لم أعهده طوال حياتي، فكتمت داخلي ما أعانيه حتى لا أكدر صفوه وهو الذي ضحى بعمره كله من أجل أن يسعدني"

الأب يرقدُ على فراش المرض، بينما يكشف عليه الطبيب في حضور (إيريني) و(آيات) التي تُقبل يديه وتتطلع إلى عينيه بعينين باكيتين ملأى بالحب والحنان، وكذا يقف (شوقي) محامي المُقدّس (صالح) متأملا للمشهد..

"ورقد أبي على فراش المرض بعدما كبرت سنه ووهنت عظامه، ولم يكن لديه شخص يثق فيه سوى إيريني التي استأمنها على اسمه وماله وابنته الوحيدة، لكنها لم تكن على مستوى الثقة، لا هي ولا شوقي محامي الشركة"

(إيريني) تسير في أروقة الشركة وقد تغيرت أزياؤها تمامًا، وسط ترحاب الجميع الشديد، قبل أن تصل إلى مكتبها ثم يدخل عليها (شوقي) المحامي وعلى وجهه ابتسامة ثعلب ماكر..

"ما أن عمل لها والدي توكيل عام وأصبحت كل الخيوط في يدها، حتى سقطت كل الأقنعة وظهرت الصورة كاملة بكل مساوئها"

(آيات) تدخل مكتب والدها فتجد (إيريني) في حضن المحامي فترتسم الصدمة على ملامحها وهي تنظر لهما بصدمة شديدة، بينما تعتدل زوجة أبيها في جلستها ويبتعد عنها المحامي بسرعة.

"ويمكر الشياطين تحالفت مع محامي أبي، وسيطرا على كل كبيرة وصغيرة في غياب والدي الذي ظلت حالته تتدهور يومًا بعد يوم..

حاولت أن أصلح الأمر بنفسي دون أن أخبره بالحقيقة خوفًا عليه من صدمة لن يحتملها في مرضه الشديد، لكن هذا لم يكن مبررًا كافيًا لتعطيل أمر الله الذي كانت كل الشواهد تؤكد قرب وقوعه حتى صار أمرًا مفعولا تيقنت منه وأنا أواري أبي الثرى بعد أن تنيحت روحه الطاهرة"

ومع آخر حروف كلماتها أمطرت عيناها سيلا شلالا وهي تقول بتأثر بالغ:

- في حياتنا أحباء يموتون مرةً واحدة، ونموت نحن بفقدهم في كل لحظة.

ثم أخذت هدنة مؤقتة من ذكرياتها المتدفقة كنبع نهر، ليختفي من عينيها الماضي دون أن تختفي الدموع السحاحة فانتهز الشاب الوسيم فرصة توقفها عن الحكي وسألها:

- وأين باقي أفراد عائلتك الذين كان من المفترض أن تلجئي لهم؟

التفتت إليه وقد تجمدت الدموع في مقلتيها وقالت بنبرة صوت متهدجة:

- منذ أن وعيت على الدنيا وليس لي سوى والدي الذي أخبرني أننا آخر فرع في شجرة عقيمة اقتلع خريف القدر كل أصولها، وحين رحل وجدتُ نفسي كشمعة في مهب الريح، بلا أهل أو سند.

نظر لها الشاب الوسيم بحزن، واستمر بينهما النظر، قبل أن تغرق في ذكرياتها مجددًا..

في منزلها الفاخر انقضت (آيات) على الخادمة التي تقتلع صورة والدها من على الحائط صائحةً فيها:

- ماذا تفعلين أيتها المجنونة؟

الخادمة (بتحد):

- هذه أوامر إيريني هانم.

ومع آخر حرف غادر شفتيْ الخادمة، حضرت (إيريني) ومعها ضابط وقوات من الشرطة على يمينها، و(شوقي) المحامي وابنها الصغير (أمير) على يسارها، لتشير إلى (آيات) بحزم وقسوة:

- هذه هي الفتاة يا حضرة الضابط.

الضابط ينادي في العساكر بصيغة الأمر:

- أحضروها!

(آيات) تتراجع إلى الخلف بينما ينقض عليها اثنان من العساكر ويصحبانها بغلظة بينما تقول (إيريني) بقسوة:

- صدق من قال، خيرا تعمل شرا تلقى.. أبعد أن أخذك المقدس صالح من الشارع أيتها اللقيطة وتبناكِ مثل ابنته، تكون السرقة هي جزاءنا قبل أن تجف دماؤه في قبره؟

اتسعت عينا (آيات) وهي تصرخ كالممسوسة:

- اخرسي يا كاذبة.. المقدس صالح كان أبي، واللص الحقيقي هو أنتِ أيتها العاهرة التي لم تصن عرض زوجها في مرضه.

صفعتها (إيريني) بعنف وهي تصيح فيها:

- قطع لسانك يا ابنة الزنا.. كيف لابنة حرام مثلك أن تسب أسيادها وتدعي نسبها إلى الرجل الطاهر.. إنه والد ابني أمير وحده، أما أنتِ فستعودين من حيث أتيتِ بعد أن انتهت علاقتك بهذا المكان.

(شوقي) المحامي يخرج ورقة من جيبه ويسلمها للضابط قائلاً:

- أرجو أن تثبت سعادتك في المحضر أن المرحوم صالح قدس الله روحه كان قد ترك وصية أكد فيها أن هذه الفتاة ليست ابنته وأنه اعترف بذلك حتى يُريح ضميره.. وحين أخبرناها بالحقيقة رفضت أن تصدقنا وسرقت موكلتي.

تنتفض (آيات) في ثورة وتُحاول التملص من أيدي العساكر وهي تبكي وتصرخ بعنف:

- كااااااااااااذب.. كلكم كاذبون.. أنا ابنته غصبًا عنكم وعن الدنيا كلها.

الضابط يأخذ الورقة من المحامي ليقرأها، ثم يطويها ويضعها في جيبه قبل أن يهم بالانصراف بينما تسحب العساكر (آيات) التي ما زالت تبكي

التملص منهم، لتمر وهم يجرجرونها إلى جوار (إيريني) التي ... لها في شماتة وقسوة، فتبصق (آيات) في وجهها وهي تصرخ:

أقسم أني سأدمر حياتك قبل أن أقتلك.. لن تجدِي في الأرض شبرًا واحدًا تختبئين فيه من مصيرك الأسود.

... (إيريني) وجهها من البصقة بغلٍّ، ثم صفعت (آيات) بغضبٍ وهي تنظر إلى سلسلة ذهبية ترتديها ومعلق بها صليب، لتتشبث ... ثم تنتزعها من على رقبتها لتمزقها في الوقت الذي يسحبها ... العساكر ويرحلون بها.

... دموع (آيات) بحرقةٍ شديدةٍ في سيارتها التي توقفت في مكانٍ ... الأضواء، وانهارت في نحيبٍ وفي خلفيتها ملهى ليلي مكتوبٌ ... واجهته باللون الأحمر "Black Devil"، في حين تأمل الشاب ... سيارات فارهة – ثمن واحدة منهم كفيل بحل أزمة عائلة بأكملها ... شبابٌ أثرياء يبدو على ملابسهم وأشكالهم الترف وهم يدخلون ... بخلاف فتيات ذات ملابس عارية وفاخرة في الوقت نفسه، ... المكان بصحبة شباب آخر ليركبن معهم سياراتهم..

... الشاب الوسيم يتأمل ملامح (آيات) وهي تتابع بصوت لم يتخلص ... من نبرته الباكية:

... في الأوراق الرسمية، ويدَّلوا الحقائق باستخدام أقوى أداة ... على صنع المستحيلات.. المال.. خاصة لو كان الأمر في يد ... ضعاف النفوس، وفي بلدٍ كبلادي التي صار كل شيء فيها ... للبيع.

... الآن ما زلت أذكر أول يوم لي في مؤسسة رعاية الأحداث مع ... الشوارع واللصوص والمتسولين واللقطاء.. في البداية أقسمت ... الانتقام، لكن يوما بعد يوم تلخصت أحلامي في مغادرة المكان ... إلى جوار الحائط حتى لا أعود للسجن مرة أخرى أبدًا.. تعلمت ... لزمن كان أقصى طموحي فيه أن تنتهي الحصة الأخيرة في ... حتى أعود لمنزلنا وأشاهد الفيلم العربي وأنا أتناول الغداء ... نفسي بالارتماء في حضن أبي فور عودته من العمل.. وجاء ... الذي غادرت فيه موطن الإجرام والمجرمين.. لكني وجدت الدنيا

كلها وقد باتت سجنًا كبيرًا لا أعرف كيف الخلاص منه".

مع حروف كلماتها الأخيرة انتحبت حتى فقدت القدرة على الكلام وا رأسها على صدرها وهي تنتفض، ليتأملها الشاب بتأثر ثم التقط مناديل ورقية من علبة كارتونية في السيارة، وناولها لها قائلاً بحزم:

- جففي دموعًا لن تُغير من ذكرياتك الحزينة شيئًا، واستلهمي أحزانك ما يُعينك على القضاء عليها!

توقف نحيبها بينما ما زالت دموعها الساخنة تلهب وجنتيها، ثم حا أن تستجمع قواها وهي تواصل بشفتين مرتعشتين:

- بعد أن خرجتُ من الأحداث مررت بظروف عصيبة ربما في غنى عن ذكرها الآن، قبل أن تتعرف عليَّ في الكنيسة قادتني للعمل مع ريمون عزيز.. صاحب ملهى "بلاك د الذي تم تشييده على أحدث صيحة لنوادي الليل العالمية.

بدأت دموعُها في التوقف حين ابتلعت ريقها ثم استطردت:

- تعرفت عليه من خلال مكتب جرافيك كنت قد التحقت بالع به بعد خروجي من الأحداث.. في البداية أقنعني أنه مح لبناتٍ ذات مظهر جذاب وتنطبق عليهن مواصفاتٌ خاصة المظهر والجمال وإجادة اللغة حتى يسهمن في الترويج للمكا وحتى يغريني أكثرُ عرض عليَّ أن يستأجر لي شقة فخمة مكانٍ محترمٍ ويمنحني سيارة فاخرة حتى لا أتعرض لمتا المواصلات.

ثم عادت لتتذكر بداية رحلتها مع (ريمون عزيز)..

- رأته في عين خيالها وهو يصطحبها لأحد مراكز التجم ويتحدث مع الفتيات هناك ويخبرهن بطلباته التي يريد تنفي في ملامح وجسد فريسته الجديدة.

- استسلمت للفتايات اللاتي يضعن على وجهها وجسدها لمسا السحرية لتنعيم بشرتها وصنفرة وجهها وتزويدها بكل ما جديد وجذاب في عالم الأنوثة والإثارة، قبل أن ترتدي

مستعارًا ذات لون أحمر ناري.

دخلت أحدث محلات الملابس، وارتدت في غرفة البروفة كل ما هو ثمين وساخن قبل أن تخرج ويتأملها (ريمون) بنظرات شيطانية.

"لم يبخل عليَّ بمصاريف سخية دفعها من أجل تغيير شكلي ومظهري.. استغل إجادتي للغة الإنجليزية التي أتقنتها منذ أن كنت طالبة بمدارس أجنبية حتى يقدمني لمعارفه وأصدقائه على أني خريجة الجامعة الأمريكية ابنة الحسب والنسب.. كنت حينها يائسة من رحمة الله وعطف البشر بسبب ما عانيته بعد خروجي من الأحداث، لذا قررت أن أبيع بالغالي بدلا من أن أمنح بلا مقابل".

جملتها الأخيرة وهي تنظر للشاب بخجل، في حين تأملها بهدوء

كل المسكنات بطيئة المفعول ولا تقوم بدورها على أكمل وجه حيال آلامنا الشديدة.. إلا مسكنات الضمير المصنوعة من حججنا الكاذبة ومبرراتنا الوهمية، وحدها التي صنعها الإنسان بإجادة تامة.. وكلما كان الإنسان عابدًا لأحلام عزيزة المنال، كلما كان مفعولها أقوى وأسرع.

هذا حقيقي.. لذا استيقظت متأخرًا بعد أن علمت أنه فعل مع كل البنات اللاتي شغَّلهن عنده، نفس ما فعل معي، وأن الأمر أكبر بكثير من تجارة لحم رخيص.

أطل الاستفهام من عيني الشاب لتقول لها نظراته: "أكملي" فأردفت:

كان كل هدفه إقناع رواد المكان من الشباب الأكابر أبناء كبار البلد، أن الفتيات المتواجدات في الملهى لسن بنات ليل يعملن في المكان، ولكنهن بنات من صفوة المجتمع، يعشقن الحفلات والرقص والشرب، حتى يحوم الشباب حولهن باعتبارهن صيدًا ثمينًا، ثم يعتقدون أنهم أوقعوا الفتيات في شباكهم دون أن يُدركوا أنهم هم الذين سقطوا في الفخ، لتصطحب فتيات ريمون

هؤلاء الشباب لحفلات أخرى خاصة تقام في فيلات فاخرة كل شيء فيها مباح ومتاح، وهناك يتحول هؤلاء الشباب تباعًا إلى مدمنين لأحدث أنواع المخدرات مثل الطوابع والأكس تي وغيرهم، ويتم تسجيل مقاطع جنسية فاضحة لهم، حتى يتم تجنيدهم للتجسس على أهاليهم أصحاب المناصب والهامات وحلب المصالح والمكاسب منهم حتى آخر رمق.

تطلع إليها الشاب باهتمام وتفاعل قبل أن يسألها:

- ولماذا لم تتركي العمل؟

- هل تعتقد أن ريمون كان سيصرف علينا كل هذه المبالغ دون أن يضمن حقه؟ كل فتاة صرف عليها قرشًا واحدًا وقعت في مقابله شيكًا على بياض، ووعدنا أننا سنسترد تلك الشيكات بعد أن نسدد ما صرفه علينا ونقدم له الخدمات التي يحتاجها، بل أن حوّل العناوين المدونة في بطاقاتنا الشخصية على الشقق التي اشتراها لنا حتى يضمن سيطرته علينا، وكل واحدة منا تدرك جيدًا أنه لن يُعيد لنا تلك الشيكات أبدًا..

منذ قريب شاهدت فيلمًا وثائقيًا عن الاتجار بالبشر لصحفية بلغارية قامت بمغامرة انتحلت من خلالها شخصية عاهرة حتى تكشف كواليس هذا العالم، والتقت بنساء تم خطفهن من دول البلقان مثل ألبانيا وبلغاريا ومقدونيا وغيرها بعد أن يستغل الخاطفون ضيق أحوالهن المادية وضجرهن من عيشة أهاليهن، وبعدها تبدأ عملية التدمير، وهي أيام أو أسابيع من التعذيب والاغتصاب التي تهدف إلى كسر روح الضحية ومقاومتها، وبعضهن خضعن للتصوير بالفيديو أثناء عمليات اغتصاب جماعي، وكانت هذه طريقة فعَّالة للسيطرة على الضحايا، يكفي أن يقول القواد للضحية: "إن فكرتِ بالهرب منا فإن لدينا الصور ولدينا الدليل، نعرف أين تسكنين، وسنرسل هذه الصور لوالدك وأمك".

تخيل معي هذا المشهد: إحدى الشقق في أحد الأحياء البسيطة في إسطنبول، حيث يعيش في الشقة رجلٌ وزوجته مع اثنين

من الأطفال ولديهم غرفة إضافية مغلقة دائمًا.. يطرق بعض الرجال الباب خلال النهار، يفتح الزوج باب الغرفة ويقف في الخارج، ثم يُرافق الرجال إلى باب العمارة بعد الانتهاء ليقبض منهم المال ويطلب منهم أن يزوروه مجددًا، بينما تكون زوجته في تلك الأثناء منشغلة بعمل البيت الروتيني فتغسل الأطباق أو تشاهد التلفاز، غير عابئةٍ أو مهتمةٍ بما يجري داخل تلك الغرفة المحبوس فيها ثلاث فتيات تم تهريبهن من مولودوفا، وعلى الأرض بعض البطانيات القذرة ينمن عليها.. يلبسن قمصانًا وملابس داخلية رثة أما النافذة فمغلقة تمامًا، لا فرصة للاستحمام لأيام عديدة.. يدخل الزبون الغرفة، يختار البنت، ويكون الدفع بالدقيقة، أما من لم يقع عليهما الاختيار، فتجلسان في الزاوية إلى أن ينتهي الزبون، تواجهان الجدار.

إحدى البنات تبحث عن شيء حاد لتقطعَ به عروقها وتموت، إلا أنها لا تجد شيئًا في الغرفة، تُفكر في سرقةِ أي أداةٍ حادة من زبونٍ حين يأتي، كسكين قصافة أظافر مثلاً، ولكن أنى لها أن تمد يدها إلى جيبه، لينتظر الثلاث فتيات أن يفتح صاحب الشقة المخطوفات فيها باب الحجرة حتى يرمي بعض حبات الموز في الغرفة ثم يغلق الباب بسرعة، دون أن تمثل له هذه الفتيات شيئًا سوى حيوانات قذرة*.

تنهدت الفتاةُ تنهيدةً حارةً، فرَّت فيها الدموع رغمًا عنها من مقلتيها بعد أن كانت تغلق بوابة قنواتها الدمعية، واستطردت:

كانت مشاهدةُ هذا الفيلم علامةً فارقةً في حياتي.. بكيت كما لم أبك من قبل ورأيتُ نفسي في بطلات الفيلم الحقيقيات.. فنحن الذين ننزف كل شهر للمساعدة في بقاء الجنس البشري، وأرحامنا هي بيت الروح الإلهية، لكن الرجال لا ينظرون إلينا إلا كسلعةٍ جنسية.. وحين أردتُ التمرد على هذا الوضع والنهوض من سقطتي، لم أجد سوى قبر أبي الذي قادتني إليه قدماي

* كل ما ورد حول هذه المغامرة الصحفية مأخوذٌ من تجربةٍ حقيقيةٍ في مقالة حملت اسم (ثمن الجنس: مغامرة صحفيّة خطيرة لغرض نبيل) للكاتبة ميمي شاكاروفا، ترجمة محمد زيدان.

رغم خوفي الشديد من المقابر، لأنسى أمامه الدنيا والزمن حتى
زفر الشاب بضيق شديدٍ وهو يتطلع إليها مصدومًا لا يعرف ماذا يقول
فانكبَّت على يديه فجأة وقبلتهما بذل وتوسل:

- أُقبِّل يديك.. ابذل قصارى جهدك لإنقاذي.. (**انحدرت من عينيْها دمعةٌ أخيرة ختمت بها كلامها**) لقد صرتُ امرأةً رخيصة لا ثمن لها، وأنت أملي الأخير في أن أسترد آدميتي وشرفي المفقود، أو أخسر كل شيء.

لمعت عينا الشاب ببريقٍ يفيض بالتحدي وهو يسحب يده من تحت شفتيها الساخنتين، وسأل بحروفٍ هادئة بطيئة تطل منها صرامة الدنيا كلها وهو ينظر إلى الملهى المطل في خلفية (آيات):

- أهذا هو المكان؟

تأملت ملامحه بتوجسٍ وقلقٍ وقد حانت لحظة المواجهة، قبل أن تومئ برأسها إيجابًا في ترددٍ، دون أن تقوى على النطق.

* * *

(8)

(آيات) في مدخل الملهى الليلي، وعلى يمينها الشاب الوسيم، بين ٤ رجالٍ ضخام الجثة برؤوس صلعاء تمامًا، وقد بدت عضلات منهم مجسمةً تحت البذلة التي يرتديها، كصورة مصغرةٍ من البطل الأسطوري **Hulk**، قبل أن يظهر (نصحي) المسئول عن استقبال الزبائن الباب، لتوحي ملامحه بأنه رجل في بداية الأربعينيات، جبهته وكأنها دهستها دبابة، ذو مقدمة شعر خفيفة تميل للصلع، وعلى الأسود الطويل المموج كميةٌ كبيرةٌ من مثبت الشعر جعلته شديد، ويرتدي قميصًا كاجوال معظم أزراره مفتوحةٌ كاشفةٌ عن صدر كعروس في ليلة زفافها، وتتوسطه سلسلةٌ ذهبيةٌ ضخمةٌ، بينما تنم وجهه عن الخباثة والدهاء..

(نصحي) الشاب الوسيم الذى بدا نجمًا سينمائيًّا ببذلته الغريبة التي وشعره المصفف، ثم هيأ على لسانه كلمات الترحيب بالصيد معتقدًا أن (آيات) أوقعته في شباكها، وما أن فتح فمه الخرب حتى أسنانه المسوسة التي تنافس على كسوتها اللونان الأصفر والأسود بعض التجاويف الفارغة لأسنان سقطت ولن تعود:

- أهلاً وسهلاً معالي الباشا.. أنرت المكان كله.

وعيناه تفترسان وجه الشاب بنظرات ذئب، فقاطعته (آيات) بصرامة:

- لا شأن لك به يا نصحي.. إنه ليس زبونًا كما تعتقد.

الابتسامة عن وجهه، وأظلمت ملامحه فاستطردت بنفس الصرامة:

- هل السيد ريمون في مكتبه؟

حاجبيْه وأجابها بضيقٍ وصدمةٍ من طريقتها في الكلام:

- نعم، ولكن..

عاجلته بجملةٍ قاضيةٍ أنهت الحوار:

- فلتكمل عملك مع باقي الزبائن إذن.. فأنا أعرفُ طريقي جيدًا

قالتها وهي توليه ظهرها، متجهةً بصحبة الشاب الوسيم إلى الداخل و
خلفها (نصحي) الذي اتسعت عيناه، ثم أشار لأحد ديناصوراته ليقترب
منه مسرعًا وينحني حتى أصبحت أذنه أمام فم سيده الذي همس في
بكلماتٍ مقتضبةٍ وهو يشير نحو (آيات) وملاكها الحارس.

* * *

على خلفية أغنية "Love" للمطربة "Inna" أصبح الشاب الوسيم و
(آيات) في قلب الملهى لتتسع عيناه بدهشةٍ عارمةٍ وهو يشاهد هذا ال
الغريب في الوقت الذي صفق فيه بعض رواد المكان لبدء هذه الأ
التي راقت لهم كثيرًا..

اندمج البارمان مع الأغنية ليقوم بفتح زجاجات الخمر بسرعةٍ شد
لتفور في وقتٍ واحدٍ وبشكلٍ استعراضي، في حين يقوم بصبها بشكلٍ
سريع ومبهر في الكؤوس ليتهافت الشباب والفتيات على التقاط الكؤوس
وشربها في آنٍ واحد..

وعلى المسرح تراقص الشباب والفتيات بشكل هستيري، ليقع نظر الشاب
الوسيم على شابٍ وفتاةٍ يرقصان بمهارة عالية حتى إن الجميع توقفوا عن
الرقص ليصنعوا دائرةً حولهما، وأخذوا يصفقون لرقصهما الاستعراضي
المبهر..

كان ذلك حين دخل المكان ذلك الرجل ذو العينين الزرقاوين اللامعتين
والبذلة الرمادية ذات التفصيلة الغريبة، ليراقبَ الأجواء بابتسامة ساخرة
اتسعت حين رأى حول جميع رواد المكان هالات حمراء، عدا الشاب
الوسيم الذي كانت تُحيطه هالة خضراء، ما أن رآها الرجل المريب حتى
تبددت ابتسامته، وارتسم الغضبُ بأعتى صوره على ملامحه، قبل أن
ينقل بصره نحو (آيات) التي أحاطتها هالة رمادية.

على إحدى الموائد نظر مجموعةٌ من الشباب لمائدة مجاورة تجلس عليها
مجموعة من الفتيات ذوات المظهر الأنيق جدًا والساخن للغاية في وقتٍ
واحدٍ، بشكلٍ يجعل الناظر لا يشك لحظةً في أنهن فتيات ليل، بقدر ما
يشعر أنهن فتيات متحررات من رواد المكان الذي يأتيه أبناء الطبقة
الأرستقراطية.

أحد الشباب مقعده وذهب للحديث مع إحداهن ثم أشار إلى
التي يجلس عليها أصدقاؤه، فابتسمت الفتاة بدورها وأشارت لباقي
رفيقاتها ليذهبن جميعًا بصحبة الشاب إلى مائدة أصدقائه ويجلسون
جميعًا في صحبة واحدة.

على البار، جلست فتاة ذات شعر باذنجاني ترتدي "هوت شورت" أزرق
و"بادي" حمالات أبيض، وما أن تلمح (آيات) وهي تسير في المكان
بصحبة الشاب الوسيم، حتى تلكز صديقتها ذات البشرة الخمرية ذات
الخصلات الذهبية بفعل "تان" أخذته تحت الشمس، بخلاف شعرها البني
الفاتح، المتناغم مع لون التنورة القصيرة الضيقة التي لها لون الجلد
وكأنها ترتدي لا شيء، فيما اكتسى نصفها الأعلى بـ "بادي" ضيق
يبرز منه صدرها المنفوخ لتتأمل كل من الفتاتين الشاب الوسيم، قبل
أن تتجها إليه وهما تؤديان الحركات الراقصة، وما أن تقتربا حتى ينظر
إليهما الشاب بصدمةٍ وحيرة، بينما يتسلل شذى رائحته إلى صدريهما
ليهيج داخلهما الإثارة والاشتهاء، في الوقت الذي استمتعت كل منهما
بالنظر إلى بهاء ملامحه وقوامه الممشوق لتمنحاه نظرةً تفيض بالرغبة،
وتخرج كل منهما لسانها اللامع بعلق الشهوة، فتشير (آيات) لإحداهما
بالتوقف، فتستغل الأخرى انشغال (آيات) بزميلتها لتقترب من الشاب
الوسيم وتمسح كتفيها في صدره، ليتراجع كمن مسَّه تيار كهربي، وقد
شعر داخله باستيقاظ شيء خاملٍ دبَّت فيه نيران خفية أرَّقت نومته،
ظلت تتأجج ويشتد وهجها في سرعةٍ رهيبة، غير أنها عكس باقي
النيران كانت تبحث عن الانطفاء والخمود في كيانٍ يحتويها وتفرغ فيه
لهيبها، حتى تنطفئ جذوتها وتموت شعلتها في رضا وسعادة، ليلمح
الرجل ذو العينين الزرقاوين تلك الهالة الخضراء المحيطة بالشاب وهي
تتحول إلى اللون الأحمر للحظات، ثم خبتْ حمرتها وعادت من جديدٍ
إلى اللون الأخضر الخصيب، حين انتبهت (آيات) للفتاة ودفعتها بعنفٍ
وهي تنظرُ لها شزرًا صارخة فيها:

- قبض الله روحك!

مع كلمة "الله" طاقة غير عادية سرت في أوصال الشاب، ليقشعر
جسده، وترتعش حواسه وهو يشعر في أعمق أعماقه بموجة عاتية تقلب
كيانه وتُعيد تشكيل ذرات جسده، فتنتفض عروقه، وتتضخم عضلاته،
لتصير عظامه غير قابلة للكسر.

ومن بعيد، وقف (نصحي) وهو ينفث دخان سيجارته، ليتابع مو... (آيات) بنظرة نمر تضيق حدقتاه، قبل أن يُلقي سيجارته ويدهسها بحذائه ثم يتجه نحو مكتب (ريمون) صاحب المكان.

* * *

دخل (نصحي) مكتب (ريمون) الفاخر الذي يحتوي على أثاثات وديكورات تنتمي لنوعية الـ "ألترا مودرن"، بينما تزين جنباته تماثيل منحوتة لنساء عاريات، وقطع عديدة من الأنتيكة، ويكسو الحائط الذي يستند إليه مقعد المكتب الذي يجلس عليه (ريمون) صورة ضخمة لنجمة الإغراء الراحلة (مارلين مونرو)، بينما تناثرت على باقي الحوائط صور أخرى تجريدية ليست واضحة التفاصيل، وإن كان تكوينها يميل للغموض والرهبة ويخيل لمن يشاهد ألونها الغامقة أن الشيطان يطل منها، لا سيما مع تلك الإضاءة الهادئة ذات الألوان الحمراء والبنفسجي والأخضر، لتتناغم بشكلٍ ساحر، وفي ركن المكان استقرَّ بار فخم وضخم من الرخام يـ... كمية كبيرة جدًا من أشهر أنواع الخمور..

فيما غاص (ريمون) في مقعده الضخم الوثير، ممددًا قدميْه على المكتب مرتديًا طقمًا جلديًّا فخمًا للغاية، سواء البنطال المرسوم عليه نقوشات مميزة، أو القميص المفتوح كله ولا يغلقه سوى زر واحد، وتطل من أسفله سلسلة ذهبية ضخمة، وشعر صدر كثيف، وحتى الحذاء كان مرصعًا بالذهب، وحول معصمه ساعة "رولكس" ثمينة جدًا، واضعًا حول عينيه كحلا، وعلى وجهه مكياجٌ كاملٌ، بينما حلق جانبيْ شعره تمامًا، وفي منتصف رأسه، صنع له كوافير أمريكي بماكينة شعر مخصوصة حلاقة على صورة حرباء تسيطر على جمجمته وتمتد مخالبها وكأنها تغرسها في جانبيْ رأسه المحلوقين، بينما ترك في مؤخرة شعره خصلة رفيعة طويلة معقوصة وكأنها ذيل الحرباء لتثير هيئته الرهبة في قلب من يُشاهده لأول مرة.

كل هذه تفاصيل اعتادت عليها عينا (نصحي) من جراء عمله اليومي كذراع يمنى لـ (ريمون) الذي يتحدث أمامه في هاتف خلوي صغير مصنوع من الذهب الخالص، وبكلماتٍ إنجليزية أمريكية تمامًا وبصوت منخفضٍ ألقى كلماته الأخيرة ثم أنهى مكالمته ووضع الموبايل على المكتب، قبل أن يخرج سيجارة "ماريجوانا" ليشعلها وينفث دخانها متأملا

...المكان، وهو يسأل (نصحي) بخيلاء دون أن ينظر إليه:

- خير يا نصحي؟

- لقد حضرت آيات يا ريمون بك

ابتسم الأخير ابتسامة واثقة مقتضبة، ثم نفث دخان سيجاره ببطء راسمًا دوائر في الهواء قبل أن يقول بسخرية:

- لم يكن أمامها خيارٌ آخر.

إلا أن (نصحي) باغته بتوتر:

- لكنها لم تأت بمفردها.

اعتدل (ريمون) في جلسته ليسأل بجدية وهو ينزل رجليه من على المكتب:

- من جاء معها؟

- "أنا"

قالها الشاب الوسيم بنبرةٍ واثقةٍ تموج بالصرامة وهو يدخل المكان بتحدٍ، وخلفه تسير (آيات) بجهازٍ عصبي كاد أن يحترق من التوجس والترقب، وقد تسارعت نبضاتُ قلبها حتى كادت أن تغطي على أصوات الموسيقى الصاخبة التي تتردد في أرجاء المكان.

أخذ (ريمون) نفسًا عميقًا من سيجارته ثم نهض وهو يتأمل الشاب الوسيم من شعر رأسه وحتى أخمص قدميه، في حين تقف (آيات) خلف كتفيْ الشاب تتطلع إلى المشهد برهبة، وداخل رأسها تتوالى كل الاحتمالات.

سار (ريمون) نحوهما بخطواتٍ تعمد أن تبدو مستهترةً حتى أصبح أمام الشاب فنفخ في وجهه دخان سيجاره وهو يسأله:

- من أنت؟

- ليس مهما أن تعرف من أنا، بل المهم أن تعرف ماذا أريد.



ضاقت عينا (ريمون) وهو يرمق الشاب بنظرةٍ ناريةٍ تفيض بالـ
قائلا:

- أؤمرني!

ران الصمتُ على المكان للحظات أخذ الشاب الوسيم يتأمل
ما يحدق به من ديكورات ورسومات، قبل أن يصوب سهام نظر
نحو (ريمون)، ويخرج ورقًا من جيب بذلته، ليمده نحوه قائلا بلهجة
صارمة:

- هذا عقد شقة آيات والسيارة التي اشتريتها لها.. شكرًا إلى
الحد.. حاجتك عندك ومن حقها أن تسترد الشيكات الخاصة
بها لديك.

اقترب (ريمون) منه أكثر حتى تلاقى أنفاهما:

- ماذا لو قلتُ ليس لها حق عندي؟

أجابه الشاب الوسيم بنظرةٍ صارمةٍ متحدية:

- من لا يحصل على حقه بالأصول والتراضي، يضطر أن ينتز
بالقوة.

قهقه (ريمون) ساخرًا ثم أردف باستخفاف:

- أوووووه.. واضح أنك جامد جدًا.. **(ألقى سيجاره فجأة ودهسها بقدمه وعيناه تبرقان بغضب متابعًا)** وأنا أحب أن أشاهد
لديك.. حتى أصفق لك.

قالها وهو يُصفق بيديه بصوتٍ عالٍ، لينفتح باب مكتبه ويدخل
رجال ضخام الجثة من المعينين لحراسات المكان، يرتدون بذلا
ذات شكل ولونٍ واحدٍ قبل أن يسأل أضخمهم:

- ماذا هناك يا ريمون بك؟

التفتت (آيات) نحو الرجال وارتسم الرعب والهلع على وجهها بأعلى

قبل أن تتراجع بعيدًا عن الشاب الوسيم وهي تتمتم بصوتٍ
يملؤه الرعب:

- استر يا رب.. دعه يفعل ما فعله بالأمس!

أجاب (ريمون) على حارسه ساخرًا:

- دعوتكم من أجل فقرة الساحر.. يظهر أن الأستاذ لديه عرضٌ
مجاني يريد أن يمنحنا متعة مشاهدته.. قل لي أيها الوسيم، هل
ستخرج نارًا من فمك أم ستُخرج بيضة من.....أذنيك.. دعنا
نعتبرها من أذنيك!

الشاب الوسيم الرجال ضخام الجثة ثم قال ببرود:

- قديمًا قالوا شجرة واحدة قادرة على صنع مليون عود ثقاب.. لكن
عود ثقاب واحد من الممكن أن يحرق مليون شجرة، أتمنى أن
تعوا الدرس قبل فوات الأوان.

أخرج أحد الرجال من جيب بذلته علبة ثقاب واقترب من الشاب
الوسيم وهو يفتحها أمامه قائلا بغلظة وقسوة:

- ها هو الثقاب.. أرنا كيف ستحرقنا!

الشاب الوسيم والتفت نحو (ريمون) متابعًا بنفس البرود:

- آخر مرة أطلب منك شيكات آيات يا سيد ريمون، ودعنا نمض
في سلام!

هذا الحد اقترب (نصحي) من الشاب الوسيم بغضبٍ هادرٍ لينقض
من ظهره ويُجبره على الالتفات إليه صائحًا:

- لقد انتهى وقتك أيها الجرذ الحقير **(يمسك فكه بقوة شديدة ويصوب إلى عينيه نظرة نارية ويتابع)** انفذ بجلدك واترك الفتاة
التي جاءت بك لمصير سوداوي لن تحتمله.. دعها تأكل خبز
واستغل آخر فرصة للنجاة قبل أن ندفنكما معًا بعد دقيقة واحدة
من الآن.



ومع آخر حروف كلماته دفع الشاب بقوة شديدة، إلا أن الشاب لم يتحرك قيد أنملة لتتسع عينا (نصحي) بدهشة، في حين ارتسمت نظرة ساخرة على وجه الشاب قبل أن يقترب من أضخم الرجال جثة والذي يقف إلى جوار البار الرخامي، ليضع الشاب يده على البار في وضع لعبة "رست" قائلاً بتحد:

- ترى هل أعصاب كبيركم قوية بشكل كافٍ؟

نظر (ريمون) للشاب الوسيم بدهشة، في حين تحفز الرجل الضخم، وقبل أن يتحدث أحدٌ، تابع الشاب:

- لو فاز عليَّ في التحدي، سأترك الفتاة وأرحل، أو نكون مستعدين للدفن.

نظر الحارس الخاص لـ(ريمون) بتساؤل، فقال له (ريمون) بعينيْه إنه موافق، ثم أخرج سيجارًا آخر أشعله وهو يتابع الموقف..

وضع البودي جارد يده على الجهة المقابلة من البار، وأمسك بيد الشاب الوسيم، وفي لحظةٍ خاطفةٍ دفع يده بقوةٍ شديدةٍ حتى إن يد الشاب تراجعت للخلف بسرعة..

واتسعت عينا (آيات) وهي تصرخ في ذعر: **"يا رب"**

فتجمدت كف الشاب فجأة قبل أن تلمس البار بسنتيمتر واحد، لتتسمر عند هذا الوضع، في حين أخذ البودي جارد يبذل جهدًا هائلا ليتم انتصاره حتى احمر وجهه وانتفضت عروق صلعته حتى أوشكت على الانفجار بينما انتفخت عضلات ذراعه اليمنى دون أن ينجح في تنزيل يد الشاب حتى النهاية، وفي غمار هذا كله احتفظ وجه الشاب بالهدوء والثقة، وإن أطلت من عينيه الصرامة، وهو يُطالع فشل الرجل في هزيمته..

عندها بدأت يد الشاب في الارتفاع ببطء لكنه قوي ومحسوب، بينما يتشنج الحارسُ ويصيح محاولاً منع ذلك دون جدوى..

ارتسمت الفرحةُ على وجه (آيات) بينما نظر (نصحي) بقلق نحو (ريمون) الذي أمر بعينيْه رجلا ثانيًا من رجاله أن يتدخل، فانقض الحارسُ الثاني على يد الشاب الوسيم وتعلق بها حتى يجعله يخسر دون

جدوى، لتواصل يد الشاب الوسيم تقدمها رغم تدخل الحارس الثاني، قبل أن يتدخل الحارس الثالث، ثم الرابع، ثم الخامس في حين تواصل يد الشاب التقدم حتى تهزم يده أياديهم كلها وتضعها على البار، ثم فجأة تلمع عيناه ويضغط بيده بقوةٍ شديدةٍ مفاجئة على أياديهم المتكدسة فوق بعضها على البار فيصرخوا جميعًا بألم شديد بينما تردد صوت انسحاق عظام كفوفهم مع تشقق رخام البار وكأن قوةً هائلةً تضغط عليه، قبل أن ينهار البار ويسقط جميع الرجال أرضًا، لتنهزم مخاوفُ (آيات) ويتراجع شبحها السوداوي الذي تجسَّد أمام عينيْها وهي تطلق شهقة فرح أفرغت شحنة التوتر ومكنونات نفسها وهي تنظر للشاب بفرحةٍ عارمةٍ غير مصدقة ما ترى..

أما (ريمون) فقد اتسعت عيناه بدهشةٍ وذهولٍ ليسقط السيجار من يده قبل أن يقفز إلى صورة (مارلين مونرو) التي تملأ الحائط الموجود خلف مكتبه، ليضغط على عينيها فتنفتح خزنةٌ سريةٌ تعمل ببصمة اليد، ويرى داخلها حقيبة سوداء ومسدسًا جذبه سريعًا ثم سحب أجزاءه وهو يوجهه إلى الشاب وفي عينيْه كل الغضب والشر..

* * *

في مسرح الملهى ما زالت نفس التفاصيل كما كانت، وما زالت أنغامُ نفس الأغنية تعمل، بينما يمارس الرجل ذو العينين الزرقاوين هوايته في مراقبة الأحداث، وفي لحظةٍ انقلب الحال تمامًا..

دوى في المكان صوت طلقة رصاص، وبعدها رأى الحضور الشاب الوسيم و(نصحي) و(ريمون) يخترقون جدارًا خشبيًّا كان يفصل بين الممر المؤدي إلى غرفة (ريمون) وصالة المكان، لينطلق ثلاثتهم في الهواء فجأة مرتطمين بالعديد من الموائد في عنفٍ شديدٍ وما زال في يد (ريمون) المسدس، رغم أنه قد فقد وعيه هو و(نصحي)، فينتبه 10 من الحراس لما حدث ويسرعوا نحو ثلاثتهم، بينما توقفت الأغنية وتراجع الجميع بعد أن توقفوا عن الرقص ليغادروا المكان في عشوائية وتخبط شديد في الوقت الذي أطلقت فيه النساء صيحات الخوف والفزع، وعلى عكس رد فعل الباقين اتسعت ابتسامةُ الرجل ذي العينين الزرقاوين وهو يسير عكس التيار البشري المتدفق للخارج وكأنه لا يعبأ بما يحدث وما هو متوقع حدوثه، لينزوي في ركن بالمكان ويتابع عن كثب..

ما أن يصل الحراس العشرة حتى يهب الشاب بقوة جبارة ليمسك بإحدى
الموائد ويقفز بها في الهواء في دورة بهلوانية رأسيةً وما أن تُلامس قدماه
الأرض حتى يكون قد ألقى الترابيزة بكل قوته نحو الحراس لترتطم بثلاثة
منهم في عنف وتتحطم تمامًا، بينما ينقض باقي الرجال السبعة عليه
في نفس لحظة إمساكه بمائدةٍ أخرى ليقفز نحوهم قفزةً بسيطة وما أن
يصبح وسطهم تمامًا حتى يلتف بجسده حول نفسه كحفار بترول مطلقًا
المائدة في وجوههم لتحطم فكي اثنين آخرين وأنف ثالث في حين تتحطم
المائدة، بينما ينقض أحد الحراس الأربعة المتبقين كثور هائل ليكبل
حركة الشاب في نفس لحظة انقضاض الثلاثة الآخرين عليه، لترتفع قدما
الشاب مستغلاً تكبيل الحارس له لتنطلق قدماه في وجوه الثلاثة محطمة
الأنوف والفكوك، وما أن يضع قدميه مرة أخرى حتى يقفز مرةً أخرى
لأعلى مصطحبًا معه الحارس الذي يكبل حركته حتى يصل به لسقف
القاعة ليتعلق بقدميه بأحد الحواجز المعدنية المثبتة في السقف ثم يلقي
جسده مرةً أخرى بقوةٍ شديدةٍ للأسفل فيفلته الحارس ويسقط بينما يسقط
فوقه الشاب وينغرس في بطنه كمسمار صلب..

ومن بعيد، وقف الرجلُ المريب في ركنٍ مظلم يتابع ما يحدث ببرود شديد
دون أن يلتفت لوجوده أحد، بينما تأتي (آيات) من الداخل وهي تمسك
في يدها الحقيبة السوداء التي كانت في المكتب، وتنظر لما حدث بذهول
ممزوج بالرعب في اللحظة التي يستل فيها 5 حراس آخرون الأسلحة
البيضاء، وينهض أول ثلاثة حراس ارتطمت بهم أول مائدة ألقاها عليهم
الشاب، وقد تخلصوا من آلامهم وسالت دماؤهم من مواضع متفرقة
ليتحدوا جميعًا في مواجهة الشاب، فتلمح (آيات) المسدس الموجود في
يد (ريمون) الفاقد الوعي، لتقترب منه بحذر وتلتقطه من بين أصابعه في
لحظة انقضاض الجميع على الشاب، قبل أن يتردد في المكان صوت
طلقة يتجمد معها المشهد ويقف الجميع في ثبات..

الجميع كان ينظر نحو (آيات) التي تمسك بالمسدس وتلوح به أمام
وجوههم بتحفز، وفي الوقت نفسه تقترب من الشاب الوسيم الذي تمدد
تحت قدميه 7 من الديناصورات فاقدي الوعي..

وحين بدأت تشعر بالثقة والطمأنينة، تقدمت (آيات) نحو الشاب الوسيم
لتحتمي به رغم كونه أعزل وكونها تحمل سلاحًا، لكنها تعثرت فجأة في
أحد الحراس المطروحين أرضًا فاستغل أقرب الرجال لها فرصة تعثرها

ليقبض على يدها ويأخذ المسدس عنوة، ليوجهه نحوها في نفس لحظة
انقضاض باقي الرجال نحو الشاب الذي تجمد في مكانه وهم يقتربون
منه، قبل أن يقفز فوقهم ليتجاوزهم بقفزة هائلة وهم ينظرون إليه وهو
يمر فوق رؤوسهم، حتى وصل إلى الحارس الذي يصوِّب مسدسه نحو
(آيات) ليركل يده في نفس لحظة انطلاق الطلقة التي تطيش وتقتحم بار
الخمور لتندلع نيران هائلة تلتهم ثلاثة من الرجال..

ومع انطلاق إنذار الحريق وتحول المكان لأتون من اللهب، غادر المكان
من تبقى من الرجال بينما مدَّ الشاب يده ليعاون (آيات) على النهوض
بسرعة، ليمسك بيدها ويتجه نحو (ريمون) و(نصحي)..

وفي الركن المنزوي الذي يقف فيه، وقف الرجل ذو العينين الزرقاوين
متأملا الشاب الوسيم وعلى أحد كتفيه (ريمون) وعلى الكتف الآخر
(نصحي) وهو يغادر بهما المكان، قابضًا على يد (آيات) التي تحمل
في يدها الأخرى الحقيبة السوداء التي أخذتها من خزنة (ريمون)، وخلفهم
النيران تنقض عليهم بكل شراسة ليغادروا المكان قبل فوات الأوان، ووسط
الجحيم المصغر، ظل الرجل الغامض يتابع المشاهد من الداخل دون أن
يعبأ بالوهج المستعر حوله أو يتأثر به جسده..

خارج المكان، انطفأت أنوار اللوحة الدعائية المكتوب عليها جملة
"Black Devil" في اللحظة التي غادرت فيها (آيات) والشاب، الذي
ألقى (نصحي) و(ريمون) بعيدًا، ثم سار معها حتى ابتلعهما الظلام.

* * *

(9)

في احتفالية شعبية بمناسبة المولد النبوي الشريف، في شارع (النبي دانيال)*، سارت امرأة عجوز، اشتعل الرأس منها شيبًا، لتتسدل خصلات من أسفل طرحة موضوعة على رأسها بدون اهتمام، وخطت التجاعيد ملامح وجهها صانعة بخطوطها خريطة حية لآثار الدهر، وقد ارتدت عباءة سوداء قديمة، لتمرق وسط المولد بمظاهره المتعددة سواء راقص التنورة، أو بائعي الحمص والسوداني، قبل أن تصل لحلقة ذكر ضخمة

* شارع (النبي دانيال) هو أقدم وأعرق شوارع محافظة الإسكندرية، من خلاله تم بناء المدينة العريقة ذات الأصول الرومانية حين أمر الإسكندر الأكبر مهندسه اليوناني (دينو قراطيس) بتخطيط هذه المدينة، حيث وضع لها تخطيطا يطلق عليه «هيبودامي»، والذي يعني أن تكون شوارع المدينة على شكل شبكي، ليتم بناء الإسكندرية من خلال شارعين رئيسيين هما السوما (شارع النبي دانيال حاليًا) والكانوب (سمي فيما بعد بشارع فؤاد وحاليًا اسمه طريق الحرية)، وكانا متقاطعين بزاوية قائمة تحيط بهما شوارع أخرى فرعية تتوازى مع كل من الشارعين المتقاطعين بالطول والعرض، لتبدو الإسكندرية في شوارعها المتعامدة أشبه برقعة شطرنج، وعلى مدار تاريخ هذا الشارع العريق منذ آلاف السنين، تعانقت كل الأديان التي دخلت مصر، واتخذت فيه مقرات لدور عبادتها، سواء المعابد الرومانية، أو اليهودية بخلاف دور العبادة المسيحية والإسلامية، وشهد الشارع في العصر الحديث مرحلة ذهبية تجاورت فيها الأديان السماوية الثلاثة، وعاش اليهود والمسيحيون والمسلمون في مؤاخاة ومعشر طيب، ليؤدي كل منهم طقوس عبادته بحرية تامة، ففي بداية الشارع يقبع مسجد النبي دانيال الذي يُعد من أقدم المساجد في تاريخ الإسكندرية، وفي المنتصف تقع الكاتدرائية المرقسية أول كنيسة في مصر، وفي نهاية الشارع من ناحية محطة الرمل يقع المعبد اليهودى (إلياهو حنابي) وكان الشارع قديمًا ملتقى للجاليات اليهودية واليونانية والأرمنية، وتمت تسميته بالنبي دانيال نسبة لأحد أنبياء بني إسرائيل الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد، ويضم الشارع أيضًا الكثير من المباني العريقة مثل مبنى جريدة الأهرام، والمركز الثقافي الفرنسي الذي أنشيء عام ١٨٨٦، وبالرغم من ازدحام الشارع الشديد إلا أنه كان دائمًا محط اهتمام السفراء الأجانب والكتاب الفرنسيين والمصريين ومن أشهرهم ميشال تورنيه وبرنارد نويل ونجيب محفوظ وجمال الغيطاني ومحمد سلماوي وادوارد الخراط وصنع الله إبراهيم، ويتواجد به الآن أشهر باعة الكتب القديمة والحديثة، بأسعار تُناسب الطلبة والباحثين والقراء العاديين من محبي الثقافة.



في ساحة كبيرة أمام المسجد الذي حمل اسم الشارع، وتزين متعددة الألوان، ويغني من داخل المسجد الذي لا موضع فيه المنشدين بصوت عذب قوي يخلب الألباب، بينما يجلس أمام أمواج من البشر أخذوا يهزون رؤوسهم باستمتاع ونشوى، وقد الإيمان في لحظة نادرةٍ توحدوا فيها مع الخالق وفقدوا الإحساس والمكان، وهامت أرواحهم في ملكوت الله لتأخذهم كلمات المنشد إلى ما وراء الكون وهو يردد:

قل لمن يفهم عني ما أقول..   فصِّل القول فذا شرحٌ يَطُول*

أنت لا تَعرِفُ إياكَ، ولا تدري من أنتَ، ولا كيفَ الوصول

كيفَ تدري.. من علىَ العرشِ استوى؟

لا تقل كيف استوى؟ كيفَ النزول؟

كيفَ تجلى الله؟ أم كيفَ يُرى؟ فلَعَمري ليسَ ذا إلّا فَضول

هو لا أينَ، ولا كيفَ لهُ، وهوَ في كلِ النواحي لا يزول

جلَّ ذاتًا، وصفاتٍ، وسما وتعالى قَدرُهُ عما نقول

وخلال ذلك، أخذت العجوز تتخلل زحام البشر حاملةً العديد من مطويات أذكار الصباح والمساء، والكتيبات التي تتضمن قصار السور القرآنية، تتجاوز الحضرة وهي تنتقي بعينيْها أناسًا بعينهم تبحث عنهم.

وفور أن وقعت عين المرأة العجوز على رجلٍ يرتدي جلبابًا فاخرًا يبرز كرشه الضخم، ويبدو على ملامحه الثراء والصلاح، انقضَّت عليه وهي

* هذه الأبيات من تأليف محمد بن محمد الغزالي الطوسي، فيلسوف، متصوف، وله نحو مائتي مصنف. ويمكن سماعها بصوت المنشد الشهير (علي الهلباوي) على موقعي "Youtube" و "Soundcloud" حيث تحمل اسم (قل لمن يفهم عني ما أقول.. الهلباوي).



تقول بصوتٍ واهنٍ يُمزق نياط القلب:

- قادر يزيدك من نعيمه ويسترك في الدنيا والآخرة.. نفّعني ببركة سيدنا النبي وغلاوته في قلبك.

وانحنت تطبع قبلة توسل على يده التي سحبها سريعًا وهو يستغفر، ليأخذ منها أحد المطويات ويُعطيها ورقة فئة العشرة جنيهات فنظرت لها بفرحة ودعت له بحماسٍ شديد:

- إلهي يمتعك بالصحة والستر.. ولا يفضحك أبدًا.. ولا ترى مكروهًا في عزيز أو غالي يا قادر يا كريم.

وخلف المرأة العجوز على بعد خطوات، ظهرت (آيات) وقد ارتدت جاكت بذلة الشاب الوسيم لتستر نفسها، بينما سار هو معها في قلب المولد حاملاً تحت إبطه الأيمن التابلوهات الفنية التي كانت في شقتها الفاخرة، وفي يده الأخرى الحقيبة السوداء التي أخذتها من خزنة (ريمون)، ليتأمل ما يراه من مظاهر المولد، في الوقت الذي أخذت فيه (آيات) تبحث بعينيها عن شيء ما..

وفي مكانها، استدارت المرأة العجوز وهمّت بالسير وما أن لمحت (آيات) حتى أشاحت بوجهها فجأة كالمصعوقةِ وسارعت الخطى هربًا، لكن (آيات) التي رأتها تركت الشاب وهرولت نحوها لتُحصّلها ثم وضعت يدها على كتفها واستوقفتها قائلة:

- كيف حالك يا مقدسة دميانة؟

التفتت (دميانة) نحوها بسرعةٍ وعلى وجهها علامات الارتياع، هامسة وهي تضع يدها على فم الفتاة:

- هششششششششش.. أتريدين الناس الذي بعت لهم الأذكار وقصار السور في مولد إسلامي يعرفون أن اسمي دميانة؟ ومقدسة أيضًا؟

ضحكت (آيات) وهي تُجيبها هامسة:

- ولماذا تفعلين ذلك في نفسك؟ ألم تكفكِ الخميرة الهائلة التي

خرجت بها من بيع الصلبان وصور المسيح والأنبا شنودة حين ظهرت العذراء فوق الكنائس منذ أيام؟

أجابتها (دميانة) بغيظ:

- لقد كفّت عن الظهور بفعل عينيكِ المدورة يا بوز النحس.. هل أموتُ جوعًا أم أقلب رزقي وأذكّر الناس بدينهم الذي لا يتذكروه سوى في الموالد والأعياد؟

بابتسامةٍ شقيةٍ واصلت (آيات):

- ما علينا.. ناوليني مفتاح الغرفة

(دميانة) ساخرة:

- ألم يفتحها عليكِ ربنا وغادرتِ هذا المكان الفقر؟

(آيات) بابتسامةٍ حزينة:

- لقد قلتيها بنفسك.. بوز نحس

مدّت (دميانة) يدها في صدرها بضيق، لتخرج منه مفتاحًا ناولته إلى (آيات) قائلة:

- خذي يا عين أمك.. لكن ومقام سيدنا الحُسين **(تشير إلى صدرها وتتابع)** لو دخل هنا فلن يطلع لكِ بعدها أبدًا.

(آيات) بدهشة:

- أتحلفين بسيدنا الحسين؟

- أتريدينني أن أوقظ ماري جرجس في هذا الوقت المتأخر؟

قالتها (دميانة) بغضبٍ ساخرٍ، فعلّقت (آيات) بسخريةٍ مماثلةٍ:

- كلاهما لا يفرق معكِ.

فتحت (دميانة) يد (آيات) ووضعت فيها المفتاح وهي تقول بلهجة من

ينهي الحديث:

- فلتمسكي المفتاح وتذهبي.. وراءنا أكل عيش.

قبضت (آيات) يدها على المفتاح لتسير في اتجاه الشاب بينما ما زال رأسها ملتفتًا نحو (دميانة) لتقول بابتسامةٍ ساخرة:

- إن شاء الله سيكشفون أمرك.

(دميانة) مبتسمة:

- سأقرأ حينها الشهادتين.

وفي مكانه، فوجئ الشاب الوسيم أثناء الحديث الدائر بين (آيات) و(دميانة)، بيدٍ حانيةٍ تربت على كتفه من الخلف ليلتفت نحو صاحب اليد فإذا به رجلٌ عجوزٌ يبدو من ملامح وجهه أنه شديد الكهولة، ورغم ذلك كان جسدُه عفيًا، منتصب القامة، يعجُّ بطاقةٍ فوارة، ذو وجه مشرق وضّاء رغم استمراره الشديد، محاط بلحيةٍ كثيفةٍ شديدةُ النعومة، ببياض كالثلج، تتدلى حتى صدره، فيما طالت شُعيراتُ حاجبيْه حتى كادت أن تغطي عينيْه الواسعتين المريحتين للنفس بشكلهما العسلي فاقع اللون ويسُر الناظرين، وكسى شعر رأسه عمامة ناصعة البياض بنفس لون جلبابه خفيف الملمس وكأنه مصنوع من الشاش، وعلى وجهه ابتسامة غامضةٌ لا تعرف لو اطلعت عليها سر مصدرها.

أطلَّ التساؤل من عينيْ الشاب، بينما تحنطت الابتسامة الغامضة على شفتيْ الرجل لثوانٍ قبل أن يقول ببطء، وبصوتٍ رخيم بدا كما لو كان يخرج من دهاليز قبو عميق:

- كيف حالك يا بني؟

- !!!!!!

- ألا تعرفني؟

عقد الشاب حاجبيْه برهةً في محاولةٍ مستحيلةٍ لاسترجاع ماضٍ تم مسحه تمامًا من ذاكرته، ثم رد على السؤال بسؤالٍ مليء باللهفة:

- هل تعرفني أنت؟

اتسعت ابتسامةُ الرجل وهو يوميء برأسِهِ قائلا:

- بكل تأكيد.. لقد التقينا منذ قديم الأزل

- قديم الأزل؟

- نعم يا ولدي.. فجميع مخلوقات الله تقابلت ذات يوم في عالمٍ غير العالم، حين كنا في العدم، نلح على الخالق أن يوجدنا، فألبسنا ثوب المادة ومنحنا وجودنا من اسمه الموجود على سبيل الاستعارة، ككل شيء استعرناه بعدها من أسمائه، فاستعرنا الكرم من اسمه الكريم، والصبر من اسمه الصبور، والقدرة من اسمه القدير، حتى حواسنا مثل السمع والبصر، استعرناها من السميع البصير.

صمت الشاب وقد فجرت إجابة الرجل دويًا هائلا في روحه، وملأت نفسه بموجةٍ هائلةٍ من التساؤلات..

لقد سمع هذا الكلام من قبل وآمن به ليمُثِّل جزءًا من أفكار قديمة كانت بالنسبة له من المسلمات التي لا نقاش فيها، لكنه لا يدري متى عرفها، ولا في أي ظرف، وحين تفاقمت حيرته ولم يجد ما يسد جوع فضوله ولو ببريق ضئيل من الذاكرة الخاوية على عروشها، تطلّع بنظرة توسل للشيخ الماثل أمامه وقال:

- هل لي أن أجلس معك وأفهم منك مقصدك!

أجابه الرجل بابتسامة غامضة زادت من حيرته:

- على رِسلك يا فتى، فلِكُلِّ أجلٍ أوان، والرحلة ما زالت في بدايتها.

ثم تطلع الشيخ إلى ما وراء كتفي الشاب ليرى (آيات) التي تتقدم نحوهما بسرعة الخطى وقد أخذت السعادة تتقافز على ملامحها، لتخبو ابتسامته ويستدرك في تأثر:

- مسكينة.



التفت الشاب نحو (آيات) التي وصلت إليه، لتلوح بالمفاتيح التي أخذتها من (دميانة) أمام وجهه قائلة في جزل:

- ابسط يا عم.. حصلنا على مكانٍ للمبيت.

لكنه لم يسمع كلامها وقد استحوذ كلام الرجل على تفكيره وانتباهه، لا سيما حين التفت إلى حيث تركه فلم يقع ناظره سوى على العدم.

* * *

سار الشاب مع (آيات) في شارع (النبي دانيال) باتجاه البحر ومحطة الرمل حتى وصلا إلى شارع (سعد زغلول) الذي يتقاطع معه، ويعج بمحلات الملابس والباعة الجائلين في لحظة غلق دفاتر الرزق التي انفضَّ فيها السامر، واصطكت معها أقفال أبواب المحلات بعد إغلاق الأنوار، ليعم الظلام الشارع وتبقى فيه بعض الإضاءات الخافتة التي تكشف لوحة محل (شيكوريل) ومبني (دار المعارف) وعددًا من العمارات العتيقة ذات الطراز المعماري العريق، وتنتمي لزمن الإسكندرية الجميلة حاملة بصمات البشوات، والبكوات، وأمراء وملوك مصر (محمد علي) وعائلته، حين كان بعض أبناء الجالية اليونانية والإيطالية يعملون كبائعين وحلاقين.. ووسط تلك العمارات وقفت مبانٍ حديثة حملت سمات وملامح العصر الحديث بضخامتها وواجهاتها الزجاجية، لكنها وقفت كخوازيق غريبة لا تمت بصلة لباقي الأشجار المعمارية العريقة المزروعة في حديقة التاريخ حيث المعمار الإيطالي البديع والطراز الفلورنسي الذي ما زال يميز ما تبقى من الإسكندرية القديمة، ليوجه الشارع بلغة الحجارة والمعمار رسالة استغاثة: نداء لمن يهمه الأمر.. الإسكندرية الحقيقية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتُسرَق منها عراقتها وتراثها على يد لص وقاتل متسلسل للمدن اسمه.. التحضر والتطور!

تلقت عينا الشاب طرف الرسالة وهو يتأمل المشهد حوله بمتناقضاته، قبل أن يشعر بيد (آيات) تجذبه وهي تتحرف نحو إحدى العمارات التي تنتمي لحقبة الثلاثينيات حيث المدخل الضخم الذي يوازي ارتفاعه دورين من العمارات الحديثة، ليصعد معها السلالم القديمة الرخامية، ويتابع أناملها الرقيقة وهي تتسند على سور "الترابزين" الخشبي في رحلة الصعود الشاقة للسطح بعد أن اعتادت قدماها على المصاعد الفاخرة.

إلى السطح، وجدا في انتظارهما الكثير من العشش الخشبية المتآكلة، والغرف المتهالكة، التي كانت تسكنها العديد من الأسر المعدمة من الطبقات الدنيا حين كان أكابر القوم يخصصونها للخادمين والطباخين وحارس العقار، ثم أتى الزمن بتغيراته على خريطة المجتمع وتبدل كل شيء، لتبقى تلك الغرف شاهدًا على تاريخ الأمس ومرتعًا للدجاج والبط الذي انتقل للعيش في إحدى العشش على يد السمسارة العجوز الماكرة (دميانة) التي أقنعت تلك الطيور البلهاء أن سكنها الجديد ها هنا أفضل بكثير، دون أن تخبرها أن مصيرها سيكون الذبح ذات يوم، وفرضت حداثة اليوم سطوتها بأطباق "الدِّش" اللاقطة التي ملأت أرجاء المكان، ورغم كل هذا التغيير ظلت (دميانة) وغرفتها كجذر قديم لم ينجح مقلاع الزمن في إزالته أو زحزحته، ليزداد تأصلا ورسوخًا كلما مضت الأيام والسنون.

دخلت (آيات) والشاب الذي ما زال يحمل اللوحات والحقيبة أمام مصطبة موضوعة أمام غرفة (دميانة) لتدس المفتاح في قفلها الحديدي الصدئ، فاتحة إياه بصعوبة لتدخل الغرفة وتنعش ذاكرتها وذكرياتها بتأمل جنبات المكان الضيق، وأرضيته القذرة، وسريره الوحيد الذي يستحي الموتى من التمدد عليه على ضوء سراج خافت الضي اقترب من الاحتراق، ظل يتأرجح لتتوزع إضاءته على أرجاء الغرفة، لاهية بظل الفتى والفتاة في جوٍ بدا غامضًا وكأن الغرفة تستجوبهما عن سبب المجيء، قبل أن تلتفت (آيات) إلى الشاب الذي تبعها للداخل قائلة بحزن:

- هذا هو المكان الذي استقر بي المقام لأعيش فيه مع دميانة مقابل خدمتها والمشاركة في طعامها وشرابها، بعد أن خرجت من الأحداث وتلطمتُ في الدنيا.

علّق على كلماتها وهو يتأمل المكان بدوره دون أن ينظر لها:

- دائمًا الحلال سكته أصعب، لكن بركته تدوم أكثر.

ثم استدار يتأمل عينيها الحزينة، دون أن يدري أن لنظرات عينيه الذهبيتين ونبرة صوته القوية سحرًا خاصًا يتسلل لنفسها كمخدر شديد المفعول، حتى إنها احتاجت ثواني حتى تستجمع قواها وتملك القدرة على أن تشيح بناظرها بعيدًا عن مرمى عينيه لتقول بشفتين مختلجتين:



- أتمنى أن يكون الحلال كافيًا.

قالتها ثم جلست على السرير لتفتح الحقيبة السوداء وتفحص محتواها ما بين شيكات كثيرة ومجموعة أسطوانات مدمجة ظلت تفحصها حتى عثرت على الشيك الخاص بها بعد عناء، حتى إنها أفرجت عن تنهيدة حارة كانت حبيسة صدرها وهي تقول للشاب:

- حمدًا لله.. أخيرًا وجدت الشيك القادر على إعادتي للسجن.. لقد امتلكتُ صك حريتي بفضلك.

تأمل الشاب باقي الشيكات والأسطوانات وهو يقول:

- سأعيد باقي الأشياء التي لا تخصنا في أقرب وقت.

اتسعت عيناها اللتان أطل منهما الذعر وهي تقول:

- أتود العودة بعد كل ما حدث؟ لن أسمح لك أبدًا.. ثم إني سأفحص هذه الأسطوانات وأعرف محتواها لعلي أجد فيها ما يحمينا من انتقام ريمون الذي حتمًا سيُقيم الدنيا ولن يُقعدها جراء ما فعلناه، أنت لم تعرف نفوذه وسلطانه بعد.

التفت الشاب خلفه متأملاً باقي جنبات السطح، وما أن وقعت عيناه على عشة الدجاج حتى هب ديك بداخلها متحركًا بشكلٍ هستيري مطلقًا صياحًا شديدًا كاد أن يثقب آذان السامعين.. وكأن صياحه هو إشارة البدء لباقي الديوك في عشش الأسطح المجاورة، انطلق صياح الديكة من كل العشش في تتابع حمل أصوات ارتجافتهم وحركاتهم داخل العشش في سيمفونية بدت غريبةً لـ (آيات) التي عقدت حاجبيْها في دهشة واستغراب وهي تتطلع للمشهد في حيرة، في الوقت الذي شخص فيه بصر الشاب نحو السماء ليتأملها في رهبةٍ وخشوعٍ وهو يردد دون وعي منه وكأن كلماته تسبقه:

- الله أكبر.

تأملته (آيات) وهو يتابع النجوم بعينيْه ويسرح في نور القمر وتوقفت عيناها على شفتيْه المرتجفتيْن قبل أن يقول بقلبٍ واجفٍ وما زالت عيناه معلقةً بالملكوت العلوي:

- ثمة ملائكة حولنا الآن.

لتسري في أوصالها رعشةٌ مماثلةٌ وتكف عن التطلع إليه، بعد أن انسحب نظرها متوجهًا نحو السماء التي بدت لها في تلك الليلة سماءً غير السماء، وكأن للنجوم لغة، ولحركة السحاب إيماءات، لكنها لم تملك بعدُ فهم الإشارة وترجمة العبارة.

* * *

داخل غرفة المبيت المعدمة ذات المظهر البائس المتردي، وقف الشاب وقد خلع جاكت بذلته، وشمَّر ذراعيه ليكشف عن رسغين منحوتين من العضلات البارزة وهو يُعلق آخر لوحة على الحائط، ثم يتأمل باقي اللوحات التي تم توزيعها على الجدران، في حين غيرت (آيات) ملابسها وارتدت نفس الثوب البالي ذي الهيئة الرثة، لكنه لم يستطع أن يُخفي جمالها الهادئ الذي بدا طبيعيًا هذه المرة وقد خلت قسماتُ وجهها من المكياج، وانسدل على كتفيْها شعرها البني الناعم الطويل، لتتطلع هي الأخرى إلى لوحاتها بمزيد من الحسرة والحزن قبل أن يسألها الشاب وهو يتطلع إلى اللوحات دون أن ينظر إلى وجهها:

- ما دمتِ أنتِ موهوبة إلى هذا الحد، فما الذي ألقى بك في طريق ريمون بدلاً من أن تمشي في السكة التي تقدر موهبتك؟

وكأن سؤاله إشارة البدء لتجيب بأكثر مما احتمل الاستفهام:

- كل لوحة من اللوحات التي أمامك فيها جزء من ذكرياتي

أشارت إلى إحدى اللوحات بتأثر:

- هذه رسمتها في أول عيد ميلاد أقضيه وحدي بدون أبي الذي لم يُحضر الهدية التي وعدني بها.

ثم أشارت إلى لوحةٍ أخرى وقد زادت جرعة التأثر في نبراتها وملامحها:

- وهذه كانت في أول عامٍ لي بالأحداث.. كانت موهبتي قد نضجت بشكلٍ لافت للنظر وجذبت اهتمام مشرفتي.. أولتني معاملةً خاصةً بعد أن انبهرت بوردةٍ مثلي تم انتزاعها من

بستانها الجميل، ليتم غرسها في صحراء مقفرة في صحبة أشواك الصبار.. لم تصدق نفسها حين وجدتني حاذقةً في الإنجليزية والفرنسية، وأجيد الرسم والتلوين، وتخرج أناملي من العزف على البيانو والكمان مقطوعاتٍ موسيقيةً قادرةً على دغدغة المشاعر واصطحاب السامعين إلى رحلةٍ عبر الذات، يُشاهدون فيها الحب، والشجن، والحنين، وكل ما هو غير محسوس ومرئي، غير أن المشاهدة كانت بالأذن لا العين، وربما تخللت أصوات الأوتار الحزينة، صوتًا أكثر بؤسًا وألمًا، ينبعث من أحبالي الصوتية التي كانت تشارف على التمزق كلما غنيت لأحزاني رغم أني تعلمت العزف والغناء لأنشر السعادة في جنبات البيت حسبما كان يتمنى أبي الذي لم يبخل عليَّ لأجيد مهارات متعددة كملكته الوحيدة قبل أن يسوقني القدر إلى سوق النخاسة.

ابتسمت ابتسامة حزينة، ثم أشارت إلى لوحةٍ ثالثةٍ وأردفت بجسد يقشعر من التأثر:

- وهذه حين طلبوا مني لوحةً أدخل بها مسابقةً في الرسم، حصلت بها على المركز الأول، فساعدتني المشرفةُ بعدها على تعلم الجرافيك على الكمبيوتر حتى تدخل بي مسابقاتٍ أخرى وتحصل على ترقياتٍ مع كل مركز أول أحصل عليه، بعد أن صرتُ لها في منزلة الابنة التي دافعت عنها وحمتها من أطفال الشوارع المتشردين الذين كانت صحبتهم وزمالتهم أمرًا إجباريًا في عالمي الجديد البائس.

عادت لتشير إلى لوحةٍ رابعةٍ وقد بدأت عيناها تلمع بالدموع:

- وهذه حين توفيت مشرفتي وأمي البديلة في حادثٍ عارض لتتركني وحيدةً من جديد.. يومها فوجئت بدموعي تنهمر كشلال بعد أن ظننت أنني بفراق أبي، قد ودَّعت من لن أبكي بعده أبدًا

أشارت إلى لوحةٍ خامسةٍ وقد زاد لمعانُ عينيها:

- وقبل خروجي من الأحداث بشهر.. لم أكن أعرف، هل أفرح بحريتي، أم أبكي لأني غير قادرة على تحديد وجهتي بعد الخروج، وأين سأعيش، ومع من، وكيف سأحتمل فراق أناس

اعتدت عشرتهم واعتبرتهم عائلتي البديلة رغم كل ما بهم من إجرامٍ وشراسةٍ وطائفية، لكنهم مع الوقت نزعوا مخالبهم وتسللت الرأفة لقلوبهم وهم يتعاملون معي.. لذا رسمت هذه اللوحة.

وحين أشارت إلى لوحةٍ سادسةٍ، بدأت دموعُها الساخنة في جرح وجنتيها وهي تقول بصعوبة:

- وهذه بعدما أحببت مينا، زميلي الجديد في مكتب الجرافيك الذي التحقت بالعمل به.. كان يريد أن يتزوجني لكن ظروفه الصعبة حالت دون ذلك.. لذا اضطررت أن أذهب إلى زوجة أبي أطلب منها أي مساعدةٍ تُعينني على الزواج، وأنا أعدها ألا أزورها مرةً أخرى.

ثم أشارت إلى لوحةٍ سابعةٍ سوداء مليئة بالكآبة وزاد انهمار دموعها وهي تتابع:

- وهذه بعد أن أرسلت ابنها أمير ليفضحني في مكتب الجرافيك الذي طردوني منه بعد أن عرفوا بأمر الأحداث، لتنتهي بعدها علاقتي بأول حب في حياتي.

جلست على السرير بعد آخر حرف، وانحنى ظهرها بعد أن غرقت في نحيب شديدٍ يمزق نياط القلب حتى إن عينيْ الشاب التمعتا رغمًا عنه، وهي تقول من بين دموعها:

- كان نفسي ربنا يستجيب دعوتي وأتزوجه.. كنت أحبه جدًا.. جداااا.. **(رفعت رأسها نحوه وعيناها ما زالتا تمطران)** أليس من الممكن أن يصبح كل ما سبق كابوسًا قد أصحو منه وأجدني ما زلت طفلة لم تهتك براءتها الحياةُ بعد؟!

ثم عادت لنحيبها وهي تطرق برأسها للأرض وتفتح قنواتها الدمعية على مصراعيها لتسقط مع كل دمعةٍ ذكرى حزينة حاملةً معها جزءًا من فتات قلبها المحطم..

بلغ به التعاطف مبلغه، فاقترب منها ثم انحنى جاثيًا على ركبتيه ليرفعَ وجهها الغارق في الدموع ويجعله في مواجهة وجهه وهو يقول:



- إن الله يمنح الإنسان ما يحتاجه حقًّا، وليس الذي يريده.

- ما الذي كنت أحتاجه لأمُرَّ بكل ذلك؟ وما الذي سيمنحه الرب لمن نجستها الخطية مثلي بعد كل ما اقترفته من آثام؟ الكتاب المُقدَّس يقول إن السماء تفرح بخاطئ واحد يتوب، أكثر من 99 بارًّا لا يحتاجون إلى توبة لكني تبت كثيرًا وعدتُ بعدها للسقوط.. أخشى أن ثباتي على الحق صار معجزةً في زمن انتهت فيه المعجزات.

- المعجزات أبديةٌ لأن صاحبها لا بداية له ولا نهاية، ومن صفاته البقاء والاستمرارية، ثم إن الجميع ينظرون إلى الله باعتباره صاحب المعجزات، لكنهم لا ينتبهون أنهم المعجزة ذاتها.

- كلماتك تُشبه كلام رجال الدين الذي يعجب السامعين، لكننا سرعان ما نلقي به عرض الحائط حين لا يغير الواقع المؤلم البغيض حولنا مهما رددناه ونحن نرفع أكف الضراعة إلى السماء، لكن ما يُكسبك المصداقية أني رأيت معك الأفعال وليس الكلام فحسب.

- ما فعلت إلا ما منحني الله القدرة على فعله، لكن الناس اعتادت أن تنظر فقط لأفعال أقرانهم من البشر دون أن ينتبهوا إلى مصدر تلك الأفعال، وهذا سر تأليه بعض الأشخاص وحبهم أكثر من الإله.. صدقيني يا آيات كل شيء قابل للتحقيق إذا آمنا بالله كما ينبغي أن يكون الإيمان.

ثم التقط نفسًا عميقًا وهو يتأمل ملامحها واستطرد:

- وبالرغم من أني لا أعرف من أنا، وماذا سأفعل في مشكلتي، لكني أقسم لكِ أن لوحتك القادمة ستكون أجمل لوحة في حياتك.

تأملته بعينين عرفتا أخيرًا طعم البسمة وهي تشعر أن الكون كله قد أقبل عليها برحابته وأنواره المتلألئة في السماوات على يديْ هذا الغامض، قبل أن تقول وهي تُقاوم رغبةً ملحةً في معانقته والارتماء بين أحضانه:

- دائمًا ما يهتم البشر بهوية بعضهم، ويسألون عن الغريب القادم

من أين أتى، لكن أنا يعنيني فقط إلى أين سيمضي.. سأقف إلى جوارك بكل ما أملك وسأبذل من أجلك قصارى جهدي مثلما ساعدتني.. وأنت أيضا دورك معي لم ينتهِ بعد **(تمد يدها لتمسك يده وتسأله)**.. أتعدني بألا تتخلى عني؟

نظر إلى يدها، ثم حرَّر أنامله من أصابعها ببطء وهو يتطلع إلى عينيْها قائلًا:

- أعدك.

"تقولين إني بلا دين، فهل هذه أفعال المؤمنين؟"

قالتها (دميانة) بصوتٍ غاضبٍ وهي تقف على عتبة باب الغرفة، لينهض الشاب و(آيات) في توتر وارتباك، قبل أن تقول الأخيرة بتلعثم:

- لا تفهمينا خطأ يا دميانة.. إنه.. إنه..

قاطعتها بسخريةٍ غاضبة:

- ما رأيكِ في أن أنزل وأطلع بعد نصف ساعة حتى تجدا عِمة مناسبةً على مقاسي بعد أن ألغي عقلي؟

أجابتها (آيات) بتوترٍ أكبر:

- لا والله، هذا يبقى، يبقى....

أشار الشاب إلى (آيات) مقاطعًا ثم نظر إلى (دميانة) وقال بصرامة:

- أنا واحدٌ لا يعرفها ولا تعرفني.. لكن الظروف الصعبة التي جعلتك تبيعين سورًا قرآنية وأذكارًا رغم مسيحيتك، هي نفسها من وضعتنا في هذا الموقف.. لو كانت (آيات) ترغب في الحرام ما كانت لتعود لهذا المكان البائس مرةً أخرى، بعد أن كانت تنام فوق مراتب من ريش نعام ومفارش حريرية وفوق هذا تقبض ثمنًا لا بأس به.

ثم التقط جاكت بذلته واقترب من (دميانة) ونظر إلى عينيْها بقوة متابعًا:



- لو عندك مكان للمبيت غير المصطبة الموجودة في الخارج دليني عليه حتى ولو في آخر الدنيا، غير ذلك سأكون مضطرًا للمبيت ها هنا الليلة حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.. تصبحان على خير

قالها ثم غادر المكان ليغلق الباب خلفه، تاركًا خلفه (دميانة) مسحورة من تأثير لهجته وكلامه الواثق الذي استعمر مسامعها وتردد صداه في ذاتها، بينما كادت دقات قلب (آيات) أن تخترق ضلوعها وهي تتساءل في نفسها: أي نوع هذا من الرجال؟!

* * *

على السرير الحقير الذي يجمعهما، وتحت تلك البطانية القديمة التي تغطي نصفيهما الأسفل، هبدت (دميانة) على صدرها وقد اتسعت عيناها في دهشةٍ شديدةٍ غير مصدقة ما حكته لها (آيات)، وما زال صياح الديوك يتردد بالخارج، قبل أن تقول (دميانة) بصوتٍ يملأ نبرته الذهول:

- يا خرابي.. وكأنك تحكين فيلمًا.. أهذا الولد "الحليوة الفرفور" الذي توحي هيئته الوسيمة أنه يأكل بقسماط مسقي في اللبن يطلع منه كل ذلك؟

تابعت (آيات) وكأنها لا تُصدق ما تحكيه بلسانها:

- ماذا لو أخبرتك أن كل ما حكيته لكِ لا يُساوي شيئًا بجوار الحقيقة.. إنها أمور لا تُحكَى، ولكنها تُرى بالعين، وتُسمع بالأذن فقط.. هل تعتقدين أنه "مخاوي" للجن والعفاريت؟

أجابتها (دميانة) بصرامةٍ غاضبة:

- اصمتي أيتها المأفونة وكفاكِ تخريفًا.. ما عفريت إلا بني آدم، هل تصدقين هذا الهبل؟

رمقتها (آيات) بنظرةٍ ساخرةٍ، وأردفت:

- معكِ حق.. واحدة لا تؤمن بوجود الرب نفسه، فهل ستصدق وجود العفاريت؟

عقدت (دميانة) حاجبيْها وقالت بفم منزوع الأسنان إلا قليلا:

- أنا لا أصدق إلا ما أراه بأم عيني.. كلام الحكايات الذي سمعناه ممن سبقونا والذين بدورهم سمعوه ممن قبلهم لو تتبعناه لوجدنا آخره سرابًا اسمه الإله.. وفائدته الوحيدة عندي أن أجد ديانة أكتبها في بطاقة تحقيق الشخصية وأقلب بها عيشي من الكنيسة.. عدا ذلك لم ننل من الأديان سوى الحروب الطاحنة بين بني البشر.. كل واحد يرى نفسه في الجنة ومن على غير دينه في النار.. أفيقي يا عزيزتي.. لو لم ألتقطك من الشارع وآويكِ لما أنزلت عليكِ السماء منزلا تأوين إليه.. وهذا الجيمس بوند الذي تفاخرين به، لم يمد إليكِ يد العون إلا ليجد مكانًا يؤويه بدلًا من اللف والدوران بلا أهل أو مأوى.

أخذت (آيات) نفسًا عميقًا لعله يطفئ ذلك الغضب المحموم الذي سيطر على حواسها فور التهكم على الشاب الوسيم، ثم قالت بازدراء:

- أستغفر الله.. لقد فقدت الأمل في عقلك أيتها العجوز الخرفة.. لكن لا بأس من تذكيرك بأن أول نقود حصلت عليها من الحيوان الذي اسمه ريمون اقتسمتها معكِ بالنصف وملأت لكِ ثلاجتك رغم أني كنتُ أستعد لتغيير محل إقامتي وكنتُ أعتقد أني لن أعود ها هنا مرة أخرى.

ردت عليها (دميانة) بتحد:

- ولأنك قدمتِ السبت وجدتِ الأحد يا عين أمك.. لو كنتِ رحلتِ بشكلٍ غير لائق لكنتِ الآن تفترشين الرصيف وتلتحفين السماء.

بادلتها (آيات) الرد بتحدٍّ مماثل:

- وأنتِ أيضًا لو مُتِّ واكتشفتِ أن الله موجود دون أن تقدمي السبت، فسيتم إلقاؤك في الجحيم.

(دميانة) في عناد:

- لن أموت إلا حين أقرر.. ولو وجدتُ الرب في انتظاري فسأحاسبه



- قبل أن يُحاسبني.. سأسأله لماذا فعلت فينا كل ذلك؟.. تخليت عنا وتركتنا نتعارك ونطحن بعضنا البعض وأنت وصف نفسه بأنه لا يرضى بالظلم؟.. (**تلتمع عيناها** بالدموع) سأقول له إنني كذّبت وجوده من فرط تصديقي في رحمته احتجت لها ولم أجدها.

لمعت الدموع بالمثل في عينيْ (آيات) لتفر من على شفتيها التي حاولت أن ترد بها حتى يئست، فهمست في خفوت:

- تصبحين على خير.

ثم انزلقت بأكملها تحت الفراش، لتغمض عينيها وهي تُمنّي بحلمٍ جميل يأخُذها إلى عالمٍ أفضل، تسرق منه السعادة ولو كاذبة.

* * *

(10)

سياراتُ المطافئ والإسعاف والشرطة خارج الملهى الليلي الذي إلى مبنى خرب تتصاعد منه الأدخنة، فيما حمل رجال الإسعاف) على نقالةٍ ليضعوه بحرص وعناية داخل إحدى سياراتهم ..

المكان، تجلت آثار الحريق والحطام على جنباته في المدخل، انتشر رجال المعمل الجنائي في كل شبر بالمكان يفحصونه البصمات، فيما وقف (نصحي) في منتصف المسرح وقد امتلأ بالإصابات والكدمات، وتحوَّل معظمه إلى اللون الأسود من رماد ليتحدث مع ضابط مباحث برتبة عقيد، ضخم الجثة، جاحظ ذي بشرةٍ تميل إلى البياض، وشعر رأس خفيف قصير، ويرتدي اللون، وبدت نبرة صوته غليظة حين سأل:

- ما الذي حدث بالضبط يا...؟

- نصحي.. نُصحي حسن عبد المعبود يا سيدي

- عظيم.. ماذا حدث يا نُصحي؟

بدت حماسية بشكلٍ مبالغ فيه أجاب (نُصحي) على الفور:

- إنهم الإسلاميون الإرهابيون يا سيدي.. فجأة اقتحم المكان مجموعةٌ من الرجال المُلتحين، بعضهم يحمل أسلحة آلية، والبعض الآخر يحمل قنابل مولوتوف، والبعض الثالث يحمل أسلحة بيضاء من السنج والسيوف، ليشنوا حربًا ضاريةً اندلعت فجأة مع اشتعال النيران والضرب والتكسير في كل أرجاء المكان، حتى إن الـ"بودي جارد" لم يكادوا يستوعبون الأمر حتى سقط منهم من سقط ما بين قتيل ومصاب.

الضابط كلمات (نصحي) وأدخلها في جهاز كشف الكذب الكامن عقله، وهو يَدُس سيجارة بين شفتيه ثم أشعلها بقداحته ليأخذ منها عميقًا نفث دخانه وهو يتأمل المكان بنظرةٍ فاحصةٍ ثم قال:

- لقد رأيت ما تقول بنفسي.

تقافز الذهول على وجه (نصحي) وهو يسأل في وجوم:

- أحقًّا؟ كيف؟

التقط العقيد (يحيى الشاهد) نفسًا جديدًا من سيجارته وأجاب:

- في أفلام عربي كثيرة.

ثم مال نحو (نصحي) وضاقت حدقتاه وهو يضغط على حروف كلماته بشكلٍ يؤكد على شعوره بأن ثمة شيئًا خفيًّا ومريبًا في الأمر:

- يبدو أن شهود العيان الذين حكوا عن شجار عنيف دب بين شاب وسيم مجهول والسيد ريمون ورجاله كانوا سكارى إذن يا صديقي.

توترت ملامح (نصحي) وازدرد ريقه حين قال:

- ها؟ ربما كانوا يقصدون أحد رجال الجماعة المسلحة الذين

قاطعه العقيد:

- منذ متى وأنت تعمل في هذا المكان؟

- أنا أعمل مع صاحبه قبل حتى أن يؤسسه، فأنا ذراعه الأيمن منذ زمنٍ طويل ووالده قدَّس الله روحه هو الذي ربَّاني.

- هل هناك أعداء للسيد ريمون؟

ارتبكت كلمات (نصحي) وهو يجيب:

- لقد تلقى مؤخرًا تهديداتٍ مجهولةً بغلق الملهى والامتناع عن نشاطه ببيع الخمور، وإلا فسيكون تدمير المكان عن بكرة أبيه هو الجزاء الرادع له ولأمثاله.

- هل أبلغ البوليس بذلك؟

- كلا.. لقد ظن إنها مجرد تهديدات خرقاء أو مزحة من صديق سخيف، فقرر تجاهل الأمر برمته.

- وهل سرق هؤلاء الإرهابيون شيئًا من المكان أم كان هدفهم الانتقام فحسب؟

- لم أتبين الموقف حتى الآن يا سيدي.. لقد فقدت وعيي وما زلت أشعر بالدوار وأعتقد أن السيد ريمون هو الأجدر مني بمعرفة إذا ما كان هناك شيء تمت سرقته أم لا.

- بحكم كونك الذراع اليمنى للسيد ريمون، هل كان نشاط المكان قاصرًا فقط على استقبال الزبائن وإقامة الحفلات أم كانت هناك أنشطة أخرى؟

- ماذا تقصد يا سيدي؟

- كلامي واضح.. هل كان للمكان أنشطة أخرى غير المعلنة؟

- إطلاقًا يا باشا، فعملنا كله في النور.

- هل لك أن تصف لي أولئك الإرهابيين؟

- لم أتبين ملامحهم يا سيدي بكل أسف، فقد كانوا ملثمين

- كيف تبينت أنهم كانوا ملتحين إذن؟

تمنى (نصحي) أن تبتلعه الأرض وقد نفد مخزونه الاستراتيجي من الكذب، إلا أن العقيد (يحيى) منحه ابتسامة ساخرة ووفر عليه التفنن في حياكة كذبة جديدة حين ربت على كتفه قائلا:

- يبدو أنك مرهق ومتوتر بشدة جراء ما عانيته الليلة يا سيد نصحي، سنلتقي مجددًا بعد أن تنال قسطًا من الراحة.

ثم التفت نحو مساعده وسأله:

- هل انتهى رجال المعمل الجنائي من عملهم على أكمل وجه؟



أجابه مساعده بلهجة تفيض بالاحترام:

- نعم يا سيدي.

ألقى العقيد (يحيى) نظرةً أخيرةً على المكان ثم قال لمساعده بلهجة [illegible] مغزى وهو يوزع نظراته بينه وبين (نصحي):

- عظيم، فسيتوقف على تقريرهم الكثير من التفاصيل المهمة التي ستكشف كل شيء.

قالها ثم انصرف من المكان وخلفه باقي رجال الداخلية، ليبرز الرجل [illegible] العينين الزرقاوين والبذلة الرمادية من ركن خفي ويسير بخطواتٍ [illegible] واثقةٍ نحو (نصحي) الذي شحب وجهه وحاكي وجوه الموتى، حتى [illegible] لم يشعر بوجود الرجل إلا حين تكلم بصوتٍ أجش أشبه بصوت ارتطام البول بالصخر:

- كل ما حدث يمكن معالجته والتغلب عليه لو استمعت [illegible] وسيدك إلى كلامي.

انتفض (نصحي) مع وجود الرجل المباغت وسأله في جدة:

- من أنت؟

* * *

اقتحم الرجل ذو العينين الزرقاوين غرفة (ريمون) بالمستشفى بخفةٍ [illegible] دون أن يشعر به أحد، ليقترب بخطوات واثقة من ذلك السرير الذي يرقد فوقه الأخير مغمض العينين، وما أن أصبح أمامه حتى أخذ يتأمل بإعجابٍ شديدٍ تسريحة الحرباء التي تقبض بأطرافها على جمجمته ليملس بأصابعه على خصلة شعره الطويلة التي تمثل ذيلها، ثم انحنى نحو الجسد المسجى حتى تلامست أنفاسهما. عندها شعر (ريمون) بلهيبٍ يلفح وجهه ففتح عينيه ببطء ليجد عينين زرقاوين تحملقان فيه وابتسامة مرعبة يُصوبها صاحبها نحوه في الظلام، فانقبضت رقبته [illegible] كتفيه كسلحفاة وهو يقول بفزع وهول:

- ما هذا؟ من أنت؟! النجد...

[illegible] قبضة الرجل المريب على حنجرته فجأة لينشب فيها أصابعه [illegible] بقوة وقسوةٍ شديدةٍ أجبرته على ابتلاع باقي حروفه ليلوذ بالصمت [illegible] يرتعد زائغ العينين مرتعش الأطراف فيما قال الرجل بصوت يشبه [illegible] الثعبان:

- أنا أعلم عنك كل شيء، ومتعاطف مع ما حدث لك من ذلك الوسيم الذي أذل ناصيتك وحطم هيبتك، إلى الحد الذي جذب البوليس ليدس أنفه في عالمك ويتشمم صفقاتك المشبوهة، وسرعان ما سيكتشف أمر الدعارة، والمخدرات، والسلاح، وشبكة التجسس على أولاد الكبار، لينتهي الأمر بإعدامك في صباح يوم لن يخبروك بتاريخه، حين يوقظك مأمور السجن بصحبة قواته فجأة، قائلا في غلظة: هيا لتنفيذ الحُكم.

[illegible] عينا (ريمون) في الاتساع بدهشةٍ عارمةٍ مع كل كلمة من كلمات [illegible]، ثم تحوَّلت نظراته المندهشة إلى رعبٍ لا حد له من مصير [illegible] تجسَّد في مخيلته، وما أن انتهى ذو العينين الزرقاوين من كلماته [illegible] ترك عنق (ريمون) الذي شلت حركته وتجمد الهول على ملامحه [illegible] أن يقوى على النطق، في حين تابع الرجل وهو يقرب وجهه منه [illegible]

- أنا أعرف أين ذهبت فتاتك بحقيبتك الثمينة التي تحوي الأسطوانات المدمجة **(تضيق عيناه ويطل منها شر الدنيا كله وهو يردف)**.. لكن ذلك الشاب الذي يرافقها لا توجد قوة في الأرض كلها قادرة على هزيمته.. إلا أنا.. يكفيك أن تعرف من الآن أن هدفنا واحد، وهذا كل ما يهم.

* * *

في وقتٍ متأخرٍ من الليل خلت فيه الشوارع من الهوام والدواب، اقترب [illegible] العينين الزرقاوين من ذلك العقار الذي يسكنه الشاب الوسيم، حتى [illegible] أمام بوابته فترةً وجيزةً أخذ فيها يتأمل الشارع والعقارات الكائنة فيه، [illegible] أن يختفي فجأة وكأن العدم قد ابتلعه، لتهب رياحٌ باردةٌ على الشارع، [illegible] في فتح النوافذ وأبواب الشرفات، دون أن يعرف سكان الشارع [illegible] الرياح التي هبت عليهم وأنعشتهم لم تكن إلا روحًا خفيةً تغلغلت في

رغباتهم لهدفٍ معلوم.

فجأةً الجميع شعروا بشوقٍ عارم، وحنين لا حد له نحو زوجاتهم، سواء الشباب أو حتى الكهول..

الكل داعبه الهوى، وتملكت منه الرغبة، واشتعلت فيه الشهوة، لينتفض الذكور وقد شعروا بقوةٍ وعنفوانٍ غير طبيعي يدب في أجسادهم بشكل مفاجئ ولا مفهوم، حتى نصب الأعصاب وجعلها كالحديد!

وفي غضون دقائق انطلقت آهات المتعة وصرخات التلذذ في نداء مدوٍ للطبيعة، اخترق الجدران والنوافذ ليبلغ عنان السماء، ويصك مسامع الشاب الوسيم ويقلق نومته.

فرَّ النعاس من عينيه اللتين فتحهما بتوتر وقلق، ثم جلس على مصطبته نصف جلسة يرهف السمع ليتبين صدق ما يسمع..

تأكد أنها صرخاتٌ مشبوبة بالانتشاء والشبق، ولا علاقة لها بالخطر أو الاستغاثة..

وبعد أن تأكد، أخذت تلك الصرخات التي تخترق أذنيه تتحول إلى صورٍ وخيالاتٍ في خياله وعقله الباطن بشكلٍ متكرر، مزعج، أفقده سكينته وثباته، لتزداد ضرباتُ قلبه ويشعر بشيء خاملٍ، نائمٍ، استيقظ في أعماقه!

هزَّ رأسه بقوةٍ في محاولةٍ يائسةٍ لطرد تلك الخيالات واستعادة براءته وعفته، والإمساك بلجام نفسه الحيوانية في أولى ليالي انطلاقها لكن دون جدوى، وقد أيقن رغم فقدانه لذاكرته، أن ما يشعر به الآن لم يمر به طيلة حياته السابقة..

استفردت به مشاعر جديدة ورغبات رُكِّبَت في جسده الصلصالي، ليشعر بافتقاد شيء لا يدري كنهه، ثم تحوَّل الافتقاد إلى عطشٍ من نوع خاص انتشر في جسده كالنار في الهشيم، دون أن يعرف كيف السبيل إلى الارتواء..



نهض مغادرًا مصطبته وأخذ يجوب السطح ذهابًا ومجيئًا كـ(هاجر) أثناء سعيها بين الصفا والمروة في لحظات التلطم بحثًا عن شربة ماء (لإسماعيل) في وادٍ غير ذي زرع، لكن عطش صاحبنا ما كانت لترويه (بئر) (زمزم) بأكملها!

ثم إنه نظر إلى عشة الدجاج وأرهف السمع لباقي الأسطح وهو يتساءل في نفسه: لماذا خمد صياح الديوك؟!

* * *



(11)

مع بداية شروق الشمس وإطلاق نورها الخافت، استيقظ الشاب الوسيم بعد ليلة ليلاء شعر فيها أنه يكتشف خبايا جسده لأول مرة، وسار نحو جدار السطح الذي تفصله عنه خطواتٌ بسيطة، حتى وضع راحتي يديه عليه وهو يولي وجهه شطر السماء متأملا كيف يهدي الصبح إشراقة سناه لأهل الأرض مجانًا، وارتسمت على ملامح وجهه التقوى والورع وهو يقول بصوتٍ خفيض بين الجهر والخفوت:

- اللهم في تدبيرك ما يُغني عن الحيل.. وفي كرمك ما هو فوق الأمل.. وفي عفوك ما يمحو الزلل.. اللهم إنا نرجو عفوك ونعوذ بك من سخطك.. اشملنا بحفظك.. وأسبغ علينا كرمك..

وفي غمار دعائه، لم يشعر بـ (آيات) التي غادرت حجرتها الحقيرة على أطراف أصابعها، لتسير نحوه وهي تملأ رئتيها بذلك النسيم المحمل بعطره النفاذ، مغمضة العينين بنشوى واستمتاع، في حين تتابع أذناها دعاءه بتأثرٍ بالغ وهي تقترب منه كالمسحورة دون أن ترى ذلك الخشوع الذي هيمن على قسماته وهو يواصل مناجاته للرب بقلبٍ شفاف:

- أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا، مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ.. حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ.. الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ*

---

* جزء من ترنيمة مسيحية تُدعى "المجدلة الكبرى"، وتقال أثناء القُدّاس الإلهي حسب الطقس اللاتيني بعد طلب الغفران (كرياليسون) وقبل الصلاة الافتتاحية ابتهاجًا وفرحًا بالرب الإله لأن رحمته عظيمة، وتم تأليف هذا النشيد باللغة اليونانية في الكنيسة الشرقية منذ القرون الأولى للمسيحية ليُرنم في صلاة الصباح، وأدرجت في قداس ليلة الميلاد في القرن الثاني، ثم تم توسيع نطاق تلاوتها لتشمل قداديس أخرى مثل قداس عيد الثالوث الأقدس، كما تُرنم في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في القداديس الاحتفالية أو قداديس الأعياد وأيام الآحاد العادية، لكنها لا تُرنم في قداديس التذكارات أو قداديس الموتى.



إلى أن صارت قاب قوسين أو أدنى منه، حتى وضعت راحتها اليمنى على كتفه ليلتفت لها بسرعة، ويتأمل عينيها الساحرتين وقد لمعت بؤبؤهما وهي تسأله:

- ألا تتذكر إلى أي دين كنت تنتمي؟

- دين؟

- ألا تؤمن بوجود الله؟

- بل أؤمن.

- وكيف لا تعرف معنى الدين إذن؟لعلي كنت أعرف قبل أن أنسى.

ثم نظر إلى السماء وأردف:

- كل ما أذكره الآن أنني مؤمن بوجود الرب.. كلما حدثته شعرت به يهبط من عليائه ويحل في قلبي ليجيبني بلغة التخاطر حيث لا حاجة للكلمات.. بل مشاعر ومعانٍ جلية يتلقاها الفؤاد فيدرك المغزى كاملاً بلا لبس.. دون الحاجة لمفردات قاصرة قد لا تكفي لإيصال المراد.

أخذتها كلماته نحو حالةٍ روحانيةٍ حلقت معها في السماء، لكن وسامته وعطره الذي لم تشتم مثله طوال أيام عمرها جذباها كمغنطيس مطلق النفوذ نحو حضنه الذي تمنت لو اتخذته بيتًا، لتقترب منه أكثر وتقول بدلال:

- ألم تشعر بالبرد وأنت مغطى بخرقة بالية؟

أجابها بنبرةٍ يملؤها الإيمان والحكمة، لتقف حاجزًا أمام انجذابها:

- ربك يعطي البرد على قدر الغطاء.

قبل أن تتبس ببنت شفة، صك مسامعها صوت أزيز الباب خلفها، لتلتفت هي والشاب نحو الصوت ويجدا (دميانة) بملامحها الناعسة تتجه إلى



الحمام المنفصل عن الغرفة، فبادرتها (آيات) بابتسامة قائلة بتودد:

- صباح الخير يا دميانة.

ردت عليها (دميانة) بوجهٍ كئيب:

- صباح النور، هيا، شهّلي في شراء وتجهيز الفطار.

باغت الرد (آيات) التي ارتسمت الصدمة على وجهها، لتنظر للشاب في حرج ثم اقتربت من (دميانة) قائلة بخفوت:

- ما معي لا يكفي لشراء خبزٍ حاف بعد كل ما حدث.. أنقذيني الآن من معك وسوف..

قاطعتها (دميانة) بغضب:

- انظري يا ابنة الناس، ما أوله شرط آخره نور.. هناك اتفاق قديم بيننا أن تعيشي معي وحق نومتك تدفعينه أكل وشرب ونظافة للمكان.. وإذا كنت قد سمحت لكِ بالعودة أنتِ والحليوة الذي معك، فلا يعني ذلك أني سأصرف عليكما.

تمنت (آيات) لو لم تأت لهذا الوجود وهي تقول بصوتٍ متهدج:

- لكن أنا...

أعفاها الشاب من وصلة الذل وهو يقاطعها ناظرًا لـ (دميانة) بثبات:

- عندك حق يا دميانة.. هيا بنا ننزل يا آيات لإحضار الفطار.

سألته (آيات) وهي تلتفت نحوه بدهشة:

- هل معك نقود؟

أجابها بهزة رأس بطيئة تفيد النفي، فسألته بدهشة أكبر:

- وكيف سنشتري الفطار إذن؟

تطلع إلى عينيها بابتسامةٍ جعلتها تشكر الظروف المؤلمة التي

أرادت بسمة بهذا الجمال، ثم قال بثقة:

- الطير يغادر عشه كل يوم خماصًا ومقصده على من خلقه.. فيعود آخر اليوم شبعان دون أن يملك نقودا.

نظرت له (دميانة) بتوجس، قبل أن يقترب منها ببطء وهي تتأمل ملامحه الوسيمة وقد سحرتها نظراته وطريقة كلامه الواثقة من جديدٍ قبل أن يقول بلهجة لا ريب فيها:

- ما الذي تريدين تناوله في الفطار؟

* * *

تباطأت خطواتُ (آيات) وهي تسير بجوار الشاب وعلى وجهها الإرهاق، ثم قالت بنبرةٍ منهكة:

- مضت ساعة على مسيرنا دون أن نفعل شيئًا، والجميع رفض إعطاءنا إفطارًا على الحساب.. ماذا تنوي أن تفعل؟

أجابها وهو يواصل سيره دون أن يفتر حماسه:

- إياكِ أن تيأسي أو يفتَّ ما يحدث في عضدك.. غالبًا آخر مفتاح في سلسلة مفاتيحك يكون هو المناسب لفتح الباب.

استمر سيرهما حتى مرًا إلى جوار عربة فول، التوت عندها قدم (آيات) [illegible] منها فسقطت وهي تتأوه قبل أن تمسكها يد الشاب بأعصاب من فولاذ وأعانتها على الوقوف من جديد..

نظرت إلى عينيه وقالت بضعفٍ ووهن:

- صدقني لن نصل لشيء.. نحن في زمنٍ لا ثمن فيه لابن آدم إلا بما في جيبه من نقود، ولن يصنع موتنا من الجوع أي فارق مع من حولنا.. لقد ابتلعت المجاعاتُ آلافًا من البشر دون أن يشعر برحيلهم أحد، وكم من أناس عاشوا سنين طوالا في انتظار الرزق وماتوا قبل أن يأتي.



أجابها بتحدٍّ وإصرار:

- ما أعرفه أن الرزق يُطارد ابن آدم أكثر من بحث ابن آدم عنه لو كانوا آمنوا بقلبٍ واثق بلا ذرة شك لتحول التراب في أيديهم إلى ذهب.

"وهل أنت على هذه الدرجة من الإيمان؟"

تردد صوت (دميانة) خلفه ليلتفت نحوها هو و(آيات) حيث أصبح جميعهم واقفين أمام عربة الفول، دون أن تكف المرأة العجوز عن النظر إلى عينيه بشماتة، ثم انحنت على الأرض وملأت راحتيها بحفنة من التراب، ونهضت وهي تمد يديها نحوه قائلة في تحد:

- فلترني كيف تحول التراب إلى ذهب أيها المؤمن بدلا من دورانكما خلفكما منذ ساعة على لحم بطني.

تأمل عينيها بهدوء دون أن ينبس ببنت شفة قبل أن تلقي التراب أرضًا وتبتسم ساخرة وهي تردف بتهكم:

- من يشاهدك وأنت تتحدث بثقةٍ وحزمٍ تسحره كلماتك وأسلوبك، أي غباء هذا الذي أصاب عقلي حين شعرت أنك ستفعلها وتجلب الإفطار رغم ثقتي في أن جيبك خاوي الوفاض.. أخذتني رجلاي خلفكما لأشاهد ماذا ستفعل وأنا أشعر أنك ستصنع معجزة.. فإذا بك مثل باقي الموكوسين الذين يكيفون كل حاجة في هذا الكون البائس على مقاس الدين حتى يهربوا من فشلهم.

ثم التفتت (دميانة) لبائع الفول وأخرجت من عبِّها اتنين جنيه معدنيين ووضعتهما على العربة وهي تقول في عجالة:

- بجنيه فول وزيت حار، وبخمسين قرش عيش، وخمسين قرش باذنجان.

ومن جانبه، أخذ بائع الفول الجنيهين ودسهما في جيب المريلة البيضاء التي يرتديها وهو يقول:

- فلتجعلي الحساب عليَّ هذه المرة يا أماه!

أجابته بغلظة:

- منذ متى تلقي الحدأة بالكتاكيت يا عين أمك؟.. هيا أنجزني فأنا جائعة.

ثم التفتت نحو الشاب مجددًا وواصلت جلده بكلماتها المتهكمة:

- في إحدى المرات، مشيت في جنازة، كانت الخشبة فيها في خفية الريشة.. وأخذت الناس تهلل للميت الذي يجري نحو قبره ومستعجل على الجنة.. وبعدما وصلنا القبر اكتشفنا أن الخشبة كانت فارغة، ولم نفق من الصدمة غير على صوت سيارة الإسعاف التي جاءت تحصلنا وفيها الجثة بعد أن تم استبدال الصندوق بآخر فارغ، فهل نفس الناس على أن الميت التقي كان يعرف طريقه إلى قبره.. كل المأفونين بربهم يفكرون بنفس الطريقة ولا أمل في شفائكم.

أتاها صوت بائع الفول من خلفها:

- الطلب يا أمي.

اتجهت نحو صاحب العربة وأخذت منه ذلك الكيس البلاستيكي الذي به ما طلبت، وما أن استدارت للشاب حتى اقترب منها قائلاً بثقة:

- تُرى هل اشتريتِ الفول حتى تثبتي أني كنت مخطئًا في الإيمان بعقيدة لا تؤمنين بها؟ أم أن ثقتي في عطف الخالق ورزقه لنا مهما كانت الظروف هي التي أرسلت الرزق على يديكِ لتثبتي بنفسك عكس ما تؤمنين به؟

باغتتها كلماته وحاصرت عقلها لتسرح فيها رغمًا عنها، وإن جاهدت ألا يبدو على ملامحها التأثر، في اللحظة التي انحنى فيها الشاب نحو الأرض ليأخذ حفنة ضخمة من التراب بيديه، وما أن نهض حتى بدأ التراب ينساب من راحتيه ببطء، ليتحول أثناء انسيابه إلى ذهب!!

اتسعت عينا (دميانة) بدهشةٍ عارمةٍ، وألقت بكيس الفول والعيش والتقطت

طرف جلبابها بسرعة لتضعه تحت راحتيْ الشاب، في اللحظة التي انتبه فيها زبائن عربة الفول لما يحدث ليتوقفوا عن الأكل وينقض جميعهم على (دميانة) يتخطفون منها الذهب..

ومن جانبهم، لاحظ المارة وروّاد المحلات وأصحابها ما يحدث، فترك الجميع ما في أياديهم لهثًا وراء ذلك الكنز المفاجئ الذي وُلد من العدم في ساعة حظ حتمًا لن تتكرر في العمر مرةً أخرى، ليمرق مجاذيب الذهب بعيونٍ متسعةٍ جاحظةٍ، وأفواه مفتوحة، وأقدام تسوقها بوصلتها نحو البريق بجوارِ (آيات) التي تسمَّرت في مكانها غير مصدقة نفسها دون أن تحاول الاقتراب، لترى في ظرف ثوانٍ معدودة تكدسًا بشريًّا غير عادي اختفى داخله الشاب و(دميانة) تمامًا، في حين بدا باقي الشارع خاويًا على عروشه!

وداخل التكدس والزحام الرهيب، سقطت (دميانة) أرضًا لتتكالب عليها الأيادي وتدهسها الأرجل بلا رحمة، وأخذ رأسها يتخبط في الأسفلت بقسوةٍ شديدةٍ، وشعرت برجرجة مخها حتى بدأ دوار عنيف يبتلع وعيها وقد تمزق جلبابها، وتعفر وجهها بالتراب، وامتلأ جسدها بالكدمات والسحجات لتتمنى في تلك اللحظة أن تملك القدرة على أن تصرخ في الجميع: خذوا الذهب وكل ما أملك واتركوني أعيش، لكن الألم والضعف جمَّدا الكلمات والصراخ على شفتيها دون أن يُبالي أحدٌ بنظرات الهوان التي ارتسمت على ملامحها قبل أن تفقد الوعي، بينما أخذت الأيادي تتخطف الذهب في فوضى ووحشية، والشاب يتابع المشهد عن قرب دون أن يتدخل، حتى عاد الذهب إلى سيرته الأولى لينساب مرة أخرى من الأيادي في صورة تراب، ويعود الجميع بخُفيْ حُنين.

بعضهم اتسعت عيناه برهبة، والبعض الآخر شهق في ذعر، والبعض الثالث تجمد في مكانه كتمثالٍ إغريقي لأحد التعساء الذين أصابتهم لعنة رأس ميدوسا الملعونة، وسرت في المكان همهمة، وعلا صوت الجلبة.

في تلك اللحظات ظهر الرجل العجوز ذو الملامح السمراء الذي قابله الشاب في المولد، ليمرق بين الأكتاف المتزاحمة ويمد بصره متابعًا المشهد عن قرب، في حين تطلع الشاب إلى الوجوه المحيطة به وقد جحظت منها العيون وقال بصرامة:

- لاتكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون* **(انحنى ليحمل دميانة ثم**
- **تابع)** بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون.

قالها ثم سار حاملًا (دميانة) ليشق طريقه وسط الزحام، وقد تجمد الكثير من الناس في أماكنهم، فيما امتدت إلى جسده بعض الأيادي لتتمسح فيه بعد أن ظهرت منه كرامة لن يمحوها النسيان أبد الدهر في نفوس كل من عاينوها، أما (آيات) فقد ارتجفت أوصالها حين التحم هذا المشهد بالمشهد الأسطوري الذي مرَّت به معه في المقابر، وفاقت جرعة الإبهار التي ملأت نفسها حدود استيعاب العقل البشري والمشاعر والأحاسيس وردود الأفعال الإنسانية، لتنصب عيناها على كيس الفول الذي تمزق وسال على الأرض دون أن تحرك ساكنًا، وقد غرقت روحها فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يغشاه موج من التساؤلات.

* * *

عبثت (آيات) مفتاح الغرفة في الباب ببطء وتلجلج، لتنظر بعينين ذاهلتين إلى الشاب الذي يحمل (دميانة) وقد صعد خلفه أفواج من البشر ساروا خلفه كالمجاذيب..

وعلى عتبة الباب، انتظر الشاب أن تُفسح له (آيات) المجال ليدخل الغرفة حاملا الثعلبة العجوز فاقدة الوعي، ليسجي جثمانها على السرير بحنانٍ ورفق كمن يضع طفلا رضيعًا، ثم التفت خلفه حيث ما زالت (آيات) تتأمله بعين الرهبة والرجفة، لتسأله بعينين يملؤهما الانبهار دون أن تكترث بمئات الأشخاص الذين وقفوا خارج الغرفة وملأوا السطح ودرجات السلم المؤدي إليه، كمن سمعوا أن (مارلين مونرو) تستحم على الملأ في السطح:

- من أنت؟

تطلع إلى عينيها وقال بنبرة صوتٍ رخيمةٍ ساحرةٍ لا ينافس سحرها سوى بريق عينيه الذهبيتين:

- أنا الذي اختارني الرب لأكون أنا، مثلما اختارك لتكوني أنتِ
- لو قلتَ لي إنك نبي جديد لما ساورني الشك.. ولو اتهموك

* الكتاب المُقدَّس، إنجيل متى 19:6

- بالسحر لما استطعت أن أصف كلامهم بالأباطيل.

تأمل عينيها وتجمّد حولهما الزمان والمكان لثوانٍ، قبل أن تنقض عليه سيدة منتقبة لا يظهر منها شيء حتى عينيها، وقالت بلهفة غريق وجد مركبًا إلى جواره في لحظة استسلامه للموت:

- حتى ولو ساحرًا، نحن في حاجة لقدراتك بعد أن فشلت دعوات الأولياء وجهود الأطباء في رفع الضر عنا **(انكبت على يده تقبلها قائلة بتضرع)** أقبل يديك ساعدني!

سحب يده من أمام فمها كمن يخشى عضة أسد، لتزيح النقاب من على وجهها وتصعق ناظره بوجهها المشوّه ذي الجلد المهترئ المتآكل ونصف رأسها الذي اختفى منه الشعر تمامًا وظهرت أسفله أرضية جمجمة محروقة ببشاعة، وذابت إحدى عينيها والتحم الجفنان بفعل ماء نار أتى على أنوثتها وإنسانيتها وأصدر فرمانًا بالحبس خلف نقاب ما بقي لها من العمر، في صفقة عادلة ستحميها من ألسنة الناس التي لا ترحم، ويحميهم من ملامحها المثيرة للخوف والرعب.

صرت الهمهمة فور كشف السيدة للنقاب عن وجهها، لتواصل تضرعها وهي تبكي وتنسال دموعها من عينٍ واحدة:

- لقد دمَّرني طليقي وقضى على حياتي ومستقبلي، فلتلمس وجهي بيدك المباركة وتعيدني من جديد لعالم الأحياء، فما أقسى أن تموت وأنت حي.

زاحمها حول الشاب رجل أربعيناتي بسيط الهيئة، ذو ذقن طويلة قائلا:

- وأنا فصلتني الشركة التي أعمل بها أنا وزملائي لتقليل ميزانيتها وألقت بمهام عملنا على باقي الموجودين فيها ولا مصدر رزق لي أنا وأطفالي الأربعة.

ثم انضمت لهما سيدة عجوز تقدمت نحو الشاب وقالت في حرقة:

- منذ أيام تُوفي زوجي بسكتة قلبية بعد أن رفضوا انضمام ابننا للنيابة رغم تخرجه بتقدير جيد جدا واجتيازه اختبارات القبول لأن والده كان عامل نظافة.. أهذا أمر يستحق الطرد من جنتهم؟ أم كان من المفروض تكريم الأب الذي ربى ابنه أفضل تربية حتى

تخرَّج بتفوق على أقرانه من أبناء الحسب والنسب؟

اقتربت طفلةٌ جميلةٌ سمراء ذات وجهٍ خالطه التراب وملابس رثة وقدمين حافيتين:

- أريد دمية وساندوتش هامبرجر من ذلك المحل الذي يوزع لعب هدية مع وجبات الأطفال.

انحنى الشاب نحو الطفلة ومسح بيده على شعرها الغجري في اللحظة التي منحته فيها ابتسامة عذبة بها ما تبقى من براءتها، وقبل أن يقترب شخص خامس نهض الشاب واستوقف الجميع بنبرةٍ صارمة:

- ما فعلت إلا ما شعرت أني قادر على فعله في لحظة إيمان، وهو نفس الإيمان الذي يُخبرني الآن أني غير قادر على نفعكم بقدر ما تستطيعون نفع أنفسكم في التعامل مع ابتلاءاتكم.. **(وزع نظراته على الجميع وارتفع صوته بحسم مستطردًا)** من كان يعتقد أني ساحرٌ فلماذا لا يغير السحرة حياتهم للأفضل؟ ومن يرى أني إنسان مبارك فأنا أكثركم بؤسًا.. عودوا إلى بارئكم، فهو وحده من يملك أن يجيب كل منكم مسألته إذا صرتم على ناموس الكون المُحكم.

صرت الهمهمة وتعالت الأصوات بنبرات التوسل والتذلل، فيما تحوَّل السطح ومن عليه فجأة إلى ما يُشبه عالم الكارتون والجرافيك في عينيْ الشاب الوسيم الذي رأى سحابات من الأحلام والأماني تُحلّق فوق رؤوس أصحابها، لكن جميعها مرسوم خلف قضبان ذات أقفال حديدية صدئة من تكاسلهم وضعف إيمانهم، قبل أن يتزاحم الجمع حول الشاب وتمتد إليه الأيادي للتمسح به، فانتفض صائحًا فيهم بنبرةٍ آمرةٍ دوت كالرعد:

- **كَفَـى!**

ارتجفت أوصال الجميع مع صيحته الهادرة التي كادت تخلع قلوبهم، فتسمّروا في أماكنهم وكأن على رؤوسهم الطير، وإن لم تكف أعينهم عن محاصرته بالتوسل والتذلل وقد أبت نظراتهم تصديق فكرة أنه لا يملك الخلاص، فأحس أن الهواء قد خلا من الأكسجين في تلك البقعة البائسة

من الأرض الحزينة.

ودون أن يشعر، أخذته قدماه بعيدًا عن المكان مغادرًا السطح دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه.. لا يدري إلى أين يتجه؛ لكنه على الأقل عزم على الرحيل غير عابئ بهرولة (آيات) خلفه، ولا بصوتها الجريح المتهدج حين سألته إلى أين سيذهب.

* * *

(12)

حلّقت روح (دميانة) عاليًا لتشاهد جسدها المُسجَّي على الفراش وإلى جوارها (آيات) التي تطبطب على خدها برفق في محاولة يائسةٍ لإيقاظها.

اخترقت الجدران ورأت جموع البشر وهم يرحلون من السطح، كل منهم [illegible] صفر اليدين.

في أعالي السماء، وجدت أنبوبًا أسطوانيا انجذبت إليه فجأة، لتغرقَ في [illegible] بعضها فوق بعضٍ قبل أن تندفع بسرعةٍ هائلةٍ إلى نهايته التي لاح منها بصيصُ ضوءٍ أخذ يكبر ويتسع كلما اقتربتْ منه حتى عبرت الأنبوب إلى الجانب الآخر من الوجود، لتجد نفسها أمام أنوارٍ صافية [illegible] لم تجد في جمالها ولا بهاء ألوانها مثيلاً في الأرض على مدار عمرها الذي بلغت أرذله.

أضواء قوية، شديدة، فائقة السطوع، لكنها رغم ذلك لا تؤذي العين أو [illegible]، وفي الخلفية موسيقى خلابة تتغلغل في الروح وتجعلها في حالة انتشاء.

اخترقت دميانة الأضواء، لتجد بعدها أرضًا مترامية الأطراف من الخضرة والورود والأشجار، تعلوها بعض المرتفعات التي تنهمر منها شلالات من المياه بألوانٍ مختلفة لا مثيل لها على الأرض، وحولها جبال منقوشة بشكلٍ رائعٍ عبقري حِسَان، بينما تنتشر الملائكة في كل جانب لترفرف أجنحتها الخفاقة، فيما أخذ بعضهم يلهو ويلعب مع بعض الأطفال الصغار الذين ارتدوا ملابس بيضاء وانبثق النور من وجوههم كقديسين تحيطهم الهالات النورانية..

جربت أن تطير فارتفعت عن الأرضِ بسهولةٍ ووجدت نفسها تسبح في الهواء كما تريد بمجرد التفكير، لتُحلّق عاليًا وتُبحِر أكثر في عباب هذا العالم النوراني الجميل، ومن بعيد لمحته..

نعم، إنه هو..

في نفس زيه الأبيض الذي رأته به في كل الصور..

نفس الوشاح الذي يغطي نصف رأسه الخلفي، ويلتف حول كتفيه ويظهر من تحته نصف رأسه الأمامي كاشفًا عن شعره البني الفاتح الناعم الطويل المفروق من المنتصف.. لحيته الناعمة الخفيفة.. بشرته البيضاء.. عينيه الملونتين العميقتين، اللتين تبدو كل منهما ككوكب دري يسر الناظرين..

يجلس على كرسي العرش وحوله مجموعةٌ من الخراف تركض هنا وهناك لتلعب مع الأسود في سلام استثنائي يخالف ناموس الدنيا..

"كيف حالك يا دميانة؟"

لم تغادر الكلمات شفتيه، ورغم ذلك اخترقت مسامعها، وتغلغلت في نفسها، لتجيبه بدهشة وانبهار:

- هل.. هل أنت...؟

ابتسم وهو يجيب برقةٍ وصوتٍ عذب فاق جماله تلك الموسيقى الخلابة التي تتردد في أصداء هذا العالم:

- نعم، هو أنا.. لقد كنت أنتظرك منذ زمن.

بدأت تستجمع قواها وتستعيد منطقها الذي كوَّنته على مدار سنين طوال تحسُبًا لمجيء هذا اليوم وقالت:

- وأنا كنت أنتظر تلك اللحظة التي أختبر فيها إذا كانت هناك مقابلة أم لا.

قام من جلسته واقترب منها بخطواتٍ هادئةٍ لا تخلو من الشموخ والعظمة دون أن يتخلى عن ابتسامته الحانية وهو يتأملها، ثم سألها حين أصبح أمامها وجها لوجه:

- المقابلة نفسها كانت اختبارًا.. فهل سمعتِ عن تلميذ يختبر المُعلِّم إن كان هناك اختبار أم لا؟

- وهل هناك تلميذ يُوضع في لجنة اختبار دون أن يقابل مُعلِّمه ويأخذ فرصته في الفهم والمعرفة على ما سيتم اختباره فيه؟



- لقد أرسل المُعلِّم الأكبر صغار المُعلِّمين للشرح والتفسير، لكن بعض التلاميذ انصرفوا عن العلم وحاربوا مُعلِّميهم المرسلين.

- حين أراد المُعلِّم الأكبر أن يخبر التلاميذ بوجوده.. أرسل لهم كلامًا مع مُعلِّمين يشبهونهم في الخِلقة والتكوين حتى يؤكدوا على بعض الدروس المتعلِّقة بقدراته، ويوم لقائه المعلوم.. لكن ماذا عن التلاميذ الجدد الذين لم يشاهدوه ولم يلتقوا بمندوبيه من المُعلِّمين الذين أرسلهم، ليصبح الأمر بمثابة حكايات قديمة حتمًا ما طرأ عليها التعديل والتغيير عبر آلاف السنين شأن كل حكاية يتناقلها البشر من مكانٍ لمكانٍ، ومن عصرٍ لعصرٍ؟.. كيف لنا أن نؤمن بكلام سمعناه من آبائنا وأجدادنا عن مُعلِّمين لم نرهم، ولم يرهم من حكى عنهم، انتدبهم مُعلِّم هم أنفسهم لم يشاهدوه؟

- ولماذا لم تفكري في الكلام الذي أرسله المُعلِّم؟ لعل فيه الخلاص.

- لقد كان كلامه نفسه مصدرًا للشك.

- كيف؟

- كلام المُعلِّم الحقيقي، لابد وأن يكون مفهومًا لكل التلاميذ.. ليس به طلاسم ولا غموض، ولا يتوقف الاقتناع به والنجاح فيه على نسبة ذكاء بعضهم، لأن الأغبياء ومحدودي الفهم لم يخلقوا يومًا عقولهم.. كان من اللائق به أن يُوحِّد أبناء المدرسة، لا أن يتسبب في صراعات طاحنة بين تلاميذ الفصول المختلفة.

وضع ذقنه بين إصبعيه الإبهام والسبابة ليفركها ببطء وهدوء وقد عقد حاجبيه مُفكرًا في كلماتها، ثم استدار عائدًا إلى كرسيه بخطواتٍ متثاقلةٍ وهي تتطلع إلى منكبيه العريضين، وما أن وصل لكرسيه حتى التفت نحوها وجلس من جديدٍ قائلا في تعاطف:

- يبدو أنكِ مررتِ بتجربةٍ مؤلمة.

ثم التقط العصا التي يهش بها على غنمه من جانبه وضرب بها على الأرض قائلا:

- ها هو ذا خط الزمن أمامك، احكِي ما شئتِ، كُلي آذان مصغية!

ومع ضربة العصا تحوَّلت الأرض أمامها إلى ما يُشبه شاشة عرض هولجرامية تعرض مشاهد رباعية الأبعاد لكل العصور، فتأملت الطفلة بدهشةٍ عارمةٍ سرعان ما تحولت إلى دموعٍ حزينةٍ يملؤها الألم، ثم وضعتْ يدها على نقطة محددة اختارتها دونًا عن باقي الأزمان، لتبدأ من عندها الحكي.

* * *

مدينة الإسكندرية، عام 1942 م

انحدرت الدموع الساخنة علي وجنتيْ تلك الطفلة السمراء الجميلة ذات الضفيرتين، وهي تشهد لحظة نزول ذلك الصندوق الخشبي الذي يحمل جثمان أمها إلى مثواه الأخير، قبل أن يُصلِّي القس صلاته الأخيرة لمباركة روحها التي صعدت إلى الملكوت السماوي، طالبًا من الملائكة والقديسين أن يشفعوا لها أمام عرش النعمة، ثم أخذ يُذكِّر الحضور بالاستعداد لذلك اليوم الذي لا مفر منه، وفي غمرة أحزانها ودموعها التي ألهبت خديها، شعرت بكف رقيق يتسلل الأجساد المحيطة بها ليقبض على كفها في حنانٍ ورفق. توقفت عن البكاء وهي تلتفت نحو صاحب هذا الكف، فإذا به (موريس)، ذلك الطفل اليهودي الجميل، أبيض البشرة، ذو الشعر الأسود الفاحم فائق النعومة، والعينين الواسعتين وينتمي مع أسرته التي تحضر الدفنة لطائفة (القرَّائين)*

* كان يهود مصر يتكونون من طائفتين رئيسيتين، "الربانيين" و"القرَّائين".. طائفة "الربانيين" كانت تمثل الجانب الأكبر في مصر والعالم، وكان يطلق عليهم أيضًا اسم "التلموديين"، ويؤمن أتباع هذه الطائفة بكتب العهد القديم الملقبة بالـ(تناخ) والتي تتكون من كتب الـ (توراة) وهي أسفار موسى الخمسة ومنهم سفر التكوين، والـ (نفيئيم) التي تعني الأنبياء، و(كتوفيم) ويضم كتابات مثل المزامير، سفر الأمثال، وكتب صغار الأنبياء، ويبلغ عدد كتب التناخ 39 كتابًا مُقدسًا تمت كتابتها باللغة العبرية ما بين القرنين الثالث عشر والثاني قبل الميلاد، بخلاف إيمانهم بالتلمود الذي يحتوي على 63 سفرًا، وينقسم لقسمين: (المشناه) و(الجمارا)، ويحتوي على شروح التوراة وأبحاث عن الدين اليهودي والتاريخ الديني والقوانين التي كتبها حاخامات اليهود.
أما طائفة القرائين، فهي تيار في اليهودية يطلق عليه أيضًا الـ"قراؤوت"، ومعظم المنتمين لها في مصر كانوا من الطبقة البسيطة، وكانوا مندمجين مع المصريين سواء المسلمون أو المسيحيون ولا يختلفون عنهم سوى في الطقوس الدينية فقط، وكان أولادهم في المدارس المصرية العادية، وكانت لهم صحف ناطقة باسمهم مثل جورنال "الكليم" الذي كان يناقش المواضيع المصرية والوطنية، ويختلف القراؤون عن الربانيين في أنهم يؤمنون بالخمسة أسفار الأولى في العهد القديم فقط، ولا يؤمنون بالتلمود ويعتبرونه كلام بشر.

[illegible] هذه الطائفة اليهودية جزءًا لا ينفصل عن الشعب المصري ولا يختلف أبناؤها عن المسلمين أو المسيحيين في أي شيء عدا العقيدة، ابتسم الطفل (دميانة) ابتسامة عذبة ببراءة شديدة غير عابئ بالرسميات وسمات الحزن التي على الجميع حفرها على ملامح وجوههم في مثل هذا الموقف المهيب حتى وإن خلت مشاعرهم الداخلية من أي تأثر، احترامًا لحزن أهل الميت، وجلال الموقف الذي قدَّسه المصريون منذ قديم الأزل.

* * *

"عجيب يا جرجس.. دميانة ابنتك مثل ابني موريس تمامًا، ولا ضير أن [illegible] ليليان زوجتي بتربيتها في أوقات عملك"

قالها (زكي موردخاي) ذلك اليهودي الرفيع، ذو الوجه الأصفر الذي تبرز منه عظمتا الوجنتين، وتطل منه عينان ضيقتان مختبئتان خلف نظارة طبية معلقة بسلسلة تتدلى خلف قفاه، ويعلوه شعرٌ خفيفٌ منحولٌ في مقدمته، لتخرج كلماته بصوتٍ يشعر من يسمعها أنها خرجت من أنفه وليس لسانه، في صالة منزله بحارة اليهود في (بحري)، موجهًا حديثه إلى صديقه البدين الأصلع (جرجس)، الذي امتد كرشه أمامه كسيدة حامل في 4 توائم، لتؤمِّن (ليليان) زوجة الأول على كلامه قائلة:

"وكليم الله لقد وقع هوى ابنتك الجميلة في قلبي منذ أول وهلة رأيتها فيها.. دعها معي يا جرجس ولا تخف، فلقد حرمت من نعمة الإنجاب بعد تلك العملية التي قمت بها وكم كنت أتمنى أن تكون لي ابنة.

كان (زكي) محاسبًا بفندق (سان إستيفانو) الذي موَّلت بناءه عائلة (موصيري) اليهودية، بينما كانت زوجته (ليليان) موظفة بأحد المحلات التابعة لعائلة (قطاوي) اليهودية أيضًا*، وجمعت الصداقة بين أسرته وأسرة المحامي (جرجس عادل كيرلوس) أشهر من لعب على المشاريب في تاريخ الإسكندرية بأكملها، ولم يذق طعم الخسارة في لعبة الطاولة قط.

* استفاد اليهود كثيرًا من معيشتهم في مصر منذ عهد الوالي العثماني (محمد علي) وحتى الملك (فاروق)، واستغلوا مهارتهم في كل مجالات إدارة الأموال فشكلوا تكتلاتٍ اقتصاديةً وضاعفوا ثرواتهم، وبرزت أسماء عائلات منهم كان لها شأن في اقتصاد مصر ومنهم عائلة (يعقوب قطاوي) الذي كان رئيسًا للطائفة اليهودية في مصر، فضلا عن كونه رئيس شرف المحفل الماسوني في مصر، وكان له 4 أبناء تولوا إنشاء وإدارة محلات (منشة وشركاه) مع أبناء عائلة (منشة)، وافتتحوا فرعًا لهم بلندن، ثم انفصلوا عن (منشة)، وافتتحوا فروعًا إضافية بباريس والإسكندرية، وأسست العائلة معامل لتكرير السكر وتدرج وصولهم لمناصب بالحكومة المصرية حتى تولى أحد أفرادها (يوسف قطاوي) وزارة المالية ثم وزارة الاتصالات، وافتتحوا بنكًا وأسهموا في إنشاء بنكين آخرين وأداروا البنك الزراعي واحتكروا صناعة الملح والصودا.
أما عائلة (موصيري) فكانت ذات أصول إيطالية، كبيرهم (نسيم بك موصيري) هاجر لمصر سنة 1749 م، واستوطنها وناسب عائلة (قطاوي)، وكانت من أكبر عائلات أعيان اليهود في مصر، وأسهموا بمساهماتٍ كبيرةٍ في إعانة الطائفة اليهودية المصرية ودروا الأموال لرعاية أبنائها، وعُرفت العائلة بتأسيس أنشطة تجارية كبيرة في مصر بداية من إنشاء بنك (موصيري)، وبناء وإدارة عدة دور للسينما وتنمية صناعتها بخلاف تأسيس شركة (جوزي فيلم)، وفي مجال الفنادق والسياحة أقاموا فندقي (مينا هاوس) و(سان ستيفانو) بالإسكندرية، كما أسسوا جريدة (إسرائيل) وكانت تصدر من القاهرة بالعبرية والعربية والفرنسية، وبخلاف ذلك كانوا من أشد العائلات التي أسهمت في دعم الصهيونية وقيام الكيان الصهيوني في فلسطين.

مثل الكثير من سكان (العطارين) و(بحري) المترابطين اجتماعيًا برباط أغلظ من رباط الأخوة، كان (زكي) و(جرجس) صديقين حميمين، متشابهين في الكثير من الصفات والتفكير إلا في خانة الديانة، التي كان مدونًا أمامها في بطاقة (زكي): يهودي، بينما كان (جرجس) مسيحيًا أرثوذكسيًا.

في حجرة صغيرةٍ بالمنزل، تطلعت الصغيرة (دميانة) ذات السنوات القليلة، إلى مكتبةٍ بها العديد من الكتب ذات الأحجام والمقاسات المختلفة، قبل أن تلتفت نحو (موريس) ذي الثلاثة عشر ربيعًا وتسأله بدهشة:

- ألا يوجد في غرفتك سوى الكتب فقط؟ أين الألعاب التي تلعب بها؟

فابتسم وأجابها بطريقةٍ بدت أكبر من سنه بكثير:

- تلك الكتب هي اللعبة التي يروق لي كثيرًا أن أقضي بها أغلب وقتي، فبها أجول كل أنحاء العالم وأنتقل عبر الزمن وأنا على سريري بين جدران غرفتي.

التفتت للكتب مرة أخرى بدهشةٍ ثم نظرت إليه وسألته:

- كيف؟

فرد ذراعه بطريقة مسرحية وأشار لمكتبته وهو يجيب بغموض:

- هذا سؤال لن تفهمي إجابته أبدًا إلا إذا جربتِ اللعبة بنفسك، فمن يقرأ يلخص كل متع الكون في مُتعةٍ واحدة.

تطلعت إلى ملامحه بإعجابٍ وقبل أن تتبس ببنت شفة، أطل فجأة شبح الحرب العالمية الثانية الذي خيم على الأجواء في الإسكندرية وشتى مدن وبلدان العالم في ذلك الحين، لينطلق صفير التحذير من غارة جوية شنتها الطائرات الإيطالية التابعة لقوات المحور، في محاولة لضرب أهداف تابعة لقيادة الأسطول الملكي البريطاني المؤازر لقوات الحلفاء، والذي تم نقله من مالطا إلى الإسكندرية منذ سنوات بناء على معاهدة 1936، بينما أخذ أحدهم يردد بصوتٍ مثيرٍ للتوتر:

- طفّي النور.. طفّي النور!

لتنطفئ أنوار الحي بأكمله، ويسود الظلام وصمت البشر بشكلٍ ضاعف من حدة صوت سارينة الإنذار القابض للقلب، فيما اقتربت (دميانة) من (موريس) في رعب، قبل أن تسمع صوت أزيز الباب الذي انفتح وأفزع فتحه بضوءٍ بسيطٍ تسلل إلى الغرفة من شمعة حملتها (ليليان) وهي تقول بحنان:

- تعاليا اجلسا معنا في الصالة يا صغيريّ الجميلين.

لكنها سرعان ما تخلت عن نبرتها الحانية حين اصطحبت الطفلين للصالة، لتزفر زفرة حارة وتقول غاضبة:

- لعنة الرب عليك يا هتلر الكلب أنت وحلفاءك الحمقى، أريد أن أصعد إلى السطح يا زكي للاطمئنان على الكتاكيت الصغار في العشة.

صاح فيها (زكي) غاضبًا:

- صه أيها الخرفة، فلتذهب الكتاكيت إلى الجحيم.. أتريدين أن يلمحك طيار بتلك الشمعة في يدك فتكونين سببًا في دمار شارعنا مثلما قصفوا المنازل في شارع السبع بنات* منذ أيام؟

أجابته بعصبية:

- دع الأمر على ربنا يا رجل، فلن يأخذوا منا إلا ما هو مكتوب علينا فقده، ثم إن الطليان والألمان لا يؤذون المصريين إلا بالخطأ بعد أن تحالف معهم الملك فاروق من وراء الكواليس

هب واقفًا كمن لدغه عقرب وقال بصوتٍ خفيض:

- 100 مرةٍ أنبه عليكِ ألا نقحم السياسة في كلامنا خاصة فيما يتعلق بشأن جلالة الملك يا امرأة، اصعدي لكتاكيتك إن كان هذا

* يُعتبر شارع السبع بنات أحد أهم وأعرق شوارع منطقة الثغر في الإسكندرية، ويبدأ من ميدان المنشية حتى منطقة اللبان، وينتهي على حدود طريق القباري، وكان مليئًا باليهود والجاليات اليونانية والإنجليزية، فكانت به الحانات والدكاكين الخاصة ببيع الخمور فضلا عن الكثير من بيوت الدعارة، وترجع تسمية الشارع إلى وجود 7 راهبات في دير، كن يقمن بإضاءة الشارع لأن السير فيه كان خطرًا على السيدات لمرور ريا وسكينة أشهر سفاحتين في تاريخ مصر الحديث بذلك الطريق الذي يؤدي إلى منطقة اللبان، لذلك سمي الشارع بالسبع بنات.

سيريحك.. لكن بدون شمع.

قالها وهو ينفخ في الشمعة التي تحملها، فأشعلت عود ثقاب وهمّت بإشعال الشمعة من جديد وهي تقول في عناد:

- لقد شارفت الغارة على الانتهاء يا زكي.

نفخ في عود الثقاب وقال بإصرار زاد معه ذلك الخنفان الملاصق لصوته:

- فلنوفر الشمع إذن يا لي لي يا حبيبتي، فنحن أولى بكل مليم أدفعه من جيب الحي.

أشاحت بوجهها وغادرت المكان وهي تتمتم بكلماتٍ غير مسموعة بدت أشبه بالطلاسم، في الوقت الذي قهقه فيه (جرجس) قائلا:

- زوجتك محقة يا زكي، فعددٌ كبيرٌ من الساسة والشعب يقولونها علنًا: إلى الأمام يا روميل، وبعد سقوط مرسى مطروح وأسر 7 آلاف جندي من قوات الإنجليز، بات كل ما ينقص روميل اجتياز 200 كيلومتر لتدخل قواته الإسكندرية ويحررنا من قبضة الإنجليز.. ألم تلاحظ أن أنوار قصر الملك ها هنا تظل على إنارتها في قلب الغارات والمعارك بينما كل المدينة تقبع تحت الظلام أثناء القصف؟

خفض (زكي) بصره وأطرق إلى الأرض متمتمًا بصوتٍ مسموعٍ بالكاد:

- وهل تعتقد أن الألمان سيكونون أكثر رأفةً بنا من الإنجليز؟ انظر حولك لكبار التجار والأثرياء اليهود الذين بدأوا في تصفية أعمالهم وبيع ممتلكاتهم بمجرد اقتراب روميل من الإسكندرية لتعرف أي مصير سوداوي ينتظرني أنا وفقراء اليهود الذين لا يستطيعون الفرار من مدينتنا إذا ما رجحت كفة الألمان.

همَّ (جرجس) بالإجابة في نفس اللحظة التي انتهت فيها الغارة وعادت الأنوار إلى البيوت فاستطرد (زكي) موجهًا حديثه لطفله:

- لقد انتهت الغارة، هيا يا موريس، خذ دميانة إلى غرفتك.. فأنا

أريد عمك جرجس في موضوع على انفراد.

وضع (موريس) يده على كتف (دميانة) وغادر كلاهما الصالة متجهين إلى الحجرة الصغيرة، فيما قال (جرجس):

- ألن تشعل النور يا زكي؟

مال (زكي) نحوه وأجاب هامسًا:

- ما أريدك بشأنه موضوع يجب أن يبقى في الظلام.

* * *

قاربت الشمس على الرحيل في آخر ساعات النهار، حين سار الصبي (موريس) مع الطفلة (دميانة) في شوارع حي (العطارين) العتيق حتى وصلا إلى مسجد (العطارين) الذي يختلف طراز معماره الإسلامي الشرقي عن الطراز المعماري المميز للحي بمبانيه وحوانيته القديمة المرتسمة على ملامحها فنون العمارة الأوروبية ذات الذوق الأجنبي، حاملة بصمات اليونانيين والطليان والأرمن، الذين كانوا يهتمون كثيرًا بالزينة والطيور في محلاتهم، ما بين من يُعلِّق قفص به ببغاء، أو من يضع حوض به ترسة بحرية، بخلاف رائحة النباتات والبهجة التي تُصدرها أصائص الزرع الموضوعة في الشرفات، حاملة ورودًا مختلفة الألوان والأنواع بأشكال متعددة، كلها تثير في النفس سعادة خفية فور وقوع العين عليها، بينما وضعوا في مداخل البيوت أصائص الصبار.

توقف (موريس) عن السير أمام المسجد فتوقفت بدورها (دميانة) عن المشي متأملة ملامح رفيقها الذي عزم على استعراض ثقافته الواسعة وما تحصَّل عليه من هواية القراءة التي بدأها وهو في الخامسة من عمره، ليحرص منذ ذلك الوقت على اقتناء الكتب والمجلدات أحيانًا أو استعارتها أحيانًا أخرى، والتهام سطورها في نهم كدودة قراءة لا تشبع، ثم قال بعد أن رتَّب أفكاره كمن يُلقي مُحاضرة:

- منذ فجر التاريخ والإسكندرية هي ملكة الإبداع والفن والعشق والجمال.. قال عنها الشعراء إنها قطر الندى، ومهبط الشعاع المغسول بماء السماء، واعتبروها أيضًا قلب الذكريات المبللة

بالشهد والدموع.

نظر إلى عينيها وتابع:

هي مثلك، أيقونة هاربة من كتب الحواديت الإغريقية.. ساحرة لا تعرف النوم في الصيف، ولا تخشى الضباب والصقيع في الشتاء.. تُبادل زائريها الغرام بالغرام، وتُغرق الكلام في الألحان.. كانت قرية صغيرة اسمها راقودة، ثم تحوَّلت إلى مدينةٍ كبيرةٍ من أجمل العرائس التي تتبختر على شاطئ البحر المتوسط، وعلى أرضها تاريخ طويل تفوق أحداثه روعة وغرابة الأساطير، لذا أحببت القراءة عنها ومعرفة أدق أسرارها.

القراءة هي التي علمتني أصل تسمية هذا الحي بالعطارين، ويرجع سر الاسم إلى سببين، السبب الأول هذا المسجد **(وأشار لمسجد العطارين وتابع)** كان في البداية كنيسة باسم القديس أثاسيوس الذي ظهر في المرحلة التي انتقلت فيها المسيحية من مرحلة الاضطهاد والتعذيب إلي مرحلة الدراسة والتعلم، حتى إن خلافًا كبيرًا نشأ بين المسيحيين في تفسير المسيحية وكانت أولى بوادره في الإسكندرية باعتبارها من أكبر مراكز انتشار المسيحية في العالم، وكان الخلاف بين اثنين من فريقي القديسين.. القديس الكسندروس الأول بابا الإسكندرية ومعه تلميذه الشمَّاس أثناسيوس وفريقهما الذي آمن بثالوثكم المقدس من الآب والإبن والروح القُدس ورأى في مسيحكم طبيعة إلهية، والكاهن أريوس وتلامذته الذين أنكروا ألوهية المسيح والثالوث المُقدَّس، ورأوا أن المسيح لم يكن سوى بشر مُرسلٍ من إلهٍ واحدٍ، ليتفاقم الصراع ويكثر الشغب بين مؤيدي كلا الفريقين، وفي مجمع نيقية الذي انعقد في عام 325 ميلاديا، انتصر أثناسيوس بمعونة الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي كان وثنيًا وتحوَّل إلى المسيحية، وتم نفي أريوس، ثم فرض الإمبراطور مذهب أثناسيوس على الإمبراطورية الرومانية ككل ليصبح الأخير أسقفًا للكرازة وبابا الإسكندرية، وبُنيت بعدها كنيسة باسمه في العطارين استمرَّت لسنواتٍ طويلةٍ جدًا حتى تهدمت، وبعد دخول القائد العربي عمرو بن العاص للإسكندرية بنى فيها الجامع الغربي وتهدم في فترةٍ لاحقةٍ، ثم تم بناء الجامع الشرقي على

أنقاض كنيسة القديس أثناسيوس، وتأثر العرب في بنائه بفنار الإسكندرية وجعلوا مئذنته أشبه بتصميمها لكنه تهدم مع الوقت وبيعت أسقفه حتي جاء المملوك الأرمني بدر الدين الجمالي أمير الجيوش في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي استعان بجيشه الأرمني للسيطرة على القلاقل التي واكبت عصره وأرّقت الدولة الفاطمية، والطريف أن ابنه ثار عليه واستقل بمدينة الإسكندرية بتأييد أهلها وأطلق على نفسه لقب مظفر الدولة، فنزل أمير الجيوش على أبواب المدينة وحاصرها شهرا حتى طلب أهلها الأمان وفتحوا له أبوابها، فدخلها وأخذ ابنه أسيرًا وعاقب أهل الإسكندرية على تأييد ابنه الأوحد بأن فرض عليهم جميعًا مسلمين ومسيحيين ضريبة مائة وعشرين دينارا من كل فرد، وجدّد بالضرائب الجامع الشرقي الذي سُمي فيما بعد بمسجد العطارين نسبة إلى العالم محمد العطار الذي دُفن فيه، وكان أحد كبار مشايخ المسلمين الذي جاءوا من المغرب.

تطلعت إليه بانبهار إزاء كل هذه الثقافة والمعلومات التي تدفقت من ذاكرة قوية لا تعرف النسيان وقد حارت على شفتيها الكلمات، فشعر بانبهارها وأرسل مستكملا:

- أما السبب الثاني وراء اسم العطارين، فيرجع إلى سوق العطارة الذي نشط ها هنا منذ الفتح العربي، واشتهرت معظم محلات الحي بتجارة التوابل والعطور حتى أصبحت من أشهر أسواق العطارة في العالم.. فكانت العطارين أهم مركز لتصدير العطارة إلى مملكة البهار في أوروبا..

ثم أشار للبيوت وهو يتلفت حوله وقد توحَّد مع عالمه الحالم الذي هاجر إليه منذ أن أحب القراءة متابعًا:

- هل تعلمين أن التجار كانوا ينزلون في السويس وينقلون بضائعهم على الجمال إلى الإسكندرية ليعبروا من الملاحات والطريق الزراعي حتى يصلوا إلى باب شرق المدينة وينامون حتى الصباح عندما يأتي الحراس ليفتحوا لهم باب الدخول للبلد، فيعبروا المنازل حتى يصلوا إلى الدكاكين داخل الإسكندرية، وكان الوكلاء الأجانب يخرجون لاستقبال القوافل القادمة في

العطارين وينزلون البضائع في المخازن الضخمة والخانات ليخزنوها عندهم، ويبيعوا للتجار المصريين الجزء المراد بيعه في مصر، أما البضاعة المصدرة القادمة من المدن الإيطالية مثل جنوة وبندقية ومارسيليا، فكانت تنقل إلي المراكب من العطارين ثم إلى شارع الخديو ثم إلى الميناء.

عند هذه النقطة شعر بغصة في حلقه وهو يتذكر أيامًا عصيبةً لم يعشها لكنه تجرّع مرارتها عبر السطور التي التهمها يومًا حين أراد أن يستكشف مدينته التي وُلد وعاش فيها، وما زال –وسيظل– كل ما قرأه عنها يسكن في عقله ومشاعره وكل جوارحه:

- لكن المدينة عادت تُعاني من الخراب بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وجفاف فرع النيل والقناة التي كانت تمد الإسكندرية بالمياه العذبة، حتى إن عدد سكان الإسكندرية الذي بلغ 600 ألف نسمة تراجع إلى ثمانية آلاف نسمة عند قدوم الحملة الفرنسية، قبل أن يمنح الوالي العثماني محمد علي قبلة الحياة إلى الإسكندرية من جديد بشقه لترعة المحمودية التي عادت لتوفر مياه الشرب مرةً أخرى، بخلاف ربط الإسكندرية بداخل البلاد وتسهيل نقل التجارة إليها بأقل التكاليف، فزادت مساحة الأراضي الزراعية، وتم تعميق الميناء وزيادة أرصفته ليستوعب زيادة النشاط التجاري.

شعرت مع تلك الحماسة التي ملأت كلماته برغبةٍ عارمةٍ في السجود أرضًا وتقبيل أرض الإسكندرية التي ما كانت تتصور أنها بهذا التاريخ والعراقة رغم أنها لم تتعرف بعد سوى على النزر اليسير، بينما أخذ (أوريس) نفسًا عميقًا وصوَّب ناظره نحو عينيها مباشرة وهو يستعد ليحكي أهم جزء في الحكاية:

- واستقدم محمد علي اليهود من شتى أنحاء العالم كأمهر أهل الأرض في التجارة، ليقيموا فيها مشاريعهم واستثماراتهم، وزادت هجرتهم إلى مصر في عهد الخديو إسماعيل بعد أن تمتعوا بكل الامتيازات الأجنبية، وصارت مصانعهم ومحلاتهم ذات الأفرع الكثيرة مع الوقت قوة اقتصادية تتحكم في اقتصاد البلد بأكمله، ما بين شيكوريل وعدس وعمر أفندي وبنزايون

وشملا وغيرها، بخلاف البنوك التي أنشأوها، وخطوط السكة الحديد التي مدّوها، والتنقيب عن البترول الذي أجّروا من أجله مئات العمال، وعربات سوارس التي يسَّرت حركة النقل العام وغيرها من الأنشطة المتعددة التي بفضلها عادت الإسكندرية من جديد تضج بالتجارة وحركات البيع والشراء، وتوافرت فيها آلاف فرص العمل للمصريين، والأجانب الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وجاؤوا إلينا بحثًا عن الرزق أو هربًا من الاضطهاد والحروب الأهلية والتطهير العرقي، فصارت مدينتنا موطنًا لخليط من جاليات الإيطاليين، واليونانيين، والأرمن والشوام، والأتراك، والبلغار، في مزيج إنساني نادر من أعراق وجنسيات مختلفة، زُرعَت في صحراء مدينتنا الخصبة فأنبتت نوعًا مختلفًا من البشر يستحيل أن يجد الألفة والمعايشة بهذا التناغم في كل مدن العالم إلا الإسكندرية، التي باتت قرية كونية تتسع لكل أهل الكوكب، ومتحفًا زمنيًا مفتوحًا، نشم في شوارعها وأحيائه عبق التاريخ العتيق، ونمتع أعيننا بآثار بني الإنسان من شتى الحضارات الفرعونية، والإغريقية، والبطلمية، واليهودية، والقبطية، والإسلامية.

انتهى من كلماته ووقف يتأمل تأثيرها على ملامح الطفلة المبهورة التي تحوَّل استمتاعها بتلك المعلومات إلى حسرات..

الآن فقط أدركت كيف ضاعت 10 سنوات من عمرها في اللا شيء..

كيف عزلتها أمها عن الدنيا وحرَّمت عليها نزول الشارع بمفردها نهائيًا باسم الخوف عليها من المجهول، بعد أن اختفت خالتها في ظروف غامضة ثم اتضح فيما بعد أنها كانت إحدى ضحايا ريا وسكينة"..

كيف منعتها من القراءة قائلة: "الكتب ستُعلِّمك أمورًا لا ينبغي أن تعرفيها في هذه السن"، دون أن تكمل الأم باقي الجملة بشكل صريح وإن كانت داخلها تردد: "وستجعل من الصعب السيطرة عليك بما أن يفوق تفكيرك تفكيري".

نفض والدها يديه عن تربيتها، واعتاد على السهر خارج البيت لأوقات متأخرة كل ليلة دون أن يجرؤ مخلوقٌ أن يسأله من أين جئت وماذا كنت تفعل؟ لتنفرد والدتها بتربيتها، وتصبح هي الأم والأب والعائلة والأصدقاء ودولة القطب الواحد التي لا تكفي كل قرارات مجلس الأمن واعتراضات الفيتو لإيقافها.

صار كلام الأم هو الحقيقة المطلقة.. صوابها هو الصواب وما سواه خطأ وخطيئة.. أوامرها ونواهيها دستور كوني ليس هناك محامٍ من البشر في محكمة الحياة الدستورية قادر على مراجعته والطعن في قوانينه، فتحولت مع الوقت من رتبة أم لإله، ثم رحل الإله فجأة لتجد الصغيرة نفسَها وحيدةً في الفراغ والعدم!

وفي حضرة التاريخ الذي لم تعرفه، وجغرافيا المكان العريق الذي لم تتجول فيه بمفردها رغم كونه قاب قوسين أو أدنى من منزلها، شعرت أنها تولد لأول مرة في عالمٍ جديدٍ ممتع يكشف أسراره وخباياه ذلك القديس الصغير (موريس)، لكن مهلا.. كيف يكون قديسًا وهو يهودي؟

أقنعت عقلها بإرجاء السؤال حتى لا يُعكر صفو تلك الحالة التي تمر بها لأول مرة في حياتها على يديه، وتكلمت بصعوبة كمن يتعلم الكلام:

- أكل هذا تعلمته من القراءة؟!

اتسعت ابتسامته وقد راقت له دهشتها:

- لا تُسرفي في الإبهار والدهشة يا عزيزتي واتركي قدرًا لما هو آتٍ، فما أخبرتك به لا يُمثل سوى بضع صفحات مما أعلم.

قالها بلهجة ساحر يستعد لفقرةٍ جديدة، ثم وضع يده على كتفها ومال بها جانبًا ليحميها من الترام الذي كان يمر في هذا الوقت بشارع (مسجد العطارين) قبل أن يقبض على يدها ويستأنفا السير..

مرَّا بجوار الكنيسة الإنجيلية وأخبرها أن تاريخ بنائها يعود للقرن التاسع عشر على يد رسل القديس مارتن لوثر كينج زعيم البروستانت الذي حاول نشر أفكاره ومبادئه عبر تلامذته في كل بلدان العالم، لتصل إلى كافة المسيحيين وتصحح لديهم ما أفسده الباباوات والقساوسة عبر القرون الماضية.

ثم وصلا إلى تجمع بشري على هيئة نصف دائرة يحفها أناس من مختلف الأعمار والأشكال، لكن أغلب الوقوف فيها كانوا من الأطفال، وعلى طرف نصف الدائرة وقف رجل تبدو ملامحه غير مصرية، في يده صحونٌ من البلاستيك يلقيها في الهواء، ليقوم مجموعة من الأطفال في أياديهم بنادق الرش بتصويب طلقاتهم نحوها في محاولة لاصطيادها وسط مزيج من التعليقات الطريفة والسمجة، لتبتسم (دميانة) وتستعيد طفولتها الهاربة وهي تتابع بهجة أقرانها من الأطفال.

"ألم تلعبي بيترو من قبل؟"

باغتها (موريس) بالسؤال، فانطفأت البسمة الاستثنائية وعاد الوجوم والحزن إلى ملامحها وهي تهز رأسها نفيًا، فعاد لممارسة دوره:

- إنها لعبة يونانية يا صديقتي، أدخلها في الحي الخواجة كرياكوس، بنصف فرنك* تأخذين 5 طلقات، ولو استطعت أن تصيبي صحنًا لكِ هدية.. أنا عازمك على اللعب.
- لكني لم أمسك بندقية من قبل.
- حان وقت التجربة إذن.

* النصف فرانك عملة مصرية قديمة كانت تُساوي قرشين.

أنهى جملته الأخيرة بشكلٍ حاسمٍ ثم اقترب من الخواجة ونقده نصف فرنك، فأعطاه البندقية بيد، والخمس طلقات باليد الأخرى، ثم فتح البندقية بمهارة ووضع فيها طلقة وأغلقها بسرعة وإحكام قبل أن يُسلِّمها لـ(دميانة) قائلاً بلهجة مُعلِّم:

- فلتمسكي البندقية بثقة، ثم تضعي مؤخرتها عند كتفك هكذا، وبعد أن تلامس سبابتك الزناد، لا تتسرعي في الضغط قبل التأكد من مرور شعاع البصر من فتحة الناشنكاه الخلفي إلى فتحة الناشنكاه أعلى سن نملة الدبانة أسفل منتصف الهدف قليلا.
- هيا يا خبيبي!

قالها الخواجة (كرياكوس) بلهجةٍ عربيةٍ مُتكَسِّرة، ثم ألقى الطبق الأول، فضغطت (دميانة) الزناد..

بالطبع لم تصب الهدف على مدار 4 محاولات فاشلة اقترن فيها صوت الطلقة الطائشة بصيحات السخرية، وهمز ولمز الأطفال الواقفين، وحين جاء الدور على الطلقة الأخيرة، أمسك (موريس) البندقية وهي لا تزال في يد (دميانة) وتطلع لوجهها بابتسامةٍ حانيةٍ قائلاً بلهجةٍ تحمل شيئًا من الاعتذار:

- ولا يهمك.. حتى قادة العسكر يُخطئون في إصابة أهدافهم أحيانًا.

ثم جذب البندقية في رفق لتستسلم له أناملها، وقبل أن يلقي الخواجة الطبق الأخير، نظر (موريس) لباقي الأطفال باستخفافٍ ثم وجَّه نظره سريعًا نحو الطبق الذي سبح في الهواء وضغط الزناد ليغير الطبق مساره في الجو بعد أن أصابته الطلقة، ليتهاوى أرضًا وسط تصفيق الأطفال وصيحات تشجيعهم، دون أن تنبس (دميانة) ببنت شفة، لكن تلك البسمة على شفتيها كانت تُغني عن كل شيء.

بخطواتٍ واثقةٍ رصينةٍ، تقدَّم نحوها (موريس) حاملا تلك اللعبة التي فاز بها إثر قنصِ الصحنِ الطائر ووضعها في يدها دون أن ينطق بحرفٍ، واكتفى بنظراتهما سفيرًا ورسولا.

* * *

استمر السير بعدها في شوارع وأزقة (العطارين)، ولاحظت (دميانة) لأول مرة أن لكل 100 متر كنّاس مخصوص يحرص أصحاب المحلات على مراضاته، لتبدو كل شوارع الحي نظيفة جميلة حتى تلك المناطق الفقيرة فيه، وحين تسللت إلى أذنيها تلك الموسيقى الممتعة ذات الطابع اليوناني، شعر (موريس) بما يجول في خاطرها فقال وهو يواصل السير:

- إنهم الجريج يا عزيزتي.. يعلقون في مناور بيوتهم الميكروفونات ويدوّرون أسطوانات المزيكا أو يعزفونها كي يستمع الناس إلى موسيقاهم وتعم الفرحة حولهم.. هم أيضًا أولاد بلد وأصحاب مزاج وطيبو المعشر مثل المصريين، ولا يختلفون عنا في الجدعنة والشهامة.. أعرف منهم نفرًا كثيرًا، وحضرت بالأمس خطبة باسيلي اليوناني على أنجيل سليم ذات الأصل اللبناني.

ثم دخل بها في حواري ضيقة ملتوية أشبه بالمتاهة، بها خليط من الوجوه المصرية والوجوه اللبنانية والسورية، تحاول بيوتهم أن تغش من صنعة الأجانب في البناء والشكل الخارجي، لكن فرق الجودة كان واضحًا، وبدت أغلب المساكن فقيرة وعشوائية ولا يتخطى أغلبها ثلاثة أدوار على الأرجح، ومن جديد حان الدور على (موريس) ليميط اللثام عن هذا العالم:

- حي العطارين كله عبارة عن سوق كبير.. وتلك الرائحة التي تغزو أنفك الآن ليست رائحة العطارة ولا رائحة الأجانب، بل هي رائحة الرزق.. فهنا يعمل أولاد البلد من السكندريين مع السوريين واللبنانيين في ورش الخياطة ومحلات الخردوات التي تبيع مستلزمات الخياطة من الكُلَف والأزرار والسوست بعد أن انتشرت تجارة الملابس المستعملة وصارت في حاجة لمن يعيد تجديد الملابس ويُصلح عيوبها، سواء الثقوب التي تحتاج إلى رفة، أو الملابس التي سقطت أزرارها وسوستها، وكان أول من تاجر بها في الحي هم الشوام، حتى أصبحت لهم ساحة خاصة بهم أطلقوا عليها بياصة الشوام.

- بياصة؟

- إنها كلمة مُحرَّفة من اللغة الإيطالية، وأصلها الصحيح هو بياتزا، وتعني الساحة أو الميدان، هيا نذهب إليها!

وصلا إلى البياصة، وجدا الباعة يلمون بضاعاتهم المفروشة على طاولات مرصوصة ومنظمة بعد أن انفض السامر، فتأمل (موريس) المشهد ثم نظر للسماء قائلا:

- للأسف وصلنا متأخرًا.. إنها ساعة المغربية التي يرحل فيها الباعة ويضعون بضاعاتهم في المغازة* لكن لا يهم، إنها فرصة لتشاهدي أجمل ما عرفته العطارين على يد إلياس ملك السمان.

ابتسمت بسعادةٍ شديدةٍ وقد وجدت أخيرًا ما تقوله في حضرة موسوعة موريس المتنقلة:

- لقد سمعت كثيرًا عن إلياس من أبي الذي كان يحضر لنا من عنده سمانًا مشويًا لذيذًا على فترات متباعدة.. أخبرنا أنا وأمي أنه رأى عنده سيد درويش قبل وفاته، حيث كان يأتي للغناء مع سلامة حجازي ويتبارى حولهما بعض المطربين الشباب والعازفين على الربابة والعود، ثم توالى من بعدهم على المحل فريد الأطرش وصباح وفريد شوقي ومحمود المليجي وغيرهم من نجوم المجتمع.

راق له تفاعلها، وشعر بالسعادة حين تأكد أن فتاته الجميلة التي قرر إدخالها من صنع يديه لم تضجر أو تمل، فأردف:

- إلياس ملك السمان وبولس شوحا صاحب محل الأحذية الأشهر في العطارين، كلاهما من عائلتين لبنانيتين جاءا هنا هربًا من الفتن بين الطوائف المسيحية في لبنان، تمامًا مثلما نزح آلاف الأرمن من تركيا إلى الإسكندرية هربًا من المذابح والتطهير العرقي ضد المسيحيين، لكن كل من جاءوا إلى مدينتنا في كفة، وإلياس وحده في كفة أخرى..

وحده من بين كل أصحاب المحلات في العطارين، الذي يؤجر كنّاسين مخصوصين لتنظيف السوق من مخلفات الباعة ورشه بالماء، ثم يترك لأطفال السوق ساعتين للعب الكرة واللهو حتى يُعوِّضهم عن زحام الصباح وعدم وجود مكان يقضون فيه طفولتهم، ثم تُفرد طاولات الطعام في كل مكان، ويبدأ العازفون السوريون الذين يجلسون على مقهى حبيب في العزف، بالتزامن مع شيِّ السمان

* المغازة هي ذلك المكان الذي كان يخصص لحفظ البضاعة والطاولات الخاصة بباعة الشوام مقابل أجرة.

- ليملأ دخانه اللذيذ الشهي الأجواء ويتصاعد إلى سماء العطارين جاذبًا معه علية القوم ووجهاءه إلى المكان، فيشاهدهم أهل الحي عن قرب ويشعرون بالسعادة لمصافحتهم والحديث معهم، ... على يد إلياس صار في حيّنا الصباح للعمل، والمساء لليهود

أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا تمنت لو تخللته رائحة الشيء الذي لم يبدأ بعد، ثم نظرت حولها وتساءلت:

- لكني لم أرَ أي عطارين منذ بدأنا جولتنا، فأين اختفى أشهر سوق للعطارة؟

جذبها من يدها واستكملا الجولة مستطردًا:

- لقد اختفت مهنة العطارة منذ زمن بعد ذلك التغيير الذي طرأ على خريطة المكان، وأعقبه ظهور محلات أخرى للساعات والموبيليا والذهب والأنتيكات والنجف، ومع الوقت بدأت كل جنسية من الجنسيات العديدة تتخصص في مجالٍ معين.. فأصبحت البقالة من نصيب الجريج، والساعات للأرمن، والأنتيكات والموبيليا للطليان، بينما المخابز والحانات تم توزيعها بين الشوام والجريج

نظرت إلى محل صغير يعرض الأنتيكات والخردوات وهتفت:

– لقد رأيت العديد من المحلات المشابهة لهذا المحل.. ألن تخبرني عنها؟

احمر وجهه وأجاب في اقتضاب:

- هذا محل العاذر للرهونات.. باقي المحلات المشابهة له متخصصة في تسليف المحتاجين مقابل أخذ أشياء ثمينة يملكونها كرهن لحين تسديد النقود التي استلفوها مع دفع مقابل مادي آخر نظير التسليف، أو يتم الحجز على تلك الأشياء وبيعها إذا ما جاء موعد السداد ولم يسددوا.

سألته من جديد:

- ومن هم أصحابها؟

أجاب بصوتٍ خفيضٍ وهو ينظر للأرض في ضيق:

- اليهود.

* * *

تعالى صوت كركرة "البوري"* في ذلك المقهى الشعبي من شيشة (جرجس) التي نام خرطومها على كرشه الضخم بينما أخذ يُقبل مبسمها بشراهة ساحبًا منه أكبر قدر من المعسل الذي كانت بينهما قصة عشق، قبل أن يخرجه من أنفه كمحرقةٍ للموتى الهندوس في اللحظة التي ألقى فيها حجري النرد بلعبة الطاولة صائحًا بثقة:

- خُذ عندك.. هَب يك!

دار حجرا النرد حول نفسيهما قبل أن يستقر كل منهما على الرقم 1

اتسعت عينا (حسن) أفندي ذي الشارب القصير والبذلة القديمة البالية، ذا الشعر المنكوش بعد أن خلع من فوقه الطربوش ووضعه على المائدة، ليراقب (جرجس) الذي يُحرك أقراص الطاولة العاجية في لعبة (المحبوسة) وينقلها للخانة المقابلة وقد شارف على الانتصار بعد منافسةٍ حامية الوطيس بينهما كانت في البداية لصالح (حسن)، ثم استأذن (جرجس) وذهب إلى المبولة، ليعود منها شخصًا آخر لا تُكذّب يده الأرقام التي يستقر عليها حجرا النرد بعد أن ينطقها لسانه قبل حتى أن يلقي الحجرين، ليتمتم الأفندي بنرفزةٍ وهو يهز حجري النرد في يده استعدادًا لإلقائهما:

- حظ عوالم.

ثم تضاعف غضبه حين خانته أرقام النرد وباعدت بينه وبين الفوز،

* كانت النرجيلة في تلك الحقبة الزمانية لها عدة أسماء.. التي تحمل كمية أكبر من الدخان الخالص تُسمى "عجمي"، أما الدخان المخلوط بالمعسل فكانوا يسمونه "بوري"، أو "المصري"، لأنه كان شكلا مصريًا خالصًا.



ليدس زجاجة الـ(إسباتس) ذات المشروب الغازي بنكهة التفاح في ويفرغ ما فيها في جوفه دفعة واحدة، لعلها تبرد ناره المشتعلة في بينما سحب (جرجس) من البوري نفسًا طويلا بمزاجٍ شديدٍ، متجاهلا خَصْمه الغاضب قبل أن ينفس دخانه من فمه هذه المرة في اللحظة ألقى فيها حجري النرد قائلا بثقةٍ وهو يتأمل أرضية الطاولة:

- شيش جوهار.

ليستقر الحجران بالفعل على رقميْ 6 و2، ويحرك (جرجس) الطاولة ناهيًا الدور قبل أن يغلق صندوق الطاولة الخشبي صائحًا في القهوجي:

- المشاريب على حسن أفندي يا ابني وضف عليها كوب سأشربه مع عمك زكي، **(ثم نظر لخصمه وجلده بنبرةٍ شامتة)** تعوضها المرة الجاية يا أبو علي.

ثم نهض متجاهلا كلمات (حسن) أفندي الذي قال في غيظ:

- أنت أكيد مخاوي.

ثم سار (جرجس) بخطواتٍ بطيئةٍ اهتز معها كرشه الرجراج ليسحب كرسي ويجلس إلى جوار (زكي) الذي كان يُراقب ما يجري باستمتاع شديدٍ، قائلا باعتذار:

- لا تؤاخذني يا زكي، طال الدور مني هذه المرة.

ابتسم (زكي) وقد اكتستْ ملامح وجهه بالسعادة قائلًا:

- لا يهم يا صديقي.. فقد كانت متابعتك أمتع من مشاهدة الريحاني وسماع الست أم كلثوم.

ثم فرَّت الابتسامة من ملامحه وهو يعقد حاجبيْه وينظر من طرف نظارته المستندة على منتصف أنفه قائلا بصوتٍ رفيعٍ خرج من منخاريه:

- والآن دعنا نتكلم في المصلحة يا عزيزي.. ماذا فعلت في الموضوع الذي حدثتك بشأنه؟

(جرجس) نفسًا عميقًا زاد من كركرة الشيشة وجعل خديه يكادان من الداخل ثم قال:

- أنت حبيبي يا زكي ولا أستطيع أن أرفض لك طلبًا.

الفرحة على وجه (زكي) حتى إنه لم يستطع التحكم في حركات الذي تقافز على مقعده بسعادةٍ مفرطةٍ كالأطفال قائلا:

- كنت أعلم أنك لن تخذلني يا جرجس.. ألف ألف...

قاطعه (جرجس) بجملةٍ خاطفةٍ قطعت كلامه وشتت أفكاره:

- لكن نسبة 50% قليلة على ما سأقوم به، فبدوني لن تحصل على مليم واحد من جيب زبائنك.

صوت (زكي) أكثر رفعًا حين نثر على صفحة وجهه الود المصطنع

- أوه، جرجس يا عزيزي، لا تنس أيضًا أنك بدوني لن تجد زبونًا تحلب منه مكسبك بطريقتك السحرية، ثم إنني لست وحدي، وهناك من سيقاسمني في نسبتي.

- **(كركركركركركر)** 60% إذن، وهذا آخر كلام.

عينا (زكي) وقال بابتسامةٍ تخرج من تحت صفي أسنان يصطكان :

- ما باليد حيلة، أنا أيضًا لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا يا عزيزي، ألف مبروك.

قالها (زكي) وهو يقبل (جرجس) الذي لم تُغادر الشيشة شفتيه، قبل أن ينادي:

- وعندك واحد شاي هنا على حساب أستاذ جرجس.

نظر له (جرجس) بدهشةٍ تحولت إلى ابتسامة، قبل أن يأتي شاب أسمر يرتدي مريلة وطاقية يطل من تحتها شعر مجعد طويل، جاحظ

العينين، وتناثرت شعيرات ذقنه الطويلة نسبيًا على صفحة وجهه
لحية نسجها الفقر وليس الإيمان أو التدين. كان الشاب يسرع
وفي يده صينية الشاي التي وضعها باحترام أمام (زكي)، بينما
(جرجس) ملامحه الغريبة على المكان وسأله:

- هل أنت جديد هنا؟

أجابه الشاب بلهجةٍ صعيديةٍ لم تتلون بروح المدينة بعد:

- نعم يا معالي الباشا.

بدأ (زكي) في تقليب الشاي، أما (جرجس) فشعر أن دخان البوري
صار مكتومًا فقال للشاب بلهجة آمرة:

- اضبط رصة الحجر يا......

- خدامك سليم.

قالها الشاب وهو ينحني ليعيد رص الفحم بتلك الماشة التي أخرجها من
مريلته، ثم عقد حاجبيْه في دهشةٍ بعد أن تسللت إلى أنفه رائحة
اشتمها حين اقترب من يد (جرجس) اليمنى وهو يرص له الفحم..

كانت رائحة تُشبه الصّنان إلى حد بعيد، لكن من يجرؤ على مصارحة
الزبائن بحقيقتهم القذرة لا سيما في بداية عمله بمكان جاء إليه من آخر
الدنيا، وأقنع صاحبه بالعمل عنده بشق الأنفس، وقبل أن يسأل
– النتن حسبما وصفه في نفسه– إذا ما كان يريد خدمة أخرى، سأله
(جرجس):

- من أي داهية جئت يا سليم؟

أجابه وهو ينظر إلى الأرض ليداري تأففه وضيقه:

- أسيوط.

قهقه (جرجس) فور سماع الإجابة وقال لـ (زكي) بشماتة:

- قل لإخوانك اليهود أن يُسرعوا في الهجرة يا زكي.. فقد جاءكم

واحدٌ من المركز التجارى الوحيد الذي لم يستطع اليهود أن
يعيشوا فيه ويتربحوا.. تقول حكايات التراث الشعبي أن تاجرًا
يهوديًا ذهب إلى أسيوط راكبًا حماره، ولما وصل سأل عن مكان
للركايب حتى يبات فيه هو وحماره، وهناك أعطى صبيًا صغيرًا
تكلة* وقال له: خذ هذه واشتر لنا غداء، وأكلا للحمار، وشيئًا
أتسلى به، ويمكنك أن تحتفظ بالباقي لنفسك، فغاب الغلام
الأسيوطي ثم عاد ببطيخة أعطاها للتاجر وقال له: لقد اشتريت
هذه البطيخة بمليم وفيها غداؤك، ومن لبها يمكنك التسلية،
أما قشرها فهو غداء حمارك، واحتفظت لنفسي بالمليم الآخر،
فضرب اليهودي كفًا بكف وقال: "ليس لنا عيش في هذا البلد"
ثم رحل.

(جرجس) يقهقه من جديدٍ، فيما ابتسم (زكي) ابتسامةً باهتةً وقال
مستتر:

قد تكون هذه الحكاية صحيحةً يا جرجس، لكنِ نهايات الحواديت
–غالبًا– ما تكون بدايات لحواديت أخرى لم تُحكَ بعد.

* * *

"رايس؟!"

(دميانة) بدهشةٍ وحيرةٍ وهي تسير مع (موريس) في شارع (لاجتيه)
أخبرها من قبل أن معناه شارع البهجة، وينتمي لحي (الإبراهيمية)
التاريخي الذي عاش فيه اليهود الأثرياء في عهود سحيقة، وكانوا
يخرجون في مظاهراتٍ كبيرةٍ ضد حُكم الإمبراطورية الرومانية، ثم لعبت
الأيام لعبتها وغيرت خريطةَ توزيع البشر لتسكنه الجاليات الإيطالية،
والأرمنية، والفرنسية، لكن أكثر من اندمج فيه وشعر أنه وطنه الثاني
كان أبناء الطبقة المتوسطة من اليونانيين، أحفاد الإغريق، الذين أطلقوا
عليه (كوكينيا)، أي الحي الأحمر، وهو نفس اسم الحي المماثل الخاص
بالطبقة العاملة في اليونان، بنفس الحارات الضيقة والبيوت المتلاصقة،
فيما فاحت من فيلات الإيطاليين والأرمن رائحة نبات الدفنباخيا أو (ودن
الفيل) والفل والياسمين، وروائح أخرى مميزة، وغيرها من المعلومات التي

* التكلة: عُملة مصرية قديمة كانت تُساوي في قيمتها 2 مليم

عرفتها صاحبتنا من فتاها الموسوعي الذي أجاب سؤالها عن معنى الـ (كرابس) قائلا:

إنها لعبة مراهنات قديمة يا عزيزتي، تم اختراعها لتزويد المقاتلين بالمتعة خلال الحملات الصليبية منذ زمن طويل، ويستخدمها الجنود في الحرب العالمية الدائرة حولنا بعد أن تُطورت وأصبحت من أشهر ألعاب القمار في العالم بعد البوكر.

- قمار؟

خرج سؤال (دميانة) هذه المرة حاملا قدرًا من الاستنكار والصدمة، وخرجت إجابة (موريس) حاملة قدرًا من الحرج والضيق:

- نعم؛ فهي لعبةٌ قائمةٌ على حجرين من النرد مثل الطاولة.. يتم الرهان على أرقامٍ معينة فيها، والفائز من تصدق توقعاته، لكن قواعدها ليست سهلةً عكس ما يبدو الأمر في ظاهره.. وحين وجد أبي أن يد والدك تطوِّع أرقام النرد حسب رغباته واحتياجه للمكسب – وكأنه إله الحظ – أقنعه بتعلم تلك اللعبة لعل قدراته المدهشة في تحديد أرقام النرد تفلح وتجعل المكسب أمرًا مؤكد الحدوث باستمرار، وهو خيار لم يمنحه إله القمار لأي من أتباعه حين خلق حَرَم مائدته الخشبية الخضراء التي يلهث فيها ملايين الطماعين والكسالى والمرضى خلف ضربة حظ محتملة عبر ما تتعطف به أوراق اللعب وأحجار النرد وبلي الروليت في شتى بقاع الأرض.. الصفقة بين أبي وأبيكِ – باختصار – كانت: مهمتك المكسب فحسب، وأنا سأعرفك على أثرياء الجاليات الأجنبية التي تعشق الكرابس وسأقنعهم باللعب مع ذلك المصري القادم من الطبقة الدنيا رغم إصرارهم على عدم اللعب مع المصريين إلا من يحملون لقب "باشا" أو "بك" كحد أدنى لدخول عالمهم.

هتفتْ به وهي لا تُصدق ما تسمعه:

- لكن والدك إنسانٌ بسيطٌ مثل أبي.. كيف ومتى خالط أثرياء الجاليات الأجنبية وتعرَّف عليهم ليقوم بهذا الدور؟

سرح وهو يجتر المعلومات من ذكرياته:

لقد حكى أبي لنا – أنا وأمي – الكثير من الحكايات الطريفة عن فندق سان إستيفانو منذ نشأته وحتى يومنا هذا، كأمرٍ طبيعي لشخصٍ يعمل محاسبًا به منذ سنواتٍ طويلةٍ بعد أن عيَّنه فيه جدي بحكم علاقته الجيدة بالعديد من كبار الطائفة اليهودية.. فقد لاحظت عائلةُ موصيري المالكة لشركة السكة الحديد أن منطقة الرمل – الجديدة في ذلك الحين – كانت شبه مهجورة لا يسكنها إلا القليل من البدو، وفيها عددٌ متفرق من الفيلات التي يمتلكها أثرياء المدينة ويمضون فيها فترة الصيف، فاختارت الشركة موقع الفندق في نفس موضع كنيسة القديس إستيفان الشهيرة التي تهدمت، وموَّلت بناء الفندق ليُحقق الجذب لمختلف الجاليات الأجنبية ويُحقق حالةً من العمران تشجع استقرار السكندريين في منطقة الرمل الجديدة، وبالتالي يزيد الإقبال على خط السكة الحديد.. وبعد الاحتلال الإنجليزي لمصر بأربع سنوات، تم افتتاح الفندق في عهد الخديو توفيق، واستمد اسمه من اسم الكنيسة المتهدمة.

ثم أفاق (موريس) من حالة التأمل ونظر إلى عينيْ (دميانة) الجميلتين واستطرد:

- سرعان ما لاقى الفندق الجديد استحسان الناس وحقق شهرةً طاغيةً.. مبنى فخم على غرار مباني المنتجعات السياحية الفاخرة والكازينوهات التي تطل على الشاطئ الفرنسي البلجيكي.. طريق الكورنيش لم يكن قد بُني بعد، وبالتالي لم يكن هناك فاصل بين الفندق والشاطئ الخاص به الذي امتد على مساحةٍ رمليةٍ لا يقطعها شيء.. احتوى على ملاعب للتنس، ومكانٍ للموسيقى يطل على شاطئ البحر، صمم الجزء الأعلى من حائطه – الذي يكون خلف الفرقة الموسيقية – على شكل قوقعة حتى يعكس صوت الآلات الموسيقية على الشاطئ ويجسمه، فكانت الحفلات الموسيقية التي ينظمها الفندق في الصيف ملتقى الصفوة بالإسكندرية.

توقف لابتلاع ريقه، وأخذ نفسًا عميقًا صمت بعده برهة ثم أردف:

- ازدهرت حياة الفندق الصاخبة في الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية.. فإلى جانب الحفلات الراقصة التي كانت تملأ



سماءها الألعاب النارية كل أسبوع، كانت إدارة الفندق تنظم في
الشتاء كرنفالا سنويًا يرتدي فيه أبناء الجاليات الأجنبية الملابس
التنكرية تقليدًا لذلك الكرنفال الشهير الذي كان يُقام في مدينة
البندقية الإيطالية وكان النبلاء يسيرون فيه متنكرين حتى لا
يعرفهم العامة ويختلطون بالشعب ويتحدثون معه بلا قيود أو
حواجز، بخلاف عرض الزهور السنوي الذي كان يُقيمه الفندق،
وحتى يجتذب الفندق زبائن جددًا من غير النزلاء، كانت الإدارة
تقدم أبونيه موسميًا يسمح لحامله باستخدام خدمات ومرافق
الفندق كافة بأسعار رمزية.. وبجانب كل ذلك.. كانت هناك
صالة السينما المكشوفة، ذات المقاعد الخشبية التي تعرض
أفلامًا أمريكية.

- وما علاقة كل ذلك بلعبة الكرابس؟

سألته في لهفة، لتوقف ثرثرته التاريخية التي كان من الممكن أن تكون
ممتعةً لو ذُكرت في موضع آخر، فمنحها ابتسامةً باهتةً لم تعرف سر
حزنها حين أجاب:

- أكثر ما اشتهر به فندق سان إستيفانو كان كازينو القمار الذي
كان الملك فاروق يتردد عليه في بعض الأحيان، قبل أن يُدمن
القمار لدرجةٍ فاقت إدمان اللورد ساندوتش، أول من ابتدع
الوجبة السريعة التي سُميت (ساندوتش) نسبة لاسمه؛ حتى
لا يضطر إلى مغادرة المائدة الخضراء ويتوقف عن اللعب،
بحكم عمل أبي بالحسابات وقربه من الكازينو، استطاع على
مدار سنوات تكوين قاعدة بيانات خاصة به، وضع فيها أشهر
عشاق لعبة الكرابس، ومعلوماتٍ تفصيليةً عنهم، ثم بدأت أسهم
سان إستيفانو في الأفول والتردي.. بدأ ذلك في الثلاثينيات
عندما بدأ بناء طريق الكورنيش الذي فصل الفندق عن شاطئه
الخاص الممتد حتى البحر، ولتعويض هذا الخلل رُبط الفندق
بشاطئ البحر عن طريق نفق يمر أسفل طريق الكورنيش،
ونتيجة لهذا التعديل أجريت تعديلات أخرى في واجهة الفندق
وداخله فأصبح غريبًا على رواده القدامى.. ومع اشتعال الحرب
العالمية الثانية، ازدهرت فنادق ومطاعم وبارات الإسكندرية، إلا
فندق سان إستيفانو.. فقد استُخدمت مدرسة فيكتوريا كوليدج

المجاورة للفندق كمستشفى عسكري للجيش الإنجليزي، وطلبت
إدارة المدرسة أن تُعطى الدروس للطلبة في الفندق لتعويض
ما فاتهم.. ورغم الاعتراضات التي أبدتها إدارة الفندق، أصدر
محافظ الإسكندرية قرارًا رسميًا بانتقال فيكتوريا كوليدج إلى سان
إستيفانو الذي فوجئ نزلاؤه بعدد من المكاتب والتخت المدرسية
المكومة في ركن الكازينو وتحول البار إلى حجرة ترفيه للتلاميذ،
أما البار الأمريكي فقد أضيفت له بعض اللمسات والتعديلات
حتى يصبح حجرة قراءة لنظار المدرسة، واحتلت مكاتب تلاميذ
الصفوف الابتدائية مكان طاولات القمار، وقام العمال بإنزال
إعلان بيرة ستلا الذي لم يعد ملائمًا لأخلاق الصغار، فغادر
زبائن الفندق المكان إلى غير رجعة، وسحب فندق سيسيل
البساط مع غيره من الفنادق الفخمة.

صمت هنيهة وأردف بمزيدٍ من الأسى:

- من هنا بدأ أبي يشيع بين شبكة علاقاته حكاية ذلك الرجل
المصري الأسطوري الذي لا يُهزم في الكرابس، وأغرت حكاياته
وطريقة وصفه البعض ليخوضوا التحدي، رغم انتمائه للطبقة
الدنيا، بملابسه المتواضعة، وذقنه غير الحليقة، وملامحه البائسة.

رغم سنوات عمرها العشر، إلا أنها كانت تُدرك جرم وحرمانية القمار
وبشاعته.. لم يكن والدها في نظرها يومًا شخصًا مثاليًا أو رجلا جديرًا
بالاحترام، لكنه – على الأقل – لم يصل إلى هذا المستوى الرقيع الذي
هبط عليه الآن في الدرك الأسفل من مراتب البشر.

هل ستستطيع مواجهته وعتابه؟!

مستحيل بالطبع، فقد كان رجلا مهيبًا، ذا نبرةٍ غليظةٍ ويد عريضة
مفلطحة أسهل شيء عليها أن تهوى بكل عنفٍ على الوجوه بصفعاتٍ
لا تُنسى، كسرت إحداها فك أمها ذات يوم، وورمت خدها هي شخصيًا
أسبوعًا بأكمله حين هوت على وجهها عندما كانت تبكي شأن أي طفلة
صغيرة عمرها 3 سنوات لكنه سئم بكاءها، ومن يومها وهي تكتم دموعها
أمامه، وتخشى حتى الجلوس في حضرته.

- هل يُجيز دينك القمار؟



سألت بصدمةٍ فأجابها (موريس) بحزن:

- كلا، وهذا سبب الشجار الذي نشب بين أمي وأبي مؤخرًا عندما سعيدًا وفي حوزته غنيمة أول صفقة ربحها مع والدك واستعرضها أمامها في فخر.. يبدو أن الأيام المقبلة لن تمضي على خير

* * *

"لآخر مرة أحذرك يا زكي.. إن لم تعد من سكة الندامة والوحل هذه فسيكون هذا فراقًا بيني وبينك".

قالتها (ليليان) بنبرةٍ حادةٍ حاسمةٍ وهي تستقبل (زكي) الذي عاد للتو في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ليخرج من جيبه عشرات الأوراق النقدية متعددة الفئات ويبدأ في ترتيبها وعدها، وفي عينيه بريق النصر والسعادة غير عابئ بكلامها، قبل أن يخلع من على عنقه ذلك الحبل الذي ارتداه كسلسلةٍ يتدلى منها مفتاحٌ دسَّه في ذلك الدرج المغلق بإحكام، ليفتحه كاشفًا عن كومةٍ من الأوراق النقدية والعملات المعدنية ثم وضع معها الغنيمة الجديدة وقد زاد بريق عينيه واتسعت ابتسامة الظفر التي احتلت ملامحه.

لم تستطع (ليليان) أن تكتم غضبها الذي تفاقم مع تجاهله لكلماتها فانقضت على الدرج تقبض على أوراق البنكنوت الكريهة الملطخة بالحرام وهي تهم ببعثرتها في الهواء لعلها تذهب مع أدراج الرياح وتعود الطهارة إلى بيتها الذي تنجس، إلا أن يده الغليظة قبضت على كفها ولوت معصمها في قسوةٍ حتى تأوهت في ألم، قبل أن ينهض ببطء وهو ما زال ممسكًا بيدها وقد تحوَّل بريق النصر في عينيه إلى بريقٍ من نوعٍ آخر جعله في عينيها أشبه بشيطانٍ رجيم، وتأكد إحساسها حين قال بنبرةٍ قاسيةٍ بطيئةٍ يتكئ فيها على مخارج حروفه للتأكيد على أنه يعني كل حرفٍ يُنطَق:

- انتبهي لتصرفاتك معي يا ليليان، فبعض الأفعال قد تكلفك ما لا تملكين دفعه.

ألقت نفسها في حضنه وأجهشت بالبكاء:

- عُد زكي الذي عرفته وأحببته من كل قلبي قبل أن نخسر كل شيء.. ما تفعله أنت أيضًا سيكلفنا ما لا طاقة لنا به.

أبعدها عن حضنه، وتطلع إلى عينيها وهو يتكلم بسرعةٍ وحماس حتى يتدفق الإقناع من لسانه إلى عقلها وكيانها:

- أفيقي يا حبيبتي وتأملي المشهد حولك جيدًا.. الأرض نفسها طاولة قمار كبرى جميعنا نقف فيها خلف أوراق اللعب وأحجار النرد.. التجارة رهان.. المغامرة رهان.. الحب رهان.. الحياة والموت نفسهما مجرد وجهين لرهانٍ كبير، وبينهما الكثير من الرهانات التي طالما لعبناها معًا دون أن ننتبه إلى ميزان الحلال والحرام.. فلِمَ تُحرِّمين الرهان حين أصبح مكسبه مؤكدًا، وابتسم لنا الحظ أخيرًا ونحن على أعتاب عالمٍ جديدٍ سننتقل إليه قريبًا بنقلةٍ كتلك التي نقلت غيرنا من بني جلدتنا وجعلتهم يستعيدون سيادتهم وملكيتهم للأراضي والعقارات والأسواق في هذه المدينة التي بناها أجدادنا منذ فجر التاريخ ثم تم طردهم منها شر طردة بعد أن عوملوا معاملة العبيد؟

أخلى عن مسكته العنيفة لمعصمها، ثم احتضنت يداه كفيها وغاصت فيهما أصابعه واستطرد:

- هذا البلد قام على أكتاف عائلاتنا اليهودية كعائلات سموحة، ومنشة، وررولو، وقطاوي، وموصيري، وعدس، وسوارس، وغيرهم.. وحان الوقت لنؤسس عائلة يُشار لها بالبنان ونؤمِّن مستقبل ابننا وذريته من بعدنا.. سنناسب إحدى هذه العائلات ونكبر معا مثلما حوَّلوا علاقات النسب والصهر إلى بيزنس مشترك ضاعف أموالهم، وجعلهم سندًا لبعضهم ودولة داخل الدولة.

أمطرت عيناها وتهدج صوتها وهي تقول:

- وقد تكون نهايتنا مأساوية مثلما وجدوا شيكوريل مقتولا دون أن تغني ثروته الطائلة ومئات الموظفين الذين يعملون تحت إمرته عنه شيئًا.

لثم أناملها وأعقب:



للأمجاد ضريبتها يا عزيزتي، لكن الوجه المشرق للثروة والجاه يستحق المخاطرة.. لنقتدي بعائلة روتشيلد اليهودية التي تملك قدرًا كبيرًا من ثروات العالم وتتحكم بأسعار الذهب في أمريكا وأوروبا والإعلام ومجريات السياسة حتى نجحت في إصدار وعد بلفور* بإقامة أول وطن لنا في أرض الميعاد..

---

* وعد بلفور: هو ذلك الوعد الذي أصدره وزير الخارجية البريطاني (آرثر جيمس بلفور) بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، بالثاني من نوفمبر عام (1917) م، في خطاب إلى اللورد (روتشيلد)، أحد زعماء الحركة الصهيونية العالمية بمباركة وتأييد رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج، لكسب ود عائلة (روتشيلد) اليهودية ذات الأصول الألمانية، والتي كان لها نفوذ قوي في صنع القرار بمختلف الممالك والإمبراطوريات الكبرى في العالم بحكم سيطرتها على الاقتصاد العالمي، وذلك بعد مفاوضات استمرت ثلاث سنوات بين الحكومة البريطانية من جهة، واليهود البريطانيين والمنظمة الصهيونية العالمية من جهة أخرى، واستطاع من خلالها الصهاينة إقناع بريطانيا بقدرتهم على تحقيق أهداف بريطانيا، والحفاظ على مصالحها في المنطقة.

وكانت الحكومة البريطانية قد عرضت نص تصريح بلفور على الرئيس الأميركي (ولسون)، ووافق على محتواه قبل نشره، ووافقت عليه فرنسا وإيطاليا رسميًا سنة1918 ، ثم تبعها الرئيس الأميركي ولسون رسميًا وعلنيًا سنة 1919، وكذلك اليابان، وفي 25 أبريل سنة 1920، وافق المجلس الأعلى لقوات الحلفاء في مؤتمر سان ريمو على أن يعهد إلى بريطانيا بالانتداب على فلسطين، وأن يوضع وعد بلفور موضع التنفيذ حسب ما ورد في المادة الثانية من صك الانتداب، وفي 24 يوليو عام 1922 وافق مجلس عصبة الأمم المتحدة على مشروع الانتداب الذي دخل حيز التنفيذ في 29 سبتمبر عام .1923

كما كان وعد بلفور مكافأة أيضًا لعالم الكيمياء اليهودي البارع، الدكتور (وايزمان) الذي ساعد بريطانيا في استخراج مادة الأسيتون التي تُستخدم في صنع الذخائر الحربية وكانت تُستخرج من خشب الأشجار، وكان استخراجها بكمياتٍ كافية يحتاج إلى مقادير هائلة من الخشب، ولم تكن في إنجلترا غاباتٌ كثيرة تفي بهذه الحاجة، فكانت بريطانيا تستوردها من أمريكا، ثم ارتفعت الأسعار وقت الحرب وبات موقف الجيش البريطاني في غاية الحرج، فوضع (وايزمان) مواهبه تحت تصرف بريطانيا، اقتناعًا منه بأن أمل الصهيونية رهين بانتصار الحلفاء؛ فاستطاع أن يستخرج مادة الأسيتون المطلوبة من عناصر أخرى غير الخشب، مثل الحبوب والذرة على وجه الخصوص، وبذلك حل لبريطانيا أعوص مشكلة عانتها أثناء الحرب، ورفض الدكتور (وايزمان) تقاضي أي مكافأة مادية جزاء عمله، بشرط أن تصنع بريطانيا شيئًا في سبيل الوطن القومي اليهودي.

تراجعت كمن سرى في جسدها مليون فولت وقالت كالمصعوقة:

- أهذا ما تعلمته من مخالطة طائفة الربانيين والأشكيناز الذين لا يكفون عن الحديث عن حلم دولة إسرائيل والوضع السياسي الدولي؟ حتمًا اندسوا مع باقي الجاليات الأجنبية وعبثوا بعقلك على موائد القمار.. أفق أيها الغافل واسأل نفسك: ما لنا ومال أوطانٍ بديلة وقد خُلِقنا في وطنٍ أصيلٍ يحتضن كل أبناء الأرض من المهاجرين والمعذبين وراغبي السلام والسكينة؟.. أنتخلى عن كل ذلك ونذهب خلف مكاسب وهمية في أرضٍ ليست أرضنا، لنخوض هناك حربًا من صنع أيدينا ثم نجني وبالها أبد الدهر؟.. ثم منذ متى والأرض ملكٌ لأبناء دين معين وقد خلقها الله لكل البشر أملًا في التعايش؟

أجابها بخيبة أمل وحسرة على كلماته التي عجزت عن اختراق منطقها:

- احتضان وطننا لمختلف الجنسيات مجرد احتضان وقتي، سيزول يومًا، صدقيني، شأن كل شيء لا يبقى على حاله.. ستتغير خريطة الإنسان والعمران يومًا، وعندها ستضيق تلك الأرض الواسعة علينا بما رحبت، ولن نجد لنا أرضًا تحتوينا سوى أرض الجدود التي نستحقها منذ أبد الدهر.. ثم إن هذا الوطن ليس وطننا شأن أوطان أخرى اعتقد نفر منا أنها أوطانهم بعد أن عاشوا فيها بسلام وغرَّتهم الأماني، وما بين ليلة وضحاها انقلبت عليهم شعوب تلك الأوطان وأبادوهم في مجازر جماعية أو ألقوهم أحياء في أفران متقدة مثلما يفعل هتلر اليوم.. منذ فجر التاريخ استعبد الفراعنة طائفتنا، وقضى فرعونهم الكبير على رجالنا، وسبى جنوده نساءنا وهتكوا أعراضهن، وقتلوا بأمره الأطفال الرُضَّع، رغم أن مصر كانت وقتها وطننا.. وبعد عودة أكثر من مليون يهودي من فلسطين إلى مصر مرة أخرى واستقرار 200 ألف منهم بالإسكندرية في عهد البطالمة ومشاركتهم في إتمام بنائها، طرد الرومان بعدها أجدادنا خارج أسوار المدينة بعد أن أوسعوا فينا القتل والسلب، وتحالف الشعب المسيحي معهم علينا وهدموا معابدنا، واستحلوا دماءنا كأمة من الوثنيين الأنجاس رغم أننا لم نعبد صليبًا مثلهم.. ولم يختلف الأمر في عهد الفتح الإسلامي.. اقرئي رسالة الحنان بن شمرية

رئيس الطائفة اليهودية في مصر عام 1011 ميلاديا، والتي أرسلها للقدس يشكو فيها من اضطهاد الخليفة الحاكم قائلًا: لقد علقوا خشبة حول رقابنا، وهُدِّمت الكنائس اليهودية، ومُزِّقت التوراة ونُثِرت في الطرقات، ثم اسألي نفسك عن أي وطن تتحدثين.

لقد تكرر الظلم والاضطهاد الواقع علينا من عصر لعصر، ومن بلدٍ لبلد، كأمة رخيصة هانت على الأمم التي أدركت أنه لا وطنٍ لنا أو مأوى فباعت واشترت فينا بثمنٍ بخس.. في فرنسا أجبرنا الملك لويس وابنه فيليب الثالث على الدخول في المسيحية، واستصدروا تشريعًا كنسيًّا بارتداء اليهود زيًّا مميزًا لهم، وفرضت عليهم ضرائب باهظة، وجاء من بعدهم فيليب الرابع ليصادر ممتلكاتهم ويطردهم من فرنسا رغبة في تطهيرها من أجل المسيحية.

وفي إنجلترا عام 1189 ميلاديا هجم الإقطاعيون والبارونات على اليهود وقتلوا أعدادًا كبيرة منهم، واختفت الطائفة اليهودية من السجلات التاريخية زمنًا طويلًا..

وفي إسبانيا عام 1391 ميلاديا ظهرت المذابح الجماعية ضد اليهود.. وسنستيقظ يومًا إن بقينا ها هنا على مذبحة جديدة تطير فيها رقابنا في لحظة تَحوُّل مفاجئة، يأتي بعدها من يحمل بقايا الأجساد الطامرة من رؤوس، وأمعاء، وأصابع في أكياس بلاستيكية لتُلقى بلا مبالاة في حفرةٍ حقيرةٍ تبول عليها الكلاب، وتتوه أسماؤنا وسط آلاف الأسماء التي سيتجاهل التاريخ أصحابها، مكتفيًا بذكر إجمالي عددهم كضحايا لمذبحة جديدة تُضاف لمذابح ارتُكبت ضد اليهود دون أن يقتص لأرواحهم ودمائهم أحد، مثلما لا نعرف أنا وأنتِ أسماء الآلاف الذين سقطوا في مذبحة كيشينوف التي تعرض لها اليهود بالإمبراطورية الروسية في بداية هذا القرن.

صرخت فيه:

- كل الشعوب في البداية تفتح أذرعها لنا، لكن بعضنا هو الذي

أوغر الصدور بأنشطته التجارية الاحتكارية، وتسليف التجار المتعثرين بالربا مستغلا حاجتهم للمال، حتى فوجئت الشعوب أن من جاؤوها ضيوفًا بسطاء قد علا شأنهم بعد أن امتصوا دماء مواطنيها، وتسيَّدوا عليهم، وعاملوهم معاملة العبيد.. بخلاف سياسات المكائد ونشر الخلافات والفتن لضمان الاستمرارية في السيادة والتحكم، حتى يضعف الخلاف الجميع ويشتت أوقاتهم ومجهوداتهم وأموالهم بل وأرواحهم ودماءهم إن لزم الأمر، وضمان بقائنا فوق قمة الهرم الاجتماعي بينما يتناحر الجميع تحتنا.. ألم تتأمل النظرة الدونية لغير اليهود من البشر واعتبارهم من الأغيار الذين تجوز سرقتهم واغتصابهم وقتلهم إن لزم الأمر في عرف المتطرفين من جنسنا؟.. الشعوب لم تضطهد اليهود في واقع الأمر بقدر ما انتقموا من معتنقي تلك الأفكار العنصرية التي لم يوصنا بها الكليم موسى ولا جدنا الأكبر إبراهيم، وانما نشرها حاخامات تلموديون متعصبون، ومتطرفون آخرون روَّجوا لها باعتبارهم من حكماء وساسة بني إسرائيل فاتبعهم عبدة المال والشهوات والمتعصبون حتى جاء اليوم الذي دفعوا فيه ثمن ما يعتقدون ويفعلون.. عُد لأي واقعة تاريخية مما ذكرت وستجدها – غالبًا – نتيجة لتلك الأسباب التي اشتعلت الأحداث من عندها، وها أنت تسير على النهج نفسه وستصل لنفس النتيجة إن لم تعد لوصايا التوراة.

هز رأسه في عناد، وانتابت كلماته الحماسة وهو يتابع بلهجة لا ريب فيها أو تراجع محتمل:

- ستستعيد أمتنا أرض الميعاد عما قريب، ولن نذهب إليها أنا وأنتِ وموريس خاويي الوفاض كمهاجرين فقراء يقتاتون على فتات ما تلقيه إليهم الأيادي؛ بل وجهاء وأكابر سيذكرهم التاريخ كمؤسسين لدولة إسرائيل العظيمة.

انسحبت إلى الخلف بعينين تتنافسان في إخراج أقصى كم من الدموع، وقدمين متخاذلتين مرتعشتين، وانسحب معها آخر ما يربطها به من مشاعر، واحترام، وأمل في رأب الصدع الذي اكتشفت أنه كسرٌ من المستحيل أن يلتئم فتاته، فيما احمرَّ أنفها الذي سال منه المخاط اللزج ليمتزج بالدموع وهي تقول بلهجة وداع خرجت من فؤادٍ محطم:



- تكلم بصيغة المفرد، فكلانا ينتمي لوطنٍ مُختلف.. ودينٍ آخر.

دون أن يشعر أيٍ منهما في غمرة انتصاره لوجهة نظره، تلك الملامح البريئة التي غزاها الوجوم وصاحِبها الصغير يُتابع عن قرب من مكان خفي مناظرتهما الأخيرة، بعد أن لاح في الأفق فصل الختام.

* * *

على شاطئ الإبراهيمية المليء بالوجوه الأجنبية، التقى (موريس) و(دميانة) حاملين الملامح المصرية الوحيدة في المكان الذي لا يعتاد المصريون الذهاب إليه، ليلقي الأول قولا ثقيلا بمزيدٍ من الحزن والأسى:

- لقد حسمت أمي أمرها وقررت الذهاب إلى جدتي في حارة اليهود بالقاهرة لتعيش معها أيام ما قبل النهاية بعد أن وصلت الأمور إلى طريقٍ مسدود.. كنت أتمنى أن تكون اليهودية كالمسيحية في صعوبة حدوث الطلاق بشكلٍ يقترب من الاستحالة، لكنها بكل أسف مثل الإسلام في إباحة وقوعه حال إذا ما رغب أحد الطرفين أو كلاهما في الانفصال.

انحدرت دمعةٌ ساخنةٌ على خدها الأيمن وهي تحاول طرد ذلك الكابوس، متطلعة إلى ملامحه الحزينة، لعل بسمةً خاطفةً تلوح منه ويخبرها بعدها أن الأمر برمته كان مجرد مزحة سخيفة، لكنه ظل على حزنه الذي ضخّم هواجسها ودفعها لتسأل بصوتٍ باكٍ جريح:

- لقد عوضني حضن أمك الحنون عن فقد والدتي.. لا أستطيع أن أتخيل حياتي بدونها مع أب اعتدت طوال حياتي أن وجوده مثل عدمه كصفر في خانة الشمال.. هل تتخيل شعور غريق ما لبث أن وجد طوق النجاة في عرض البحر ثم اكتشف بعد التعلق به أنه مثقوب؟ كان من الأولى به أن يغرق من البداية بدلا من التعلق بأملٍ كاذبٍ سيجعل غرقه أشد ألمًا وعذابًا.

هز رأسه في أسى، وأفرج عما يجيش في صدره بحزنٍ أكبر من حزنها:

- كلانا مأساته واحدة.. الفارق أنكِ فكرتِ في فقد أمي، وأنا فكرت في فقدِك.

دمعت عيناها وهوى قلبها في قدميها حين انتبهت إلى معنى كلماته الذي كان غائبًا عنها، وعلمت أن المأساة المرتقبة صارت أكثر فداحة مما تتخيل..

سيذهب قديسها الصغير ليعيش مع أمه عند جدته في حارة اليهود بالقاهرة، وتفقد برحيله حواسها الخمسة التي ما عرفت فوائدها واستخداماتها إلا ببزوغ شمسه في عالمها المظلم.. رؤية وجهه، وسماع صوته، وتذوق كلماته، ولمس يديه، وشم رائحته.

قبل لقائه كانت ضريرةً في عالمٍ وحيدٍ لم يُعايرها فيه أحد بأنها عمياء أو يصف روعة ما يراه بعينيه أمامها ليشعرها بعجزها، فلم تكتشف مأساتها إلا حين وجدت يدًا حانيةً قادتها من الظلمات إلى النور.. عندها فقط أدركت حجم الكارثة التي كانت تعيشها، لكن – بفضل الرب – كان ذلك في نفس لحظة الشفاء التي لازمت اكتشاف المرض، والآن جاء طبيبها يخبرها بضرورة إعادتها لعالم الوحدة والعمى من جديد بعد أن ذاقت وعلمت وجربت ما لن تستطيع الاستغناء عنه..

تفتح قلبها في موسم الربيع، فإذا به في الموسم نفسه يحترق ويصبح هشيمًا تذروه الرياح بعد أن عبث أحدهم بالكرة الأرضية، وبدل المواسم، واستقدم الخريف في غير موعده، لتنتحب وتردد بانكسار:

- لماذا لم يستأذننا أحد قبل أن يحضرونا إلى هذا العالم؟

* * *

ومرّت 5 سنوات..

نقطةٌ بسيطةٌ في بحر الزمن، لكن بعض نقاط الماء قد تثقب الصخر، وبعض السنين القلائل قد تغير مصائر البشر ومجرى التاريخ..

5 سنوات حدثت خلالها قفزة في حياة (زكي) الذي استثمر كل مليم ربحه من القمار عن طريق دجاجته الذهبية (جرجس)، وأخذ يُضارب في البورصة، ويدخل في صفقاتٍ سريعةٍ ضاعفت من أرباحه، حتى أصبح بفعل عقليته الماسية من الأعيان، وسكن بإحدى فيلات شارع (داود حمون) المجاور لشارع (أبوقير) الرئيسي بمنطقة (لوران) الراقية، بعد أن

تملّك محلاتٍ تجاريةً تتاجر في كل شيء، سواء الملابس، أو الأجهزة الكهربائية وغيرهما..

قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، شارك (زكي) في شن حملة دبرها اليهود لمقاطعة البضائع الألمانية تحت شعار "قاطعوا البضاعة الألمانية كنوع من الإنسانية"، وبعد حسم الحرب لصالح قوات الحلفاء وانتحار (هتلر)، شارك في الخفاء مع عائلة (موصيري) في دعم الحركة الصهيونية وتمويلها، الذي بدأ مع أول جمعية صهيونية نشأت في مصر عام 1897م، ليتبعها ظهور 14 جمعية في القاهرة والإسكندرية اتحدت عام 1917م تحت اسم "الاتحاد الصهيوني" الذي كان رئيسه (جاك موصيري)، وأصدروا صحيفة (إسرائيل) بثلاث لغات: العربية والعبرية والفرنسية لصاحبها (ألبرت موصيري)، ونظموا احتفالا كبيرا بمناسبة إصدار وعد بلفور حضره 8 آلاف يهودي، وشارك (زكي) في تهجير اليهود المصريين إلى دولة فلسطين التي أقرّت "عصبة الأمم" أنها أصبحت تحت الانتداب البريطاني بعد ضياعها من الدولة العثمانية التي انضمت لقوات المحور ولاقت الهزيمة في الحرب العالمية الأولى فانتقلت إلى السيادة الإنجليزية من يومها، ليندمج اليهود المهاجرون من كل الجنسيات في الأراضي الفلسطينية ببطء وخطوات تكتيكية محسوبة صانعين مجتمعًا يهوديًا مترابطًا يُسمى بالـ (اليشوف)، حتى شكلوا في غفلة من الزمن عصابات مسلحة صنعت أسلحتها في ورش سرية رغم تجريم الانتداب البريطاني لحيازة الأسلحة وسنّ عقوبة الإعدام ضد من يملكها، بخلاف سرقة بعض مخازن الأسلحة والذخيرة البريطانية، وتصنيع سيارات يهودية، ثم بدأت فجأة في شن الحرب على الشعب الفلسطيني بغرض تهجيره من أرضه وقتل وإبادة من يُصمم على البقاء.

أشهر هذه العصابات كانت عصابة الهاجاناه التي تأسست في مدينة (القدس)، وتعني "الدفاع" باللغة العبرية، وانضم إليها آلاف الشبان اليهود، وقامت باستيراد السلاح الأجنبي، وانشاء الورش لتصنيع القنابل اليدوية والمعدات العسكرية الخفيفة، وتحوّلت إلى جيش نظامي بعد أن كانت ميليشيا، بدعم واشراف من قوات الانتداب البريطاني، وعصابة الإرجون أو "المنظمة العسكرية القومية" باللغة العبرية، وكان شعارها يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية كتب حولها بالعبرية: "راك كاخ" أي "هكذا وحسب"، ليبدأ عمل هذه العصابات على قدم وساق في انتظار اليوم المرتقب الذي بات مجيئه قاب قوسين أو

أدنى، بخلاف عصابتيْ البلماخ والشتيرن.

أما (جرجس) فقد استعان بمربيةٍ استقدمها من بلدة (كفر الدوّار) ليسند إليها مهمة رعاية ابنته الوحيدة، ويسقط من على كاهله أعباء وواجبات الأبوة، حتى يتفرغ للعب القمار الذي أدمنه وترك من أجله المحاماة.

احترف لعبة الكرابس، ونسى أرقام نرد الطاولة، سواء الدُش، أو الشيش، أو الدو، أو السيه وغيرهم، ودخل لسانه عصرًا جديدًا تعلم فيه مفردات ذلك العالم المختلف الذي صار عضوًا دائمًا فيه، ليردد: بوكس كارز، هارد بت، هارد وي، هاي لو، وفي فمه السيجار بدلا من البوري.. وبعد أن كانت البيرة مشروبًا في المناسبات والأعياد فقط، صارت مشروبه الدائم هي والشامبانيا بدلا من الإسباتس.

ثم زهد الكرابس التي كان مكسبه فيها مؤكدًا، كزهد البشر في كل شيء متاح وسهل، وأدمن الألعاب التي يتجرع فيها الخسارة، ليجد متعته الجديدة في البوكر دون أن يقوى على الابتعاد عنها رغم الخسائر الفادحة التي كلفته الكثير والكثير إلى درجة بيع أثاث منزله، وطرد مربية ابنته التي لم يجد المال الكافي لأجرتها.

وحين عاد للعب على المشاريب في مقهاه القديم، اكتشف (سليم) ذلك العامل الأسيوطي بالمقهى سر تفوقه في لعبة الطاولة وقدرته على تطويع أرقام النرد حسب رغباته.. كان ذلك حين راقبه وهو يتبول في مبولة المقهى، ووجده يبول على يده اليسرى عن عمد، ليعود بعدها وقد حالفه الحظ في كل رمياته!

وحين راقبه مرةً أخرى وتكرر ما شاهده بنفس التفاصيل، أيقن أن الأمر ليس صدفة، فأفشى سره بين الزبائن، وصار الجميع يشترطون عليه ألا يذهب للمبولة وهو يلاعبهم، حتى إنهم صاروا يضعون إلى جواره زجاجة فارغة يتبول فيها أمامهم كشرطٍ أساسي حتى لا يذهب للمبولة، ليجرب – أول مرة في حياته – أن يخسر اللعب على المشاريب، وتتحطم أسطورته.

وحين حاول الرجوع مرةً أخرى لأحضان الكرابس كانت الأمزجة تغيرت، وصار الإقبال عليها أقل بكثير، بعد أن أسهم هو نفسه في إقناع بعض رفاقه في هذا العالم بلعبة البوكر.

انقطعت علاقته بـ (زكي) الذي اتخذه سلمًا لتحقيق أهدافه، ثم لفظه كمن يلفظ من حياته كلبًا أجرب انتهى الغرض من تربيته.. فما فائدة رفيق

الأمس الذي كان تيمة الحظ والمكسب، بعد أن صار إله المركز الأخير في كل شيء؟!
كل الآلاف التي ربحها (جرجس) ضاعت في الليالي الحمراء، ومضاجعة الفتيات الصغيرات من كل الألوان والأشكال إلى حد اصطحابهن معه إلى منزله ليلاً غير عابئ بـ (دميانة) التي كانت تنام في حجرة مجاورة، وكثيرًا ما كانت تستيقظ على أصوات معارك السرير الطاحنة، لتفتح باب حجرة النوم بفضولٍ ذات مرة رأت فيها ما خدش حياءها وهتك براءتها للأبد، قبل أن تجرب صفعة جديدة أقنعتها بعدم فتح ذلك الباب مرة أخرى حتى وإن كانت بمفردها في المنزل.
لكن على الأقل كان القدر رحيمًا بها فيما يتعلق بـ (موريس)، الذي لم تتأقلم والدته مع والدتها حادة الطباع، بخلاف عدم قدرتها على مفارقة الإسكندرية، فعادت من حارة اليهود في القاهرة واستأجرت غرفة في سطح إحدى العمارات بشارع (سعد زغلول) وضعت على بابها الـ «مزوزا»*، واحتفظت داخلها بنسخة من التناخ، و«كيبا»** كانت حريصة أن تذكر (موريس) بارتدائها، لتضمن المعيشة في معية الرب الذي تؤمن به وتنفذ تعاليمه.

رفضت أن تأخذ أي أموال من زوجها السابق، وتركت له شقة (بحري)، لتكتفي بتلك الحجرة وتهب حياتها لتربية ابنها الوحيد بجانب العطف على (دميانة)، ابنتها التي لم تلدها، وهكذا ظل القديس الصغير الموسوعي إلى جوار زهرته الجميلة التي أقسم أن يرعاها في بستانه حتى يحمي أوراقها من الذبول ويمنعها من التساقط في خريف القدر، ومعه أمه تبارك أفعاله وتتولى عنه مسئولية الأمور التي تفوق طاقته.

---

* المزوزا: هي رق مستطيل الشكل، تكتب عليه الجمل الملائمة من العهد القديم التي يختارها الشخص اليهودي، وتعلق على كل أبواب المنزل والحجرات عدا الحمام في بيوت اليهود، حيث يأمر الكتاب المقدس اليهود مرتين بأن يكتبوا كلمات الرب على أبواب بيوتهم، وعلى الجانب الآخر من الرق تظهر كلمة «شدّاي»، وهي أحد أسماء الرب، وتتكون من الحروف الأولى لكلمات ثلاث: «شومير دلاتوت يسرائيل»، أي «حامي أبواب اسرائيل».

** كيبا: هي الطاقية اليهودية التي يتم ارتداؤها للدلالة الخارجية على كون الرجل يهوديًا متدينًا، وقد تكون منسوجةً بأنماط مختلفة، وأحيانًا يُطرَّز عليها اسم صاحبها إذا كان طفلًا.

ظلت (دميانة) تقرأ، وتتبحر في الثقافة حتى تفوّقت على أستاذها، وصارت هي التي تفاجئه بما لم يُحط خُبرا..

وفوق السطح الذي تطل عليه غرفة أمه التي عاشا فيها معًا بعيدًا عن عالم أبيه المُحرَّم عليه، أبدت له حسن صنيعه وفضله عليها حين حبب إليها القراءة، وعلّمها تاريخ مدينتها بشكل عملي ممتع في كل جولاتهما بالعطارين والإبراهيمية والمنشية وسموحة وزنقة الستات، وأعطاها دروسًا في الحياة لا تُقدَّر بثمن، لاعبًا دور الأب، والأخ، والمُعلِّم، ودورًا آخر كانت تراوغ نفسها حتى لا تعترف به رغم أن كل شبر وطئته أقدامهما كان شاهدًا عليه وهما يكبران مع الأيام، حتى صارت صبية يانعة الجمال، خرَّطها خرَّاط البنات بقدّ رشيق، ورجلين ملفوفتين جميلتين، طالما يظهران من تحت فساتينها الراقية التي كانت تشتريها مستعملة من بياصة الشوام فتصير مثل فتيات اليونان الجميلات، وتجذب الأنظار وتثير حول خطواتها عبارات الإطراء والغزل في زمن المعاكسات الجميل ذي المفردات المقبولة من عينة «هو القمر من إمتى بيطلع بالنهار؟.. يا أرض احفظي ما عليكي»، بينما صار (موريس) شابًا يافعًا، تؤهله وسامته ليكون خليفة الفنان اليهودي (توجو مزراحي).

وحين حان دور التلميذة لتستعرض معلوماتها أمام أستاذها، أخبرته أسرار تسمية أشهر أحياء الإسكندرية بتلك الأسماء التي تحملها مثل (الأزاريطة)، و(زيزينيا)، و(جليم)، و(جناكليس)، و(الورديان)، واستعرضت معلوماتٍ مفصّلة عن كل حي وكيف تكون، وأشهر الشخصيات التي سكنته، بطريقةٍ فاقت براعته حين استعرض معها أصل حي الـ (عطارين)، ليمنحها يومها ابتسامةً مليئةً بالانبهار، ويباغتها بقبلةٍ خاطفةٍ على وجنتها الجذابة!

انطفأت الحماسة وغربت البسمة من وجهها الذي عبس وتولى، فقال بابتسامةٍ خجولة:

- لا أجد الكلمات الكافية للاعتذار، لكن هناك حماقاتٍ نشعر بالفخر على اقترافنا إياها طوال ما حيينا، منهم حماقةٌ خطف تلك القُبلة بلا استئذان.

تطلعت إلى عينيه وقالت بحزنٍ عميق:



- أخلاقي لا تجد مانعًا في تمني مبادلتك القبلات.. لكن، المسيح يقف حائلا بيني وبينك إذا ما أردنا أن نصير جسدًا واحدًا.

أمسك كفيها وتابع:

- كلانا يؤمن بالمسيح، غير أن مسيحك قد صُلب، ومسيحي لم يُبعث بعد.

تركت يدها بين كفيه وخفضت عينيها وقالت بصوتٍ خافتٍ وكأنها لا تقوى على المصارحة:

- ليست المشكلة في صلبه، بقدر أن من صلبه كانوا من اليهود.

وضع أنامله تحت ذقنها ورفع وجهها الجميل ليتطلع إليه قائلا بحنان ومحبة خرجت من القلب:

- إن كان قد صُلب من أجل الخلاص في عقيدتك، فلا تكرهي أعداءه تنفيذًا لوصاياه.. ألم يقل: أحبوا أعداءكم؟.. ثم إن يهود الأمس غير يهود اليوم.

- طالما صليت من أجلك وطلبت منه أن يحبك مثلما أحببتك.

وضع رأسها على كتفه بحنان وقال وهو يمسح شعرها:

- يكفي أن تدليني على المحبة حتى تدليني على الله.. فالحب صلاة تسمو فوق كل صلاة.

* * *

٢٩ نوفمبر، عام ١٩٤٧ م

وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهوديةٍ ودولةٍ عربيةٍ فلسطينيةٍ وتدويل منطقة القدس وجعلها منطقة دولية لا تنتمي لدولةٍ معينةٍ ووضعها تحت حُكم دولي، لتصبح حصة اليهود في الأرض ٥٦٪، و٤٣٪ للعرب، و١٪ لمنطقة القدس الخاضعة تحت الانتداب البريطاني بإدارة الأمم المتحدة، وسط معارضةٍ واستنكارٍ شديدٍ من الدول العربية التي اجتمعت في القاهرة بين ٨ و ١٧ ديسمبر

من العام نفسه، وأعلنت أن تقسيم فلسطين غير قانوني، وقررت أن تجمع ١٠,٠٠٠ بندقية و ٣,٠٠٠ متطوع ضمن ما يُعرف بجيش الإنقاذ، بينهم ٥٠٠ فلسطيني، بعد أن أمرت بتشكيل لجنةٍ عسكريةٍ فنيةٍ لتقييم المتطلبات الدفاعية الفلسطينية ضد العصابات الصهيونية، وخرج التقرير باستنتاجاتٍ تؤكد قوة اليهود، وعدم وجود قوى بشرية للفلسطينيين، أو تنظيم أو سلاح أو ذخيرة يُوازي أو يُقارب ما لدى الصهاينة، وحث التقرير الدول العربية على «تعبئة كامل قوتها»..

تصاعدت حدَّة القتال بين الفلسطينيين واليهود بعد قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة، وبلغت أعداد عصابات الهاجاناه الصهيونية قرابة ٤٥,٣٠٠ فرد، وحينما بدأت التعبئة في أعقاب قرار التقسيم انضم إلى الهاجاناه نحو ٣٠ ألف مجند من يهود فلسطين و ٢٠ ألف آخرين من يهود أوروبا، وفي بداية عام ١٩٤٨م، تشكَّل جيش الإنقاذ الفلسطيني بقيادة الضابط السوري (فوزي القاوقجي)*، فلجأت عصابتا الأرجون وشتيرن إلى استخدام السيارات المفخخة في تفجير مركز الحكومة الفلسطينية في يافا مما أسفر عن مقتل ٢٦ مدنيًّا فلسطينيًّا وفي مارس ١٩٤٨م قام المقاتلون الفلسطينيون غير النظاميين بنسف مقر الوكالة اليهودية في القدس مما أدى إلى مقتل ١١ يهوديا وجرح ٨٦..

ضغطت الأمم المتحدة - بعد تحرك صهيوني خفي- على بريطانيا لإنهاء انتدابها على فلسطين، حتى يخلو الجو لليهود هناك، فتقرر الحكومة البريطانية إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في منتصف الليل بين يومي الـ ١٤ والـ ١٥ من مايو ١٩٤٨..

---

*فوزي القاوقجي: قائد عربي عظيم تميز بشجاعته النادرة وعروبته التي دفعته لخوض المعارك ضد الاستعمار في مجمل المناطق العربية. ولد في مدينة طرابلس بالدولة العثمانية، ودرس في المدرسة الحربية في الأستانة (إسطنبول)، ثم اشترك في الثورات السورية ضد المستعمر الفرنسي، وشارك في المعارك ضد الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى في العراق عام 1914، وفلسطين عام 1916 حين كانت تحت حكم الدولة العثمانية. ساعد الملك عبد العزيز آل سعود في تشكيل الجيش السعودي عام 1929، وشارك في ثورة فلسطين على المحتل البريطاني عام 1936، وفي العراق أسهم في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 على الحكومة العراقية الموالية للإنجليز، وتولى قيادة جيش الإنقاذ في فلسطين عام 1947، وقام بتجنيد الكثير من المتطوعين الفلسطينيين بين عامي 1947 و 1948 لقتال المحتلين الإسرائيليين.

العصابات اليهودية في فلسطين ترتكب أكثر من ٧٠ مجزرة جماعية، وكانت مجزرة قرية (دير ياسين) في التاسع من أبريل عام ١٩٤٨م من أخطر وأبشع هذه المجازر، حيث أبادت عصابات الأرجون وشتيرن سكان القرية عن بكرة أبيهم، واستغلت العصابات اليهودية المسلحة الحادث في توجيه رسالة تهديد للشعب الفلسطيني: إما الرحيل أو الإبادة والاغتصاب والسلب والنهب والحرق كما حدث في (دير ياسين)..

بعدها بثلاثة أيام قررت الجامعة العربية إرسال الجيوش العربية إلى فلسطين، وأكدت اللجنة السياسية أن الجيوش لن تدخل قبل انتهاء الانتداب البريطاني وانسحاب بريطانيا المزمع في ١٥ مايو.

في الساعة الرابعة عصرًا يوم ١٤ مايو، قبل ٨ ساعات من انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين ورحيل آخر جندي إنجليزي، أعلن المجلس اليهودي الصهيوني في تل أبيب أن قيام دولة إسرائيل سيصبح ساري المفعول في منتصف الليل، وبالفعل أعلن (ديفيد بن جوريون) الرئيس التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية ومدير الوكالة اليهودية قيام الدولة الإسرائيلية، عودة الشعب اليهودي إلى أرضه التاريخية رسميا دون أن تُعلن حدودها بالضبط، ليعلن الرئيس الأمريكي (هاري ترومان) الاعتراف بدولة إسرائيل بعد إعلانها ببضع دقائق.

الهجرة اليهودية تتوالى من شتى أقطار العالم.. مصر، اليمن، الحبشة، العراق، الهند، أوربا، روسيا، أمريكا، وأكثر من سبعين جنسية أخرى يُفضل يهودها وطنهم الجديد في إسرائيل عن أوطانهم التي نشأوا وترعرعوا فيها، ليرتفع عدد اليهود من خمسين ألف مهاجر إلى ستمائة وخمسين ألفًا.

(ديفيد بن جوريون) رئيس الحكومة الإسرائيلية المؤقتة يقيم أول جيش دفاع إسرائيلي بعد أقل من أسبوعين على إعلان دولة إسرائيل، لمواجهة العرب الذين اتحدوا – أخيرًا – لتحرير فلسطين، في حربٍ بدأت رحاها في الأسبوع الأول من يونيو عام ١٩٤٨.

اندلعت الحرب في المستعمرات الصهيونية، وارتفعت معها أعداد المليشيات الصهيونية المسلحة ووصل عددهم في الأسبوع الأول إلى 107 آلاف جندي وجندية نتيجة لرفع سن التجنيد إلى 35 عامًا، ضد جيوش المملكة المصرية، والمملكة الأردنية، ومملكة العراق، ومعهم

قوات من سوريا، ولبنان، والمملكة العربية السعودية، لتدخل الجنود العربية أرض فلسطين وتنضم لجيش (الجهاد المقدس) الذي تكوَّن من مجموعةٍ من الفلسطينيين وبعض مسلمي البوسنة وبعض المرتزقة من الأوربيين الذين بلغ عددهم حوالي 30 ألمانيًا وبريطانيًا..

الجيش الأردني يُبلي بلاء حسنًا، ويجتاح القدس ويسترد الضفة الغربية كاملة في يد الجيش العربي، ويُلحق بالجيش الإسرائيلي خسائر فادحة، بثلاثة ألوية عبرت نهر الأردن إلى فلسطين، ثم ازدادوا إلى أربعة مع مضي الحرب, بالإضافة إلى عدة كتائب مشاة..

الجيش المصري يقوم بتحويل طائرات النقل إلى قاذفات للقنابل لتسهم في الحرب حيث لم يكن هناك قاذفات للقنابل في ذلك الوقت، بينما هاجمت قواته تجمعي (كفار داروم) و(نيريم) الصهيونيتين، ورابض جنوده وضباطه في قرية (الفالوجة) لمحاصرة مدينة غزة، وسط ترحابٍ شديدٍ من الشعب الفلسطيني الذي تعرَّض قبل مجيئهم إلى مذبحة.

القوات اللبنانية تُحارب على الجبهة الشمالية وتستولي على قريتيْ (المالكية) و(قَدَس) في منطقة (الجليل الأعلى) جنوب الحدود اللبنانية.

القوات السعودية تُباشر القتال جنبًا إلى جنبٍ مع القوات المصرية وتخوض المعركة الأولى في (بيت حانون) بالقُرب من (غزة)، وتواجه مستعمرة (بيرون إسحاق).

الجيش العراقي يُحرر مدينة (جِنين)، ويطرد المنظمات الصهيونية منها وعلى رأسها الهاجاناه بعد معارك شرسة، ويصبح بمشاركة قوات فلسطينية على حافة تحرير (حيفا) التي تمت محاصرتها، ولكن تقدم الجيش توقف فجأة بسبب رفض القيادة السياسية في (بغداد) إعطاءه الأوامر للزحف وتحرير المزيد من الأرض، مما سبَّب إرباكًا شديدًا بين صفوف القوات العراقية!

مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يتدخل ويفرض على الجميع وقف إطلاق النار، وحظر تزويد أي من أطراف الصراع بالأسلحة في محاولة التوصل إلى تسوية سلمية..

إسرائيل لا تلتزم بقرارات مجلس الأمن، وتسارع في تعويض خسائرها في الوقت الذي انهالت عليها الأسلحة بصورةٍ ضخمةٍ لا سيما الطائرات،

بينما تطوَّع الكثير من يهود أوروبا إلى الذهاب لجبهات القتال، ليتعاونوا مع الجيش الإسرائيلي في خرق الهدنة والتوسع في الأراضى التي احتلتها فزحفت قواتها نحو (الفالوجة) التي يرابض فيها الجيش المصري وطوّقت جنوده وضباطه من أجل إضعاف الجبهة الجنوبية التي كانت تقترب شيئًا فشيئًا من (تل أبيب)..

مباحثاتٌ سرية تتم بشكلٍ منفردٍ بين بعض القادة العرب وبين قادة إسرائيل، غير أن كل القادة لم يكونوا مجتمعين، بل كلٌ يفاوض بمفرده لإنهاء الحرب!

في 8 يوليو عام 1948، استأنف الجيش الإسرائيلي القتال في جميع الجبهات رغم محاولات الأمم المتحدة لتمديد مدة الهدنة، وعندما استؤنفت المعارك من جديدٍ كان للجيش الإسرائيلي اليد العليا، واتخذت المعارك مسارًا مختلفًا تعرَّضت فيه القوات العربية لسلسلة من الهزائم، استطاعت إسرائيل بعدها أن تفرض سيطرتها على مساحاتٍ واسعةٍ من أراضي فلسطين التاريخية، لتنتهي المعارك في 21 يوليو بعد أن هدد مجلس الأمن بفرض عقوباتٍ قاسيةٍ على الجوانب المتقاتلة، فقبل العرب الهدنة الثانية التي كانت اعترافًا بالهزيمة، وضياع فلسطين.

تقارير ساخنة في الصحافة المصرية والعربية والعالمية تشير بالتلميح والتصريح لخيانة وإهمال القادة العرب..

رئيس الأركان المصري اتضح أنه أبلغ الملك (فاروق)، بأن الجيش المصري على استعداد تام للقتال، مؤكدًا أنه: "لن يكون هناك حرب مع اليهود، وأنه سيكون مجرد استعراض للقوة دون أدنى تعرض للمخاطر، وأن جيشنا سيصل إلى تل أبيب في أقل من أسبوعين". في حين أنه في الواقع، لم يكن الجيش مستعدًا، ولم يكن يمتلك حتى خرائط لفلسطين، بخلاف إمكاناته الفقيرة التي لا يُمكن اعتبارها جديًا قوة غزو، وشبهة إمداد الجيش المصري بصفقة أسلحة فاسدة.

الملك الأردني (عبد الله) الأول، شارك في الحرب لأنه كان يحلم بتأسيس (الأردن الكبرى) التي تضم تحت وصايتها كلا من سوريا، ولبنان، وفلسطين، وإمارة شرقي الأردن، مما جعله في خلافاتٍ مع (أمين الحسيني) مفتي فلسطين، والنظام السوري، كما أكد الملك (عبد الله) لـ (جولدا مائير)



من قبل مساندة القضية الصهيونية وذلك من خلال مقابلةٍ سريةٍ بينهما في إحدى محطات توليد الكهرباء اليهودية بإمارة شرقي الأردن، حتى إنه أبدى موافقته على خطة تقسيم فلسطين، لذا شارك في الحرب لاكتساب شعبية أمام شعبه وتشكيل ورقة ضغط لتمرير مصالحه ليس أكثر، لكنه كان على خلافاتٍ مع الكثير من الحكام والقادة العرب الذين كانوا يخشون أطماعه وطموحاته، حتى إنه رفض عبور القوات السعودية من خلال أراضيه إلى فلسطين، كما تحالفت معه وأيدت أهواءه المملكة العراقية الهاشمية التي كان هناك فرعٌ أردني داخل سلطتها، حتى إن الوزراء العراقيين الذين أصروا مرارًا وتكرارًا على فرض حظر تجاري وبترولي على الدول الغربية الموالية لإسرائيل، لم يقوموا بأي إجراء لتنفيذ هذه القرارات.

حتى في فلسطين نفسها كانت هناك خلافات بين قائديْن يقودان القوات الفلسطينية.. (عبد القادر الحسيني) قائد جيش الجهاد المقدس، و(فوزي القاوقجي) قائد قوات جيش التحرير العربي..

وكيف ينتصر جيشٌ من الجنود والضباط المخلصين، بقياداتٍ ممزقةٍ ليست على قلب رجلٍ واحد، ما بين خائنٍ، أو فاسدٍ، أو متعصب لرأيه لا يسمع للآخرين؟

هكذا.. "دخل العربُ فلسطين وهم في ظاهرهم أمة واحدة، وكلمة واحدة، مجتمعين للدفاع عن فلسطين ملك آبائهم ومرقد أجدادهم الفاتحين، بينما كانت قلوب قادتهم وحكامهم شتى، وأهواؤهم متباينة، يضمر بعضهم للبعض الآخر غير ما يُظهر، ويبدون جميعهم من الحماسة والحمية غير ما يُبطنون. ومن غريب أمر هذه الدول البائسة أنها زحفت على فلسطين وبعضها لبعض كاره، وحاسد، ومُبيِّت شرًا، رغم أن إجمالي القوات العسكرية لأعضاء الجامعة العربية كان قوامه 165 ألف جندي، بالإضافة إلى ميزانية عسكرية تصل إلى 28 مليون جنيه إسترليني، وبلغ تعداد سكان مصر والعراق وسوريا وشرق الأردن ولبنان واليمن والمملكة العربية السعودية نحو 45 مليون نسمة، بما يوازي 200 ضعف عدد سكان دولة إسرائيل الوليدة!

ودخل اليهود فلسطين أشتاتًا ينسلون من كل فج من فجاج الأرض، قلبًا واحدًا، وكلمةً واحدةً، وهدفًا واحدًا، ظاهرًا وباطنًا، باذلين الأموال



والأرواح، مُسخِّرين قوى العالم، مُستخدمين لأغراضهم أمريكا وانجلترا وروسيا. فكان ما لا بد في مثل هذه الحال، أن يكون النصر لليهود وللعرب الهزيمة.

ما عرف التاريخ أرضًا غالية مقدسة، لدى أهلها إمكانية حمايتها والذود عنها، ضاعت بأرخص مما ضاعت به فلسطين"* فصدق من قال: "إنما يأكل الذئب القاصية من الغنم"!

* * *

عادت (دميانة) من لُجة ذكرياتها، في ذلك الملكوت السماوي، لتلتقي عيناها البرَّاقتان بعيني المُعلِّم مجددًا، ثم سالت مشاعرها وذكرياتها في صورة خطين من الدموع الساخنة على وجنتيها، لينظر المُعلِّم إلى الدموع نظرةً ثاقبةً اخترقت ماءها المالح، ورأت ما فيها من أحداث جسام تجسَّدت على صفحة وجه (دميانة) البائس..

رأى كرات النار تنهال على محلات (شيكوريل) اليهودية، وأفرادٌ من جماعة الإخوان المسلمين يقومون بإلقاء القنابل ضد محلات مملوكة لليهود، انتقامًا لما فعله أقرانهم في فلسطين، قاصدين من هذا الفعل الجهاد في سبيل الله..

انفجارات أخرى تدوي هنا وهناك في حارة اليهود بالقاهرة في الوقت الذي كانت تزور فيه (ليليان) والدتها المريضة، لتسقط مع من سقطوا..

(موريس) و(دميانة) يركضان في أروقة أحد المستشفيات، وما أن يصلا إلى غرفة الأم، حتى يجداها مغطاة بملاءة بيضاء..

يقترب (موريس) بخطواتٍ ثقيلةٍ بطيئةٍ لا يُصدق نفسه.. يرفع الغطاء بيدين مرتعشتين، فتتسع عيناه من هول المنظر وبشاعته بينما تفقد (دميانة) الوعي..

* الجزء المكتوب بين علامتي التنصيص مأخوذٌ من جريدة (السفير) الفلسطينية، بتاريخ مايو 2010 م بتصرف.

أحدهم يطرق باب منزل (جرجس) ويطالبه بتسليم شقته التي رهنها عنده مقابل الحصول على مبلغ من المال خسره في القمار، فيرتسم الذُل والهوان على ملامحه، وهو يتوسل إليه طالبًا مهلة أيامًا معدودات من الوقت لعله يُدبر له المبلغ الذي اقترضه منه دون أن يُفرِّط في شقته، فيخبره الدائن أن أمامه يومًا واحدًا فقط، بينما تطل (دميانة) برأسها من باب حجرتها لتتابع الحوار الصادم بقلبٍ واجفٍ..

يرفع (زكي) كأس النبيذ في احتفالٍ سري بفيلته مع عددٍ من كبار اليهود، استعدادًا للهجرة، قبل أن يُفاجأ أمامه بـ(جرجس)، صفحة الأمس التي أبى أن تنطوي بعد أن تدهور الحاضر إلى حدٍ مُخيفٍ، فجاء بعد أن أغلقت كل الأبواب في وجهه، ولم يجد سوى صديقه اليهودي بديلا..

بعد مواجهةٍ سريعةٍ ومقتضبةٍ استعرض كل طرف فيها أفضاله على الآخر، انتهى الأمر بخروج (جرجس) مطرودًا مدحورًا، بعد وصلة ضرب مبرح تلقاها حين فقد أعصابه وحاول الانقضاض بيديه على غريمه..

يصعد (جرجس) درجات السلم في ذلك العقار بشارع (سعد زغلول) في طريقه لتلك الحجرة التي يسكنها (موريس) وقد أضمر في نيته هدفًا واحدًا.. لابد أن يحرق قلب (زكي) على ولده جزاء على ذلك النكران والجحود الذي اختتمه بوصلةٍ من الذل والمهانة..

يوضع بجوار الجثة رسالةٌ تفيد بأن مرتكب الحادث فعل ذلك انتقامًا من ذلك الشاب اليهودي ابن أحد كبار الأثرياء اليهود الذين يُساندون إسرائيل في الخفاء، لتتجه الشبهات نحو جماعة الإخوان المسلمين..

يركل باب الحجرة ويفتحه بضربةٍ واحدةٍ، وفي عينيه شر الدنيا كله، وقبل أن يخرج مطواته من جيبه يتلقى هو الطعنة القاسية حين وجد (موريس) و(دميانة) على سرير واحد، في لحظة قررا فيها التجرد من الملابس، واللحم، والدم، والعظم، لتلتقي روحاهما المعذبة في جنة بلا فوارق دينية أو طبقية بين البشر، صنعها حبهما على مقاس حالتهما البائسة، وكلمة سر فتح بابها المغلق هو الاحتضان والاحتواء، ليهربا هناك من ذلك العالم الموحش، لكن قبل إتمام رحلة الوصول ظهر هذا المطب الصناعي الذي غيَّر المسار وقلب الأوضاع..

غلى الدم في عروق (جرجس) وتضاعفت رغبته المحمومة في قتل ابنته



وعشيقها..

طعناتٌ سريعةٌ تطيش في الهواء و(موريس) و(دميانة) يُحاولان جاهدين تفادي المطواة واحتواء الموقف، لكن حتى خيار إخفاء الفضيحة وإصلاح الخطيئة بالزواج لم يكن غير وارد بين يهودي ومسيحية.. وبعد كر وفر ومحاولة للهرب أعقبها ركضٌ سريعٌ على سطح المنزل، تفادى (موريس) اندفاعة (جرجس) السريعة نحوه بكل غله الطافح، ليصطدم الأخير بسور السطح ويسقط صريعًا..

أخيرًا تذكر (موريس) أن له أبًا بعد سنوات من العزلة والمقاطعة، لكن (زكي) أخبره أن الحل الوحيد هو الهروب إلى (إسرائيل)..

يرفض (موريس) ويُحاول البقاء في وطنه الذي لا يعرف أو يعترف بسواه لإثبات براءته، لكن ما من دليل على ذلك، بعد أن قام بتهريب (دميانة) إلى شقتها فور سقوط (جرجس) حتى لا يراها أحد ويعلم بوجودها وقت وقوع الحادث ومن ثم تطولها الفضيحة..

(زكي) يرسل خطابًا إلى حكمدار العاصمة منتحلا صفة ابنه وتوقيعه، للاعتراف على نفسه بارتكاب الحادث حيال هذا المسيحي المتعصب الذي حاول قتله لمجرد أنه يهودي، ويخبر ولده أنه لم يعد له خيارٌ إلا بالهجرة إلى أرض الميعاد حيث يجب أن يعيش ويموت هناك كمواطن يهودي أخيرًا أصبح له وطن يناديه!

لقاء أخير بين (موريس) و(دميانة) يُعطيها فيه مفتاح حجرته بالسطح في شارع (سعد زغلول) لتعيش فيها بعد أن تم الحجز على شقة والدها، فتتساءل كيف يكون المكان الوحيد المتاح للإقامة فيه هو المكان نفسه الذي شهد مقتل والدها، ثم تودعه بدموعٍ من دم بعد أن صارت بينهما دماء المسيح.. ودماء والدها أيضًا!

وفي التوقيت نفسه تعرضت فيلا (زكي) للسطو من (سليم) وأصدقائه الصعايدة الذين جاءوا للحصول على ما خف وزنه وغلا ثمنه، وقد أقنعوا ضمائرهم أن دماء وأموال اليهود حلالٌ حلال، بعد أن ظهر سواد قلوبهم على حقيقته حين شردوا المسلمين في فلسطين وطردوهم من ديارهم واستولوا على أرضهم، ليرحلوا بثروةٍ طائلةٍ كان (زكي) يستعد لتهريبها، ويتركون خلفهم جثته، لينجو (موريس) من مصير أبيه بسبب لقائه

بدميانة، ولا يتفاجأ عند عودته بما حدث، قبل أن يستقل تلك المركب المتجهة إلى إيطاليا، ومنها يذهب إلى إسرائيل حسبما رتب له والده كل شيء قبل رحيله..

عند هذه النقطة توقفت الذكريات عن التدفق حين مرر المُعلِّم أطراف أصابعه أسفل عينيْ (دميانة) لتجفف دموعها مع لمسته الحنون، وتسري في أوصالها مع لمسته رعشة رهيبة، لكنها كانت الرعشة التي تسبق الطمأنينة والهدوء..

حاولت أن تستجمع قوتها ورباطة جأشها وقد وجدت أن الجرأة والصراحة خيارٌ متاحٌ رغم مهابة الموقف وعظمة المستضيف، ثم قالت بلهجة لوم تفيض بالعتاب:

- أرأيت كيف فرقتنا الوصايا المختلفة والمناهج المتعددة؟ لماذا لم يتم الاكتفاء بأمةٍ واحدةٍ بدلا من أممٍ متناحرةٍ متعصبةٍ لأنسابها ومناهجها الروحانية التي تصلها بالسماء؟ لماذا نُلام ونُحاسب على أخطائنا وذنوبنا . رغم أن الخطأ الأكبر من البداية لم يكن من صنع أيدينا؟

أجابها وهو يُمعن النظر في عينيها دون أن تتغير نبرة صوته الهادئة:

- حين قتل قابيل هابيل في أول جريمة قتلٍ نفذها بنو الإنسان، لم تَسَل الدماء حينها بين أممٍ مختلفة الأديان أو الأعراق أو اللغات.. فالخطيئة كامنة في النفس بشكلٍ أزلي، بينما التعدد والاختلاف كانا حُجة من لا يستطيعون مكاشفة حقيقة نفوسهم المريضة وتعطشهم للدماء والشر، لكنني لا ألقاهم قبل أن يمروا برحلة علاج، فإما أن يختاروا بعدها الشفاء، أو يعاودوا المرض مرة أخرى بمحض إرادتهم، حتى لا تكون هناك حُجة على الطبيب بعد خروج المريض من المشفى متعاطيًا العلاج الأمثل.

سرحت في كلماته ولم تحرك ساكنًا حين أكمل:

- على كل حال، احترم من يأخذ وقتا طويلا للوصول إلى الحقيقة باختياره واجتهاده، أكثر من الذين يرثونها بلا أي فهم أو تفكير.. لكن حذار من أن لها فترة صلاحية قد لن تجدي بعدها إذا ما

عثرتِ عليها.

مع آخر حرف من كلماته شعرت بطيفها يطير متراجعًا للخلف وعيناها ما زالتا معلقتين به وهو يتصاغر في الأفق البعيد دون أن تبتعد كلماته التي تتردد في أعماقها:

- سارعي بالبحث عن الحقيقة بقلبك الذي يتسع للكون بأكلمه، أما عقلك الضعيف فسيظل قاصرًا على استيعابها كصعوبة احتواء الحفرة لماء البحر.

صرخت وهي تبتعد:

- لديَّ الكثير من التساؤلات التي لم تُجب عنها بعد.

- عليكِ العثور على إجابتها بنفسك.. فلو علمت كل شيء ها هنا لما صار لعودتك معنى.. ما زالت أمامك الفرصة يا دميانة، فاستغليها قبل أن نلتقي مجددًا.

ثم دخلت في نفس النفق المظلم الذي أتت منه، لتهوي بسرعةٍ هائلة إلى السماء الدنيا من جديدٍ، قبل أن تصل لسطح المنزل وتنزلق فوقه بخفة ونعومة، ثم اخترق طيفها غير المرئي جدران الغرفة المُسجَّى فيها جسدها على السرير وشاهدت (آيات) وهي تحاول إفاقتها..

اقتربتِ من جسدها حتى كادت تلامسه، وهمت أن تغطس فيه لتعود إلى طبيعتها، فشعرت بيد ساخنة تمسك بطيفها وتكبل حركته، مع انبعاث صوتٍ رخيمٍ تسلل إلى مسامعها من الخلف:

- مهلا أيتها العجوز.. آن لهذا الجسد الذي أنهكته السنين أن تسكنه قوى ترد إليه شبابه.

التفتت حولها مذعورةً لتجد نفسها أمام الرجل ذي العينين الزرقاوين اللتين زاد بريقهما كمصابيح الزينة، وقد تحول مثلها إلى طيف أثيري لا يراه إلا من يماثله في حالته دون أن تشعر بهما (آيات)، فسألته برجفة:

- من أنت؟

حملق في عينيها وأجاب بصوتٍ عميق:

- أنا التساؤلات التي تدوي في عقول البشر دون أن يجرؤ أغلبهم على الإفصاح عنها والجهر بها خوفًا من القداسة الزائفة والكهنوت الديكتاتور.. جئت لأسكن قلبك الشجاع وأمد جسدك المنهك بالقوى اللازمة ليتم مهمته.

- أي مهمة؟

- مهمة تحرير البشر من سطوة الأكاذيب والخرافات التي خدعهم بها المرسلون.

- الآن عرفت من أنت.. لقد جاءت زيارتك متأخرةً يا هذا بعد أن اقتربتُ من الحقيقة في حضرة المُعلِّم بالملكوت السماوي.

- لم يكن هناك مُعلِّم أو ملكوت.. إن هي إلا محض هلاوس بصرية وسمعية تسيطر على الإدراك حين تقتربون من الموت وتحتاجون أن تمدوا أنفسكم بشحنة روحانية تظنون أنها في يد قوى أكبر منكم لتعيدكم إلى الحياة وتجيبكم عن أسئلتكم التي فشلتم في الإجابة عليها، دون أن تفطنوا أنكم المتحدث والمستمع في وقتٍ واحدٍ.. المُعلِّم الحقيقي هو أنا.

ثم أخذت عيناه الزرقاوان تتسعان حتى خُيِّل إليها أن داخلهما دوائر تتسع تدور حول نفسها ليتسلل إلى كيانها إحساس بالخدر والدوار، ثم فرد كفه أمام طيفها الأثيري وشعرت بكيانها ينسحب بأكلمه ويدخل في سطوة يده وهو يتابع بصوتٍ أعمق وأعمق:

- أوحي إليكم بالأفكار فتحيلوها إلى أقوالٍ وأفعالٍ تنسبونها لأنفسكم دون أن تشعروا أني أقف خلف ذلك.. فأنا الإله الذي يتبعه أتباعٌ لا يؤمنون بوجوده.

تضاءل كيانها الأثيري حتى صار في حجم قبضة يده التي أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم رغم محاولاتها المستميتة في الإفلات والتسلل من بين أصابعه دون جدوى، ولأول مرة منذ زمن طويل جدًا، وجدت نفسها تصرخ بصعوبةٍ شديدة وقد تجمَّدت أحبالها الصوتية:

- يا يسوووووووووع!

اكتفى بضحكةٍ شامتةٍ وهو يغوص بها في مؤخرة جسدها المادي الذي

بدا لها ضخمًا للغاية قبل أن يصبحا داخله بالفعل، وتجرب فيه إحساس نملة تتأمل تمثالا عملاقًا بأحد المعابد، قبل أن يتحول ذعرها إلى ذهول مطلق وهي ترى جسدها لأول مرة من الداخل..

قلبها الذي ينتفض وينبض بسرعة شديدة.. الدماء وهي تتدفق في الشرايين والأوردة.. الأمعاء الدقيقة المحاطة بالأعور والقولون..

حاولت أن تتحرك بطيفها الأثيري لتستحوذ على جسدها المادي وتعيده إلى نفوذ سيطرتها من جديد، فشعرت أنها مسلوبة الإرادة، عديمة القدرة لترقد في قاع الجسد لا حول لها ولا قوة، فيما ذهب طيف الرجل ذي العينين الزرقاوين إلى قمة الجسد ليخاطبها من عند الرأس قائلا بصوتٍ مليء بالقسوة:

- من الآن أنتِ هنا مجرد ضيفة لا عليها سوى المشاهدة والاستماع في صمت.. فقد اقتربت ساعة العرض، وأعدك.. أن يكون مبهرًا.

في تلك الأثناء عقدت (آيات) حاجبيها في توتر وهي تشاهد جسد (دميانة) الذي انتفض فجأة وأخذ يمور حتى تقوّس مع ارتفاع البطن الذي كاد يلامس السقف، بينما تشنجت الأطراف بشدة، ثم تراجعت الفتاة في فزعٍ شديدٍ حين خرجت من فم العجوز صرخةٌ رهيبة كادت تصم أذنيها، قبلَ أن تخمد حركتها تمامًا وقد تفصّد جبينها بالعرق، ونافس وجهها الممتقع وجوه الموتى.

وبعد ثوانٍ، فتحت (دميانة) عينيها التي بدت مختلفة وإن لم تستطع (آيات) أن تحدد وجه الاختلاف لتكتفي بهزها ومحاولة إفاقتها وهي تهتف فيها بتوتر لا مثيل له:

- دميانة.. دميانة.. هل أنتِ بخير؟

لكن (دميانة) ظلت تتطلّع إلى ملامحها بعيونٍ جاحظةٍ تبعث على الخوف لمن يراها دون أن تحرك ساكنًا، ثم أفرجت فجأة عن ابتسامة بدت مريبة وأجابت بصوت اخشنّت نبراته:

- اطمئني يا عزيزتي، لم أكن يومًا أفضل حالًا من الآن.

* * *

(13)

«حمدًا لله على سلامتك يا ريمون بك»

قالها (نصحي) وهو يدخل مع سيده في الفيلا ذات المعالم التراثية العريقة التي يملكها في منطقة (كفر عبده)* أحد أرقى المناطق السكنية بالإسكندرية.

تجاهل (ريمون) كلمات (نصحي) وهو يدخل فيلته مرتديًا نظارة شمسية رافعًا وجهه لأعلى، وعلى ملامحه التجهم والضيق، بينما وضع ذراعه اليسرى المجبسة في حامل طبي، وعلى يساره الرجل ذو العينين الزرقاوين، بعد أن غادر طيفه الأثيري جسد (دميانة) وترك روحها حبيسة داخله، مكبلة الحركة والانتشار، ليصبح جسدها حيًا مع إيقاف التنفيذ.

كانت رائحة الفيلا مبهجة بعد أن تولى الخدم رش أفخر أنواع معطر الهواء وتنظيف أرضيتها المرمرية البرّاقة ذات الطابع التركي، وترتيب أثاثاتها ذات الطابع الكلاسيكي، وتماثيلها وأنتيكاتها النادرة، بخلاف الأسلحة العتيقة ذات الطابع القديم الأثري المعلقة على الحيطان، لكن (ريمون) الذي اعتاد ذلك لم يبال به حين جلس في ردهة الفيلا متأملا الرجل ذا العينين الزرقاوين وقد وضع ساقًا فوق ساقٍ منفثًا دخان سيجاره، وهو يقول من بين سحابة الدخان التي تحيط به:

* منطقة (كفر عبده) هي إحدى مناطق حي شرق بمدينة الإسكندرية، وتقع بين (سيدي جابر) و(رشدي)، وضمت بين جنباتها أكثر من ٨٠ قصرًا وفيلا أثرية وتاريخية أشهرها فيلا الأميرة (فايزة) شقيقة الملك (فاروق)، وقصر (قرداحي). وكان المندوب السامي البريطاني (كيتشنر) يمتلك فيلا بالكفر، فضلًا عن الفيلات الأخرى والقصور التي يملكها السياسيون والشخصيات المهمة والأجنبية من اليونانيين والإيطاليين على وجه الخصوص، وبعد حكم المحكمة الدستورية العليا المصرية بإلغاء قرار مجلس الوزراء المصري بحظر إزالة الفيلات والقصور التاريخية قانونيًا، عجز رؤساء الأحياء والمسؤولون بالمحافظة عن التصدي لمن يهدم الفيلات والقصور بسبب غياب التشريع ووضع آليات إدارية وقانونية تمنع ذلك، وكان اسمه قديمًا شارع (المارشال اللنبي)، وتم تغيير الاسم بعد أن تعاطف أهل الإسكندرية مع أهل قرية (كفر عبده) بالسويس التي حاولت القوات البريطانية هدمها وإخلاءها من سكانها عام ١٩٥١ بحجة أنها تهدد أمن القاعدة البريطانية بالسويس، وقد اشتبك أهالي القرية والقوات النظامية والفدائيون في معركة بطولية مع القوات البريطانية لمنع هدم القرية، فأصدرت الحكومة قرارًا بتحويل مسمى المنطقة التي يسكن فيها القنصل البريطاني في الإسكندرية إلى (كفر عبده).

- لقد انتهت مشكلتك مع الشرطة تمامًا بعد أن دفع نُصيبي المعلوم لرجال المعمل الجنائي الذين ستؤكد تقاريرهم ما قاله في استجوابه بشأن ما حدث، وسيصدر رئيس العقيد يحيى بالتعاون مع رجالنا في النيابة أمرًا باعتقال بعض الشباب الملتحي بتهمة تدمير ملهاك، وقتل وإصابة بعض رجالك، بخلاف الشروع في قتلك، وسيتكفل رجالنا في القضاء بالباقي.

تطلع إليه (ريمون) مبهورًا، وسأله وعلى ملامحه أقصى ما يملك الوجه البشري من قدرة على التعبير عن الذهول:

- لقد أعطيتنا قائمة بأسماء رُتب وأصحاب مناصب رفيعة كنا على يقينٍ من نزاهتهم ولم نحاول حتى الاقتراب منهم يومًا، كيف استطعتَ تجنيدهم بهذه السرعة؟

- هم جنودي منذ زمن.. فأنا أعرف كل خائن وغير شريف في هذا البلد مهما كانت جودة القناع الذي يُخفي وراءه حقيقته.. وللمرة الأخيرة أحذرك من أن تسألني مجددًا خلال الأيام المقبلة مهما بدا ما آمرك به غريبًا أو عجز عقلك عن استيعابه.. فبدون الإيقاع بفتاتك وصاحبها الوسيم واستعادة أسطواناتك المدمجة سيظل حبل المشنقة يتأرجح أمام رقبتك.

جف ريق (ريمون) وامتقع وجهه، وهو يغمغم بصوتٍ خفيضٍ مرتعد:

- سأفعل كل ما تأمرني به لكن حاول أن تجعل ذلك سريعًا!

أخذ الرجل المريب نفسًا عميقًا من السيجار ثم أخرجه من فمه وملأ به أرجاء المكان وهو يردد بغلٍ شديدٍ دون أن ينظر لأحد وكأنه يحدث نفسه:

- كل من يسكن هذا الجسد الطيني يُحاط بنقاط الضعف.. فقط أنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض.

* * *

لم يدر الشاب الوسيم كم مرَّ من الوقت أثناء تلك الجولة الإجبارية التي قادته إليها الظروف في شوارع الإسكندرية وأزقتها..

أخذت عيناه تتأملان كل التفاصيل المحدقة به بنظراتٍ ذاهلة، وقد اشتركت جميعها، صغيرها وكبيرها في إبهاره بهذا العالم الجديد عليه، وهو يبذل قصارى جهده ليتذكر ملامح وتفاصيل عالمه الأصلي الذي أبى منه بلا جدوى.

وجوه البشر المتباينة، وأعينهم التي تنطق بالكثير مما يدور في أعماقهم لكن بلغة لا تفهمها سوى قلةٍ قليلةٍ من الخلائق الذين كان منهم، دون أن يدري متى وكيف تعلمها، لكنه على الأقل منزعج بشدة وهو يُعرِّي -دون قصد- كل من يقع عليهم ناظره ويكشف مكنوناتهم، حتى أصابته أصواتهم الداخلية بالصداع!

رائحة اليود التي سار خلفها كالمجذوب حتى ملأت نفسه بالراحة، والسكينة، والهدوء النسبي الذي خفف من فوران نفسه المحمومة كبركان، ثم خمدت نيرانها وحممها تمامًا حين وجد نفسه أمام البحر حتى كاد أن يرى وجه الإله على صفحته العريضة الممتدة مد البصر، بعد أن رأى سحره وإبداعه في موجاتهِ العتية المتعاقبة باستمرارية لا تعرف كلمة النهاية، وسماءه التي تلامس الماء عند الأفق وقد رُفعت بلا عُمد.

خفق قلبه بذكر الخالق الذي يحتجب خلف كل تلك التفاصيل بشكلٍ أو بآخر، ويقود إليها وتقود إليه ليبقى عزيزًا على الرؤية، صعب المنال، محتجب بالعزة، لكنه حتمًا هنا يسمعه وهو يسأل داخل نفسه: من أنا؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟ وكيف فعلت ما فعلت؟ ومتى اكتسبت تلك القدرات؟!

انتظر الإجابة طويلا وقد سكن في مكانه واقفًا بلا حراك كتمثال نحته صانعه ناظرًا نحو البحر، غير عابئ أو مبالٍ ببائعي الترمس، والفول النابت، والشاي، وعربات الحنطور، وأذرع المحبين الملتفة على أكتاف محبوباتهم على الكورنيش، فزاد سكونه ونظراته العميقة من جماله الأسطوري الذي تعلقت به أعين المارة بلا استثناء من رجال أو نساء، لا سيما مع ذلك الهدهد الجميل الذي حط على كتفه وأخذ ينظف نفسه بطمأنينة وكأنه واقفٌ فوق قمة جبل، لكن الشاب استمع إلى نداء ما كان ليتجاهله مهما كانت قوته، حين شعر بألمٍ شديدٍ في معدته الخاوية التي

لم يدخلها شيء قادمٍ من جوفه منذ أن وجد نفسه في المقابر!

تفاقمت حدة الألم بسرعةٍ متناهيةٍ، جعلته يقبض بكفه على بطنه، ويغادر وقفته باحثًا بعينيه عما يمكن أن يُسكِّن به هذا الألم، ليسعى يمينًا ويسارًا على الكورنيش ذهابًا وإيابًا، وفي المرة السابعة وجد الفتاة الصغيرة التي قابلها على السطح، وفي يدها كيس ورقي عليه علامة (ماكدونالدز).

نظر إليها وقد جرى ريقه، فأشرق وجهها الأسمر بابتسامةٍ ملائكية وصفيْ أسنان ناصعيْ البياض..

"أحدهم منحني الوجبة المُفرحة ومعها العروسة التي كنت أريدها حين شاهدني أنظر نحوه هو وأسرته من خلف زجاج المحل".

قالتها ببراءة وعفويةٍ وهي تتجه نحوه.. فتحت الكيس وأخذت منه باكت البطاطس ودسَّته في يده متطلعةً إلى وجهه بذات الابتسامة الخلابة ثم انصرفت في صمت.

تلألأت عيناه بالدمع وهو ينظر لأصابع البطاطس بخجل متجمدًا في مكانه، ثم مد إصبعيه الإبهام والسبابة ببطء وكأنه يكتشف هذا الشيء لأول مرة، قبل أن يلتقط أول إصبع، ثم لم يشعر بباقي الأصابع إلا حين دسَّ يده في الباكت ووجده خاويًا على عروشه.

جاءه النداء الثاني من الجسد الذي فرغت شحنته وصار في حاجة ماسة للراحة، بعد قضاء ليلة ليلاء من الخيالات العارية وصرخات الشبق، ودقائق معدودات من النوم المتقطع، غير الكافي لإمداد الجسم بحاجته للسكون والراحة.

أولى ظهره للبحر ونظر للصف المقابل حيث تمثال (سعد زغلول) وفندقي (سيسيل) و(إمبريال)، ومبنى الغرفة التجارية، وحلواني (ديليس) ذي الأصول اليونانية الذي تعود نشأته لمائة عام مضت، ولم يجد بدًا من العودة لشارع (النبي دانيال) من جديد..

عبر الطريق بخُطى مُنهَكَة، حاول أن يوفر فيها الرمق الأخير من طاقته

بهاتفٍ خلوي صارت شحنته من الكهرباء 5% فقط، ولمعت في ذهنه ساحة مسجد (النبي دانيال)* التي كان العشرات يفترشونها بالأمس، تقوده قدماه نحو الجامع الذي قرر أن يفرد فيه ظهره ويحصل على جرعةٍ من الراحة بعد أن صارت عودته لحجرة (دميانة) تعني تهافت الناس عليه من جديد.

خلع حذاءه ودخل مع الداخلين، وأخذ يتأمل المكان ناظرًا حوله بدهشة، وهو يتساءل في أعماقه: كيف يبدو المسجد من الداخل أوسع وأكثر رحابة بكثير مما يبدو عليه من الخارج، حتى إنه شعر بالجدران تتحرك وتتمدد لاستيعاب آلاف من البشر قد يأتون في أي لحظة، غير أنهم لا يأتون!

وقع بصره على باب المقصورة الذي يؤدي إلى مرقد الجثمان المدفون أسفل المسجد بعمق نحو 5 أمتار، وشعر بعبق روحاني ينبع منها فسار تجاهه وهبط درجات السلم الخشبي الحلزوني بخطواتٍ بطيئةٍ متأنيةٍ، ليجد ضريحًا مغطى بقماش أخضر يبعث على الراحة والطمأنينة، ووضعت عليه لائحةً مكتوبًا عليها بخط مزخرف: **{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** وتحت الآية الكريمة عبارة تقول: هذا مقام نبي الله دانيال والحكيم لقمان.. مهداة من السيد أحمد الجمل في ٢٨ شعبان ١٣٨٦هـ – الإسكندرية، وعلى الضريح نفسه تراصت مصاحف قرآنية، وأوراق بالية عليها أوراد وأذكار وكتيبات دينية.

* مسجد النبي دانيال كان معبدًا يهوديًا باسمه، وتم هدمه وبناء مسجد النبي دانيال بدلا منه، وهناك روايتان حول الضريح الموجود به على عمق ٥ أمتار، الرواية الأولى تقول إنه لعالم عراقي قدم من الموصل إلى الإسكندرية في القرن الثامن الهجري اسمه محمد بن دانيال الموصلي وهو أحد شيوخ المذهب الشافعي، والرواية الثانية تقول إنه نبي الله دانيال، وقد أدى وجود العديد من الآثار الرومانية تحت المسجد إلى الاعتقاد بأن مقبرة الإسكندر الأكبر موجودة أسفله، ودعَّم هذه الفكرة وجود الجبانة الملكية في تقاطع شارع النبي دانيال مع شارع فؤاد إلا أنه بعد البحث والتنقيب لم يكتشف أي شيء يخص الإسكندر، ولكن تم اكتشاف أنفاق كبيرة من العصر الروماني متصلة ببعضها وكانت مصممة لهروب الملك عند قيام الثورات التي كان يقوم بها أهل الإسكندرية القديمة بحيث يهرب إلى خارج البلاد وكان منها ما يؤدي إلى البحر المتوسط مباشرة، وقد وصف المؤرخ الإسلامي المقريزي هذه الأنفاق بأنها من الاتساع والارتفاع أن يسير فيها الفارس ممتطيا جواده رافعًا سيفه.



مرت ثوانٍ تأمل فيها الشاب الضريح، ثم جلس على الأرض جواره وفرد طوله متوسدًا ذراعه اليمنى، قبل أن يسلم جفنيه للنعاس، جامعًا كيانه وفكره ووعيه، ذاهبًا بها لعالم الرؤى والأحلام.

* * *

زفر العقيد (يحيى) زفرةً حارةً وهو يسير مع مساعده في أروقة مطار (برج العرب) بالإسكندرية قائلا في غضبٍ جم:

- إنه أسوأ أيام حياتي بلا شك.. تغيير مفاجئ في سير أحداث قضية يُدرك أغبى عسكري أن وراءها أمرًا مريبًا، ثم تكليفي المفاجئ بحراسة وتأمين حاخام إسرائيلي جاء ليُدنِّس أرضنا ويحتفل مع حفنةٍ من اليهود المتبقين في الإسكندرية بعيد رأس السنة العبرية وكأنهم يريدون استبعادي واقحامي في أمر آخر يشغلني.. هل رأيت أمرًا يبعث على القيء أكثر من ذلك؟ أوصل بنا الحد لدرجة استقبال إسرائيليين يُقيمون شعائرهم على أرضنا؟!

أجابه مساعده:

- إنها قواعد دينهم يا سيدي.. فمن تبقى منهم على أرضنا بعد قيام دولة إسرائيل أخذ يتآكل حتى صار اليوم في مدينتنا 22 يهوديًا فقط، مقسمين ما بين 4 رجال و18 سيدة، جميعهم من الكهول والعجزة، وتنحصر أعمارهم بين السبعينيات والتسعينيات، حتى إن نصفهم لا يغادر سكنه بسبب الحالة الصحية الحرجة، ويحتاج النصاب اللازم للصلاة إلى ١٠ رجال على الأقل فضلا عن حاخام لإتمام الطقس حسب العقيدة اليهودية، لذا يتم تعويض النقص العددي بدعوة اليهود الأجانب الموجودين في مصر، سواء العاملون بالقنصليات أو المصالح الأجنبية، أو استقدام اليهود من إسرائيل أحيانًا إن لزم الأمر مثلما حدث هذ المرة.

رفع العقيد (يحيى) حاجبه بدهشةٍ، فابتسم مساعده وعقَّب سريعًا:

- لقد عرفت الكثير عن هؤلاء القوم بحكم مشاركاتي المتعددة

في تأمينهم وحماياتهم في المواسم والأعياد اليهودية الماضية.. في المرة الأولى كان لديَّ نفس شعورك تمامًا، لكن مع الوقت رأيت النصف المملوء من الكوب حين تفتحت عيناي عن عالم غريب ومثير لا نعرف عنه سوى الصهيونية والثأر والحروب والدم والاحتلال، فيما له جذور أخرى تمتد لأنبياء ورسل تفوق قصصهم الممتعة حكايات ألف ليلة وليلة وباقي الأساطير.. هل تعلم أن...

بتر عبارته فجأة ورسم على ملامح وجهه الصرامة والجدية وهو يقول العقيد سريعًا:

- فلنؤجل كلامنا لوقتٍ لاحق، فقد وصل الحاخام مع الوفد الديني الإسرائيلي.

التفت (يحيى) حيث ينظر مساعده ليلمح كهلا عجوزًا محني الظهر قليلا، تمسك كفه المعروقة بعصا يتكئ عليها في السير وقد ارتدى معطفًا أسود طويلا، من تحته قميصٌ أبيض، وعلى رأسه قبعةٌ كبيرةٌ تشبه تلك التي كان يرتديها أبطال هوليوود في أفلام الـ"كاوبوي"، ومن أسفلها تتدلى خصلاتٌ طويلةٌ حلزونية، فيما ضفَّر بعض شعيرات لحيته الطويلة على الجانبين.

بعد أن فحصه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه غمغم العقيد وهو يتجه نحوه:

- قياداتنا أخبرونا أن نظهر شيئًا من الود في استقباله باعتباره من أصل مصري.. تبًّا للميري الذي يحرمنا من النقاش وإبداء الرأي مع من هم أعلى رتبة.. كنت أريد أن أصرخ فيهم: هذا يؤكد حقارة أصله.. مؤكد أن جدوده كانوا من الرعاع الذين تركوا وطنهم الأم الذي تربوا في خيراته وتمرغوا في نعمه من أجل حلمٍ عنصري قائم على تعصبٍ ديني صهيوني.. ونحن.. نكلف بحراسته.. يا للسخافة!

لم يعلق الضابط على كلمات رئيسه بعد أن أصبحا أمام الحاخام الذي



تقدم الوفد بخطواتٍ، قبل أن يُفاجأ (يحيى) بمساعده يقول للوفد بابتسامة بدت حقيقية:

- روش هاشناه* سعيد

فابتسم الحاخام وحياه على الطريقة العبرية قائلا:

- فليُكتب اسمك هذا العام في سجل الحياة السعيدة.

رمق العقيد مساعده بنظرةٍ نارية، وحين تبادل مع الحاخام النظر، تطلع كل منهما للآخر بنظرةٍ طويلةٍ كانت تحتاج إلى مصور سينمائي ومخرج

* روش هاشناه: تعني رأس السنة العبرية، وهو عيد يهودي يحتفل به اليهود كل عام في الأول والثاني من شهر تشريه العبري، الذي يوافق في التقويم الميلادي شهر سبتمبر وأحيانًا مطلع أكتوبر، حيث يختلف موعده في كل عام تمامًا مثلما تختلف مواعيد التقويم الهجري كل عام مع التقويم الميلادي، ويعتمد التقويم اليهودي على دورتي الشمس والقمر معًا، ويتم تحديد طول الأشهر والسنوات بواسطة معادلة حسابيةٍ اسمها (خوارزمية) وليس حسب الاستطلاعات الفلكية، ويعتبر هذا العيد يوم الدين الذي يُحاكم الإنسان فيه عن السنة الماضية ويُحاول أن يكفر عنها في بداية العام الجديد من خلال أيام التوبة العشرة التي يبدأ بها العام الجديد، وتنتهي في اليوم العاشر بعيد الغفران (كيبور)، وتقول التقاليد اليهودية إن هذا التوقيت هو فترة صدور الحكم الإلهي، حيث يُحاسب الرب جميع البشر والأمم على أفعالهم خلال السنة المنتهية للتو، ويتم البت في مصائرهم للعام الجديد.
وحسب الديانة اليهودية، امتثل سيدنا (إبراهيم) الخليل عليه السلام في هذا اليوم لأمر ربّه وهمَّ بذبح نجله (إسحاق) عليه السلام على جبل (موريّا) في (أورشليم)، وهو الجبل الذي أُقيم عليه فيما بعد الهيكلان المقدسان الأول والثاني، لذا تَصِل صلوات كل يومٍ من يومي هذا العيد ذروتها حين ينفخ في "الشوفار" وهو نوع من البوق مصنوعٌ من قرن كبش، رمزًا لكبش الفداء، كما أن الملائكة بشّروا سيدتنا (سارة) بولادة (إسحاق) في مثل هذا اليوم أيضًا، وهناك اختلاف بين رجال الدين اليهودي أيضًا حول خلق الله للعالم في مثل هذا التوقيت، وإعلان الملوكية لله حسب ما ورد في التوراة الشفهية "المشناة"، وتمتد طقوس هذا العيد يومًا ثالثًا، الذي يصادف ما يُعرف بصوم (جدليا)، وهو إحياء لذكرى قتل (جدليا بن أحيقام)، الذي ولّاه (نبوخذ نصّر) ملك بابل على من بقي من يهود فلسطين، حيث كان قد نقل معظم اليهود أسرى إلى بابل.

محترفٍ لتخليدها للتاريخ..

الحاخام يتأمل ذلك العقيد المصري الذي حاول رسم ابتسامةٍ مصطنعةٍ تُعبر عن الترحيب، لكن كوامن القلب تسللت رغمًا عنها إلى العينين، ليستشف العقيد تلك المشاعر المضطربة ونظرات الزيغ في عين الحاخام الإسرائيلي الذي بدا وكأنه يبحث عن شيء فقده رغم أنه حط للتو رحاله ووصل إلى تلك الأرض التي لم يأخذ أحدٌ رأيها في أن يطأها بقدميه..

ثم.. مصافحة بدت باردة، رسمية، وكلمات ترحيب مزيفة، تحمل في باطنها من التملق والكذب ما فاق معانيها الظاهرة، قبل أن ينتهي الأمر بركوب الحاخام مع العقيد (يحيى) في سيارة، فيما ركب مساعده مع باقي أعضاء الوفد الديني في سيارةٍ أخرى لتأمينهم.

انطلقت السيارتان من المطار، في طريقهما إلى معبد (إلياهو حنابي)* بشارع (النبي دانيال)، ليخفي (يحيى) الذي يجلس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق نظراته الحانقة ومشاعره البغيضة خلف نظارته الشمسية، ملتزمًا بفضيلة الصمت في لحظاتٍ قد يكلفه فيها الكلام الكثير، لكن الحاخام بادره بالكلام من المقعد الخلفي بلهجةٍ حانية:

- بعد إذنك يا بُني.. أريد زيارة صديقٍ قديمٍ في شارع سعد زغلول قبل الذهاب للمعبد.

أدار (يحيى) عنقه نحوه وتأمله لثوانٍ قبل أن يقول بلهجةٍ رسمية:

- لكنك لم تبلغنا بتلك الزيارة من قبل يا سيد موريس.. كان من الواجب أن يحدث ذلك لتأمينك جيدًا.

- ثمة أمور لا تدري أنك ستقوم بها مسبقًا إلا حين يأخذك إليها حنينٌ جارفٌ، ثم إني أريد أن تكون مفاجأة.

* معبد إلياهو حنابي: يطلق عليه أيضًا معبد النبي دانيال، وهو من أقدم وأشهر معابد اليهود في الإسكندرية. شُيِّد عام 1354م وتعرَّض للقصف على يد الحملة الفرنسية على مصر، عندما أمر نابليون بقصفه لإقامة حاجز رماية للمدفعية بين حصن كوم الدكة والبحر، وأعيد بناؤه مرةً أخرى عام 1850م بتوجيه ومساهمة من أسرة محمد علي.

- شغلنا لا يعرف المفاجآت يا سيدي.

- شغلكم قائم على توقع المفاجآت والتعامل معها يا ولدي.

شعر (يحيى) بغصةٍ شديدةٍ في حلقه عندما ردد الحاخام كلمة (ولدي)، وابتلعتها أذناه بمضضٍ دون أن يدري أن ملامح وجهه جاشت بما يُحاول أن يخفيه منذ أن بدأ اللقاء، فابتسم الحاخام وأردف:

- آسف إن ضايقتك كلمة ولدي.. فلو كنتُ في موقفك لربما انتابني نفس الشعور، لكن.. من كان مجبرًا على الاختيار كان عليه التنازل.. ستفهم يومًا كلماتي.

عقد (يحيى) حاجبيه وقد أنبأته كلمات الحاخام أن رغبته في الزيارة تُخفي وراءها سرًا دفينًا، لكن شيئًا ما لا يدري كنهه جعله يهز رأسه بالموافقة قائلا:

- لك ما تريد سيد موريس.

ثم نظر إلى ساعته وأردف:

- لكن من المفترض أنك جئت لإقامة الصلاة في الكنيس والاحتفال بالعيد الذي سيبدأ قبل غروب الشمس بحوالي ساعة.. وعلى حدود علمي هذه زيارتك الأولى لمصر منذ أن هاجرت إلى إسرائيل.. فهل سيمهلك الوقت الفرصة للعثور على صديقك الذي ربما يكون قد غيَّر محل إقامته أو توفاه الله؟

ارتعشت خلجات الحاخام وقال في لهجةٍ حزينةٍ تتشبث بالأمل:

- فلنفعل ما علينا فعله، ونترك للرب القرار الأخير.

* * *

لم يبال (موريس) بنظرات الدهشة والاستنكار والبُغض التي صوَّبها نحوه المارة في شارع (سعد زغلول) فور مغادرته للسيارة وقد التصقت العيون بهيئته اليهودية غير مصدقةٍ أن يهوديًا يسير بهيئته الصريحة المستفزة بين ظهرانيهم، فيما بدا غير مبالٍ ببرود الأفعال التي قد تكلفه حياته

نفسها.

كانت على ملامح وجههِ دهشة أكبر بكثير وهو يدور حول نفسه متكئًا على عصاه، متأملا ما فعلته الأيام والسنون من تغييراتٍ جذريةٍ في شكل الشارع الذي شهد أجمل أيام عمره.. كل شيء تبدل وتغير وكأنه في مدينةٍ غير المدينة..

كانت الإسكندرية وطنًا يعيش فيه، وتسير بكل تفاصيلها وملامحها في دمه وهو بعيدٌ عنها، والآن يشعر على أرضها وأمام العقار الذي تربى فيه بالغربة!

"الإسكندرية هي الأميرة والبغي، هي المدينة الملكية والمؤخرة اللواطية، إنها لن تتغير أبدًا طالما استمرت الأجناس المختلفة تضطرم فيها مثل عصير العنب الذي يتخمر في الراقود، وطالما ظلت فيها الشوارع والميادين، تتدفق وتنبجس، وتتخمر فيها هذه الأهواء المختلفة والضغائن المتباينة، والتي سرعان ما تهدأ فجأة، إنها الصحراء المغطاة بعظام هؤلاء المنفيين فيها"

ما زالت كلماتُ الكاتب الإنجليزي (لورانس داريل) تسكن مخيلته حين قرأ رائعته (رباعية الإسكندرية) في الستينيات، وصدق أن الإسكندرية لن تتغير أبدًا.. كان يُكذب كل من لحق به في إسرائيل من اليهود المصريين، ويخبرونه أن الإسكندرية التي عرفوها وتربوا فيها اندثرت في قبر الزمن، وقامت على أنقضاها مدينة أخرى لا يعرفونها ولا تعرفهم.. حين قرأ تلك الرباعية رفعها في الوجوه وصاح: ها هي الإسكندرية في أنظار الإنجليز الذين يقولون مثلي: **"لن تتغير أبدًا"**، فأكملوا له باقي الجملة: **"طالما استمرت الأجناس المختلفة تضطرم فيها"** لكنها اليوم لا تحتمل حتى بني الجنس الواحد من المصريين، أو بمعنى أدق، هم الذين لا يحتملون أنفسهم!

الآن أيقن أنها استسلمت لفعل الزمن، وهي التي كانت في نظره مُحصَّنة، أبيَّة على التغيير.

تولى العقيد (يحيى) هشَّ البشر حين هموا بالتجمهر وأطالوا النظر، وأخرس ألسنة الصبية الصغار حين حاولت الغمز واللمز، لينفضَّ التجمعُ قبل أن يبدأ وتسكت الأفواه خوفًا من جسده الضخم، وهيئته

المهيبة ونبرة صوته الغليظة الرنانة، ونظراته المتجهمة الأسود من نظارته الشمسية ذات العدسات العاكسة كمرآة، والأهم من كل ذلك، جراب المسدس الذي بدا من تحت جاكت بذلته. فلغة السلاح هي الأكثر قدرة على الإقناع أحيانًا.

صعد درجات السلم وحده بعد أن طلب من العقيد وألحَّ في طلبه أن يتركه بمفرده في هذا اللقاء لحاجةٍ في نفس (يعقوب).

مع كل درجة سُلَّم كان يصعدها، كان يهبط درجةً في درك الذكريات والأيام الخوالي لتهب عليه نسائم الماضي، وتطير معها طاقيته، ولحيته، وشعرات المشيب، وتسقط سنوات العجز والكهولة من على عاتقيْه ويعود من جديد طفلا غضًّا ببراءة ونقاء الأمس البعيد.

استعادت درجات السلم نظافتها ولمعانها، وعادت الألوان الزاهية لحوائط الجدار، والتأم زجاج نوافذ السلم المكسور، وخلى خشب الدرابزين من الخدوش والتآكل واستعاد بريقه البُنيَّ، وهو يرى (دميانة) تقفز الدرجات ركضًا وهو يركض خلفها..

تسللت إلى أذنيْه أصوات الضحكات البريئة الصاخبة قبل أن يهتك عِرضها تبدل الظروف والأحوال، ثم اصطبغ كل شيء حوله بالدم حين وصل إلى السطح..

مال جانبًا بذعر ليتفادى انقضاضة (جرجس) الأشبه باندفاعة ثور هائج، لكن (جرجس) تخطاه وقد سلَّط ناظره على ذلك الصبي الذي يُناور عزرائيل وهو يصرخ في هولٍ وفزعٍ، قبل أن يغير الصبي موضعه في اللحظةِ الأخيرة ويتركه يلتحم بالهواء ويأخذه بحضن أخير سبح بعده في الفراغ خلال رحلةٍ ذات اتجاهٍ واحدٍ للقاع، أسلم بعدها روحه يدًا بيدٍ لملك الموت الذي حضر، وأبى أن ينصرف خالي الوفاض.

هزَّ الحاخام رأسه بقوةٍ محاولا طرد هذا المشهد الذي تزوج بذاكرته زواجًا كاثوليكيا لا انفصال فيه، دون أن تنجح السنون الطوال في محوه، قبل أن تطرق يده المرتعشة على باب الحجرة.

إن هي إلا ثوانٍ حتى فتحت له (آيات) التي شهقت فور رؤيته وهي تراجع خطوةً للخلف وقد اتسعت عيناها من هيئته التي ما كانت تتخيل أن تراها على الحقيقة، أما هو فقد سقط قلبه بين قدميْه وهو يسألها بصوتٍ مرتجفٍ وقد تلاعبت الاحتمالات بأعصابه، وكأن القدر يلصق برأسه فوهة مسدس ذات ساقية دوَّارة، ويلعب معه لعبة الروليت الروسي*:

- دميانة موجودة؟

ظلت على دهشتها ثواني حاولت أن تستوعب فيها الموقف، وهي تعتصر ذاكرتها حول أي معلومة ذكرتها لها (دميانة) من قبل عن معرفتها بشخصٍ يهودي دون جدوى..

"هل هي على قيد الحياة؟"

أعاد (موريس) سؤاله بقلبٍ مرتجفٍ، فهزت رأسها إيجابًا ببطء متمتمة بدهشة:

- نعم.

ثم سألته بتحفز:

- من أنت؟

- موريس زكي.. صديق قديم جاء لمقابلتها.

- لكنها نائمة الآن.

- فقط أخبريها باسمي ولنرِ رد فعلها.. فقد طال الانتظار سنوات فاقت عمرك كله.. هل أنتِ ابنتها؟

- لست ابنتها لكنها أمي على كل حال.. اجلس حتى أوقظها!

* الروليت الروسي: هي لعبة حظ مميتة نشأت في روسيا. يقوم من يلعبها بوضع رصاصة واحدة في المسدس، ثم يقوم بتدوير الأسطوانة "ساقية الطلقات" التي يمكن أن تحمل ست رصاصات عدة مرات بحيث لا يعرف ما إذا كانت الرصاصة الوحيدة ستنطلق في الضربة القادمة أم لا، ثم يوجه المسدس نحو رأسه ويسحب الزناد. وتستخدم هذه اللعبة لعدة أسباب، منها الانتحار أو إثبات الشجاعة، وترجع نشأتها إلى روسيا عندما لعبها الجنود الروس لإثارة بعضهم البعض!

قالت جملتها الأخيرة وهي تشير نحو المصطبة، فجلس مستندًا على عصاه، وفي الداخل هزت (آيات) كتف (دميانة) لتوقظها عبثًا، دون أن تدري أن المسيطر على الجسد الآن قد غادره ليواصل غيه في مكان آخر، تاركًا هذا الجسد بروحٍ حبيسةٍ معذبةٍ داخله، لم تعد تملك السلطان والنفوذ عليه.

وداخل الجسد، كانت (دميانة) تسمع (آيات) وهي تردد اسمها بنبرة تصاعديةٍ أخذت تتعالى بتناسبٍ طردي مع قوة الهز وقد انتابتها رغبة مُلحة في إيقاظها من باب الفضول لتعرف أي صلة تربطها بهذا اليهودي الذي يجلس في الخارج.

انتفضت روح (دميانة) الحبيسة داخل جسدها المهزوم حين وصل إلى مسامعها صوت (آيات) الرنان البعيد، ذي الأحرف البطيئة المتقطعة وكأنه صدى صوت يأتي من كهف جبل قائلةً: **"يقول إنه صديق قديم اسمه موريس زكي"**.

وظل طيف (دميانة) الأثيري يصرخُ بكل ما أوتيت من قوة دون أن يسمعها أو يشعر بها أحدٌ كهاتف يتلقى أهم مكالمة ينتظرها صاحبه على الإطلاق، لكنه كان على الوضع الصامت!

وبعد دقائق، خرجت (آيات) من الحجرة بملامح عابسةٍ، وقالت بخيبة أمل:

- للأسف لا تريد أن تصحو، حتى بعدما أخبرتها باسمك.

امتقع وجهه غير مصدق أذنيه، ثم فجأة تهللت أساريره وهو ينظر إلى ما خلف كتفيها راسمًا على وجهه أقصى ما يملك البشر أن يرسموه في التعبير عن السعادة المطلقة، كمن انتهى للتو من حساب يوم القيامة وسمع اسمه مع أهل الجنة، وأي جنة على الأرض كانت أغلى عنده من (دميانة)!

لكن سرعان ما يحل الألم مكان السعادة، حين تظهر الحقيقة كاملة.. وحين يتضح أن (دميانة) التي ما زالت حية تُرزق، قد صارت بهذا الحال المزري!

لم يكن يعلم كيف بذلت ما فاق الخيال، فقط لتنهض قائمة، وتغادر

سريرها بخطواتٍ ثقيلةٍ، وظهرٍ محني كمن تحمل على عاتقها الكرة الأرضية بأكملها.

كانت تطير فرحًا داخلها، وتهتف بأسمى معاني الحب واللهفة، لكن ملامحها الخارجية حملت البؤس والشقاء في وجهٍ لم تعد قادرةً على التحكم في قسماته، ليبدو عابسًا مكفهرًا.

"أوحشتني يا موريس.. كنت على يقين أن أيام العمر الفاني لن تنقضي قبل أن يصلح القدر ما بدر منه في حقنا".

قالتها روحها الداخلية بسعادة الكون، لكن لسانها الخارجي خزلها في النطق مع ملامح وجهها المتحجر الذي ينظر للأرض، لتتحول كلمات الروح إلى همهمةٍ غريبةٍ غير مفهومة، تبعثرت على لسان الجسد الذي أخذ يئن ويزوم كالممسوسين، قبل أن تسقط أرضًا.

انتفض جسد (موريس) ودبَّ فيه شبابٌ مفاجئ حين ترك عصاه وهرول نحوها بخفةٍ لا تناسب كهولته، لتلتقي الأيادي وتتعانق الأصابع من جديد.. ومع الالتقاء، التحم الموجب بالسالب وسرى بينهما تيار من المشاعر القديمة المقطوعة منذ زمنٍ، بعد أن حان وقت وصلها..

التحم الماضي بالحاضر وصار المستقبل مستعدًا للظهور بعد أن أظلته غيمةٌ كثيفةٌ أعمت العيون.

لم يسمع صوتها الداخلي الحبيس وهي تصرخ:

- أنقذني يا حبيب الأمس.. أرشدني كيف أسترد نفسي لتنفك عقدة لساني ويتحرر ذراعاي حتى أحتويك بينهما.

لكن عينيها التي لمعت بالدمع أخبرته أن ثمة أمرًا خفيًا جعلها على غير ما يُرام.. رفع ذقنها ونظر إلى حدقتيها اللتين طالما فُتن بهما سحرًا ورأى فيهما الأمل والسكينة حين كان صبيًا، فإذا بهما اليوم –لسبب مجهول– مصدرٌ لضيق النفس وانقباض القلب.. ثمة شرور وجحيم مستعر يطل منهما فيلفح أرواح الناظرين بنيرانٍ غير مرئية للعيون.. تشبثت بيديه أكثر وكأنها تريد أن تحكي لها بلمَساتها المتشبثة ما عجز لسانُها عن البوح به في تلك الهُنيهات الحزينة، ثم بدأت قواها تخور، وارتخت الأصابع ولم تعد حتى قادرةً على الانقباض!

كل هذا و(آيات) تتابع ما يحدث غير مصدقة عينيها، قبل أن تردف:

- حتى الأمس كانت في أفضل حال، ثم تعرضت لوعكة صحية في الصباح فقدت على أثرها الوعي، وحين أفاقت أخبرتني أنها بخير، بلهجةٍ مليئةٍ بالعافية والقوة، وطلبت مني أن أتركها نائمة ولا أوقظها مهما حدث.. لا أعلم ما الذي أصابها.

وضع (موريس) يده تحت ذقن (دميانة) ورفع وجهها إليه قائلا:

- عودي كما كنتِ من أجلي ولو للحظةٍ واحدةٍ أسمع فيها صوتك الذي افتقدته كثيرًا.. هيا يا دميانة لا تخذليني.. حلفتك بالمسيح الذي اختلفنا على دمائه وتقاربنا في محبته أن تفعليها!

هزَّت (آيات) رأسها وقد شعرت أنها تحلم.. منذ متى وكان للمسيح مكانٌ في حياة هذه الكافرة العجوز التي طالما تفاخرت بكراهيتها للأديان؟!!

"ما الخطب يا سيد موريس؟!"

قالها العقيد (يحيى) وهو ينظر للمشهد بدهشةٍ شديدةٍ بعد أن شعر بتأخر الحاخام وصعد للاطمئنان عليه، فنظر إليه الحاخام من مكانه بخجلٍ وحزنٍ قبل أن يُحاول النهوض وتعاونه (آيات) في النهوض بـ (دميانة)، وقال وهو يلتقط عصاه من على الأرض:

- لا شيء يا سيادة العقيد.. يبدو أن جارتي القديمة في حالةٍ صحيةٍ سيئةٍ.

ثم نظر إلى (آيات) وقال بنبرةٍ هزيلةٍ من فرط الحزن:

- سأعاود زيارتها يا ابنتي بعد الانتهاء من الاحتفال برأس السنة العبرية.. لو احتجتِ شيئًا ستجديني في معبد إلياهو حنابي رهن إشارتك.

ثم نظر إلى (يحيى)، وتابع:

- هيا يا بُنيَّ.. أقصد يا سيادة العقيد.

* * *

(14)

استقبل (إبراهيم منير)، رئيس الطائفة اليهودية بالإسكندرية، ذو العمر الخمسيني، الحاخام الإسرائيلي والوفد اليهودي بحفاوةٍ شديدةٍ على باب معبد إلياهو حنابي، كما صافح العقيد (يحيى) ومساعده بابتسامةٍ حار في فهمها رجل الأمن الذي لا يُفرق بين كراهية اليهود والكيان الصهيوني.. هل هي ابتسامة ودودة من القلب؟ أم مزيفة لزوم الاستخدام الاجتماعي؟، لكنه على الأقل ردَّ بواحدة «تيك أواي» تخرج وقت الحاجة لمن تضطره الظروفُ للتعامل معهم بحكم عمله..

تجرَّد من الرسميات، وأخذ يدور حول نفسه وقد أخذته قدماه في جولةٍ غير مقصودة داخل أرجاء المعبد بشكلٍ مختلفٍ عن جولته التفقدية التي قام بها من قبل لتأمين المكان، حتى وجد نفسه أمام حجرةٍ مُعلَّق بها آيات قرآنية فعقد حاجبيه وهو يُطالع وجه الرجل الأصلع ذي الشعر الأبيض الجالس فيها وسأله حائرًا وهو يشير للآيات:

- ما هذا؟

ابتسم الرجل وهو ينهض من على مكتبه قائلا بلهجةٍ تفيض بالود:

- قل سلام عليكم أولًا!

ثم مدَّ يده مصافحًا وهو يقول دون أن يتخلى عن ابتسامته:

- اسمي عبد الرسول، المسؤول الإداري بالمعبد، وأعمل به منذ ٢٠ عامًا.

- عبد الرسول؟

- عبد الرسول محمد.. فجميع العاملين هنا مسلمون ومعنا محاسبٌ مسيحي، والجميع هنا متحابون لأننا لا نُقيم علاقتنا وفقًا للعقيدة الدينية. فالمعبد مغلق معظم العام بحكم قلة عددِ اليهود الباقين في الإسكندرية، ولا يُهوِّن علينا اليوم الطويل في معبد شبه مهجور من البشر إلا حُسن المعشر والعلاقة الطيبة بين المسلم والمسيحي واليهودي، وجميعنا يشعر بالسعادة حقًّا عندما تأتي

الوفود للاحتفال برأس السنة اليهودي في شهر سبتمبر، بخلاف أعياد الغفران، والحانوكا، والبوريم، والمظلة، وسمحات أورات، وعيد الفصح.

منذ هذه اللحظة وجد العقيد موظفًا طيبًا بدرجة مرشدٍ سياحي تجوّل به داخل المعبد الزاخر بأعمدة رخامية مرتفعة ذات أسلوبٍ إيطالي ولافتاتٍ نحاسيةٍ تحمل أسماء حراسه الذكور، ومقاعد تسع أكثر من ٧٠٠ شخص، بخلاف مقاعد إضافية للسيدات في الدور العلوي، وأشار (عبد الرسول) عند مقدمة المبنى إلى غرفة مغلقة أخبره أنها تحتوي على ٣٠ من ألواح التوراة التي تم جمعها من المعابد الأخرى في الإسكندرية قبل إغلاقها وبيعها.

"حتى عام ١٩٣٠م كان هناك ٢٠ معبدًا في الإسكندرية تنتمي إلى مجموعات ومجتمعات متباينة ما بين يهود مغاربة وأتراك وإيطاليين واسبان وفرنسيين ويهود مستعربين، مثل معبد إلياهو حزان بشارع فاطمة اليوسف في حي سبورتنج، ومعبد جرين الذي شيّدته عائلة جرين في حي محرم بك، ومعبد يعقوب ساسون في جليم، ومعبد كاسترو الذي أنشأه موسى كاسترو في حي محرم بك، ومعبد نزاح إسرائيل الأشكنازي، ومعبد شعار تفيله الذي أسسته عائلتا إنزاراوت وشاربيه في حي كامب شيزار، وكان للطائفة مجلس عام يتكون من حاخام باشي، ونائب الحاخام، ورئيس، ونائبه، وسكرتير، لكن اليوم تبقى فقط هذا المعبد، ومعبد منشه الذي أسسه البارون يعقوب دي منشه عام ١٨٦٠م بميدان المنشية، وكان مبنى بسيطًا مكونًا من طابقين، لكنه الآن متهدم ومغلق، ويحاول رئيسُ الطائفة اليهودية الحفاظ عليه بأي شكلٍ، لأن من يسقط لا تقوم له قائمة مرةً أخرى خاصة أنه غير مسجل كأثر".

قالها (عبد الرسول) وهو يواصل جولته مع العقيد (يحيى)، ثم أشار إلى عدد كبيرٍ من الحضور تحمل وجوههم ملامح متباينة ومختلفة الأعراق والألوان:

- كل اليهود الذين يعيشون في الإسكندرية اليوم من العجائز، معظمهم يعيش فى ملاجئ، وبعضهم يقيمون فى شققهم ومعهم جليسات يدفع رواتبهن السيد إبراهيم منير من واقع مسؤوليته كرئيسٍ للطائفة اليهودية التي تملك العديد من العمارات والمباني المحيطة بالمعبد ويذهب ريعها للطائفة. اليهود الباقون حتى

اليوم في مدينتنا رفضوا رفضًا باتًّا أن يُهاجروا إلى إسرائيل، وقالوا وطننا الحقيقي هنا في مصر، ولدنا فيه، وسنموت على ترابه حين يحين الأجل، حتى بعد تلك الضغوط التي تعرَّضوا لها حين هاجر أزواجهم أو زوجاتهم وأخذوا معهم أطفالهم الذين كبروا وصاروا شبابًا ورجالا يحملون الجنسية الإسرائيلية ويأتون لزيارتهم في فتراتٍ متباعدةٍ، لكن الوجه الطريف والمشرق في الأمر مرتبط بأولئك الذين تزوَّجوا من مسلمين ومسيحيين، وصارت عائلتهم تتشكل من أكثر من دين، سواء الجدود أو الأبناء أو الأحفاد الصغار، وكلهم يحضرون للاحتفال برأس العام هنا في المعبد ويأكلون التفاح المغموس في العسل للاستبشار بعامٍ جديدٍ ربما يكون بطعم وصفاء العسل أيضًا، بخلاف الرمان الذي ترمز حباته الكثيرة للوفرة والخير والبركات.

ثم أشار لسيدة عجوز بدت على ملامحها آثار جمالٍ قديمٍ غرب مع الزمن، وبدَّلت قسماته الأيام بعد أن انتزعت منه نضارته وبريقه، لتحل محله خطوطٌ معوجةٌ من التجاعيد، وقفت تتكلم بحميمية شديدة مع (موريس) ليبدو على ملامحها التأثر الشديد والانفعال دون أن يسمع العقيد كلماتها وكأنه يشاهد مشهدًا صامتًا وأردف (عبد الرسول) مبتسمًا:

- هل ترى تلك السيدة التي تقف هناك؟ إنها أنجيل سليم، ملاك هجين من اليونان ولبنان، عمرها الآن ٨٠ عامًا وتستعد لدخول الجنة.. أعرف ذلك لأني على مدار عشرتي معها منذ سنوات لم أشعر يومًا أني أجلس مع جسد؛ بل روح خفيفة ومرحة.. لم تكسبها الحياة مرارة الحسرة على ما قد مضى، بقدر ما أكسبتها مزيدًا من الحب وخفة الدم.. هي مسيحية، لكنها تواظب على الحضور ها هنا في كل مناسبة لأنها تشم داخل هذا المعبد -حسب ما أخبرتني- رائحة الماضي واسكندرية القديمة التي نشأت وترعرعت فيها، وتحرص على تهنئة أصدقائها اليهود العجائز الذين لم يغيرهم الزمن في علاقتهم بها ومعاملاتهم معها مثلما غيَّر آخرين.

كانت متزوجةً من رجلٍ يوناني يُدعى باسيلي، مات مبكرًا بعد أن ترك لها طفليها نيكولا وأنطوانيت.. ثم كبرت أنطوانيت وأصبحت خياطة شهيرة يُنادونها بمدام تونة، واكتسبت الجنسية المصرية

بزواجها من سليم داود، رجل تركي الأصل جاء أبوه هربًا من الحرب الأهلية في تركيا.. أما نيكولا الابن الثاني لأنجيل وباسيلي فما زال يوناني الجنسية، يأتي كل ٦ أشهر إلى مصر بتصريح إقامة. كلهم يتحدثون اللهجة السكندرية بطلاقة، ولا تجد في أحاديثهم أثرًا لكلمةٍ أجنبية، وتشم في حضرتهم الرائحة الودودة لكوكتيل الجنسياتِ الطيبة التي جمعتها الإسكندرية بالأمس واقتربت من الاندثار اليوم.

اقترب العقيد (يحيى) من (أنجيل) ليسترق السمع لكلمتها وقد أثارت ملامحها ولغة جسدها فضوله، في تلك الأثناء التي كانت تقول وهي تُغالب دموعها:

- ما زلت لا أصدق عيني يا موريس.. مرحى يا أخ الأمس الذي حضر أخيرًا قبل ملك الموت.

ابتسم (موريس) معلقًا:

- ألم يقولوا أن تأتي متأخرًا خيرٌ من ألا تأتي أبدًا؟

- لكنك جئت متأخرًا للغاية.. لنا جلسة طويلة نحتسي فيها القهوة في فناجيننا الضخمة التي كنت تسخر منها وتسميها "كروانة"، لأحكي لك كيف ضاعت الإسكندرية وتشوه وجهها الجميل، بعد أن كانت مدينة كوزموبوليتان تحتضن كل الجنسيات والأديان بلا تمييز أو تفرقة، فإذا بها تتعرض لقرصنة العقل وتأميم الوجدان بعد أن أمَّم عبد الناصر محلاتنا وممتلكاتنا.

التمعت عيناها بالدمع واستطردت بانكسار:

- أيقنت أنها لم تعد تلك المدينة الكونية التي كنا نعتبرها أممًا متحدة مصغرة حين طردنا أحد أبناء البلد من عمارتنا بالإجبار في الخمسينيات، وأسكنها للصعايدة لأنهم أولى من الجريج والأرمن -على حد تعبيره- يومها صرخت فيه: لنا رب يتولانا.. ستموت في نفس اليوم الذي استوليت فيه على حقي، وبعدها بعام توفي في التاريخ نفسه بالفعل.. وبعد أن هاجر معظمنا خوفًا من التأميم وبطش عبد الناصر، اشترى أولاد البلد محلاتنا

قبل الهجرة بأبخس الأثمان ولم يُحافظوا على أناقتها وأسمائها العريقة، قبل أن يزاحمهم الصعايدة الذين جاءوا سرِّيحة صغارًا من كل حدب وصوب، وبدأوا نشاطهم في الحواري والأزقة وأعينهم على امتلاك المحلات والعقارات.. كانوا يأكلون كسر الخبز المغموس في الماء ويضعون القرش فوق القرش لتوسيع نشاطهم وتوغلهم في المدينة حتى استفحل أمرهم وتفاقم عددهم وصاروا قوةً ضارية احتلت الشوارع الرئيسية وهيمنت على المحلات بعد مشاجراتٍ ومعارك طاحنةٍ بالأسلحة النارية انتصروا فيها حتى صارت لهم اليد العليا وكأنهم دولةٌ داخل الدولة، تمامًا مثلما تنبأ كفافيس* ذات يوم في قصيدته الشهيرة "في انتظار البرابرة".

الفيلات والقصور الأثرية العريقة تهدمت وقامت على أنقاضها أبراجٌ مشوهة يسكنها أناسٌ لا يقدرون قيمة الأماكن وعبقها التاريخي.. قام على أنقاض ممتلكاتنا القديمة سوقٌ جديدٌ يتاجر أبناؤه في الأنتيكات والتحف التي تركناها خلفنا، بخلاف أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم لقب (الفئران)، وصارت مهمتهم نبش بيوت العطارين القديمة المهجورة، واستخلاص كل ما هو ثمين ليعرضوه على مهاويس جمع الأنتيكات على مقهى علبة.

منذ شهور وقعت أسقف البيت على أنطوانيت ابنتي.. كانت تقريبًا مدفونة، ودخل ولاد البلد لإنقاذها، لكنهم سرقوا أنتيكات المكان.. أجد أشيائي في بيت جارتي وعندما ألمح لها تقسم لي أنها اشترتها من السوق.. هم نفس جيران الماضي الجميل حين كنا ندخل بيوت بعضنا البعض ونتبادل السهرات، لكل بيت يوم تكون السهرة عنده، لكنهم اليوم يتجنبونني ليس لأني يونانية الأصل؛ بل لأني مسيحية، ولم أعد أدري هل الزمن هو الذي تغير أم الناس.

* قسطنطين كفافيس أو كونستانتينوس بترو كفافيس (٢٩ أبريل ١٨٦٣ – ٢٩ أبريل ١٩٣٣): هو واحد من أعظم شعراء اليونان المعاصرين، وهو مفكر مصري يوناني غير نمطي، عبَّر في شعره عن التلاقي المشترك لعالمين: اليونان الكلاسيكية، والشرق الأوسط القديم، وتأسيس العالم الهلنستي، والأدب السكندري الذي كان مهادًا خصبًا لكل من الأرثوذكسية والإسلام، والسبل التي تدفع بشعوب المنطقة على اختلاف أساليبها نحو الكمال الإنساني.

على كل حال سنتجول معًا في العطارين لتشاهد بنفسك تغير خريطتها، وتلك المقاهي التي صارت تبيع المخدرات جهارًا نهارًا، تمامًا مثلما تفشت تلك التجارة في حارة اليهود التي صارت باطنية* جديدة لو كنت سمعت عنها.

«وماذا عن دميانة؟»

أطلق (موريس) السؤال الأهم لديه من كل ما سبق، مع أول مساحة صمت من فم السيدة الجعانة للحكي، فامتعضت ملامحها وأجابت:

- لم أعد أعرفها بعد أن باعت المسيح وضلت طريقها.. قد أتسامح مع من لا يؤمنون به، لكنني لا أغفر لمن ذاقوا متعة محبته ثم خرجوا منها.

عبست ملامح (موريس) وغربت ابتسامته، فيما أدار العقيد وجهه بعد أن وصل الحديث لفصل الختام، وأخذ يتجول بعينيه في المكان غير مُصدِّق أنه يقف على أرض مصرية، وإن أخبره حسه الأمني أن ثمة أمرًا جللًا على وشك الحدوث!

* * *

اخترقت أسماع الشاب الوسيم أصوات همهمة تسللت لحلمه غير الواضح، قبل أن تهزه يد معروقةٌ لرجل يقول:

- يا أخ.. يا أخ!

فتح عينيه بصعوبةٍ، وشاهد من خلالهما صورةً باهتةً لرجل أربعيناتي يقف وسط زحام من الوجوه العديدة أخذت تتضح ملامحها رويدًا رويدًا وقد انصبت أنظار أصحابها جميعهم نحوه وهم يتهامسون بأصواتٍ غير واضحة، فيما قال له الرجل:

- ماذا تفعل هنا؟

تذكر الشاب كيف نزل درجات السلم الخشبي ونام إلى جوار الضريح

---

* الباطنية: أشهر مناطق بيع المخدرات في القاهرة في حقبة الثمانينيات والتسعينيات.

وهو في حالة إرهاق شديد، فأجاب:

- كنت أبحث عن مكانٍ أنام فيه، حتى غلبني النعاس.

اقترب منه الرجل أكثر ومدَّ رأسه للأمام قليلا مُصدِّرًا أنفه الذي أخذ يتشمم رائحة الشاب الخلابة، ثم زوى ما بين حاجبيْه وهو يسأل:

- ما نوع العطر الذي تضعه؟

هز الشاب كتفيه قائلا:

- لم أضع أي عطور.

تسللت السماحة لوجه الرجل وهو يُمعن النظر في قسمات وجه الشاب المنحوتة من ضياء البدر في ليلة تمامه وتبسَّم قائلًا:

- لقد جاءتني جموع المصلين بسببك وقالوا لي ثمة رائحة جميلة ليس لها مثيلٌ تنبعث من تحت المسجد يا شيخ، حتى إن بعضهم ظن أن صاحب الضريح قد قام من رقدته!

ثم التفت نحو المصلين وخاطبهم قائلًا:

- والآن وقد علمتم علة الأمر، هيا بنا نصعد لإقامة الصلاة!

قالها وهو يشير بيديه للناس ويدفعهم لفض الجمع والصعود لأعلى، لكنهم بدوا كتماثيل منحوتةٍ في أماكنهم منذ عشرات السنين، وقد حملقوا في ملامح الشاب الساحرة، غير مصدقين أن يكون بشرٌ بهذا الجمال، وتلك الرائحة..

أخذ أحدهم يُسبح ويُحوقل في حضرة الشاب حتى خُيل إليه أطياف من الأنوار البيضاء المجنحة تمرق إلى جواره ثم تختفي في لحظةٍ فتلفت حوله في كل الاتجاهات بحثًا عنها غير مصدق عينيه، وهو يُكبِّر الله بصوتٍ مرتجفٍ، وبالمثل شعر البعض الآخر بمخلوقاتٍ نورانيةٍ حولهم ارتبط حضورها بظهور هذا الشاب الوسيم، فسرت همهمة في الجمع الذي زاد تزاحمه حول الشاب، وبدا للإمام أن الأمور ستفرط من بين يديه فأمسك بيد الشاب وسحبه معه نحو سلم الصعود قائلًا:



- هيا بنا نصعد لنصلي صلاة المغرب وليبقَ هنا من يريد أن يبقى.

شعر الشاب بالارتباك والخجل عندما وجد نفسه مقبلًا على صلاةٍ لا يعرف كيف يُصليها، فقرر الالتزام بالصمت وتقليد الناس فيما يفعلون.

* * *

دخل الشاب الميضة حيث يتوضأ المُصلّون، بعد أن خلع جوربيه وجاكت بذلته وشمر أكمام القميص مثلما فعل الكثيرون، ليشاهد عباد الرحمن الذين يتطهرون استعدادًا للصلاة ما بين من يمسح أذنيه، ومن يغسل قدميه، وأخذ يراقبهم حتى يفعل مثلهم شاعرًا أنه رأى مثل هذا المشهد من قبل لكنه لا يذكر متى وأين، وحين اقترب من أحد الصنابير ليتوضأ فرك عينيه غير مُصدق ما يشاهده..

ماء الوضوء الذي يتساقط من المصلين تصنع كل قطرة منه فور ارتطامها بالأرض صورةً ضوئية أشبه بتلك التي تصدر من أجهزة البروجكتور، وتظهر في تلك الصور ذنوبهم، كاشفة عن أدق أسرار الخطايا التي ارتكبوها في الخفاء ويكاد ألا يعرفها أحدٌ سواهم!

رأى الشاب في إحدى القطرات التي تنزلق من رسغ رجل يمسح مرفقه، صورته مع فتاةٍ غانيةٍ كتلك اللاتي شاهدهن في الملهى الليلي الخاص بـ (ريمون)، ثم أدار وجهه خجلا حين رأى في صورة القطرة التي تليها مشهد جماع بينه وبين الفتاة، لتقع عينه على رجلٍ آخر حليق الذقن، غائر العينين، تظهر صورته في القطرات التي تتساقط منه وهو يمسك مجموعةً من المتفجرات!

تابع الشاب باقي القطرات التي تتابع فيها الخطايا، ليرى الرجل الحليق بصحبة مجموعةٍ من الأشخاص غير الملتحين يحملون صناديق متعددة في إحدى الشقق، ثم يرصونها إلى جوار نافذة تطل على مبنى ضخم..

بعد أن فرغوا من رصِّ الصناديق، وضع الرجل المتفجرات التي في يده فوق أحد الصناديق ووصَّلها بعدادٍ رقمي ثم ضغط أحد الأزرار لتتناقص الأرقام تنازليًا..

في قطرة الماء الأخيرة كانوا يُغادرون العقار، ثم نظر أحدهم ساخرًا إلى ذلك المبنى الضخم الذي كانت شرفة الشقة التي كانوا فيها تطل عليه، ولم يكن هذا المبنى سوى.. المعبد اليهودي!

قطع الشاب وضوءه واستوقف ذلك الرجل وهو يُغادر الميضة مرطبًا لسانه بالدعاء والذكر، أثناء تنزيل أكمام قميصه قائلا بلهجةٍ صارمةٍ وعينين يتطاير منهما الشرر:

- هل تعرف أني لن أصلي؟

نظر له الرجل بدهشةٍ شابها التوتر، فأكمل الشاب وهو يمسك بكتفيه ويجذبه نحوه:

- فهناك مجموعة من الأبرياء مهددون بالقتل والدمار على يديك أنت وجماعتك بعد أن جهزتم لهم كمينًا غنيًا بالمتفجرات.. ألا ترى أن في ذلك واجبًا أقدس من الصلاة؟

اتسعت عينا الرجل في رهبةٍ، ثم دفع الشاب فجأة صائحًا بكل غلظة:

- إليك عني!

ليركض الرجل حافيًا خارج المسجد كمن يفر من الموت، في الوقت الذي عبر فيه رجلٌ عجوزٌ من أمام الشاب معترضًا طريقه، مما حال دون الإمساك بالإرهابي الهارب الذي سلَّم ساقيْه للرياح، فتأمل الشاب ذلك العجوز غاضبًا ليتضح له أنه نفس الكهل الأسمر الذي قابله في المولد أمس، وقبل أن ينبس ببنت شفةٍ منحه الرجل ابتسامةً غامضةً ولحق سريعًا بجموع المصلين الواقفين صفوفًا في حضرة الرب كأنهم بنيانٌ مرصوص.

كظم الشاب الوسيم غيظه وارتدى جوربيْه وغادر المسجد ليرتدي حذاءه في عجالة، ثم ركض سريعًا وهو يرتدي جاكت بذلته متوجهًا نحو المعبد اليهودي وهو يدعو من أعمق أعماقه أن يصل في الوقت المناسب.

* * *

اقترب الشاب مهرولا من المعبد اليهودي ليجدَ النطاق المحيط به وقد تحوَّل إلى ما يُشبه منطقةً عسكريةً محصنةً بالحواجز والمتاريس، بعد

أن تم إغلاق شارع (النبي دانيال) ومنع السيارات من دخوله، وفي كل شبر رجل أمن مدجج بالسلاح وعلى وجهه علامات الاستعداد والتأهب.

تلاحقت أنفاسه بسبب قطع المسافة من المسجد للمعبد في ثوانٍ قليلة أكلت فيها قدماه الأرض وهو يجري بسرعةٍ مذهلةٍ، ثم وقع بصره على ذلك العقار المطل على المعبد، والمتطابق في هيئته مع ما شاهده في ماء الوضوء بالمسجد، وأخذ يبحث بعينيْه عن شرفة الشقة التي تطل على المعبد وبها المتفجرات، حيث لم يتبين حين رآها في أي دور تقع.

الآن عثر عليها وعرف أنها في الدور الثاني..

"علام تنظر؟"

أتاه السؤال من خلفه، لينظر إلى السائل فإذا به ضابط شرطة ينظر له في صرامةٍ متابعًا دون أن ينتظر إجابته على السؤال:

- تحقيق شخصيتك لو سمحت!

ارتبكت ملامح الشاب، وأجاب متلعثمًا:

- ليست معي أوراق تحقيق شخصية، فأنا فاقد للذاكرة لكن دعك من كل ذلك الآن **(وأشار بيده نحو شرفة الدور الثاني وتابع)** ففي هذه الشقة قنبلة ستنفجر في أي لحظةٍ وتأتي على هذا المكان بكل من فيه.

اتسعت عينا الضابط وهو يقبض على يد الشاب متسائلًا:

- من أين جئت بهذه المعلومة؟

"ماذا هناك يا محمود؟"

قالها العقيد (يحيى) وهو يقتربُ منهما وقد شعر بأن هناك أمرًا مريبًا.

"هذا الفتى يزعم أن هناك قنبلة في الدور الثاني ستأتي على المعبد بكل من فيه يا سيدي".

أجابه الضابط بلهجةٍ متوترةٍ، فنظر العقيد بقلبٍ مقبوضٍ نحو الشاب وتأمل ملامحه وهلة تأكد فيها بحسه أنه صادق قبل أن يصيح بصوتٍ زاعق:

- استدعوا خبير المفرقعات فورًا!

فصاح فيه الشاب بتوترٍ مماثل:

- ليس هناك وقت.. سيقع الانفجار في أي لحظة.

صاح العقيد في أفراد خدمة التأمين:

- فليستعد الجميع لإخلاء المعبد وتأمين عملية الإخلاء.

ثم أمسك بيد الشاب وقال للضابط بكلماتٍ سريعةٍ مقتضبة:

- سأصعد لأتبين الأمر، إذا ما أعطيتك إشارة نفذ عملية الإخلاء فورًا.

ثم جذب الشاب من يده مرددًا:

- هيا بنا.

* * *

اقتحم العقيد (يحيى) الشقة بعد أن ضرب الباب بكتفه ضربة أودع فيها كل قوته، وخلفه الشاب الوسيم..

أثار دماء على الأرضية، قادت العقيد للعثور على جثة رجلٍ كهل ملقاةٍ في الحمام..

خبرته الأمنية صنعت في خياله صورةً لذلك الكهل وهو يفتح باب شقته فيباغته الإرهابيون بهجومٍ عنيفٍ حاول أن يُقاوم فيه قبل أن يقتلوه ويسحبون جثته للحمام للسيطرة على الشقة وتنفيذ مخططهم من خلالها..

تلك الصناديق تحوي مادة الـ **TNT** شديدة الانفجار.. الكمية كبيرة جدًّا تكفي لتدمير المعبد وباقي العقارات والمحلات المجاورة.. وتلك

المتفجرات المرتبطة بالشاشة الرقمية وموضوعة على أحد الصناديق حين تنفجر ستفجر معها كل الكمية الهائلة التي تملأ باقي الصناديق لتخرج معها نيران جهنم وتمحو كل شيء في لحظات..

والأرقام التي تتناقص تنازليًا على شاشتها تشير إلى تبقي 31 ثانية فقط، ثم 30 ثم..

هل سيكفي الوقت اللازم لإخلاء المعبد من اليهود الذين جاءوا من مختلف بلاد العالم للاحتفال بعيدهم التوراتي المقدس؟

28، 27،26

«محمود.. أخل المعبد فورًا»

قالها صارخًا في جهازه اللاسلكي، من باب أداء واجبٍ يعرف مسبقًا أنه لن يجدي لمنع الكارثة.

نظر للشاب، وقال مسرعًا:

- هيا نغادر فورًا!
- يمكنك أن تغادر بمفردك للنجاة بحياتك، ودعني هنا أقم بواجبي!
- هل تعرف كيف تبطل مفعول القنبلة؟
- كلا، لكني سأحاول.

حاول العقيد أن يجادل، لكن رقم 18 الذي ظهر على الشاشة نسف أي محاولة نقاش، ليغادر العقيد الشقة مسرعًا، بينما حاول الشاب انتزاع القنبلة من فوق الصندوق دون جدوى..

حمل الصندوق الثقيل المثبتة به القنبلة وترك باقي الصناديق التي ستصبح عديمة الخطورة مع ابتعاد القنبلة عنها، واستعان باسم الله الذي يكفي ترديده لضخ القدرات الهائلة في عروقه، واتجه مسرعًا نحو السطح غير مبال بالأرقام التي تناقصت إلى حدٍّ مخيف..

عندما وصل الشاب إلى السطح كان اليهود يخرجون مهرولين من داخل المعبد دون أن يغادروا ساحته الواسعة، فيما ظهر على شاشة عداد التفجير رقم 4

نظر الشاب للسماء وردد اسم الله ثم دفع الصندوق الثقيل بقوة خارقة جعلته يرتفع لأكثر من مائة متر دفعة واحدة، لكنه لم ينفجر ليسقط سريعًا ويقترب من المعبد، ثم حدث الانفجار..

اندلع جحيم أنار سماء الإسكندرية، واختلط صوته بصرخات الفزع والذعر التي خرجت من الحناجر، وأطلق موجةً تضاغطيةً هزَّت المعبد ليفقد أفراد اليهود وقوات الشرطة توازنهم ويسقط بعضهم أرضًا فيما شبَّك البعض الآخر أصابع كفيه فوق مؤخرة رأسه حاميًا دماغه بين مرفقي ذراعيه المثنيتين المضمومتين، في الوقت الذي هبطت فيه شظايا الصندوق المشتعلة كنيازك وشهب نارية تبحث عن تعيسي الحظ ممن انتخبتهم الأقدار، لتصيب إحداها سيدة مسنة، وتمحو الأخرى سقف إحدى السيارات، فيما تطايرت الحواجز الحديدية الخاصة بالأمن في مشهدٍ لم يشهده تاريخ الشارع منذ بناء تلك المدينة العالمية الآمنة!

وحده الحاخام الذي شخص بصره نحو السماء في الوقت الذي كان الجميع يخفضون فيه رؤوسهم ويتحاشون النظر نحو جحيمٍ مستعر في الأعالي، كنعام يدفن رأسه في الرمل خوفًا من الخطر.

وحين هدأت الأوضاع وصعد العقيد (يحيى) من جديد للعقار وفتش الشقة والسطح، كان الشاب الوسيم قد اختفى تمامًا دون أن يترك خلفه أدنى أثر، وكأنه قد تبخر.

* * *

(15)

اصطبغت ساحة المعبد اليهودي بألوان الإضاءة الصادرة عن سارينة سيارات الشرطة والإسعاف الرابضة في شارع (النبي دانيال)، فيما حمل رجال الإسعاف جثة الكهل العجوز الذي قتله الإرهابيون في شقته، وجثمان السيدة التي أصابتها إحدى الشظايا.

كان ذلك حين وقف رئيس الطائفة اليهودية بملامح جامدة تتداول عليها ألوان الإضاءات المختلفة، قائلا بصرامةٍ وغلظةٍ للعقيد (يحيى):

- هذا ما لن أسمح به يا سيادة العقيد، لو انطبقت السماء على الأرض لن يفتش أحد معبدنا.

أجابه العقيد بصرامةٍ مماثلة:

- يبدو أنك لا تقدر الأمر حق قدره يا سيد إبراهيم، لقد كدتم تُمحون من الوجود بمعبدكم الذي ترفض الآن تفتيشه.. بخلاف أن ذلك القتيل الذي عثرنا عليه في مسرح الأحداث كان يهوديًا.. لا بد أن نعرف أمر هذا الشاب، فحتمًا لديه ما يفيدنا في القضية.

- قلت لك إنه لم يدخل المعبد، ثم إنه غير مُدان ليختبئ.. المُدان الحقيقي حُر طليق الآن وعليكم العثور عليه.

- من السابق لأوانه أن نحكم بعدم إدانته.. لقد رفض أن يبرز تحقيق شخصيته وتحجَّج بحجةٍ تُشبه الأفلام العربي الرديئة، ومن المحتمل أن يكون ضمن الإرهابيين الذين حاولوا تنفيذ المخطط ثم استيقظ ضميره على آخر وقت.

- هذا أيضًا سيناريو خيالي لا يقل رداءة.. فالإرهابيون الذين تستيقظ ضمائرهم في اللحظات الأخيرة لا وجود لهم إلا في المسلسلات الدرامية الهابطة.

"هذه هي نهاية الحياة اليهودية في مصر، التي أثبتت فئة عنصرية من شعبها أن تلك الأرض لا تتسع لكل الأديان كما كانت من ذي قبل، حتى وإن كانوا يحملون ذات الجنسية"

ترددت تلك الكلمات بالإنجليزية على لسان (يفعات شمير)، رئيسة الرابطة الدولية للمصريين اليهود في إسرائيل، والتي كانت من ضمن الحضور في احتفالات المعبد برأس السنة العبرية، وحمل وجهها غضب الدنيا أمام كاميرا شبكة (سكاي نيوز) الإخبارية لتبتر حديث العقيد (يحيى)، وتتوجه إليها الأعين، قبل أن ينتفض رئيس الطائفة اليهودية في الإسكندرية ويُسرع الخطى نحو الكاميرا مقاطعًا كلمات (يفعات) قائلا:

- اسمي إبراهيم منير وأمثل يهود الإسكندرية باعتباري رئيس طائفتهم ها هنا.. في الحقيقة أنا لا أحب التحدث مع وسائل الإعلام، لكني مضطرٌ لتوضيح أن كلمات السيدة يفعات لا تُمثل إلا وجهة نظرها الشخصية، فالفارق شاسع بين من ترك وطنه الأم واختار وطنًا بديلا، ومن صمَّم على البقاء في أرض مصر رغم كل التغيرات الجذرية التي طرأت على خريطة السكان والأديان بعد أن عاش هنا يومًا الآباء والأجداد كأهل بلد حقيقيين، وجزءٍ من نسيجها الوطني، يتمتعون بما يميز شعبها من خفة دم وروح دعابة وكرم ضيافة وحسن معشر، وقبل قيام إسرائيل كان التسامح التلقائي وعلاقات الود تسود الجميع، مسلمين وأقباطًا ويهودًا، يجاملون بعضهم في الأفراح والأتراح، ويهنئون بعضهم في الأعياد والمناسبات، يسهرون على أغاني أم كلثوم ويضحكون على مسرحيات الريحاني، وليسوا مجرد جالية أجنبية أو أقلية عرقية مثلما كان وضع اليهود في باقي الأمم.

"لكن هذا لا ينفي أن ما وقع كان حادثًا إرهابيا بكل المقاييس"

قالها الحاخام (موريس) وهو ينضم للمشهد مرتديًا ملابس الاحتفال، لتلمع على وجهه فلاشات الكاميرات الفوتوغرافية، قبل أن يتابع:

- فاستهداف يهود أو أي بشر مدنيين أبرياء بغض النظر عن ديانتهم لا يمثل سوى فعلٍ خسيسٍ لو أردنا الدقة.. غير أننا علينا أن نتأمل الحدث بنظرةٍ متأنيةٍ لندرك أنه رد فعل على إرهابٍ مماثلٍ يحدث في مكانٍ آخر بوضعٍ معكوسٍ يُعاقب فيه المسلمون المدنيون على ديانتهم أيضًا.

وسرح قليلا ثم تحدَّث وهو يستدعي من الذاكرة أحداثًا مؤسفةً تجري في مدينة (القدس) كل عام بالتزامن مع عيد (روش هاشناه) العبراني..

- قبل هذا العيد بأيام، تنتشر الدعوات الصهيونية لاقتحام المسجد الأقصى بين الإسرائيليين ومنظمات المعبد المزعوم، ومع صباح روش هاشناه، تتدفق أعدادٌ كبيرةٌ من اليهود على الجامع، وتدخله في صحبة كبار المسئولين والوزراء في دولة إسرائيل.

مع تكرار الأمر على مدار أعوام، ارتبط العيد التوراتي بإطلاق النفير العام لدى المسلمين من كل الأعمار، سواء أهل القدس أو أهل الداخل الفلسطيني، للمرابطة بأعدادٍ ضخمةٍ داخل المسجد وحوله في الطرقات والأزقة المؤدية إليه لمواجهة تلك الاقتحامات.

في هذا العام منذ خمسة أشهر قبل عيد رأس السنة العبرية، قامت قوات الأمن الإسرائيلية بمنع عشرات الشباب المنتمين لحركة حراس الأقصى من الوصول للمسجد، وقامت باعتقال عددٍ كبيرٍ جدًا منهم، وأخيرًا قامت بمنع عددٍ من نساء الأقصى المرابطات، تمهيدًا لهذا اليوم وما بعده، بخلاف مصادرة الهويات، واعتبار التكبير تهمة يتم اعتقال من يقوم بها.

صار الوقوف في وجه الاقتحامات الإسرائيلية تهمةً يُمنع القائم بها من دخول الأقصى لثلاثة أشهر.. منعت قوات الاحتلال من هم دون الـ ٥٠ عامًا من دخول المسجد من كلا الجنسين، وفرضت طوقًا مشددًا على أبوابه.

تحول وسط ومركز مدينة القدس إلى ما يُشبه الثكنة العسكرية بعد أن غابت عنها مظاهر الحياة الطبيعية، وتغلبت عليها المظاهر الشرطية.

الكنيست الإسرائيلي أعطى أوامره للشرطة بتسهيل كل الاقتحامات، ومنع كل مظاهر التكبير في الأقصى، وأمر بإغلاق المسجد خلال الأعياد التوراتية.

لكن الشبان المقدسيين لم يستسلموا..

أدوا صلاة الفجر في الشوارع والطرقات القريبة من محيط الأقصى وأطلقوا دعوة النفير العام ولم يبالوا بالاستعدادات العسكرية، فيما دعت بعض الصفحات الإسرائيلية على مواقع التواصل الاجتماعي لمسيراتٍ صهيونيةٍ جماعيةٍ عند جميع أبواب المسجد، ونفذت بالفعل مسيرة حاشدة جابت شوارع القدس وحتى باب الأسباط للمدينة، رفعت خلالها رايات الهيكل المزعوم، وشهد المسجد الأقصى اقتحامات لم يسبق لها مثيل في تاريخه كمًّا ونوعًا، ومنعوا أي مسلم من دخوله، واستمر المنع حتى قبيل صلاة الظهيرة، إلا أن أعدادًا حاشدة وكبيرة تجمَّعت عند أبواب المسجد الأقصى واستطاعوا كسر الحصار حوله وتدفقوا إليه أفواجًا، قبل أن تحدث المذبحة..

عشراتٌ من القتلى المسلمين سقطوا برصاصات الأمن الإسرائيلي، بخلاف اعتقال المئات.. بالطبع سقط مصابون وقتلى إسرائيليون، لكن بعددٍ ضئيلٍ جدًّا أبرزته وسائل الإعلام الإسرائيلية والغربية التي ركزت على صور الدماء والجثث اليهودية فقط، ووصفت المسلمين بالإرهابيين.

"تتعرف بك؟"

قالها المراسل وهو يُقرب الميكروفون من فمه، فأجابه (موريس):

- موريس زكي، حاخام يهودي ذو أصولٍ مصريةٍ، وواحد من أكثر المعارضين لقيام دولة إسرائيل الصهيونية بحكم انتمائي لجماعة ناطوري كارتا*

---

* ناطوري كارتا: عبارة باللغة الآرامية تعني (حُراس المدينة)، وهي جماعة يهودية معارضة لإنشاء دولة إسرائيل الصهيونية.

* * *



في الغرفة المغلقة التي تحوي ألواح التوراة بالمعبد، وقف الشاب الوسيم أمام رئيس الطائفة اليهودية، والحاخام اليهودي الذي حكى حكايته من بدايتها واستكمل:

- بعد سفري الاضطراري إلى إسرائيل، عشت أيامًا كحيلة السواد.. صبي وحيد بلا أهل وسط ألسنة ترطن لغاتٍ مختلفة، وجنسيات متعددة لا يجمعها سوى النقم على أوطانهم الأم التي فروا منها كمن يفرُّ من الجحيم، وتفرقة مؤلمة بين المواطنين ذوي الأصول الشرقية، والأصول الأوربية.

ضابط الموساد الذي كان يتعاون مع أبي في الإسكندرية قرأ عليَّ وصيته، وأخبرني أني سأحصل على ميراثي قريبًا، وسلمني إلى حاخام تعهد برعايتي وأخذ يقرأ على مسامعي عشرات الفتاوى التي زعم أنها مستندةٌ إلى التوراة ووصايا الرب.. كانت الفتاوى تُبيح قتل الأغيار من غير اليهود حتى لو كانوا من غير الأعداء في حال عرَّض تواجدهم شعب إسرائيل للخطر، وتستبيح دم المدنيين الأغيار إذا ما ساعدوا جيش الأشرار العرب، أو حتى قاموا بتشجيعه على الحرب على اليهود وأعربوا عن ارتياحهم إزاء أعماله دون الحاجة لقرار بقتلهم على مستوى الأمة، إذ يكفي بضعة أفراد فحسب، وحلَّل أيضًا قتل الأطفال الأغيار في حال إذا كان واضحًا أنهم سيلحقون الضرر باليهود عند نضوجهم، مؤكدًا أنه يحل قتل هؤلاء الأطفال عمدًا ومباشرة لا من خلال محاربة ذويهم الكبار فحسب، خاصة أولاد زعماء الأغيار لممارسة الضغوط عليهم*.

كان يُحرِّض المصلين أمامي على قتل الفلسطينيين وممارسة عمليات إرهابية ضدهم بتأكيد صلاحية الأفراد العاديين من دولة إسرائيل بسفك دماء العرب أتباع مملكة الشر، خارج إطار قرارات الحكومة أو الجيش.

* هذه الفتاوى حقيقية بالفعل، ويروج لها عدد من الحاخامات في إسرائيل، وقد صدر منذ فترة في إسرائيل كتابٌ أثار ضجة بعنوان (عقيدة الملك) تبيح فتاواه قتل الأغيار استنادًا لتفسيرات العهد القديم ومصادر التشريع اليهودي، للحاخامين يتسحاق شبيرا وزميله الحاخام يوسي إيليتسور.

وبعد هذا كله، يخبرني أن البشرية مرتبطة مع الله بالعهد النوحي*، الذي أقامه مع نوح وذريته بعد الطوفان العظيم كما ورد في سفر التكوين، حيث حرَّم علينا الرب القتل وسفك الدماء!

وجدت نفسي أمام نموذج مختلف تمامًا عن الحاخامات الذين قابلتهم وتربيت في كنفهم في مصر.. بل وجدتني أمام دين غير الدين الذي فهمته من أمي المتدينة.. أعيتني قلة الحيلة وحنيني لوطني الحقيقي ولم تكف الكوابيس الأليمة عن مطاردتي في نومي، لأرى نفسي فيها أقتل الأطفال الأبرياء وأرقص على جثثهم بيدين مخضَّبتين بالدم، لأنهض في كل مرةٍ صارخًا دون أن أجد حضنًا دافئًا يحتويني ويهدئ من روعي.

عزمت على الهرب، وبكيت في صلاتي للرب طالبًا منه النصح والرشاد، حتى أخذتني سنة من النوم رأيت فيها وأنا بين اليقظة والنعاس طريقًا موحشًا يقبض ظلامه القلب، تقف دميانة في نهايته، وما أن تبادلنا النظر حتى أخذ كل منا يركض نحو الآخر بأقصى ما لديه من قوة دون أن تتناقص المسافة بيننا مهما ركضنا، ثم لاحت في الأفق سحابة من نور أخذت تقترب مني رويدًا رويدًا حتى تبينت أنه واحدٌ من السارافيم** ذي الأجنحة الستة، حملني على ظهره وحلَّق بي في سماء القدس المظلمة وأنار الطرقات والشوارع من تحته لأبصر خط سيره إلى أن وصلنا فوق بيت يصدر خيوطًا من الضياء تصل ما بين الأرض والنجوم، فهبط بي السارفايم أمام مدخله وقال لي: من هنا ستعود إلى وطنك مرة أخرى بعد أن تكفر عن ذنبك وتؤدي مهمة الرب التي من أجلها خلقك.. لا تعد قبل أن تأتيك سحابة النور مرة أخرى بالأمر المحسوم.

فركت عينيَّ وقلبي يخفق بشدة على ما آتاني من يقين، وما أن أشرقت الشمس حتى ذهبت إلى حي مئة شعريم في القدس، وتتبعت مسار

* العهد النوحي: 7 نواهٍ إلهية مقدسة، تنهي بني إسرائيل عن الوثنية، والزنا، والقتل، والكفر، والسرقة، وأكل اللحوم التي جاءت من حيوان وهو على قيد الحياة، أي التي تم قطعها من جسده وهو حي، وكذلك مطالبة المحاكم التي تُحاكِم البشر في فرض هذه القوانين.

** السارافيم: طائفة من الملائكة في الديانة اليهودية، ولكلمة السرافيم أصول عبرانية يغلب أن يكون معناها "كائنات مشتعلة" أو ربما كان معناها "شرفاء".



سحابة النور التي رأيتها في الحلم حتى عثرت على نفس البيت الذي شاهدته، وحين طرقت بابه فتح لي رجل طيب أخبرني أنه الحاخام الفلسطيني سلوم شمئويل، واستضافني في منزله وعرَّفني بأبنائه الاثني عشر، وكانت زوجته منتقبة.

كنت أظن أن كل يهودي في فلسطين إسرائيلي بالتبعية، قبل أن ألتقي بهذا الحاخام المتدين الذي انتمى لليهود الأرثوذوكس الحريديم.. أخبرني أن اليهود الفلسطينيين هم نسل اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين التاريخية كجزء من السكان الأصليين قبل بدء الهجرات الصهيونية.. تمركزوا في صفد وطبريا والخليل والقدس، وعاشوا في سلام ومحبة مع جيرانهم المسلمين والمسيحيين.

ومع صدور وعد بلفور وهجرة اليهود إلى فلسطين تباعًا، ازدادت حدة التوتر إلى أعلى مستوياتها بين الطوائف اليهودية المؤيدة للصهيونية، وتلك المعارضة لها في فلسطين حتى تم اغتيال جاكوب دي هان المتحدث الرسمي باسم جماعة إسرائيل أغودات المعارضة لإقامة دولة يهودية، وتم تأسيس جماعة ناطوري كارتا التي ترفض الصهيونية بكل أشكالها وتعارض وجود دولة إسرائيل عام 1935، وكان هذا الحاخام الذي التقيته من أوائل المؤسسين لها بعد أن أيقن تمامًا أن الصهيونية من أخطر المؤامرات الشيطانية على الديانة اليهودية والإنسانية بأكملها، إذ تقوم على مُعاداة الرب ومخالفة تعاليم التوارة، والانسلاخ عن التراث الديني اليهودي.

كان بيته هو البيت الوحيد الذي شعرت فيه أني لم أغادر مصر، لا سيما حين فسَّر لي الرؤيا التي رأيتها وأخبرني أن تأويلها يعني أن الرب يأمرني بالانضمام لتلك الجماعة والدفاع عن تعاليم التوراة الحقيقية ونصرة المظلومين، وألا أعود لوطني حتى تأتيني بشارته في رؤيا أخرى تملي عليَّ ذلك، وما أن استلمت ثروة والدي حتى منحتها بالكامل لذلك الحاخام الطيب وخضت معه هو وجماعته حربًا ضروسًا لنقُل في وجه دولةٍ بُنيت على التعصب: نحن اليهود الحقيقيون هنا أما الباقي فهم العابرون.

ذكَّرناهم بغضب الله على بني إسرائيل الذين عصى أجدادهم أوامره منذ آلاف السنين، وبسبب خطاياهم تم طردهم من أورشليم وهدم هيكلهم، فباتوا ممنوعين من الصعود إلى جبل الهيكل أو حفر الأرض تحته، وبناء على التلمود البابلي فإن أي محاولة لاسترداد أرض إسرائيل بالقوة هي مخالفة للإرادة الإلهية حتى يأتي المسيح يومًا ويُؤسس تلك الدولة على قيم المحبة والخير والسلام والعدل.

جُبنا القدس نعظ في الناس ونوضح لهم حقيقة الأمر، مطالبين بتحرير فلسطين من عربدة الصهاينة حتى يعيش الجميع تحت حكم فلسطيني لا فرق فيه بين مسلم أو مسيحي أو يهودي.

حتى بعد تضييق دولة إسرائيل الخناق على اليهود الفلسطينيين ومنحهم الجنسية الإسرائيلية بالإجبار في الثمانينيات من القرن الماضي، رفضوا أن يتقاضوا شيكلا واحدًا من دولة إسرائيل أو الخدمة في مؤسستها العسكرية.. وحين تلد زوجة أحد أعضاء ناطوري كارتا في المستشفى، يرفض أن يأخذ أي مساعدة من الضمان الصحي الإسرائيلي.

معظمهم لا يتحدث اللغة العبرية، ولغتهم الرسمية هي الإنجليزية.. يُقيمون الحداد في عيد قيام دولة إسرائيل كل عام، ويخرجون في مسيرات حاشدة تدعو الله بزوال ذلك الكيان الصهيوني وتفكيكه، يرفعون علم فلسطين، ويحرقون علم إسرائيل، دون أن تثنيهم عن عقيدتهم حملات الاعتقال، وهجوم المواطنين الصهاينة على بيوتهم واقتحامها، وضربهم بالهراوات الحديدية ونبش قبورهم، وغيرها من صنوف التعذيب والاضطهاد.

ثم اقترب (موريس) من الشاب الوسيم وتأمل ملامحه بإعجاب شديدٍ وكأنه لا يصدق عينيه ثم ارتعشت أطرافه وهو يردف بكلمات يقولها ببطء من فرط الانفعال وكأنه يلقي قولا ثقيلا:

- وحين حدثت اقتحامات المسجد الأقصى منذ شهور، ولاحت في الأفق مذبحةٌ جديدةٌ ستراق فيها الدماء، جاءني الإذن أخيرًا بالعودة إلى وطني بعد كل هذا العمر.. كان ذلك وأنا في نفس الحال بين النوم واليقظة حين رأيت نفس الطريق الموحش



المظلم، وقد وقفت فيه دميانة التي شاخت ملامحها، تلوح لي بالمجيء وكلانا يسير نحو الآخر، لكننا كنا نقترب وتذوب بيننا المسافات هذه المرة، غير أنها سقطت في حفرة عميقة قبل أن نتلاقى، ووقفتُ عاجزًا عن مساعدتها، فإذا بالسارافيم يأتي إليَّ مجددًا، ويقول لي: اهبط مصر ومد يد العون لمن ضلوا الطريق، وقل كلمة الإنصاف هناك مثلما قلتها هنا مرارًا.

ارتجفت هولًا، وقلت كيف أفعل وقد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا؟ فقال لي السارافيم: لا تخف وامض قدمًا، فللرب جنده في كل مكان، وإن كنت في قلب الجحيم.

عندها فقط وافقت على دعوى القدوم للاحتفال بروش هاشناه بعد سلسلة من الدعوات التي تلقيتها على مدار سنين طويلة كان ردي فيها حاسمًا بالاعتذار.. وحين ارتجت السماء وخفض الجميع أعينهم خوفًا من لهيب النيران الذي مرق فوق الرؤوس، رفعت رأسي نحو الجحيم وأنا أتذكر كلمات السارافيم، حتى رأيتك وأنت تقفز قفزتك الهائلة من سطح المنزل إلى سطح المعبد وكأن يد الرب هي التي حملتك.

ثم استدار نحو رئيس الطائفة اليهودية وقال له:

- هل فطنت الآن يا إبراهيم لماذا طلبت منك إخفاء الفتى في أسرع وقت حين قلت لك سأشرح لك لاحقًا؟

نظر رئيس الطائفة اليهودية للشاب بانبهار، ثم قال للحاخام:

- معك حق يا سيدي.. فكل رجال الأمن يفكرون بنفس العقلية في كل مكانٍ بالعالم.. منهجهم القبض على من يصلح أن يكون متهمًا وسد خانة الجاني بأي ثمن بغض النظر عن الحقيقة.. المهم أن تكون هناك إجابة للرأي العام، ومجرمٌ خلف القضبان تنزل صورته في الصحف ووسائل الإعلام.

ثم عاد ينظر إلى الشاب بعينين يملؤهما الإعجاب والتأثر وقال له بامتنان:

- بفضلك سيظل معبدنا شامخًا لتُقام فيه الصلوات والاحتفالات من قلة قليلة ما زالت تتمسك بديانتها وجنسيتها معًا رغم استحالة

الجمع بينهما في هذا الوطن الحزين.. كلمات قصتك التي رويتها تبدو صادقة رغم غرابتها التي تجعلها جديرة بحكايات ألف ليلة وليلة، لا سيما أنها تتفق مع رؤية سيدي الحاخام.. لكن لا بأس.. فكل حكايات الرب في توراته تبدو أقرب للأساطير رغم أنها واقع يفوق الخيال.

بتأثر مماثل رد عليه الحاخام قائلا:

- مهما بلغ خيالك يا إبراهيم، لن تصل إلى ما شاهدته من هذا الفتي وهو يقفز فوق الجحيم.. **(ثم نظر للشاب وأردف)** حتمًا هو أنت ما قصده السارافيم حين قال إن للرب جنده في كل مكان، حتى وإن كنا في قلب الجحيم.

كان الشاب يسمعهما ويحول بينهما النظر وهو يشعر بدقات قلبه تتسارع بشدةٍ وتزلزل كيانه، ليحين دوره في الانبهار أيضًا ويصبح مفعولا به بعد أن لعب دور الفاعل منذ أن فتح عينيه في المقابر، وحين صمت كلاهما وجد نفسه يسأل الحاخام بلسانٍ مرتعش:

- هل لك أن تخبرني ماذا تقصد بالسارافيم؟

- هي ملائكة خُلقت من نار، جمالها يفوق الوصف، لكل منهم ٦ أجنحة، باثنين يغطي وجهه, وباثنين يُغطي رجليه, وباثنين يطير.. يقفون فوق عرش إيل عليون* وعملهم تسبيح اسمه في السماء والإشادة بسجاياه الإلهية المجيدة، وتطهير خُدَّامه المصطفين مثلما طهروا فم النبي إشعياء من النجاسة.

سرت قشعريرة في جسد الشاب حين رددت شفتا الحاخام كلمة (الملائكة) وتخبطت داخله المشاعر..

ثمة حنين داخله لذكريات لا يتذكرها، وأوقات سعيدة ذهبت وبقيت منها رائحة السعادة التي لا يذكر أسبابها، كمن يشتم رائحة جميلة ويريد أن يحتفظ بها لكنه لا يعرف لها اسمًا حتى يخبر به بائع العطور إذا ما أراد تركيبها، فيعيش على ذكرى رائحة لا تبرح روحه وإن اختفى من الواقع شذاها.

---

* إيل عليون: الإله الأعلى في اليهودية.

«حدثني أكثر عن الملائكة»

قالها الشاب بلهجة ظمآن يبحث عن الارتواء، فسأله الحاخام متبسمًا:

- ألا تعرفهم؟

بُهتت ملامح الشاب وغزتها الحيرة والارتباك وهو يجتر ذاكرته الممحية، شاعرًا أن ثمة شفرة على هذا الأمر لا يعرف مفتاح فكها، فأجاب قائلًا:

- أعرف عنهم القليل، لكني أشعر دائمًا أنهم قريبون مني.

تأمل الحاخام ملامحه وسرت داخله رعشة داخلية حين وقر في قلبه شعور أخبره أن لهذا الشاب خصوصية ما تربطه بهم، ثم قال:

- هي مخلوقاتٌ من نار يا ولدي، تنقسم إلى نوعين، قسم لا يطرأ عليه الموت، خلقه الرب في اليوم الثاني من أيام الخلق، وقسم آخر خُلق في اليوم الخامس، يموت بعد أن يمكث زمنًا طويلًا قدَّر له فيه الحياة بأجلٍ محددٍ، ومنهم من يموت في يوم خلقه بعد أن يقرأ التلمود ويُسبِّح التسابيح.

ويخلق الله كل يوم ملكًا جديدًا عند كل كلمة يقولها.. فهؤلاء الملائكة يأتون إلى عالم الوجود بسرعة كما يخرجون منه.. منهم ميخائيل للنار وانضاج الأثمار، وجركيمو للبرد، ومنهم من وظيفته حفظ الأعشابُ التي تنبت في الأرض، وهم واحد وعشرون ألفًا بعدد أنواع الأعشاب، كل واحد منهم يحفظ النوع الذي نيط به.. بعضهم مخصص بالخير، وبعضهم بالشر، وبعضهم لِبَثّ المحبة والصُلح، وبعضهم لحفظ الطيور والأسماك والحيوانات المتوحشة، وبعضهم مختص بصناعة الطب، وبعضهم لمراقبة حركة الشمس والقمر والكواكب، ومنهم المجاورون لعرش الرب وحملته والمسبحون بأقداسه.. وتشتغل الملائكة ليلًا ببث النوم في الإنسان، وتصلي لأجله نهارًا*.

ثم نظر إلى عينيْ الشاب هنيهات سيطر فيها الحزن على قسماته واستطرد:

* هذه المعلومات عن الملائكة جاءت حسب ما ورد في العقيدة اليهودية.

- غير أن الملائكة لم تظهر يومًا لبشر أو تتصل به في الواقع أو الرؤية إلا ومسَّه في حياته بأسٌ وغمٌ عظيمٌ ثمنًا لرسالة مقدسة يتلقاها، وأمانة ثقيلة الحمل عليه أن يُبلِّغها مهما كان حجم الألم والمعاناة.. هكذا كان قدر الأنبياء والصالحين على هذه الأرض التي تنبت أشواكًا تحت أقدام المُكلفين، مثلما حدث مع الكليم.

عقد الشاب حاجبيْه متسائلًا:

- الكليم؟

ارتسمت الدهشة على وجه (موريس) وسأله:

- ألا تعرفه؟

ظل الفتى ينظر إليه بحيرةٍ وعيناه تجيب: "وكأنني سمعت عنه أنباء طواها النسيان".

فقال الحاخام:

- حسنًا.. ربما كان من المفيد أن أقصص عليك خبره.

وبدأ الحاخام يحكي للشاب عن معجزات (موسى) التسع التي أيده الله بها ليثبت نبوته إلى فرعون وبني إسرائيل، وذلك الفارق بين من يؤمن بأسفار موسى الخمسة المكونة للتوراة، وأولئك التلموديين الذين قالوا على الله ما لا يليق في تلمودهم المزعوم الذي لا يؤمن به هو شخصيًا مثل: "يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل"، وأن النهار اثنتا عشرة ساعة.. في الثلاث الأولى يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يَحكُم، وفي الثلاث الثالثة يُطعِم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك، وانه لا شغل لله في الليل غير تعليمه التلمود مع الملائكة، ومع إسموديه ملك الشياطين في مدرسة السماء، بخلاف العنصرية الفجة التي ترى اليهود بشرًا لهم إنسانيتهم، أما الشعوب الأخرى فهم عبارة عن حيوانات، فضلًا عن تقديس الحاخامات، حتى إن الله يستشيرهم على الأرض عندما توجد

ومع كل حرف من هذه القصص كان الشاب ينتفض ويرتجف، وقد اختلطت داخله مشاعر الرهبة من قدرات الله ولحظة كلامه مع البشر، والاستنكار من تجديف وجحود بني إسرائيل تجاه الرب، والمحبة الشديدة لكليم الله العظيم الذي فاقت حكايته الخيال والأساطير، وأتى بما لم يأت به أحدٌ قبله من المعجزات وتأييد السماء، حتى أشفق عليه الحاخام فنظر لأطباق موضوع عليها التفاح المغموس في العسل وثمار الرمان، وأشار إليها قائلا للشاب:

- دعنا نكمل ذلك ونحن نتزود يا ولدي بما يُعيننا على ما هو قادم.. ففي انتظارنا أيامُ عِجاف.

* * *

(16)

وقفت (آيات) بملامح مرتبكةٍ على عتبة مكتب العقيد (يحيى)، وإلى جوارها عسكري أشار له الأخير بالانصراف قبل أن يقول لها:

- تفضلِي بالجلوس يا آنسة آيات.. أم أقول يا مدام؟

ختم سؤاله بنبرةٍ تهكمية، وهو يلتقط سيجارةً دسَّها بين شفتيه وأشعلها بقداحته دون أنْ يبالي بإجابتها وهي تتمتم بصوتٍ خفيض: "آنسة".

وبعد أن أخذ نفسًا ضاقت معه حدقتاه مع شفتيه المضمومتين، أخرج دخانه ببطء وهو يتأمل فريسته التي تنظر للأرض وتهز رجليها بتوتر، بينما خُيل إليه أنه يسمع صوت دقات قلبها المتسارعة قبل أن ينقض عليها:

- باختصار لأني لا أحب الثرثرة.. لا حديث في شارع النبي دانيال سوى عن ذلك الشاب الوسيم الذي ظهر برفقتك حين قدم فقرة السيرك وسحر أعين الناس حتى اعتقدوا أن التراب قد صار ذهبًا.. المواصفات تنطبق تمامًا على نفس الشخص الذي حذَّر من انفجار المعبد اليهودي قبل أن يختفي تمامًا فور وقوع الانفجار.. هل لم يستنتج عقلك بعد أنك صرتِ متورطةً في أمر بالغ الخطورة قد يجعلك تقضين ما بقي من عمرك في السجن؟

توقفت عن النظر للأرض ونظرت نحوه كالممسوسة بملامح يحتلها الهول.. أيقن من انتفاضتها ونظراتها الزائغة أن حصون مراوغتها الهشة قد انهارت فور بدء الاشتباك، فواصل طرق الحديد وهو ساخن:

- تحرياتنا أفادت بأنك خريجة مؤسسة الأحداث، قبل أن تعملي مع المجني عليه ريمون عزيز الذي اتهمك بمحاولة قتله وأبلغ عنك أنتِ وفتاكِ الساحر.

أطفأ سيجارته في منفضة السجائر وهو يردف بلهجة ثعلب يجلد فريسته المحاصرة بنظراته الماكرة قبل افتراسها:

- يؤسفني أن موقفك حرج للغاية.. لا مفر من إلقائك في الحجز.

نجحت كذبته في قلب كيانها حتى تلألأت عيناها بدمعٍ رقراق، وشعرت أنها ضل عنها العون والسند..

غاب الشاب الوسيم القوي الذي ظنت أنه طوق نجاة في بحر الأقدار.. تبدل حال (دميانة) وصارت عديمة الفائدة أكثر من ذي قبل.. وصارت غزالة مغرية في قفص الدنيا الضيق المليء بالأسود الجوعى، ولا مناص للنجاة إلا بالاحتماء بأسدٍ قوي يذود عنها ويمنع افتراس الآخرين، رغم أنه لن يخرجها في النهاية من القفص.. لذا قالت في توسل:

- أقبل يديك قف إلى جانبي.. سأحكي لك كل شيء!

بدأت في الحكي، وأشعل العقيد سيجارة جديدة لم يأخذ منها نفسًا واحدًا وقد نسي الزمان والمكان وتوحَّد مع الأحداث التي لم يستوعبها عقله، وإن شعر قلبه أن بها ضربًا من الصدق، لمسه بنفسه حين التقت عيناه بعيني الشاب عند المعبد اليهودي..

وحين انتهت (آيات) من الكلام، كان العقيد مجرد جسد يجلس أمامها، بينما أوحت عيناه السارحة التي لا تنظر إليها، أن عقله وكيانه باتا في عالمٍ آخر..

عالم من الخيال تحولت فيه كلمات الحكي إلى حركات وأفعال أخبرته غريزته أنها حقيقية، لكنه سقط في فخ: كيف حدث ذلك إن كان صدقًا؟

من أين جاء هذا الفتى؟

لو كان ساحرًا حقًّا، لبحث عن المال واستغل تلك القدرات في أن يكون سيدًا بين حفنةٍ من الجهلة والمفتونين بسحره، ليجني من أغنيائهم المال، ويُضاجع من فقرائهم النساء، ويُحول الصعاليك إلى خدمٍ تحت رجليه، شأن الكثير من السحرة الذين صادفهم في حياته وانتهى بهم الحال خلف القضبان..

ما الذي كان يعنيه بانفجار معبد على رؤوس أصحابه ليخاطر بحياته أمام قنبلةٍ لو انفجرت لانفتحت أبواب الجحيم على مصراعيها إلا لو كان لديه يقينٌ في أمرٍ أغلى عنده من حياته..

عاد إلى وعيه وتركيزه حين مرَّت شعلة السيجارة بين إصبعيه السبابة

والوسطى لتحرقه بعد أن وصلت إلى الرمق الأخير، فوضع فلتر سيجارته العذراء في المطفأة، ثم هبَّ واقفًا بشكلٍ مفاجئ وهو يقول:

- هيا بنا!

ارتدى جراب السلاح فوق قميصه، ثم التقط سلاحه الميري ودسَّه فيه قبل أن يرتدي فوقه جاكت بذلته الذي وضع فيه هاتفه المحمول وعلبة سجائره مستطردًا:

- ستصحبيني إلى غرفة دميانة لنأخذ الأسطوانات المدمجة التي حصلتِ عليها.. أعدك أن أخرجك من المأزق لو وجدت في الأسطوانات ما يدلل على صدق كلامك.

- وماذا عن الشاب؟

أجابها بنبرةٍ غامضة:

- سنعثر عليه حتمًا.. لا أحد يفر من قبضتنا.

وجمت ملامحها، وقد حارت في تفسير كلماته، لكنها سارت معه على كل حال، مستسلمة له كدابةٍ يسحبها صاحبها من لجامٍ حين غادرا مكتبه وتوجَّها إلى سيارته التي استقلها بعد أن جلست إلى جواره وهي تُحاول أن تتخيل ما ستسفر عنه الدقائق المقبلة.

انطلقت السيارة في طريقها لغرفة (دميانة)، و(آيات) تُحلق في سماء من كوابيس اليقظة، تبحث عن بادرة أمل محتملة وخاتمة سعيدة لهذا التسلسل الأسود من عواصف قدر لم تتخيل يومًا أن يخبئ كل هذه المفاجآت.

لم تكترث بتلك المكالمة التي أجراها العقيد مع مساعده الذي كان يُجري تحرياته عند المعبد اليهودي ويُحاول الوصول لهوية الشاب الوسيم.

فقط التقطت أذناها الجملة التي ختم بها مكالمته:"كنت واثقًا أن هناك لعبةً خفيةً في قضية ذلك المدعو ريمون.. ستخبرنا الأسطوانات المدمجة

التي في حوزة الفتاة بالكثير والكثير.. هيا قابلني هناك".

غادرت السيارة بعد أن وصلت أمام العقار، ولمحت بطرف عينيها مساعد العقيد وهو يقترب منه ويصافحه، قبل أن تدخل مدخل العقار..

صعدت إلى السطح فوجدت (دميانة) تجلس على المصطبة وهي لا تزال على تلك الحالة البائسة من اللاموت واللاحياة، منكسة الرأس، محنية الظهر، معلقة بين النوم واليقظة، وبالطبع لم ترد عليها السلام.

فتحت (آيات) باب الغرفة فجحظت عيناها وامتقع وجهها حين وجدت محتويات الحجرة مقلوبة رأسًا على عقبٍ دون أن يبقى فيها شيء على مكانه..

انكبت على الأرض تُفرز المحتويات بعينيْن زائغتين سال منهما الدمع، ويدين أخذت تقلب في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ بلهفة غريق يُحاول التعلق بالماء في لحظات الاحتضار، شأن كل مُبتلي بالفقد وهو يبحث عما فقده للمرة الألف دون جدوى، قبل أن تقتنع -أخيرًا- أن الأسطوانات قد سُرقت بالفعل ولا أثر لها!

فتحت باب الحجرة بصعوبةٍ وهي تُجرجر قدميها للخارج شاعرة أنها تُغادر باب الدنيا..

اقتربت من سور السطح وألقت نظرةً واجمةً على سيارة أول رجل أمن يُبدي استعداده لمساعدتها، حيث يجلس فيها مع مساعده استعدادًا لاستقبالها بكنزها الثمين الذي سيغيظ به رؤساءه بعد أن انقلب موقفهم في القضية بشكل مفاجئ، واشتم منهم رائحة التواطؤ والتورط..

ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تُحاول أن تتخيل رد فعله لتنسال الدموع من عينيها، قبل أن يقطع خيط أحزانها مشهدٌ غريبٌ لسيارةٍ مسرعةٍ اقتربت من سيارة العقيد، وفجأة ألقى أحدهم منها جسمًا غريبًا ما أن اصطدم بالسيارة حتى انفجرت وأحدث انفجارها دويًّا هائلًا جذب الأنظار، ليركض نحوها المارة وأهل المنطقة ويتجمهروا حولها في ثوانٍ، بعد أن صارت منطقتهم بؤرة للإرهاب، ومركز جذب للانفجارات في يومين متتابعين، دون أن يشعر أحدهم بذلك الانفجار الذي يحدث بالأعلى في نفسية فتاة

تهز رأسها يمينًا ويسارًا وهي تتابع الموقف بعينين تبكيان بحرقة، واضعة يدها على فمها لتكتم صرخة هادرة، فيها آخر ما تبقى من إنسانيتها التي تبعثرت مع الانفجار وتحولت إلى أشلاء من اليأس، وشظايا من الانكسار وخيبة الرجاء.

* * *

ارتسم التوتر على ملامح (ريمون) وهو يتلقى تلك المحادثة التي أخبره فيها رجاله أنه تم تفجير سيارة العقيد (يحيى) بنجاح، قبل أن يُنهي المكالمة ويتأمل الرجل ذا العينين الزرقاوين الذي أعطاه ظهره ووقف أمام زجاج الشرفة يمارس هوايته في تنفيث دخانه وهو يتأمل السُحُب غير مبالٍ بتفاصيل المكالمة..

تقدم (ريمون) نحوه وقال بارتباكٍ وهو ينظر إلى ظهره دون أن يرى عينيه المتوهجتين:

- الأمور تسير من سيئ لأسوأ.. فجَّرنا سيارة العقيد بعد أن أخبرتنا مصادرنا أنه عاد يدسُّ أنفه في قضيتنا مجددًا رغم استبعاده، لكنه نجا بمعجزة.. صحيح هو في حالةٍ حرجةٍ ولم يمت مثل مساعده، لكن احتمال عودته سيظلّ قائمًا، بخلاف رجالنا الذين لم يعثروا على الأسطوانات المدمجة بعد أن فتشوا غرفة تلك المرأة العجوز مللي مللي.. لماذا لا نختطف آيات وتتصدى بنفسك لفتاها الذي تزعم أنك الوحيد القادر على هزيمته؟

أخذ الرجل نفسًا طويلا من سيجاره، وصنع من زفيره دوائر من الدخان وهو ينظر إلى الأعالي متجاهلا إجابة ذلك المتحدث التافه، منتبهًا لذلك الخصم الذي فاجأه بلعبةٍ جديدةٍ أربكت حساباته وغيَّرت مسار المباراة..

رغم صمته، كانت عيناه تقول الكثير والكثير..

لم يكن في حسبانه أن يظهر ذلك الحاخام اليهودي، ولا أن يتورط الشاب في حادث المعبد ليبتعد بهذا الشكل عن (آيات) و(دميانة) التي تلبَّسها خصيصًا ليكون بالقرب منه..

ابتسم ساخرًا في وجه السماء وقد شعر أنها رقعة شطرنج تتقاطع فيها النجوم والكواكب بخطوطٍ طوليةٍ وعرضيةٍ، بينما أمسكت يد من نور بجسد (موريس) وحركته للأمام، فردد في نفسه: "حسنًا.. أعترف أنها لعبةٌ مفاجئةٌ وغير متوقعة، لكني أيضًا لاعب محترف.. هاك لعبتي الجديدة إن كنتَ تفضل الاستعانة برجال الدين وأصحاب السلطات الروحية".

قالها وهو يتخيل يديه تمتد إلى داخل إحدى الكنائس لتلتقط أحد النساء من أمام لوحة العشاء الأخير للسيد المسيح، وتضعها في رقعة الشطرنج حيث...

«إحم»

خرج الصوت من (ريمون) وهو يصطنع سعلةً مفتعلةً لجذب الانتباه، فرمقه الرجل بنظرةٍ ناريةٍ وقطب حاجبيه وهو يُجيب بلهجةٍ بدت كلسعة سياط أرعبت السامعين:

- سيحدث ذلك عما قريب.. لا تجعل ما يحدث حولك يُربكك.. فالمفاجآت أمرٌ محتملٌ دائمًا في أي لعبة، لكن الرابح هو من يُحافظ على هدوء أعصابه ولا تثنيه المخاطر والفواجع عما عزم عليه.

ثم عاد ينفث دخانه في وجه السماء وهو يتابع ببرود:

- فقط تابع في صمت، وتعلم أصول اللعب حين تكون المباراة بين الكبار!

* * *

سار الشاب الوسيم في شارع (النبي دانيال) بخطواتٍ متحفزةٍ رغم محاولته المضنية في أن تبدو طبيعية حتى لا يجذب الأنظار إليه لا سيما أنه قام بتغيير هيئته بتلك العباءة البيضاء المزوَّدة بغطاء رأس وضعه على دماغه ليخفي به معظم ملامح وجهه، بعد أن غيَّر بذلته التي لَبَت عليه وصارت جزءًا من تكوينه، ليغادر المعبد اليهودي بمعرفة رئيس الطائفة

اليهودية الذي أمَّن له عملية الخروج..

تحركت حدقتا عينيه يمينًا ويسارًا مع كل خطوةٍ يخطوها، متأهبًا لخطر مجهول من رجال الشرطة، وعقله يسترجع كلمات الحاخام (موريس) الأخيرة..

"وجودك هنا يا ولدي صار يُمثل خطورةً عليك وعلينا.. لقد اتصلت بصديقي القُمص يوسف أرمانيوس وحكيت له كل ما سبق، ورحب باستضافتك في كاتدرائية مارمرقس*.. إنها هنا إلى جوارنا في شارع النبي دانيال، لكن مدخلها الرئيسي ستجده في ١٩ شارع كنيسة الأقباط،

.* كنيسة مارمرقس: هي أول كنيسة مصرية بناها القديس (مرقس) مبشر المسيحية في مصر وأحد تلاميذ السيد المسيح عليه السلام، حيث دخل الإسكندرية عام 61م من بابها الشرقي، وحين جال في شوارعها تهرأ حذاؤه من كثرة السير، فأعطاه لإسكافي يُدعى (أنيانوس) ليصلحه، وأثناء غرز الإسكافي المخرز في الحذاء، نفذ إلى الجهة الأخرى وجرحه، فصرخ (نيانوس) من الألم باليونانية: "إيسثيؤس" أي "يا الله الواحد"، فأمسك القديس (مرقس) ترابًا من الأرض وتفل عليه ثم وضعه على الجرح وشفاه باسم المسيح، وتعجب (أنيانوس) من ذلك فبدأ القديس (مرقس) يبشره بالإله الواحد، فآمن هو وأهل بيته وتعمَّدوا، وفتح (أنيانوس) منزله ليضم فيه المؤمنين، فأصبح أول أسقف رسمه القديس (مرقس) الرسول، والبابا الثاني لكرسي الإسكندرية الرسولي المعروف باسم الكنيسة القبطية، وبُنيت أول كنيسة في إفريقيا، وعرفت باسم كنيسة (بوكاليا)، ومكانها هو مكان الكاتدرائية المرقسية الحالية، وكان هذا المكان يتوسط الإسكندرية القديمة، ثم استشهد (مرقس) الرسول في نفس المكان على يد الوثنيين وهو يحتفل برفع القرابين المقدسة يوم عيد الفصح، وتم دفنه في الكنيسة بعد أن انفصل رأسه عن جسده بسبب التعذيب، لكن جسده تعرَّض للسرقة من بعض البحارة الإيطاليين سنة 827م، وبنوا عليه كنيسة في مدينة (البندقية) الإيطالية، ثم استعادت الكنيسة القبطية رفاته بعد مرور 11 قرنًا على سرقته في عام 1968م تحديدًا وتم وضعه بالكاتدرائية المرقسية في العباسية، داخل مزار أعد له خصيصًا تحت الهيكل الكبير، أما الرأس فما يزال بالكاتدرائية المرقسية بالإسكندرية، التي بُنيت في نفس موضع أول كنيسة مصرية بعد سلسلة من الهدم وإعادة البناء.

وللكنيسة المرقسية مكانةٌ كبيرةٌ في تاريخ الكنيسة العالمي، لأن منها كان بطاركة الإسكندرية الأقباط العلماء الذين واجهوا الهرطقات المختلفة، وأصبحت الكنيسة المرقسية مقرًا لبطريرك الكنيسة لمدة ألف عام، ثم انتقل المقر عدة مرات إلى أن أصبح الآن في العاصمة المصرية القاهرة، في أرض الأنبا (رويس) في الكاتدرائية المرقسية بمنطقة العباسية.

المتفرع من هذا الشارع.. لقد أخبرني أنه لديه اجتماع اليوم*، وسيكون في انتظارك".
تذكر الشاب حين سأله كيف جمعت الصداقة بينك وبين قس مصري رغم أنك لم تأت إلى مصر منذ أن غادرتها، فأجابه الحاخام أنه حضر العديد من مؤتمرات الحوار بين ممثلي الديانات الإبراهيمية الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السلام "ADIC"، لا سيما تلك اللقاءات التي عُقدت في جامعة الـ (سوربون) في دولة (فرنسا) الأشبه بالبوتقة التي تذوب فيها جميع الفوارق العرقية والعنصرية بين مختلف الأجناس..

هناك التقى بالكثير من رجال الأديان الإبراهيمية الذين حملوا جنسياتٍ مختلفةً وجاءوا من أوطانهم بحثًا عن لحظة سلام وتعايش ممكن بين أتباع الأديان الثلاثة، الذين تفوق أعدادهم أكثر من نصف البشرية، من خلال البحث الدقيق في النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية والإسلامية، وعقد جلسات حوار عميقة تبحث عن الوصايا والتعاليم المشتركة بين تلك الأديان التي تعود في النهاية لنبعٍ إلهي واحدٍ سيعود إليه البشر يومًا، ويقفون خاشعين بين يديه.

"الآن تنتقل الرحلة إلى أرضٍ جديدةٍ حتى يقضي الرب كلمته.. سنلتقي مجددًا حين يحين الوقت المناسب.. لا تفقد ثقتك في الخالق مهما حدث".

ترددت كلمات (موريس) الأخيرة في ذهنه حين رأى من بعيد أمين شرطة يتجه نحوه..

أدار وجهه بعيدًا وطوّح بصره ناظرًا إلى اتجاهٍ آخر حتى لا يجذب انتباهه، وفجأة ظهر الشيخ الأسمر العجوز مجددًا بنفس جلبابه ناصع البياض، كعادة ظهوره في الأوقات الغريبة ليمنح الشاب ابتسامةً غامضةً وهو يمرق إلى جانبه، ثم تعثر في خطاه وأمسك بيد الأمين الذي تشتت انتباهه وهو يُساعد الرجل على استعادة توازنه، وحين عاد للنظر إلى حيث موضع الشاب كان الأخير قد اختفى تمامًا.

---

* بخلاف القداديس والأعياد، تعقد الكنائسُ اجتماعاتٍ بشكلٍ دوري مع شعبها، ويُخصص لكل فئةٍ من البشر اجتماع خاص به، مثل اجتماع للفتيان والفتيات، واجتماع للسيدات، واجتماع لشباب الخريجين وهكذا.

مع الداخلين إلى حضرة الرب في هيكله، دخل الشاب الكاتدرائية المرقسية بعد أن أزاح عن رأسه ذلك الغطاء المرتبط بالعباءة التي يرتديها من ناحية القفا، ليبدو في ردائه الجديد الأبيض ملاكًا فعليًا يمشي على قدمين، وليس شابا ذا أصول ملائكية.

ولج الكاتدرائية وهو لا يعرف أنها قد تهدَّمت وأعيد بناؤها أكثر من مرة على مر التاريخ, وفي عام ١٨٧٠م، تم بناؤها على الطراز البيزنطي مع تزيينها بعددٍ كبيرٍ من الأيقونات المسيحية، ثم تم نقل الأعمدة الرخامية الستة التي كانت ترتكز عليها الكنيسة إلى مدخل الهيكل الذي تُقام فيه الصلاة والقُدَّاس، بخلاف الاحتفاظ بالمنارات بعد تعليتها وتزويدها بنقوشٍ قبطيةٍ جميلةٍ وتقويتها.

لمح على يسار الباب الخارجي للكاتدرائية مبنى، لكن أحدًا لم يخبره أنه يعود للقرن الماضي ويحتوي على مقر البابا ووكيله بالإسكندرية، وقاعات الكلية الإكليريكية المختصة بالعلوم المسيحية.

ترجَّل داخل الكاتدرائية متجهًا نحو الهيكل الذي تقف عنده العمدان الستة، وعلى عتبة بابه شعر برهبةٍ تسري في أوصاله دون أن يعرف سرها، ليقف في مكانه لحظاتٍ أرسلَ خلالها حواسه إلى الداخل ليستكشف ذلك الاجتماع الذي يحدث بين رجال الكنيسة وشعبها..

اشتمت أنفه رائحة البخور النفّاذة الذي أشعله أحد القساوسة في الشورية بعد أن ملأها خُدَّام الكنيسة بالجمر، لتملأ رائحة البخور نفوس شعب الكنيسة بالروحانيات، بعد أن اختلطت برائحة الشموع المحترقة..

رأت عيناه عند المدخل (صُندوقيْ عطاء) حمل كل منهما اسم أحد المتنيحين الذي تم تقديم الصندوق باسمه كصدقةٍ جاريةٍ على روحه، حتى يضع المصلون الصدقات في ثقب الصندوق من أعلى وتذهب لصالح الكنيسة..

وعلى أقصى اليمين واليسار كانت هناك مكتبتان تحملان الكُتُب المُقدَّسة، وفي المكتبة اليُمنى تحديدًا مطويات ورقية تحمل اسم (الينابيع الإلهية)، تصدر بشكلٍ دوري عن الكاتدرائية، وتحمل دروسًا ومواعظ وصلواتٍ مكتوبةً، متاحة لمن يريد أن يأخذها..

وإلى جوار كل مكتبة كان هناك سلم حديدي حلزوني يقود لأعلى،

بخلاف منارتين كنسيتين، كل منهما عبارةٌ عن قائمٍ معدني يحمل صينيةً بها رمالٌ غُرست فيها الشموع المشتعلة، بخلاف شموع أخرى جديدة موضوعة في باكت بلاستيكي، تنتظر من يُخرجها ويغرسها في الرمال ويشعلها تقربًا للرب، وترمز كلتا المنارتين إلى العهد القديم قبل ظهور المسيح، والعهد الجديد المرتبط بميلاده وظهور المسيحية على يديه.

داخل الهيكل كانت هناك مصفوفات من المقاعد خشبية المتراصة، يجلس عليها فتيان وفتيات الكنيسة حيث كان الاجتماع مخصصًا هذه المرة للشباب، وإلى جوار تلك المقاعد الخشبية على أقصى اليمين وأقصى اليسار أعمدةٌ رخاميةٌ ملصوقٌ عليها ورق حائط منقوش عليه صلبان، ومعلق على هذه الأعمدة من أعلى شاشات **LCD** تذيع ترانيم مسيحية حلوة الصوت، هادئة اللحن الذي تغلب فيه الآلات الوترية..

أرهف الشاب السمع فتسللت إلى أذنيه ترنيمة (غالي عليك) التي تعمل في الشاشات، ويُشارك شباب الكنيسة الجالسون على المقاعد الخشبية في ترديد كلماتها بأصوات جميلة شجية ليتمايل بعضهم يمينًا ويسارًا وهو يُرنم مندمجًا مع الكلمات ومتأثرًا بها، فيما بكت بالقرب منه عند مدخل الهيكل فتاة كانت تشعل شمعة جديدة عند المنارة اليمنى، وأخذت تتمتم بدعاء سري بينها وبين الرب وهي مغمضة العينين..

وضع الشاب قدمه في الهيكل وبدأ يسير بخطواتٍ وئيدةٍ استكشفت فيها عيناه ذلك العالم الجديد، ليرى سقف الهيكل المقوس ذا الأطر المتعددة التي تقسمه إلى ما يُشبه أقواسًا مفتوحةً ناحية الاتجاه الأسفل، وقد تدلت منها 7 نجفات على استقامة طوليةٍ واحدةٍ كأنها في طابور ينتظر الوصول إلى لوحة (العشاء الأخير) للسيد المسيح وحوارييه المعلقة فوق المذبح في منتصف الهيكل، وأسفلها نافذة زجاجية على هيئة صليب من الزجاج الملون، وأمام النافذة ثلاثة صلبان كبيرة أحدهم على اليمين، والآخر على اليسار، والثالث في المنتصف وترمز للأقانيم الثلاثة الآب، والابن، والروح القدس.

تطلع الشاب إلى لوحة العشاء الأخير للمسيح وتلاميذه، وتعلقت بها عيناه لفترة، ثم تداعت في ذاكرته أصداء أصواتٍ متداخلةٍ بشكلٍ مشوش دون أن يُفسرها بشكلٍ واضح..

صيحات جنود غاضبين.. أصوات السياط الحارقة وهي تُسلّ الجلد وتسيل منه الدماء الساخنة.. طرقٌ وخبطٌ عنيفٌ يخترق اللحم والعظم.. صرخات ألم واستغاثة..

أغمض الشاب عينيه وكرمش ملامح وجهه وقد بلغ التشويش والتداخل بين الأصوات مبلغه، ثم فتح عينيه ببطء ووضع تلك الصورة في ذاكرته الجديدة مع باقي ما شاهده من أيقونات أثرية في تلك الكاتدرائية، أحدها ليسوع، والأخرى لمريم العذراء وكلاهما مطلي بالذهب والفضة، وأيقونات أخرى أثرية للقديسين الشهداء مارمرقس ومارجرجس ومارمينا، بخلاف أيقونتين للأنبا أنطونيوس والأنبا شنودة..

شعر الشاب أن ثمة رابطًا يربطها جميعًا لا يدري كنهه، وكان صادقًا في إحساسه.. حيث انتمت جميعًا للفن القبطي. لكنه في ظل هذا التأمل والتطلع لهذا العالم الجديد، لم يكن يعلم أنه نفسه صار محط أنظار الجالسين حين غزا سحرُ شذاه أنوفهم جميعًا في وقتٍ واحدٍ جالبًا معه مملكة السماء إلى الأرض!

تركيبةٌ روحانيةٌ صنعها القدر في ظرفٍ استثنائي نادر الحدوث، حين اتحد في وقتٍ واحدٍ عطرُ الملائكة الذي لا مثيل له على الأرض، بجمال (يوسف الصديق) غير المتكرر، مع صوتِ ترانيم تُمجِّد اسم الرب، لتهب تحت سقف الهيكل مع دخول الشاب نسمةٌ رقيقةٌ داعبت الوجوه، وتسللت عبر الأنوف إلى الأرواح والأنفس لتحملهم إلى عالم الملكوت وهم لا يزالون جالسين على مقاعدهم.

بعضهم تعرَّض لهزةٍ نفسيةٍ وظل ينتفض فجأة، وأخرى أخذت تنتحب بشدة بعد أن شعرتْ بخطاياها تتجسد أمام المسيح فانهارت خجلًا، ليلاحظ الشاب الوسيم ذلك قبل أن يقع بصره على صاروخ!

هكذا كان أهل البلد يلقبون فتياتهم بالغات الجمال والجاذبية.. وهكذا كانت تستحق أن تُسمى.

لو شاهد الشاب الوسيم (سكارلت جوهانسون) من قبل لظن أن تلك الفتاة التي تُحملق فيه هي توأمها المطابقة لمواصفاتها الشكلية تمامًا بفارق شعرها الأسود ذي الخصلات الحمراء المصبوغة بدم الغزال، والذي كان مُسرَّحًا بطريقة الـ "كيرلي".

انهارت الحصون الدفاعية لفاتنة الكنيسة أمام سحره الطاغي، وأعلنت استسلامها من أول ثانية، وهي التي حصلت على "توب سكور" في مغامرات جمع القلوب المحطمة، وأكبر عددٍ من علامات الإعجاب والتعليقات على صورها في مواقع التواصل الاجتماعي والتدوينات القصيرة، دون أن ينجح سهم كيوبيد يومًا في إصابتها ولو بخدش واحد على مدار جميع جولات لعبة الإغراء التي بدأتها منذ أن خرَّطها خراط البنات بمواصفاتها الصاروخية، حتى إنها تجاهلت كل من حولها، ولم تبال ببريستيجها كـ (فينوس) التي اعتادت النظر للجميع من فوق برج عاجي، حين أشارت إليه مبتسمةً ليجلس في ذلك المقعد الخالي بصف الشباب ويجاور مقعدها بصف الفتيات، وإن فتنت عليها نظراتها وقالت عيناها إنها تتمنى لو خالف العُرف وجلس إلى جانبها على نفس مقعدها لتسأله: ما اسمك؟، وتخبره أن اسمها (كريستين عيَّاد) .

انتهت الترانيم وحان موعد العظة، فجلس الشاب في المكان الذي أشارته له سبابة الفتاة، وقد عاوده عند النظر إلى عينيها ذلك الشعور المؤلم الذي انتابه حين بات في السطح بجوار غرفة (دميانة)، وشعر أن شيئًا ما داخله ليس على ما يرام، لينقذه من تلك الأحاسيس والهواجس بدء عظة القُمص (يوسف أرمانيوس) ذي الملامح الهادئة الرصينة التي تدل على سنوات عمره الخمسينية، وقد ارتدى نظارةً طبيةً ذات إطار أسود تماشى مع لون بشرته الأبيض، وقال بكلماتٍ هادئةٍ عبر الميكروفون:

- بسم الآب والابن والروح القُدس، الإله الواحد آمين.. نشكر الله على هذه الفرصة المباركة التي سمح بها أن نجتمع في بيته لنطهر خطايانا، ونعيد تذكير أنفسنا بنعمه ومجده.

حديثنا اليوم يا أحباء المسيح سيكون عن الملائكة، وكيفية سقوط الشياطين لنتعلم منهم أعظم درس على الإطلاق.. لا أحد في أمانٍ تام من السقوط في ظلمات الجحيم حتى وإن كان ملاكًا!

كلمة ملاك تعني رسولا، وللملائكة أجسادٌ لطيفةٌ من النار أو الهواء.. قدراتهم غير محدودة.. هم أكثر قوة، وسرعة، ونشاطًا من الإنسان.. سواء في معرفة الأشياء، أو الوصول إلى حقائق الأمور.. ملاكٌ واحدٌ قادرٌ على هزيمة جيوشٍ بأكملها.. لا يمرضون، ولا يضعفون، ولا ينامون، ولا يموتون، لأنهم كائناتٌ

روحانية.. ولا يحتاجون إلى زمنٍ كبيرٍ في انتقالاتهم، ولا يتزوجون..

خلقهم الله في اليوم الأول من أيام الخلق، حيث خلق الله النور، لذا قال لنا الكتاب المُقدَّس أكثر من مرةٍ، وفي أكثر من آية إنهم أرواحٌ مقدسةٌ، أو أرواحٌ قاهرة، وهم أيضًا قديسون ونورانيون، طبيعتهم نورانية.. لكن رغم ذلك سقط بعضهم بخطيئة التكبر وأصبحوا شياطين، ومنهم الرئيس لوسيفر زهرة بنت الصبح، الذي ورد ذكره في سفر إشعياء.

أما عن أنواع وفصائل الملائكة يا إخواني، فهم ثلاث طغمات..

الطغمة الأولى تشتمل على ثلاثة أنواع.. السارافيم.. وهم ملائكة يضطرمون بمحبة الله أكثر من بقية الملائكة.. والكاروبيم.. وهم أعلم وأكثر نورًا، ومنهم الكاروبيم المتسلح بسيف لهيب نار على الفردوس، يحفظ شجرة الحياة بعد طرد آدم وحواء.. ومنهم العروش.. وهم الملائكة الذين يكونون للعزة الإلهية بمنزلة منابر وكراسي مجيدة.

وكذلك تشمل الطغمة الثانية ثلاثة أنواع.. القوات.. وهم الذين وهبهم الله قوةً عظيمةً لفعل العجائب.. والسلاطين.. وهم الأرواح الذين يضبطون سلطان الشياطين وجهنم، وقد أقامهم الله –عز اسمه– على الأرض لحفظ نظام العالم، وقد سموا سلاطين لأنهم يُظهرون سلطان الله تعالى وقدرته الضابطة.. والسيادات.. وهم الأرواح الذين لهم سلطانٌ على البشر وعلى الملائكة الذين هم أقل منهم كمالًا.

أما الطغمة الثالثة من الملائكة فتتكون بالمثل من ثلاث فصائل.. الفصيلة الأولى اسمها الرياسات.. وهم الملائكة الذين لهم سلطانٌ خاص على الممالك لحفظها.. أما الفصيلة الثانية فتتكون من رؤساء الملائكة.. وهم الملائكة المرسلون لأعظم الأمور.. ويقول عنهم يوحنا الرائي في سفر الرؤيا: «ورأيت السبعة الملائكة الذين يقفون أمام الله».. أي أن رؤساء الملائكة سبعة وهم: الملاك الأول ميخائيل الذي يعني اسمه (من مثل الله)، وهذه العبارة قالها الملاك ميخائيل حينما حارب

الشيطان حين تكبَّر وأراد أن تكون له قدسية مثل قدسية الرب، ويعد ميخائيل رئيسًا لجميع طغمات الملائكة، وملاك القيامة الذي بشر النسوة حاملات الطيب قائلًا لهن: المسيح قام من الأموات.. والملاك الثاني جبرائيل أو غبريال حسب بعض الترجمات القبطية، ومعنى اسمه: رجل الله، وحمل كثيرًا لبني الإنسان البُشرات الطيبة التي غيَّرت تاريخ الإنسانية، فقد أرسل إلى أورشليم ليحمل البشارة لزكريا في شأن ولادة يوحنا المعمدان وأرسل أيضًا إلى الناصرة ليُبشر العذراء مريم بأنها ستكون أمًا للمسيح.. والملاك الثالث رافائيل الذي كشف عن نفسه في سفر طوبيا قائلًا: «أنا رافائيل الملاك، أحد السبعة الواقفين أمام الرب»، وكلمة رافائيل معناها دواء الله، وبعض الآباء يلقبونه بمُفرِّح القلوب لقوة شفاعته لدى المؤمنين وحرصه على إدخال الفرحة والسعادة لقلوبهم.. وباقي الملائكة الرؤساء السبعة لم يرد ذكرهم في الكتاب المقدس، وانما ذكروا في كتاب التسابيح المسمى بالإبصلمودية وهم سورئيل، وسداكيئيل، وسراثيئيل، وأنانيئيل.. أما الفصيلة الثالثة في الطغمة الثالثة فتتكون من باقي الملائكة الذين يخدمون في شتى الأعمال الأخرى*.

والملائكة يا إخواني تشفع لنا مثلما يشفع القديسون العظام من صالحي البشر، لذا نتوسل إليهم في صلواتنا بالشفاعة حتى يصعدون بصلواتنا إلى الله، ويتشفعون من أجل سلامة العالم، وتوبة الخطاة التي يفرحون بها.. فهم يحبوننا وعلينا بالمثل أن نبادلهم المحبة، بل ونعي أن تقديسهم وتمجيدهم هو في الواقع تمجيد لله نفسه.. إذ يقول الوحي الإلهي على فم داود النبي: «الله يتمجد في قديسيه»، وقال أيضًا: «سبحوا الله في جميع قديسيه»، ومن مظاهر التمجيد والإكرام وضعت الكنيسة – بإرشاد الروح القُدُس– تماجيد خاصة بالملائكة– بأسمائهم– تذكر في التسابيح الكنسية في مناسبات تذكاراتهم وأعيادهم. ولكن بعض الملائكة وعلى رأسهم سطانائيل الذي كان ينتمي لجماعة الكاروبيم، انحرف بفكره إلى الخطأ, وأراد أن يُساوي

*وردت هذه المعلومات عن الملائكة (في العقيدة المسيحية) في تقسيم القديس غريغوريوس في كتابه (مروج الأخيار في تراجم الأبرار)، وموقع الأنبا تكلا وعدد من المواقع المسيحية

نفسه بالخالق، معتقدًا أن مجده ذاتي، وليس مكتسبًا من الله، فدخله المجد الباطل وأراد أن يصير مثل الله، لذا يقول له إشعياء النبي: «أنت قلت في قلبك أصعد إلى السموات. أرفع كرسي فوق كواكب الله, وأجلس على جبل الاجتماع في أقصى الشمال. أصعد فوق مرتفعات السحاب, أصير مثل العلي، لكنك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجُب».

وهكذا سقط الشيطان بعد أن كان رئيس الملائكة وأعظمهم شأنًا، رغم الحكمة الكاملة التي وهبها له الرب.. وفقد مع السقوط قداسته ليتحول إلى وحشٍ روحي أغوى معه بعض الملائكة من الرتب السمائية المختلفة، وجرَّ سقوطه كثيرين من جماعة الكاروبيم، والرؤساء، والقواد، والسلاطين، والأرباب، وسُمِّي منذ هذه اللحظة بسطنائيل، أي المعاند أو المقاوم لله، لأنه لم يرجع عن سقطته، ولم يشعر بخطئه، ولم يطلب التوبة.

زوى الشاب الوسيم ما بين حاجبيْه وسرح في كلمات القُمص التي ضربت شيئًا خفيًا في أعمق أعماقه، فشعر أنه ينفصل عن الجمع المحيط به بعد أن تلاشت صورة الهيكل في عينيه وظن أن الأرض تتبدل بغير الأرض، والسماء بغير السماء، ليبقى فقط من المشهد صوت القُمص الذي استطرد:

- ورغم علو منزلة الملائكة، لم يشفق الله على الذين سقطوا وأخطأوا منهم؛ بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم، وسلمهم محروسين للقضاء بقيودٍ أبديةٍ تحت الظلام، والمقصود بالقضاء هنا هو يوم الدينونة.

ويقول سفر الرؤيا: «حدثت حربٌ في السماء. ميخائيل وملائكته حاربوا التنين. وحارب التنين وملائكته ولم يقووا, فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء. فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله، طُرح إلي الأرض وطُرحت معه ملائكته».

ويقول سفر الرؤيا أيضًا: «ويلٌ لساكني الأرض والبحر، لأن



إبليس نزل إليكم وبه غضب عظيم, عالمًا أن له زمانا قليلا»، وهذا ما حدث بالفعل حين انتحل إبليس هيئة الحية ودخل الجنة وأغوى حواء وآدم وجعلهما يتساويان معه في نفس خطية عدم الطاعة لله، ثم سقط الجنس البشري نتيجة لذلك ودخلت الخطية إلي العالم.

أغمض الشاب عينيْه ليولي جل تركيزه مع حاسة السمع فقط، محاولة أن يستعيض البصر بصور بديلةٍ أخذ ينقب عنها في الذاكرة، دون أن يشعر بالرجل ذي العينين الزرقاوين والبذلة الرمادية وهو يدلف الهيكل، ويجذب شمعةً يُوقدها ثم يغرسها في الرمل وعلى وجهه ملامح يحار في فهمها وتفسيرها أبرع قارئي لغة الجسد وأشهرهم فراسة، في الوقت الذي كان القُمص يقول فيه:

والكتاب المقدس يشهد أن هذا الملاك الساقط قد أغوى الجميع وحاول إسقاطهم بشتى الطرق والأساليب بمقاصده الشريرة وتجاربه المتنوعة اللعينة، حتى إنه تجرَّأ وأقدم على محاولة فتنة السيد المسيح نفسه، وكل هذا يجعلنا نتوخى الحذر في علاقتنا بربنا.. فقد سقطت الملائكة وأبونا آدم.. وكلنا معرضٌ للسقوط مهما كانت درجة الإيمان.

لمعت عينا الشاب بالدموع، بينما ابتسم الرجل زرقاوي العينين ابتسامةً غامضةً وهو يتأمل الهالات المحيطة بأجساد الحاضرين قبل أن تلفت نظره الهالة الحمراء المحيطة بـ (كريستين) حين قال القُمص:

- لكن كيف توقع بنا الشياطين دون أن نشعر؟

يحدث ذلك من خلال كلماتنا، أو الأمور التي نحبها.. فهم يكتشفون الأفكار التي يطرحونها علينا عن طريق الانفعالات والعلامات الظاهرية التي يفعلها الإنسان عندما يتلقى وساوسهم.. فحين يكون الواحد منا صائمًا، يهيئون أمام عينيه مناظر أطعمة شهية ويُراقبون رد فعله وتصرفه.. فإذا ما رأوه يتطلع إلى الساعة منتظرًا ميعاد إفطاره من الصوم الانقطاعي، على الفور يُدركون أنه قد قبل شهوة النهم، وأنها مدخل جيد للتغرير به.. وإذا

ما أثاروا فينا بواعث الحزن أو الغضب أو الشهوة الجنسية، فإنهم يستطيعون أن يدركوا إن كانت لها جذورٌ في القلب أم لا عن طريق حركات الجسد والاضطرابات المنظورة على وجه الإنسان، أو أعضاء جسمه المختلفة، وبهذا يكتشفون بدهاء الأخطاء التي يسقط فيها الإنسان ومدى تقبله لها، لأنهم يعلمون إن لكل إنسان خطيةً معينةً ينجذب إليها على الدوام، وهذا ليس بعجيب.. فالإنسان نفسه يستطيع أن يكشف حال غيره من الإنس ويعرف كيف يشعرون من الداخل من خلال نظراتهم وحركاتهم الخارجية، فما بالنا بمن هم أكثر دهاءً وحذاقةً من البشر؟

لذا راقبوا أنفسكم من الداخل واحرصوا على تهذيب النفس في الخفاء أكثر مما تحرصون على إظهارها بالمظهر المنمق أمام الناس.. فهناك أعينٌ لا تنام تراقبكم وتتسلل إلى أرواحكم من أبواب النفس التي تتركونها مفتوحةً وأنتم لا تشعرون.

ومع كلمات القُمص الأخيرة، اتسعت ابتسامةُ الرجل ذي العينين الزرقاوين وهو يتأمل هالة الشاب التي فقدت الكثير من وهجها وبدا لونها الأخضر باهتًا، ليغادر الرجل الهيكل ويقطف زهرة من أحد الأشجار ويشمها ساحبًا من أنفه نفسًا طويلًا وهو مغمض العينين، قبل أن تتقلب سحنته وهو يلقيها أرضًا ويدهسها بحذائه.

* * *

(17)

مالت الشمسُ إلى المغيب حين تعالت يد (موريس) بالطرق على باب غرفة (دميانة) دون أن يفقد الأمل في رؤيتها مجددًا رغم إجابة الصمت التام على طرقاته وكأنه يقف أمام قبرٍ قديمٍ تعفّن كل من فيه، لكن.. الانتظار في حرم الأحبة فضيلة.

واصل الطرق بلا يأس، وشيء داخله يخبره أن خلف هذا الباب حبٌّ قديمٌ لن يخذله بعد كلِّ هذه السنين، وما أصدق حدس العاشقين حين تستبد بهم المشاعر.

هوى قلب الحاخام بين ضلوعه حين تراجع الباب للخلف مع صوت الصرير المميز لمفصلاته البالية ثم طلّ وجه (دميانة) العابس الذي ذهب عنه ضعف وتخاذل الأمس، وقد حلت محله الصرامة والقسوة التي تطل من عينين متنمرتين قبل أن تقول بصوتٍ خشنٍ:

- ماذا تريد؟

صفعه سؤالها بكل ما فيه من جحود لذكريات الأمس البعيد، وأثارت دهشته تلك النبرة الغريبة ذات الرنة المعدنية التي لم يتخيل أن تسيطر على أحبالها الصوتية يومًا حتى وهي عجوز مُسنّة!

استغرق ثواني أخذ فيها يتطلع إلى ملامحها وهو لا يُصدق نفسه، قبل أن يُجيب بعيونٍ متسعةٍ وقلبٍ يتخبط بفعل زلزال الصدمة:

- أهذا ما جاد به لسانك بعد كل هذه السنين؟ هل نسيتِ موريس يا دميانة؟!

"مُحال أن أفعل.. لا تصدق تلك الكلمات المكذوبة التي ينطقها لسانٌ فقدت السيطرة على لجامه.. خذ بيدي وحررني مما أنا أفيه لأجيبك بكلماتٍ لم تنطقها من قبلُ ألسنة العاشقين".

هكذا صرخت من داخلها بصوتٍ لم يتجاوز شفتيها، بينما نطق لسانها المزيف وشفتاها المُحتلتان:

- بل سأظل أذكر قاتل أبي، خائن العهد الذي تركني في أمسِّ

الحاجة إليه وعاد بكل صفاقة بعد عشرات السنين التي انقطعت فيها أخباره تمامًا، ينتظرني أفتح له ذراعيَّ ليرتمي في حضني.. لم يدرِ كم عانيت حين تركني وحيدةً.. لم يعرف أني سافرتُ القدس وصارت الناس تناديني بالمقدّسة فقط من أجل عينيه لعلني أراه ولو صدفةً وأقنعه بالعودة معي قبل أن أعود بخُفيْ حنين.. فهل رأيت سفالة أكثر من ذلك؟

- لا تجعلي نظرك القاصر هو المعيار الأوحد في تقييم الأمور يا حبيبة الأمس.. أنتِ لم تسمعي حكايتي بعد.. رُب أمورٍ تجهلينها قد تجعلني مجنيًا عليه مثلك تمامًا ويستحق شفقتك

- فلتبحث عن الشفقة في بيوت الرب التي يتضرع فيها المغفلون لإله لا يسمع الأوجاع أو يشعر بها، أما هذا المكان فقد صار وطنًا لا يتسع سوى لقلبٍ محطمٍ كفر بكل شيء.

قالت كلماتها الأخيرة وهي تشير بسبابتها للخارج لتطرده من حياتها للأبد، فجحظت عيناه وارتسم الهول على ملامحه لثوانٍ تمنى فيها أن يكون كل هذا مجرد كابوسٍ لا أساس له في الواقع، لكن الإصرار والشراسة المنحوتين على قسماتِ وجهها كجلمود صخر، حطما آخر ما تبقى لديه من أمل لينسحب بقدمين لا تطاوعانه على المشي، ويُغادر السطح ساحبًا خلفه أذيال الخيبة ولُتات حبه القديم، دون أن يلاحظ في تلك اللحظات النحسات أنه رغم وجه (دميانة) الكامس، اللابدة فيه القسوة بأعتى صورها، ثمة دموع ساخنة نزلت لتُبدي لواعج الأسف، لكن نزولها جاء متأخرًا بعد أن ولّاها ظهره منصرفًا، دون أن تملك روحُها الحبيسةُ داخل جسدها المُحتل أن تفعل شيئًا حيال قصة حبها الوحيدة وهي تكتب فصلها الأخير رغمًا عنها بيد لا سلطان عليها أو إرادة.

* * *

ارتعدت فرائص (آيات) وهي تقتربُ من الكاتدرائية في الساعات الأولى من الصباح، بعد ليلة ليلاء لم تذق فيها طعم النوم خوفًا من طرقاتٍ مفاجئةٍ قد تدوي في أي لحظةٍ على باب حجرتها من قوات الأمن لاستجوابها بشأن ما حدث للعقيد (يحيى)، وإعادة فتح ملفاتها القديمة التي تبذل قصارى جهدها لدفنها في سابع أرضٍ، أو من رجال (ريمون)

الذي حتمًا ما سيعود للانتقام دون أن يكون إلى جوارها ملاكها الحارس، لكن أحدًا لم يأت، لتستنتج أن وزارة الداخلية لم تعرف بتفاصيل لقاء العقيد الأخير بها على الأقل حتى الآن، ولم تربط بينها وبين الشاب الوسيم مثلما ربط هو، وأن (ريمون) ما زال في أزمة تؤجل انتقامه، وهو ما قد يؤجل العاصفة، لكنها آتية على أي حال وعليها تدبير أمرها.

لكن أين ذهب فتاها الذي أرسلته لها الأقدار في لحظةٍ فارقةٍ في حياتها؟ هل افتقدت حمايته وقوته الخارقة التي جعلتها تُغمض عينيها وتنام في سكينةٍ وهدوءٍ لأول مرةٍ في حياتها منذ أكثر من 20 عامًا مضت؟ أم افتقدت ذلك الشعور نفسه الذي غزا قلبها في حضرته وغيَّر نظرتها للحياة والبشر؟

ارتعبت حين تخيلت (ريمون) ورجاله يقتحمون حجرتها ويجذبونها من شعرها ليختطفوها في مكانٍ آمنٍ يُذيقونها فيه كل صنوف التعذيب الوحشي انتقامًا منها على ما تسببت فيه، دون أن تجد من تحتمي به هذه المرة من بطشهم، لكن (دميانة) التي استردت وعيها وصار صوتها أكثر غلظةً وخشونةً بشكل مفاجئ، أخبرتها أن (ريمون) لن يُغامر بالإتيان إلى مكانٍ تعرَّض لهجومٍ إرهابي يومين متتاليين، ومن المحتم أن رجال المباحث والشرطة منتشرون في كل جنباته، ثم فجَّرت أقصى مفاجآتها حين مدَّت يدها بمبلغٍ سخي من المال وطلبت منها أن تأخذه وتدبر به حالها مؤقتًا، ثم تُعيده حين ميسرة!
وحتى تكتمل ليلة المفاجآت، زارها (ألبرت) أمين عام الخدمة باجتماعات الخريجين في الكاتدرائية، وأخبرها أن إخوانها هناك يفتقدونها*، بعد أن ظنت أن الكنيسة قد نسيتها وصارت نسيًا منسيًا.
صحيح أنها كانت غاضبةً منه منذ أن كانت ملتزمةً وتذهب للكنيسة قبل انحرافها، بعد ذلك الموقف السخيف حين تحدث في أحد الاجتماعات عن عذوبة الحياة في السماء يوم الدينونة، وكيف سيتعرف المسيحيون على أفراد عائلاتهم وأصدقائهم والأنبياء والقديسين، وقدَّم براهين كثيرة

*خدمة الافتقاد: هي خدمة كنسية تطوعية، يقوم من خلالها بعض المتطوعين الذين يُطلق عليهم (خُدَّام الكنيسة) بتفقد إخوانهم الغائبين أو المنقطعين عن الكنيسة ويذهبون إليهم في منازلهم للاطمئنان على أحوالهم والأخذ بأيديهم حتى يعودوا للكنيسة مرةً أخرى قبل أن تتدهور حالة الانقطاع عن عبادة الرب لدرجاتٍ أصعب، وخدمة الافتقاد مستوحاة من مقولة للقديس بولس الرسول: "لنرجع ونفتقد إخوتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم".

من الكتاب المقدس، فسألته حينها بحنق: وهل نعرف بعضنا بعضًا على الأرض؟ ليندهش كل الحاضرين من سؤالها، قبل أن تُتابع بقهر: لي ثلاث سنوات أشترك في هذا الاجتماع ولم يسألني أحدٌ عن مشكلاتي التي تذرف بسببها عيناي الدموع وأنا معكم دون أن يشعر بي أحد، أو يهتم بالسؤال، فهل نهتم بالذين سبقونا إلى الفردوس، بينما لا نهتم نحن هنا ببعضنا البعض؟
ثم رحلت ولم تعد من يومها بعد أن تركت (ألبرت) مبلولًا ليشعر بالذنب ويحاول استعادتها من يومها بلا جدوى، بعد أن أدرك مدى فداحة خطئه حين نسي أن الخادم الروحي هو إنجيلٌ متجسدٌ، وكنيسةٌ متحركةٌ، بل صورة الله أمام تلاميذه، ووسيلة إيضاح لكل الفضائل وها هو ذو يأتي إليها في الوقت المناسب ليأخذ بيديها مجددًا إلى الرب، دون أن تتجاهله أو تصده مثلما فعلت من قبل.

دخلت الكاتدرائية غير مصدقة أن قدميها عرفت الطريق مجددًا للمسيح، بعد أن هجرته أعوامًا كانت فيها صورته هو وأمه لا تفارق عينيها، دون أن تجرؤ على الارتماء في حضنه بجسدٍ أثقلته الخطايا والدنس، أو حتى لبس صليبه في عشرات السلاسل الذهبية التي تداولت على صدرها بعد أن فركته الأيادي!

الآن تقترب من الهيكل مع عشرات الوافدين من شعب الكنيسة لكنها ما زالت تشعر بالاغتراب والخوف وكأنها ابنة دين آخر تتسلل إلى القُدَّاس الإلهي* لاستكشافه، ولا تعرف ماذا ستقول إذا ما انكشف أمرها!

* القُدَّاس الإلهي: هو لقاءٌ من نوعٍ خاص مع المسيح من خلال تقديس النفس بالتوبة ثم تناول جسد المسيح الذي يرمز إليه بالخبز، والشرب من دمه الذي يرمز إليه بالنبيذ، من خلال طقس (التناول) الذي يُعد سرًا من أسرار الكنيسة السبعة أو أسرار الملكوت، وهي: (سر المعمودية، سر الميرون، سر تناول جسد الرب ودمه، سر التوبة والاعتراف، سر مسحة المرضى، سر الزيجة، سر الكهنوت)، ويُعد التناول تذكارًا للعشاء الأخير للمسيح مع تلامذته حين قال لهم: «في كل مرةٍ تأكلون من هذا الخبز، وتشربون من هذه الكأس، تبشرون بموتي، وتعترفون بقيامتي، وتذكرونني إلى أن أجيء»، وتحل على نفوس الحاضرين بعد التوبة والتناول القداسات الإلهية، وتتحد أجسادهم بجسد المسيح ويعيشوا معه حياة أبدية حسب إنجيل يوحنا: «من يأكل جسدي ويشرب دمي، فله حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير».



فور أن أصبحت داخل الهيكل عقدت حاجبيْها ثم أخذت من أنفها نفسًا عميقًا عبَّأت به صدرها وهي تتلفت حولها بحثًا عن الشاب الوسيم الذي شمَّت رائحته المتفردة حولها، بينما اشرأب عنقها في محاولة لإرسال النظر إلى كل ركنٍ بعيدٍ قد يكون فتاها واقفًا فيه بينما تتردد الصلوات داخل الهيكل:

- كيرياليسون كيرياليسون* يا رب ارحم.. كيرياليسون كيرياليسون ارحمنا يا الله.. كيرياليسون كيرياليسون اسمعنا وارحمنا.

اختارت (آيات) مكانها في أحد مصفوفات الهيكل الخشبية وقد أشعل يقينها بوجود الشاب ثورتها، لتفتش عن وجهه الملائكي في كل وجهٍ يسقط عليه ناظرها..

مرَّت عيناها أثناء البحث عنه على رجال الكهنوت بتونياتهم البيضاء التي يرتدونها في القُدَّاس الإلهي رمزًا ليوم القيامة الذي ستُبعث فيه الخلائق بأجسادٍ روحانية، متسربلين بثيابٍ بيض كما جاء في سفر الرؤيا، بينما اختلفت باقي الأزياء حسب درجاتهم ورتبهم المتفاوتة، ما بين شماسين وكهنة وأساقفة، ثم واصلت البحث عنه بقلبٍ تسارعت دقاته وهز كيانها بعنف حتى كادت أن تغطي على صوتيْ الدُف والتريانتو اللذين يتم استخدامهما في القُدَّاس الإلهي لتحريك مشاعر المُصلِّين، وتعميق الإيمان في أرواحهم، وجذب عواطفهم نحو الله، بينما لعبت رائحة الشاب في الهيكل دورًا روحانيًّا أعظم من كل الألحان الكنسية والشموع والبخور، وجعلت الحضور يقسمون في قرارة أنفسهم أن هذا القُدَّاس هو أعظم قُدَّاس إلهي حضروه في حياتهم، حتى خُيل إليهم أن المسيح كاد أن يتحرك في لوحة العشاء الأخير!

وعلى مدار ما يقرب من الساعة التي استغرقها قداس الموعوظين الذي يُسمح فيه للجميع بالحضور سواء مسيحيين أو غير مسيحيين، استمعت (آيات) للبولس والكاثوليكول والسنكسار والإبراكسيس والمزمور والإنجيل دون أن تيأس من التنقيب والتفتيش عن الشاب بعينيها، حتى إن دعواتها

---

* كيرياليسون: هي كلمة يونانية تتكون من مقطعين.. (كيري) وهي اختصار لكلمة (كيريوس) أى الرب أو يا رب، وكلمة (ليسون) أى ارحم، أي أن معناها الإجمالي (يا رب ارحم)، وتقال في الصلاة عامة، والصلوات الطقسية خاصة، وفي صلوات القُدَّاس.

ليسوع بعينيها وهي تتأمله في لوحة العشاء الأخير ركزت على أن يجمعها بفتاها من جديدٍ دون أن يفترقا بعدها، حتى غطت هذه الأمنية اللحوحة على دعواتها لنفسها بالتوبة والنجاة من براثن (ريمون) ورجال الشرطة.

وبعد انتهاء العظة تم إخلاء الهيكل من غير المسيحيين الأرثوذكس المُتعمِّدين، تمهيدًا لتناول جسد الرب من الرجال والنساء الذين انفصلوا على جانبيْ الهيكل في النصف الثاني من القُدَّاس المخصص للمؤمنين بالعقيدة المسيحية فقط وأسرارها السبعة. خلا الهيكل من رائحة الشاب المميزة، فغادرت (آيات) المكان كمن ندهتها النداهة قبل أن تقع عيناها عليه بالخارج، لكنه لم يعد وحده، بعد أن تعرف على الجميلة (كريستين) التي ارتسمت على ملامحها الفاتنة أعذب ابتسامة من الممكن أن تبتسمها امرأةٌ لا سيما حين صبغت شعرها باللون الأصفر الذهبي وسلَّمته إلى السيشوار والـ «بيبي ليس» لتصير أكثر جمالًا وسحرًا مع تلك النعومة الحريرية التي جعلت خصلاتها تتطاير مع نسمات الهواء وتتدلى على وجهها الحليبي وعينيها الخضراوين المحفوفتين بمحدد عيون أسود جعلهما مسحوبتين على الطريقة الفرنسية، وقد خرجت مع الشاب من الهيكل بعد أن حضرت في منتصف القُدَّاس ولم يعد مسموحًا لها بالتناول.

تزلزل كيان (آيات) وشعرت أنها تتلقى ألف ألف طلقة من مدفع جرينوف في كل مللي من أنحاء جسدها حين فجعها ما ترى بعيونٍ تمنت لو كانت تكذب عليها، لكن رائحة الشاب ما كانت لتأتي بتلك الروعة من شخصٍ سواه.

شأن كل النساء، لم تبال بباقي التفاصيل أو تتوقف عندها، سواء ذلك الرداء الأبيض الذي يرتديه، وأين وكيف قضى ليلته بعيدًا عنها، وما سر ارتباطه بقنبلة كادت تودي بمعبد بأكمله بكل من فيه، فقط يكفي أنه يقف مع أنثى بدرجة صاروخ، تمنحه كل هذا الدلال بنظراتٍ وُلدت سفاحًا في بيت الرب!

ابتلعت حنقها ومرارة حلقها العلقم، ثم نمَّرت عينيها وهي تسير نحوهما وقد شحذت قواها وكيدها، استعدادًا لمباراةٍ أنثويةٍ ما من معلق رياضي على هذا الكوكب قادر على التعليق عليها.



«أهذا ما تعاهدنا عليه؟ تتركني بهذه السرعة دون حتى أن تدلني على مكانك الجديد؟».

ألقت كلماتها وكأنها تُلقي دلوًا من الماء المثلج على نافوخ (كريستين) دون أن تنزل أي منهما عينيها عن الأخرى لتتبادلا النظرات بطريقة لن تفهمها إلا من تشترك معهما في هرمون الأستروجين الأنثوي، قبل أن يجيبها الشاب الوسيم:

- لم أكن لأحنث بوعدي، لكن بعض الأمور العارضة قد تُدخِلنا أحيانًا في مساراتٍ جانبيةٍ قبل أن نعود بعد زوالها للطريق الرئيسي.

ابتسمت من قلبها وشعرت مع كلماته بجناحين يشقان جسدها ويبرزان خلف ظهرها لتقترب منه أكثر بخطواتٍ بدت كالتحليق ثم هبطت أمام (كريستين) وتمادت في دلالها وهي تهمس بشبقٍ أجادت التعبير عنه كعاهرةٍ قديمة:

- عُد إلى مسارك الرئيسي في أسرع وقتٍ إذن، فقد افتقدتك كثيرًا من مجرد ليلة واحدة مضت كألف عام.

«هل تعرفان بعضكما؟».

قالها (ألبرت) وهو يُغادر الهيكل بعد انتهاء القُدَّاس ليقترب من ثلاثتهم قبل أن تجيبه (كريستين) ساخرةً:

- بكل تأكيد.. سمعتها تتحدث عن الطرق والمسارات فعلمت أنها من هيئة التخطيط والكباري.

أحرقتها (آيات) بنظرةِ ازدراءٍ من قمة رأسها إلى أسفل قدميها، قبل أن يضحك (ألبرت) معلقًا:

- كلا يا كريستين.. إنها آيات، صديقةٌ قديمةٌ طالما أمتعتنا بصوتها الرائع وعزفها البديع على آلة الكمان في فريق الترانيم قبل أن ترحل لظروفٍ عارضةٍ وتحلين محلها.. فصوتها ينافسك في الجمال والروعة.

ردّت (كريستين) نظرة الازدراء لـ (آيات) وقالت بكيدٍ أنثوي مماثلٍ وهي تمد يدها للمصافحة بأطراف أصابعها:

- رائع.. فأنا أعشق المنافسة.

* * *

«رحبوا معي بأختنا آيات التي افتقدناها كثيرًا طوال الفترة الماضية، وقبل أن ندعوها لتشاركنا باقتراحتها وأفكارها لخدمة المسيح وأبنائه، اسمحوا لي أن أعرفها على الوجوه التي انضمت لنا في غيابها».

قالها (ألبرت) أمين عام الخدمة لاجتماعات الخريجين في اجتماعه بمجموعةٍ من الشباب والفتيات في مبنى الخدمات الملحق بالكاتدرائية المرقسية، والذي يجتمع فيه المسيحيون باعتباره نادي وحضانة مع التصريح بإقامة الشعائر الدينية لأبناء الطائفة الأرثوذكسية، ثم أشار للشباب الذين انضموا في غياب (آيات) قائلًا:

- كريستين عياد، تجيد الغناء والعزف على البيانو.. آندرو ميشيل يُجيد العزف على الجيتار.. أمير برسوم، أستاذ في الدرامز.. جميعهم أعضاء فريق (تسابيح) للترانيم، ومعنا أيضًا في الاجتماع مايكل ماجد، ومينا مجدي، وسمير عزيز وماريان رسمي، ومريم فهمي لكن علاقتهم بالغناء كعلاقتي بكوكب بلوتو تمامًا.

ضحك الجميع، ثم أشار (ألبرت) للشاب الوسيم وقال:

- ورغم أن هذا الشاب ليس من شعب الكنيسة، لكن أبونا يوسف أمر بالإحسان إليه وحسن معاملته، وسيعمل خادمًا لحراسة وتنظيف المكان مع عم حنا حارس المبنى حتى يتم البت في أمره، واستأذنني أن يحضر معنا اجتماعاتنا وأخبرته أنه مرحب به، والآن فلنستمع إلى أختنا آيات.

شعرت الأخيرة بالحرج حين صُوِّبت الأنظار عليها وحاولت الإمساك بالأحرف الفارة من على شفتيها حين قالت بكلماتٍ متلجلجةٍ:

- كان شعوري بالاغتراب هنا سببًا ضمن أسباب انقطاعي عن الاجتماع والكنيسة.. وقد أوحى حُسن استقبال أبونا يوسف لهذا الشاب الذي لا نعرف أصله ودينه بفكرةٍ تتعلق بالاغتراب

أيضًا.. فبعضنا يشعر بالغربة داخل الكنيسة لأن من حوله يهتم بكلام عام.. لا يمس مشكلاته وآلامه الشخصية، ولا يسأله عما به وكيف يمكن تقديم العون له.. وبعضُنا يشعر بالغربة في وطنه.. ويعمق هذا الإحساس وقائع اضطهاد وسوء فهم لديننا العظيم.. والإساءة لأتباع يسوع المُخلِّص الفادي.. فهل نكتفي بالتقوقع والنشيج والدموع الصامتة داخل جدران كنائسنا لتظل الفجوةُ تتسع بيننا وبين من لا يفهمون ديننا بشكلٍ سليمٍ تحت دعوى الصبر والتحمل؟

أجابتها (كريستين) بعصبيةٍ:

- وماذا تريدين أن نفعل؟ نذهب لنغني ترانيمنا لهم في المساجد؟

- بل نغني معهم خارج دور العبادة في حفلاتٍ مشتركة بيننا.. نعلمهم كيف يحبوننا بلغة الموسيقى التي تفهمها كل الإنسانية وتتأثر بها.. نُوصِّل لهم تعاليمنا مع الألحان والأوتار التي تخترق القلب والعقل، وتَرسُخ في الوجدان، فتُرسِّخ معها كلمات ترانيمنا.. وبالمثل نسمع لهم ونتفاعل معهم فيخرجوا أجمل ما فيهم بدلًا من شعورهم الحانق بأننا معزولون عنهم، ونقول خلف الجدران ما يسب نبيهم وعقيدتهم وكأننا لا شغل لنا في الكنيسة سوى ذلك، رغم أنه أبعد ما يكون عن حقيقتنا

- إنهم يحرمون الأوتار والمعازف.. يحرمون تهنئتنا في أعيادنا ومناسباتنا، بل يحرمون حتى محبتنا.. وحتى من يبدون اعتدالهم واستنكارهم لتصرفات أقرانهم يفعلون ذلك بشكلٍ عارضٍ سرعان ما ينقلب على عقبيه مع أول خلاف يدب بينهم وبين واحدٍ منا، فيتذكرون حينها أننا كفار، ديننا محرف، خبثاء، ماكرين، حلال فينا أي فعل يشفي غليلهم ويُخرس ألسنتنا لنظل عبيدًا لهم.. دعك من كلامك الحالم واطلبي من المسيح أن يغمرك بمحبته.

- هذا كلام من لا تعرف تعاليم المسيح ووصاياه التي أمرتنا أن نحب أعداءنا ونبارك لاعنينا ونُحسن إلى مُبغضينا ونُصلي لأجل الذين يسيئُون إلينا.

انفجرت دموع (كريستين) وصرخت فيها:

- بل كلامك هو كلام من لم تجرب استشهاد أبيها وأمها في

انفجار ضخمٍ أطاح بهما أمام عينيها في كنيسة القديسين، بعد الانتهاء من قداس كنا نتمنى فيه الخير للجميع.

ثم التقطت جهاز البيانو وقالت بدموعها الساخنة وقد تحوَّلت نبرتها المتهدجة إلى نهنهة:

- اقرئي في التاريخ وتعلمي مما حدث لنا في الأمس القريب.. أحداث الخانكة عام 1972، أحداث الزاوية الحمراء في سبتمبر 1981، أحداث الكشح في ديسمبر 1999، أحداث نجع حمادي في يناير 2010، أحداث العمرانية بنوفمبر 2010، أحداث كنيسة القديسين في سيدي بشر في يناير 2011، أحداث ماسبيرو في أكتوبر 2011، وفي كل لحظة تمضي يظل الخطر محيطًا بنا.

قالت جملتها الأخيرة وقد انفتحت قنواتُ الدمع على مصراعيها ليسود المكان صمت مطبق، والتمعت بعض العيون المتعاطفة بالدموع الحبيسة التي صنع احتباسها على المقالق بريقًا أخاذًا، قبل أن تأخذ (كريستين) نفسًا عميقًا وتقول بلهجةٍ حماسيةٍ شحذت الجميع:

- رنِّموا معي واجعلوا تراتيلنا تصل إلى جيوش الملائكة التي تسبح الله في الأعالي بغير سكوت.

وبدأت أصابعها في مداعبة مفاتيح البيانو الذي أصدر نغمةً حزينةً لترنم ترنيمة «ونبكي ليه»* قائلة:

ونبكي ليه، ما هو إلهنا قال لنا.. باسمه هيكون لينا اضطهاد

ووعده لينا، محدش يمسنا.. إلا لينا، يكون إكليل جهاد

ومن جانبهم تفاعل الحاضرون معها، وأمسك كل منهم بآلته ليواصلوا معها الغناء والعزف، ورغمًا عنها شعرت (آيات) بالتأثر والتعاطف، وتراجعت في حلقها الكلمات، بينما سرح الشاب الوسيم في كلمات (كريستين) والوقائع التي ذكرتها بينما تُعاد أمام عينيه مشهد القنبلة وصناديق المواد شديدة الانفجار التي كادت تأتي على حياة بشر أبرياء عُزَّل من السلاح وهم يُصلون بالمثل في المعبد اليهودي، وذلك الذين كان يتوضأ تمهيدًا للصلاة رغم مشاركته في قتل الرجل العجوز وزرع المتفجرات، ليصعد من أعمق أعماقه سؤالٌ وصل إلى سطح الإدراك وتردد على لسان التفكير بصوتٍ داخلي لم يسمعه سواه:

- ما أمر هؤلاء المسلمين؟!

* * *

*هذه الترنيمة موجودة بالفعل ويمكن سماعها على موقعي يوتيوب وساوند كلاود.



(18)

ظهر أحدُ مشاهير مقدمي البرامج الليلية التي تحظى بنسبة مشاهدة عالية على شاشة التلفاز، وقال عبر برنامجه الشهير في مفتتح الحلقة بلهجةٍ يسودها الحماس الشديد:

- يهودُ مصر.. من الملفات التي يعتبرها الناس للأسف الشديد ملفًا شائكًا، لذا يتفاداه الإعلام المصري ولا يقترب منه إلا بصورة حذرة, رغم ارتباطهم الوثيق بتاريخ بلدنا، ومساهمتهم فيه بشكلٍ أو بآخر، سواء في السياسة، أو الاقتصاد بفروعه المتعددة من زراعة وصناعة وتجارة، أو حتى الفن سواء في المسرح الذي أسَّسه في مصر اليهودي يعقوب صنوع، أو السينما التي لمع فيها نجم العديد من الفنانين اليهود مثل الفنان عمر الشريف الذي كان اسمه ميشيل شلهوب قبل أن يُعلن إسلامه، وليلى مراد التي كان اسمها ليليان زكي موردخاي، ونجوى سالم التي كان اسمها نينات شالوم، بخلاف بعض الشخصيات التي حامت حولها الشبهات في التواطؤ مع إسرائيل مثل الفنانة كاميليا التي كان اسمها ليليان فيكتور كوهين، والخائنة راقية إبراهيم واسمها الحقيقي راشيل ليفي، وغيرهم..

جميعنا في مصر على مدار سنواتٍ طويلة وقعنا في فخ الخلط بين اليهودي والإسرائيلي.. جميعنا عمم كراهيته لليهود بشكلٍ مجحفٍ ونسينا أنهم كانوا يومًا أشقاءنا في الوطن والإنسانية، حتى إن الرئيس محمد نجيب قام بزيارة اليهود القرَّائين خلال عيد كيبور في بداية قيام ثورة يوليو، وهنأهم بعيدهم، وما زالت تهنئته محفوظةً بسجل المعبد اليهودي بالعباسية حتى يومنا هذا، وبعضهم لعب دورًا وطنيًا عظيمًا مثل شحاتة هارون، ويوسف درويش، وهنري كوريال الذي أسهم في مقاومة العدوان الثلاثي على مصر عام 1956..

نعم، البعض أثبت خيانته وولاءه للحركة الصهيونية أكثر من ولائه للأرض التي عاش فيها، مثل أولئك الذين تورطوا على سبيل المثال في عملية لافون عام 1954، لتفجير أهداف مصرية وأمريكية وبريطانية، بهدف إحراج مصر أمام العالم



وإثبات أنها دولة غير آمنة على رعاياها الأجانب، حتى يتم ترهيب اليهود المصريين وإيهامهم بأنهم مضطهدون داخل مصر بهدف ترغيبهم في السفر إلى إسرائيل، وزيادة الكثافة السكانية هناك وانعاش الاقتصاد الإسرائيلي من خلال تحويل المزيد من الودائع والأموال إليه، لكن الأمور وصلت إلى فصل الختام مع حرب 1967 حين تم اعتقال كل الشباب اليهودي الأكبر من 17 سنة في مصر، والقبض على المواطنين اليهود حسب الهوية وليس حسب أدلة الاتهام، وهو ما برره البعض بأنه نفس ما حدث في الحرب العالمية الثانية حين قبضت أمريكا على اليابانيين المقيمين على أرضها حتى وإن كانوا حاصلين على الجنسية الأمريكية وفقًا لنظرية الاحتياط الأمني في حالة الحروب، لكن على أي حال فقدت مصر في النهاية أكثر من 70 ألف يهودي ليصبح عدد اليهود فيها اليوم أقل من 25 يهوديًا، وفقدت أيضًا حالة الحب والاحتضان للجنسيات والأعراق الأخرى بعد أن كانت يومًا حاضنة لأكثر من 13 جنسية مختلفة، وهو ما انعكس وألقى بظلاله مؤخرًا بشكلٍ عملي وتطبيقي على حادث معبد إلياهو حنابي بشارع النبي دانيال في الإسكندرية.

لذا سنفتح اليوم ملف يهود مصر الشائك مع ضيف حلقتنا الحاخام موريس زكي، الإسرائيلي الجنسية ذي الأصول المصرية.. والذي تصلح قصة حياته أن تكون فيلمًا سينمائيًا من الطراز الأول.

تطلع الشاب الوسيم إلى شاشة هاتف (آيات) الذكي ذي مقاس السبع بوصات، والذي يعرض اللقاء المرفوع على موقع **Youtube** وهما يجلسان في ساحة مبنى الخدمات في وقتٍ مالت فيه الشمس للغروب قائلًا:

- كل ما يُقال قصَّه عليَّ هذا الرجل الجليل في تلك الليلة التي لا تُنسى، حين سهرنا معًا حتى الصباح.

مررت (آيات) إصبعها على الشاشة فوق خط الزمن لمقطع الفيديو المذاع، لتتخطى أكثر من 15 دقيقة من زمن الحوار، ثم قالت:

- دعك من كل ذلك، وأخبرني عن رأيك في هذا الكلام!

وضغطت بإصبعها مجددًا على الشاشة فعاد (موريس) للكلام قائلًا:

- كانت أمي تُقاوم في أبي عنصريته المفرطة التي بُنيَت عليها إسرائيل، لذا ربَّتني بعيدًا عنه وهي تُحاول استئصال تلك الجينات، لكن مع عودتي بعد عشرات السنين فوجئت بهذا السرطان وقد تفشى حتى أصبح منهج ونمط حياة في مصر وشعبها بأكمله، ولا يحتاج الأمر لاكتشافه سوى الاختلاط بالمصريين ليوم واحد فقط على أحد المقاهي والاستماع لهم حتى تلاحظ ما لاحظت.. في الدين.. المسلم يكره المسيحي باعتباره كافرًا، والمسيحي يرى المسلم إرهابيًا جاهلًا.. داخل الدين الواحد السلفي يسخر من الصوفي والصوفي يضيق بجهل السلفي، وكلاهما ليس على وفاق مع المنتمي لطائفة الإخوان المسلمين، بخلاف ذلك العلماني الذي يتلقى سيلًا من الشتائم.. في المدارس أبناء المدارس الأجنبية يزدرون أقرانهم من تلاميذ المدارس الحكومية، وآباء الأطفال يأمرونهم بعدم اللعب مع أبناء حارس العقار وبائعي الخضراوات وعمال النظافة لأنهم ليسوا من مستواهم.. في السكن يذهب الأثرياء والمقتدرون إلى تجمعات سكنية خاصة، محاطة بالأسوار والبوابات حتى لا يختلطوا بأبناء الطبقة المتوسطة أو الدُنيا، وترسّخ إعلانات التلفاز هذا الفصل الجتماعي وتُزكيه.. بخلاف نظرة أبناء المدينة الدونية للفلاحين وساكني القرى والنجوع، وتبادل النكات التهكمية بين أبناء المحافظات المختلفة في الصعيد وبورسعيد والمنوفية والشرقية وغيرهم.. وفي الرياضة ينعت مشجعو النادي الأهلي أقرانهم من مشجعي نادي الزمالك بالبوابين، ويصف الزملكاوية أقرانهم الأهلاوية باللماليم.. حتى كلمة "بلدي" التي من المفترض أن تشير للجذور صارت سُبة ووصف لما هو سيئ ودون المستوى في الذوق.. فلا عجب بعد كل هذا أن يرفع أئمة المساجد أكف الضراعة إلى الخالق، ويدعون على اليهود أحفاد القردة والخنازير، أن يشتت الله شملهم ويفرق جمعهم ويرمل نساءهم وييتم أطفالهم، أو تظهرنا الأعمال الفنية دائمًا بالخونة، الجواسيس، شديدي البُخل.

- هل يؤلمك ذلك؟

- بلا شك.. لكنه يؤلمني بصفتي إنسانًا وليس يهوديًا، أن يتفشى الغل والكراهية في القلوب إلى هذا الحد.. ففي إسرائيل عانيت من العنصرية بصفتي مدافعًا عن القضية الفلسطينية، وهنا كدت أموت فقط لكوني يهوديًا مؤمنًا، يعبد الرب نفسه الذي يعبدونه، وكأن حَملة الحق في هذا الزمان لابد وأن يتجرعوا العذاب من كافة الأطراف، لكن على كل حال دعني أوضح لمن يشاهدوننا الآن ما تعلمته من الحوارات المشتركة التي حضرتها مع ممثلي الأديان السماوية الثلاثة بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السلام، لعل ذلك النور الذي تسلل إلى قلبي يتسلل إلى باقي القلوب..

وفقًا للحكيم اليهودي شمعون بن عازي، فإن أهم مبدأ في الكتاب المقدس يوجد على وجه التحديد في آية في سفر التكوين تقول: هذَا كِتَابُ مَوَالِيدِ آدَمَ، يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ. عَلَى شَبَهِ اللهِ عَمِلَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُ، وَبَارَكَهُ وَدَعَا اسْمَهُ آدَمَ يَوْمَ خُلِقَ. وهو ما يتطابق مع الآية القرآنية التي تقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ". وآية أخرى تقول:" يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا".

وفي سفر إشعياء يقول الرب: اُطْلُبُوا الرَّبَّ مَا دَامَ يُوجَدُ. ادْعُوهُ وَهُوَ قَرِيبٌ، وفي القرآن يقول الله: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ".

وفي سفر اللاويين يقول: إِذَا سَلَكْتُمْ فِي فَرَائِضِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا، أُعْطِي مَطَرَكُمْ فِي حِينِهِ، وَتُعْطِي الأَرْضُ غَلَّتَهَا، وَتُعْطِي أَشْجَارُ الْحَقْلِ أَثْمَارَهَا، وَيَلْحَقُ دِرَاسُكُمْ بِالْقِطَافِ، وَيَلْحَقُ الْقِطَافُ بِالزَّرْعِ، فَتَأْكُلُونَ خُبْزَكُمْ لِلشِّبَعِ وَتَسْكُنُونَ فِي أَرْضِكُمْ آمِنِينَ، ونفس المعنى نجده في القرآن حين قال الله: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ

الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ".

كل هذه أمثلة بسيطة لمدى التشابه بين تعاليم التوراة والقرآن.. وانتماء اليهود والمسلمين لنفس الإله.

- لكن سيدي ألا تتفق معي أن إسرائيل هي دولة دينية يهودية، بقدر يجعل تصرفاتها محسوبة على اليهود بشكل عام؟

- لا تقل دولة يهودية، بل هي دولةٌ صهيونية تتخذ من التوراة ستارًا خدعت به الآلاف، وإليك وصايا التوراة التي تناقض كل ما يحدث في إسرائيل منذ نشأتها وحتى اليوم..

ليس المطلوب من أتباع الدين اليهودي احترام حياة الآخرين وكرامتهم وأسرهم وممتلكاتهم فحسب، فالتوراة تذكرنا دائمًا بمسئوليتنا نحو الضعفاء، سواء كانوا فقراء، أو أيتامًا، أو أرامل، أو غرباء، وتطلب منا أن نتنازل عن جزء من حقولنا وحصادنا سواء لفقراء اليهود أو غير اليهود الذين يعيشون بيننا ويفتقرون إلى دعم الأسرة والمجتمع الذي ولدوا به، وهو ما أوصى به سفر اللاويين حين قال: وَعِنْدَمَا تَحْصُدُونَ حَصِيدَ أَرْضِكُمْ لاَ تُكَمِّلْ زَوَايَا حَقْلِكَ فِي الْحَصَادِ. وَلُقَاطَ حَصِيدِكَ لاَ تَلْتَقِطْ وَكَرْمَكَ لاَ تُعَلِّلْهُ، وَنِثَارَ كَرْمِكَ لاَ تَلْتَقِطْ. لِلْمِسْكِينِ وَالْغَرِيبِ تَتْرُكُهُ. أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ؛ بخلاف سفر التثنية الذي قال معنى مشابهًا في قوله: والمحب الغريب ليعطيه طعامًا ولباسًا.

وقد ذكرت واجبات الشعب اليهودي تجاه الغرباء في أسفار موسى الخمسة حوالي 36 مرة، ولا توجد وصيةٌ أخرى في التوراة تحتل هذه المكانة البارزة، ولا يقتصر واجبنا نحو الغرباء على معاملتهم معاملة عادلة فقط، بل أيضًا يتحتم علينا حمايتهم ومحبتهم حسبما ينص سفر اللاويين قائلًا: وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكُمْ فَلاَ تَظْلِمُوهُ كَالْوَطَنِيِّ مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمُ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ، وَتُحِبُّهُ كَنَفْسِكَ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ.

ويعتبر الضريح اليهودي المقدس والمعبد في القدس أماكن مفتوحة تحق زيارتها للبشرية جمعاء، إذ يقول الملك سليمان وقت تدشين المعبد حسب ما جاء في سفر الخروج: وَكَذلِكَ

الأَجْنَبِيُّ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ هُوَ، وَجَاءَ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ مِنْ أَجْلِ اسْمِكَ لأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ وَبِيَدِكَ الْقَوِيَّةِ وَذِرَاعِكَ الْمَمْدُودَةِ، فَمَتَى جَاءَ وَصَلَّى فِي هذَا الْبَيْتِ فَاسْمَعْ أَنْتَ مِنَ السَّمَاءِ مَكَانِ سُكْنَاكَ، وَافْعَلْ حَسَبَ كُلِّ مَا يَدْعُو بِهِ إِلَيْكَ الأَجْنَبِيُّ، لِكَيْ يَعْلَمَ كُلُّ شُعُوبِ الأَرْضِ اسْمَكَ، فَيَخَافُوكَ كَشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ، وَلِكَيْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ دُعِيَ اسْمُكَ عَلَى هذَا الْبَيْتِ الَّذِي بَنَيْتُ.

هكذا كل من آمن بالله بغض النظر عن عقيدته، استحق الرحمة والعدالة.. هذه هي الدعائم الرئيسية للأخلاق اليهودية والأساس الذي يبني عليه بيت الله، فما ذنب اليهودي المؤمن اللاوي* الذي ينفذ تلك التعاليم ليكون له نصيبٌ في الكراهية والدعاء عليه بأقسى أنواع الدعاء؟

- بصفتك يهوديًا له مواصفات خاصة، تجمع بين الأصول المصرية، والجنسية الإسرائيلية، بجانب موقفك الواضح من القضية الفلسطينية.. هل لديك روشتة تُعالج تلك الأزمة التاريخية القديمة ليحل بعدها السلام؟

- الحل موجودٌ منذ قديم الأزل يا سيدي في التوراة، وفي الرؤية السائدة في العصر اليهودي المسيحي، والقائمة على رفض جميع أشكال العنف والعداء بين بني الإنسان، حينها تنطبق علينا نبوءة إشعياء ويسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمن معًا، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان وتربض أولادهما معًا، والأسد كالبقر يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصِّل، ويمد الفطيم يده على جُحر الأفعوان، لا يسوؤون ولا يُفسدون في كل جبل قدسي، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تُغطي المياه البحار.

وما جاء في نبوءة سفر إشعياء يتفق في الكثير منه مع النبوءة الإسلامية المتعلقة بآخر الزمان لا سيما في الجزء القائل: "ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتًا في رأس

* اللاوي: كلمة يهودية تعني المؤمن المُوحِّد بالله.

الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم، وتسير شعوبٌ كثيرةٌ ويقولون: هلم نصعد إلى جبل الرب.. إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه نسلك في سبله. لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين، فيطبعون سيوفهم سككًا، ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفًا، ولا يتعلمون الحرب في ما بعد".

وضعت (آيات) سبابتها على شاشة الهاتف لتوقف الحلقة عند هذا الحد ثم ابتسمت ابتسامةً ساحرةً وهي تقول للشاب بمرح:

- لقد وقعت في حب هذا الرجل.

ثم تابعت بجديةٍ لم تخلُ من الإعجاب:

- لم أتخيل يومًا أن يشعر يهودي بواقعنا ويفنده بهذه الدقة، حتى أني تعلمت منه في دقائق ما لم أتعلمه عمرًا بأكلمه في ذلك البلد التائه أهله.. لا أدري أي حماقة تلك التي دفعت دميانة لقطع صلتها به والتنبيه على طرده لو عاود المجيء مرةً أخرى.. وحين حاولت معرفة طبيعة العلاقة التي جمعتهما يومًا رفضت بشدة وكأنها قد التبسها ألف عفريت.. لكن هذا لا ينفي أنه من طراز نادر بحق.. مؤكد أن بابا الفاتيكان قد جلس مع حاخامات بتلك العقلية حين أعلن رسميًا تبرئة اليهود من دم المسيح.

احتواها الشاب في بحر عينيه الذهبي العميق وهو يسأل:

- وماذا كان رأيك في اليهود قبل أن تستمعي إليه؟

- بصراحة؟ كنت واقعةً في نفس الفخ الذي أشار إليه، وكان قلبي يكره كل ما هو يهودي.. إن الإيمان بالتوراة وتلك الأسفار التي أشار إليها يُعد جزءًا لا يتجزأ من عقيدتنا المسيحية التي تُسمي كتبهم بالعهد القديم، لكني لم أتعمق فيها يومًا أو أقرأها على هذا النحو، لذا لم أهدم ذلك الحاجز النفسي بيني وبين اليهود رغم أصولي اليهودية كما أخبرتك من ذي قبل، لكني صرتُ على استعدادٍ لصداقتهم لو كانوا بهذه العقلية.

- ربما كانت صديقتنا كريستين ومن هم على شاكلتها في حاجةٍ لشخصٍ مُسلمٍ يتحدث بنفس ثقة هذا الحاخام في دينه ويركز في حديثه عما هو مشتركٌ ومتشابهٌ بين الإسلام والمسيحية حتى تتخلص من عقدتها مثلك.. أم أن لكِ رأيًا آخر؟

انطفأت البهجةُ في ملامحها وغرب المرحُ عن عينيْها حين ظللهما حاجباها المعقودان وهي تُجيبه بغضبٍ وتحفز:

- نعم لي رأي آخر، يقول إن اهتمامك قد زاد عن حده بتلك الفتاة الأشبه بعروسة المولد الملطخ وجهها بألوانٍ تليق بمهرج.

ثم غمرته بأنفاسها وهي تقتربُ منه أكثر قائلةً بدلالٍ ورقة:

- لن يتسع وقتك للوقوف إلى جوار كل الناس والاهتمام بمشكلاتهم.. فأتمم مهمتك حيال من كان وعدك الأول لها!

حاول التراجع بكياسةٍ، لكنه شعر بأطرافه تعصى أوامره وقد وقف متسمرًا في نطاق جاذبيتها لا يقوى على الانسحاب، فلاحظت ذلك وعادت لعينيْها بسمتها وقد دنا الأمل لأول مرةٍ في ذوبان ذلك الجبل الجليدي الشامخ بينهما بلهيب جاذبيتها وهيامها به، قبل أن تقول:

- يا إلهي.. كدت أنسى ما جئتك مخصوصًا بشأنه.

أطلَّ من عينيه التساؤلُ دون أن ينبسَ ببنت شفة وقد شعر أن الصمت في حضرة تلك اللحظات شيء يُثاب عليه، فيما فتحت حقيبتها وأخرجت منها هاتفًا محمولًا ذكيًا صوَّبت كاميرته على وجهه الأخَّاذ والتقطت له صورةً وهي تبتسمُ ابتسامةً كشفت عن أسنانها اللؤلؤية من فرط سعادتها بما تفعل، لتتسعَ ابتسامتها وهي تشاهد أول صورةٍ فوتوغرافية له على شاشة الهاتف، قبل أن تضعه في يده وهي تشير نحو صورته قائلة:

- انظر كم يبدو وجهك جميلًا حين تكون الصورةُ برؤية فنانةٍ مثلي، مبروك عليك هاتفك الجديد.

- هاتفي؟

- نعم.. أنسيت أنني ما زلت مهددةً من ريمون ورجاله، وصار

مبيتك معنا في السطح فيه خطورة عليك.. هب أني تعرضتُ للخطر في أي لحظة، فكيف أستغيث بك وقتها؟

- من أين جئتِ بثمنه؟

- لن تصدق، لقد أعطتني دميانة مبلغًا من المال وقالت إنها غير متعجلةٍ في استرداده.. يبدو أن مائة يهودي سيموتون كما يقول المثل حين يُسلفنا شخصٌ بخيلٌ.. إحم، لا مؤاخذة يا عم موريس.

قلَّب الهاتفَ في يديه وهو يتأمل مفاتيحه وشاشته بحيرةٍ شديدةٍ قائلًا:

- لكني لا أعرفُ كيف أتعامل مع هذا الشيء.

- سأعلمك كل كبيرةٍ وصغيرةٍ فيه.. لقد اشتركت لك أيضًا في باقة الإنترنت لنتواصلَ عبر "فيس بوك" و"واتس أب" و"فايبر".

- ماذا؟

- يا إلهي.. ما تخيلت أن يجهل أحدٌ بهذه التطبيقات حتى وإن كان فاقدًا للذاكرة.. على كل حال لا تحمل همًّا، لكن لا بد وأنْ يكون لك اسمٌ في هذا العالم الافتراضي، ما رأيك في نور؟

- نور؟

- لقد أضأت حياتي ودنياي منذ أول لحظة التقيتك.. ما كنتُ لأتخيل أن يسميك أي مخلوقٍ عاقلٍ باسمٍ آخر سوى هذا الذي خُلق خصيصًا من أجلك وحدك يا نور حياتي.

انتفض قلبه مع تلك الطريقة التي نطقت بها جملتها الاخيرة وهي تفتنه بغواية سحر عينيها، فردَّ عليها بصمت نظراته الأبلغ من أي كلام، قبل أن تخونه شفتاه بابتسامةٍ عاريةٍ ائتمنها ألا تُفصح عنها حتى يكسوها بوقاره فخرجت مثيرةً للإغواء بشكلٍ شعرت معه (آيات) أن قلبها يكاد أن ينفجر من دقاته الصاخبة، قبل أنْ تشير إلى تطبيقٍ تسجيل الصوت في الهاتف وتقول بسعادةٍ مفرطةٍ وهي تغوص أكثر وأكثر في نهره العذب الأجمل من العسل المُصفَّى:

- لقد حرصت أيضًا على شراء كارت ذاكرة بسعة تخزينيةٍ كبيرةٍ حتى يكفي لتسجيل كل ما يجول بخاطرك من أفكار، ملاحظات، هواجس، أو حتى مشاعر.

قالت كلمتها الأخيرة وهي تمنحه أجمل ابتساماتها ثم تابعت:

- أنا أيضًا سأفعل المثل على هاتفي، ثم نتبادل الملفات الصوتية، لعل من بين الكلمات المسموعة نجد كلامًا جديدًا محذوفًا من النص، لكن الصمت والسُكات يبوحان به.

ثم أخرجت أوراقًا وقلمًا ولوَّحت بهما وهي تردف:

- لكن هذا لا يمنع أني أحب البوحَ بالكتابة أكثر، فقد كانت هي سلواي الوحيدة حين عشت عُمرًا بمفردي بلا صديقٍ حقيقي سوى الورقة والقلم، كلما حاولت الهروبَ بهما إلى عالمٍ جديدٍ من نسج الخيال، ابتلَّت الكراريس والكشاكيل بدموعي البائسة حين أكتشف -في كل مرة- أني لا أجيد سوى التعاسةِ حتى في الخيال.. وقد حان الوقتُ لأضيفَ إلى الكتاب المُقدَّس سِفرًا جديدًا يمليه عليَّ الإله الذي استجاب أخيرًا لدعواتي المتأخرة بعد سنواتٍ ظلت فيها عالقةً بين السماء والأرض، ومنحني أقصى مما كنتُ أحلم به.

* * *

(19)

تسجيلات الشاب الوسيم

في كل دقيقةٍ تمضي، أتعلم الكثير من هؤلاء المسيحيين الطيبين..

لم يجمعني اللقاءُ بعدُ بشخصٍ مسلم لأسأله لماذا يعتبرونهم كفارًا، وعلى أي أساس يَسْتَحِل البعض دماءهُم، لكن بغض النظر عن ذلك فإن ما أمر به معهم أمرًا رائعًا بحق.. ولا يُكدِّر صفوه سوى تلك اللحظات الأليمة التي تُذكِّرنا فيها (كريستين) بطعم الظلم والاضطهاد، فتغتال البسمة على الوجوه، وتُسمِّم شعورًا بالسكينة تتسلل إلى أرواحنا مع نغمات الترانيم التي تُغنيها (آيات) عن أمجاد المسيح، وعظمة تعاليمه، بعد أن تجلب الأولى من ذاكرتها المشحونة ترانيم عن أرواح الضحايا المجني عليهم وكيف لم يأت أحدٌ بحقهم حتى الآن..

هذه تُرنِّم فتقول: "حُبك، شيء احترنا فيه.. زي الهوا، دايمًا بنلاقيه.. شمس تدفي ليل البردانين.. نور ينوَّر عتمة الحياة"، فتتمايل معها الأجساد، وتتجلي أصوات المحبة لتصل إلى أعالي السماء.

وهذه تُرنِّم: "هو إحنا عشان ساكتين.. فكَّرتونا خايفين.. لأ ده إحنا ما بنخافشي.. قدام الموت ثابتين.. نقدر نمسك سلاح ونعمل زيكم.. ونملاكم جراح ونسيَّح دمكم.. لكن مش هي ديّا.. تعاليم المسيحية.. ويسوع سايب وصية.. إن إحنا نحبكم.. بنصلي لكم تعيشوا.. بمحبة زينا.. وتدوقوا من حلاوة.. وطيبة ربنا.. ما يهمش إحنا مين.. ما يهمش إنتوا مين.. وكفاية إن إحنا وانتم.. بشر وبني آدمين.. وضروري تخلوا بالكم.. صحيح إحنا سكتنا لكُم.. لكن لينا رب عظيم.. بيحارب عننا"، فتلمع الأعين، وتتحفز النظراتُ، وتتسلل إلي الوجوه ملامح يصعب الحُكم عليها إن كان ما يعتريها هو الغضب، أم الحزن، أم القهر.

وعلى روعةِ الصوتين لتلكما الجميلتين، والآلات المحايدة التي تعزف الألحان المطلوبة منها بلا أدنى تحيز لما تحمله الكلماتُ من معانٍ، يتوه الوجدان بين الصفاء والكدر، المسالمة والتحفز، الراحة والألم، الابتسام والدمع، ولكل شعورٍ مريدوه المستعدون لاستقباله وإزكائه.

....

انتصرت (آيات) في وجهة نظرها.. وانضم لها معظم الفريق الذي بدأ رحلة البحث عن مُؤلفين ومُنشدين مسلمين تمهيدًا لعمل حفلاتٍ باسم المحبة والجوانب المشتركة بين الإسلام والمسيحية..

جلسةٌ شخصيةٌ بين القُمص (يوسف أرمانيوس) و(كريستين) انتهت بتوبيخ الأخيرة على إصرارها على إقحام الإسلام والمسلمين في أحاديثها، والتأكيد على أن تكرار ذلك بشكلٍ مبالغ فيه في كل شاردة وواردة "عيب، وما يصحش، وغير مسموح بيه هنا.. **مَفهوم واللا مش مفهوم؟**" لتغادر (كريستين) المكان باكيةً، وتترك خلفها مادةً ثرية للنميمة والحَكي، لا سيما على ألسنة الشامتات فيها جرَّاء غيرة دفينةٍ من جمالها الذي يعمي العيون عمن سواها في أي مكان تذهب إليه، وفي اليوم التالي، تم توزيع كتيب بعنوان: "القرآن والمسيحية" كُتِب على غِلافه أنه تأليف قداسة البابا شنودة الثالث، وما زلت لا أعرف هل للقُمص علاقة بتوزيع هذا الكتاب أم لا، فهو رجلٌ مهيبٌ لا يستطيع الكثيرون النظر في عينيه، وأكثر ما يُميِّزه عن غيره من رجال الكنيسة هو الغموض وكثرة الاختلاء بنفسه، وعصاه التي يتوكأ عليها كصديقٍ وحيدٍ أفضل من البشر، وإن كان استقباله لي حافلًا، ولا أدري حتى الآن.. لماذا حملق كثيرًا في وجهي، وشدَّ على يدي اليُمنى بيديه الاثنتين عند المصافحة، ثم لَمَعَت عيناه بالدموع وهو يقول: "يا أهلا بمن يحملون رائحة الأحبة".. تُرى هل كان يقصد الحاخام (موريس)؟!

....

مهما كان الحال هاتقدر .. يا للي بتشُق البحور

مهما كان ع الأرض ضلمة .. السما مليانة نور

تغنَّت (آيات) بهذه الترنيمةِ بصوتٍ لا مثيل في جماله وقد نامت آلة الكمانِ على كتفها الأيسر، بينما أراحت خدها الجميل عليها فيما أخذت يدها تُحرك عصا الكمان بحرفيةٍ لتداعبَ أوتارها وتخرج منها لحنًا شجيًّا مسَّ وجدان السامعين، وما أن اكتفت بنزرٍ يسيرٍ من غناء وعزف الترنيمة حتى طالبها الأطفال أن تُكمِّلها مؤكدين أنَّ صوتها الخلابَ– وكان معهم الحق في ذلك– يفوق جمال الأصوات الأصلية التي تُغنيها في التسجيلات، فاشترطت عليهم –وهي تنظر نحوي وتبتسم ببراءةٍ نافست

براءتهم- أن يشاركوها الترنيم فصرخوا بحماسٍ طفولي: "موافقيييييين" لتمسك الكمان وتريحه على كتفها من جديدٍ وبعد ثوانٍ علت أصواتهم جميعًا حتى شقّت السماء وهم يرددون:

بــارك بــلادي .. بــارك بــلادي

يا سامع الصلاة .. في قلوب كل البشر

بــارك بــلادي .. بــارك بــلادي

التفت لصراخ قلوبنا .. وأرسل لينا المطر

يومًا ما، مرَّ المسيح من هُنا، ويبدو أن آثار قدميْه ستظل محفورةً أبد الدهر في هذا الوطن، وفي كيان كل من يسكنه.

....

حوارٌ شيقٌ دار بيني وبين ذلك الفتى الطيب (آندرو) الذي كانت طريقة مسكته للجيتار، تشبه احتضان عاشق لعشيقته..

قال لي وهو لا يزال محتضنًا جيتاره بينما سرحت عيناه في ملكوت السماء:

- خلق الله الإنسان لهدفٍ واحدٍ.. أن يُسبِّحَهُ.

أن يتعلم أن يكونَ فنانًا، ويشعر بكل ما هو انعكاسٌ لله في الكون فيتغنى بعظمته ويزيده تمجيدًا..

خلق الله الإنسان على صورته، على أن يكون فنانًا، شاعرًا، رسامًا مثله، والدليل أن واحدةً من أولى مهامه كانت إبداعيةً، ألا وهي تسمية الحيوانات من عدم..

ثم تدخَّل الشيطانُ ورسم للإنسان هدفًا مُشوَّهًا أحمقًا، وهو أن يصير مثل الله خالدًا، عارفًا، خالدًا، وكأن الرب الذي خلق الإنسان على صورته، كان رافضًا أن يصير ابنه شبهه وعلى البشر أن يحتالوا عليه لينالوا ما كان قد قرره لهم بالفعل!

فكانت بضاعة الشيطان هي المعرفة، والثمن الذي دفعه الإنسان هو الفضول..

وتمت الصفقة، وباع الإنسان البركة السماوية في مقابل طبق عدس!

استبدل الإنسان موهبة إبداع اللاموجود ليشتري روتين معرفة ما هو موجود، ومن يومها سمح الشيطان لنفسه أن ينزل بوابل من الأكاذيب على العالم، وزعم أن الفن في العالم مجرد درجة ثانية، وأن الإبداع ما هو إلا مظهرٌ من مظاهر الترفيه، حتى يُبعد أبناء آدم عن الخيط الوحيد الذي يربطهم بالخلود والتشابه مع الله، ويُخرجهم من جنة أنفسهم مثلما أخرجهم من جنة عدن، فانساق البعض منا خلفه، ونسوا أن جميعنا أظرف قد وضع فيها الله جوابات لهذا العالم، وكان طبيعيًا على من اعتبر أن الفن مجرد نشاطٍ ترفيهي ألا يسعى لتسبيح الله بالبحث عن رسالته داخلنا حتى يعيد اكتشاف كل شيء، بعد أن سمحوا للشيطان الأحمق المسكين الذي يفتقر للإبداع، والذي استقى حيله ووسائله من التجربة لقلة خياله، أن يتحكم فينا ونحن من أودع الله الإبداع فيهم.

اهتممنا بعرق الوجه الذي يجلب الخبز رغم أنه عقاب لأنه شغلنا عن التسبيح بالألسن، والأوتار، والرسم، كآخر مرادفات متبقيةٍ من مملكة الجنة التي غادرناها.

ثم علمت كم يحبني هذا الفتى حين نزع محبوبته من حضنه، ودسَّها في يدي هو يمرق بأصابعه على أوتارها قائلًا:

- خذ يا صاحبي.. تعلم كيف تُسبِّح الله.

....

اعترف..

وقعت في حب المسيحية، إلى الحد الذي جعلني اهتم بمعرفة أسرارها وحكاويها المذهلة عن مملكة السماء وملكوتها الأبدي، ومعجزات القديسين والشُفعاء الذين مسَّتهم بركة المسيح، أكثر من اهتمامي بمعرفة

حقيقتي الضائعة، واستعادة ذاكرتي المفقودة، وإزاء هذا الحب بدأت رحلة المعرفة.

ما كان لي أن أخفي إعجابي الشديد وانبهاري اللا محدود بشخصية المسيح الأسطورية الذي جاء ليقدم نموذجًا للثائر على ظلام العقول والقلوب، وقائدًا لعهدٍ جديدٍ يؤسس فيه لبناء المدينة الفاضلة التي يرعى فيها الحرية والعدل والمساواة، ويُعلي من قيم الخير والحق والجمال، كحلم ممكن الحدوث رغم قساوة الواقع البائس، وما أروع كلماته التي تُمتع السامعين وتريح قلوبهم كمقطوعةٍ موسيقيةٍ خالدةٍ لا يزول تأثير وقعها أبدًا:

"روح الرب نازل عليَّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعُمي بالبَصَر، وأرسل المنسحقين في الحرية".

"تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والمثقلين بالأحمال، وأنا أريحكم.. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم".

جاءه شابٌ غني أراد الانضمام لجماعته وأكد أنه نفذ وصاياه بعدم القتل والزنا والسرقة وشهادة الزور، فقال له (يسوع): **"إذا أردت أن تكون كاملا، فاذهب وبـع ما تملكه ووزّع ثمنه على الفقراء، فيكون لك كنز في السماوات، وتعالَ اتبعني، فلما سمع الشاب هذا الكلام مضى حزينًا لأنه كان يملك أموالًا كثيرةً، وقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم: يصعب على الغني أن يدخل ملكوت السماوات، بل أقول لكم: مرور الجمل في ثقب الإبرة أسهل من دخول الغني ملكوت الله".**

وحين جاء نبي الله يوحنا المعمدان لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا، قال اليهود إن به شيطانًا، وحين جاء المسيح وأكل وسطهم وشرب قالوا:"هو ذا إنسان أكول وشرّيب خمر، محب للعشارين والخطاة"، فسأل اليهود الفريسيون* تلاميذه:"لماذا يؤاكل مُعلّمكم الخاطئين

*الفريسيون: يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين، وكان الفريسيون جماعةً يهوديةً اعتزلت المجتمع اليهودي، واتبعت مذهبًا دينيًا متشددًا في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها.

والعشارين؟" فسمع المسيح كلامهم وقال:"ليس الأصحاء بمحتاجين إلى طبيب، بل المرضى.. ما جئت لأدعو الأبرار، بل الخاطئين".

وقال للفريسيين أيضًا: **"إن العشارين والزواني يسبقوكم إلى ملكوت الله.. جاءكم يوحنا المعمدان سالكًا طريق البر فلم تؤمنوا به، وآمن به العشارون والزواني، وأنتم رأيتم ذلك فلم تندموا وتؤمنوا به ولو بعد حين".**

سخر المسيح من أصحاب السلطة، وحضَّ على إلغاء المراتب الاجتماعية التي تُصنِّف الناس لطبقات، وقال لهم: **"ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين، وأما أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمترئس كالخادم".**

وعندما كان يتناول العشاء الأخير مع تلامذته، قام عن العشاء فخلع رداءه، وأخذ منشفةً فائتزر بها، ثم صبَّ ماء في مطهرة وشرع يغسل أقدام تلاميذه... فلما غسل أقدامهم ولبس رداءه وعاد إلى المائدة قال لهم: "أتفهمون ما صنعت إليكم؟ أنتم تدعونني مُعلّمًا وسيدًا، وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا، واذا كنت أنا المُعلّم والسيد قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أيضًا أن يغسّل بعضكم أقدام بعض، فقد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا ما صنعت إليكم».

أدان سعي البشر المحموم إلى مراكمة الثروات والإفراط في استهلاك الخيرات فقال لهم: **«لا تهتموا فتقولوا: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فهذا كله يسعى إليه الوثنيون، وأبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله. فاطلبوا أولًا ملكوته وبره تزادوا هذا كله. لا يهمكم أمر الغد، فالغد يهتم بنفسه. ولكل يوم من العناء ما يكفيه».**

أحدث (يسوع) انقلابًا على القيم القديمة، وهو يعلم أنه لن يحصل بسهولة ويسر، وأعد تلاميذه وأتباعه لصراع كان يعلم أنه سيحتدم لا محالة بكل عنفٍ وشراسةٍ حين يبدأ الصدام بتعاليم العهد القديم فقال لهم: **«لا تظنوا أني جئتُ لأرسي سلامًا على الأرض، ما جئتُ لأرسي سلامًا، بل سيفًا، فإني جئتُ لأجعل الإنسان على خلافٍ مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها، وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته».**

«جئتُ لألقي على الأرض نارًا»، لأن العالم القديم يجب أن يحترق ليخرج من رماده العالم الجديد.



فحتى الوثنيون الذين كانوا يعبدون الآلهة، كانت لديهم تعاليم ووصايا ترتقي بتعاملاتهم، ثم تحولت عباداتهم إلى عبادات شكلانية خالية من أي انعكاس على سلوكيات التعامل، وعمَّ الظلم والقسوة أرجاء أرض الزيتون إما على يد جنود الإمبراطور الروماني وولاته، أو على يد أكابر اليهود لا سيما علماء الدين منهم الذين جعلوا من الديانة اليهودية شريعةً بالية تكمن خصوصيتها في أنها شريعةُ طقوس ترمي بالدرجة الأولى إلى تأسيس الطرائق التي يحب الإله يهوه أن يُبَجل بها، ونوع الأضاحي المقربة إليه، والحفاظ على قدسية يوم السبت، والاحتفالات الدينية الدورية، والطقوس والعيادات التي يتوجب إقامتها، وما يجوز وما لا يجوز في كل مناحي الحياة، حتى زادت القواعد التي تُقيد حياة اليهودي وسلوكه اليومي إلى ٦٠٠ قاعدة، بعد أن كان الشغل الشاغل لليهود خلال القرون الخامسة السابقة لميلاد المسيح، الحفاظ على تفردهم الديني بأي ثمن وترفعهم عن الاختلاط الكافي بباقي الأمم دون أن يمنعهم ذلك أن يأخذوا من الأمم ما يفيدهم ويُضيف إليهم، وتم ربط حياة اليهود بأوامر ونواهي حراس الشريعة الذين وضعوا حاجزًا يفصل بين اليهود وبقية الأمم، فجاء المسيح وهدَّد الكهنة والكتبة وعلماء الشريعة من الناموسيين والفريسيين الذين مثلوا النخبة المتعلمة من المجتمع اليهودي، وبدأ في تغيير شريعة موسى التي شوَّهها أتباعه، وأحل محلها شريعة القلب والروح التي تخدم الإنسان وتفتح آفاقه نحو السماء بعد أن تحوَّل الدين بفعل الغُلاة إلى استعبادٍ وألم.

مرَّ (يسوع) خلال المَزارع في يوم السبت المحرم على اليهود العمل فيه، فأخذ تلاميذه يقطفون السنابل وهم سائرون، فقال له الفريسيون: انظر، لماذا يفعلون في السبت ما لا يحل، فقال لهم إن السبت جُعل لخدمة الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت.

هاجم حراسَ الشريعة وقال لهم: «الويل لكم أيها الناموسيون.. تُحمِّلون الناس أحمالًا باهظةً، وأنتم لا تمسُّون هذه الأحمال بأحد أصابعكم... الويل لكم أيها الناموسيون، قد استوليتم على مفتاح المعرفة فلا أنتم دخلتم، ولا الذين أرادوا الدخول تركتموهم يدخلون».

غيَّر شريعة موسى التي كانت تُحلل الطلاق بفعل قساوة قلب أتباعه، وقال إن الزوج والزوجة حين يتزوجان يصيران جسدًا واحدًا، ومن يجمعه الله لا يفرقه إنسان.

وضع أجمل وأرقى أسس المحبة..

«أحبب ربك بجميع قلبك، وجميع نفسك، وجميع ذهنك.. تلك هي الوصية الكبرى والأولى».

«أحبب قريبك حبك لنفسك».

«وصية جديدة أنا أعطيها لكم، أن تحبوا بعضكم بعضًا».

«افعلوا للناس ما أردتم أن يفعله الناس لكم، هذه هي خلاصة الشريعة وكلام الأنبياء».

شيئًا فشيئًا كان المسيح يلغي شريعة الطقوس القديمة، ويحل محلها شرع المحبة والأخلاق..

لكني لم أفهم بعدُ كيف يفعل ذلك، وفي الوقت نفسه يقول في إنجيل متى: «إن الكتبة والفريسيين على كرسي موسى جالسون، فافعلوا ما يقولونه لكم، واحفظوه، ولكن لا تفعلوا مثل أفعالهم، لأنهم يقولون ولا يفعلون»؟!

كيف وصف المسيح المحب للجميع الكنعانيين بالكلاب، واليهود بأولاد الأفاعي، ورفض شفاء ابنة امرأةٍ كنعانيةٍ في نواحي صيدا بحجة أنه مرسلٌ فقط لبني إسرائيل، فدنا منه تلاميذه يتوسلون إليه قائلين: «أجب طلبها واصرفها لأنها تتبعنا بصياحها، فأجاب: لم أرسل إلا إلى الخرافِ الضالةِ من بيت إسرائيل»، لكنها وصلت إليه، فسجدت له، وقالت: «أغثني سيدي»، فأجابها: «لا يَحسُن أن يُؤخذ خبز البنين ويُلقى إلى جراء الكلاب»؟!

ألم يقل لتلاميذه في إنجيل متى: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القُدُس»؟ فكيف صدَّ هذه المرأة لمجرد أنها كنعانية إذن؟!

«لقد جاء يسوع ليهديَ أوَّلًا الشعب اليهودي الضال، ويُضرم في قلوب أبنائه عواطف الإيمان والتوبة والمحبَّة لله، ويُنقذهم من سلاسل الفرائض اليهودية الحديدية التي كانت تشدهم إلى الأرض، وتمنعهم من أن يرفعوا رؤوسهم إلى العلاء ليقدِّموا لله العبادة الصحيحة. لذلك كانوا بحاجةٍ إلى المعجزات الكثيرة التي تُنبِّه أفكارهم وتُذكِّرهم بواجباتهم الدينية تجاه

خالقهم وربهم، ووصفه للبعض منهم بأولاد الأفاعي لم يكن سُبَّة بقدر ما كان تشبيهًا حقيقيًا لسلوكياتهم التي تُشبه سلوك الثعابين حقًا في التلون والخبث، غير أن يسوع لم ينس الوثنيين ولم يهملهم، فإن لهم مكانَهم المحدد في مُخططه الخلاصي، وبالفعل أتى اليوم الذي أرسل إليهم تلاميذه ليطلعوهم على طريق الخلاص، ويهدوهم إلى الإيمان والتوبة، ولذلك فإن كلامه لا يتضمَّن أي إهانة للمرأة الكنعانية ولا للوثنيين عمومًا، ولكنه يعرض، بأسلوبٍ شعبي شائع يفهمه الجميع، المُخطط الإلهي الذي رسمه لليهود أولاً ثم للوثنيين من بعدهم، بدليل أنها حين قالت له: رُحْماكَ سيِّدي، حتَّى جِراءُ الكلابِ تأكُلُ مِنَ الفُتاتِ الذي يتساقطُ عن موائدِ أصحابِها، أجابها قائلًا: «ما أعظَمَ إيمانَكِ أيَّتها المرأة. فليَكُنْ لكِ ما تُريدين. فشُفيَتْ ابنتُها مِنْ ساعتِها».

هكذا أخبرني القُمص يوسف.. وهكذا تعلمت أن الإنجيل مكتوبٌ بلغةٍ أدبيةٍ رمزيةٍ، لا ينبغي أن نُفسِّرَ كل حرف فيه بالمعنى الظاهر الصريح.

....

ما زلتُ أبحر في المسيحية، وأندهش في كل لحظة معرفة.. ثمة آيات أحفظها في الإنجيل عن ظهر قلب، بل واستشهدت بها في أحاديث سابقة لي من قبل دون أن أعرف أصلًا أنها وردت في الإنجيل!

ما تعلمته مجددًا أن الكتاب المُقدَّس يتكون لدى المسيحيين الأرثوذوكس من جزءين، هما العهد القديم الذي يتضمن أسفار موسى الخمسة المعروفة باسم التوراة اليهودية، وأسفار بني إسرائيل التاريخية، وبها عرضٌ لبني اسرائيل منذ دخولهم فلسطين إلى الفترة التي تلت عودتهم من السبي البابلي، وأسفار الأناشيد الشعرية التي تحتوي على مواعظ دينية، وأسفار أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى مثل سفر إشعياء الذي انتابتني عند قراءته حالةٌ عجيبةٌ من الحنين والحب لهذا النبي رغم أني لا أذكر عنه شيئًا، ووجدتني أشعر بسعادة غامرة حين أتت سيرة ملاك الرب الذي ناصر إشعياء، وقتل بمفرده أكثر من 185 ألف جندي من جيش أشور في ليلة واحدة، لكن سرعان ما تحولت سعادتي إلى بكاء حار وأنا أقرأ لحظة نشره بالمنشار على يد الملك منسي الذي أعاد الوثنية لأورشليم مخالفًا تعاليم والده الملك حزقيا، وسألت في نفسي كيف صمت ملاك الرب حيال ذلك؟

قرأتُ أيضًا أسفار إرميا ودانيال وحزقيال ويونان وحجي وزكريا وغيرها من أسفار العهد القديم، التي لا يؤمن اليهود بطبيعة الحال إلا بها، أما العهد الجديد في المسيحية، فهو عهدٌ بدأ مع ميلاد السيد المسيح المعجز من أمه العذراء مريم، ويتكون من الأناجيل الأربعة القانونية متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا، ورسائل بولس، وأعمال الرسل، ورسالة يعقوب، ورسالتين لبطرس، وثلاث رسائل ليوحنا، ورسالة ليهوذا، ورؤيا يوحنا التي سُميت سفر الرؤيا، وعددها 27 سفرًا مُقدَّسًا، ولقد انتقت الكنيسة الرسمية هذه الأسفار تحديدًا في القرن الرابع الميلادي من بين عشرات الأسفار التي كانت متداولةً بين المسيحيين وأدت لحدوث الخلافات والصراعات بينهم، ووصمت الكنيسة بقية الأسفار بالمنحولة الزائفة، ودعت أولئك الذين يتداولونها بالهراطقة المنحرفين عن الإيمان القويم.

سألت عن معنى الكنيسة الأرثوذوكسية، فعلمت أنها الكنيسة قويمة الإيمان، وكلمة أرثوذوكسية هي كلمة يونانية الأصل تعني الرأي القويم أو الإيمان السليم، ثم قادني السؤال لسؤال آخر عن الفارق بين الأرثوذوكس والكاثوليك والبروتستانت لأبدأ في التبحر أكثر وأكثر وأعرف أن الديانة المسيحية في الأصل كانت تتبع تعاليم كنيسةٍ واحدةٍ تُسمَّى كاثوليكية في الوثائق الرسمية، وتُسمى أيضًا أرثوذوكسيةً لتمييزها عن الجماعات التي خرجت عن الاعتقاد الرسمي، ورغم التنوع المشروع الذي كان قائمًا بين كنائس الغرب وسائر الكنائس أو البطريركيات الشرقية، كانت الشراكة قائمة والاتصالات متواترةً بين شقيْ العالم المسيحي، ولم يكن تسميةٍ كاثوليكي أو أرثوذوكسي تأخذ منحى مذهبيًا بعد، ثم مع الوقت دبَّ الخلافُ والشقاق لأسبابٍ ثقافيةٍ وسياسيةٍ بين الكنيسة الغربية المتمثلة في الفاتيكان التي أصبحت الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد، والكنيسة البيزنطية الشرقية التي أصبحت فيما بعد الرومية الأرثوذوكسية، وكانت البطريركيات الملكية في الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم تحت الحكم العربي، ولم يكن لها دورٌ مباشرٌ في الخصومة القائمة بين الكنيسة الرومانية والكنيسة البيزنطية.

ثم استفحل الخلاف على أيام ميخائيل كيرولارس بطريرك القسطنطينية عام 1054 ميلاديا، ومنذ هذا التاريخ وهناك مسيحيون كاثوليك يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان وأرثوذوكس يتبعون الطقوس الدينية اليونانية البيزنطية.



ونتيجة لظاهرة بيع صكوك الغفران من الكنيسة الكاثوليكية وعدم وجود أي أملٍ لمغفرة ذنوب المسيحيين إلا بشراء هذه الصكوك، ظهر الراهب والقس الألماني مارتن لوثر كينج في بداية القرن السادس عشر واعترض على هذه الظاهرة قائلًا أن الحصول على الخلاص أو غفران الخطايا هو هدية مجانية ونعمة الله من خلال الإيمان بيسوع المسيح مُخلّصًا، وبالتالي ليس من شروط نيل الغفران القيام بأي عمل تكفيري يُلزم صاحبه بشراء هذه الصكوك، كما رفض سلطة الكنيسة الكاثوليكية في منح البابا وحده الحق في تفسير الكتاب المقدس معتبرًا أن لكل امرئ الحق في التفسير، وقال إن الكتاب المُقدَّس هو المصدر الوحيد للمعرفة المختصة بأمور الإيمان، وعارض سلطة الكهنوت المسيحية في الكثير من الأمور حتى إنه سمح للقساوسة بالزواج.

كما قدَّم مارتن لوثر أيضًا ترجمةً خاصةً به للكتاب المقدس بلغته المحلية بدلًا من اللغة اللاتينية التي كانت اللغة الوحيدة المسموح باستخدامها لقراءة الكتاب المقدس من الكنيسة الرومانية، مما أثر بشكلٍ كبير على الكنيسة وقاد لترجمة الكتاب المقدس فيما بعد لأكثر من لغة، وغيرها من الأمور الشهيرة التي قام بها، وأدّت إلى حدوث موجةٍ واسعة من احتجاجات المسيحيين ضد الكنيسة فظهر المذهب البروتستانتي الذي يعني الاحتجاج، غير أن القُمص يوسف أخبرني أن الكاثوليك والبروتستانت محرومان من ملكوت الله في السماء ولن يدخلوه مثل الأرثوذكسيين.

علمت أن بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت الكثير من الخلافات الجوهرية في أهمِّ أسس وقواعد الدين المسيحي، مثل أسرار الكنيسة السبعة، وغيرها.

وقرأت قانون الإيمان المسيحي الذي تمت كتابتُه على فترتين.. الفترة الأولى بعد ظهور الأسقف آريوس الذي أنكر ألوهية المسيح، وقال إن المسيح هو مجرد مخلوقٍ بشري وليس واحدًا مع الله الأب أو معادلًا له، فعقد أول مجمع مسكوني للمباحثة في هذه القضية وهو ما يُعرف بالمجمع المسكوني الأول أو مجمع نيقية، نسبةً إلى المدينة التي عُقِد فيها بين عددٍ كبيرٍ من الأساقفة معظمهم من الشرق، وحضروا المجمع لحسم هذه المسألة، وبعد معركة طويلة انتصر أصحابُ الرأي القائل بألوهية المسيح، بإشراف الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول، وتم

وضع قانون الإيمان:

نؤمن بإله واحد
الآب ضابط الكل
وخالق السماء والأرض
وكل ما يرى وما لا يرى
وبرب واحد يسوع المسيح
ابن الله الوحيد . المولود من الآب قبل كل الدهور
إله من إله، نور من نور. إله حق من إله حق
مولود غير مخلوق
مساوي الآب في الجوهر
الذي على يده صار كل شيء
الذي من أجلنا نحن البشر
ومن أجل خلاصنا
نزل من السماء
وتجسد من الروح القدس
وولد من مريم العذراء وصار إنسانًا
وصُلب عوضنا في عهد بيلاطس البنطي
تألم ومات ودُفن وقام في اليوم الثالث كما في الكتب
وصعد إلى السماء
وجلس على يمين الله الآب
وأيضًا سيأتي بمجده العظيم
ليدين الأحياء والأموات
الذي ليس لملكه انقضاء

وبعد فترةٍ حدث جدلٌ واسعٌ حول 3 آراء جديدةٍ مسَّت صلب العقيدة المسيحيةّ..

الرأي الأول كان لمكدونيوس أسقف القسطنطينية الذي قال إن الروح القدس عملٌ إلهي منتشرٌ في الكون، وليس بأقنوم متميزٍ عن الآب والابن، بل هو مخلوقٌ يُشبه الملائكة وليس ذا رتبةٍ أسمى منهم..

الرأي الثاني كان لأبوليناريوس أسقف اللاذقية الذي قال إن لاهوت المسيح قد قام مقام الروح الجسدية وتحمَّل الآلام والصلب والموت مع

الجسد، كما قال بوجود تفاوتٍ بين الأقانيم الثلاثة التي يتكوَّن منها الثالوث المسيحي فقال إن الروح القدس عظيم، والابن أعظم، أما الآب فهو الأعظم.

أما الرأي الثالث فكان لأوسابيوس الذي قال إن الثالوث ذاتٌ واحدة، وأقنوم واحد، وليسوا ثلاثة أقانيم.

فانعقد المجمعُ المسكوني الثاني في مدينة القسطنطينية، العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية عام 381 ميلاديًا برئاسة 150 أسقفًا من كنائس الشرق والغرب، وهناك جاء النص الثاني من قانون الإيمان المعروف بقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني المكمل للقانون الأول:

ونؤمن بالروح القدس .. الرب المحيي.. المنبثق من الآب
ومع الآب والابن.. يسجد له ويمجد
الناطق بالأنبياء
ويكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسوليه ..

نقر ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا
وننتظر قيامة الموتى وحياة جديدة في العالم العتيد

آمين

وهكذا كانت تنعقد المجامعُ المسكونية من عصر لعصر بسبب ظهور انشقاقات في الكنيسة والعقيدة المسيحية، وكانت تنعقد بدعوة من الإمبراطور الروماني، وتحضرها غالبية أساقفة الكنيسة شرقًا وغربًا، بحيث يتم تمثيل كامل للكنيسة الجامعة ككل، ويقرر المجمع حكمًا جديدًا غالبًا ما يكون حرمان أو نفي صاحب الرأي المخالف، لتشكل هذه المجامع علاماتٍ فارقةً في تاريخ العقيدة المسيحية.

وبلغت هذه المجامع سبعة مجامع كان من أهمها مجمع خلقيدونية الذي انعقد سنة 451 ميلاديًا، ونجم عن هذا المجمع انشقاقٌ أدى إلى ابتعاد الكنائس الشرقية (القبطية والأرمنية والسريانية) عن الشراكة مع الكنيستين الرومانية والبيزنطية اللتين اتفقتا على أن للمسيح طبيعتين: "الكلمة يفعل ما يختص به الكلمة، واللحم يفعل ما يختص به اللحم، فالواحد من المذكورين يبهر بالمعجزات، والآخر ملقى للإهانات"، بينما

رأت الكنائسُ الشرقية أن كلمة (طبيعتين للمسيح) تعني أنه شخصان، بينما هو في حقيقة الأمر طبيعةٌ واحدة.

يا ويلي.. يكاد عقلي ينفجر.. فإذا كان المسيح بطبيعةٍ واحدةٍ إلهية وإنسانية في نفس الوقت، فمعنى هذا أن واقعة الصلب ماتت فيها الطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية، فهل عاش الكون بدون إله لمدةِ ثلاثة أيام إلى أن قام المسيح من بين الأموات؟!

وماذا عن مجمع أفسس الأول الذي انعقد بعد ما صرح به الراهب القس الإنجليزي بيلاجيوس أن خطية آدم قاصرة عليه وحده دون أن تمتد إلى بقية الجنس البشري، وأن كل إنسان منذ ولادته يكون كآدم قبل سقوطه، بخلاف قوله إن الإنسان بقوته الطبيعية يستطيع الوصول إلى أسمى درجات القداسة بدون انتظار إلى مساعدة النعمة، فقالوا إن تعاليمه فاسدة وتهدم سر الفداء المجيد الذي قام به السيد المسيح من أجل تحرير البشر من خطيتهم، وتقلل من أهمية دمائه التي سالت على الصليب؟!

هل الله حقًّا من الممكن أن يُحاسب البشريةَ كلها بذنب آدم؟

هل تُورَّث الخطية؟

وماذا عن الذين عاشوا وماتوا قبل ميلاد وصلب المسيح ليفديهم من خطية آدم؟

أجابني القُمص يوسف أن بولس الرسول قال في رسالته لأهل رومية: "قد صولحنا مع الله بموت ابنه"، وقال لهم أيضًا: "بإنسان واحدٍ دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت".. هذه هي عقيدتنا يا ولدي، وما جاء في كلام بيلاجيوس يتنافى معها، بل ويهدمها.

لكنه لم يسمعني وأنا أتمتم بيني وبين نفسي بصوتٍ خفيض:

- يا الله.. ما كل هذا التاريخ الصعب المليء بالخلافات والانشقاقات في رحلة تكوين ديانة إلهيةٍ أخذت تتشكلُ ويُضاف إليها الوصايا والقوانين مع كل اجتماع على مدار قرون، رغم أن المسيح قال عند صلبه أن دينه قد تم؟!

....

أصبحتُ حريصًا على حضور اجتماعات مع خُدَّام آخرين من الكنيسة، والاستماع إلى العظة والدروس..

اليوم انجذبت بكل حواسي لسؤال تلك الفتاة التي سألت الخادم:

قالت لي صديقة مسلمة إن المسيح لم يُصلَب، وإن القرآن يقول: {وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم}، وإن هناك بعض الأقوال الإسلامية تقول إن يهوذا الإسخريوطي هو الذي تم صلبه بدلًا منه بعد أن جعله الله شبه المسيح، وإنه لم يكن سوى مجرد نبي، فما هو الرد الذي أقوله لمن يقول لي مثل هذا الكلام؟

فأجابها قائلًا:

- المسيح لم تكن شخصيته مجهولةً في المجتمع اليهودي، لأنه كان يجول في كل مدينةٍ وقريةٍ يكرز بملكوت الله، وصنع مع الشعب معجزاتٍ لا يُحصى عددُها، وكانت تجتمع إليه ألوف من البشر لكي تستمع إلى تعاليمه. ثم إنه قبْل الصلب مَرَّ بخمس محاكماتٍ أمام ولاة مثل هيرودس وبيلاطس، وأمام رؤساء الدين مثل حنَّان وقيافا رئيسيْ الكهنة، وبعد هذه المحاكمات وقف بيلاطس والي اليهودية أمام جموع الشعب وخَيَّرهم بين تسليم المسيح لهم ليُصلَب وبين باراباس اللص، وعندما طلبوا صلب المسيح سلَّمه بيلاطس إلى جند الرومان ومرَّ بمراحل الجلد واللكم والتعيير وإكليل الشوك، وأخيرًا سار في طريق الآلام حاملًا الصليب تحت حراسةٍ مشددةٍ إلى أن بلغ مكان الجلجثة، وهناك سمَّروه ورفعوه على الصليب وكان في رفقته في طريق آلامه حتى مكان صلبه أمه مريم ويوحنا الحبيب وبقية المريمات.. وهو على الصليب نطق بكلماتٍ لا ينطق بها لسانٌ بشري.. فمتى اندسَّ يهوذا في هذا المشوار العلني المكشوف أمام كل بشر ليضع نفسه مكان المسيح؟!

وكيف أن يهوذا بعد خيانته يفعل هذا؟ ويا ترى لِمَنْ سَلَّم يهوذا نفسه لكي يُصلَب عِوَضًا عن المسيح. وهل لو كان يهوذا هو الذي صُلِبَ كانت تحدث كل مظاهر الطبيعة التي قال بسببها ديونيسيوس الأريوباغي، ذلك العالِم الفلكي الشهير: "لا بد أن

إله الطبيعة يتألَّم الآن؟".

إن رواية يهوذا هذه هي فريةٌ ضد المسيحية لا يُصدقها عقلُ إنسان، ومن يُنكر واقعة صلب المسيح يُنكر بالتبعية حقيقة تاريخيَّةً أجمع عليها اليهود والمسيحيون الذين عاصروا صلب المسيح ومن بعدهم، بغض النظر عن كونها واقعةً دينيةً.. وأما عن إنكار ألوهيته، فمن الذي يُحيي الموتى سوى الله؟!

ومن جديد وجدتني أتساءل:

- ما أمر هؤلاء المسلمين؟

....

الجميل في الأمر رغم آلام عقلي السقيم في رحلة المعرفة، أن كل من حولي لا يُمانعون الإجابة عن كل أسئلتي، ومن لا يعرف يُحيلني إلى من هو أكثر منه علمًا وتعمقًا في الدين، لكن الأجمل أنهم يُبدون دهشتهم من درجة استيعابي الفائقة، ويستحسنون أسئلتي التي يصفونها بالذكية لدرجة أنهم أحيانًا لا يجدون لها إجابةً تُريح عقلي!

لكن هذا لا ينفي أن ثمة إجاباتٍ تكون وافيةً، وهي التي أهضمها وأستوعبها جيدًا، ثم أخرجها بشكلٍ مبسطٍ لأطفال الحضانة الذين يُحبون اللعب معي والجلوس حولي في حلقةٍ يزداد عددُ المنضمين إليها يوميًا، لنتسامر ونضحك معًا، وعم (حنا) حارس المبنى يضرب كفًا بكفٍ متسائلًا: كيف تحوَّل هؤلاء القرود المشاغبون إلى خرافٍ وديعة؟ فأجيبه مبتسمًا وأتمنى أن أكون محقًا: ربما وَجَدَت أخيرًا الراعي الذي يستحق أن تستكينَ إليه.

انتهزت (آيات) الفرصة وانضمت إلينا، لتجلس معي في قلب دائرة الأطفال الذين ما زالوا على طُهر ونقاء الملائكة، بعد أن أخبرتني بلهجةٍ حملت قدرًا كبيرًا من الصدق أنها تعلمت مني – وأنا الذي لم يتيقن أحدٌ بعد من ديني الحقيقي– ما لم تتعلمه طوال عمرها من الرهبان والقسيسين، وسألت: "لماذا لم ألتقيك قبل الوقوع في الخطيئة؟"، فحضرت أنا معها بالمثل تلك الدروس التي علَّمت فيها الأطفال العزف على آلة الكمان والرسم، وأجبتها: "حتى يكون ثمن وقوعك هو التكفير عن الذنب

بهذه الطريقة الرائعة التي لا يُقبل عليها الكثيرون ممن لم يسقطوا مثلك"، ولأول مرة أرى كيف تمتزج البسمة بالدموع على وجه البشر بهذا المزيج المدهش الذي ارتسم على ملامحها.

....

الخوف.. الرعشة.. الرغبة في الهرب من شيء لا أعرفه، هي المشاعر التي انتابتني حين قام (بيشوي) – ذلك الطفل الأسمر اللطيف- برسم وجهي بالقلم الرصاص على جسدٍ أبيض اللون وعلى جانبيه جناحان عظيمان بموهبةٍ فريدةٍ من نوعها – لمن هم في مثل سنه- قائلًا بابتسامة لن أنساها ما حييت: "خلتك واحدًا منهم، فأنت تُشبه تلك الرسومات التي رأيتها في العديد من الكنائس للمخلوقات السمائية الجميلة"، وتزامن مع كلماته نظرة مؤثرة منحتها لي (آيات) تصديقًا على كلامه وهي تتأرجح بين الابتسامة والرهبة، فأدركت في تلك اللحظة كيف على المرء أن يفر أحيانًا من التقدير والتبجيل، مثلما يفر دائمًا من اللوم والعتاب والتبكيت، لذا غادرت مبنى الخدمات بخطواتٍ مرتبكةٍ لا تعرف اتجاهًا أو جهة.

انفصلت عن هذا العالم بكلِ ما فيه، اللهم إلا لمساتٍ رقيقةً داعب بها الموج قدميَّ الحافيتين وأنا أسير على رمال البحر وحدي في (بحري)، وقد أسدل الليل ستاره في ليلةٍ بدت فيها السماء مُعتمةً، بعد أن سجَّل القمر اسمه في دفتر الغياب.

الهواء الساقع أخذ يضرب جسدي حتى شعرت ببرودةٍ تُنمِّل أطرافي.. فالشتاءُ دائم انتهاز الفرص للانقضاض على ليل الإسكندرية الأعزل من الحرارة، دون أي اعتبارٍ لمعاهداته مع فصل الصيف الذي كان في طريقه للانسحاب من معركةٍ غير متكافئة الأطراف.

انتزعني من البرودة والشرود صوتُ نغمات غريبة لم أعرف مصدرها وأنا أتلفت حول نفسي، قبل أن أكتشف مع ذلك الاهتزاز في جيب جلبابي أنه رنين الاتصال على الهاتف المحمول الذي أهدته إليَّ تلك الفتاة التي لا أعرف إلى أين ستمضي بنا الأقدار.. بالطبع كانت هي المتصل ومن يكون سواها.

بصوتٍ ملهوفٍ سألتْ عن حالي، واستفسرتْ عن سر ذلك التحول المفاجئ الذي انتابني إلى حد المخاطرة بخروجي من المبنى بشكلٍ

مفاجئ رغم احتمالية بحث الشرطة عني، واستحلفتني بالعودة سريعًا وأن أتوخى الحذر أثناء رجوعي..

جلست على صخرةٍ بعد انتهاء المكالمة، ونظرتُ إلى شاشة ذلك الشيء الساحر القادر على إذابة المسافات والفواصل بين البشر بضغطة زر، وسألتُ نفسي دون أن أصل لإجابةٍ شافيةٍ: لماذا بدا صوتُها عبر الهاتف أكثر دفئًا وجاذبية؟

لا أنكر أن مكالمتها جاءت في وقتها.. بصراحة، لم أعد قادرًا على تفسير ذلك الشعور بالارتياح المرتبط بسماع صوتها..

أهي التي في حاجة إليَّ، أم أنا الذي لا أستطيع الاستغناء عن حواء عالمي الذي كنت فيه (آدم) الوحيد البائس، لا سيما مع ذلك الحنان الجارف في عينيها، والاهتمام البارز في تصرفاتها، ولمساتها الدافئة ليديَّ في لحظاتٍ خاطفة تتصنع بعدها الاعتذار بحجة أنها لم تكن تقصد، فيما تقول نظراتُها الشقية إنها كانت لمساتٍ مع سبق الإصرار والترصد.

غوتني شاشة ذلك الهاتف التي تستجيب لمجرد لمسات الإصبع، فضغطت سبابتي على تطبيق "فيس بوك" الذي أخبرتني (آيات) أنه يجمع البشر من كل أنحاء العالم، لأتأمل صورتي وهي تنظر بابتسامةٍ خفيفةٍ نحو الكاميرا.

كانت هي الصديقة الوحيدة لي، فدَخلتُ على حسابها الشخصي وبه وجدتُ اسمًا إضافيًّا لها مكتوبًا بين قوسين وكان (عاشقة الوردِ)، ووضعتْ في الغلاف الخلفي لحسابها صورةً أكثر من رائعة لباقة ورود أنيقة الشكل، جميلة الألوان، بخلاف الكثير من الخواطر التي اكتشفتُ أني أجيد القراءة عندما استطعت قراءتها بسهولة، لكن هذه الخاطرة تحديدًا كانت أروعهم بالنسبة لي على الأقل، حتى إني قرأتها بعينيَّ وأنا أسمع كلماتها تتردد بصوتها في أذني:



- قبل هذه الكلمات كانت هناك ألف تجربة سابقة محاها زر المسح في لوحة مفاتيح خرقاء، فشلت في توصيل ما يجيش به القلب، وتحويل تلك المشاعر الحزينة إلى كلماتٍ تُعبِّر لك عما هو أكبر من الكلام..

ماتت على عتبات دنياك كل التشبيهات البليغة، واحتضرت الاستعارات والكنايات، وانتحرت ألفاظ الحب والغرام في يأس أمام فتى فوق مستوى اللغات، وبقيت أنا وحدي في ملكوتك الهائل كدرويش لا يشعر بمكنونات قلبه سوى مجاذيب العشق الذين سحرتهم قلوب فاتنة كقلبك الأخاذ.

أصبح وجودك لقلبي بعد الدين دينا، وصرت أكتب في حبك أسفار الشوق، ومزامير الهيامَ والوله، وتلمود الوفاء لذاتك التي جاءت إلى الوجود من أجلي، وأحيا فقط من أجل انتظار لحظة تحقيق النبوءة، حين تنظر لعينيَّ الدامعتين، وتمنحني أجمل ابتساماتك وأنت تقول في حنان: لقد سمعت صوت قلبك وفسرت لغة دقاته المشفرة بالعشق، ثم تلخص الشرق في كتفك الأيمن، والغرب في كتفك الأيسر، وتضمني في صدر صار لي في رحابة الكوكب لأحيا في عالمك وحدك، مستبدلة به كل العوالم.

آه لو تسقط المحاذير، ويمحو الغرام بممحاته تلك الخطوط الحمراء التي تُقيِّد البشر، لتقدمت نحوك وجذبت أناملك الرقيقة الملكية لأضعها على قلبي فتدرك مدى بؤسي وشقائي في حبك، مع تلك الدقات الصاخبة التي تلهبني بسياط الحب..

لأخبرتك أن ثمة لغة وحيدة لا تعجزها المفردات الهزيلة أو ترهقها الأوصاف المحدودة، ثم أضع شفتيَّ على شفتيك لتنسال رُوحي من جسدي وتحل في جسدك حاملة معها كل المعاني التي لا يمكن أن تعبر عنها الكلمات، وما لا يمكن أن يُقال بالتشبيهات، فتبرق عيناك ككوكب دري وأنا أسألك: هل فهمت ما أريد أن أقول؟ وتهز رأسك بالإيجاب وعلى شفتيك نفس الابتسامة الساحرة وقد فهمت أخيرًا ما عجز اللسان عن البوح به، فأقبِّلك ألف ألف مرة دون أن يزايلنا الضجر، أو يحتوينا الزمان والمكان.

سألتك بالله، لا تبتسم وأنت تقرأ هذا الكلام كمعجب بنصٍّ من عاشقة مجنونة غرقت في حب محبوبها حتى أذنيها، دون أن تدري أنك أنت المقصود.. لا تظن أن الأمر لا يعدو كونه

كلماتٍ لطيفةً من إنسانةٍ تصنع حالاتٍ حالمةً من الوهم..

فحروفي حياة كاملة، وددت لو قدمتها قربانًا تحت قدميك.. وأنت المحبوب يا حبيبي، وأنا المحبة حقًا وصدقًا..

فمتى تُدرك يا أعظم الرجال وسيدهم في نظري؟!

#أحبك.

ابتسمت بلا وعي مني، رغم أنها أقسمت على القارئ ألا يبتسم، لكنها لم تكن ابتسامة مُعجب بالنص كما كانت تخشى.. بل ابتسامة قبول.

ذهبت عيناي بعدها إلى طرف الشاشة، فحملت الذهول والتعجب هذه المرة، إذ لم أتوقع أن تبلغ طلبات الصداقة أكثر من ألفيْ طلب في هذا الوقت القصير في عالمٍ لا يعرفني فيه أحد!

مهلًا.. من الذي قال إنهم لا يعرفونني؟ ربما كان أحدهم يعرف هويتي السابقة.. سأقبل كل طلبات الإضافة إذن.

هاهاها.. اتضح أن أحدهم يعرفني بالفعل، لكن بهويتي الحالية ذات الذاكرة المعدومة.. إنها (كريستين) التي كانت أول اسم في قائمة الراغبين في صداقتي، مع صورة قريبةٍ لملامح وجهها الساحر، تقول للناظرين إن اشتهاء صاحبة تلك العينين لا يمكن أن يكون ذنبًا على الإطلاق!

"إحم.. استغفر الله...."

قلتها وأنا أتراجع عن ذلك الشعور الذي ومض فجأةً داخلي وكاد أن يُسيطر عليَّ، قبل أن أستعيد لجام نفسي..

لكني قبلت طلب الإضافة على أي حال!

....

صافحتني (آيات) حين التقينا مجددًا بلهفةٍ أكثر من الأمس، وستكون بالتأكيد أقل من الغد شأن كل مرة نلتقي ويزداد فيها اهتمامها بشكلٍ أظنه وصل إلى الحد الأقصى، قبل أن أكتشف في المرة التالية أنها قادرةٌ على

اختراق السقف، والوصول لأبعادٍ جديدةٍ من اللهفة التي لا نهاية لها..

تمامًا مثل عينيها اللتين أعدتُ اكتشافهما في لحظات السلام واستتباب الأوضاع بعيدًا عن الصخب والصراع، فإذا بهما بحرٌ لا ساحل له.

لا شك أن (كريستين) أكثر جمالًا، لكن ما أشعر به تجاه (آيات) لا أعتقد أنني مررتُ به من قبل.. حتى وإن كانت ساقطةً ذات يوم، يكفيني أن علاقتي بها بدأت بمعركةٍ من أجل الشرف!

هي أول عاهرة أحبها رغم أني لا أتذكر باقي النساء اللاتي مررن في شريط حياتي، لكن العُهر من المستحيل أن يُنسى من ذاكرة الرجال حتى وإن كانت تلك الذاكرة مفقودة.

ذلك هو الحب.. عَصيٌّ على الفهم والتفسير كلغةٍ ميتةٍ لم يعد هناك من يعرفها من البشر، صعب على النسيان كإلهٍ من المستحيل أن ينسى مخلوقاته.. نستخدمه مضطرين كمشروبٍ غازيٍ فوّار لبلع ما نتعاطاه على مائدة الحياة من وجباتٍ سريعةٍ طبختها الأقدار بقسوة عسيرةِ الهضم، فلا نملك الاستغناء عنه مهما سمعنا عن آثاره الجانبيةً التي تُسبب هشاشة القلب.

عُهر نظراتها معي كان فضيلة.. إغواؤها لي غيَّر من كراهيتي للمكياج الذي كنت أراه حيلةً غير شريفة لتجميل ما هو دميم، لكن زيادة مقدار انحطاط العالم إلى حدٍّ غير محتملٍ جعلت عينيَّ في حاجةٍ لمن يخدعهما ولو بجمالٍ زائفٍ بعد أن تمنيت أن تزول منهما نعمة الإبصار من فرط القُبح، فإذا بيدها الرقيقة تمسك فرشاة توزيع أحمر الخدود، وتوزع حُمرة الجمال الحقيقي على وجه هذا العالم القبيح.

حين أطالت النظر إلى وجهي، سمعتُ صوتها الداخلي بشكلٍ واضح، ظننته خيالًا في بادئ الأمر قبل أن أكتشف أنه خاصيةٌ عجيبةٌ مدهشةٌ في جعبة قدراتي التي ما زلت أكتشفها على يديها..

كان ذلك حين ثبَّتت بصرها في مواجهة عينيَّ وردَّدت داخلها بصوتٍ خفي فضحته عيناها:

- كم شعرنا بالألفة والثقة في أصدقاء آلفناهم سريعًا، فأفرجنا عما

تُخفيه سرائرنا بين الصدور، وفي اللحظات الحزينة الحالكة حكينا لهم أوجاعنا وأسرارنا وكأننا لا نُناجي سوى أنفسنا، أو نفضفض مع السماء التي لن تفشي السر، ثم عضضنا الأنامل من فرط الندم، لا لأنهم خانوا الثقة؛ بل لأن القلب انتخب أحدهم لينتقل إلى خانة الحبيب، والحبيب في بداية الحب لا ينبغي أن يعرف ما يعرفه الصديق القديم.

ماذا لو عرفني وأنا بلاصقة الضمان، وما زالت بكارتي على ضبط المصنع؟

ماذا لو قدمتني له الظروف كأي فتاةٍ شريفةٍ، لتقع عيناه فقط على الجانب المبهر في شخصيي؟.. أما كان هناك أملٌ وقتها أن تكون قصتنا أقوى من أن يُهددها ماضٍ لا أملك آلة الزمن للعودة إليه ومنعه قبل حدوثه؟

الآن صار كل ما يميزني في ناظره مجرد غواية من بائعة هوى رخيصة تريد الإيقاع به، وكل نظرات بريئة ومشاعر طاهرة سرعان ما سيفسرها بكذبةٍ متقنةٍ وحبكةٍ بارعةٍ من ساقطةٍ تُجيد التغرير بالرجال!

ليتني ما حكيت له كل شيء.. فأحيانًا يكون كل ما نقوله صحيحًا تمامًا.. والخطأ الوحيد فيه، أنه قيل من الأساس!

لكنني أيضًا لم أطلع على سره الخفي وشخصيته الغامضة، فربما كان هو الذي لا يستحق أن أمنحه قلبي ومشاعري..

ماذا؟

هل يمكن؟

لا.. لا أستطيع حتى أن أتخيل ذلك.. ثم إن الشيطان نفسه إذا ما تاب، قد يكون جديرًا بالحب والصداقة أكثر من ملاك قد تُسقطه خبراته المعدومة وصحيفة أعماله الطاهرة في سقطة لا خلاص منها، وهذا الفتى لديه من الخبرات والمهارات ما يغفر له زلة سطنائيل، فهل يغفر لي زلتي أنا الأخرى؟

ابتسمت لكلماتها ورددت عليها بصوتي الداخلي أيضًا تاركًا لفراستها القدرة على ترجمة ما تبوح به عيناي:

- الحب، هو الغسول الوحيد الذي ينظف وساخات الماضي، والإله الذي يسكن في قلوبنا يغفر زلات الأحبة مهما كانت خطاياهم قبل أن نلتقي بهم.. فقد وُلدوا منذ أن عرفناهم.

لمعت عيناها بمزيج من دموع الفرحة والتأثر، جعلني أقسم أنها سمعت ما جال بخاطري أيضًا.. فهذه أبسط معجزات العشاق.. ثم تيقنت من هذا حين ابتسمت من بين دموعها الماسية وقالت ببطء وهي تتأمل عينيَّ بهيام:

- أخبرتك في أول معرفتنا أني كنتُ أحب شخصًا لم تشأ الأقدار أن تكلل قصتنا بالنجاح.. الآن أيقنت أن الحُب الأول لا يموت.. لكن.. حين يأتي الحُب الحقيقي، فإنه يدفنه حيًّا.

ثم ارتبكت ملامحُها حين شعرت أنها قالتها بلا مناسبة، فاستطردت في خجل:

– قرأت هذه المقولة بالأمس في كتابٍ من كتبي القديمة وشعرت أنها كُتبت من أجلي.. ما رأيك فيها؟

جاوبتها بابتسامةٍ تمنحني الفرصة لتأجيل الإجابة وأنا أفكر بيني وبين نفسي: هل أخبرها أن (كريستين) قد صارت صديقة لي على هذا الموقع الاجتماعي الذي اكتشفت أنه يُشكل إدمانًا لكثير من البشر؟

هل أعترف لها بأني تصفحت ألبومات صور تلك الأخيرة المرفوعة على الموقع وعليها رقم قياسي من التعليقات وعلامات الإعجاب وتلك الأيقونات التي تُعبر عن المشاعر بنكهةٍ إلكترونية تغمز فيها الأعين، وتُخرج فيها الرسومات ألسنتها؟

هل أبلغها أنها حادثتني عبر صندوق المحادثات، ورغمًا عني أبديت إعجابي بصورها الفاتنة، فأرسلت لي صورًا أخرى "سيلفي" أخبرتني أنها "إكسكلوسيف" لي وحدي، في أوضاع غريبةٍ يظن من يراها أنها تتعرض للاغتصاب من شخصٍ خفي لا يُظهر جسده لكن تظهر آثار فِعلته، وتذكرت وأنا أشاهدها بقلبٍ يرتجف ذلك الشعور الذي أحرق

ليالي فوق سطح منزل (دميانة) حين سمعت أصوات المتعة والشبق وشعرت بالعطش، قبل أن ينتهي الأمر بتبادل أرقام الهاتف حين طلبت مساعدتي بشدة في موضوعٍ تريد أن تحكيه لي على انفراد، ولم أستطع أن أحرجها وأنا الذي لا يستطيع أن يخذل من يحتاج منه يد العون ما دمت قادرًا على ذلك؟

وحين طال شرودي سألتني: "روحت فين؟!"، وقبل أن أجيب قطع حديثنا عم (حنا) الذي أخبرني أن القُمص (يوسف) يُريدني..

ذهبت إلى ذلك الرجل الجليل، وبين يديْه اكتشفت أنني لم أكسر بعد حاجز المهابة تجاهه رغم وده البالغ نحوي، واحترامه لشخصي المجهول بشكلٍ يدفعني دائمًا للحيرة والتساؤل.

ابتسم بشكلٍ نادرِ الحدوث، وأبدى إعجابه الشديد بنشاطي الملحوظ تجاه الأطفال، ثم اتسعت ابتسامته وهو يسأل بصيغةٍ بدت تقريريةً أكثر منها سؤالا – وكأنه يعرف الإجابة – كيف فهمت طقس تقسيم القربان في الاعتراف الأخير واستخراج الجزء المسمى بالـ "إسباديقون" الذي يرمز لجسد (عمانوئيل)، رغم أن مسيحيين كثرًا يَحضرونَ القُدَّاس منذ سنواتٍ ولا يستطيعون شرح القسمة المتصلة والمنفصلة بهذه السلاسة.

أخبرته بخجلٍ أني حضرت القُدَّاس لنهايته ولم أنصرف مع المنصرفين حين جاء النصف الأخير المخصص للمسيحيين المتعمدين فقط، لكني لم أتناول بعد أن عرفت أن الشماسين كانوا يقولون قديمًا مُحذرين: "من كان طاهرًا فليدن من الأسرار المقدسة، ومن كان غير طاهر فلا يدن منها، ولا يقترب وإلا يحترق بنار اللاهوت.. من كانت له عثرة مع صاحب، من كان به فكر زنا، من كان سكرانًا فلا يدن"، وأنا لا أعرف يا أبونا درجة طهارتي، ولست محسوبًا حتى الآن على (شعب الكنيسة)، لكني على أي حال مُعجب بهذا المصطلح لأقصى حدٍ بعدما وجدته بالفعل على أرض الواقع، وليس مجرد فكرة تُرددها الألسن.

فالكنيسة بمثابة وطن متكامل لأبنائه في الاحتضان والتكافل بين الرعية.. وكلمة وطن يعني وطنًا، بكل مشتملاته ومؤسساته.. الأسقفيات التي تُشبه وزارات هذه الدولة للتعليم، والرياضة، وغيرهما.. دور المسنين التابعة لدولة الكنيسة ومخصصة لاستقبال العجائز الذين شردتهم الأقدار

ولم يجدوا مُعينًا وسندًا في آخر أيام العمر.. دور رعاية وتربية الأيتام المساكين.. المستوصفات الطبية التي تحمل أسماء السيدة مريم العذراء ومشاهير القديسين القدامى لتوقيع الكشف الطبي على المرضى بأسعار رمزية.. المُدرسون الذين يُقدمون مجموعاتٍ دراسية لغير القادرين.. حضانات رعاية الأطفال.. الدورات التي تُقدمها الكنيسة لتنمية مهارات الشباب وتطويرها لتناسب سوق العمل مع العديد من المتخصصين المسيحيين الذين يتبرعون بالوقت والجهد في نقل علومهم وخبراتهم للشباب، بخلاف الارتقاء بوجدان شعب الكنيسة بتعليم العزف والغناء والرسم، وغيرها من الأنشطة التي يصعب حصرها.

أنهى القمص الغامض اللقاء بابتسامة حانية معلقًا على كلماتي قائلًا: "ربما كنتُ واحدًا من رعايا الكنيسة قبلَ أن تَفقد ذاكرتك"، فقلت له: "أو كنت واحدًا من خصومكم المسلمين"، ولا أدري لِمَ سرح طويلًا في كلمتي الأخيرة، ثم ردد شاردًا وكأنه يُخاطب نفسه: "لستُ أعاديهم ويشهد الرب على كلماتي.. ليتك كنت مسلمًا لتشهد بنفسك"، ثم لمعت عيناه الأبية لأول مرة أمامي بالدموع!

....

اكتشفت أن عم (حنا) حارس مبنى الخدمات الذي أقيم فيه حكاية بمفرده..

تاريخ وموسوعة كنسية تمشي على قدمين..

سألته عن معنى كلمة (كرازة)، فأجابني:

- الكرازة هي المناداة علنًا بالإنجيل في العالم غير المسيحي، والتبشير العلني بعمل يسوع الفدائي، والدعوة إلى وصاياه وتعاليمه وتعريف الجميع بها، سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين.

أخبرني أيضًا عن جدوى استخدام الشموع هنا في الكاتدرائية وباقي الكنائس كطقسٍ كنسي لا غناء عنه، بخلاف إشعالها أمام أيقونات القديسين:



الشمعة التي يخرج بها الشمّاس من باب الهيكل ويتقدم الكاهن عند قراءة إنجيل القُدّاس تشير إلى يوحنا المعمدان الذي سبق السيد المسيح ليمهد الطريق قدامه، كما أن وضع شمعة أو ثلاث شمعات على الصليب عند مباركة الشعب إشارة إلى أن الذي علق على الصليب هو المسيح نور العالم وأنه بالصليب نقلنا من الظلمة إلى نوره العجيب.

والشمعة كالعابد ليس لها فخرٌ في ذاتها، فهي مفحمة لا نور فيها، باردة بلا حرارة، وتظل هكذا إلى أن تتحد بالنار.. حينئذ تلتهب وتضيء، فتبدد حُجب الظلام المحيطة بها، وتبعث الحرارة والدفء إلى مَنْ حولها.. فطبيعتها بدون عمل النار تافهة مهملة، مثل طبيعة الإنسان بدون عمل النعمة والإيمان في قلبه، حتى إذا اشتعلت بالنار صارت من طبيعة النار، وأنارت لا بطبيعتها الأولى وانما بطبيعة النار المتحدة بها.. كذلك المؤمن الذي ليس فيه صلاحٌ من ذاته ولكن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار.. من عند شمس البر الذي جعل وجه موسى النبي يضيء بعد اقترابه منه.

لذا توضع الشموع أمام أيقونات القديسين إشارة إلى أنهم كانوا نورًا للعالم، وأنهم كالشموع التى تذوبُ لتنيرَ للآخرين دروبهم.. وعندما نوقد شمعة أمام أيقونات القديسين فإننا نطلب شفاعتهم وصلواتهم أمام عرش النعمة.

وكلما كان المحيط ظلامًا، ظهر نور الشمعة بقوة أكثر مهما كانت صغيرةً وضعيفةً، فينتفع بها كثيرون.. فظلام الكون بأكمله لا يستطيع أن يكتم ضوء شمعة

منه عرفت سر تصميم معظم الكنائس على هيئة سفينة واقفة بشكل عمودي تتجه مقدمتها نحو السماء، كرمزٍ لسفينة (نوح) التي أقلت الفئةَ الناجية من البشر من غضبة الرب، حين أفنى عقابه الإلهي كل من عداهم من خلائق.

وعلى هاتفه المحمول شاهدت صورًا عديدةً له مع البابا كيرلس السادس بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، ومن بعده البابا شنودة، والبابا

تواضروس في أكثر من مناسبة، سواء عيد الغطاس الذي يتم تعميد الأطفال فيه على نهج تعميد يوحنا المعمدان للمسيح في نهر الأردن باعتبار التعميد هو البوابة الوحيدة للملكوت، أو عيد التجلي الذي تجلى فيه المسيح مع النبيين موسى وايليا فوق جبل طابور، أو رسامة القسيسين الكهنة من البابا، وغيرها من المناسبات الكنسية.

وعلى لسانه أيضًا ترددت حكاياتٌ لا تنتهي عن معجزات القديسين (مارمينا العجايبي) و(مارجرجس) والأم (تماف إيريني) وغيرهم، بعد أن عاش عمره كله بقلبٍ معلق بالكنائس والأديرة، راضيًا بأن يكون مجرد حارس بسيط، دون أن يسلك السلك الكنسي الذي لا يرى نفسه أهلاً لأمانته الثقيلة رغم إيمانه الأكثر رسوخًا من إيمان العديد من رجال الكنيسة.

ماتت زوجته، فتولى تربية ابنه الوحيد (ماجد) الذي سافر إلى ألمانيا مؤخرًا: «يشوف حاله بعد ما قلت له لقد ولدت في الأرض التي رعت المسيح في المهد، ولن أتركها أبدًا حتى أموت وأدفن فيها.. روح إنت وسيبني هنا مش مهم.. فيه معايا ملايكة هترعاني وتفرحني، مثلما رعى ميخائيل وروفائيل أم مراد».

وحكى لي قصة (أم مراد) صديقة الملائكة حسبما سمعها من القُمص (لوقا سيداروس) في كنيسة (مارجرجس) في الإسكندرية حين ذهبت إليه وعرفته بنفسها أنها أرملة وأم لثلاثة شبان، من بني سويف، ثم إذا بها تخرج لفة قماش مصرورة وقدمتها للقُمص قائلة: «خذ هذه الخمسين جنيهًا وابن لي بها كنيسة على اسم الملاك ميخائيل»، فقال لها: «إن خمسين جنيهًا لا تكفي لشراء رخام للمذبح، ونحن نبني الآن كنيسةً على اسم القديس تكلا هيمانوت الحبشي بالإبراهيمية، وهو صديقٌ للملاك ميخائيل، فممكن توجيه هذا المبلغ لبناء مذبح بالكنيسة باسم الملاك ميخائيل وهذا يوفي الغرض أما بناء كنيسة بأموالك القليلة فهذا أمر مستحيل».

حينها أخذت منه النقود، وقالت له: «أنت لا تملك الإيمان الكافي بأن ربنا ممكن يعمل بالقليل»، وبدأت تقص عجائب الملاك ميخائيل رئيس الملائكة معها، حتى قالت: «اطلب من السماء أي حاجة، وصدقني سأحضرها لك.. إياك ألا تصدق، فهذا الملاك صنع معي الكثير»، ثم ردت له المبلغ مرةً أخرى وهي تقول:«احتفظ بالنقود عندك، وحين تظهر

الكنيسة، اجعل هذا المبلغ خميرة للبركة وستُبنى الكنيسة به.. فلم أطلب شيئًا إلا وحصلت عليه وغدًا سترى صدق كلامي».
والعجيب أنه لم يمض أسبوعٌ حتى جاء إلى الكنيسة رجلٌ وقورٌ، جاوز الستين من عمره، كان يعمل مفتشًا للغة الإنجليزية هو وزوجته، ولم يكن لهما أولاد وكان يسكن في فيلا يملكها في منطقة مصطفى باشا، إلا أنها كانت فيلا صغيرةً في شارعٍ ضيقٍ ومنطقةٍ مقطوعةٍ، ليس فيها حركة ولا أنوار في الليل، يخاف الإنسان أن يسير فيها، وعدد المسيحيين محدود، وكان البابا كيرلس السادس موجودًا بالإسكندرية، فقال: «غدًا ستتغير الدنيا وتبقى كنيسة كويسة»، وفي اليوم التالي كان الأستاذ ميخائيل يُوقع على التنازل، وكتب أنه يتنازل عن ملكية الفيلا للبطريركية لإقامة كنيسةٍ باسم رئيس الملائكة ميخائيل، كما تمنت المرأة تمامًا!
وتم دفعُ الخمسين جنيهًا في هدم الفيلا، واقامة مبنى بسيطٍ لكنيسة الملاك ميخائيل في مصطفى باشا، وفيما كان العمال يحفرون الأساسات، إذا بهم يجدون قطعةً من حجر جيري برسم قربانة مملوء صلبانًا، وعَلِمَ الجميع بما لا يدع مكانًا للشك أن العمل من البداية هو عملٌ إلهي، وأن رغبة الست أم مراد أن تبني كنيسة كانت تحركها يدٌ خفية، إذ يتكلم الله في قلب مختاريه ويُحركهم لعمل مسرته.
وبعد سنواتٍ أراد أحد أبناء الست أم مراد وكان يعمل طبيبًا أن يذهب إلى السعودية ليعمل هناك بعض الوقت، وبعد مقابلةٍ مع وفد العمل السعودي الذي جاء إلى مصر وضع أمامهم شروطه التي توافقه من جهة المرتب وخلافه، ولكن لم يوافق الوفد على هذه الشروط، ورجع الابن من القاهرة تبدو عليه علاماتُ الضيق وحكى لأمه تفاصيل المقابلة التي انتهت بالرفض.. وكان يومها ٧ سبتمبر، وكان تذكار الملاك روفائيل مُفرِّح القلوب يقع في اليوم التالي، فرفعت هذه البارة قلبها بالصلاة، وقالت: «يا ملاك الله رافائيل، يا مُفرِّح القلوب، إن أسمعت ابني خبرًا يفرح قلبه قبل منتصف الليل سأعرف أن الرب سمع طلبتي بشفاعتك المقبولة»، وقبل منتصف الليل بدقائق دق تليفون المنزل، وكان المتكلم هو رئيس الوفد السعودي الذي أبلغ ابنها بقبول جميع الشروط وهنأه بحصوله على الوظيفة. فتبرعت هذه المرة بمبلغ ٢٠٠ جنيه، وتم حفظه كخميرةٍ صغيرةٍ تستطيع أن تخمر العجين كله، وفي غضون أسابيع قليلة تم شراء الأرض وبنيت كنيسة باسم الملاك روفائيل.. مُفرِّح القلوب.* للقُمص لوقا سيداروس

*ما ورد عن (أم مراد) مأخوذٌ من كتاب (رائحة المسيح الزكية في أبرار معاصرين)



وحين سألته: لماذا لم تفكر في الهجرة خارج تلك البلاد ما دام ابنك قد وجد خارجها ما أغراه على البقاء هناك؟ ضحك بطريقةٍ لم أفهمها وأجاب:

- التقيت منذ قريب بشاب ابن حلال اسمه شريف، جاء إلى مصر في إجازة سنويةٍ حيث يعمل مترجمًا في وزارة العدل الألمانية.. في أحد الأيام كانت عنده مهمة ترجمة ٤ قضايا خاصة بمحكمة القضاء الإداري الألماني.. وبالصدفة كانت كل القضايا تخص مصريين.. القضية الأولى كانت أسرة مسيحية كاملة، تطالب اللجوء لأن رب الأسرة كان يُشارك في تبشير الفتيات المسلمات في الصعيد بالمسيحية، وتسفير من تقتنع بالمسيحية منهم إلى أوربا للزواج هناك، وسبب الرغبة في اللجوء السياسي هو الخوف من بطش الإخوان وضباط جهاز أمن الدولة الذين يضطهدون المسيحيين.

القضية الثانية كانت تخص أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين الذي دخل إلى ألمانيا عن طريق صربيا والمجر، وسبب طلب اللجوء السياسي: الخوف من بطش أمن الدولة والمخابرات وأنصار الرئيس الجديد الذين ينتمي معظمهم للمسيحيين!

القضية الثالثة كانت لأسرةٍ مسيحيةٍ صغيرةٍ جميعها تريد اللجوء السياسي وسبب الطلب: الخوف من بطش النظام السياسي والأحداث الإرهابية وتهديدات جماعة الإخوان المسلمين.

أما القضية الرابعة فكانت لمواطنٍ مسلم معارضٍ للنظام السياسي الحكام، وكارهٍ لجماعات الإسلام السياسي ويريد اللجوء السياسي خوفًا من بطش النظام وتهديدات الإسلاميين.

ثم ابتسم وأنهى حديثه قائلًا:

- أخبرني الشاب المترجم أن القاضية استشاطت غضبًا وصرخت فيه بعد القضية الثالثة، وقالت: لا بد أن هناك شيئًا ما خطأ.. فإما أنك تترجم بشكلٍ غير دقيقٍ أو أن كل هؤلاء لديهم أزمة في فهم أوطانهم رغم كلّ هذا العمرِ الذي قضوه فيها، وبعد القضية الرابعة انفجرت من الضحك، وقالت: من المستحيل أن تجتمع كل هذه الأضداد في بشر أسوياء.. فمصر والشرق الأوسط في

حاجةٍ لدراسةٍ عميقةٍ يكون عنوانها: صدِّق أو لا تُصدق!

ترى قبل أن أفقد ذاكرتي كنت أنتمي حقًّا لتلك المنطقة الملتهبة في العالم؟ أم كنتُ أنتمي لمملكة أخرى أعيشُ فيها حياةً كريمةً، ثم ألقتني الأقدار البائسة في هذا الأتون لتلتهمني ظروفه القاسية كألف ضحية تسقط فيه يوميًا ولا تعرف وهي تصرخ وتتقافز ألمًا بأي ذنبٍ جاءوا وما السبيل للخروج؟!

....

مع كل يومٍ يمضي أكتشفُ داخلي شيئًا جديدًا لم يكن بهذا الوضوح حين استعدت وعيي لأول مرةٍ في المقابر..

صوتي الجميل الذي بهر الجميع حين اندمجت مع ترانيمهم ذات مرةٍ إلى الحد الذي دفعني إلى إغلاق عينيَّ وترديد تلك الكلمات التي لمستْ أعماقي بصوتٍ لم أحدد إن كان عاليًا أو خفيضًا.. فقط تركت العنان لمشاعري حتى تُعبر بالدرجة والنبرة الملائمة لاستمتاعي وتصديقي لما أردد، ولم أفق إلا وقد اختفت كل الأصوات من حولي ليكون صوتي هو الصوتَ الوحيدَ المتردد في الآفاق، وحين فتحت عينيَّ، كانت كل العيون تُحاصرني بنظرات الدهشة والإعجاب، في الوقت الذي اصطدمت فيه الكفوف وتباعدت بشكلٍ متكررٍ متلاحقٍ بسرعةٍ شديدةٍ حماسية.. علمت منهم بعدها أن هذا اسمه (تصفيق) للتعبير عن الإعجاب وتشجيع المبدع على إبداعه، أيًّا ما كان هذا الإبداع، فكان هذا سببًا للتمادي في عالم الغناء الساحر بعد أن وجدت لديَّ حنجرةً قويةً وحسًّا مرهفًا وصفوه بأنه قادرٌ على غزو الآذان دون استئذان، والسيطرة على الحواس والأنفس مع أول حرف يُغادر شَفَتيَّ..

بدأ الأمر بغناء الترانيم، ثم تدرجت إلى أغانٍ أخرى بت أسمعها عبر موقعي "يوتيوب" و"ساوند كلاود" في ذلك الهاتف الذي أهدتنيه (آيات)، بعد أن أخبرتني أن هذين الموقعين من أكثر المواقع التي ستمتعني في ليالي الوحدة حين ينام الكون من حولي وتبقى عيناي مفتوحتين..

جربت مرةً أن أكسر روتين الترانيم، واستعدت من ذاكرتي الجديدة بضع أغانٍ غير كنسيةٍ لأسماء مطربين ومطرباتٍ لم أعرف مدى شهرتهم ونجاحهم الجماهيري حين عشقت أغنياتهم وأنا أسمعها لأول مرة،

لكن يكفي أن تعليقات المستمعين والمستمتعين بتلك الأغاني في خانة التعليقات، كانت خير دليل على أن ما شعرت به لم يكن أمرًا خاصًا بي وحدي، إذ حلقت بي أصواتهم، والألحان المصاحبة للكلمات التي يشدون بها في عالمٍ آخر.. أرضه من الحنين، وسماؤه من الشجن، وهواؤه من الصَبابة، وأنهاره من الشغف، سكانه ممن أصابتهم أسهم العشق فاستمتعوا بما ينزفون من لوعةٍ وأنين، في صحبة الليل المُقمِر ذي النور الأبلج الذي يضيء القلوب ويسر الناظرين رغم مقدار الألم!

ما أن بدأت في غناء مقتطفاتٍ من الأغاني التي علقت بذاكرتي حتى انقلب الحال..

بدأت (آيات) الأمر حين داعبت الكمان، ثم تسلل (أندرو) من خلف ألحان الترانيم وجاء معنا إلى عالم المغنى، وأخيرًا لحق بنا (أمير) بالدرامز، قبل أن تُفاجئنا (كريستين) بحضورها وكأن القدر يُرتب لنا كل شيء على مسرح الحياة لتشارك معنا بالبيانو في وصلة غناء وعزف لم يشهدها مبنى الخدمات من قبل، ويصنع الجميع ما سمُّوه "بلاي ليست" بذائقة الحزن المستتر خلف ابتساماتهم الباهتة، ورائحة الماضي الذي رحل بكل شيء حلو، وترك ذكريات توجعهم حلاوتها بقدر عدم استطاعتهم أن يكرروها، فيما شعرت من جانبي بمتعةٍ مع إيقاف التنفيذ في ذاكرةٍ لا يسكنها سوى الخواء والتشويش.

لكل ما سبق وجدتني فجأة أردد:

ساعات بشتاق ليوم عشته وأنا صغير.. لشكلي قبل ما أتغير

لأيام فيها راحة البال.. عشان كنا ساعتها عيال

يبدو أن الأغنية جاءت على الجرح، حتى إن الجميع سرحوا في ذكرياتهم وهم يُشاركونني الغناء بصوتٍ يملؤه الشجن، وعزفوا على آلاتهم عزفًا وتريًّا بطيئًا زاد من اللحن الأصلي ألمًا وبؤسًا، ومع انتهاء الأغنية أخذت (آيات) تعزف بكمانها الحزين مقدمة أغنية (أوقات) ثم بدأت الغناء وحثتني بعينيها أن أشاركها فرددنا معًا:

أوقات يا دنيا معاكي بعيش.. وساعات ما بفهمكيش



وإنتِ ولا فهماني

وتألق في عيوننا الدمع ونحن ننظر لبعضنا وننسى الكون كله من حولنا ونواصل الغناء ببطءٍ وحزنٍ كصوت كورال يضرب المثل في التناغم والتوحد بين المُرددين:

صابر ع اللى بيجرالى.. وإنتِ لا ليكي عزيز ولا غالي

ثم سال خطان من الدمع الأسود الممزوج بالكحل من عينيها حين خفتت سرعة إيقاع اللحن المعزوف في اتفاق لم يتفق عليه الجميع ليبدو غناؤنا أقرب إلى الهمس ونحن نقول بصوتٍ مذبوح:

أوقات بتاخدي أعز الناس.. وأقول نصيب وخلاص

وأصبر على أحزاني

خفت الكلام حتى احتضر مع الحرف الأخير، واحتجنا لاستراحة محارب وكل منا يسمع صوت دقات قلب الآخر، فكانت فرصة لـ (كريستين) أن تخرجنا من سحر وتأثير أغاني (محمد فؤاد) لتضربَ أصابعها لوحات مفاتيح البيانو ضربات بدت أقرب للزغزغة وهي تعزفُ عزفًا منفردًا صولو وتغني لـ (دينا الوديدي) بصوتٍ بدا شديد الشبه بصوتها:

بعد البيبان في بيبان.. مرصوصة ورا بعضها

أفتح بقلب جبان.. واللا احتمي ف ضهرها

رد اللي بعد الباب، قال لي الطريق مفتوح

عدِّي البيبان دي حياة.. ما تجوزش غير لِطَمَوح

أشعل غناء (كريستين) غيرة وحماس (آيات) فاستنهضت إبداعها الذي غلبته الدموع، وبدأت في الغناء لـ (هبة طوجي) مع عزف اللحن الرحباني:

هلأ أنا عرفت مين اللي بيختار .. مرسوم ومكتوب بالعالي المسار

هلأ أنا عرفت ما عُدت هالبنت .. اليوم كبرت وصرت، وحدي اللي بختـار

ثم تضاعف حماسها، وحلَّقت بها المشاعر عاليًا ليزيد اندماجها، وتُلحِم

في الأغنية أغنيةً أخرى لـ (هبة طوجي) أيضًا..

متل الريح والريح ما إلها بيت
ولا حبك إلو بيت متل الريح
نازل بالحوراء تلويح
ويقلبي دمع وتجريح

ثم نظرت إليَّ وتابعت باندماج شديدٍ ضغطت فيه على أحبالها الصوتية لأقصى درجة وهي تُغني غناءً بدا أشبه بالصراخ:

أنا ياريت فيَّ أغيِّر الأيام
أكتب قدري بإيدي ودهري والأحلام
أنا ياريت فيَّ.. أحبس لك المية
شي ألف خبريَّه.. خَبِّرهُن للريح

ورغم أني لم أدخل عقلها، لكن حركات يدها وهي تعلو وتزيح أشياء غير مرئية لنا، جعلني أجزم أنها تتخيل نفسها محاطة بعشرات الستائر البيضاء، ومع كل خطوة تخطوها تزيح ستارًا جديدًا حتى تجدني في آخر الطريق المغطى بالستائر وهي لا تزال تُغني:

البارح جمعت لك.. من كل حقلي زهرة
واديتلك عطرا يا بُكرة أو مش بُكرة
رسالة صغيورة.. لا كِلمةِ ولا صورة
جوانحها المكسورة.. مرسومة ع الريح

بعدها جاء دوري وقلتُ لهم قبل أن أبدأ: "زي الملايكة" التي سحرتني حين سمعتها من (عمرو دياب).

فعزفت (آيات) مقدمتها الوترية الساحرة بكمانها الذي عانقت نغماته نغمات بيانو (كريستين) وكل منهما تنظر إليَّ وتسألني بعينيها: "أتقصدني أنا؟" وقبل أن أشرع في الغناء جاء (ألبرت) الذي تأخر علينا وفي عينيه غضبٌ شديدٌ من هذا الـ DJ الذي أقمناه في بيت الرب!

ذكَّرنا بأن مثل تلك الأغاني لا تُناسب طبيعة المكان الذي ينبغي أن نُرنِّم فيه فقط ونملأه بالقدسيات والروحانيات، إلا أن (أندرو) رد عليه مستشهدًا بالقُمص (بيشوي كامل) الذي كان قديسًا وفي الوقت نفسه من عشاق (أم كلثوم) إلى حد أنه كان يسمعها باستمرار عبر شرائط الكاسيت في سيارته، وانتبهت في نقاشهما الساخن كيف أن المرء داخله صراعٌ أبدي بين أنوار الروح وظلام المادة.

وبعدها الأغاني – بعد كلمات الرب– قادرةٌ على فرض حالةٍ من الهُدنة، ليجد البدَن والروح أخيرًا حلًّا وسطًا يُرضي كلا الطرفين في الطريق إلى الراحة والسعادة، فقط إن كانت بإحساسٍ صادق، وعزفٍ راقٍ يمس الروح والجسد، ويصعد بهما إلى درجةٍ أعلى، وإلا فستكون فتنةً تؤدي إلى السقوط.

....

ثمة اكتشافاتٌ أخرى في ذاتك قد تكون مصدرًا للحرج، وتجلِب ضحكات الآخرين عليك بعد أن كانوا يصفقون لك بالأمس، مثل حُب الأكل والشرب لدرجة النهم والاستيقاظ في منتصف الليل وأنت تشكو من معدةٍ جائعةٍ تكاد تلتهمك بكل شراسةٍ إن لم تلق إليها ما يُخرِس عواءها المزعج الضارب في كل حواسك ووجدانك.

تبًا لكِ يا (آيات)..

ففي عنقك الجميل سيظل ذنبي عالقًا للأبد بعد أن عرَّفتني بشهوة الطعام الذي تناولته معك من أشهر مطاعم الإسكندرية، وحوَّلتي المأكل من مجرد وسيلةٍ لكفاف الجسد وسد رمقه بكسرة خبز وشربة ماء، إلى تعاويذ وطلاسم يستخدمها الطباخون المهرة في محلات الطعام لسحر من يأكل ما صنعته أيديهم وإخضاعه لعبودية البطن، فيتحكمون به ولو كان يغط في سابع نومة على سريره، حتى يستيقظ ويبحث عن أرقام خدمة التوصيل للمنازل!

لاحظ عم (حنا) ذلك فأخبرني –بعتاب– أن المسيح والأنبياء وكل الأحرار العظام الذين صنعوا الأمجاد وغيَّروا التاريخ الإنساني وخريطة النفس البشرية كانوا أقل الناس اهتمامًا بنداء البطن حتى لا يقعوا عبيدًا لنهمهم وشهواتهم، ويُضيِّعوا أعمارهم في البحث عن الطعام وإشباع ملذاتهم بدلًا من تحقيق رسالاتهم في أقوامهم.

أخبرني عن ذلك الفيلسوف (غاندي) الذي كان أكثر الناس حرية وهو ينطلق هنا وهناك حافيًا على قدميه، لا يملك إلا مغزل صوف يدويًّا بسيطًا، وكيسًا به بضع تمرات، وعنزة يشرب من لبنها ويصنع من صوفها أقمشته التي يلفها حول جسده.

"خُلق الطعام ليكون في خدمة الإنسان، ولم يُخلق الإنسان ليكون في خدمة الطعام، ولا يحق للمرء منا إن يصرخ: "أين الطعام؟ لقد فقدت حريتي في الأكل والشرب"، إن كان لديه الحد الأدنى من الكفاف، وما يزيد عن الكفاف ليس حرية؛ بل عبودية لما تلوح به أيادي الدنيا الفانية في تحالفها مع الشياطين".

صدقت يا عم (حنا)..

لكني جوعان للغاية!

....

تقول المسيحية إننا سنقوم في القيامة العتيدة بأجسادٍ نورانية، روحانية، كملائكة الله في السماء، وهو إحساسٌ ينتابني بالقشعريرة كلما حاولت تخيله..

هؤلاء الملائكة محظوظون حقًّا بقربهم من الخالق، وقدراتهم الفائقة، وعيشتهم السعيدة في الملكوت الأبدي.. ترى هل أستحق يومًا أن أكون مثلهم؟

هل سأتخلص من الخطية والحروب الروحية؟

هل سأتخلص من المادة، وأخلع هذا الجسد، وأترك العالم المادي كله؟

هل يعفيني وضعي الحالي كفاقدٍ للذاكرة من ماضٍ قد يكون بغيضًا أو كارثيًّا؟

وماذا عن الحاضر؟

والمستقبل؟

والاختيار الواجب عليَّ اتخاذه في الخطوات التالية لأنال السعادة التي يحلم بها كل البشر في العالم الآخر؟

كلها تساؤلاتٌ تؤرقني، في اختبار قد ينتهي الوقت المحدد له في أي لحظة..

وما زلت لا أعرف الإجابة.

....

من جديد التقيت بالحاخام (موريس)..

كان ذلك حين فوجئتُ به أمامي في مبنى الخدمات، بابتسامته الودودة، قائلًا إنه جاء لزيارة صديقه القمص (يوسف) والاطمئنان عليَّ بعد أن يعد في آخر أيام عمره من شعر –على حد قوله– أنه مثل أولاده بحق..

اندهش الرجل حين شاهد معي هاتفي المحمول، وغمز بعينه وهو يسألني عمن أهداه لي، ثم أعطاني رقم الخط الذي اشتراه في مصر، وساعدني على حفظه في هاتفي، مؤكدًا أن إقامته ربما تطول لأيام، وعندما سألته عن السبب شرد قليلًا ولم يُجب، قبل أن يربت على كتفي ويغير مجرى الحديث قائلًا:

- انتبه يا ولدي، ففي لحظةٍ واحدةٍ قد يتغير كل شيء!

....

ذهبت اليوم للقاء (كريستين)، بعد اتصالاتٍ عديدةٍ من جانبها كانت تبدأ لأسباب مفتعلةٍ وحجج واهيةٍ، قبل أن ينعم صوتها الرقيق الناعم ويصير أكثر جمالًا وسحرًا، ثم تخطفني وتحلق بي عاليًا مع ضحكاتها المثيرة التي تترك وراءها خرابًا أكثر هولًا من دمار الحروب، لأسألها بأنفاس لاهثة لتماسكٍ يحتضر وقدرةٍ على الاحتمال وجدت أخيرًا من يكسرها بما يفوق طاقتها:

- إنتِي عايزة إيه؟
- عايزة أقطّعك!
- !!!!!!!!!!!!
- بهزر على فكرة.

وكم من هزلٍ عابرٍ كشف عن جدٍّ دفينٍ!

انشغلت في طريقي إليها على إجابة تلك أسئلة التي دارت بيني وبين نفسي: هل ستقابلها لتُعلن استسلامك بعد أن تحطمت أخيرًا قدرتك على

الصمود؟ أم لتقول لها كُفّي عن هذا الهراء وابحثي عن فريسةٍ أخرى تستسلم لحيلك المكشوفة؟ أم لتسترحمها أن تعيد إليك تماسكك وتوازنك اللذين سرقتهما منك بعد أن احتلت جهازك العصبي إلى الحد الذي منع إصبعك من طاعة أوامرك حين هممت بالضغط على زر إغلاق الخط وهي تتعدى حدودها معك في أكثر من مكالمة؟

وقبل أن أصل إلى الإجابة كنت قد وصلت إلى شاطئ البحر الذي فيه تواعدنا لأجدها تنتظرني وقد حضرت قبلي لتكون في شرف استقبالي كما قالت باسمة.

كعروس بحرٍ جميلةٍ فرَّت من عالم الأساطير، كانت ترتدي فستانًا أبيض قصيرًا، يكشف عن ساقين ملبنيتين، وذراعين ملفوفتين لم يجدا أكمامًا تسترهما.. فقط كانت هناك حمالتا كتفٍ رفيعتان، فيما التصقت حبات الرمال المحظوظة بقدميها الحافيتين المبللتين بماء البحر، وعلى بعد خطواتٍ كانت هناك فردتا صندلها الأبيض مقلوبتان على الجنب بعد أن تحررت أصابعها الجميلة من سطوتهما.

أقنعتني قبل أن يبدأ الكلام بتحرير قدميَّ أنا الآخر، حتى لا تقيدنا القيود وتكون للكلمات مُطلق الحرية في الخروج من الفم دون أن تعبر على أي فلتر من فلاتر التردد وحسابات التفكير البغيضة التي طالما تسببت في خسارة البشر لا سيما حين يتعلق الأمر بالعاطفة.

إذن فقد حانت لحظة المصارحة، وهذا أكثر ما يعنيني بعد أن أعلنتُ استسلامي في محاولات إجابة ذلك السؤال المستحيل: "ماذا تريد النساء؟"

دغدغة في باطن القدمين تسللت إلى نفسي أثناء السير معها بفعل الرمال التي تعشق اللهو واللغو، لكنها وقت الجد تبيع خطى السائرين فوقها وتمحو آثار أقدامهم مع أول موجة بحرٍ تصل إليها، أو أول هبة هواء تُحرك حباتها، دون أن يكون لها عزيزٌ أو غالٍ.

بدأت الحكي الصريح، فقالت:

- الحب مثل المخدرات، إن كان متاحًا مباحًا سهل المنال، فسيزهده البشر ولن يلهثوا خلفه.. قيمته الحقيقية تتناسب طرديًا مع عذابه

وألمه واستحالة حدوثه أو وصوله إلى النهايات السعيدة.

الذين يحملون الزهور، ويستأذنون قبل الدخول، ويُحافظون على كلِ ما ينتمي لمنهج الأخلاق الحميدة قد يكونون أناسًا لُطفاء حقًا ويستحقون الثناء والمديح، لكنهم بؤساء إلى الحد الذي يستحق الرثاء على افتقادهم لكتالوج الحب الحقيقي الذي تنص صفحاته المليار على أنه لا فرق بين العاشق والمدمن، كلاهما متعته الحقيقية في مخالفة القوانين، والسير في الحواري الضيقة والأزقة المظلمة وهم يتلفتون حولهم حذرًا من الشرطة، وبحثًا عن ذلك "الديلر" الذي يمدهم بالمخدرات التي ستكون بلا جدوى أو أهمية إن لم يسبق الحصول عليها الإحساس بالمغامرة، وذلك الأدرينالين الذي يتدفق في العروق لمقاومة الشعور بالخطر، وهو السر وراء انخفاض نسبة الإقبال على شراء المخدرات المغلفة من السوبر ماركت في هولندا بعد أن جعلت تجارة المخدرات متاحةً ومشروعةً، والسر نفسه في عدم اكتمال قصص الحب التي تبدأ بـ: أتسمحين لي؟، أو بعد إذنك!

لذا لم أكترث بكل من هاموا بي حبًا لأنهم لم يُدركوا أن المرأة الجميلة تعشق من يُغازلها بوقاحة.. من ينظر لها بجرأةٍ.. من لا يكترث بأقاويل البشر ونظراتهم إليه وهو يتمادى في التعبير عن إعجابه.. لكنها أكثر انجذابًا وعشقًا لمن تقع عليه عيناها وحده، رغم أنه يقف وسط عشرات البشر، ورغم فتنة الآلاف بها فإنه يبادلها النظرات، ويمضي في دربه كمغناطيس لا يُبالي بالمسامير التي تتطاير حوله وتنجذب إليه، حينها فقط تزداد فرصة انجذابهما كقطبي مغناطيس مختلفين مصيرهما الالتصاق إذا ما اقتربا.

قبضتْ على يدي فجأةً بقبضةٍ قويةٍ محكمةٍ لا فكاك منها وهي تتطلع إلى عينيَّ بنظرةٍ مليئةٍ بالشبقِ والرغبةِ، وأردفت:

للحب صيغة مدوخة لا تكتمل أبدًا، وكل دقيقة في أي علاقة تعمل ضد الدقيقة التي كانت قبلها وفقًا لناموس الزمن الذي

يُضعف من قوة العلاقات، فلماذا لا نجعل الفراق خيارًا بمحض إرادتنا لتبقى من بعده طعم المتعة في ألسنتنا إلى الأبد، بدلا من فراقٍ جبري ننشر فيه غسيلنا المتسخ أمام العالم شأن كل العشاق الحمقى بعد أن يكتشفوا الوجه الآخر لعملة الحب القبيحة؟!

لماذا لا يمنح كل منا الآخر ما يشتاق إليه ويمضي في سلام متصالحًا مع الوداع، بدلًا من الخوف منه بشكلٍ يُفقدنا طعم الإحساس بالنشوة في لحظات الاقتراب؟

دعنا نقترب قليلًا ثم يرحل كل منا إلى وجهةٍ أخرى سرعان ما يُبدِّلها مثل النحل الذي يَحُط على كل أنواع الزهور فيُخرِّج عسلًا مُصَفًّى.. فأنا لا أريدك لي وحدي مثل كل العشاق الأنانيين الذين كلما حاولوا تحقيق هذا الحلم المستحيل كلما كانوا قاب قوسين أو أدنى من الخيانة أو الفراق.

أريدك أن تدخل عالمي، وأعدك بأنك ستكتشفُ مواطن جديدة للمتعة لم يطأها بشرٌ قبلك، وبالمثل امنحني شرف دخول عالمك الذي أثق أنه مليء بالأسرار الجديرة بالاكتشاف بعد أن نوقف عمل الضمائر بكذبةٍ مشروعةٍ تقول إننا لم نكن نقصد!

هيا بنا نكذب بطريقةٍ أكثر احترافية كرجال الدين، والمفكرين، والساسة، وكل الذين يبدون في غاية الاحترام والمهابة من ذوي اللحى ورابطات العنق الأنيقة الذين يقولون لأنفسهم نفس المبرر.

مع كلماتها الأخيرة كنا قد وصلنا إلى شاليه فخم يُطل على البحر..

أمسكت بيدي واقتربت منه ولم تتركني إلا لتُخرج مفاتيحها وتفتح بابه بسرعةٍ قبل أن تسحبني من يدي بابتسامةٍ ساحرةٍ، وهي تكرر:

- قلت لك من البداية، لا تفكر كثيرًا في كل فعل تُقدِم عليه، فهناك أمورٌ تفقد الكثير من طعمها إذا ما مرَّت على فلتر العقل الذي يُنقي الحياة من المتع والسعادة الخفية، فبئس من يستخدمونه!

* * *



مذكرات ايـــات

لا أصدق أني عُدت للكتابة والتدوين من جديدٍ بعد سنواتٍ طوالٍ استبدلت فيها إغواء القلم بفتنة الجسد، وتحولت خلالها من راوٍ ينسج مصائر الشخوص، إلى مجرد شخصيةٍ دراميةٍ بائسةٍ حبيسة المفعول به، وها قد حان الوقت أخيرًا لتصحيح الأوضاع، وإعادة رسم خطة الغد بخطوطٍ عريضةٍ، لعلني أجد في الصفحة الأخيرة خاتمة السعادة معك.

الكتابة ليست سوى استرجاع لحظات نادرة، الحياة نفسها مرَّت عليها بشكلٍ عابرٍ ولم تلتفت لها أو تسجلها في سجلات البشر، وابتكار لحظاتٍ جديدة نحياها على الورق قبل أن تدبَّ فيها الروح.. هي تعويضٌ جميلٌ عن كل الخسائر.. إنقاذ مواقف ومشاعر من الاحتضار، وتخليدها أبد الدهر في عالمٍ يزول فيه كل شيء بالموت إلا ما هو مكتوب.

وحين نكتب عن الحب، فالناسُ جميعهم كُتَّابٌ يُحاولون استشراف الخطوة التالية، لكن ماذا لو جاء الحب بشكلٍ ماكرٍ في اللحظة غير المناسبة؟

هنا تكون الخطوةُ التاليةُ مثيرةً للشفقة وتشبه عمل الخير للحصول على نعمة الجنة المؤجلة في اختبار وجودي، الرسوبُ فيه لا يُعطي فرصةً أخرى في دورٍ ثانٍ للإعادة، وهذه هي الخسارة المعقدة التي تخاف منها الكتابة، لأن الخاسر لن يجد أبدًا ما يعوضه!

....

كل شيء في حياتي تغير بعد أن ظهرتَ في عالمي المظلم وأنرت دروبه القاحلة..

عُدت لحضن آبانا (يسوع) الذي لم أهجره فحسب؛ بل مررت بلحظاتٍ نسيت فيها أنه موجودٌ أصلًا!

استعدتُ حريتي وخرجتُ من سجن الشيكات، وسجن الجسد في آنٍ واحدٍ وصرتُ كعصفورةٍ بمطلق الحرية تحلق في الأعالي بعد أن انقرضت النسور والصقور، واختفت من الأرض بنادق الصيادين!

حتى (دميانة) المهجنة من لبؤة شرسة وثعلبة ماكرة، صارت هجينًا آخر يحوي وداعة الحملان ووفاء الكلاب، وإن احتفظت في كلتا الحالتين بخفة ظل القرود، مثل تلك اللحظة التي عادت فيها لسيرتها الأولى حين مصمصت شفتيها وتندَّرت على سخريتي من بُخلها ومواقفها القديمة التي لا تُنسى معي، قائلةً بجد أقرب للهزل:
– تبًّا للطبيبين عديمي الأصل، الذين لا يصونون سوء المعاملة!

لكن.. لم يكن تحولها جذريًّا إلى درجة تغيير قناعتها من النقيض للنقيض في كل شيء، فقط تبدلت في طريقة معاملتها معي وصارت أكثر كرمًا وعطاء بشكلٍ مذهلٍ وكأنها تدفعني دفعًا للاقتراب من هذا الفتى الخارق، بينما ما زال الطريق بينها وبين الرب وعرًا للغاية، وبعد أن كان مغلقًا للتحسينات، وضعت فيه أكبر قدرٍ من المتاريس والعراقيل بإصرارٍ أثار دهشتي وحيرتي كنفس الدهشة والحيرة التي أصابتني مع تغيرُ نبرة صوتها المفاجئ، وتقلب أحوالها على مدار اليوم بين لحظاتٍ سقيمةٍ ينحني فيها ظهرها وتخمد حركاتها وكلماتها، ولحظاتٍ أخرى يدبُّ في جسدها الطاقة والحركة، ويتوهَّج حماسها مع تلك الكلمات التي بها أكبر حشد من الإقناع والحجج التي تنكر كل ما هو مقدس وتهدم أساسه.

خلتُ أنها ستنظر للسماء أخيرًا وتفيء للخالق على ما بدر منها بعد أن رأت معجزة تحول التراب إلى ذهب بفعل قلبٍ مؤمنٍ حق الإيمان، فإذا بها تزيد إصرارًا على التعنت والعناد إلى حد تحولها من ناقمةٍ على الرب الذي تخلى عنها وتسبب في الكراهية بين البشر –على حد زعمها– إلى ناكرةٍ لوجوده بأدلةٍ بدت أكثر عقلانية وحرفية في الإقناع، لا أعرف متى وكيفَ اكتسَبتها، لكنها أربكتني للغاية وأنا التي تركب مركبًا بدائي الصنع في بحر الإيمان متلاطم الأمواج، لا يحتمل شراعي رياحًا قويةً، ولم أتعلم بعدُ السباحة في مائه إذا ما سقطت مجددًا، وقد نلتُ من الغرق في وحْل الماضي ما يكفي، فكنت أفرُّ من حصار كلماتها وسخف إصرارها إلى دين عينيك الذي رسخ إيمانه في قلبي إلى حدٍّ يكفي أن أكون نبيةً تُبشِّر بها الإنسانية كلها، لكني لن أفعل لأني لا أريد أن يؤمن بك سواي، لأحصل وحدي على جنتك التي لا أقبل أن ينازعني فيها أحد.

فكم مقدس أنت، حتى إني أفكر في خلع نعليَّ حين تجول بخاطري!

عيناي تحرقانني، ونعاسُ الدنيا كله قد حل عليهما.. تبًّا للنعاس الذي

يأتي دائمًا في أوقاتٍ غير مرغوبٍ فيها وجوده، فيفرض نفسه كمحبٍّ لزجٍ يريد الارتباط بمحبوبته قسرًا.

(هااااااوم) حسنًا.. ها أنا أعلن استسلامي.. سأخلد إلى النوم ثم أعاود الكتابة عنك غدًا..

كلا.. لم أستطع النوم والعقل والقلب يفكران فيك بيقظةٍ أقوى من سلطان النعاس، والقلم يتجلى عليه الإلهام في صورته البكر المليئة بالإبداع.. سأعاود الكتابة إذن بعينٍ مغلقةٍ وأخرى مفتوحة، بعد أن ذقت معك متعة الكتابة التي أسمع فيها صوتي وهو يحكيني، وجعلتك بطلي الوحيد في قصةٍ ليس فيها سوانا..

وكيف لي أن أنهي قصةً أنت بطلها؟!

....

تحت وسادة كل منا حقيقته التي لم يقترب منها بشرٌ.. دموعنا الحزينة التي لم يشهدها أحدٌ حين دفنا فيها وجوهنا وباحت الصدور بأصوات القهر والنهنهة، دعواتنا التي كنا يومًا مستعدين أن ندفع أعمارنا بأكلمها ونضحي بكل ما نملك من أجل تحقيقها، لومنا وعتابنا للسماء في لحظة مصارحةٍ مع الرب الذي غضبنا من تأخره في العطاء بقدر ثقتنا في قدرته على الإجابة..

فإذا كانت أطرافنا وحواسنا ستشهد علينا يوم القيامة بما اقترفنا بها في الدنيا، فسأطلب من الله أن يستنطق وسادتي التي لم أنفذ بها الخطايا لكنها تعلم ما وراء الأفعال والأقوال بينما كانت الأطراف مجرد أدواتٍ تُنفذ بلا فهم..

آه لو تحققت المعجزة وبُعِثَ المسيح من جديدٍ في هذه الدنيا.. سأطلب منه أن يخلق فيها الروح مثلما أحيا الموتى ذات يوم، وعندها ستعلم يا حبيبي من هي عاشقتك حقًّا وصدقًا، مثلما نظر يسوع إلى المجدلية ورآها من الداخل!

....

حتى بعد إسدال ستار النوم على عينيَّ بشكلٍ مباشرٍ وكأن أحدهم جذب

مقبس الحياة وفصل عني تيار الوجود، ما زلتُ أراك أمام عيني وكأن صورتك البهية قد تزوجت من مقلتيْ عينيَّ زواجًا قبطيًّا لا انفصال فيه في اليقظة والنوم، فأزاحت كل ما عداها من صور، وصارت هي أصل الأشياء وكل ما دونها مجرد استثناء وشذوذ عن القاعدة.

الفارق الوحيد بين الواقع والخيال، أنني أراك الآن في أعظم لحظة في تاريخ البشرية..

أمنا (حواء) تتأبط ذراع أبينا (آدم) في يوم القيامة على باب الفردوس ينتظران إتمام مراسم الدخول، وفريق هائل من الأطفال بيض الملابس يقفون على جانبيْ جسرٍ عظيمٍ تسير عليه البشرية ببطء وحذر، من تحته جهنم التي يتساقط فيها الملايين، وأنا وأنت نسير بتأنٍ وداخلنا اليقين في أننا من الناجين..

فجأة أصابتني طاقةٌ غريبةٌ حوَّلت جسدي المادي إلى جسدٍ نوراني اندفع سريعًا للأمام ليعبر الجسر ويصل إلى بر الأمان وحيدًا، وحين نظرت نحوك رأيتك لا تزال تخطو بخطواتٍ وئيدةٍ متمهلةٍ في منتصف الطريق، ثم إذا بآلة كمانٍ تهبط عليَّ من أعلى، وصوتٍ عميقٍ يقول لي: فلتعزفي مقطوعةً موسيقيّةً تليق بلحظة دخول الجنة!

بدأت يداي بالفعل في العزف على الكمان النائمة على كتفي، وصاحب عزفي همهماتٌ عميقةٌ ذات طبيعة أوبرالية جعلت من الأمر ما يُشبه الملحمة في اللحظة التي انفتحت فيها أبواب الفردوس على مصراعيها لينساب الأطفال بيض الملابس من على جانبيْ الجسر ويكونوا أول من يدخل، وخلفهم توافدت باقي البشرية في الدخول، فيما قرر (آدم) و(حواء) أن يكونا آخر الداخلين بعد الاطمئنان على نسلهما.

حمدًا للرب، ها أنت تصل يا حبيبي إلى نهاية الجسر، لكن..

نظرة (آدم) المريبة نحوك لم تطمئنني، وحين أشار بحزنٍ نحو يدك، انتبهت بدوري لأول مرة إلى تلك التفاحة التي تمسكها ويبدو أنه مقضومٌ منها جزءٌ كبيرٌ..

توقفت بدوري عن العزف، في اللحظة التي نظرتَ فيها بدورك إلى التفاحة التي تمسكها وأنت ترفعها أمام وجهك ببطء وكأنك تفاجأت بها

ولم تنتبه لها من قبل، وتبادل كلانا نظرةً ملتاعةً قبل أن ينهار الجسر بك كآخر الساقطين بعد أن كان بينك وبين النجاة خطوةٌ واحدةٌ، فأخذتُ أصرخ وأصرخ وأصرخ، ثم أستيقظ من النوم وأنا أردد: "بسم الصليب.. لا يمكن أن تكون هذه النهاية"، ولم أدر وقتها لِماذا خُيِّل إليَّ أني سمعتُ ضحكاتٍ مجلجلةً من (دميانة) رغم أني حين نظرتُ نحوها وجدتها تغط في نوم عميقٍ!

....

طوال عمري محرومةٌ من خيار الحظ في حياتي، لكني لم أكن أعرف أن الحظ يكرهني إلى هذه الدرجة إلا حين زارنا في السطح ذلك المندوب من إحدى شركات مساحيق الغسيل الكبرى.. سأل عن نوع المسحوق الذي نستعمله، فوجدنا نستعمل مسحوق شركته.. طلب 5 أكياس ليتأكد وبالفعل كان لدينا وأعطيناها إياه، فكانت الهدية رحلة حج إلى أراضي المسلمين المقدسة!

هذه بلا فخر الجائزة الوحيدة التي فزت بها في حياتي.. لذا تركت الرد المناسب عليه لـ (دميانة) وأنا أضحك بشدة، وكم من ضحكةٍ يختبئ خلفها حزنٌ عميقٌ، أو غيظٌ مكتومٌ، أو حجة مهزومة فشلت في فرض نفسها على السامعين، أو خجل من حقيقة لا يمكن نفيها أو التبرؤ منها، أو خليطٌ من هذا وذاك.

....

منذ نجاتي من براثن (ريمون) ورجاله، وأنا عديمة الاعتناء بجسدي الذي كان رأس مالي ذات يوم.. فما أسوأ أن يُذكِّرك جسدك الذي يتعين عليك مشاهدته كلما نظرت للمرآة بمأساتك وماضيك، فلا أنت تستطيع أن تخلع وتغير هذا الجسد الذي ترتديه روحك، ولا أنت بقادرٍ على التصالح مع الماضي.

لهذا السبب طالت شعيرات ذراعيَّ، ورجليَّ، وإبطيَّ، وعانتي، دون أن أخشى من اشمئزاز الزبائن، لكن حين تخيَّلتك معي في لحظةٍ سيهادينني بها القدر وتساوي في سعادتها شعوري وأنا أسمع اسمي في كشوف الفائزين بدخول الجنة، كلما كان التخلص من هذا العار فضيلةً واجبةً.. فاستعادةُ أنوثتي فرضٌ أساسي في عقيدة التعبد في عينيك التي لا يجب

أن تقع إلا على ما هو جميل.

مع كل شعرةٍ أنتزعها من جسدي بوسيلة إزالة الشعر التقليدية التي تأخذ من الحلاوة أسمها، وتُخفي في باطنها الألم الشديد، كنت أتأوه بشدةٍ لوجعٍ لم أعتده يومًا بعد مرور كل هذه السنين، لكن عينيَّ المُغمَّضتين كانتا تريان في خيالهما صورتي وأنا أرتدي فستان الزفاف الأبيض العاري، وقد كشف عن جسدي الأملس الناعم، فينتزعني الخيال من هذا العالم الكريه بكل ألمه، كما يُنزَع الشعر الزائد من الجسد.

....

وما زالت مأساتي مستمرةً، مع الصور الفوتوغرافية التي لا يُعجبني فيها شكلي، دون أن أجد إجابةً لذلك السؤال الأزلي: لماذا لا أظهر في الكاميرا بنفس الهيئة الجميلة التي أراني بها في المرآة؟

ما فائدة وجه البطة والغمزة والقُبلة والكتف البارز المائل للأمام مع نظرة إغراء وغيرها من إماءات وحركات أستكشف بها ما أبدو عليه وأنا أجربها أمام المرآة كبروفة للحظة زمنيةٍ أريد تخليدها في صورة، فإذا بالصورة في كل مرة أقرب لشوقي المكوجي مني؟!

تُرى كيف أبدو في عينيه اللتين تريانني بشكلٍ يختلف عن عدسة الكاميرات وزجاج المرايا؟

....

رغم كل المخاوف من رجال الشرطة، ورجال (ريمون)، والمخاطر المجهولة الأخرى التي لا نعلمها ويعلمها القدر الذي رتَّبها لنا، طلبت منه أن نقضي يومًا معًا، بعيدًا عن أعين كل من نعرفهم ويعرفوننا لأذوق طعم القرب منه بمفردي، دون الحرج من نظرة قسٍّ، أو خادم.

صحيح أن الكنيسة وخدماتها في وجوده صار لها طعمٌ آخر، لكن حتى ملكوت السماء لا نستطيع أن نكتفي به طوال الوقت ما دمنا نسكن الأرض بعد.. ثمة أمور أخرى فينا لا تشبعها الروحانيات وقد خُلقَت النفس في جسدٍ حيواني كثيفٍ له مشبعات أخرى غير الدين، لذا يبحث عنها -رغمًا عنه- خارج دور العبادة.

فوجئت أن داخله نفس الاحتياج، ورغبة شديدة في البحث، لكنه لم

يوضح إن كان البحث عني أو البحث معي.

التقيته أمام مبنى الخدمات في تلك الساعة التي تسبق شروق الشمس، حتى نغادر المكان في حماية جُنح الظلام الساتر، وأنا أرتدي قبعةً بيضاء كبيرة ذات قرص عريض، وسروال قصير من نوعية الـ"برمودا"، و"صابو" سهل الخلع في أي لحظة أود فيها أن أسير معه حافية، وعلى كتفي حقيبة كبيرة بها فستان أحمر حمالات، من قماش ستان لامع قصير ليناسب السهرة، وجورب شيفون أسود أعشق منظر رجلي فيه استعدادًا لارتدائه حين يحل الليل بعد أن نمضي معًا يومًا بأكلمه من أجمل ليالي العُمر..

غمرتني فور أن وقعت عيناي عليه سعادة الكون كله، غير مصدقة أنني سأنال شرف مواعدته وصحبته بعيدًا عن الصخب، والعراك، والدم، والمطامع، وتلك الحيوانة التي تحوم حوله واسمها (كريستين).. فصحيح أني لم أدرس طب بيطري، لكن لديَّ خبرةً لا بأس بها في الكلاب الضالة.

سنصنع يومًا استثنائيًا يُباهي به الله ملائكته ومن يأتي من بعدنا من البشر، ليعرض عليهم تفاصيل هذا اليوم، قائلًا: "لم لا تكونوا مثل هذين القلبين؟"!

يومٌ بلا ذنوب وخطايا.. تتحقق فيه الأماني المشروعة، وتُستجاب فيه الدعوات، ولا تعرف القلوب الضيم.. يومٌ تفصيل على مقاس قلبينا.

فوجيء حين التقاني بآلة الكمان في جرابها المعلق على ظهري، فابتسمت ابتسامة لم أشاهدني وأنا أتبسَّمها، لكني خِلتُ أنها كانت رقيقةً صافيةً كقلب طفلٍ طاهرٍ حين قلتُ له: "سأغني لك وحدك، وأعزف لك وأنت تغني لي بمفردي، في تلك اللحظات التي سنقتنصها على بحرٍ خاوٍ من البشر وكأنه خُلق لنا وحدنا، فيما نامت كل العيون حولنا واستيقظنا معًا قبل باقي المتطفلين".

وحين صعدنا تلك الصخرة في قلب البحر، أخبرته أن لي فيها ذكرياتٍ أليمةً حين كُنتُ أناجي البحر مناجاةً حزينةً بدموعٍ لم أجد يومًا من يمسحها، لذا أردت أن أمحو بأخباري السعيدة التي نكتبها اليوم لذاكرة الغد، ذكريات الأمس البائسة التي كتبتها الأقدار لليوم.

ثم أخرجتُ الكمان وقد بدأ نور الشروق يتسلل في السماء على استحياء، خالقًا لونًا رماديًا حائرًا بين الظلام والضياء، وطلبت منه أن يختار أغنية أعزفها له، فاختار (دوَّريني) التي أعشقها لفريق الـ (مغني خانة) رغم أنها كانت تحتاج إلى بيانو، لكني أعطيت لمقدمتها طعمًا آخر بلمساتي على الأوتار قبل أن يختلط صوته بعزفي قائلًا:

دوَّريني في عقل بالك.. في الرخام أو في الكلام

في الدولاب المستخبي .. جوة في أوضة المنام

دوَّريني في أسطوانتك

غنوة كل كلامها عنك

في عينيكي وف مرايتك

أو في كشكول الغرام

كدت أن ألقي الكمان، وألقي نفسي في حضنه.. فثمة أصوات جميلة من فرط فتنتها لا يكفيها التصفيق وكلمات الإشادة والإعجاب، ويكون الحضن هو أقل جائزة تمنح لها، لكني تمالكت نفسي بمعجزة ورددت على عظمة صوته ومشاعره بأغنية (حيطة أمل) التي عزفتها وغنَّيتها وعيناي سارحتان في ملكوته، وقد شعرت بكل حرف فيها وكأنه كتب لي وحدي:

معلَّق روحه ع الشماعة جنب الباب
وسايب باب ماضيه المُر متوارب
كعبه اللي دار ف الدنيا لف وداب
ساب للحياة الحبل ع الغارب

"جربنا الغناء كثيرًا، فما رأيك أن نرقص؟"

ألقيتُ عليه سؤالي وقلبي يخفق بشدة، وأنا أنتظر أن يقول: "لا مانع" لأرتمي في حضنه ويقترب قلبانا فيتهامسا بشكلٍ مباشرٍ بعيدًا عن لغة الألسن القاصرة التي لم تُخلق للمحبين، لكنه سأل بحيرةٍ: "كيف؟"

"هكذا"

قلتها وأنا أضع الكمان على الصخرة، وأشغل على هاتفي المحمول أغنية "يا حبيبي" لمطربتي المفضلة (هبة طوجي) ثم ارتميت في حضنه فور عمل الأغنية لأراقصه على اللحن الرحباني والكلمات التي كتبها عاشق مثلنا:

يا حبيبي .. كل ما في الصمتِ نادى
يا حبيبي .. ومضى الموجُ وعادَ
وأنا في موج عينيكَ شراع يتهادى

حاول أن يُجاريني بخطواتٍ مرتبكة داست فيها قدمه على قدميَّ الحافيتين، وتسببت في غرس الصخر فيهما، لكني كنتُ في عالم آخر منزوع الألم والتأوه، وقد هامت عيناي في عينيه غير مكترثة بخطواته التي أخَذتُ أصححها بشكلٍ عملي دون أن أنبس ببنت شفة حتى لا أقطع صلاة الحب المرتلة في تلك الأغنية:

عند أبواب المدينة ينتهي النسيان
وأنا والليل
أنا والقرصان
والمحبون على أرصفة البَحرِ
بحارٌ من سكينةٌ
تركوا الشارع يبكي
تركوا الأرض الحزينة
والمصابيح الحزينة
أبحروا صاروا سفينة
أتُرى نحن الـ هربنا
أم تُراها هربت فينا المدينة

بدأ أداؤه يتحسن، كعبقري يُحسِن التعلُّم والمُحَاكاة بشكلٍ مذهلٍ، ليراقصني في النصف الثاني من الأغنية باحترافٍ شديدٍ وكأنه يرقص طوال عمره، ثم ترك نفسه مثلي وحان دوره ليهيم في عينيَّ هو الآخر مع نغمات الأغنية التي تصعد بنا في سماواتٍ طلبنا من ربها أن يوقف الزمن فيها عند تلك اللحظات حتى يؤبدها إلى أبد الآبدين وصوت (هبة طوجي) يتردد داخلنا:

يا حبيبي .. وتعالَ تعال
يا حبيبي.. إن أيامك عِطرُ

وانتظاري.. لكَ خمرُ
ليس بالسُكرِ ولكن فيه سُكرُ
ليس بالنَهرِ ولكن فيه نَهرُ
له في القلبِ هدير
في الهُنيهاتِ هدير
فـ تعالَ تعال

توقفت الأغنيةُ لكن قلوبنا لم تتوقف ونحن نلتهم بعضنا بالنظرات.. كل شيء فينا يذوب ويتفتت.. الزمن يذوب، والمكان يذوب، والعقل يذوب، والقلب يذوب.. تعطلت اللغة، وحل محلها سكوتٌ ناطقٌ معبرٌ، ونحن في غيبوبة صاحية تكف فيها اللحظات عن التداعي، والكون كله ينصهر في إحساسٍ عميقٍ بالنشوة والسعادة والانتصار.

حتى وإن كانت النشوة معك يا حبيبي لحظةً واحدةً، فستصبح كالأبد، وتستمرُ ما حييت ماثلةً أمام الشعور، ممتزجةً بصحوي ونومي وأحلامي وهذياني، ملتصقة بكياني الداخلي دون أن تنفضها منغصات الحياة أو تكدر صفوها الظروف الصعبة ولو عشت ألف عام، فالشعور بحبك أصبح بعضًا من نفسي، أحيا بحياته، وأموت بمماته.

قال لي بابتسامةٍ خلابةٍ أضاءت فيها عيناه الذهبيتان أكثر من شمس الصباح:

- هل تعلمين.. كنت أحسد الملائكة على قدراتهم ومكانتهم في الملكوت، لكن ثمة أمورًا اكتشفتها معك جعلتهم أحرى بأن يحسدونا لو كان يجوز لهم ذلك.. فالإنسان يستطيع أن يعزف، يكتب، يرسم، يبدع في شتى ميادين الإبداع.. يلمس السماء دون الحاجة إلى أجنحةٍ وهو يغني ويرقص في لحظة سعادة.. لديه القدرة على الحب والفن اللذين ينفذان إلى القلب ويكشفان عن ذاتنا العميقة، ويُطلعاننا على كنوزنا وأسرارنا الدفينة المختبئة خلف أجسادنا التي نرتديها كقمصانٍ من الجبس المقيدة للحركة والانطلاق، فندرك بما يخفق به القلبُ من حب يبقى بعد الفناء، وما يبدعه الخيال من فنٍّ خالدٍ أننا نحتوي على بذرة الخلود في دواخلنا، ونحتوي على الأبدية في قلوبنا.

وحين نظرت معه للسحاب الأبيض الخلاب في الأفق، شعرت أني أراه

لأول مرة على حقيقته، بعد أن كنت أعتبره -سابقًا- مجرد ضماد من القطن والشاش الأبيض على وجه صفحة السماء المصابة بلعنة الناقمين على القدر!

بعدها كنت أتجه معه إلى محل (محمد أحمد)، أشهر محلات الفول والفلافل في إسكندرية بأكملها، والذي أنشيء في الخمسينيات بشارع صغير متفرع من شارع (سعد زغلول) بمنطقة (محطة الرمل) وسط المدينة، ومع مرور الوقت أصبح أحد أشهر معالم مدينتنا، وأخبرته أن فطارنا في نزهتنا المقبلة سيكون في محل (ألبان سويسرا) بشارع (بورسعيد) في (كامب شيزار) حيث طبق (السدق بالجبنة) الذي يُعد جريمة مكتملة الأركان!

طلبت لنفسي طبق فول بالزبدة، واختار لنفسه واحدًا بزيت الزيتون، لكن حين ذاق من طبقي طلب التبديل!

طريقته وهو يأكل الفلافل الساخنة لتذوب بين شفتيه الورديتين كانت جديرةً بألف كتاب، حتى حين سعل بعد أن أكل المخلل، وبرقت عيناه وأخذ يهوي بيديه أمام وجهه قائلًا بطفوليةٍ شديدة: "يح"، كان في تلك الحالة أيضًا وسيمًا جذابًا، وكأن فتنته عصية على أن تشتتها مقارف البشر.

هذا الفتى يُشعِرني كلما التقيته وكأنه ولد الآن، ويعيش الحياة لأول مرة!

قبل أن أحاسب وننصرف ثرثرنا قليلًا فأخبرته أن هذا المكان زاره العديد من المشاهير في مجالات السياسة والفن والأدب، منهم الملكة (صوفيا) ملكة إسبانيا، والمطرب اليوناني العالمي ذو الأصول السكندرية (ديميس روسوس)، والأديب العبقري (نجيب محفوظ) الذي تعلمت من رواياته الكثير وما زلت أتحسس منها طريقي في لحظات الكتابة، والفنان (فؤاد المهندس) الذي كتب تعليقًا بعد تناول الطعام، وضعه صاحب المطعم في برواز بصالة الطعام قال فيه: "كلمتين وبس.. الفول يجنّن"، لكن ذاكرة بطلي الممسوحة للأسف لم تقف عند أي اسم منهم، فتساوى في أذنيه وقع الأسماء مع أي اسم آخر غير رنان.

....

يقولون إن البُن هو علامة عمق الأماكن، يصبح شهيًا وثقيلًا في الأماكن العريقة ذات الأصول التاريخية مثل العطارين، والمنشية، ومحطة الرمل، وشائهًا ومائعًا في الأماكن الوليدة مثل سيدي بشر، ومول سان إستيفانو، وذلك الملهى الحقير الذي كنتُ أعمل فيه، وقريبًا من رائحة الجنة عندما يكون برازيليًا، لذا اقترحتُ عليه أن نحتسي فنجالين من القهوة في محل (البن البرازيلي) ونُحلّي بـ "شيز كيك".

وحين رشف أول رشفة، كاد أن يسقط فنجاله وهو يغمض عينيه ويهز رأسه متسائلًا: "ما هذا المرار؟"، فأجبته: "وأنا في الأحداث قالت لي مشرفتي أحبي القهوة، فستُعلمك كيف تُعجِبك المرارة وتستمتعين بها"!

ثم رأن علينا صمتٌ لم يقطعه سوى صوت (فيروز) جارة القمر وهي تشدو بكلمات (جبران خليل جبران) الخالدة على ألحان (نجيب حنكش) المسروقة من لحن السماء:

هل تَخِذتَ الغاب مثلي منزلًا دون القصور
فتتبَّعت السواقي وتسلَّقت الصخور
هل تحمَّمت بعطرٍ وتنشَّفت بنور
وشربت الفجر خمرًا في كؤوس من أثير

حاولت وأنا أسمع أن أفر من نظراته إليَّ أو نظراتي إليه، لكن.. كل الطرق كانت تؤدى إلى عينيه.

استغرقنا الكلام لفترةٍ لم أكترث ما بها من دقائق بقدر ما اهتممت بما فيها من دفء الوصال ومتعة الاقتراب من تحقيق الهدف.. إنه سحر البدايات في كل قصص الحب الذي يجعل كل شيء حولنا يبدو جميلًا وكأننا نكتشف الحياة لأول مرةٍ بذات الدهشة والمتعة التي كانت تنتابنا ونحن صغار.. الضحك الصاخب لأسبابٍ قد لا تستحق.. دقات القلب المدوية والمتلاحقة مع أبسط فرحة.. تصويب النظر والتحديق في البشر والأشياء حولك مع رغبة عينيك الدؤوبة في سبر الأغوار والوصول إلى ما خلف مستوى الرؤية.. رغبتك العارمة في لمس كل ما حولك وكأنك تريد احتواء الكون كله في كفك الصغير.

سألني بغتة:



- ألا يوجد أصدقاء مسلمون لديكِ؟

فاجأني سؤاله حتى أنني ظللت أحدق فيه ثواني، فتابع:

- أنتِ عيناي اللتان أرى بهما عالمي الجديد.. لقد تعرفت على مسيحيين بما يكفي، وحتى اليهود الذين من النادر العثور عليهم في هذا الوطن، التقيتُ بهم بصدفة قدريةٍ غير متوقعة، لكني لم أقابل أحدًا من الأغلبية التي تملأ أرجاء تلك المدينة بعد، وأردت معرفتهم عن قرب.

سرحتُ في كلامه وأنا أعودُ بالزمن، وقلتُ:

- في وقتٍ من الأوقات كانت كل مشكلتي أن كل من حولي مسلمون، لما كنت أنا المسيحية الوحيدة في مؤسسة الأحداث.. لم يكن لديَّ حتى إنجيل أقرأ منه، والصليب الوحيد المتاح لي كان هذا..

ورفعتُ ذراعي ليرى ذلك الوشم الصليبي المحفور في جلدي ثم تابعت بابتسامةٍ حزينة:

- أن تكون مسيحيًا يعني أن تتقبل بصدر رحب تلك النكات التي يقولها المسلمون علنًا عن القسيسين والرهبان والقديسين بل ويسوع أحيانًا، لأن مسيحنا غير مسيحهم بكل تأكيد.. وتضحك أحيانًا لأنهم اعتادوا أن يجعلوا إهانتهم خفيفة الظل رغم قساوتها وألمها.. أن ينادوك بالكفتس، أو الأربعة ريشة، وتعتبر أن هذا اسمٌ حركي مازح لا يقلل منك ولو من باب خداع النفس.. كان المسيحيون يضعون الصلبان وأيقونات الشفعاء والقديسين حتى يتباركوا بها، لكن مع الوقت أصبح هدفهم من ذلك هو الإفصاح عن مسيحيتهم أمام الغرباء حتى لا يسب أحدٌ في المسيحيين أمامهم على الأقل ويكتفي بسبهم في غيابهم.. وفي الوقت نفسه، من يقولون في وجهك بضحكة سمجة: "إنت كافر ورايح جهنم أساسًا"، ستجد منهم مواقف لا تُنسى من الشهامة والإنسانية إذا ما مسَّك سوء أو احتجت منهم خدمة!

باكدج عبثية عليك أن تأخذها كما هي في هذا الوطن المجنون

الذي لا تنطبق عليه دراسات علم النفس والاجتماع، وحتى الدين هنا في مصر –أي دين– لديه نكهة وقواعد مختلفة، رغم أن معلوماتي الدينية سطحية جدًا.

وبعد خروجي من الكنيسة وعملي بمكتب الجرافيك اكتشفت أن هذا الجنون تحوَّل من العلاقة الثنائية بين المسلمين والمسيحيين إلى كل الأديان.. في داخل كل دين ستجد فرقًا منشقةً تحتكر الحقيقة وتكفر من دون سواها.. سنة، شيعة، أرثوذكس، إنجيليين، وشهود يهوه.

سأقول لك نكتة تختصر كل ذلك.. عندما قامت القيامة وبعد انتهاء الحساب، وقف ملاك على باب الجنة يسأل الناس: انت أرثوذكس؟ فمن يجيبه بنعم يتركه يدخل، وحين قال له أحدهم: "لا" صاح فيه الملاك: لن تدخل، وبعد انتهاء اليوم دخل الملاك فوجد الرجل الذي أخبره أنه غير أرثوذكس في الجنة، فقال له: "كيف وصلت إلى هنا؟ ألم أمنعك؟"، فقال له الرجل: "وجدتُ ملاكًا آخر جعلنا نقفز من على السور"..

وبعد انتهاء النكتة ظل صامتا، فسألته:

– فهمت حاجة؟

فهز رأسه بنعم ولا!

في خطوتنا التالية لم يُعجَب فتاي الأسطوري بمحلات الملابس في شارع (مصطفى كامل) رغم فخامتها من الخارج والداخل، ربما لأنها بدت عصرية أكثر من اللازم وصاحبنا اعتادت عيناه على كل ما هو مرتبط بالعراقة والتاريخ، أو لأن الحداثة جعلت المكان كأنثى صاروخية الجمال، لكن بمواصفاتٍ اصطناعيةٍ من صنع السيليكون والمؤخرة البلاستيكية.

على أي حالٍ لم نغادر المكان إلا بعد أن ألححت عليه أن أشتري له طقمًا جديدًا من تلك المحلات، سروال جينز كُحلي، قميص لبني كاروهات، بلوفر تريكو أبيض اللون شبكي التطريز بفتحاتٍ واسعة تُبرز القميص الملبوس تحت منها، وكوتشي adidas أبيض، ليبدو بعوده الفارع، ومنكبيه العريضتين، وعضلاته المفتولة، وشعره الكستنائي الناعم في هذا الطقم أجمل وأوسم من (براد بيت) و(توم كروز) و(ليوناردو دي

كابريو) حتى إن المنطقة قد انقلبت –بلا مبالغة– رأسًا على عقب.

وحين حان موعد الغداء اقترحت عليه محل (هولمز) الذي أكلت عنده أعظم ساندويتشات برجر في حياتي.. اتجهنا إلى شارع (سوريا) في منطقة (رشدي) ثم وصلنا إلى ذلك المحل الضيق لكن بين حوائطه الأربعة متعة تسع للدنيا كلها.. بالطبع لم يفهم قائمة الساندوتشات ذات الطبيعة الأجنبية، فاخترت له **Cheesy Mushroom** واخترت لنفسي **Bloody Hell** بالهالبينو وصوص الفلفل المُسكَّر، وخلال انتظار تجهيز الساندوتشين على نغمات أغنياتهم الأجنبية الرائعة التي يختارونها بحسٍّ فني عالٍ، أخذت أتأمل تلك الأوراق المستطيلة الملصوقة على حوائط المحل كتذكار وانطباعات مكتوبة من الزبائن لتخليد لحظات ممتعة قضوها في هذا المكان، وضحكت كثيرًا حين قرأت جملة كتبها أحدهم باللغة الإنجليزية: **It teaches you how to make sex with Stomach** وقبل أن أترجمها له قال: "إنها تعني أن المحل يُعلمك كيف تمارس الجنس مع المعدة"، لأكتشف أنه يُجيد الإنجليزية، وربما لغات أخرى في بحر مفاجآته التي لا تنضب.

أخذتُ قلمًا وورقتين، وطلبت منه أن يكتب كلانا ما يجول بخاطره لنحذو حذو من سبقونا ونترك كلماتنا لمن سيأتي بعدنا.

انهمك كل منا في الكتابة باهتمامٍ شديدٍ وكأننا في لجنة اختبار ثانوية عامة، وبعد انتهينا أعطى كل منّا للآخر ورقته ليقرأها فسمعت صوته في كلماته المكتوبة:

- أجمل ما في الحب بداياته التي تسبق الاعتراف به بشكلٍ صريح.. وأسوأ ما فيه أن تكون له نهاية حتى وإن كانت سعيدة.. فالسعادة يضيعها الملل والاعتياد، وإن حافظ عليها المحبون تبقى كسلعةٍ مجمدةٍ، فقدت حيويتها وفائدتها، فليت كل العشاق يحبون من البداية إلى البداية!

سرحت بشدةٍ في كلماته العميقة التي وُلدت من طفلٍ بدرجة فيلسوف، وحَمَل بقوة تنين، وتساءلت في نفسي: "كم تجربة خاضها هذا الفتى العاشق ليصل إلى خلاصة الحب بهذا الاحتراف؟"

كان هذا قبل أن أنظر إليه وألاحظ تأمله أيضًا لكلماتي المكتوبة التي جاء فيها:

العلاقة الجميلة تقوم على ما لا نؤمن به، ما لا نفهمه، وفي كثير من الأحيان على ما نحتقره أمام الآخرين، كمن تخلت عن كبريائها وشعورها بالاشمئزاز حين خلعت جوربي حبيبها ووضعت قدميه في إناء لتغسلهما وتدعك أصابعه بكل الحب، أو ذلك الذي تخلى عن كرامته وركع أمامها على الملأ ليطلب منها الزواج، وحين اختليا ببعضهما في ليلة الزفاف، جثا على ركبتيه وحرَّر قدميها من حذائها الأبيض وطبع بشفتيه عليهما قبلةً رقيقةً بكل الحب والسعادة.. وهذا ما يُعطينا الأمل في أن الحب لا يعرف المستحيلات، ويُطَمئن قلبي رغم فارق المسافات.

وبدون اتفاقٍ مسبق، وضع كل منا ورقة الآخر في جيب ملابسه، ولم نلصقهما مع باقي الورق الملصوق، وحين لاحظنا ذلك اكتفينا بتبادل الابتسامات التي خرجت من القلب بطعم كل شيء جميل من ثمار الجنة التي لم نذقها بعد، وإن كنا قد حصلنا الآن على تجربةٍ مصغرةٍ لمذاقها.

جاء النادل وأعطانا الساندوتشين الضخمين جدًّا، ومع كل ساندوتش قفاز بلاستيكي، طلبت منه أن يرتديه، وأخبرته أنه سيعرف فائدته فور أن يبدأ الأكل، وحين تدفقت الجبنة من كل جانب وغرَّقت شفتيه وأنفه وذقنه ابتسم وقال إنه فهم، فاقتنصت تلك اللحظة بكاميرا هاتفي النقال.

وحين زحفت الشمس المطعونة بسكين الغروب تاركةً خلفها نزيفًا من الطيف الأحمر في الأفق، وحين بدأت ستائر الليل في النزول تدريجيًا استقللنا مشروعًا* إلى (المنتزه) حيث (روستري كافيه) الذي أبدلت فيه ملابسي بفستان السهرة الحمالات، وتذكرت وأنا أرتديه حين كنت أحلم وأنا صغيرة بذلك النزيف الفسيولوجي الذي لا تنسى أي امرأة على وجه الأرض أول ميعاد فاجأها فيه، ليسقي أرضي البريئة ويُنبت ثمار أنوثتي، ويُغريني على وضع الكثير من أحمر الشفاه بلون الكريز اللامع، وأرتدي فستانًا أحمر ذا حمالتيْ كتف وظهر عارٍ، وينحسر عن رجليَّ إلى ما أعلى الركبة، فيما ترتاح قدماي الجميلتان ذواتا الأصابع التي يعشقها

* يطلق أهلُ الإسكندرية على الميكروباص كلمة (مشروع) اختصارًا لجملة (مشروع النقل الجماعي).

كل الرجال في كل النساء، لا سيما حين تكون أظافرها ملونة بطلاء لامع شفاف في صندل أسود ذي كعب عالٍ، وخيوط تلتف حول الساقين كأخطبوط يستمتع وحده بطعم أنوثة فريسته، لأجذب الأنظار وأسقط القلوب حولي بينما تمطر على أسماعي كلمات الغزل والإعجاب بمذاق السعادة، وحين ضلت عني أحلام المراهقة وشِختُ قبل الشباب، اختصرت الأماني فقط في أن أجد في هذا الكون حُضنًا يحتويني، وها هو جاء.

خرجتُ من دورة المياه أنثى مكتملة الأركان في الوقت الذي عملت فيه أغنية **Old Money** للرائعة **Lana Del Rey**، وفي طريقي إلى طاولته جذبت في طريقي كل ما حلمت أن أجذبه يومًا من نظراتٍ وتمتمةٍ واثقة على موائد الشباب، غير أني اليوم لم أعد أبالي إلا بنظرةٍ واحدةٍ أغنتني عن كل النظرات، بل وعن العالم بأكمله.

استقبلني بابتسامة إعجاب كدت أدفع عمري كله لأحظى بها، وها أنا أحصل عليها، بينما تجاهل هو بدوره كل العيون التي حطت على وجهه الوسيم الذي كان كمينًا كل من يدخل في نطاقه يتم القبض عليه.

"لماذا اخترتِ هذا المكان لنقضي فيه سهرتنا؟".

قاطع حبل أفكاري بسؤاله فأجبته بحماس:

- هنا أجمل أطباق أكل إيطالية يُمكن أن تتناولها في حياتك، بخلاف صداقتي مع الـ"شيشة مان" الذي يحضر لي شيشة مخصوصة على طريقتي.. يضرب ماءها المُثلَّج في الخلاط مع الليمون والحبهان ثم يُصفيها ويصبها في الدورق، فتعطي لمعسل التفاحتين الفاخر مذاقًا ولا الخيال.

ثم غمزت بعيني:

- كما أنهم يقيمون حفلات كاريوكي، يُطلقون فيها أشهر ألحان الأغاني المفضلة، ويتركون للحضور فرصة الغناء عليها.. أريد أن نغني معًا وأركز معك في الغناء دون الانشغال بالعزف.

وبعد نصف ساعة كنا نأكل طبق المعكرونة الفوتوتشيني، بالمشروم

والصوص الأبيض، لكني كنت قد شبعت بابتساماته الحانية، فربما لا تمنحنا الابتسامات خبزًا نأكله، لكن يكفي أنها تشبع جوع الروح الأشد قسوة وإيلامًا من جوع الجسد.

وحين نزلت الشيشة أخذت نفسًا عميقًا لم أتلذذ بمثله منذ زمن، ومددت المبسم نحوه وعرضت عليه أن يجرب الأمر، فأبى، لكني ألححتُ أن يجرب ولو نفسًا واحدًا فأخذه ويبدو أنه استلذ طعمه لكنه لم يُكمل بعد أن سعل 3 مرات.

أخبرته أني توقفت عن تدخين السجائر مؤخرًا، أما الشيشة فشربها مجرد "تفاريح" قد أتوقف عنها هي الأخرى بعد أن وجدت أخيرًا فرحة تلخص كل أنواع الفرح، ثم هربت من نظراته بِسَحْب الدُخان من المبسم وتنفيسه بسُحُبٍ كثيفة ممتعة عبأت المكان كله برائحة قلبي الذي غمرته السعادة، في الوقت الذي أمسك فيه بهاتفه المحمول وأخذ يفحص شاشته قبل أن ينظر نحوي ويبتسم وهو يعيد على مسامعي قراءة تلك الخاطرة التي كتبتها في حسابي الشخصي في "فيس بوك" منذ وقتٍ قريبٍ:

- **في سباق الحب فقط، يحصل المتسابق الأخير على المركز الأول، ويفوز بجائزة قلب محبوبه وروحه وكيانه!**

فكلمة (أحبك) هي التعويض الوحيد الذي يفتح بوابة العالم من جديد.. ولا أحد ولا شيء يمكنه معرفة ما الذي كان ينقص هذا الحب ليأتي في اللحظة المناسبة، وهل الآن هي الفرصة المناسبة أصلاً أم لا، لكنه يأتي ومعه التعويض المدفوع بشكل فوري وكاش عن كل ما سبق، حاملًا معه أفراحًا أبصمنا بالعشر أنها لن تأتي بسهولة.

أحبك هي الحبر الذي سأكتب نفسي به وأنت معي، فبدونك أنا اللا شيء!

سأكتب حتى أُذكّر نفسي بما أصبو لتحقيقه، وأعوّض في الوقت نفسه كل ما فاتني من خسائر فادحة بما فيها خسارة الموت الذي لاحقني دائمًا في كل محطات حياتي.. موت الأهل والأحبة، موت الشعور بالإنسانية، موت التعاطف، موت الصداقة، موت الشعور بأهمية الشكل النبيل للوطن..

ربما لا تعيد الكتابة شيئًا إلى مكانه، لكنها تساعدنا على ترتيب أثاثات الماضي تمامًا مثلما تركناه بلا أي تغييرات تعبث بتفاصيله فتُبدِّل حقيقته في لحظة تخوننا فيها الذاكرة، وقد تساعدنا في معرفة الخطوة التالية إذا ما توخينا الدقة في الحسابات، وأنا لا أريد التنبؤ بخطوتي القادمة معك فحسب، بل أريد أن أصنعها على مقاس أحلامي، إلا أن للكتابة آثارًا جانبية مؤلمة حين تحثك على شراء تفاصيل جديدة من متجر الحياة حتى يكتمل النص، فتكتشف أنك في حالة إفلاس، فهلّا أقرضتني عمرك؟!

لكنه لم ينتبه أني كنت في هذه اللحظة أكتب على حسابي بـ"فيس بوك" حالة جديدة:

- **دائمًا ما كنتُ أخجل من ذكرياتي وأحاول الفرار منها، معك فقط تعلمت أنه ليس بالضروري أن تُدخِل الذكريات بين شفرتي مقص لتكون حياتنا أفضل، وأن الماضي الذي يتعرض لعملية مونتاج تزيل الأمور المخجلة وتقص حواشي وزوائد الخطايا، لن يجعل المستقبل سوى مسخ أكثر تشوهًا ومدعاة للخجل.**

ها هي فقرة الكاريوكي قد بدأت.. طلبت الميكروفون وكنت أعرف ما أريد تحديدًا قبل حتى أن يبدأ هذا اليوم، فنظرت إلى عينيه وغنيت أغنية (حالة حب) التي أشعر كلما أسمعها أن (إليسا) تغنيها بلساني ومشاعري، دون أن أعرف أن سعادة اليوم ومتعته كانت رصيدًا ستسحبه دموعي التي انفتحت على مصراعيها وأنا أردد:

وأنا جنبك شايفة منك.. حاجة من ريحة أبويا

كان إيقاف دموعي المَطِيرة مستحيلًا كنفس استحالة لقاء ستنا (مريم) في زنقة الستات، وكيف لا وقد استيقظ الماضي بكل ألمه وبؤسه في لحظةٍ واحدةٍ تراكمت فيها كل أوجاع الكون.

واصلت الغناء، واستمرت الدموع، حتى اختفى صوتي تمامًا رغمًا عني فتركت المايك وأنا أشير بيدي بما معناه: "انتهى" دون أن يملك لساني القدرة على نطقها، وأدفن وجهي بين كفيَّ وقد استفردت بي آلام الماضي

وهواجس الحاضر، ومخاوف المستقبل، فإذا بفتاي العاشق يُداويني بالتي كانت هي الداءُ، حين فوجئت بصوته يعلو في الميكروفون ويغني بدوره:

لما النسيم بيعدى بين شعرك حبيبتي بسمعه.. بيقول آهات

كان صوته رهيبًا بمعنى الكلمة، كنفس روعة رائحته التي ما زلت لا أعرف مصدرها، ومع كل حرف ينطقه كانت دمعاتي تنهمر أكثر، بفارق أنها تخلصت من ملحها وألمها، وصارت دموعًا مُسكّرةً تريح القلب وتغسل أوجاعه.

وبعد انتهائه من الغناء ظل ممسكًا بالميكروفون، وقال على الملأ:

- هذه الأغنية تصف كل ما أشعر به تجاهك، فأنا أحبك بالفعل **(وقرب وجهه إلى وجهي والتهمني بنظراته وهو يردف)** والعلاقات الجميلة تقوم على ما لا نؤمن به.. ولا نفهمه!

ارتميت في حضنه ولم أبال بأي شيء، ليصفق كل الحضور بشدة، وتطلق بعضهن صرخات التشجيع، ويشغل الكافيه أغنية Je t'aime التي تعني "أحبك" باللغة الفرنسية، للمطربة العالمية لارا فابيان، فرقصنا عليها في أول لحظة إفراج عن قصة حبنا الذي كان حبيسًا في الصدور.

....

عدتُ إلى غرفتي في السطح، هابطةً من السماء في تلك الليلة، بعد أن كنتُ أرفرف بجناحين من الشوق والوله، أخذاني إلى الجنة ونسيت هناك أي جذور لي على الأرض قبل أن أعود من جديد لوجه (دميانة) البائس الذي كان في انتظاري، وفي عينيها نظرات ساخرة تذكرني دومًا بأن كل الأمنيات الطيبة مشروعة لبني البشر، لكنها تبقى في النهاية مجرد أمنيات!

باركت لي حين حكيت لها ما حدث منذ قليل، وأبدت استعدادها التام لمساعدتنا إذا ما رغبنا في الزواج، ولكن.. وآه من الكلام الذي يأتي من بعدِ لكن..

ماذا لو استعاد ذاكرته المفقودة واكتشفتِ أنه ينتمي لدينٍ آخر؟

هل سيبارك قساوسة الكاتدرائية تلك الزيجة؟

هل سيرحبون بوجوده في مبنى الخدمات ويساعدون شخصًا غير مسيحي على الارتباط بفتاةٍ مسيحية؟

أفقت على كلماتها التي أعادتني من جديد للواقع البائس المختبئ دومًا في الظلام يتحين الفرصة لطعن السعادة في ظهرها من الخلف، بينما تابعت صديقتي العجوز بحماسٍ بأكبر:

- قلت لكِ يومًا – ولم تصدقيني– أن الأديان هي أكبر عائق أمام المحبة بين البشر، وسعادة قلوب الإنس، حتى إن الحيوانات تفرح عنا لأنها لا تجد مثل تلك المنغصات والمحاذير الدينية في علاقاتها.

ثم كست وجهها بصرامةٍ مفاجئةٍ، وقالت بجديةٍ مصطنعة:

- بسم الحب، والمشاعر، والأحاسيس، القلب الواحد آمين.

صحتُ فيها غاضبة:

- ماذا تقولين أيها المأفونة؟

صعدت فوق المصطبة واصطنعت من نفسها خطيبةً تخاطب مستمعيها على غرار خطبة الجمعة، قائلة بتهكم:

- بربك الذي تؤمنين أليست كلماتي أكثر جمالًا؟ على الأقل ثالوثي يجعلك تنالين الجنة على الأرض بدلًا من انتظارها في عالم الملكوت.

صحتُ مجددًا:

- اصمتي يا دميانة!

فصعدت فوق المصطبة واصطنعت من نفسها خطيبةً تُخاطب مستمعيها على غرار خطبة الجمعة، لكن بشكلٍ ساخر:

- حسنًا.. خُذيها على الطراز الإسلامي حتى لا تصابي بالحساسية.. إن الحمد للحُب.. نحمده ونستعينه ونذوب فيه..

من يشعر بالحُب فلا مظل له، ومن يفقد الحُبَّ فلا هادي له،، ونعوذ بالحُبِّ من شرورِ الأديان، ودَنَسِ الأوثان، والدِّماءِ التي تُسفَكُ باسمِ الرحمن.

اتسعت عينايا وشعرت برهبةٍ من عينيها التي زاد بريقهما بلمعة مخيفة، لكن قلبي المطعون وعقلي أسير التساؤلات لم يستطيعا إثناءها عن مواصلة الكلام وقد أنهكت قواي بالبحث عن مأزق لتساؤلاتها المحتملة إلى حد الفجيعة، قبل أن تهبط من فوق المصطبة وتقترب مني وتقول بصوتها الذي زاد خشونة:

- بادري بالفرار من سطوة مسيحٍ مزيف، وتثليث مخادع، وقيود كنسيةٍ طالما حَرَمت الملايينَ من السعادة والعشق.. انقذي أجملَ ليالي العمر مع الذي خلقته الظروف لينقذك ويملأ حياتك بالفرح، مثلما ولدتنا الظروف من العدم دون الحاجة لوجود أكذوبة اسمها الخالق.

كدت أسقط في فخ كلماتها التي كانت تعني أن أربح حبيبي وأخسر كل ما آمنت به من ثوابت ومقدسات خِلتُ أنها كانت وراء إرسال هذا الفتى في حياتي، ومع كلماتها التي أخذت تخترق أسماعي بلا هوادة، وتجد صدىً في نفسي، دبت في جسدي طاقةُ غضب هائلة جعلتني أدفعها في صدرها وأنا أصرخ فيها بآخر ما تبقت لديَّ من قدرة على الرفض:

- إليكِ عني أيتها الخرفة وكُفّي عن هذا الهراء، إنها معركة قلبين وليست معركة أديان.

اقتربت مني بإصرار وعزيمة لا تنثني دون أي تأثر من لطمتي وتابعت:

- كُفّي أنتِ أيتها التعسة عن المراوغة.. ألا تُحكِّمون الأديان في مصائركم وتجلعونها ميزانًا لقياس الصواب من الخطأ؟ اجعلي من كلامي مسألة وانظري بما سيحلها الدين؟

الإجابة أنه سيفرق بينكما كما فرق بين ملايين القلوب.. وحين ترتبطين يومًا برجُلٍ آخر تكتشفين ظلمه وجبروته، وتحاولين تصحيح خطأك بالطَلاق منه، ستجدين نفس الدين يقف حائلًا بينك وبين سبيل نجاتك الوحيد بدعوى أن الرب قال: "الذي

جمعه الله لا يفرقه إنسان"، وتتضمين إلى قائمة الآلاف الذين يتسولون الرحمة من البابا، ويتوسلون إليه ليرأف بحالهم، فيجيبهم بكل صلف أن لا سبيل إلا بإثبات واقعة زنا، فيستسلم بعضهم يائسًا من رحمة ربه، ويلجأ البعض الآخر لتغيير ملته.. هيا اهربي بحياتك قبل فوات الأوان.

بدأت عزيمة رفضي لكلماتها في الوهن، وانفتح داخلي شيء ما كان معلقًا وبات مستعدًا للاستقبال وأنا أتمتم بصعوبة:

- ما رأيت في المسيح وأمنا مريم سوى الرحمة والمحبة.. بينما كانت وستظل الشرور من صُنعِ البشر.

- نعم يا عزيزتي.. أخيرًا بدأنا نتفق.. كل الشرور بالفعل من صنع البشر، حتى الأديان التي نجحت في الانتشار بعد أن التقى أول نصاب بأول غبي.

إنها ليست معركة بين خير وشر، أو بشر وشياطين اختلقها الأنبياء لتكون فزاعة لبني الإنسان، لكنها معركة عقل لغاه أصحابه وعبدوا نصوصًا مقدسة من عصور غابرة ما زال العلم ينفيها في العصر الحديث بعد أن نفذ إلى عمق الذرات والجزئيات، واخترق السماوات، ورأى هذا الكوكب وخلائقه على حقيقتها.. ولو نزع أتباع الأديان عنها قداستها وتأملوها بعد تجريدها في عصر العلم لماتوا من الضحك لكنهم لا يجرؤون، لأن قوة الأديان الحقيقية تكمن في تغييب عقول أتباعها.

شعَرتُ أن عينيها تتسعان أكثر ونبرة صوتها تزداد خشونة وهي تشير بسبابتها نحو السماء وتتابع:

- إلهك ومخلصك المسيح مثلًا.. له ثلاثة أقانيم هي الآب والابن والروح القدس، فهل هي صدفة أن ترتبط فكرة التثليث بأغلب العبادات الدينية القديمة؟ في الحضارة الفرعونية هناك ثالوث طيبة من الأب (آمون)، والأم (مون)، والابن (خنسو)، بخلاف ثالوث أبيدوس من الأب (أوزوريس)، والأم (إيزيس)، والابن (حورس).. وفي الثالوث الهندي القديم ستجدين للإله ثلاث صور أيضًا هي (براهما) الخالق، و(شيفا) المُهلِك، و(فشنو)

الحافظ، وحين خاطبهم التقي (أتنيس) في ابتهالاته قائلًا: "أيها الأرباب الثلاثة، اعلموا أني أعترف بوجود إله واحد، فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري وصلاتي؟" فظهرت الآلهة الثلاثة وقالوا له: "اعلم يا أيها العابد أنه لا يوجد فرق حقيقي بيننا، وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه أو الشكل، والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات".

حتى صيغة الأمانة التي انبثق عنها مجمع نيقية الذي أنهى جدالا واختلافًا واسعًا حول شخص المسيح إن كان مجرد بشر أم له طبيعة إلهية، بها اقتباس واضح وصريح من الوثنيات السابقة، إذ قال الهنود القدامى: "نؤمن بشافستري (الشمس) إله ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، وبابنه الوحيد آني (النار)، نور من نور، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، تجسد من فايو (الروح) في بطن مايا العذراء، ونؤمن بفايو الروح المنبثق من الأب والابن الذي هو الأب، والابن يسجد له ويمجد".

وفي الحضارة الفينيقية ستجدين (أدون) المولود من العذراء (عشتار) والأب الإله (إيل)، وعند الفرس كان الثالوث من (زروان)، و(أورمزد)، و(أهرمان)، ثم تطور وأصبح (أورمزد)، و(أهرمان)، و(ميترا). كذلك عبد البوذيون إلهًا مثلث الأقانيم، يسمونه الثالوث النقي (فو)، ويقولون أيضًا أن (فو) واحد لكنه ذو ثلاثة أشكال، وفي أحد معابدهم هناك تمثال لـ (فو) مثلث الأقانيم.

هززت رأسي بعينين زائغتين وصرختُ فيها:

- كل هذا محض افتراء وكذب، من أين جئتِ بهذه التخاريف؟

- من التاريخ غير الكنسي.. التاريخ الحقيقي غير المغلوط أو المعبوث فيه ببصمات رجال الدين.. من الكتب التي هال رجال الكنيسة عليها التراب قبل أن يسير خلفهم أتباع حرموا أنفسهم من الفهم والمعرفة والتحري، وسلكوا طريق الإيمان بالوراثة والنقل الأعمى.. لديَّ مئات الكتب والمصادر التي يمكنني أن

أطلعك عليها لو أردتِ.. وعلى هاتفك المتصل بشبكة الإنترنت آلاف المواقع، لكن شعب الكنيسة يخشى إزاحة أطنان التراب من الرؤوس، وفتح العقول الصدئة وتحريرها من ربقة القداسة الخادعة.

فأمام ضعف عقيدة التثليث وعجز العقل البشري عن تصورها، لم يجد رجال الكنيسة من سبيل إلا القول بأن تثليثهم سر من الأسرار التي لا يُمكن للعقل أن يقف على كنهها، واعترف القديس سان أوغسطين بتعارض المسيحية مع العقل فقال: "أنا مؤمن، لأن ذلك لا يتفق والعقل"، وقال كير كجارد: "إن كل محاولة يراد بها جعل المسيحية ديانة معقولة لا بد أن تؤدي إلى القضاء عليها"، ولم يختلف عنهم الأب جيمس تد حين قال: "العقيدة المسيحية تعلو على فهم العقل"، وكذا قال القس أنيس شروش: "واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد، سر ليس عليكم أن تفهموه، بل عليكم أن تتقبلوه".

ارجعي إلى النصف الآخر من الحقيقة، وتتبعي عجز الحجج الواهية.. قلبي صفحات التاريخ حين كانت الكتب المُقدسة سرًّا مخفيًّا في الكنائس والأديرة، لا يطلع عليه سوى رجال الدين، وممنوع على العامة قراءتها أو الوصول إليها لتعرفي أي عبث مرَّت به المسيحية في العصور الوسطى التي لقبها الأوربيون بعصور الظلام.

اقرئي للمؤرخ وول ديورانت صاحب موسوعة قصة حضارة واسمعي إليه وهو يقول: "لما فتحت المسيحية روما انتقلت إلى الدين الجديد دماء الدين الوثني القديم".. اقرئي في دائرة المعارف البريطانية التي تذهب إلى أن القالب الفكري لعقيدة التثليث هو يوناني الأصل، لأن التصورات الدينية فيها مأخوذةٌ من الكتاب المقدس، ولكنها مغموسةٌ في فلسفاتٍ أجنبية.

شعرتُ بالدوار والعجز، فومضت عيناي (دميانة) أكثر كلبؤة تتلذذ باستسلام فريستها، وقرَّرت أن تلعب بها قبل افتراسها حين تابعت:

- هل تريدين إبهارًا أكثر؟

اقرئي كتاب المُخلِّصون الستة عشر المصلوبون فداء للبشرية، لتعلمي أن واقعة صلب المسيح بهدف الفداء للبشرية ليست الأولى من نوعها، إذ سبقه إليها 16 شخصية تاريخية دينية مثل كريشنا الهندوسي، وهيسوس إله قبائل السلت، وثولس المصري، وبروميثيوس، وغيرهم من الذين صلبوا بتفاصيل تتشابه كثيرًا مع قصة صلب المسيح بل ولنفس الأسباب أحيانًا.

اقرئي في عقيدة الفرس الثنوية التي يتنازع فيها النور والظلام على سيادة الوجود حيث يحكم الكون إلهان، إله الملأ الأعلى، وهو رب الكون الذي خلق نورًا لا يحرق، وخلق الوردة والبلبل، ثم تصدى له إله العالم الأسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حربًا لا تزال حتى اليوم حامية الأوار، فمن عمل خيرًا من الناس فهُم خدَّام الإله الأعلى، ومن عمل شرًّا منهُم فهُم خدَّام الإله الأسفل، وسوف تحتدم الحرب كرةً أخرى، فيصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة، تحلق معه ألوف الألوف من جنده، وتطير بينها الحيات والثعابين، فيدور القتال سجالًا، حتى ينهزم الإله الأسفل، ويلقى عصا الطاعة لإله السماء.

والآن قارني هذا بما ساقه القديس أوريجين عن ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة، وابليس رئيس الشياطين، وأطوار السجال الذي يدور سجالًا بين الفريقين، ويؤسر فيه بعض الشياطين فيُحبَسون في باطن الأرض أو يُقيدون بالأغلال حتى الموعد الأخير، ثم تنشب الملحمة الأخيرة قبل القيامة، وبعد ظهور المسيح الأول بألف سنة، فيذهب أهل النار إلى النار، ويرتفع أهل النعيم إلى النعيم.

تأملي عبادة الإله (مترا) في بلاد فارس، الذي خلقه إله النور (أورمزد) لكي يحمي أتباعه من أتباع إله الظلام (أهريمان)، فخلقه من صخرةٍ متوالِدَة على ضِفَّةِ النهر، تحت ظل شجرة مُقدَّسَة، وكان بعض رعاة الجَبَل شهودًا على معجزة دخوله إلى العالَم، فقد رأوه يخرج من الصخرة، ورأسه متوَّج بقبعة ملوكية، متسلِّحًا بسكِّين صيَّاد، وهو يقود شعلةً كانَت تضيء

الظلمات، فقدَّمَ الرعاة للطفل الإلهي ثمار محاصيلِهم الأولى، وريع مواشيهم، ومع ذلك فالفتى البطل كان عاريًا ومُعرَّضًا للريح الباردة، فاختبأ في شجرة تين وأكل من ثمارها، وصنع من أوراقها ثوبًا له، وخرج على هذا النحو لكي يواجِه كل قوى العالَم، قبل أن ينتهي الأمر بصعوده إلى السموات مرفوعًا من قِبَل الشمس، وسط الإشعاع الصادر من عربتِه التي ترفعُه بواسطة أربعة أحصِنة كما ورد في قصة إيليا في الكتاب المقدس، ولكن هناك ومن أعالي السموات، لم يتخلَّ عن حماية المؤمنين الذين أخذوا على عاتقِهم خدمتَه بتقوى وأصغوا إلى كلماته، وهو يفعل مشيئة الآب كما كان يسوع يقول.

وكان لميترا ثور يركبه، وحين حاول الفرار منه يومًا أمسك به من خلال فتحة أنفه بإحدى يديه، وطعن باليد الأخرى الجوانب السفلية لبطن الحيوان بسكينه الصياد، فنبتَت من جسم الثور المملكة النباتية، ووُلِدَ من عموده الفقري الحِنطَة التي تمنَحُ الخبز، وطَلَعَ من دمِه النبيذ الذي يُنتِج الشراب المقدَّس للأسرار..

ألا يذكرك ذلك بطقس التناول المقدس في الكنائس؟

ادخلي على موقع متحف اللوفر في باريس وشاهدي بأم عينيك الآثار المكتشفة في بلاد فارس والموجودة حاليًا لأتباع الإله مترا وهم يتناولون الخبز والنبيذ، وابحثي بعدها عن تصريحات الكاتب الفرنسي فرانز كومون في مجلة علم الآثار لعام 1946 حين قال: نظرًا لأن لحم الثور كان صعب المنال أحيانًا، فقد اضطر أتباع الإله ميترا إلى استخدام الخبز والنبيذ مكان اللحم، وكانوا يرمزون بذلك إلى لحم معبودهم ميترا ودمه.

والآن حاولي استيعاب أن المسيحيين في روما كانوا ينصرفون لسهرات الوثنيين أتباع ميترا في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر لاعتقادهم أنه اليوم الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار كهزيمة لإله الظلام وانتصار لإله النور، وانظري كيف تم تحويل هذا التاريخ تحديدًا إلى تاريخ ميلاد المسيح لصرف

أنظار مسيحيي روما وأوربا عن هذا العيد الوثني، ولنفس السبب تم تحويل يوم الأحد الذي يسمى Sunday أي يوم الشمس في عقيدة عُبَّاد الشمس والنور، ليصبح عطلةً أسبوعيةً للمسيحيين واليوم الأخير المقدس في الأسبوع الذي سيشهد خلاص المسيحيين والقيامة بعد أن تم دمجه بالرمزية الشمسية منذ القدم لمزاحمة هذا الدين الوثني وإزاحته من طريق المسيحية.

حتى فكرة تجسد الإله في صورة بشر يعيش وسط الناس ويحدثهم ويحدثونه، هي فكرة مقتبسة من الأساطير والديانات الوثنية، منهم أوزوريس في مصر، وبعل في بابل، وأنيس في فرجيا، وناموس في سوريا، وهركليز ند الإغريق، وكريشنا في الهند، وأندرا في التبت، وبوذا في الصين، ومترا في فارس.

زاغت عيناي، وزادت دقات قلبي وهي تواصل بكل شراسةٍ:

- ألستِ مصرية يا عزيزتي؟

تأملي معي إذن غطاء رأس المسيح، ولحيته، عصا الراعي، ثم اقرئي في تاريخ الفراعنة عن أوزوريس أو أوزار التي تعني الراعي، ذلك الرجل الملتحي أيضًا، ذو الشعر الطويل المغطى بغطاء الرأس الممتد من مقدمة الرأس وينسدل على الكتف، والذقن الطويل..

أزوريس أوَّل من سجَّل التاريخ البشري خبر انتصاره على مملكة الموت، وقيامته ظافرًا فاتحًا طريقًا للحياة الأبديَّة لكلِّ بني البشر، ليصبح القاضي العام للجنس البشري، الذي يحاسب البشر على أعمالهم خيرًا كانت أم شرًّا، فيُدخل الأبرار إلى ملكوت النعيم، بينما يحيق الهلاك بمن حادوا عن جادة الصواب، وهي الفكرة نفسها الموجودة في المسيحية عن يوم الدينونة ويسوع الذي سيقف البشر أمام كرسي دينونته ليقدموا حسابًا عمَّا فعلوه في الجسد.

وفي نفس دائرة التشابهات، عبَّر المصريون بإيمانهم بالحياة بعد

الموت من خلال مفتاح الحياة أو (الأنكا) كما كانوا يسمونه، والذي يُعد صليبًا فرعونيًا.

ال هذا الكلام من تأليفك.. فكل المخبولين أمثالك يخلطون التاريخ والعلم بآرائهم الشخصية ليلووا عنق النصوص والكلمات ويصلوا إلى ما يشبع جنونهم.. أما الواقع فما زال يشهد بمعجزات المسيح وأتباعه إلى يومنا هذا.. فكيف فعلوا ما فعلوا بفعل دينٍ مسروقٍ من الأساطير؟".

قاطعتها وأنا أُنفِّض عن عقلي أي تأثير لكلماتها المسمومة، وقد شعرت أن الاستشهاد بالمعجزات سيخرسها فعادت لجدالها وأجابت:

- ولماذا لا ترجعين للعلم والتاريخ وتحكمين بنفسك؟.. فكل ما ذكرته موجود في كتب ومراجع من السهل الرجوع إليها، أما المعجزات التي تتغنين بها أنتِ وباقي المغيبين أمثالك فما هي إلا قدرات خاصة موجودة لدى الكثير من البشر، سواء كانوا مسيحيين، أو مسلمين، أو بوذيين، أو هندوسًا.. والعلم اليوم يصنع ما هو أكثر إعجازًا، من طيران، وأجهزة محمول، وشبكة إنترنت فهل نقدس من ابتكر كل هذا ونتخذهم أنبياء وآلهة؟

لاحظي أننا لم نتحدث بعد عن تاريخ تدوين الأناجيل بعد وفاة المسيح أصلًا، من مدونين لم يُعاصروا الأحداث التي يروونها، وانما نقلوها عمَّن عاصرها وهذا ما يفسر بعض التناقضات التي نراها حتى يومنا هذا، بخلاف موجةٍ من البلبلة والتشتت التي حدثت بين الكثير من القساوسة وجماعات المسيحيين في القرن الأول والثاني بعد الميلاد، حتى الجزء الثاني من القرن الثالث الميلادي عندما تم اعتماد صيغة نهائيَّة متفق عليها لهذه الأناجيل الأربعة.

ألم تسألِي نفسك: لماذا يوجد هذا العدد الكبير من الأناجيل؟ ألا يكفي إنجيل واحد؟

والإجابة أن هذه الأناجيل كُتِبَت لجماعاتٍ مختلفةٍ في شتى

الحضارات والبلدان حتى يتم إقناعهم بالمسيحية، ولعل هذا يُفسِّر لنا الانشقاقات الباكرة بين اليعقوبيَّة والبولسية والمصرية، ليصبح عندنا مسيحية يعقوبية يهودية أبيدت فى أورشليم، ومسيحية بولسية يونانية الثقافة رومانية الهوى، حكمت فيما بعد، ومسيحية مصرية أصلية اندثرت مع اندثار ما سمته الكنيسة بالهراطقة وبقيت لها آثار هنا وهناك.

كل هذا ولم أقل إلا النزر اليسير، فالأكاذيب والتلفيقات التي لا يقبلها العقل لا حصر لها، بخلاف علامات الاستفهام حول الكنيسة التي لا تخضع أموالها لرقابة الدولة رغم أن مواردها تُقَدَّر بالمليارات سنويًا، سواء من العشور، والتبرعات الداخلية والخارجية، والنذور، وتحويلات كنائس المهجر، ومغزى فتح الحسابات في البنوك بأسماء القساوسة وزوجاتهم، في الوقت الذي ثبت فيه بالدليل القاطع فساد بعض رجال الكنيسة حتى إنه تم نشر تحذيرات تطالب بعدم حقهم في جمع تبرعاتٍ مالية أو عينية.

سألتها بدهشة الكون: "متى تعلَّمتِ كل ذلك يا دميانة؟"، فأجابت:

- طوال عمري أقرأ وأبحث، قبل أن التقي بك بسنين طويلة، وقت أن كانت الكتب والمعرفة هي سلواي الوحيدة، ثُم أيقنت أخيرًا أن الإنسان هو إله نفسه القادر على إسعادها أو خزيها، وبعد أن وجدت كل من حولي حمقى لا أمل في شفائهم من مرض الأديان، قررت استغلال جهلهم المشفع بالدين، تمامًا مثلما فعل البابا والقساوسة حين باعوا صكوك الغفران في العصور الوسطى لراغبي التوبة.. لم أكن بحاجة لإقناعك بمثل هذه الطريقة لأنك كنتِ مسيحية في البطاقة فحسب، لكن اليوم أراك تفنين نفسك بالانغماس في تعاليم غبية ستزيدك بؤسًا أكثر من البؤس الذي ذقتيه مع ريمون و...

"هل تجيئين معي إلى الكنيسة وتواجهينهم بما لديك ولننظر من منكم

ينتصر؟".

تأملتها من بين دموعي الصامتة التي فشلت في الانتصار ليسوع، ابتهجت بشكلٍ مريبٍ، ثم أجابت:

- ولماذا أسألهم وأنا لديَّ الإجابة واليقين فيما وصلت إليه.. اذهبي إليهم واسأليهم وحدك، وأراهنك على كل ما أملك أنهم لن يجيبوكِ على أيٍّ من أسئلتك.. بشرطٍ واحدٍ..

- أي شرط؟

- أن تخبريهم أن كل هذه المعلومات قد قالتها لكِ صديقة مُسلِمة، وانظري رد فعل أتباع إله المحبة نحو كلام خصومهم لتوقني أني على حق.

ثم اقتربت مني أكثر، ووضعت وجهي بين يديها الساخنتين وأردفت بصوتٍ جاهدت أن يبدو حنونًا رغم نبرتها شديدة الخشونة:

- صدقيني يا ابنتي لا أريد لكِ سوى السعادة قبل أن تضيع منك أجمل سنين العمر مثلما ضاعت مني.. فما أشقى الوصول للحقيقة في سنٍّ متأخرة، بعد أن يبلى الجسد ويُمسي عاجزًا عن استعادة ما أخفاه الجهل من متعٍ وهبات تمنحها لنا الطبيعة كل يوم، لكننا لا نلمسها بأيدينا بفعل قيود صعبة من الحرمات التي فرضتها الأديان العقيمة.

* * *

(21)

"هذا الكلام غير مقبول هنا.. مليون مرة أنبه ألا نفتح مثل هذه النقاشات مع إخواننا المسلمين، حتى لا تحمل النفوس أي كراهية أو تشاحن، ولنترك للرب حسم هذا الخلاف يوم الدينونة.. هل تريدين فتح الباب للمشاكل والصراعات التي لن تنتهي قبل أن تقضي على الجميع؟!".

قالها القُمص (يوسف أرمانيوس) بنبرةٍ غاضبةٍ في حجرته التي استقبل فيها (آيات)، فأجابته الأخيرة بتلعثم وارتباك:

- كلا يا أبونا، لكن صديقتي المسلمة راهنتني أنك لن تجيب على تساؤلاتي.
- صديقتك هذه لم تعرف المسيحية حق معرفتها، واكتفت بقراءة كلام محفوظ هي نفسها لم تتأكد من صحته، واكتفت بترديد ما تلقنته مثل الببغاء، وأجزم أنها لم تمسك يومًا إنجيلا لتقرأه بقلبها حتى تستكشف الأمر بنفسها، ولا حتى مصحف.. اطلبي منها أن توظف الوقت الذي تقضيه في ترديد ما لا تفهمه في أديان الآخرين في فهم دينها أولًا.
- وماذا عني؟
- لو كان الإيمان بيسوع يملأ قلبك لما هزتك هذه الكلمات.. اقتربي من المسيح أكثر واطلبي منه أن ينير قلبك بمحبته ثم نتحدث بعدها، وإياكِ أن تُقحمي المسلمين مرةً أخرى في شئون خاصة بالكنيسة.. فقد نذرت نفسي ألا أكرههم مهما بدر منهم.. عن إذنك.. لديَّ أمورٌ أخرى أريد الانتهاء منها.

قال جملته الأخيرة وهو ينهض في مكانه لحسم انتهاء اللقاء حتى لا يعطيها فرصة أخرى للمزيد من النقاش والجدل.

نظرت له نظرة أخيرة بعينين تلمعان بدموع القهر وخيبة الأمل، وما أن غادرت الحجرة حتى تركت لدموعها العنان غير مصدقة أن (دميانة) كانت على حق عندما راهنتها بأنه لن يجيب عن تساؤلاتها أبدًا!

دخلت الهيكل وهي تضم كتفيها وتغطي صدرها بإحدى يديها، بينما وضعت الأخرى على فَرجها الذي حاولت إخفاءه بين ساقيها المضمومتين لتداري عوراتٍ ظنت أنها انكشفت، وقد شعرت بالشيطان يجردها من ثيابها بعد أن استفرد بها وسط المقاعد الخشبية الخالية من البشر والملائكة!

وفي غمرة نحيبها، أخذت أصوات الترانيم والموسيقى الكنسية وهمهمات القُدَّاس العظيمة تفر من أذنيها وتبتعد وتبتعد، بينما اختفى المسيح من على الصليب، وفر تلاميذه من لوحة العشاء الأخيرة التي وقف فيها (يهوذا) وحده مبتسمًا بسخرية.

"ماذا بكِ يا آيات؟"

قالها الشاب الوسيم بنبرةٍ متوجسةٍ وقد هاله خطا الكحل السائلان على خديها من عينين ممتقعتين، قبل أن تنظر إلى عينيه وتمطر عينيها أكثر وأكثر، لتجيب عن سؤاله بسؤال خرج بصوتٍ متلجلجٍ لمقاتل يحتضر:

- أين المسيح؟!

عقد حاجبيه في دهشةٍ، وسأل:

- ماذا؟
- **أين المســـــيح؟**

ثم ألقت نفسها في حضنه بشكلٍ مباغتٍ، ودفنت وجهها في صدره، لتتحول دموعها الصامتة إلى نحيب، ونهنهة غير منتظمة الإيقاع، قبل أن تخمد حركتها تمامًا ويتوقف صوت بكائها، فأبعدها عن صدره وتأمل وجهها مغمض العينين وقد ثقل وزنها في يده التي باتت تحمل جسدها بالكامل بعد أن تراخت قدماها وهو يردد اسمها بلوعة: "آيات.. **آيـات**".

* * *

"لماذا عاملتها بهذه الطريقة يا أبونا؟"



قالها الشاب الوسيم في حجرة القُمص (يوسف) بعد أن أفاقت (آيات) بعد مجهوداتٍ مضنيةٍ بذلها هو وباقي خُدّام الكنيسة، لتقص عليه بعد إفاقتها ما حدث بالتفصيل الممل، ثم ترحل وتطلب منه أن يخرج معها، لكنه طلب منها العودة لحجرتها والحصول على قسطٍ من الراحة أولًا.

تأمله القُمص بملامح مترددة، تتأرجح بين الغضب والندم قبل أن يجيب بصوتٍ خافتٍ يستدعيه من غياهب الذاكرة السوداء التي طالما حاول غسلها بعشراتِ الأعمال الصالحة:

- لقد نكأت آيات دون أن تقصد جرحًا قديمًا يا ولدي، كلما ظننت أنه اندمل، ساق لي الرب من يُذكّرني به، ويبدو أنه لن يطيب أبدًا.

صمت الشاب ولم يُعقب بحرف، وقد أدرك بفطرته أن ما يمر به القُمص هي لحظة اعتراف لا إرادية، تحل على لسان الإنسان المكلوم في وقتٍ لا يختاره بعد أن تستبد به الأحزان، ولا يكون هناك مناص من البوح أمام أشخاص لا يختارهم المرء، ولكن تسوقهم الأقدار ليشهدوا هذا الاعتراف، وبالفعل مضت ثوانٍ قال القُمص بعدها:

- لم أصل إلى هذه المرتبة في غمضة عين.. فقبل أن أصبح قُمصًا عشت سنواتٍ طوالًا في الكنيسة، وبين جدرانها، بدأت الحكاية..

- كنت طفلًا نابغًا لأم وأب في غاية التدين، حتى إنهما حرصا على أن أكون من رجال الكنيسة منذ نعومة أظفاري، ولم أخذل دعوتهما المُلِحة للمسيح أن يحفظني ويرعاني ويجعلني من رجاله المقربين، فأصبحت شماسًا وأنا ابن 10 سنوات وسط ذهول الأوساط الكنسية، ثم ترقيت في السلك الكنسي بسرعة ولمع نجمي في دوائر الدراسات اللاهوتية، إذ كنت من طلاب مدارس أحد في الكنيسة، وتربيت في المعمودية.

لم أكن ابنهما الوحيد، فقد كانت لي شقيقة تُدعى (مريم) تصغرني بعامين.. وكانت كلما كبرت في السن، كلما ابتعدت عن الكنيسة، حتى أصبحت مقلةً جدًا في حضور القُدّاس والتناول، ولم تكن

تصوم مثلنا، حتى إن والدي كان يضربها ويوبخها ثم يئس منها مع مرور الوقت، لكن رغم كل هذا كانت أقرب إنسانة لقلبي في هذا العالم.. كانت أمي وأختي وصديقتي، وكان كل منا خازن أسرار الآخر، وصديقه الناصح المُخلِص حين يحار العقل ويعجز الفكر عن الوصول لحل في معضلةٍ ما.

صمت القمص ليبتلع ريقه، ثم طال صمته وكأنه سيُلقي قولًا ثقيلًا قبل أن يبوح أخيرًا:

- وذات يوم، صَدَرَ قرار بتشكيل لجنة خاصة سُمّيت بـ (لجنة القرآن)، تضم 5 أعضاء من كل كنيسة على مستوى الجمهورية، لينحصر عملهم في قراءة القرآن واستنباط التناقضات والمعلومات المغلوطة التي تجافي التاريخ أو المنطق فيه، لاستخدامها في المناظرات التي تحدث مع شيوخ وعلماء المسلمين، ووضعها في مواقع الويب المسيحية، وكانت أول مرة أمسك فيها مصحفًا في حياتي، قبل أن أتبحر في كُتُب التفسير لقرآن الإسلام، سواء تفسير القرطبي، وابن كثير، والجلالين، بخلاف كتب البُخاري ومُسلِم التي جمعت أحاديث وسيرة نبي الإسلام، وكتب أخرى شهيرة في الدين الإسلامي اهتمت بجمع سيرة (مُحمد)، وقصة الخلق منذ مجيء (آدم) حتى بعثة نبي آخر الزمان حسب رؤية المسلمين، مثل (السيرة النبوية) لابن هشام، و(تاريخ الرسل والملوك) المعروف بتاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، و(زاد المعاد في هدي خير العباد) تأليف ابن قيم الجوزية، و(الملل والنحل) للشهرستاني، و(السيرة الحلبية) لعلي بن برهان الدين الحلبي، وغيرها من الكتب التي أجزم أن أغلب المسلمين أنفسهم لم يطلعوا عليها.

ومع القراءة والتبحر في الإسلام وربط الأمر بالتاريخ والأديان الأخرى، وجدت الكثير من الشبهات واندهشت كثيرًا كيف لم ينتبه المسلمون لهذه الأمور، وأدركت أن هذا يرجع إلى سبب عدم قراءة كتب التاريخ والسيرة والتفاسير والتأمل فيها، وبالتالي لم ينتبهوا أن لفظة (الله) كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية قبل بعثة نبي الإسلام، وكانت تعود لإله القمر (الإلاه) وتمَّ اختصارها إلى (الله) في عصور ما قبل الإسلام، حتى إن

العرب الوثنيين استعملوا كلمة (الله) في تسمية أطفالهم، والدليل على ذلك أن والد (محمد) كان يُدعى (عبد الله)، كما أن (الله) هو الاسم المذكر من (اللات) التي كانت تعني إلهة الشمس، ولجذب اهتمام أهل قريش ومحاولة استرضائهم، تعددت أسماء إله الإسلام بطرقٍ تتشابه مع أوثانهم، فأصبحت كلمة (العزيز) مرادفة لـ (العزى)، والمنان مرادفة لـ (مناة)، بل وإن لفظة (الله أكبر) كانت موجودة قبل بعثة (محمد) للدلالة على أن إله القمر كان أكبر الآلهة، واكتشفت أن كلمة الله دخلت المسيحية مع ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية وتأثر المسيحيون بالكلمة السائدة والمنتشرة في المجتمعات العربية، حتى أصبحت لصيقة بألسنتنا وصعب تخليص اللسان منها بعد أن اعتاد عليها، بخلاف الكثير من التفاصيل الوثنية التي ما زالت لصيقة بالإسلام إلى يومنا هذا، مثل حج البيت.

عقد الشاب حاجبيه وثبتت نظراته على وجه القُمص دون حتى أن يرمش، بينما واصل الأخير:

- فقد كان الحج الجاهلي في شهر ذي الحجة أيضًا، في نفس موعد الحج الإسلامي، وكان الحجاج يقبلون محرمين ملبين، وتختلف التلبية بحسب الإله الذي نسك له الحاج، حيث مثلًا يقول من نسك للات: "لبيك اللهم لبيك، لبيك، كفى ببيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية، أربابه من صالحي البرية"، ويقول من نسك للعزى: "لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ما أحبنا إليك"، وكان نسك قريش للإله إساف، وكانت تلبيتهم: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"، وكلها صيغ شديدة التشابه بصيغة الحج الإسلامي، وكان الحاج يطوف بالكعبة سبعة أشواط تبدأ من عند الحجر الأسود أيضًا.

كما اكتشفت أن المصادر التاريخية القديمة تقول إن أصل كلمة الحج هو (الحك)، إذ كان يُمارس في الحج طقس غريب وهو الاحتكاك بالحجر الأسود، وهناك رواية إسلامية تقول إن الحجر الأسود كان أبيض ولكنه اسودّ من مس الحيض في الجاهلية، حيث كانت النساء تمس الحجر بدماء الحيض، وكان

دم الحيض عند المرأة في اعتقاد الأقدمين هو سر الميلاد، فمن المرأة الدم، ومن الرجل المَنيُّ، ومن الإله الروح.

أخذ القُمص نفسًا طويلًا وقد شعر أن الحمل الثقيل الجاثم على نفسه يخف في وطأته، فأردف:

- مع كل وقتٍ يمضي كنت أكتشف المزيد والمزيد، مثل تلك التناقضات بين الرواة في واقعة الإسراء والمعراج في كتب الأحاديث والسيرة التي يقدسونها ولا يجرؤ أحد على التشكيك فيها، فإذا بها تحمل أكثر من رواية بتفاصيل مختلفة، لكن المفاجأة الأكبر لم تكن في التناقضات بين الروايات بقدر ما كانت في تشابه الواقعة نفسها مع قصة النبي (يعقوب) في سفر التكوين حين انطلق هاربًا من وجه أخيه (عيسو)، محرومًا من عاطفة والديه واهتمامهما، ليصير في الطريق عند غروب الشمس وحده معرضًا لمخاطر كثيرة، وحين وضع رأسه على حجر واضطجع، رأى السموات مفتوحة، وسلمًا سماويًّا منصوبًا على الأرض رأسه يمس السماء، ثم تجلى له الله قائلًا: "ها انا معك"، ليسد كل عوز ويعطي بفيض أكثر مما سأل وفوق ما طلب، فيما كانت الملائكة نازلة وصاعدة على هذا السلم، بخلاف ما ورد في أسطورة (ميترا) الذي صعد إلى سماء مقسومة إلى سبع سموات، وكل واحدة مرتبطة بكوكب، وثمَّة سُلَّم مكوَّن من ثمانية أبواب متموضعة بعضها فوق بعض، ولعبور الأتباع من درجة إلى الدرجة التي تليها، كان على الفرد أن يتعرَّف على عبارات مقدَّسة لكي يرضي ملاك الإله (أورمازد) الذي يحرس البوابة، بشكلٍ يتشابه إلى حد بعيد حين كان (جبريل) يستفتح باب كل سماء يصعدها مع (محمد) فيسألونه: "من؟" فيجيب: "جبريل"، فيسألونه: "ومن معك"، فيجيب: "محمد"، فيسألونه: "أو قد أرسل إليه؟" وكأن الملائكة التي تؤمن بالأنبياء وتناصرهم لا تعرف إذا كانوا قد بُعثوا أم لا.

ثم اشتدت دهشتي عند قراءتي في العلاقة بين الديانة الزرادشتية والإسلام لا سيما في واقعة الإسراء والمعراج أيضًا..

فلما أخذت ديانة (زرادشت) في الانحطاط في بلاد الفرس،

ورغب المجوس في إحيائها في قلوب الناس، انتخبوا شابًا اسمه (أرتاويراف) وأرسلوا روحه إلى السماء، ووقع على جسده سُبات، وكان الهدف من سفره إلى السماء أن يَطّلع على كل شيء فيها ويأتيهم بنبأ، فعرج هذا الشاب إلى السماء بقيادة وإرشاد رئيس من رؤساء الملائكة اسمه (سروش)، فجال من طبقة إلى أخرى وترقى بالتدريج إلى أعلى فأعلى.

ويقول (أرتاويراف) عن واقعة معراجه: "قدمت القدم الأولى حتى ارتقيت إلى طبقة النجوم في حومت، ورأيت أرواح أولئك المقدسين الذين ينبعث منهم النور كما من كوكب ساطع، ويوجد عرش ومقعد باه باهر رفيع زاهر جدًا، ثم استفهمت من سروش (الملاك) المقدس ومن الملاك (آذر) ما هذا المكان".

وكان (آذر) هو الملاك الذي له الرئاسة على النار، و(سروش) هو ملاك الطاعة، وهو أحد المقدسين المؤيدين، أي الملائكة المقرَّبين لديانة (زرادشت)، وهو الذي أرشد (أرتاويراف) في جميع أنحاء السماء وأطرافها المتنوعة، كما فعل (جبرائيل) مع (محمد).

ولما اطلع (أرتاويراف) على كل شيء، أمره (أورمزد) –الإله الصالح الذي كان سند وعضد مذهب النبي (زرادشت)– أن يرجع إلى الأرض ويخبر الزرادشتيين بما شاهد، ودُوِّنت هذه الأشياء بحذافيرها وكل ما جرى له أثناء معراجه في كتاب اسمه (أرتاويراف نامك).

لم يجد الشاب ما يُعقب به، فاكتفى بالصمت وهو يتأمل صورةً للعذراء وهي تحمل المسيح الصغير وحولهما ملائكة على هيئة أطفال تُحيط رؤوسهم هالات من الضوء، بينما استطرد القُمص:

حتى واقعة الطير الأبابيل الشهيرة التي يتغنى بها التاريخ الإسلامي، ونزلت فيها سورة الفيل تأريخًا لحماية الرب لكعبته من جيش أبرهة الأشرم حين أراد هدمها، ثبت عدم وجودها في أنباء وقصص العرب قبل بعثة نبي الإسلام، رغم أنهم كانوا يدونون كل كبيرة وصغيرة، فكيف يتجاهلون واقعة بهذا

الإعجاز، وكيف يحمي الرب كعبته قبل بعثة رسول آخر الزمان بطيور ترمي الجنود بقطع من الأحجار المشتعلة، ثم يتخلى عن نفس الكعبة المقدسة مرة حين ضربها الحجاج بن يوسف الثقفي بالمنجنيق في حربه مع عبد الله بن الزبير في القرن الأول هجريًا، ومرة حين هجم القرامطة على الحجاج في موسم الحج بيوم التروية وقتلوا الحجيج العزل من السلاح، فأخذ الناس يلقون بأنفسهم في الآبار ويفرون إلى رؤوس الجبال خوفًا من سيوف القرامطة الذين نهبوا أموالهم، واستباحوا دماءهم، وقتلوا الحجيج في رحاب مكة وشعابها حتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة، وجلس أميرهم أبو طاهر سليمان على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله في المسجد الحرام وهو يقول ساخرًا: "أنا بالله وبالله أنا، يخلق الخلق وأفنيهم أنا"، والناس يفرون ويتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئًا ويقتلون وهم كذلك، حتى بلغ عدد من استشهد من الحجيج أكثر من ثلاثين ألفًا، وبعد انتهاء المذبحة أمر أمير القرامطة بأن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيرًا منهم في أماكنهم في المسجد الحرام، وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها وشققها بين أصحابه، ثم أمر بعد ذلك بقلع الحجر الأسود وهو يقول: "أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟" ثم قلع الحجر الأسود ونادى بأعلى صوته: "يا حمير، أليس قلتم في بيتكم هذا وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا؟ فأين الأمن؟"، وأخذوا الحجر الأسود إلى بلادهم وخرجوا وهم يقولون: "فلو كان هذا البيت لله ربنا، لصب علينا النار من فوقنا صبا"، وبقى الحجر الأسود عندهم أكثر من 20 عامًا.

ثم عاد أطرق القُمص وجهه للأرض ولاذ بالصمت وقد وصل إلى أثقل ما في حكايته الأليمة، فلم يستطع الشاب الوسيم مع الصمت صبرًا، وقد شحذت الكلمات فضوله فسأل:

- ما الذي حدث بعدها؟

فنفس القُمص زفيرًا طويلًا اتكأ فيه وهو يخرجه على حرف الحاء الذي برز رنينه وصداه قبل أن يجيب:

- ما زلت بعد كل هذه السنين أذكر ما أوردته في تقريري عن ... كتبت: "لقد تعرضنا لآراء وأحاديث كوكبة ضخمة من كبار العلماء والمفسرين ورواة الأحاديث، فوجدت ما يليق وصفه بأنه مجرد أساطير وتجميع لعبادات قديمة"، ثم سألت: في التقرير نفسه: "كيف تتخذ آلاف من المدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية من هذه الخرافات منهجًا تدرسه لطلابها؟ وماذا ننتظر من خريجي هذه الجامعات والمعاهد والمدارس؟ إن هذه الكتب وأمثالها وضعت عقل المسلم في محنة ما بعدها محنة. فإما أن يُعمل المُسلِم عقله ويرفض هذه الأشياء ويكتب حينها شهادة وفاته بيده، أو يستغني عن العقل الذي منحه الله إياه ويصدق فكر الأسطورة كما هي بعد أن يُخرِس صوت الفكر ويخمده داخله" وأنهيت تقريري بكلماتٍ جريئةٍ قلت فيها:" علينا التصدي لمثل هذه الكتب والعودة إلى الوراء أربعة عشر قرنًا لنبدأ من مرحلة ما قبل هذا الفكر الصحراوي والبدوي إن كنا صادقين في البحث عن حل لحالنا المُتردي، وإن كانت لدينا الشجاعة على تحمل المسؤليات أمام أنفسنا، وأمام الله، وأمام الشعوب".

ثم لمعت عينا القُمص بالدموع وأردف بكلماتٍ ثقيلةٍ تخرج بالكاد:

- في تلك الأثناء، كان لي صديق في لجنة القرآن يُدعى (إبرام يونان)، طالما اعتبرته أخي الذي لم تلده أمي، فجَّر مفاجأة مدوّية حين سأله أحد الأساقفة عما وجد في القرآن وسيرة نبي الإسلام من أخطاء، فأجاب: "لم أجد في القرآن ما يعيبه أو ينقده"، ثم بدأ يفند ما ورد في تقاريرنا من أخطاء إسلامية، وحين زاد اللغط والجدل قلب المائدة على الجميع وشكَّك في التثليث وصلب المسيح وألوهيته، مؤكدًا أن الاعتقاد بألوهية المسيح لم يصبح عقيدة مستقرة وسائدة بين المسيحيين إلا بعد انقضاء عهد الحواريين والتلاميذ الأوائل للمسيح، ومرور قرن على الأقل على ميلاد يسوع، وقال إنه حين دخل المسيحية مؤمنون جدد من الأمميين الوثنيين، كانوا متشبعين بثقافة عصرهم الوثنية الهيلينية التي تنظر للعظماء من أباطرةٍ أو قادةٍ فاتحين أو

فلاسفةٍ عظامٍ على أنهم أنصافُ آلهة، أو أبناء آلهة هبطت لعالم الدنيا وتجسدت لخلاص بني الإنسان وهدايتهم، فصار كثيرٌ منهم ينظرون لشخصية المسيح بنفس المنظار، مستغلين التعبير الرمزي عن المسيح في لغة الأناجيل، ليأخذوا البنوة على معناها الحرفي الذي اتفق مع ثقافتهم الوثنية، ورأوا فيه ابن الله الحقيقي الذي كان إلهًا فتجسد ونزل لعالم البشر لخلاصهم، وأكد إبرام أن مصطلح ابن الله لم يكن قاصرًا على المسيح فقط، وشمل العديد من البشر مثلما جاء في سفر التكوين.

صعقتنا كلماته، وحين حاولنا نقاشه صمم على موقفه وأكد أن عقيدة الصلب والتثليث والتجسيد لاقت رواجًا لدى العوام الذين أعجبهم الغلو في رفع مقام من يقدسونه، قبل أن تلعب عدة عوامل سياسية وثقافية واجتماعية ولغوية لصالح الاتجاه الوثني في النظر لشخصية المسيح، وشيئًا فشيئًا صار هو الأصل وصارت مخالفته هرطقة وخيانة لحقيقة يسوع..

ورغم أن الموحدين بالإله والمؤمنين ببشرية المسيح صاروا فئاتٍ ضئيلةً يُنْظَر إليها على أنها مبتدعة ضالة، مثلما حدث مع الأسقف أريوس في الإسكندرية، إلا أن إبرام اعتبرهم موحدين وليسوا مهرطقين، وأخذ يذكر أمثلة وأسماء لم نعرفها من قبل مثل الطبيب الإسباني ميخائيل سيرفيتوس الذي أعلن بطلان عقيدة التثليث ورفض ألوهية المسيح بشدة، وسمى الثالوث بالوحش الشيطاني ذي الرؤوس الثلاثة، وقام بحركةٍ نشطةٍ جدًا في الدعوة إلى التوحيد الخالص ثم اتهمته الكنيسة بالهرطقة واعتقلته ثم أعدمته حرقًا حسب ما قال إبرام مستشهدًا بكتبٍ ودراساتٍ قال إنها متاحة معه لمن يريد الاطلاع عليها، والإيطالي فاوستو باولو سوزيني الذي نشر كتابًا إصلاحيًا ينقد عقائد الكنيسة الأساسية من تثليث وتجسد وكفارة، ثم توصل للتوحيد الخالص وأخذ يؤكد عليه في كتاباته حتى انتشرت تعاليمه في كل مكان، وتعرض أتباعه لاضطهادٍ وحشي، وحُرق الكثير منهم أحياء أو حُرموا حقوقهم المدنية وحُرقت كتبهم، والبريطاني جون

بيدل الذي قام بنشاطٍ إصلاحي قوي في بريطانيا ونشر رسالته التوحيدية المدللة بأقوى البراهين المنطقية على بطلان إلهية المسيح وبطلان إلهية الروح القدس، وتفرد الآب وحده بالإلهية والربوبية، وتعرَّض هو وأتباعه لاضطهادٍ شديدٍ وحُوكم وسُجن عدة مراتٍ وتُوفي أخيرًا وهو سجينٌ بسبب سوء ظروف السجن وسوء المعاملة فيه، وغيرهم كثير على مرِّ التاريخ.

بالطبع قامت الدنيا ولم تقعد بعد تلك القنبلة التي ألقاها إبرام، خاصة بعد أن تأكدنا من اعتناقه للإسلام، وبدأ كبار الأساقفة في نصحه وإرشاده، لكن ثمة مفاجأة أكبر شغلتني عن متابعة مشكلته، حين طلبت مني أختي مريم أن تحدثني في أمر خطير.

لمعت عينا القُمص بالدموع عند هذا الحد، وخُيِّل للشاب أنه يبذل مجهودًا مضنيًا لمنعها، وهو يتابع:

- قالت لي في بادئ الأمر أنها ذهبت إلى رحلاتٍ في دير مارمينا ببرج العرب، الذي يوجد به قبر الأنبا كيرلوس، فوجدت الناس تسجد أمام قبره ويطلبون منه طلباتٍ كثيرةً تتعلق بالشفاء من المرض، أو النجاح في الدراسة، فلماذا يلجأون للقديسين والشفعاء ولا يدعون ربهم بلا أي وساطة؟ ولماذا نعترف لقسيسين هم بشرٌ مثلنا، ولا نتوب إلى الله بشكلٍ مباشر بدلًا من هتك أسرارنا وخصوصياتنا أمام أناسٍ داخلهم نفس الشهوات، وتراودهم نفس الوساوس، ومن الممكن أن يستغلوا اعترافات البشر ويسيطروا عليهم مثلما حدث ذلك من قساوسة ورهبان تم شلحهم؟

سألتها: "أنا أستمع للاعتراف، فهل تعتقدين أن أخاكِ قد يفعل ذلك؟" فبكت وأجابت: "مستحيل أن تفعل، لذا لا أريدك أن تكون مثلهم.. وأدعوك إلى الإسلام"!

تحولت الدموع اللامعة في عيني القُمص إلى خطين ساخنين يسيلان ببطء على خديه وهو يتابع:

- ورغم أنها وثقت فيَّ كأقرب المقربين لها، ورغم طبيعتي الكهنوتية

التي كانت تحتم عليَّ التحلي بصفاتٍ معينةٍ في التعامل مع الأزمات، لكني ضربت بكل ذلك عرض الحائط حين علمت بإسلامها.. **(بكى بصوتٍ مسموع بعد أن كانت دموعه صامتة، ورفع يديه المرتعشتين أمام وجْهه وهو يتابع)** سلمتها بيديَّ للهلاك حين أخبرت والديَّ بما استأمنتني عليه في لحظة غضب أعمى شعرت فيها أن إسلامها انتصار على كل ما كتبته في تقريري، ودعمًا لصديقي الذي باع المسيح بعد كل ما تعلمه وتربى عليه.. نسيت تعاليم يسوع بالمحبة حتى تجاه أعدائنا ولاعنينا، ولم أفق إلا وأختي قتيلة وأبي في السجن، وكان هذا اليوم الذي لا يُنسى علامة فارقة في حياتي.

تَعَرَّضت أسرتي بعدها للتهجير من المنطقة التي كان أغلب سكانها من المسلمين بعد ما انتفضوا لمقتل أختي، وفقد إبرام كل ممتلكاته وأمواله، وتم طرده من منطقته التي كان أغلب سكانها من المسيحيين، فقررتُ استكشاف الإسلام من جديد.

أعدت قراءة القرآن لأستنبط التشابهات مع الإنجيل، وأعدت قراءة الأناجيل لاستخراج كل ما يقربنا من المسلمين الذين كنت أجزم يومًا أن مصيرهم جهنم كما يقولون عنا تمامًا، غير أن الفارق بيني وبينهم أن لي أختًا صارت منهم ولم يعد من الممكن استعادتها بعد أن ماتت على ملتهم دون إمهالها الوقت لتُراجِع نفسها.

زاد نحيب القُمص دون أن يُجدي مسح يديه على عينيه في تجفيف دموعه السحاحة، وهو يتابع بصعوبة:

- كلما تذكرت أجمل أيام حياتنا ومعزتها الشديدة في قلبي، كنت أسأل نفسي: هل سنلتقي مرةً أخرى في ذلك العالم السماوي المقدس الذي اختلفنا على رؤيته وطريقة الوصول لنعيمه؟ فحاولت مرارًا أن ألعب دور المحامي الذي يفتش في كل القوانين والدساتير السماوية بحثًا عن البراءة لأخته التي لا يقوى على فراقها وصارت فرصة لقائها الوحيدة في يوم المحاكمة.

تعمقت في الإسلام بمنطق مختلف، ووجدت للشبهات والتناقضات التي ارتأيتها في الإسلام ردودًا واجتهاداتٍ إسلامية كان من المستحيل أن أفهمها وأنا أقرأها بعينٍ متحفزة وعقل متربصٍ، وكتبت بالمثل اجتهادات لكل الشبهات التي ذكرها إبرام وغيره تجاه المسيحية، وذكرت معها نفس الوصفة السحرية التي تجعلها سهلة الهضم.. أن يتخلى قارئها عن التحفز والتربص والأحكام المسبقة قبل قراءتها.

قبل أن أحظى بحضور مؤتمرات الحوار بين ممثلي الديانات الإبراهيمية الثلاث، بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السلام.

التقيت هناك بالحاخام (موريس) وعددٍ كبيرٍ من رجال الدين اليهودي والإسلامي، ولأول مرة في حياتي تفهَّمت دعوات بعضهم لي بالإسلام من منطلق أنهم يُريدون لي الخير والنجاة، ولأول مرةٍ في حياتي كنتُ أتمنى أن تكون النجاة ليست قاصرة على المسيحيين فقط.

سألت الرب من بين دموعي هناك وفي أماكن أخرى: لِم فرضت علينا هذا الاختبار القاسي؟ لِم علينا أن نفارق الأحبة في عالم الفردوس باسم طاعتك التي من المفترض أن تجمعنا؟ وما فائدة الخلود إن لم نكن مع من نحب؟ فكم من أناسٍ تجمعهم أواصر القرابة والصداقة والمواقف والذكريات التي لا تُنسى، غير أنهم ليسوا على دينٍ واحدٍ، فلماذا سيتفرقون يومًا بسببك وأنت إله المحبة الأجدر بتجميع كل الأشتات؟

قاطعه الشاب بشرودٍ وكأنه يجيب نفسه:

- ربما كانت الإجابة أنه ترك لبني الإنسان حرية الاختيار ليتفقوا جميعًا على منهجٍ واحدٍ إن أرادوا، فرفضوا ذلك وتمسك كل منهم بمنهجه، ثم لاموا خالقهم لأنهم مُخَيَّرون، ولو كانوا من الخراف أو البهائم لسألوه: لم فرضت علينا الذبح والقتل من بني الإنسان ليأكلوا لحومنا؟ وعاتبوه على أنهم مُسَيَّرون.. فكل المخلوقات

تسأل الخالق في ما لا تفهمه، ومن المستحيل أن تفهمه إلا لو كان كل منهم إله مثله.

انتحب القمص أكثر وبدا وكأنه يحتضر وهو ينظر للشاب بانبهارٍ وتأثر قائلًا:

- هو ذاك يا ولدي.. هو ذاك.
- لكنك لم ترد على ما ساقته لك آيات من شبهاتٍ وتساؤلاتٍ رغم أنك لديك ما يُقال.
- لأني توقفت عن هذا الهُراء منذ زمنٍ يا ولدي، منذ أن اكتشفت أنه حرثٌ في ماء البحر، وعبث لنْ يصل بأبناء أي دين إلى الحقيقة التي يزعمون أنهم يبحثون عنها.. فقد صار الأمر بمثابة لعبة تحدٍّ ممتعة، يتفنن كل طرف في كيد الطرف الآخر رغم أن معظم من يثيرون تلك المواضيع والتساؤلات في كلا الجانبين غير ملتزمين بدينهم ولم يبحروا فيه، إن هي إلا أسئلة وشبهات جاهزة يأخذونها كما هي ويلقونها في وجه خصومهم غالبًا من وراء جُدر الكترونية في مواقع ومنتديات شبكة الإنترنت وبرنامج البالتوك، فيتجادلون، ويتهكمون، ثم ينتهي الأمر بوصلةٍ من السباب والكراهية وتبادل الأمنيات البشعة، دون أن يغير أي طرف قناعاته.. أما الإيمان الحقيقي فبعيد كل البُعد عن ذلك.. وحين يوقر في القلب، يضرب في الروح والكيان والنفس فيتغير كل شيء، دون أن يحتويه العقل أو تكفيه الكلمات.
- على الأقل عليك أن تؤدي واجبك.
- واجبي هو أن أمنع العبث وأصحح مفاهيم الإيمان الصحيح وطرق النقاش لمن يبحثون عن المناقشة.. فقمة الإيمان بالمسيح في تلك الحالة هي الصمت ما دمنا نثق في تضحيته الخالدة من أجل تخليصنا من الخطية، بل ونُصلي من أجل الذين يلعنوننا ويسيئون إلينا.. إذ إن معركة من أجل إثبات الصواب بين جيشين يقفان على قشرة ثلجٍ ضعيفةٍ معرضة للانهيار، هي الخطيئة في حد ذاتها، ولا تعني سوى أن الطرفين حمقى

وكلاهما على خطأ.

- ألا ترى أن الصمت أحيانًا يتم تفسيره بأنه ضعفٌ في الحُجة وإفلاسٌ في الرد، مما يدفع الطرف الآخر في التمادي؟

- والرد أحيانًا لا يحسم الجدل ولكنه يجرك إلى معركةٍ قد لا تنتهي.. وندخل جميعًا في حربٍ كلاميةٍ تُوغر القلوب بالحقد والمقت ويكون الالتقاء بالأسلحة أمرًا حتميًا في نهاية المطاف.

- صدقني يا بُني الحرب الكلامية الدائرة حول الله لن تصل لشيء ما دام الأمر مجرد مقارعة للحجج واستخدام مقصور على العقل العاجز بطبعه على استيعاب أمور فوق مستوى الفكر.. ومهما سدد أبناء كل دين من كلمات الإهانة والتكفير نحو الآخر ظنًا منهم أنها ضرباتٌ قاضيةٌ ستحسم الجولة وتهدم الدين المخالف، فلن يجدوا إلا تعلقًا زائدًا من الآخرين بدينهم حتى وإن لم يجدوا الرد المناسب على من يشنون عليهم الحرب.. فحقيقة الأمر أن الأديان تكتسب قوتها كلما زاد ضعف معتنقيها وشعروا بالاضطهاد، ومهما اشتد وطيس المعركة فلن يصل أي طرف إلى شيء لأن مفتاح الإيمان في القلب وليس العقل.

ثم التقط القُمص نفسًا طويلًا ليقول آخر كلماته في تلك الجلسة:

- وبافتراض أن كل الأديان صحيحة ومقبولة من الرب دون اتهام لدينٍ بالتحريف أو الكفر، فسيدخل معظم البشر الجحيم أيضًا، لأنهم لم ينفذوا تعاليم الكتب التي آمنوا بها.. فلماذا لا يبحث كل إنسان في دينه ويهتم بتنفيذ تعاليمه واجتناب نواهيه قبل أن ينصب من نفسه إلهًا وحكمًا على أديان ومعتقدات الآخرين؟ هل لديك إجابة؟

هز الشاب رأسه بالنفي، فقال القُمص بأسى:

- أنا أخبرك.. فالمتشددون لا يعبدون الله، ولا يعبدون الدين، بل يعبدون انتماءهم نفسه.

* * *

(22)

قهقهت (دميانة) بضحكةٍ ساخرة، حملت جلجلتها الرنانة شماتة الكون، قبل أن تقول لـ (آيات) الباكية بتشفٍ:

- هل صدَّقتِ كلماتي الآن، أم ما زال يساورك الشك في أن رجال الدين لا يهمهم سوى الرغبة في السيادة على البشر، والنصب عليهم باسم تعاليم ومقدساتٍ زائفة، ليفوزوا وحدهم بالجنة المزعومة، لكن على الأرض، قبل الموت، حيث لا ينتظرنا بعده سوى العدم.

ظلت (آيات) على بكائها الصامت، فواصلت (دميانة):

- وكيف ستمتلئ كروشهم، ويحصلون على أفخر السيارات والبيوت، وتُملأ أرصدتهم في البنوك بالأموال، إن لم يكن هناك إله يخوِّفون به العبيد، ويستمدون من سلطاته وبطشه سلطاتٍ أقوى من سلطات الرؤساء والملوك والقياصرة والجيوش والحكومات.

اكتفت (آيات) بتحريك رأسها يمينًا ويسارًا بسرعةٍ أخذت تزداد، وتزداد، فعقدت (دميانة) حاجبيها وأمسكتها من كتفيها وهي تسألها:

- لماذا تهزين رأسك هكذا؟

انتفضتْ (آيات) وصرختْ فيها:

- سأُكذِّب كلامك حتى ولو بمنطق التعنت والعناد الذي يصدر عن عديمي الحجة.. وكفاني أن أتكيء على انتمائي وقناعاتي الدينية بحكم الوراثة، واعتبار أن كل ما سمعته منك محض كذب وافتراء وجهل، حتى ولو لم يكن لديَّ ما يثبت ذلك.. فقط سأظل فخورةً بمسيحيتي التي ستدخلني الفردوس، ولو لم أنل ما أصبو إليه في عالم الملكوت ووجدت بعد موتي العدم، فيكفيني أن أعيش على تعاليم فيها الخير والسعادة لمتبعيها.

لمعت عينا (دميانة) بالسخرية والتهكم، وسألتها:

- وفتاكِ الوسيم؟
- سأتزوجه مهما حدث، حتى وإن ثبت أنه غير مسيحي، مثلي في ذلك مثل الكثير من المسيحيات اللاتي تزوجن من غير مسيحيين ولم يتسبب الدين في تعاستهن كما زعمتِ.
- أخشى أنه هو الذي قد يُفرط فيكِ بعد أن وجد في غيرك ما تعففتِ عن منحه له بعد أن منحتيه لغيره قبل أن ترتمي في حضن المسيح.
- ماذا تقصدين؟
- فتشي وراءه جيدًا يا عزيزتي، فربما وجدتِ من تنافسك على الفوز به.

ألقت (دميانة) قنبلتها ثم نهضتْ من على المصطبة متجهةً إلى غرفتها قائلةً وهي تمصمص شفتيها:

- فللخطايا رائحةٌ فواحةٌ تستثنيها أنوفُ العاشقين، ويشمها من على بُعد أصحاب الخبرات ممن أكل عليهم الدهر وشرب مثلي، وللمرة الثانية ستدركين أني كنتُ محقة.

ثم أغلقت الباب خلفها بعنف لتنتفض (آيات) في مكانها وهي تحاول أن تطرد من رأسها أي أثر للشك في فتاها الأعلى من مستوى الشبهات، لكن عبثًا، ما كان لأنثى أن تستثني حبيبها من تساؤلات الريبة والشك لا سيما إن كان محط أنظار الآخرين.

أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها، مدفوعةً بكلمات (دميانة) التي قادت تصرفاتها، لتفتح موقع فيس بوك، وتبحث عن الحساب الشخصي للمدعوة (كريستين)، دون أن تعرف لم اختارت هذا الاسم تحديدًا حين طرأت في رأسها الوسواس..

وجدت حسابها الذي لم يكن ضمن قائمة أصدقائها، وتصفَّحت عند دخوله تلك الصور الجديدة المرفوعة مؤخرًا، وكم اللاهثين خلفها في التعليقات، دون أن تعثر على ما يبرد نيران الشك المتوهجة في أعماقها، ثم أخذت تتصفح الكلمات التي يكتبها المستخدمون للتعبير عن حالاتهم

المزاجية، وما يفكرون فيه، وفجأة وقعت عيناها على كلماتٍ ليست كالكلمات كتبتها (كريستين) منذ أيام قلائل:

صار للخطيئة معك طعمٌ خاصٌ فاق روعة الحلال.. حتى أني ندمت على كل لحظةٍ لم أذق فيها طعمك، وكأن الذنب الأكبر في حبِّك هو عدم الوقوع في الذنب..

هل ستحكي في خواطرك حين تجردنا من الملابس واللحم والدم والعظام وصرنا نفسًا واحدًا أنا شهيقه، وأنت زفيره؟

حين عانقتني وكأن لا أحد غيرك يعرف معنى العناق..

حين قبَّلتني وكأن القُبلة لم تُخترع بعد..

أم سترمز لذاتك باسمِ مستعارٍ في بطلٍ يحكي جزءًا من الحقيقة، لتبقى حقيقتك جزءًا محذوفًا من النص، لا يظهر حتى في ضمير الغائب؟

لا يهم ما ستخبر به الآخرين، فقط يعنيني كم أنا محظوظة بك يا شيطاني الحارس.

انغرست الكلماتُ في قلب (آيات) كحرابٍ حبشيةٍ مسنونةٍ على أسنتها السم الزعاف، وشعرت وهي تخور أن جسدها لوح زجاجي أصابه السرطان فتصدع وامتلأ بخيوط الشروخ والوهن، ولم يعد ينقصه سوى لمسةٍ بسيطةٍ ليتفتت إلى ذراتٍ تذروها الرياح كأن لم يكن.

دخلت على حساب فتاها الوسيم وسألت صورته بنظراتها الدامعة بعد أن صارت شكوكها في منزلة اليقين: لِمَ فعلت ذلك؟!

ومن جديد فرَّت من الواقع المؤلم إلى مملكة الورقة والقلم، غير أنها في هذه المرة لم تكن ترسم عالمًا جديدًا على مقاس أحلامها وأمنياتها مثلما اعتادت؛ بل تكتب بحبر من دم أصعب لحظات الألم حين ينزف قلب العشاق في لحظة الاستيقاظ على حقيقةٍ غير متوقعة، ولا محتملة التصديق..

وبدأت يدها في الكتابة بما تمليه عليها دقاتُ قلبها:



- قبل أن ألقاك، كنت أعيش أكلينيكيًا.. مجرد عقل موصل بأجهزة الوجود وخراطيم الحياة.وبعد أن التقيتك أدركت لأول مرة كيف يمكن أن تكون الحياة أجمل من الجنة، فقط إذا كنت فيها.. فقد كنت من قبلك أرضًا بورًا

هامدة، فلما وطئتها قدماك اهتزّت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج، وصار أملِ لقائك من حين لحين، وقودًا يدفع آلة زمني نحو غدٍ أفضل أمَنّي روحي به، دون أن أكف عن التفكير في اختلاق الحجج والمبررات لجذب انتباهك، ومشاهدة الاهتمام في عينيك الوضاءتين الأعظم من ألف ألف شمس..

كنت كلما أهرب منك، أفر إليك في موضع آخر من الخيال، أنصب فيه مسرحًا لا يحوي سوى ديكور ملامحك التي تغار منها الملائكة، وأجري فيه بروفاتٍ لا نهائية لأحاديث ينطلق فيها لساني بالبلاغة والفصاحة والعمق تارة، وأستجلب فيها النكات والمواقف الكوميدية تارة أخرى، وأفكر كيف أصنع منها حديثًا ممتعًا يسرق قلبك ومشاعرك ويسلمهما لقلبي المفتون بك، فيأتي الواقع بما لا تشتهي السُّفن، وأقف في حضرتك كالمسحورة، لا أملك سوى التلعثم كطفل يتعلم الكلام.. تحثه عيناك أن ينطق، أن يبوح، لكن عبثًا، تنتحر الكلمات على شفتيه وتلقي بنفسها في عالم النسيان!

مع حروف كلماتها الأخيرة، أمطرت عيناها من جديدٍ لتغرق دموعها دولة الصفحة التي أوت إليها بخواطرها ومشاعرها كآخر ملاذٍ تبقى لها في خضم تلك اللحظات العصيبة، فواصلت الكتابة دون أن تجفف الدموع:

- كنت أموت في حضرتك ألف مرة وأنا أدرك أن اللقاء مهما طال سينتهي بوداع، وأحيا في الوقت نفسه لحظاتٍ سعيدةً سيؤبدها الدهر حتى بعد أن أفنى ويطويني النسيان، قائلة لنفسي: لو لم تمنحني تلك الحياة البائسة سوى هذا الإنسان لكفى.

حتى حين اهتز إيماني بالمسيحية التي انتظرت منها أن تدخلني الفردوس وتعوضني عن آلام الدنيا، قلتُ لنفسي: كل هذا لم يعد يهم، فقد أتى إليَّ الملكوت هنا على الأرض مع هذا

الإنسان الذي لا مثيل له.. فهو أول تعويض من نوعه عن الجنة بما هو أغلى من الجنة!

ربما كانت وقاحةً مني أن ألومك على الوقوع في خطيئةٍ واحدة، وأنا التي سَقَطَت قبلك في كل أنواع الخطايا مع كل صنوف البشر، بعد أن سرت مع الشيطان الخُف بالخُف في تلازمٍ لا انفصال فيه، لكني صرتُ بعد العثور عليك إنسانة أخرى لعلها تكون جديرة بذلك النموذج النادر الذي لم ترَ له مثيلًا في البشر وقد ارتقى إلى مصاف الملائكة، فإذا به أسفًا صار بعد معرفتي مجرد ساقط، مثلما سقط الكاروب وتنجست مقادسه!

شعرت بأنفها يحرقها بمخاطه اللزج الذي لم تعد قادرةً على شنشنته، فتركت دفترها وفتحت حقيبتها لتخرج منها مناديلها الورقية وتمسح بها تلك البلل المالح الذي يحضر بلا استئذان كلما تفاقمت مشاعر البشر في الحزن أو الفرح على حدٍ سواء، ثم تمتمت وهي تمسح دموعها وقد حل التحفز في ملامحها بدلًا من الانكسار:

- إن كانت الخطيئة هي قدر كل البشر لا محالة، فلنُخطِئ مع من نحب!

* * *

"لن يكتمل مخططك.. خذها مني كلمة، ستفشل في النهاية"

قالها طيف (دميانة) الحبيس داخل جسدها إلى طيف الرجل ذي العينين الزرقاوين المسيطر على بدنها، فابتسم ساخرًا وتألقت عيناه بشدة وهو يرد عليها بثقةٍ مطلقةٍ:

- جميعهم يسقطون في النهاية..

دائمًا ما تكون فرصة الإغواء الأولى صعبةً تجاه من يملكون المبادئ الخَيِّرة، لذا ترجح كفة الإيمان الراسخ أمام كفة الخطيئة عند أول محك، لكن عبقرية الذنوب والشهوات أنها تتراكم وتتكاثر طول الوقت، بينما مأساة الإيمان أنه يضعف ويتناقص باستمرار مع ضربات القدرة المؤلمة، واختبارات الحياة التي غالبًا ما تكون عسيرة، حتى تأتي اللحظة التي تخور فيها القدرة على الصمود والاحتمال تدريجيًا، فترجح كفة السيئات وتهبط

لأسفل شيئًا فشيئًا وهي تُخرج لسانها لكفة الفضيلة التي تخف وترتفع، حتى يأتي الوقت الذي يجد فيه صاحب الخطيئة نفسه وقد تورط فيها، لا يعرف متى وكيف سقط، بنفس ذات الدهشة حين ينظر أحدهم لصورته وهو صغير ويتساءل: متى وكيف كبرت إلى هذا الحد الذي يفصلني عن شكلي القديم؟!

سرحت في كلماته قليلًا ثم حاولت أن تدحض منطقه قائلةً:

- لقد علَّمها الفضيلة، ونأى بها عن السقوط.. لو كانت إرادته قابلة للثني لخار منذ أول لحظة لقاء، ما رأيته منه بعيني يجعلني على يقين في أن لديه إيمانًا أعتى من الشهوات.. سيدحض منطقه حيلك الرخيصة وسترى.

- النزوات والخطايا تحدث أصلًا لأنها لا تخضع للمنطق، وإلا ما سقط فيها حكماء ورهبان وشيوخ وقادة هم أبعد ما يكونون عن السقوط بمنطق البشر، ثم إنكِ لم تشاهدِي ما شاهدت حين انفرد بتلك الصاروخ الأخرى.

قاطع حديثهما صوت طرقات على باب الحجرة، فبرقت عيناه وقال لها:

- ها هي فتاتك جاءت لتطلب مني المساعدة على أن تباتَ الريشة في المِكحَلة.

ثم انتشر طيفه في جسد (دميانة) ودبَّت فيه الحركة، فنهضت من على السرير لتفتح يدها الباب وتتأمل وجه (آيات) الباهت، المرسوم على وجنتيه خطان من الكُحل..

- هل فكرتِ في كلامي؟

قالتها (دميانة) بصوتٍ أجش، فأجابتها (آيات) بصوتٍ باكٍ:

- بل صدقته.

- عظيم.. الآن يمكنني القول إن هناك أملًا في أن تحصلي على سعادتك.

انتحبت (آيات) وهي تقول بنظراتٍ زائغةٍ وعينين ذابلتين:

- لقد فقدت الثقة في كل شيء.. سأعيشُ وأموت في تعاسةٍ وبؤسٍ يا دميانة.

احتوتها (دميانة) في حضنها، وأخذت تمسح على شعرها وهي تقول:

- ما زلتِ صغيرة على هذا الكلام يا عزيزتي، فالعمر ممتد أمامك لتحصلي على ما تريدين.

سألتها (آيات) وهي لا تزال تريح رأسها على صدرها:

- هل تساعدينني على ذلك؟

أجابتها (دميانة) بخبثٍ:

- كيف يا عزيزتي، فأنا امرأةٌ عجوزٌ كما ترين؟

رفعت (آيات) رأسها وتسوَّلت منها الحنان وهي تقول بتوسل واستضعاف:

- فقط أريد غرفتك ليلة واحدة.. سأسرق السعادة ما دامت الدنيا تبخل أن تهاديني إياها.

وداخل جسد (دميانة) أخذت روحها الحبيسة تصرخ: **"لا يا آيات، إياكِ أن تفعلي"**.

لكن لسانها الخاضع لإرادة الرجل المريب قال بترحابٍ شديدٍ:

- على الرحب والسعة يا ابنتي.. فصدق من قال: "وما نيل المطالب بالتمني ولكن، تُؤخذ الدُنيا غِلابا"*، ثم أني لديَّ بالفعل أمور أخرى طالما أردت الانتهاء منها منذ زمن، وهذه أفضل فرصة.

قالت جملتها الأخيرة بطريقةٍ ذات مغزى، وقد لمعت عيناها ببريقٍ مريبٍ لم تلحظه (آيات)، فيما تردد داخل الجسد ضحكات الرجل المجلجلة غير عابئٍ بصرخات طيف (دميانة) التي لم تيأس وهي تواصل النداء بصوتٍ داخلي مكبلٍ بقيود الصمت: **"لا يا آيات.. احترسي قبل فوات الأوان"**.

* * *

* مؤلف هذا البيت، هو أمير الشعراء أحمد شوقي.

(23)

"هل تصدق أني بُحتُ له – رغم معرفتنا منذ أيام قليلة– بذلك السر الذي حكيته لك بعد معرفتنا بسنوات؟".

قالها القُمص (يوسف) بدهشةٍ وتعجبٍ للحاخام (موريس)، فابتسم الأخير وقال:

- لهذا الفتى قدرةٌ عجيبةٌ في اختراق دواخل من يعرفهم خلال فترةٍ وجيزةٍ دون استئذان.

ثم سيطر الحزن على ملامحه، وأردف:

- لقد حكيت له أيضًا عن حكايتي مع دميانة وأدق أسرار حياتي التي لم أقصها لمخلوقٍ من قبله.

عبث القُمص بلحيته وهو يقول:

- وهذا كل ما أخشاه يا موريس.. فما زلنا نجهل هوية هذا الفتى، ورغم ذلك أرى انجذابِ تلك الفتاة له بشدة، وهذا وضع لا أرضى به في كاتدرائيتنا.. فأبناء الله سقطوا بفعل النساء كما جاء في سفر التكوين حين عاشروا بنات الناس بعد أن رأوا من حسنهن وجمالهن، فولدن لهم أولادًا عمالقة كان بهم ابتداء الشر على الأرض.

رد عليه الحاخام، وقال:

- أزيدك من الشعر بيتًا بشأن ما ورد في تراثنا العبراني حول قصة هبوط ملاكين إلى الأرض أحدهما يُدعى عزازيل والآخر شمهازي، ليثبتا للخالق تفوق الملائكة على الإنسان في الأخلاق وفي طاعة الله، وأن الإنسان غير جدير بالدور الذي رسمه الله له، لكن شمهازي ما لبث أن وقع في حب امرأة تدعى الزُّهرة وطلب وصالها، ولكنها تمنعت واشترطت عليه أن يطلعها على اسم الله الأعظم الخفي الذي يُعرَج به إلى السماء، ففعل ذلك إرضاء لها، وما أن حازت على الاسم حتى استخدمت قوته في

الصعود إلى السماء قبل أن تفي بوعدها لشمهازي، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السيارة، وحوَّلها إلى الجرم المعروف بكوكب الزُّهرة.. لذا أتفق معك أن الشاب والفتاة كليهما خطر على الآخر بالفعل.

وابتسم ابتسامة يشوبها الألم، قبل أن يستطرد:

- لكن.. ليس بسبب أن أحدهما معلومة ديانته، والآخر قد ينتمي لدين آخر.. الأمر تكمن خطورته في أنهما قطبان مختلفان، وحتمًا ما سينجذبان حتى الالتصاق.

علّق القُمص على كلماته:

- ما دمت تتفق معي، فلا بد وأن نجد للشاب مكانًا آخر يسكن فيه بعيدًا عن مبنى الخدمات التابع للكاتدرائية، رغم أني أحببته، لكن أفضل أن أتواصل معه بعيدًا عن هنا.

لوّح (موريس) بسبابته قائلًا:

- حسنًا، لكن عليك أنت أيضًا أن تُعيد الفتاة التي عاملتها بفظاظة إلى حضن الكنيسة وأن تشرح لها ما سألت عنه، قبل أن تفقد ثقتها في الرب وتنحرف.. لا تنس أن الشيطان اختبر مسيحك نفسه 40 يومًا، ما بين رشوة، وجوع، فما بالنا بضعاف الإيمان وقد غلّق رجل الكنيسة الباب في وجوههم.

ارتسم التوتر على ملامح (يوسف) وهو يتذكر حين فشل الشيطان في إغواء المسيح، كيف لجأ إلى إلحاق الضرر به عن طريق تلامذته، فدخل في تلميذه (يهوذا الإسخريوطي)، وأفشى سره مع رؤساء الكهنة وقواد الجند واتفق معهم على خطة تسليمه إليهم، حتى تم الإيقاع بـ (يسوع) في النهاية.

* * *

طرق الشاب الوسيم باب حجرة (دميانة)، فأتاه صوت (آيات) من الداخل:

- ادخل!

وضع راحته على الباب فوجده مفتوحًا ويتحرك مع دفعة يده للداخل بصرير مزعجٍ شنته شذى ذلك العطر الذي عبَّأ هواء الحجرة وتسلل لأنف الشاب وملأ نفسه بالانتشاء.

وقع بصره على (آيات) النائمة على السرير بمفردها وقد توَّرد خدها، وتكحَّلت عيناها، فيما تركت خصلات شعرها الحريرية ذات اللون البني الفاتح تسبح بحريةٍ على وسادتها البيضاء، وتذكر مكالمتها الهاتفية التي استغاثت به فيها، مؤكدة أنها تشعر بألمٍ شديدٍ لا يُحتَمَل، ولم تجد سواه لتطلب منه المساعدة بعد أن غادرت (دميانة) المكان وقالت إنها ستبيت في الخارج هذه الليلة.

"هل يجعل المرض النساء بهذا الجمال الصارخ؟"

كاد أن يلقي سؤاله بصوتٍ مسموع وقد تسارعت دقات قلبه مع رؤية وجهها الملائكي، وعيناها اللتان تناديانه بهيامٍ ووله، لكنه سرَّها في نفسه وحاول أن يبدو متزنًا وهو يقول:

- ألف سلامة عليكِ يا حبيبتي.

افتعلت سَعلَة مُصطَنَعة حركت خصلات شعرها على وجهها، وحسرت الغطاء عن كتفيها العاريتين بفعل قميص نوم أبيض ذي حمالتين رفيعتين، أبرز مفاتنها بشكلٍ مثيرٍ، قبل أن تقول بلهجةٍ مزجت بين النعومة والضعف:

- آسفة على إزعاجك، لكني متعبةٌ جدًا.. لا أستطيع حتى أن أرفع رأسي من على الوسادة لأتناول الدواء.. (رفعت ذراعها العاري من تحت الغطاء وأشارت للشاب) هل لك أن تساعدني على الجلوس لو سمحت؟

تجمَّد في مكانه لحظاتٍ تضاعفت فيها دقات قلبه، فمدَّت ذراعها أكثر



أبرى بياض إبطها وجزءًا من صدرها و...

"ألا تريد مساعدتي؟"

قطعت حبل أفكاره وتيار الأسئلة الذي توافد على عقله بصوتٍ أكثر رقة وضعفًا في آنٍ واحدٍ، فشعر أن كل ما فيه يذهب إليها، إلا قدميه اللتين تكادان أن تتزلَّقا هما الأخريان رغمًا عنه كمن يتعرض لسحبٍ شديدةٍ في بحرٍ لُجيٍّ يغشاه موج، فقرر أن يسبح عكس التيار وقال بصعوبةٍ وهو يُجاهد نفسه:

- سامحيني يا آيات، أريد فعلًا لكني لا أستطيع.

لمعت عيناها بدموعٍ حقيقيةٍ، ثم تصنَّعت الألم والمعاناة وهي تمد ذراعها لتأخذ الدواء من كومود مجاور لسريرها، قبل أن تسقط زجاجة الدواء أرضًا فانثنت تلتقطها ليبدو ظهرها العاري الجذاب وقد انسدلت عليه خصلات شعرها وجعلتها أشبه بامرأةٍ من نساء الجنة لكنها غطست ولم تلفُ ثانية لتسقط من فوق السرير بشكلٍ مفاجئ وهي تتأوه بصوتٍ في ظاهره الألم وباطنه الإغراء، حتى آن لكتلة الصخر أن تذوب بفعل نيران الحب والشهوة التي قضت على احتماله البشري الذي مهما كان قويًّا إلا أنه في النهاية كان له حدود.

اندفع، وهو في حقيقة الأمر مدفوع، ليقطع المسافة التي تفصله عنها، ويمسك بيدها ويعينها على النهوض، فتعلقت في كتفيه وتأرجح صدرها أمامه قبل أن ترتمي في حضنه وتنظر له بعينين يملأهما الشبق، بينما لسعته أنفاسها بأجمل حمم يمكن أن تصفع وجه العاشق..

مسحت شعره بيدها وأراحت ذقنها على كتفه وهي تضمه أكثر لحضنها وتقول بكلماتٍ مرتعشةٍ خرجت مع زفير صدرها الحار:

- الآن فقط بدأت أتعافى.

ومن خارج الحجرة كانت (دميانة) تسترق النظر عبر فتحة الباب الموارب

وقد أخذت عيناها تتوهج، قبل أن تعقد حاجبيها وقد شعرت بشيء ما غير طبيعي يحدث حولها، فاقتربت من سور السطح وألقت نظرةً للأسفل ضاقت معها عيناها كعينيْ نمر وهي تجز على أسنانها بغضبٍ شديدٍ قائلةً بصوتٍ لا يمت لصوتها الحقيقي بصلة:

- سُحقًا.

وداخل الغرفة كان الشاب الوسيم يلوذ بالصمت، وقد ماتت ذراعاه على كتفيْ فتاته شاعرًا لأول مرة بهذا الطعم المميز من اللذة التي تُشبه الماء المالح، كلما شرب منها شاربها كلما ازداد عطشًا، وقد استيقظت داخله كل الخوامل النائمة، التي استيقظت من قبل عندما سمع فوق نفس السطح أصوات الشبق والمتعة في جنح الليل وتساءل عن سر مصدرها، ويبدو أنه على أعتاب عالمٍ جديدٍ سيولجه لأول مرة ويسبر أغواره، فقط إذا ما نجح في إسكات صوت الصراع المشتعل داخله بين رغبةٍ في ضم من أحبها قلبه بقوةٍ أكبر إلى حد الالتصاق والتطابق، وصوت يتردد صداه في أعماقه دون أن يعرف مصدره، ويقول له بإصرارٍ لا يكل ولا يمل: **توقف..**

أسقطت (آيات) ورقة التوت الأخيرة وتجردت من قميصها قائلة: "هيتَ لك"، فضمها أكثر وشعر برغبةٍ عارمةٍ في اقتحامها اقتحامًا يتحولان بعده من اثنين لواحد، له نفس المشاعر، والأحلام، والآمال، فتتلامس الحقائق والمعاني والأحاسيس، ويحدث الانسجام من هذا التَّماس ليسقط معه آخر قناع للواقع، وتذوب الأنانية، ويصبح لهما مصيرٌ مشتركٌ، وطريقٌ يمشيانه معًا دون أن تفرقهما تفريعاته ومساراته الجانبية.

ما زالت أمامك الفرصة للتراجع..

بدأت في فك أزرار قميصه، فطاوعها باستسلام وقد همَّت به وهمَّ بها..

هناك خطايا يقع فيها المرء، فلا تعود حياته بعدها إلى ما كانت عليه أبدًا

خلعت قميصه من على جسده، ثم أمسكت حزامه فأغمض عينيه حتى لا يتردد أو يتراجع وهو يدفعها بعيدًا عنه قائلًا بصوتٍ ضعيفٍ كاد أن ينهزم أمام شهوته التي تضخمت كوحشٍ قادرٍ على ابتلاع الجميع: "معاذ الله".

اتسعت عيناها وهي تسقط أرضًا غير مصدقةٍ نفسها، فيما أخذ ينهج ويعلو صدره ويخفق بسرعة من فرط مقاومة نفسه التي جرفها التيار، واستعادها بمعجزة..

ثم جذب قميصه ووضعه على جسده، وحاول مغادرة الغرفة، فركضت نحو الباب لتمنعه، فتسابقا في الخطوات حتى جذب الباب قبلها وفتحه بقوةٍ في الوقت الذي تعلقت فيه بقميصه من الخلف، وبمجرد انفتاح الباب إذا بهما أمام..

"أبونا يوسف؟!"

قالتها (آيات) بهلعٍ وهي تجذب ملاءة السرير لتستر بها جسدها العاري، بينما اتسعت عينا القُمص وهو يوزع نظراته بينها وبين الشاب الذي حاول تزرير أزرار قميصه بارتباكٍ شديدٍ..

"صدق من قال إن الزمن أفضل جهاز لكشف الكذب.. وكشف الحقيقة".

قالها القُمص بصوتٍ يملؤه القرف والاستهجان، وقد أطلت من عينيه نظرات استهلكت مخزون الإنسانية الاستراتيجي من الاحتقار والاشمئزاز، ثم أردف موجهًا حديثه للشاب:

- من الآن لا مكان لك معنا أيها المُمثِل البارع.. عُد إلى حيث أتيت **(حوَّل نظره نحو آيات وتابع)** وأنتِ أيتها الورعة الكاذبة، ابحثي عن شرفك أولًا قبل أن تبحثي عن الحقيقة خلف الشبهات المتعلقة بدينك.

وقبل أن ينبس الشاب ببنت شفة، دوى في المكان صوت سارينة النجدة،

فصرخت فيه (آيات) محذرةً بنبرةٍ يملأها الارتياع:

- رباه، الشرطة علمت أنك هنا.

أزاح الشاب القُمص، وغادر الغرفة سريعًا ليُلقي نظرةً من فوق السطح شاهد من خلالها 3 سيارات شرطة يُغادرها مجموعة من الجنود والضباط المدججين بالسلاح، فضم قبضته بغضبٍ ثم تذكر أنهم يؤدون واجبهم، ولا ينبغي له أن يقاتلهم، فاتجه نحو (آيات) التي ارتدت قميص نومها ولكمها في وجهها لكمةً تفجَّرت معها الدماء فصرخت بشدة، بينما اتسعت عينا القُمص وحاول التراجع لكن الشاب قبض على يده وقال بصرامة:

- لا تخف يا أبونا.. كان ذلك لمصلحتها حتى تقول للشرطة إني

- تهجمت عليها وتنفي عن نفسها شبهة إخفائي.. ستشهد معها أنك جئت لتتفقدها، فوجدتني أهددها للمبيت عندها بالإجبار بدلًا من أن تعرضا نفسيكما للمساءلة من أجل بائسٍ مثلي.

ومن مكانها المختبئة فيه بالسطح، شاهدت (دميانة) بعيونٍ ترمي بشرر ذلك الفتى وهو يقفز قفزةً من قفزاته المبهرة سبح فيها في الهواء كأنه صقر يحلق بجناحيه المفرودتين فوق أعالي الجبال، ليهبط فوق سطح بعيد، ومنه واصل القفز فوق باقي الأسطح حتى اختفى عن الأعين تمامًا.

* * *

(24)

هرول الطبيب المعالج للعقيد (يحيى) في الطرقة المؤدية إلى غرفته بذلك المستشفى الذي يُعالج فيه، قبل أن يثني مقبض الباب ويندفع إلى الداخل فتستقبله ممرضة وامرأة شحبت ملامحها وذبلت عيناها الباكيتان، وهي تشير إلى جسد العقيد العاري الموصل بالأجهزة الطبية والتنفس الصناعي، قائلة:

- ساعدنا يا دكتور.. زوجي يحتضر.

ثم تابعت الممرضة بسرعةٍ وهي تشير إلى شاشة جهاز رسم القلب الذي أخذ يرسم منحنياتٍ مخيفةً تفيد بتدهور حالة قلب العقيد:

- لقد تعرَّض جسده لانتفاضةٍ عنيفةٍ ثم اضطربت من بعدها نبضاتُ قلبه كما ترى.

عقد الطبيب حاجبيْه وهو يُلقي نظرةً على الشاشة قبل أن تتحول منحنيات قياس نبض القلب إلى خط مستقيم فصاح في الممرضة:

- إليَّ بجهاز الصدمات الكهربائية.

ناولته الجهاز المكون من صاعقين كهربائيين فأمسك به واتجه نحو صدر العقيد العاري وقد أدرك أن مريضه تعرَّض لموتٍ مفاجئ للقلب ورجفان بطيني مع ارتفاعٍ في ضغط الدم فصاح في الممرضة:

- استدعي فريق الطوارئ فورًا.

ثم وضع الصاعقين على صدر العقيد ومنحه صدمةً كهربائيةً وعينه تتأمل شاشة جهاز رسم القلب التي ما زال رسم القلب عليها في صورة خط مستقيم دون أي تحسن، قبل أن يمده بصعقةٍ جديدةٍ وهو يُغمغم حتى تسمعه زوجة (يحيى):

- لو عاد قلبه للحياة، فسيفيق من غيبوبته.. ادعي الله كثيرًا في تلك اللحظات التي نأمل أن تمضي على خير.

* * *

هام الشاب الوسيم على وجهه في الشوارع والطرقات، منكسر النظر، مترنح الخطى، مترجرج الأعطاف، لا يدري إلى أين ستحط رحاله هذه المرة بعد أن تهالكت سفينته، وتمزَّق شراعها، وغاب في الأفق أي أثر لبَرٍّ جديدٍ يرسو عليه، فيما بُهت نور الشمس في السماء وخفت حرارتها في ساعة العصاري.

تحسَّس ملابسه فاكتشف ضياع هاتفه المحمول، ليفقد معه وسيلة اتصاله الوحيدة بهذا العالم.

ومن جديد، وجد نفسه في منطقة (بحري)، على نفس ذات كورنيش البحر الذي يُحاول أن يلامس فيه الحقيقة..

نظر إلى السماء وقد حارت على شفتيه الكلمات، لكن قلبه الذي ينبض بحب ربه لم يكن في حاجة إلى الكلام، وقد ارتقى شعوره بخالقه عن المفردات والألفاظ..

"قَمَـــرٌ.. قَمَـــرٌ.. قَمَـــرٌ سيدنا النبي قَمَـــرٌ"

اخترقت الكلماتُ مسامعه بصوتٍ خلابٍ شجي، يضع تنوين الضمتين على حرف الراء الذي يَمِدّه في النطق بغُنة جميلة تتسلل من الأذن إلى القلب، فأرهف السمع ليواصل الصوت جملةً جديدةً مدَّ فيها حرف الياء بنفس الغُنة الممتعة:

"وجَميييل.. وجَميييل.. وجَميل سيدنا النبي وجَميييل"

ثم بدأ صوتٌ من حشود البشر يردد خلفه بنفس طريقته في الإنشاد حتى هبَّت على وجه الشاب الوسيم نسمةٌ عليلةٌ هدَّأت من روْعه لتكون بمثابة

العامل المُحَفِّز ليتردد صدى الإنشاد في عقله وقلبه، فأغمض عينيْه وشعر أنه مرَّ بأجواء مشابهةٍ كهذه من قبل، وفجأةً انتفض وفتح عينيْه سريعًا بعد أن رأى بقلبه -وهو مغمض العينين- أطيافًا بيضاء تصعد إلى الملأ الأعلى وكادت روحه أن تصعد معها، فإذا به أمام مسجد (أبو العباس المُرسي) الذي يُطلِق أهل (الإسكندرية) عليه -بالخطأ- (المُرسي أبو العباس)، لتبدو قبابه المميزة شامخةً في الأفق وقد غطتها أنوار الزينة مختلفة الألوان، بينما امتلأت ساحته وكل الشوارع المجاورة له بسيلٍ متدفقٍ من آلاف البشر الذين أتوا من كل فج عميقٍ للاحتفال بالليلة الأخيرة من سبع ليالٍ تُقام احتفالًا بمولد ذلك الشيخ الصوفي، أحد كبار العارفين بالله في تاريخ الصوفية، وأحد تلامذة الشيخ (أبي الحسن الشاذُلي)، بينما واصل المُنشِد:

"وكَفُّ المُصطفى كالوردِ نادِي"

فردد الجمع خلفه: "الله الله"

وعِطرُها يبقى إذا مسَّت أيادي

الله الله

وعمَّ نوالُها كُلَّ العبادِ

حبيبُ اللهِ يا خيرَ البرايا

ولا ظل له بل كان نورا

الله الله

تنال الشمس منه والبدورَ

الله الله

ولم يكن الهدى لولا ظهوره

وكل الكون أنار بنور طه

ثم بدأ حاملو الدفوف الذين يرتدون جلابيب بيضاء في الضرب عليها

بإيقاعٍ منتظمٍ مريحٍ للأذن بينما أخذ الجمع يردد مع المُنشِد:

مولايَ صَلِّ وسَلِّم دائِمًا أبدًا

على حَبيبِكَ خَيرِ الخلقِ كُلِهِمِ

يا أكرَمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ بِهِ

سِواكَ عِندَ حُلُولِ الحادِثِ العَمَمِ

مولايَ صَلِّ وسَلِّم دائِمًا أبدًا

على حَبيبِكَ خَيرِ الخلقِ كُلِّهِمِ

ولن يضيق رسول الله جاهك بي.. إذا الكريم تحلَّى باسم مُنتَقِمِ

مولاي صَلِّ وسَلِّم دائِمًا أبدًا

على حَبيبِكَ خَيرِ الخلقِ كُلِّهِمِ

ثم تغير إيقاع الدفوف ليزداد بضرباتٍ أقوى وأسرع على الدفوف مع كلمات نشيدٍ جديدٍ غناه مُنشِدٌ آخر، قائلًا:

النبي صلوا عليه.. صلوات الله عليه

وينال البركات كل من صلى عليه

النبي يجلي الهوى.. النبي حبه دوا

يالا بينا نكونُ سوا.. عند النبي ونصلي عليه

النبي أنواره بانت.. والحجارة لمحمد لانت

والطريقة الصعبة هانت.. كرامة لرسول الله

أخذ الحاضرون يتمايلون يمينًا ويسارًا باندماجٍ شديدٍ وقد أسكرهم الحب الإلهي، والحنين لرسول الله حتى فقدوا الإحساس والسيطرة على أجسادهم التي خفَّ وزنها وبدت في خُف الريشة بينما واصل المُنشد إنشاده، في اللحظة التي عقد فيها الشاب حاجبيْه وهو يتطلع إلى ذلك المشهد الأخاذ بعين الرهبة والحيرة.. فطالما تساءل عن المسلمين الذين لم يلتق بواحدٍ

منهم، فإذا به الآن أمام مليون منهم!

"بل مليونين"

اخترقت الجملةُ مسامعه وهو يشعر بيدٍ تربت على كتفه، فانتفض كعصفورٍ في يومٍ عاصفٍ وهو يلتفت لمصدر الصوت الذي خرج من فم ذلك العجوز الغامض، بنفس ملامح وجهه شديد الكهولة، رغم جسده العفيّ منتصب القامة، ووجهه المُشرق الوضَّاء رغم اسمراره الشديد، وتلك اللحية الكثيفة شديدة النعومة التي تحيط وجهه بلونها الأبيض الثلجي، وتتدلى حتى صدره، فيما طالت شعيرات حاجبيه حتى كادت أن تغطي عينيه الواسعتين المريحتين للنفس لاسيما حين يكون مظهرهما عسلي فاقع اللون يُبهر الناظرين، وقد غطت شعر رأسه عمامة ناصعة البياض بنفس لون جلبابه خفيف الملمس وكأنه مصنوعٌ من الشاش، وعلى وجهه ذات الابتسامة الغامضة التي لا تفارقه.

فغر الشاب فاه وهو يتأمله، بينما تساءل في نفسه: هل قلت مليون بصوتٍ عالٍ أم اخترق هذا الرجل فكري؟

"كلما اقتربت من الحقيقة كلما استغنيت عن الحواس التقليدية التي يتشارك فيها البشر مع الحيوانات، حيث هناك وسائل أخرى للتواصل بين الواصلين".

قالها الرجلُ الكهلُ بنبرةٍ هادئةٍ وقد بدأت ابتسامته في الغروب عن وجهه، فاتسعت عينا الشاب وتسارعت دقات قلبه، حين خُيِّل إليه أن عيني الرجل تتألق بوهجٍ غريبٍ قبل أن يمد يده نحوه، فاردًا كفه وهو يقول بصوتٍ واثقٍ، يسحر نفوس السامعين فلا تملك إلا الانصياع له:

- هيا بنا يا بُنيَّ، فقد حان دوري في رحلتك.

* * *

(25)

ضجَّ الملهى الليلي بحركة العمال الذي يقومون بإعادة بنائه على قدم وساق تحت إشراف مهندس الديكور الشاب الذي قال لـ (ريمون) بابتسامة واثقة:

- كما ترى يا ريمون بك اقترينا من الانتهاء خلال وقتٍ قياسي كما وعدتك، وبتصميماتٍ وديكوراتٍ أقوى بكثيرٍ من الشكل القديم.

التقط (ريمون) نفسًا من سيجاره وقال بعنتظة:

- كان هذا عملك الذي منحتك عليه الرقم الفلكي الذي طلبت.

بهتت ملامح المهندس، ثم قال بغيظٍ مكتوم:

- أنا في الخدمة دائمًا.. عن إذنك.

ثم افتعل حديثًا مصطنعًا مع أحد العمالِ، بينما نظر (ريمون) للرجل ذي العينين الزرقاوين وتوسل له بعينيه قائلًا بتوتر:

- كما ترى لقد اقتربت ساعة الافتتاح.

تأمل الرجل المكان بنظرةٍ ساخرةٍ، ثم أجاب:

- مبروك.

تبادل (ريمون) النظر مع مساعده (نُصحي) فأشار له الأخير حتى يكتم غضبه ولا يتسرع في الرد، قبل أن يتولى عنه مهمة الحديث قائلًا للرجل:

- نريد أن تكون الفرحة فرحتين يا سيدي كما وعدتنا.. فما زال أمر هذا الشاب..

قاطعه الرجل:

- لقد ضاق عليه الحصار وخارت قواه.. سأواجهه قريبًا وأقضي عليه.

صاح (ريمون) في نفاد صبر:

- لقد سئمت من كلماتك التي لا تحفظ غيرها وترددها ببرود سخيف وكأنك تقف على خشبة مسرح.. **(ألقى سيجاره وصرخ وقد فقد صبره تمامًا)**، قل لي كلامًا جديدًا يا رجُل، حتى ولو اعترفت أنك عاجزٌ عن هزيمته.

توترت ملامح (نُصحي)، وران على المكان صمتٌ تام بعد أن توقف العمال عن عملهم، والتفت جميعهم نحو (ريمون) وذلك الرجل الذي كانوا يشعرون تجاهه بالرهبةِ لأسبابٍ يجهلونها.

فقدت ملامح الرجل سخريتها المميزة، وتوهَّجت عيناه الزرقاوان بشكلٍ أثار رجفة الجميع حتى إنهم كذَّبوا أعينهم وهم يشاهدون ذلك النور المنبعث منها بشكلٍ مخيفٍ، ثم تجمَّد بهم الزمن فجأةً لتثبت حركتهم تمامًا وكأنهم تماثيل صلصالية، إلا ريمون الذي أخذ يدور حول نفسه محملقًا فيهم برعب، وحين اكتملت دورته وجد نفسه أمام الرجل الغامض الذي جذبه بيدٍ واحدةٍ من عنقه ورفعه من على الأرض قائلًا بلهجةٍ باردةٍ لكنها ببرودة الثلج الذي يجمد الدماء والأطراف:

- أنا لا ألومك يا صديقي على وقاحتك.. بل هو خطئي من البداية حين لم أخبرك من أكون بقدرٍ كافٍ أن تصمت في حضرتي للأبد.

ثم نفخ فيه نفخةً بسيطةً، لكنه شعر أن أعاصير الأرض بأكملها تضرب جسده وتقتلعه من بين يدي الرجل ليطير للخلف مسافة 20 مترًا ويرتطم بأحد الحوائط الجبسية فيحطمها ويسقط معها بعنفٍ شاعرًا بكل عظمةٍ من عظامه تئن وكأنها انسحقت في مكابس من فولاذ، وحين همَّ برفع رأسه وجد الرجل ذا العينين الزرقاوين أمامه وقد ذابت المسافة الفاصلة بينهما في لمح البصر فاحتضن حذاءيه الضخمين وقال بصعوبةٍ وهو يسعل بشدةٍ، وقد تعفر وجهه وشعره وملابسه بلون الجبس الأبيض:

- أقبِّل قدميك كفى، لقد علمت من أنت يا سيدي!

وحين لاحت منه نظرةٌ لأعلى ارتعدت فرائصه حين وجد السقف قد

اختفى فيما استطالت هيئة الرجل لتبلغ عنان السماء، ومن أعلى تألقت عيناه الزرقاوان ككوكبين يلمعان في السماء، قبل أن يعود الرجل لهيئته ويعود السقف فوقه، قبل أن يبتسم ساخرًا ويمد يده نحو (ريمون) ليساعده على الوقوف قائلًا:

- لا تقل ذلك يا صديقي.. لقد كنتُ أمزح معك فحسب.

ثم طرقع بإصبعيه الإبهام والوسطى فعاد (نصحي) والعمال إلى وعيهم وكأنهم لم يغيبوا طرفة عين، قبل أن ينظر المهندس لحائط الجبس المتهدم، ويسأل بذهول:

- متى سقط هذا الحائط؟ لقد كنت أنظر له للتو وكان سليمًا!

دون أن يجد أحدهم ردًّا يقوله، فيما اكتفى الرجل ذو العينين الزرقاوين برفع كتفيه ومط شفتيه بشكلٍ ساخرٍ بما معناه: "لا أعرف"، رغم أن نظراته كانت تشي بأنه يعلم الكثير.

* * *

اخترق الرجل العجوز الأسمر أمواج البشر الرهيبة في مولد (أبو العباس المُرسي)، ساحبًا في يده الشاب الوسيم كجد يمسك بيد حفيده في رحلةٍ إلى مكان يشاهده لأول مرة، مُكتفيًا بالسير والمشاهدة دون أن ينبس ببنت شفة، فيما أخذت عينا الشاب ترصدان وتحفظان تفاصيل هذا العالم الجديد.

في الشوارع الجانبية المحيطة بالمسجد كانت هناك الأرجوحات، وعربات "النشان" ببنادق الرش، والألعاب النارية، وبائعو الحلوى المنتشرون في كل مكان، وغيرهم من عُمال "أرزقية" خلعوا عباءة مهنهم ومشاغلهم، وارتدوا عباءة المهن والأنشطة المصاحبة للمولد ما بين بيع المسك، والعنبر، والعود، والسواك، والأسطوانات المدمجة المسجل عليها القرآن الكريم، ومطويات أذكار الصباح والمساء وقصار السور القرآنية، للحصول على مكاسب مالية بطعم النفحات والبركات، وحولهم أطفال ونساء بملابس متواضعة، ترتسم البسمة على وجوههم من شدة السعادة.

اختلطت روائح الطيب ببارود الـ "بُمب" ودخانه، مع عرق الزحام..

تعانقت السكينة والروحانية بضجيج البشر وأصواتهم المختلطة، وبدا المشهد برمته لوحةً سرياليةً سمت على التفاصيل، ولخصت التناقضات والتفاصيل المتضاربة في خطوطٍ وألوانٍ ممتزجةٍ يستشعرها كل ناظر بشكلٍ يختلف مع باقي الناظرين، ويتفق مع ما ينبض داخله من قناعاتٍ وأفكارٍ ومعتقدات.

شعر الشاب بيدٍ تجذبه من ساقه، فنظر نحوها فإذا بها الطفلة التي التقاها من قبل فوق سطح (دميانة) حين سألته عن دمية تلعب بها مع باقي السائلين الذين سألوه يومها أن يلبي لهم مطالبهم..

ابتسمت له ببراءتها الملائكية، فانثنى نحوها وضمها بذراعه وهو يتذكر كيف قاسمته ساندوتش البرجر حين كان جوعان على البحر، قبل أن تجد وهي في حضنه يدًا تمتد نحوها بدمية جميلة أجمل من التي كانت تتمناها..

تطلعت لوجه الرجل الكهل الأسمر الذي ابتسم لها وهو يحمل الدمية صائحًا فيها بصوتٍ عالٍ حتى تتضح كلماته في هذا الضجيج:

- اشكري هذا الفتى، فهذه الدمية هديةٌ منه.

هتفت بسعادةٍ وهي تُوزع نظراتها بينهما:

- شكرًا.

ثم أخذت الدمية وركضت بها حتى ابتلعها الزحام.

وفي ساحة ميدان المساجد الفسيحة سارت قوافل متساوية في مسيرة لجميع الطرق الصوفية التي بلغت 77 طريقة، وعلى رأسها الطريقة (الشاذلية) بصفةٍ خاصةٍ التي تربى عليها الولي صاحب المولد، وانطلقت المسيرة عقب صلاة العصر من مسجد (سيدي علي تمراز) حتى ميدان مسجد (سيدي أبوالعباس المُرسي)، وطافوا حول ساحته مرتدين جلابيب مختلفة الألوان، بينما تميَّز الأشخاص الذين كانوا يقودون المسيرة عن الآخرين بارتدائهم الجلابيب البيضاء، ذات الشارات الخضراء والمدون عليها الطريقة الصوفية المنتمون إليها. يتقدمهم أشخاصٌ يقومون بالتطبيل والتذمير مع أداء حركاتٍ لرقصٍ ارتجالي وهم ينشدون ويهللون "الله أكبر

.. الله حي .. لا إله إلا الله .. سيدنا المُرسي حبيب الله".

بدأ بعدها تنظيم المؤتمر الصوفي السنوي، بحضور شيخ مشايخ الطرق الصوفية، ومحافظ الإسكندرية، ومشايخ الطرق وأعضاء المجلس الصوفي الأعلى، وممثلين عن وزارة الأوقاف، وقيادات دينية من الأزهر الشريف، والقيادات التنفيذية والمحلية والسياسية.

استمع الشاب لكلمات الضيوف، فعرف أن هذا المسجد والمولد يَخُص شخصًا اسمه (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن على الخزرجي الأنصاري المُرسي)، وُلد في مدينة (مرسية) في الأندلس عام 616 هجريًا، الموافق 1219 ميلاديًا، ومن مدينته حصل على لقبه (المرسي)، حيث نشأ في بيئةٍ صالحةٍ أعدته للتصوف، وحين أصبح عمره 23 عامًا، اعتزم والده الحج إلى بيت الله الحرام فصحبه معه هو وأخاه وأمهما. فركبوا البحر عن طريق (الجزائر)، حتي إذا كانوا على مقربة من شاطئ (تونس) هبَّت ريحٌ عاصفٌ أغرقت المركب بمن فيها، ونجا (أبو العباس المرسي) وأخوه من الغرق فقصدا (تونس) واتخذاها دارًا لهما، وهناك قابل المتصوف الكبير (أبو الحسن الشاذلي) أحد أقطاب التصوف في التاريخ الإسلامي، وانتقل معه إلى مصر، وأصبح لقبه (المرسي) متداولًا في مصر بعد حذف لام التعريف.

عرف أيضًا أن (أبو العباس المُرسي) أقام في الإسكندرية ثلاثًا وأربعين سنة ينشر العلم، ويُهذب النفوس، حتى صار يُضرَبُ المَثَلُ بورَعه وتقواه، وتولَّى مشيخة الطريقة الشاذلية بعد وفاة (أبي الحسن الشاذلي)، وظلّ يحمل لواء العلم والتصوف حتى وفاته، وتربى على يديه عددٌ كبيرٌ من العلماء، أبرزهم (ابن عطاء الله السكندري)، حتى تُوفي ودُفِن بالإسكندرية في مقبرة باب البحر، وبعد وفاته بعشرين عامًا بنى الشيخ (زين الدين بن القطان) كبير تجار الإسكندرية عليه مسجدًا على الميناء الشرقي بالـ (أنفوشي) على الطراز الأندلسي، ثم تعرَّض الجامع لسلسلةٍ من التجديدات والتوسعات حتى أمر الملك (فؤاد) الأول بإنشاء ميدانٍ فسيح يُطلق عليه ميدان المساجد على أن يضم مسجدًا كبيرًا لـ (أبي العباس المرسي) ومسجدًا للإمام (البوصيري) والشيخ (ياقوت العرش)، وقام بوضع التصميم الحالي له المهندس المعماري الإيطالي (ماريو

روسي)، وتم الانتهاء من بنائه عام 1943م.

داخل المسجد وخارجه، شاهد الشاب حلقات الذكر والحضرات بالساحات العلوية والخلفية والمحيطة بساحة الأولياء في سرادقات استقبلت أبناء الطرق الصوفية من جميع محافظات الجمهورية، إذ لم تقتصر الاحتفالات بتلك الموالد يومًا على أهل الحي أو أهل المدينة.

أعجبته الأعمدة الرخامية والنحاسية للمسجد، وتطلع إلى أعمدته مثمنة الشكل، وشعر بألفةٍ شديدةٍ نحو الزخارف ذات الطراز العربي والأندلسي المميزة للمكان، وأسفل صحن القبة الغربية كان هناك ضريح (أبي العباس) وولديه.

وعلى بُعد 6 أمتار من مسجد وضريح سيدي (أبي العباس المرسي)، جلس كهلٌ عجوزٌ وزوجته على حصيرةٍ بسيطةٍ، والاثنان كانا يرتديان زيًا متشابهًا، حيث كان الأول يرتدي جلبابًا أخضر ذا عمامةٍ بيضاء حاملا بين يديه سبحة، بينما كانت ترتدي زوجتُه جلبابًا أخضر أيضًا ذا طرحة بيضاء، وأخذا يتناولان "النفحة"، وهي عبارة عن طعام "أرز ولحم" وزعه أحد مريدي المولد ومحبي آل بيت النبوة وكل من سار على نهجهم حتى ظهرت كراماته مهما حاول إخفاءها حتى لا يفتن الناس، بينما ارتشفا عصير الدوم المحبب لدى الصوفيين.

وحين عجز الشاب عن فهم ارتباطهما بالضريح ومحاولتهما لحمايته، قال له الكهل الأسمر:

- هذا الرجل يعمل بمهنة "التوباتيّه" أو كما يسميها البعض الآخر "تطويف المساجد" منذ 20 عامًا، وتتمثل تلك المهنة في تنظيف الأضرحة والتوابيت الخاصة بأولياء الله الصالحين، وتعطيرها، وجمع النفحات من أحباب ومريدي آل البيت، والحفاظ على تابوت الولي بمنع وصول أي مريدٍ إلى داخله، وتُعد مهنته من الأساسيات داخل العالم الصوفي، لأنها تُعتبر عنصر الأمن والأمان للولي ولأحبائه من فوضى الموالد وزحامها.. أتى من الأقصر منذ 7 أيام وهو وزوجته لحضور المولد وممارسة مهنته بالضريح، ويقيم طوال فترة المولد في الحديقة المجاورة لدى المسجد، ويعيشان تلك الأيام على نفحات القادرين من

الصوفيين الذين يعطوهما الأموال والطعام، للحفاظ على أمن تابوت سيدي المرسي، ويعمل تلك المهنة في كل محافظات مصر؛ حيث يطوف ويخدم توابيت أولياء الله الصالحين على مدار العام حبًّا فيهم وفي آل البيت.

تطلع الشاب إلى ملامحه وحاول سبر أغواره وهو يسأله:

- وأنت.. من تكون؟

ابتسم الرجل ابتسامةً أضاءت وجهه وهو يجيب:

- ما زال أمامنا متسعٌ من الوقت، لعلك تجد أسئلةً أكثر أهمية وإلحاحًا.

ومع آخر حرف من كلماته أشار بعينيْه إلى مجموعة من البشر البسطاء، إحداهم كانت امرأةً كفيفةً، وآخر كان عاجزًا يتكئ على عكاز، فيما حملت سيدةٌ أخرى ترتدي عباءة سوداء، شابًّا مصابًا بشللٍ في أطرافه الأربعة وبدت ملامح وجهه غير متزنةٍ لا سيما فمه الذي كان لسانه يخرج خارجه، وآخرون جميعهم كان يضع النذور والهبات عند الضريح، وهم يطلبون من الوليِّ تفريج كرباتهم وتحقيق مطالبهم، فيما وضع البعض الآخر مطوياتٍ لسور قرآنية، وخطابات بها أمانيهم العاجزة عن التحقق، ليشاهد الشاب الوسيم ما يحدث بعينين متسعتين من الدهشة والانبهار، ليتمتم في تعاطفٍ واستنكارٍ في الوقت نفسه:

- مساكين.. اللهم خذ بأيديهم إليك.

وفجأةً صاحت المرأةُ الكفيفةُ بعينين متسعتين زاد بريقهما وقد ارتسمت على وجهها أعتى أمارات الذهول:

- ربااااااه.. **(ثم مدَّت يديْها أمام وجهها وتابعت)** لقد أبصرت.. أنا أرى.. أرى.. **(ثم انطلقت دموع الفرح السحاحة وهي تقول باكية)** شيء لله يا يا مُرسي يا أبو العباس!

وفي الوقت نفسه انطلقت الزغاريد في المسجد، حين نزل الشاب العاجز من يد أمه المتعبة وقد صار جسده سليمًا معافى، فيما ظل الرجل الذي

كان يتكئ على عكازه على نفس الحال، وكيف تستجاب دعوة له بالشفاء وهو لم يكن مريضًا من الأصل؟!

انقلب حال المسجد في ثوانٍ معدودة، وتصايح البعض وهو يتشمم بأنفه رائحة الشاب التي عبأت أرجاء المكان بشذا لم تعتده الأنوف من قبل:

- أتشمون رائحة سيدنا أبي المرسي.. الرجل يُرسل لنا بركاته ويوصِّل دعواتنا لربنا الآن، فليطلب كل منكم مسألته.

تكاثف الزحام حول الضريح المُبتل بمطر الأعين الباكية، فيما أخذت الألسن تُردد الدعوات بصوتٍ عالٍ، بينما فاضت الكفوف بأموالٍ كثيرةٍ انهالت على الفقراء والمساكين، في مظاهرةٍ من نوعٍ خاص!

ودون أن يشعر بهما أحدٌ، اتسعت ابتسامة الكهل الأسمر وهو يتأمل الشاب الوسيم الذي عقد حاجبيه وسأل نفس سؤاله القديم دون أن يجد له إجابة:

- **ما أمر هؤلاء المسلمين؟**

* * *

على كورنيش منطقة (بحري) الذي يضج بالمراكب، سار الشاب ماسكًا بيده علبة بلاستيكية بها أكلة "بليلة" ساخنة، بعد أن اشتراها له الكهل الأسمر من محل (الشيخ وفيق) ليأكل منها بنهم شديد بعد أن استبد به الجوع مجددًا، دون أن يشغله الاستمتاع عن الاستماع بتركيزٍ شديدٍ لكلام الشيخ:

- اسأل أي شخص في بحري عن الشيخ خِضر، وسيخبرك الجميع من أصغر طفلٍ لأكبر كبير أنني شيخ الصيادين، وأقدم من سكن في تلك المنطقة على الإطلاق.. لكن أحدًا منهم لن يُخبرك متى جئت إلى هنا بالضبط.. فالجميع جاءوا من بعدي.

أشار نحو مراكب "الفلوكة" الرابضة فوق الشاطئ، كسباع البحر واستطرد:



- علمني الصيد وركوب البحر ما لن يتعلمه المرء في أي مهنة أخرى.. فالصياد هو أكثر شخصٍ يتعامل مع الله بشكلٍ مباشر.. يلقي شباكه فيحدد له الرازق حصةً معلومةً من الرزق، يأخذها يدًا بيدٍ وينصرف في صمت، دون الحاجة للتوقيع في دفاتر الحضور والانصراف، أو الوقوف على أبواب مكاتب المسئولين.. ومع الزمن، صار لي الكثير والكثير من المراكب التي يعمل عليها صيادون تحت إشرافي، اتفقت معهم أن يتم توزيع المكاسب عليهم وعلى الفقراء والمساكين، وأحصل منهم فقط على ما أحتاج من أكلٍ وشُربٍ بسيط، ويا للعجب لا يكف المال عن مطاردتي بأضعافٍ مضاعفةٍ كلما ألقيته على قارعة الطريق لأهل السبيل.

في دولة الصيادين تعلمت الكثير من السماء والبحر.. اقتربت من الرب، واستجليت أسراره، وكان سخيًّا في علومه التي خصني بها ولا تخضع لما جاء في الكتب ودوَّنه الأقدمون في الوثائق والمراجع؛ بل هو من العلم اللدُني الضنين، الذي يأتي في صورته البكر من مصادره العليا، بالمكاشفة والفتوحات من الله نفسه حين يختار قلوبًا من عباده يلقي فيها المعاني والمدلولات التي لا تكفيها العبارات والكلمات، فتصل النفس إلى ما وراء الكلام واللغات، بعد أن تشرق الشمس الإلهية على الروح فيلهم ضياؤها القلب أسرارًا وكشوفاتٍ تمحي تعلقه بهذه الدنيا الفانية، وتزيد من احتقاره لكل ما فيها وما عليها، فمن وهبه الله الذوق التقط الإشارة وترجم العبارة، ومن لم يفهم وتوقف به السير فقد نال حظه، إنما يأخذ كل واحد قدر مشربه.

توقف الشاب عن الأكل، وأعطى علبة البليلة لأحد الشحاذين، وقد ارتعشت أطرافه فور ذكر سيرة الرب التي سدَّت جوع بطنه بما هو أرقى من الإحساس بالشبع، وتأمل ملامح عم (خِضر) وهو يُحدث نفسه: "أي مكاشفات يقصدها هذا الشيخ العجوز؟ ولماذا اختصه بها الله وهو بهذه الهيئة المتواضعة؟"

ابتسم (خِضر)، وتساءل:

- هل سمعت عن الشيخ الشعراني يا ولدي؟

- كلا.

تأمل (خِضر) البحر الواسع وقد تلاطمت أمواجه، واسودت مياهه الشفافة بانعكاس ظلام الليل عليها، ثم دخل الشاطئ وسار على رماله وخلفه الشاب الذي تبعه وهو يستمع إلى قوله:

- كان الشيخ الشعراني أحد كبار الصوفيين الذين بهروا العوام بعلومهم ومعارفهم.. قبل أن يدخل في سلك التصوف كان عالم زمانه فيما يتعلق بالفقه والفتيا، أو بلغة اليوم كان بمثابة مفتي الديار الإسلامية.. وفي نفس زمنه كان هناك وليًّا صالحًا اسمه علي الخوَّاص، لكنه كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، ورغم ذلك اشتهر أمره بين الناس، وتداولت الألسن كراماته، ومكاشفاته، والعلوم التي تتساب من فمه، فجلس بين يديه العلماء يتلقون منه العلم اللدُني غضًّا طريًّا، وكان مجلس هذا الولي في طريق عمل الشيخ الشعراني الذي كان يُحدث نفسه في كل مرة مرَّ بها من أمامه قائلًا: "كيف يتخذ الله من شخصٍ جاهلٍ وليًّا ويمده بالعلم؟"

توقف الشيخ عند أحد مراكب "الفلوكة" ذات المجدافين، ثم التفت نحو الشاب، واستطرد:

- وفي ذات يوم، كان الشيخ الشعراني يلاطف زوجته زينب ويلعب معها لعبةً فغلبته، وحددت له عقوبة أن تركب على ظهره كما يفعل الأبناء مع آبائهم، ثم مرَّ بمجلس الشيخ الخوَّاص، ومن جديدٍ قال لنفسه: "ما اتخذ الله من ولي جاهل"، فأشار الخوَّاص لبغلةِ الشيخ الشعراني التي يركبها، فأطاعته وغيَّرت مسارها تجاهه، ثم قال للشعراني: "لو اتخذه لعلَّمه يا جحش زينب".

دفع (خِضر) المركب في المياه لتستعد للإقلاع ثم التفت نحو الشاب ومدَّ يده ليعينه على الركوب ليجلس كلاهما في الفلوكة، ثم أشعل مصباحًا، وتابع:

- نزل الشيخ الشعراني من على بغلته، وقد أدرك أن من يُكلمه إنما هو ولي مكاشفٌ من الله تعالى، فلم يُعاند ويُكابر، وطلب

منه أن يقبله في زمرة تلاميذه، فقبله الخوَّاص بشرطين: أولهما أن يبيع كل الكتب التي يملكها في مكتبته وجعلته يغتر بعلمه ويعجب بنفسه، وكان هذا أمرًا شاقًا جدًا على عالمٍ مثله، فكتبه هي ثروته بما فيها من الهوامش والملاحظات القيمة التي كتبها على مرِّ السنين، غير أنه قد صدق الله النية فتخلص من كل كتبه وباعها بالفعل.

أما الشرط الثاني فكان أن ينزل في السوق ويركب بغلته بالعكس، ويضع جرسًا في عنقه ويُنادي على نفسه: "عبدٌ مَن يشتريه؟"، وهو شيخ الشيوخ وعالم البلاد، لكنه أيضًا فعل وكسر نفسه وكبره تمامًا، وهنا قبله الخوَّاص وخصه بعلوم لم يخص بها أحدًا سواه، وأصبح الشعراني من أعلم أهل الأرض حتى إن مكانته السابقة رغم علوها، لم يعد لها مكانٌ مقارنة بما وصل إليه، وقال إنه ما إن باع الكتب وتخلص منها حتى وجد كل كلمة ومعلومة منها تنسال في ذهنه، فأدرك أن الله قد قبل منه بدايته، وعوَّض الكُتب التي تخلص منها باندماج العلم الذي فيها في عقله، فلا تنظر إلى البشر من الخارج وتجعل نظرك القاصر حَكَمًا عليهم.. هذا أول درس عليك أن تتعلمه حتى لا تسقط في فخ المظاهر المتلونة كالأكاذيب، وتخفي في باطنها الحقائق الخفية التي لا تراها الأعين وإنما تدركها القلوب.

ثم بدأ الشيخ في التجديف لتبدأ المركب في السير وهي تتأرجح بهما بشدة بفعل الأمواج العالية، دون أن يبالي كلاهما ببرودة الجو، وخلو البحر من المراكب والبشر ليبدو مظلمًا حالك السواد مثيرًا للرهبة، دون أن يقطع صوت الموج سوى صوت الشيخ (خِضر) الرخيم:

- موعدنا اليوم مع أهل الله وأحبائه، ممن انشرحت صدورهم لتلقي الأسرار الإلهية، الذين هاموا بالله حبًا، وجردوا ذواتهم من الإخلاص لأي وجود سوى وجوده، فمنحهم ما لم يمنحه لسواهم.. أحذرك يا ولدي، فالرحلة شاقة، والمسيرة ستجد حتمًا ما يعترضها من حيرةٍ وغموضٍ، وقد يُبهَم عليك الأمر، لأننا سنحاول النفاذ عبر أقطار السموات والأرض، والخروج من حدود الزمان والمكان، لنتحسس المطلق، حيث لا تسعفنا العبارة، ولا



نجد الكلمة التي تعبر عما سنراه ونستشعره.. ففي العالم الذي سنذهب إليه ستتقاصر الحروف عن المعاني، ولن تكفي لغة الكلام المحدودة لشرح ووصف ما لا يُقال، إنما هي أنوار وإشارات وإلهامات، والنفس تذوق من المعاني بقدر ما وهبها الله.. وكما هو معلومٌ، فالعبارة لا تكشف الحقيقة، ولو أن اللغة قادرة على إيصال الشرح كاملًا لما بقي على وجه الأرض من كافر.

عقد الشاب حاجبيْه وسأله وهو يتأرجح يمينًا ويسارًا مع حركة المركب المنزلق على صفحة الماء بفعل الموج:

- لماذا الأمر بهذه الصعوبة؟

واصل الشيخ التجديف وهو يجيب:

- لأن الله من صفاته أنه العزيز، الممتنع، الذي لا يبيح أسراره إلا لمن كان أهلًا لتلك الأسرار، فهي ليست شرعة لكل وارد.. ومنذ بدأ الخليقة والقافلة مليئة بالرَّكب، لكن قليلين هم من يصلون في النهاية.. ومن توقف به السير فقد أدرك حظه، إنما يأخذ كل واحد من الكلمات على قدر مشربه.. جفت الأقلام، وطويت الصحف.

وأخذ الشاطئ يتباعد ويتباعد في عينيْ الشاب الوسيم حتى أصبح البحر وحده هو عالمه الوحيد الذي لا يتجاوزه امتداد البصر في كل الاتجاهات، ولم يعد هناك بصيصٌ للضوء إلا أشعة المصباح الذي أنار ضياؤه وجه الشيخ (خِضر).

* * *

(26)

زفرت (آيات) زفرةً حارةً وهي تُغادر مديرية الأمن على خير بعد أن انطلت عليهم الخدعة وصدَّقوا أن الشاب الوسيم تهجَّم عليها، وأنها لم تكن تؤويه، بعد أن أفادت التحرياتُ عن رؤية الشاب وهو يصعد للعقار.

نظرت للقُمص (يوسف) وهو يُغادر معها بخجل، بعد أن زجَّت به معها في هذا الموقف الحرج واضطر أن يؤيد كلامها بالداخل مؤكدًا أنه بالفعل ذهب ليتفقدها ويطمئن عليها وفوجئ بالشاب وهو يعتدي عليها بالضرب، ولاحظت أثناء حديثه مع الضابط احمرار وجهه الشديد من فرط الضيق والندم، لاضطراره أن يكذب لإنهاء الموقف بأقل قدر من الخسائر، قبل أن يتلقيا تعليماتٍ صارمةً بالإبلاغ عنه فور رؤيته مرة أخرى.

وقبل أن يُسرع الخطى ويبتعد عنها توقفت سيارة تاكسي ذات لونين أسود وأصفر أمامهما، ونادى عليهما الحاخام (موريس) من الداخل:

- حمدًا لله على سلامتكما.. هيا اركبا!

سأله القُمص (يوسف) بدهشة:

- كيف علمت أننا هنا؟

أجابه (موريس):

- لقد أخبرتني دميانة.

هتفت (آيات) بدهشةٍ شديدةٍ:

- دميانة؟!

صاح (موريس):

- سنكمل كلامنا في الطريق، هيا اركبا!

رد القُمص باقتضابٍ وغضبٍ مكتوم:

- شكرًا يا موريس، معي سيارتي التي أتيت بها، فما كان للشرطة

أن تصحبني في سيارتهم.

غادر الحاخام التاكسي ونقد سائقه أجرته وهو يقول بإصرار:

- لنركب معك إذن.

انطلق التاكسي مغادرًا، بينما نظر القُمص باستحقار لـ (آيات)، فقالت باكية:

- هل تذكر يا أبونا قصة القديسة مريم التي فرَّت من أهلها وهي ابنة 12 عامًا إلى شواطئ الإسكندرية، لتلامس الأمواج الباردة قدميها وهي تحفر على رمل البحر الناعم رسوماتٍ بلا معنى، قبل أن تتعرف على شاب ذهبت معه بلا نقاش إلى منزله لتفقد معه عذريتها وتتعرف لأول مرة على متعة الجسد التي كانت شغوفةً باكتشافها وتجربتها في هذه السن الصغيرة، حتى راق لها الأمر وظلت تمارسه 17 عامًا بشكلٍ مجاني بلا مقابلٍ رغم احتياجها الشديد للمال، لكن احتياجها للمتعة كان أشد؟

ألم تُخبرنا أنها حين رأت ذات يوم حشودًا من المصريين والليبيين تتجه إلى البحر ذاهبين إلى القدس لحضور عيد تمجيد الصليب المقدس، وأرادت الركوب معهم لحضور هذه المناسبة العظيمة، اكتشفت أنها لا تملك المال الكافي، فقدمت جسدها ثمنًا لتذهب إلى العيد المقدس بعد أن استهوتها التجربة.

وكيف ذهبت إلى هناك وتوجَّهت إلى الكنيسة في الفجر مع الجميع لتشهد ساعة الصعود المقدس، وفشلت في دخول الكنيسة 4 مرات كانت في كل مرة تزاحم الناس حتى تصل إلى بابها الذي كان مفتوحًا أمامها، ورغم ذلك كانت تشعر بقوةٍ تضربها وتدفعها إلى الخلف لتحول دون دخولها.

زاد انهمار دموعها وهي تنتحب:

- أتذكر يا أبونا كيف لمست نعمة الرب قلبها، حتى بكت واستغفرت، وبدأت تضرب على صدرها، حتى رأت فوقها أيقونة



العذراء مريم، فشهقت من أعماق قلبها وصلت إليها قائلة: "أيتها العذراء مريم.. إني مثيرة للكراهية والاشمئزاز أمام نقائك، لكني أعلم أيضًا أن الرب يدعو الخطاة إلى التوبة. ساعديني أيتها النقية. اجعليني أدخل الكنيسة، اسمحي لي أن أنظر إلى الخشب الذي صُلب عليه الرب بجسده وسال دمه عليه من أجل أن يتوب الخطاة ومن أجلي أنا أيضًا، كوني شاهدتي أمام ابنك أنني لن أدنس جسدي مجددًا بنجاسة الزنا. وفي اللحظة التي سأرى فيها صليب ابنك، سأتخلى عن العالم وأذهب إلى حيث تقوديني"، لتنجح بالفعل بعدها في دخول الكنيسة ثم ترحل إلى الأردن وتزهد في كل متع الدنيا وتتعبد إلى الله في الصحراء بلا أكل أو شرب حتى أصبحت قديسة عجوزًا، عثر عليها بالصدفة الراهب زوسيموس، وحين ماتت وحيدةً في الصحراء دفن جثمانها أسدٌ بدلًا من أن يأكلها.

لقد قال البابا شنودة يا أبونا إنه لا عقوبة للزنا في المسيحية، وإن بعض القديسين قد زنوا قبل أن يغمر الإيمان قلوبهم ويقبلهم الله، فهل تريدني أن أكون أفضل من القديسين؟

لمعت الدموع في عيني القُمص، قبل أن يُكمل الحاخام:

- أنت قُمص يا صديقي ولست إنسانًا عاديًّا.. انظر إلى عينيها الدامعتين مثلما نظرت إلى خطيئتها!

نظرت (آيات) للأرض خجلًا وواصلت نحيبها، فربت (يوسف) على كتفها قائلًا:

- سأصلي من أجلك يا ابنتي.. هيا اركبي معنا!

وركب ثلاثتهم سيارة القُمص وانطلقت بهم من أمام مبنى مديرية الأمن.

* * *

تأملت (دميانة) سقف حجرتها وهي تنام على ظهرها طريحة الفراش، عديمة الحركة، لا تُصدق أنها استطاعت أخيرًا أن تبعث بمعاناتها لأقرب

إنسان لقلبها بعد أن ظنت أن روحها المكبلة ستظل أسيرة جسدها الذي فقدت السيطرة عليه في أصعب محنة مرَّت بها في حياتها على الإطلاق.

ما زال عقلها يسترجع ما حدث في الساعات الماضية حين قفز الشاب الوسيم قفزته الهائلة التي أثارت دهشتها، فانطلق خلفه أثير ذلك الرجل ذي العينين الزرقاوين الذي كان يحتل جسدها، دون أن يهتم بتكبيلها بتلك القيود الروحانية بنفس القدر والكيفية المعتادة، وقد شغله تقفي أثر الشاب ومعرفة وجهته الجديدة، تاركًا لها فرصةً ذهبيةً لن تتكرر.

حاولت أن تتحرك وتخرج من مخبئها فنجحت، لكن بصعوبةٍ شديدة، وقد نسيت كيف تحرك جسدها أو تسيطر عليه بعد أيامٍ طويلةٍ من الأسر.

زحفت أرضًا على أرضية السطح القذرة، وهمَّت بمغادرة السطح كحيةٍ عجوزٍ تهرب من صيادٍ عتيٍّ، لكنها وجدت أن الأمر أعسر من أن تحاول، فاتجهت إلى غرفتها بصعوبةٍ شديدةٍ لعلها تصعد إلى سريرها وتلتقط أنفاسها.

فتحت الباب الموارب بيدها وواصلت الزحف نحو السرير، فإذا بهاتف الشاب المحمول ملقى أمامها على الأرض بعد أن سقط منه حين راودته (آيات) عن نفسه.

التقطت الهاتف بيدٍ مرتعشةٍ وأصابع متصلبة، ولمست شاشته التي تعمل باللمس، لتدخل على قائمة أسماء جهات الاتصال فلم تجد سوى (آيات)، و(كريستين)، و(موريس).. التمعت عيناها بالدموع وهي تتأمل الاسم الأخير قبل أن تضغط عليه، لتظهر على الشاشة جملة (جاري الاتصال)، قبل أن تعقبها عبارة (لم يتم الرد).

غز خيبة الأمل عينيها الحزينة وهي تتأمل الشاشة ثم ضغطت على خيار (إرسال رسالة)، لتلامس أصابعها بصعوبة الحروف التي تراصت أمامها، وتكتب بمعاناةٍ ضنينةٍ رسالة مقتضبة جاء فيها: "قبضوا على آيات والقمص يوسف واختفى الشاب بشكل مفاجئ.. أنقذ حبيبتك دميانة يا موريس"!

ثم انسال الهاتف من يدها ليسقط أرضًا، قبل أن تمسك بأحد قوائم السرير

وتتكئ عليها وهي تتأوه وتصرخ فقط من أجل أن تفرد عودها المحني لتسقط بعدها على السرير عاجزةً عن الحركة بعد أن نفد رصيدها من المجهود والطاقة، دون أن تستطيع أن تجيب على اتصالات المحمول المتكررة التي توالت بعد إرسال الرسالة بدقائق، ولم تتوقف من لحظتها.

فجأة انفتح الباب لتقول (آيات) بلوعة:

- دميانة!

وخلفها دخل (موريس) الذي عاون (آيات) على الإمساك بحب عمره ومساعدتها على الجلوس نصف جلسة، بينما شخص بصر (دميانة) نحو الصليب المتدلي من رقبة القُمص (يوسف) الذي قال لها بصرامة:

- إذن فأنتِ من حشى رأس هذه المسكينة بالشك، وتُكذّبين رسالة المسيح.

أدركت أن (آيات) قد قصَّت عليه الأمر برمته هو و(موريس)، وأسعدها ذلك بقدر ما أثار خجلها ورغبتها في أن تشرح لهم ما لم يُقال بعد، لكنها عجزت عن ذلك وأعدمت كل الحيل، فانسالت من عينيها دموعٌ ساخنة، ومدت يدها بصعوبةٍ نحو صليبه المعلق فتخشب ذراعها فجأة، وتقوس ظهرها للأعلى حتى كاد بطنها أن يلامس سقف الغرفة، فيما انقلبت عيناها اللتان لم يظهر منهما سوى البياض في الوقت الذي عضت فيه على لسانها وهي تطبق أسنانها بشدةٍ ويسيل الزبد الأبيض من فمها.

اقترب منها القُمص عاقدًا حاجبيه وقد أدرك أن للأمر بُعدًا روحانيًا، لا سيما حين غمغمت (آيات) بصوتٍ مرتبك:

- لم يصل الأمر لهذا الحد من قبل، لكنها أصبحت غريبة الأطوار في الآونة الأخيرة بشكلٍ غير مفهوم يا أبونا.

ماتت يد (دميانة) على كتف (موريس) الذي عقد حاجبيه وهو يصيحُ فيها بتوتر:

- اطلبي الشفاء من الرب بثقةٍ ويقين!

ثم شعرت بيد القُمص تمسك يدها ليقول بدوره:

- إيمانك هو الذي سيخلصك مثلما تخلَّصت المرأةُ المَنزوفَةُ من آلامها حين صدقت أنها ستشفى، وقال لها المسيح إيمانُكِ خَلَّصَكِ، فَاذهَبي بِسَلام، وتَعافَي مِن عِلَّتِكِ.

ومن أعمق أعماقها صرخت (دميانة):

- يا رب.

بينما تابع القُمص:

- كل رؤية، كل سحر، كل عمل شيطاني يبطُل.. تُقطَع كل الرباطات، تبطُل كل المُحاربات، هذا الجسد يتحرر باسم الرب.

شعر القُمص بالألم حين اعتصر كف (دميانة) قبضته بقوةٍ تفوق بكثير عظام جسدها الواهنة، بينما قبَّل (موريس) يدها الأخرى وهو يقول بحب وحنان الكون:

- سامحيني يا حبيبتي.. لا تتخليْ عني بعد أن عثرت عليكِ أخيرًا.. أقسم أنني لن أفارقك أبدًا.

ثم تمتم بينه وبين نفسه:

- يا رب اشفها ببركتك.

ومع كل حرفٍ يُردده كان داخله يقينٌ تام أن في دعاء الغيب حُب الصادقين، وأجمل رابط يجمعهم في الخفاء، دون أن يلحظ أن (آيات) تراقب نظراته العاشقة لحبيبته بعد كل هذا العمر، وبدلًا من أن تدعو لصديقتها الوحيدة بالشفاء، كانت تدعو الله أن يرزقها بنظرة عشق مشابهة لنظرة (موريس) من فتاها الوسيم!

ومن جانبها اتسعت عينا (دميانة) وهي ترى هيئةً مشابهةً في ملابسها لما كان يرتديه ذلك الرجل الصالح الذي رأته في السماء حين انفصلت بروحها الأثيرية عن جسدها من قبل، بفارق أن ملامح وجهه كانت

مختلفة تمامًا هذه المرة.. فقد كانت بشرته داكنة، وعيناه سمراوين، ولديه لحيةٌ وشعره مجعد وغير طويل!

اقترب منها دون أن يشعر بوجوده أحد وقال متبسمًا:

- لا تخافي يا دميانة.. إنه أنا نصير الضعفاء والمقهورين.

هتفت فيه روحها:

- لكن ملامحك وشكلك..

قاطعها:

- هذا هو شكلي الحقيقي.. فقد وُلدت في بيت لحم حيث بشرتنا المُشرَّبة من طين الأرض وسمار الجلد المُعرَّض لأشعة الشمس.. ما كنتُ يومًا من سكان روما وباقي دول أوربا من أصحاب البشرة البيضاء والعيون الملونة، مثلما خدعوكم بصور زائفة في لوحاتٍ تحمل بصمات رساميهم، الذين زيفوا شكلي وسرقوا مني هويتي مثلما سرقوا منكم المسيحية الحقيقية، وكأنهم أرادوا احتكار الحضارة، والفنون، والدين، لتسيير كل الأمور حسب أهوائهم ويصبح ما دون سواهم مجرد أشباه بشر درجة ثانية تابعين لهم.. لكن هذا لا ينفي أن اللون الأبيض هو لوني المفضل حين يكون هو لون القلوب الطاهرة، العامرة بالإيمان.

- لقد آمنت بك حق الإيمان.

- لو كان ذلك حقًّا لأخذتك معي إلى عالم الملكوت، لكنك ما زلتِ بحاجةٍ لإعادة النظر في الكثير من الأمور.. فإليكِ فرصةً ثانيةً قبل فوات الأوان واحتفظي بكل ما مررتِ به سرًّا حتى لا تفسدي على الآخرين اختباراتهم.. فلو علم الجميع حقيقتي فما جدوى الاختبار؟

ثم مدَّ يده إليها، وما أن لامسته حتى شعرت بذاتها تتحرر، وكأن حول عنقها وجسدها آلاف الأغلال والأصفاد التي انفكت وسقطت في لحظةٍ

واحدة.

"موريس؟!"

خرجت الكلمة بغتةً من (دميانة) بنبرةٍ مرتعشةٍ يملأها الألم من فرط الإنهاك والاحتلال الروحي الذي طال في بدنها، وهي تسترد لسانها لأول مرة حتى تنطق به ما تمنت أن تقوله حين رأت حبيبها أول مرةٍ بعد كل هذه السنين:

- حمدًا لله.. رُدَّت إليَّ روحي يا أغلى من رُوحي.. كنت أخشى أن أموت قبل أن ألقاك.. حينها كنت سأموت...

قاطعها مبتسمًا:

- ناقصة عُمْر؟

- بل ناقصة حُب.

مسح شعرها وقال بحنانٍ يفوق ألف قلبِ شاب:

- سنُعوِّض كل ما فات يا حبيبتي.

- بعد كل هذه السنين؟

- لقد مرَّت السنون في عمر البشر فحسب، لكن زماننا توقف منذ أن افترقنا في شبابنا.. وها نحن استعدناه مجددًا لنبدأ من عند نفس الشباب كل ما فات.. نقطة ومن أول الحُب.

* * *

جلس الشاب الوسيم برفقة الشيخ (خِضْر) على جزيرةٍ نائيةٍ في عرض البحر، يُحيطُهُما الظلام إلا من ضوء المصباح اليدوي الخافت، ويُغلِّفهُما الصمت الذي لم يخرق حرمته سوى صوت الموج الذي بدا وكأنه تراتيل تتغنى بعظمة الخالق، ومناجاة عظيمة لن يُدركها إلا من خشع قلبه، فيما ركن المركب الصغير في فجوة صخريةٍ كبَّلت حركته، وتركت له

فقط حرية التمايل.

تأمل الشاب الوسيم ملامح الـ (خِضْر) وقد فاقت وضاءة وجهه السمح نور المصباح الذي بدا وكأنه هو الذي يستمد منه الضياء وهو يقول شاردًا في ملكوت السماء:

- ليس إنسانًا من لم يتوقف يومًا ليسأل نفسه: من أين جئت؟ وإلى أين سأذهب؟

أكان لنا وجود قبل الميلاد؟

وماذا كنت قبل أن أولد؟

وما حكمة وجودي؟

وهل أنا وحدي في هذه الغربة الوجودية؟

أم أن هناك من يراني ويرعاني ويعتني بأمري؟

وما سر القدر المكتوب فيه مصيرنا؟ وما هو دورنا لو كانت مصائرنا محسومةً من قبل؟

وماذا بعد الموت؟

أينتهي كل شيء إلى تراب؟

أيكون الأمر عبثًا وهزلًا؟

أم إنها قصة سوف تتعدد فصولًا في الآخرة التي وعد بها الأنبياء والمرسلون؟

ومن الذي سيكون على صواب حقًّا في خضم كل هذا الجدل الصاخب بين البشر في الأديان والعقائد؟

هل سنرى الله هناك؟ وهل يمكن أن نراه في الدنيا؟ وما هي الحُجُب التي تحول بيننا وبين الحقائق؟ وما السبيل إلى رفعها ونحن على قيد الحياة؟ وماذا يرى الرائي بعد رفع الحجاب؟

وغيرها من أسئلةٍ كثيرةٍ ليس إنسانًا مَن لم يُحاول حل ألغازها وكشف أسرارها، ليستمعَ بكل أشواقه إلى من يقول عندي جواب.. فالمسألة ليست ترفًا فلسفيًا، وإنما هي كل شيء، وسوف يتوقف عليها كل شيء.

ثم نظر إلى عينيْ الشاب واستطرد:

- أغلب بنو (آدم) شغلوا أنفسهم باللقمة، والنكاح، ولذة الساعة عن هذه الأسئلة العظيمة، فما أبعدهم عن الإنسانية والهدف الذي خُلقوا من أجله، حتى استحقوا أن يقودهم الساسة وأرباب رأس المال بالجوع، ويدفعوهم بالحقد، ويحركوهم بالأهواء، قطعانًا من البُهم لا ترى إلا على مدى شبر أمامها.

وما أبعد هذه الصورة المشوهة، عن الصورة الأخرى للفطرة النقية التي عبَّر عنها ذلك البدوي البسيط، الذي وقف يتلفت حوله في الصحراء، ينقل بصره بين السموات والأرض، ويُحدِّث نفسه وهو يتتبع آثار بعيره على الرمل: "إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفلا تدل سموات ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، على مبدع لطيف خبير؟"، فأدركت فطرته الشفافة الحكمة والنظام من نظرةٍ واحدةٍ، وأنكرت العبث، وآمنت بالبعث، وهدت صاحبها إلى الحقيقة، واليوم، وفي ظل هذا الانفتاح الكوني وتلك الكشوفات التي تؤكد يومًا بعد يومٍ أن ثمة إلهًا واحدًا مبدعًا لهذا الكون، تراجعت فطرة البشر بعد أن سوَّدتها المداخن، وأصمها ضجيج المكن، وألهبها عواء الغرائز، فاستغرقها المطلب العاجل للشهوات والأماني، ونسيت أصل الأصول الكامن خلف كل شيء، فكانت أصدق مثال على قول الخالق **{إنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلةَ ويَذَرون وراءَهم يومًا ثقيلًا}**.

زادت كلماتُه من شغف الشاب وأشواقه لحقيقة كلما أمسك بها انسالت من بين يديْه كما ينساب الماء من الأصابع الممسكة بها، فوجد نفسه يسأل:



- وهل لديك الإجابة سيدي؟

- لعلها معي بعد أن استقصيت، وفتشت في ثنايا نفسي، ورجعت إلى السادة العارفين، واستعنت بإلهامات الأقطاب الكبار الكُمَّل من كبار الصوفيين الذين سلكوا طريقًا روحيًا متفردًا، وحلقوا بالتجربة الدينية في سماوات الحضرة الإلهية بعد أن تروحنت حواسهم وفارقت الحس والمنطق.

خفقت دقاتُ قلب الشاب، وسرت القشعريرة في أوصاله وهو يهمس بلا وعي:

- رباه، أيُمكن للبشر أن يفعلوا ذلك؟

- نعم يا ولدي، فالقلوب كالمرايا، تنعكس عليها التجليات الإلهية في الكون، والطرائق إلى الله كثيرة ومتعددة، على عدد أنفاس الخلائق، لذا خلقنا الله شعوبًا وقبائل لنسلكَ إليه مسالكَ مختلفةً، ونكتشفَ في كل مسلك مظهرًا مختلفًا وجديدًا لهذا الإله الذي عجزت الكلمات والأوصاف أن تُحيط بجلاله وجماله، لكن له جوهرًا واحدًا وذاتًا واحدةً خفيةً لا تتغير أو تتعدد، إذا وصلنا إليها واتفقنا حولها سنعود للوحدة والاتحاد تحت ظله وفي كنفه، لكن أنَّى للعقول أن تفهم، وأنَّى للقلوب أن تؤمن.

- وما وجه الاختلاف بين الصوفيين المسلمين والعابدين لله المتقربين له في باقي الأديان؟

- التصوف هو حركةٌ روحيةٌ لارتقاء الإنسان عن جسده الطيني الغارق في الوحل، وقد ظهرت في كل الحضارات الإنسانية كافة.. عند الهنود القدماء كانت مرادفةً لحالة الترقي الروحي، المعروفة باسم الـ (نرفانا) وهي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترةٍ طويلةٍ من التأمل العميق، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق، حتى يصبح



منفصلًا تمامًا بذهنه وجسده عن العالم الخارجي، والهدف من ذلك هو شحن طاقات الروح من أجل تحقيق النشوة والسعادة القصوى والقناعة وقتل الشهوات، وتجلت في التراث المصري القديم باسم (الكهانة)، وعرفها اليهود القدامى باسم (القبَّالى)، وفي الفلسفة اليونانية معروفة باسم (الغنوص)، وفي المسيحية اسمها (الرهبنة)، والمسلمون عرفوها باسم التصوف، وكلها تسميات تدل على جوهرٍ واحدٍ، وهو محاولة الإنسان في الوصول من الأرض للسماء، من الفاني إلى الباقي، من الوهم إلى الحقيقة، من المحدود إلى اللانهائي، من الخلق إلى الخالق، لكن الفارق أن الدروب تختلف باختلاف الشرائع والمعتقدات، فلكل أمة قدم نبي تسير على دربه، والصوفيون ينهلون النور من الميراث النوراني المحمدي الذي تركه لنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

صمت الشاب، فقال له الشيخ متبسمًا:

- قل عليه الصلاة والسلام!

سرح الشاب قليلًا ثم شعر أنه لا يحمل أي مشاعر سلبية تجاه أي عقيدة أو ملة، كما أن تلك الأنوار المشعة من كلمات الشيخ حتى ملأت نفسه بالسكينة والطمأنينة جعلته يرتاح للمسلمين ولا يجد غضاضةً في الصلاة على نبيهم قائلًا:

- عليه الصلاة والسلام.

دسَّ الـ (خِضْر) يده داخل جلبابه ليمسك بسلسلة معلقة حول عنقه ويخلعها قائلًا للشاب:

- لعلك تسأل نفسك الآن، لم اخترت هذا المكان تحديدًا لأبدأ منه حديثنا.. فقد كان في الإمكان أن يُقال في جهة أخرى.

ابتسم الشاب مؤيدًا، دون أن ينبهر وكأنه اعتاد أن يقرأ الـ (خِضْر) ما

في نفسه، قبل أن يكشف الأخير عن صندوقٍ معدني صغير يتدلى من السلسلة، عرضه أمام الشاب لثوانٍ ثم فتحه فلاحت داخله مطوية صغيرة فردها ودسَّها في يد الفتى قائلًا:

- اقرأ هذه!

تأمل الشاب الكلمات الباهتة في الورقة المهترئة التي يبدو أنها مكتوبة منذ زمنٍ طويلٍ، ثم بدأ القراءة بصوتٍ خفيض..

"كنتَ خائفًا فأمَّناك.. وشريدًا فآويناك.. ومطاردًا مكشوفًا أمره للجميع فسترناك.. فإذا ما جاءك ابن النور يومًا في نهاية الرحلة فهذا عهدنا إليك، أن تأمنه، وتؤويه، وتمنحه مما منحناك"

لم ترو الكلمات ظمأه، فقرأها بعينيه مرة ثانية وثالثة، وفي كل مرة يشعر أنه يضع يده على شيء هلامي، يلمسه لكنه لا يستطيع الإمساك به، فنظر للشيخ نظرةً مليئةً بالزيغ والتشتت، قبل أن يقول له الـ (خِضْر):

- تلقيت هذا العهد هنا على تلك الجزيرة منذ ردحٍ من الزمن، ومن يومها وأنا في انتظارك بعد أن جهَّزت لك مَركبًا مخصوصةً أعددتها لهذا المشهد الذي سيجمعني بابن النور.

عقد الشاب حاجبيْه وتساءل:

- ابن النور؟

- نعم يا ولدي.. ربما كان نور الإيمان، أو نور الحقيقة، أو نور التكوين، لكن المؤكد أنك أنت المُنتظر الذي علمت أنه قادم لا محالة، دون أن أعرف متى وكيف أعثر عليه، وخُبِّرت بأنه سيلاقيني حين تأتي الساعة الموعودة، وها قد أتت.

لاذ الفتى بالصمت وقد عصفت به التساؤلاتُ والحيرة، فتابع الشيخ:

- ما زلتَ بعيدًا يا ولدي لتدرك مقصدي كاملًا.. فمن يسير في

بحر الحقائق بدون مصباح الشريعة فاتته الإشارة، وأُبهمت عليه العبارة، ومن آمن بالله حق إيمانه، التقط الإشارة، وترجم العبارة، فثمة حقائق لا تدركها الأسماع والأبصار وإنما تُعاينها القلوب وحدها.

استطعم الفتى كلام الـ (خِضْر) حتى إنه شعر أن ريقه الذي يبلعه قد صار حلو المذاق، مسكر الطعم، ووجد لقوله صدى في نفسه، بعد أن اخترق كيانه ووجدانه، وملأ قلبه بالراحة والاطمئنان، بخلاف كل ما شاهده في هذا الرجل من روحانيةٍ غير عاديةٍ سبرت أغواره واطلعت على مكامن نفسه بكل سهولة، ورغم تلك المهازل التي شاهدها بجوار ضريح (أبي العباس المُرسي)، وما سمعه سابقًا عن الإسلام من أراجيف تثير القلق والتوتر، إلا أنه استشعر على يد الـ (خِضْر) أن للأمر جانبًا آخر روحيًا، أعظم وأعمق بكثيرٍ من مجرد كلمات تُقال من الألسن للآذان، بل هي موجاتٌ روحانيةٌ تَسري ما بين السماء والأرض، فتلتقطها قلوبٌ صافيةٌ ذات قدرة عالية على الاستقبال وفك شفرات البث التي لا يفقهها المؤمنون، فتضرب في جذور النفس المتخبطة، وتُهدئ من روعها مهما كان البحر حولها هائجًا مضطربًا، يُثير فزع وهول عُبَّاد الدُّنيا.

ومن جديد عادت للـ (خِضْر) نبرته الغامضة بعد أن اطلع على ما يدور في نفس الشاب واستطرد:

- وستطمئن أكثر بعد أن تسمع المزيد من قول الرحمن، وتنهل من حكمة ووصايا نبيه.. فإنه لقولٌ فصلٌ، وما هو بالهزل.

* * *



مذكرات ايـــات 2

عُدتُ من جديدٍ إلى القلم والأوراق، لكن شتان بين ما سطرته بالأمس، وما أكتبه بدموعي اليوم..

ها أنا أواصل البوح على نغمات ترنيمة "يَغفِرُ ذنبي"، بعد أن تعلمت على يديك أن لكل ما نفقده ثمنًا نكسب به شيئًا بديلًا، الخبرة مقابل الدموع والدم، أحضان الأصدقاء الجدد بعد فقد الأحبة، حتى الخسارة، هي فن في حدِّ ذاته لا يكتشفه سوى قلةٍ من الموهوبين يحوّلون به الوجع، والحزن، والألم، لإبداعاتٍ خالدةٍ من مقطوعاتٍ موسيقيةٍ، ولوحاتٍ زيتيةٍ، وأشعارٍ مرثيةٍ، ومذكراتٍ تحمل رائحة الفراق وبلل الدموع.

لكنك لم تُعلِّمني كيف أعوِّض غيابك، ليظل استثناء للقاعدة، وخسارة لا تُعوَّض أو تُحتَمل.. فحبك مثل الموت، لا يأتي في العُمْر سوى مرةٍ واحدة.

....

تسجيلاتك التي تركتها على هاتفك المحمول، وصورتك المزينة لخلفيته، هي آخر ما تبقى منك في ظل اختفائك الغامض، الذي لم تعد لي دعوةٌ أرفعها للسماء سوى أن ينتهي هذا الكابوس في نفس اللحظة التي أدعو الله فيها، لأجدك أمامي قبل أن تغادر الحروف شفتيَّ، والدموع عينيَّ، مثلما أسمع في قصص الدعوات المستجابة لصالحي البشر والقديسين.

لماذا يا رب لا تستجب سوى للصالحين؟.. كرمك ومعجزتك الحقيقية أن تستجب لمن هم مثلي، فالصالحون لديهم من الإيمان ما يُصبِّر قلوبهم إذا ما تأخرت الإجابة، ومن اليقين فيك ما يغني عن سرعة الاستجابة ليتأكدوا من وجودك، أما أنا فما زلت أتأرجح على حبلٍ رفيعٍ من تحته الجحيم، فهل تتخلى عني؟!

كلا..

تيقنت أنك كبيرٌ حقًّا يا إلهي حين رأيت قبسًا من رحمتك بقلبي الممزق،

وأنا أواصل الاستماع إلى يوميات حبيبي المسجلة على الهاتف المحمول بصوته الأشبه بعزف قيثارة في السماء وهو يحكي ما حدث له مع تلك الـ (كريستين) وهي تراوده عن نفسه:

- أريدك أن تدخل عالمي، وأعدك بأنك ستكتشف مواطنَ جديدةً للمتعة لم يطأها بشرٌ قبلك، وبالمثل امنحني شرف دخول عالمك الذي أثق أنه مليء بالأسرار الجديدة بالاكتشاف بعد أن نوقف عمل الضمائر بكذبةٍ مشروعةٍ تقول إننا لم نكن نقصد!

هيا بنا نكذب بطريقة أكثر احترافية كرجال الدين، والمفكرين، والساسة، وكل الذين يبدون في غاية الاحترام والمهابة من ذوي اللحى ورابطات العنق الأنيقة الذين يقولون لأنفسهم نفس المبرر.

مع كلماتها الأخيرة كنا قد وصلنا إلى شاليه فخمٍ يطل على البحر..

أمسكت بيدي واقتربت منه ولم تتركني إلا لتُخرج مفاتيحها وتفتح بابه بسرعةٍ قبل أن تسحبني من يدي بابتسامةٍ ساحرةٍ وهي تكرر:

- قلتُ لك من الأول لا تفكر كثيرًا في كل فعلٍ تُقدِم عليه، فهناك أمورٌ تفقد الكثير من طعمها إذا ما مرَّت على فلتر العقل الذي ينقي الحياة من المتع والسعادة الخفية، فبئس من يستخدمونه!

وما أن صرنا بالداخل حتى اقتربت مني، وحاصرت رأسي بين ذراعيها وهي تقول بعينين يملأهما الشبق والرغبة فيما خرج مع حروف كلماتها ذلك البُخار الأشبه بدخان سجائرها:

- ما رأيك في هذا الشاليه؟ ألا يُغري موقعُه بقضاء ليلةٍ ساخنةٍ تُبدد برودة الجو المحيط بنا؟

وضعت يديَّ على خصرها وأنا أجيب:

- بكل تأكيد، لو كان ذلك في الحلال، ومع الإنسانة التي اختارها قلبي.

ثم تحوَّلت مسكتي لخصرها إلى دَفعةٍ دفعتها إلى جسدها للوراء، وأنا أتابع:



- واسمها آيات.

ارتطم جسدها بالحائط ثم ارتدَّت إليَّ ككرةٍ مطاطةٍ، وهي تواصل تصويب أنفاسها الساخنة إلى أنفي بلا كللٍ أو مللٍ قائلة بشفتين بلون الكريز:

- لا يعنيني من تحب.. فأحيانًا يسكن البشر في مساكن لا تربطهم بها العاطفة، لكن يكفيهم أن يناموا فيها لساعاتٍ يجدون فيها المأوى، واليوم أمنحك جسدي إيجارًا جديدًا بلاً أي مقدم أو تأمين.

قلتُ لها بإصرار على الطُهر، يفوق إصرارها على الخطيئة:

- لقد سكنت بالفعل، ولا يمكن للمرءِ أن ينام في سكنين مختلفين في وقتٍ واحدٍ، ثم إنك مسكونة أنتِ الأخرى بساكنٍ لا يمكنني مجاورته.

سألتني بدهشةٍ غاضبة:

- ومن الذي يسكنني يا حكيم عصرك؟

فأجبتها:

- الشيطان.

ارتمت في حضني، وهي تقول بتوسل:

- بل ملاك الحب.. ضع يدك على قلبي لتتحسسه!

دفعتها بقسوةٍ أسقطتها أرضًا وجعلتها تصيح في تأوهٍ وأنا أقول بحسم:

- ملائكة الحُب ليست سوى شياطين تُجيد التنكر، والنفس هي معينها في رحلة السقوط.

ثم فتحت الباب وغادرتُ بلا رجعة.

....

أحدث اكتشافي لعفته في أحلك لحظات العهر هزةً نفسيةً بمقدار 1000 ريختر..

فالفارق كبير بين من يترفع عن الخطيئة مع من لا تتوق إليها نفسه، ومن يأبى مجرد لمس شعرةٍ واحدةٍ ممن أفاض في وصف جمالها وسحرها الطاغي حين انفردتْ به وقدمت له جسدها ليستلذ منه كيفما شاء، لكن كيانه وقلبه كانا مشغولين بي وحدي رغم غيابي، ثم لفظني حين كان في حضرتي!

في علاقة بتلك الغرابة الثرية بالتناقضات، تُضاف التفاصيل الصغيرة إلى بعضها كي تؤلف رواية ذات نهاية ستظل مفتوحة، وقابلة لكل الاحتمالات، مهما حاولت أن أحسم مصائر الشخوص أثناء الكتابة.

محال أن أكف عن تعديل نصٍّ يحتويني ويحتويك وأنا أفتش في القدر، والزمان، والمكان، عن كل ما يأتي أبكر من اللازم، وكل ما يأتي متأخرًا أكثر من اللازم في محاولةٍ لإعادة تجميع خط العمر المُرتب بشكلٍ عشوائي فوضوي، وتتراص فيه السعادة والمصائب بطريقةٍ مربكةٍ للمشاعر والأحاسيس، وتعدم أي أمل في الاستقرار على حالة إنسانية ثابتة ونحن على مائدة الحياة التي تفترسنا بالشوكة والسكين، وقد أقسمت الا تموت إلا بعد أن تأخذ العزاء فينا بالكامل.

حاولت اكتشاف حقيقة تلك الحياة فوجدتها تختبئ خلف انشغالنا عن تأملها.. لا تتعرى طواعية لمن يبحث عن ماء فحشها، بل على من يحمل القلم مثلي أن يفك أزرار ثوبها على مهل، والصعب من هذه الأزرار عليه أن يستمتع وهو يفكه بأسنانه.. يفسخه بيديه المعروقتين، وحتى وهو يفعل ذلك يجب أن تكون الحياة راضية عنه كعاهرةٍ سادية تومئ له برأسها قائلة: "افعل ذلك ببطء أيها الشرير، برشاقة، بلهفة، بمتعة، بحكمة، لكن مع الكثير من السيطرة والعنف في بعض الأحيان"، وهذه الميزة الوحيدة لاحتراف الدعارة التي ساعدتني كثيرًا في فهم العُهر الأكبر الذي نعيش فيه!

فالحياة ليست كريمةً لتتوج القصص الجميلة بالنهايات السعيدة، وليست حكيمة بما يكفي للعثور على الحبيب أو الحبيبة في الوقت المناسب

والمكان المناسب، والشيء الوحيد الذي تقدمه بضمير لا متناهٍ، هو درسٌ مؤلمٌ مفاده أن نجاح الارتباط يطيح بهالة الحب، وتتويج الحب بزغرودة مجلجلة يعني الفشل في استمراره، وأن طريق النجاح في الحب يفضي إلى غرفة مظلمةٍ تشتعل فيها شمعة واحدة ترحمًا على روحه المقبوضة، لكني لا أكف عن تذكيرها بأن الحب كالوطن، والنصيحة بالخروج منه مؤلمة حتى لو كان هذا الوطن يملأه الخراب، فتصم أذنيها عن كلامي وتمضي في أفعالها ببني البشر لأنها تعتقد أن روعتها لا تكتمل إلا بهذه النسخ المملة للفراق، والحزن، والضياع، والإصرار غير المبرر لإغلاق شباك واحدٍ مفتوح يكفي لدخول نور الأمل إلى عالمنا الأسود الكئيب، لكنها تضن علينا ببصيصه، فنتخبط جميعًا في الظلام!

في غيابك يا حبيبي ما زلت هنا بدونك أحاول إتلاف حياتي بشكلٍ فظ ومضحك، ومع ذلك وَلَهي بك لا يزال أكبر من عملية الإتلاف المتعمدة.. أنا هنا بدونك أحاول تجنب نوبات غضبي من عدم قدرتي على الاعتناء بنفسي، والتوقف عن الحوارات الحميمة مع الشغف والرغبات المفرطة في كآبتها.

أنا هنا بالقرب من صوتك وهو يزداد جاذبيةً مع الأيام..

بالقرب من شعورك بالتثاؤب بعد وجبةٍ دسمةٍ تناولناها، وشعوري بالكسل بعد ممارسة حب مارستها مع الجميع إلا مع من أحب..

بالقرب من شعلة النار التي يطفئها لعابك برطوبةٍ عذبةٍ تمنع أوراق العمر من الذبول..

لا يمكن أن أكون في أي مكانٍ آخر غير هنا، لأظل قريبةً من الضجيج الذي يحدثه حبي لك وتفكيري فيك.. هنا أقف عارية تمامًا وأنا أعيد نزع شعيراتي الزائدة وكلي ثقة في عودتك، وما أكتبه عنك يصنع موجة حارة في قلب برودة الشتاء، تحميني من صُدفة المطر، وخرافة الخير الذي ينتهي دائمًا بالشر في هذا العالم القبيح.

أنا هنا لا أدري ما الذي يمكن أن أفعله عندما تفوح فجأة رائحتك في الهواء مجددًا بعد أن تحملها ريحٌ مُعجِزة أوقن أن الرب سيحدثها من أجلي..

أنا هنا لا أعرف كيف يمكن أن أفهم الليل من غير الشعور بأن عينيك تسهر معي لتحميني وأنا متكئة معك على ظل غد أقسمنا أن نصنعه على مقاس الحلم مهما كانت احتمالية أن يتحول إلى كابوس.

أنا هنا أسأل الأرض والسماء: لماذا يصبح لون العالم رماديًا في غياب من نحب؟

لماذا يتحول إلى غرفةٍ نفتش فيها عن النوم ولا نجده؟ إلى مقعد يجلس عليه الصبر وحيدًا في سرادق عزاء لن تقوم أمواتها؟

فاللهفة إليك أكبر من رجوع النشوة مهزومة والدموع على خديها، من المدن الجميلة، من المغامرات المدهشة، من الموسيقى التي لم يُخلق بعد من يُبطِل سحرها.

حتى حين أغادر غرفتي البائسة وأمشي على البحر وحدي، يجاورني الألم القادم من كل مكان، من كل زمان، من كل شيء تم حرمانه من فتنة حضورك حتى إن الكلمات فقدت معناها.

فمنذ أن بدأ التاريخ بكتابة كلماته وهو يتحدث عن بؤس هذه الإنسانية وترك لنا نحن الكتابة عن الخير والجمال والحب، حتى تحوَّلت رومانسية الأدباء إلى نكتة سيئة تُقال في اللحظة التي يستعد فيها العالم للانتحار، لكن في روايتنا فقط وجدت الكتابة عنك تمنح العالم قيمته، وتجعل من نكتة الأدباء مُزيلًا للاكتئاب بقدرٍ كافٍ لوقف هذا الانتحار.

أتعلم لماذا؟ لأني أنا وأنت لا نشبه أبطال الروايات التي تُحاول أن تُفهمنا أن للحب ثمنًا باهظًا لا يستطيع الجميع دفعه بمن فيهم حتى الأغنياء، وأننا جميعًا بؤساء نختار الدموع وينتهي بنا الأمر دائمًا إلى زنزانةٍ من خيبة الأمل ليس لها باب، لكني مُصرة على أن أجعل النهاية السعيدة خيارًا جديدًا يليق بالروايات الملحمية، ولا يقتصر على الأفلام العربية الأبيض وأسود.

فكيف أكتب روايةً تسلسل الكلمات فيها لا يعني سوى موتي أو موتك أنت بالذات دونًا عمن يستحقون الموت في هذا العالم؟!

كيف يصبح الفراق والنهايات الأليمة هي القاعدة الوحيدة التي لم ينجح

أحد من البشر بعد في جعل قصته شذوذًا واستثناء لها؟!

كيف نكذب على أنفسنا بهذا الصدق؟!

سأكتبك يا حبيبي كما أنت، بغموضك، بماضيك الخفي، بمستقبلك المجهول، كبطل لم يخلق مثله من قبل.. لن أبحث لك عن اسم غير اسمك، ولا عن مكانٍ آخر غير مكانك، أو جنسيةٍ أخرى غير جنسيتك، فكلها حماقات وقع فيها من كتبوا حكاياتهم ووضعوا شخوص محبيهم بأسماءٍ مغايرةٍ في روايات دخل على أحداثها التعديل والتغيير وهم يظنون أن الأدب يعشق حذف الحقيقة من النص لأن كل شيء فيه مستعار، أما أنا فأؤمن أن الحب في الأدب يكتب نفسه ويعشق التفاصيل الحقيقية خاصة إذا كانت أروع من الخيال مع بطلٍ أسطوري مثلك خُلق ليبقى حتى بعد الفناء.

نعم كل المحبين يموتون، لكن ما لا يمكن أن يبلى في الحب هو الحكاية، هو ذاك السرد الذي يصعب تقاسمه مع الآخرين، هي تلك الكلمات التي تُتيح لنا أن نغلق علينا ضفتي كتاب لننفرد بأنفسنا ونركض خلف بعضنا في صفحاتٍ لا نهاية لها كعمر حبنا المفسوخ الذي إن انتظر أن يُرتِّقه القدر، قبل أن تأخذني بين أحضانك لتقيني دموع القراء وتأويلهم الخاطئ للأحداث، والحالة الوحيدة التي تصبح فيها الكتابة قبرًا، حين نتحول أنا وأنت إلى ضميرٍ غائب، ورمزٍ خفي غير واضحٍ في السطور.

فالعالم وحشي، قاسٍ، مفرط في ابتذاله، لكن بدون التفكير فيك والكتابة عنك سيكون أكثر من مجرد كارثة، فنحن نكره الجحيم لكننا لا نسعى إلى إلغائه، لأننا بإلغائه نلغي الجنة وهذا يعذب أكثر من نار الجحيم!

....

بعيدًا عن ساعات الألم الطويلة التي أقضيها يوميًا في البحث عن فارسي النبيل، لم يكسر دائرة الوجع التي تحاصرني، سوى تلك اللحظات الساحرة التي أتأمل فيها ذلك العشق والهيام بين (موريس) و(دميانة)، ضاربين المثل بحُبٍ لا يموت حتى وإن كان صاحباه يقفان على بوابة الرحيل.

لأول مرة في حياتي –منذ أن عرفتها– أرى على خريطة وجهها ملامح

أخرى غير العبوس والتجهم اللذين كانا محنطين على وجهها بشكلٍ دائمٍ ينافس تحنيط الفراعنة.

صارت ملامحها الجامدة تنفرج وتنقبض وهي تبتسم، تضحك، تخجل، تمرح، تهيم حبًّا كنخلة قادرة على العطاء والطرح رغم عمرها الطويل الذي شارف على المائة، وفجأة بدأ يرجع للخلف متحديًا كل قوانين الكون، لتصغر في كل لحظة تملي فيها عينيها برؤية حبيب الأمس الذي ينسى في حضرتها مكانته الدينية، وعصاه التي يتكيء عليها، بعد أن أصبحت هي عكازه، وأمست أصابعه وهي تتخلل أصابعها سر بقائها ووجودها.

مرحبًا بك يا دميانة في عالم البشر بعد أن كنتِ مجرد حجر من بقايا صنمٍ قديمٍ كسره الأنبياء، ونسوا أن يسحقوا آخر ما تبقى منه!

الآن فقط عُدتِ حواء بعد أن عثرتِ على آدمك.

....

وما زالت المعجزات تتوالى لتثبت أنها موجودةٌ بيننا لم تنضب بعدُ مثلما ردد ضعيفو الإيمان بأن زمن المعجزات قد ولّى وانتهى..

من يصدق أن (دميانة) هي التي تمنحني درسًا في الدين؟

كان ذلك حين أنكرت كلماتها القديمة المُكذِّبة للإله والأديان قائلة:

- طالما قلت إن كلام الإله لا بد وأن يكون مفهومًا لكل البشر، وإن الإله غير عادل لأنه خلق فئة من الأذكياء القادرين على الاستيعاب بشكلٍ أسرع، وفئة من محدودي الفهم الذين لا يقفون على المعاني الخفية المقصودة كغيرهم من العباقرة، فهل كل الأذكياء آمنوا بالله؟ وهل كل محدودي الفهم كفروا؟

قلت أيضًا أن كلام الإله كان من المفروض أن يكون بلغةٍ واحدةٍ يفهمها كل البشر حتى يؤمنوا، فإذا بالتوراة نزلت بالعبرية، ولم يؤمن بها حق الإيمان كل من يتحدثون العبرية.. وكُتب الإنجيل باليونانية فكم مسيحي اليوم يعرف اليونانية؟ وكم مسلم فى العالم لا يعرف اللغة العربية؟

حتى وجودك على موقع فيس بوك يا ابنتي احتاج إلى اسم وصورة وهوية محددة حتى تسجلي دخولك عليه ويعرفك الناس بهذه الهوية.. فكيف جئنا إلى هذه الدنيا دون أن يكون هناك خالقٌ منحنا شكلًا وصورةً وهويةً محددةً تعرفنا بها الناس حولنا؟

فالفُرقة والعذاب اللذان نمر بهما باستمرار يا ابنتي هما أكبر دليل على وجود الإله الذي أراد أن يُعرِّفنا قيمة الحلو بالمُر، وخلقنا مثل الورقة البيضاء، لكننا ملأناها باللون الأسود حتى ندرك الفارق بين العباد ورب العباد.

أريد أن نذهب معًا إلى الكاتدرائية غدا!

....

من جديدٍ عدتُ لأحضان الكاتدرائية، ولأول مرة أحضر القداس الإلهي ومعي (دميانة) بعد أن طلبت أن تعترف لأبونا (يوسف)، وخَرَجَت من عنده بعينيْن دامعتيْن رافضة أن تحكي تفاصيل ما قد دار بينهما، مؤكدة أنه سر استأمنها عليه المسيح شخصيًا!

وهو نفس المبرر الذي جعلها لم تحك لي حتى الآن ما مرَّت به في تلك الفترة العجيبة الماضية حين كانت نصف حية ونصف ميتة، مؤكدةً أن ثمة أسرارًا لو قيلت، فلن يبقى بعدها سوى الموت، وهي تريد لي ولها الحياة.

فقط باحت لي بمعلومةٍ لا أعلم إن كانت مهمةً أم لا.. فالأسطوانات والشيكات التي تخص ريمون وظننت أنها سُرقت من غرفتها، هي التي خبأتها في خزنةٍ سريةٍ خلف دولابها العتيق خوفًا من أي مكروه محتمل، وإلى جوار الشيكات والأسطوانات المدمجة في الخزنة، تُوجد أموالٌ كثيرةٌ جُمعتها بالمكر والحيلة على مدار سنواتٍ طويلةٍ من النصب واللعب بالبيضة والحجر، ولم تعد تخشى من الإفصاح عنها الآن، بعد أن عثرت على ما هو أغلى من كل أموال وكنوز الأرض.

ودَّعتها لترحل مع الحاخام (موريس) الذي كان في انتظارها بالخارج بعد أن توترت علاقته بأبونا، بينما حان دوري لأعترف لنفس القُمص الذي رأى بنفسه ما أريد التطهر منه على يديه..

حذَّرني أن الشهوة تنتحل اسم الحب وتتنكر في شخصه لتخدع المحبين، بينما هي في الحقيقة مجرد طاقة زائدة إذا ما أسرفنا فيها تتحول إلى وسيلة للإغماء والإعياء والبلادة مثل الخمر والمخدرات والقمار..

قال لي إن الحب علاقة بين شخصين ينظر كل منهما إلى داخل الآخر وما يحمله من أفكار وقيم ومبادئ وقناعات وأحلام، لذا لا يمكن أن تستبدل الحبيبة محبوبها بإنسانٍ آخر حتى ولو كان توءمه، لكن الشهوة مجرد علاقة بين ذكر وأنثى يقتصر فيها النظر على الشكل الخارجي، الذي سرعان ما نمله ونضجر منه فنسارع إلى استبداله بجسدٍ آخر تمامًا كما نغير ملابسنا وأحذيتنا.

لاحظ شرودي وعينيَّ الزائغتين وهو يتكلم، فسألني إن كنت ما زلت أفكر في تساؤلاتي التي تهدم العقيدة المسيحية، فأجبته: "حاشا لله يا أبونا.. بل لديَّ أسئلة تهدم فكرة الوجود نفسه"!

كان في هذه المرة أهدأ وألطف بكثير، حتى إنه تركني أخرج كل ما في جعبتي:

- لماذا يُحاسبنا الله يا أبونا وكل شيء فينا وحولنا من اختياره وحده؟ هل يُحاسبنا أم يُحاسب نفسه؟

لقد جئنا إلى هذه الحياة في قوالب جاهزة، ووُضعنا في مسارات مرسومة بعنايةٍ شديدةٍ، دون أن يكون لنا فيها أي اختيار.. الأهل، والبيئة، واللون، والطول، وموعد الميلاد.. كلها أمورٌ لم نخترها رغم أنها تلعب دورًا رئيسيًا في تشكيل حياتنا.. وتقودنا إلى كل الاختيارات القادمة..

جميعنا يجري وراء المستقبل، لكن المستقبل لا يأتي أبدًا، وحينما نقترب منه يصبح حاضرًا بغيضًا فنواصل التفتيش عن المستقبل المزعوم الذي يحمل سراب الراحة والسعادة، والعمر يمضي دون أن أعرف من أنا، ولماذا أتيت، وإلى أين أسير.

إذا كنا أحرارًا حقًّا فما معنى القانون والأخلاق والأديان ولوائح العمل والحياة المدنية؟

القوانين يا أبونا تمنعنا من عمل أشياء، والأخلاق توبخنا إذا فعلنا أشياء أخرى، والأديان تخيفنا من أشياء ثالثة وتقيّدنا بضوابط وأوامر ونواهٍ، والمدنية تربط البشر بعجلة الأسرة والبيت والمصنع، وتضبطهم كالسعاة على مواعيد للنوم والصحيان.. كلها قيود في قيود.

كيف يمكن للإنسان أن يكون مُسيرًا ومقهورًا ومجبورًا بهذه الكيفية ثم يحاسبه الله فيعاقبه أو يجازيه؟ أين وجه العدالة الإلهية في القضية؟

أخشى أن المرء منا لا يملك إلا حرية قتل نفسه!

وحين تأكد أني أخرجت كل ما في جعبتي من تساؤلاتٍ وهواجسَ، أجابني بكل هدوء:

- تأملاتك مشروعة، وأسئلتك على قدر ما بها من جرأة، لكن ما أعظمها إن كانت ستصل بكِ إلى إجابةٍ تزيد من إيمانك، بدلًا من أولئك الذين يدورون في حلقاتٍ مفرغةٍ من التدين الشكلي الذي ورثوه ولم يفكروا فيه.

أول دليل على حريتك يا ابنتي هو تساؤلاتك في حد ذاتها.. راجعي ما قلتِ وستجدين أن لديك القدرة على الاعتراض، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة، وكلها أمورٌ ليست متوافرة للحيوانات أو الجماد اللذين نتحكم فيهما ولا يملكان أي خيار.. ولو نظرتِ إلى تأملات البشر في مثل تلك التساؤلات التي طرحتها لوجدتِ أن لكل منهم رأيًا مستقلًا ارتاح إليه عقله وقلبه، وهذا في حد ذاته اختيار يؤكد أننا مُخيرون، لكننا في الوقت نفسه مجبورون على الاختيار الذي حتى لو تمردنا عليه وقررنا ألا نختار فسيكون ذلك خيارًا في حد ذاته، ومن هذا الجبر نكون بالتالي مُسيرين أيضًا.

نهض من على مكتبه ولوَّح بيده بطريقةٍ مسرحية:

- سلي نفسك ما هو أنسب تعريف للحرية، وستجدي فطرتك تخبرك أن الحرية هي قدرتك على الاختيار بين متعدد، ومقاومة

القيود المفروضة.. فلا بد من قيود إذن نقاومها ونغالبها حتى تكون هناك حريةٌ وإلا لسقط معناها بسقوط القيود والجبر.. امتلاكنا لكل شيء في أي وقت معناه انتفاء أي نقص فينا ووصلنا لمرحلة الكمال، وحينها سنصبح آلهة ليست لها مطالب ورغبات، لأن المطالب والرغبات منبعها احتياجاتنا.. مشكلة الحرية دائمًا إنها رغبة تتأجج في الصدر ومقاومة تقف في سبيلها، حتى تنتصر الإرادة وتحصل على مبتغاها، وبانعدام الرغبة والمقاومة يسقط معنى الحرية لأنها تكون استهدافًا فارغًا إلى لا شيء، وتكون هي ذاتها لا شيء

لهذا خلق الله القيود..

بعضها يصل إلينا بالوراثة مثل الاسم والجنس والدين والوطن والجسم، وبعضها يصل إلينا من بيئتنا، مثل حر الطبيعة وبردها وأمراضها وناسها، والبعض الثالث من صنعنا وابتكارنا، مثل القوانين والأخلاق والنظم السياسية، لكن في النهاية لدينا عصا سحرية للتغيير اسمها الإرادة.

صحتُ فيه:

- لكن يا أبونا..

استوقفني بإشارةٍ من يده، وقال بحزم:

- اسمعيني للآخر، وإن لم تجدي ما يروي ظمأك للحقيقة سلي ما بدا لكِ بعدها!

أومأتُ له برأسي، فتابع:

- كل شيء في الكون حولنا يخضع لنظم وقوانين محسوبة تجعل لسلوكه بدايةً ونهاية.. حركة الشمس والنجوم والكواكب، دورات زراعة أنواع الفاكهة والخضراوات، ومواسم الحصاد، فصول السنة الأربعة، جميعها لا تملك تغيير المسارات المرسومة لها والخروج عن القوانين المنظمة لحركتها، إلا الإنسان.. وحده هو الحر المتمرد، الثائر على طبيعته وظروفه، ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه، ويستحيل في أي لحظة أن التنبؤ بمصيره..

في لحظة قد تطرأ عليه فكرة فيتحمس لتنفيذها، وفي لحظة قد يصرف النظر عنها ليلهث خلف فكرةٍ أخرى دون سببٍ واضح ومحددٍ.. هو كده.. مجرد إرادته سبب في غير حاجة إلى سبب.. هو المخلوق الوحيد الذي يبني نفسه بنفسه، ويولد كل يوم ميلادًا جديدًا، فيتطور ويتكون، وتتغير شخصيته وتدخل عليها التعديلات والتبديلات، وبالتالي هو المخلوق الوحيد الذي يملك ناصية أحلامه.

لكن هذه الحرية البكر الطليقة داخله سرعان ما تصطدم بقوانين العالم وقيوده حين تحتك به لأول مرة في لحظة الفعل، فيحدث الصراع بين الحلم والواقع.. بين الرغبة والإمكان.. وأول قيد يواجهنا هو الجسد نفسه الذي ترتديه أرواحنا كبذلة جبس ضيقة تتخبط فيها رغباتنا، وتخنق أحلامنا وطموحاتنا خلف مطالب لا تنتهي بالطعام والشراب والملبس والجنس، فنجري خلف اللقمة، ونلهث خلف الوظيفة، ونصارع على أهداف فرعية غير التي بداخلنا.

وفي نفس الغابة الإنسانية يجري معنا باقي البشر الذين يشاركوننا المأساة نفسها، ويخوضون نفس الصراع، على نفس الأهداف والأحلام التي لا تتسع للجميع، فنضيع في صراع التكسب حتى نفقد حريتنا.

وبعد أن نصطدم بأجسادنا، ثم أجساد الآخرين، يأتي الدور بعدها على الصدام مع باقي قوانين الكون من جاذبية الأرض، وضغط الهواء، ومياه البحار والمحيطات، التي تطالبنا بالانصياع لها والوفاق معها، فنكتشف أن كل هذه الصراعات لا حل لها إلا بالوفاق، وحسن الاختيار، والتفكير، الذي يجعلنا نمتطي العالم ونقوده حيثما نريد.

فحين نتوافق مع قدرات أجسادنا، نحولها من سراويل ضيقة تحبسنا في الجلد والعظام، إلى أيادٍ تصنع الطائرات فنطير دون الحاجة إلى أجنحة، ونطلق قذائف تزن أطنانًا إلى القمر، ونخترق الفضاء ونغزو الكواكب.

وحين نتوافق مع الناس ونسير في اتجاه نفعهم فإننا نكسبهم ونكسب معونتهم، ولا نتصارع على الحرية بقدر ما نتبادلها معًا.. فنحن نمنح جزءًا من حريتنا للعمل وأكل العيش، فيأخذ الآخرون ما قدمناه في عملنا نظير جزءٍ من حريتنا، وفي الوقت نفسه نتقاضى نحن أيضًا ثمن الحرية التي قدموها في عملهم، فننتفع بما صنعه العامل، وما زرعه الفلاح، وما كتبه الكاتب، وما شيده المهندس.

وحين نتوافق مع قوانين الكون ونضع شراع مراكبنا في مواجهة الرياح فإننا نسخرها لخدمتنا.. وحين نضع التوربينات تحت مساقط المياه تتولد الكهرباء.

حتى الأخلاق التي اعتبرتها قيودًا على حريتنا، ما هي إلا بمثابة إشارة مرور عند مفترق الطرق، تعطي البعض شارة حمراء ليتوقف، وتعطي البعض الآخر إشارة خضراء ليسير، حتى تُنظم حركتنا وتحمينا من الصدام، وإلا لتخبط الجميع، وتوقف المرور، وفقد كل سائق حريته في فوضى لا متناهية.

فحين تضبط أخلاقك شهوتك مثلًا، تكسبين حريتك وليس العكس، لأنك تصبحين سيدة نفسك لا جارية لغريزتك التي تطيح بعقلك في لحظاتٍ وتقودك وتتحكم فيكِ.

باختصار، فإن الحرية تكمن دائمًا في اكتشاف القانون الطبيعي والعمل في اتجاهه وليس ضده، ومن أجل هذا التحدي خلق الله الحياة وجعل الإنسان معجزة المتناقضات ليتعلم من تناقضاته كيف يسير مع التيار.. مخلوقٌ فانٍ ويحتوي على أفكار وإبداعات خالدة.. ميت ويشتمل على حي.. مقيدٌ بالزمن ويتجه للأبدية.. الدنيا كلها تقيده لكن كل قيود العالم لا تمنعه من أن يضمر في نفسه شيئًا، وأن يفرض هذا الشيء على ظروفه، فيصهر الحديد، ويسوِّي الجبال بالأرض وهو جسمٌ صغيرٌ هلامي من اللحم والدم، شكة دبوس كفيلة بإطلاق صرخاته.. يبدو ضعيفًا تقتله رصاصة بمليم، لكنه قادرٌ قبل وفاته أن يطلق صيحة تهدم نظامًا بأكلمه.



- وماذا عن الحب يا أبونا؟ هل نحن مُسيرون فيه أم مخيرون؟ وكيف نحصل فيه على الوفاق الذي تحدثت عنه فلا نحزن أو نفشل؟

ابتسم القُمص (يوسف) ابتسامةً حزينةً، وأجاب:

- في الحب أنا تلميذ بليد.. لو كانت لديَّ أي خبرة لما أصبحت قُمصا.

يا الله.. كانت أسئلتي مقدمةً لأفهم منه سر الحب وكيف ننال فيه حريتنا رغم قيود الظروف والقدر، فإذا به يُجيبني عن كل شيء إلا السؤال الأهم..

فهناك إجاباتٌ، تُقال أحيانًا دون الحاجة لأسئلة تُطْرَح، وهناك أسئلة وُلدت في ملجأ الحياة كطفلٍ غير شرعي، يبحث طول الوقت عن أبيه (الإجابة) دون جدوى!

"ألا توجد أي أخبار جديدة عن ذلك الفتى؟"

سألني القُمص في نهاية حوارنا، فأجبته بأسى:

- هذا أيضًا مثل الحب.. سؤال بلا إجابة.

....

بتُ أعشق النوم وأكرره بأقصى قدر ممكن على مدار اليوم، كشبعانة لا تكف عن الأكل حتى تنفس عن غضبها من الدنيا والأيام..

كنتُ أتسول من النعاس ومملكة الجفون المغلقة رؤية عابرة لطيفك.. كلمة يتردد فيها صدى صوتك الآتي من بعيد تُخبرني فيها عن حالك.. صورة مهزوزة لملامحك الأسطورية أروي بها ظمئي للقياك.. أي شيء يضع حدًا لتلك المأساة التي أحاطت بي ولم أجد معينًا لكسر حصارها.

حتى الموت الذي يخشاه الجميع ويفرون منه، بت أفتش عنه في أقداري المجهولة، لعله نومة طويلة تتخللها رؤياك التي ستغنيني في عالم الموتى، عن حياةٍ لا قيمة لها بدون النظر إلى عينيك.

لكن من قال إن في النوم راحةً لبائسةٍ مثلي، لا سيما أن داخله خيارًا مقرفًا اسمه الكوابيس؟

في هذه المرة كان كابوسي حريقًا ضخمًا ابتلع الجميع.. والأبشع أنه أخذ حبيبي مني في اللحظة التي عاد بها إلى أحضاني، وعلى طريقة السينما كان الحريق يلتهم الكُل بطريقة الـ"سلو موشن" وأنا أغني تلك الأغنية التي أعشق سماعها من (نبيلة معن) بصوتها الأسطوري، ولحنها المقتبس من ألحان السماء:

حين قالت وهي ترقى.. في سماواتِ الفتور

أوَتهوى يا شقيا؟.. هكذا سِحرُ العيون

وتُعاني ما تُعاني.. من ذهولٍ من جُنون

....

على مائدةٍ وضعتها في منتصف السطح، عليها فنجان قهوة ومطفأة سجائر لاستيعاب بقايا سيجارة بين إصبعيَّ السبابة والوسطى، ومقعد متهالك يطل على السماء، ما زلت أستمع لنفس أغنية (فيروز) الخالدة، وقد صار لها وقعٌ أجمل على القلب والحواس بعد أن تناولت على أنغامها ذات يوم قهوتي المفضلة وأنا أتطلع إلى عينيه في يوم صعب التكرار..

هل جلستَ العصرَ مِثلي.. بينَ جَفناتِ العِنَب

والعناقيدُ تدلَّت.. كثُريَّاتِ الذهب

هل فَرَشتَ العُشبَ ليلا.. وتلَحَّفت الفضَا

زاهدًا في ما سيأتي.. ناسيًا ما قد مضى

أعطني الناي وغنِّ.. وانْسَ داءً ودواء

إنَّما الناسُ سُطُورُ.. كُتِبَت، لكن بماء

أمسكت بهاتفي المحمول وتأملت حسابي على "فيس بوك" لبرهة، ثم ألقيت به على المائدة بحنق..

اللعنة على مواقع التواصل الاجتماعي التي جعلت من الاستماع لـ (فيروز) وشرب القهوة موضة أدعياء العمق والفكر والثقافة، من ذوي العقول الخاوية الذين يصنعون حولهم هالة زائفة بصور وكلماتٍ يرددونها كالببغاء، دون أن يفهموها أو يشعروا بلذتها في دواخلهم.

اللعنة على مواقع التواصل الاجتماعي حين تصبح جدباء مقفرة، خالية من كلمات المحبين، وحالات اليُمن، وصور جديدة مشرقة تملأ حياتنا بالشغف، ويطل من خوائها رسالة قدرية تتكرر بلا هوادة: "لقد أوشك رصيد الصبر على النفاد"، دون أن أعرف كيف السبيل لإعادة شحن البطاقة.

اللعنة على القهوة التي لم تعد تُصبِّرني على طعم المرار.. اللعنة على التبغ الذي لم يعد نيكوتينه كافيًا للتصالح مع غضبي واضطراب أعصابي.

اللعنة على اللعنة، وليذهب الجحيم إلى الجحيم.

أحسست بلمسة حانية على كتفي، فلم ارتجف أو أفزع، إنها لمسة الحاخام (موريس) الحانية الأرق من يد (دميانة) الخشنة..

رغم أحزاني التي غرقت فيها حتى أذنيَّ، إلا أني كلما شاهدته أضحك رغمًا عني على هذا الحاخام العجوز بدرجة (روميو) وهو يسير متبخترًا، متأبطًا ذراع (جولييت) الأشبه بمومياء غرب عنها جمالها وانحنى ظهرها، لكنهما لا يكفان عن تبادل كلمات الدلال والغزل في رومانسية متناقضة مع قساوة الحياة الأقسى من الموت نفسه، صانعيْن من حبهما الذي تم استئنافه في الوقت الضائع كوميديا سوداء تشبه مأساة سمكة ماتت من الغرق!

عَاوَدتُ بعدها البُكاءَ مجددًا بعد أن تخللته ضحكة استثنائية شذَّت عن قاعدة حياتي، قبل أن تمتد يد ذلك العجوز اليهودي الحنونة لتمسح دموعي وهو يسأل بابتسامةٍ مليئةٍ بالعطف الأبوي:

- أهو شعور بالعزلة والوحشة؟

أجبته بدموعي الساخنة دون أن أنبس ببنت شفة، فواصل:

- لو عانيتي ما عانيته وأنا وحيد بدون هذا الملاك الرقيق (ثم

منح دميانة نظرة رومانسية وتشابكت أصابعهما قبل أن يتابع) لأدركتِ يا عزيزتي أنك تعيشين الآن أجمل لحظات العُمر.

فدموع الحُب هي متعته.. وناره هي الاختبار الذي علينا أن نكتوي به لندرك ثمن جنته التي سنفهم بعد أن ندخلها أن الله خلقه مثل العاصفة.. تأتي فجأة ثم تمضي تاركة خلفها الخراب الذي تسببت فيه، فينحني العشاق لالتقاط ما سقط منهم، ويعيدون ترتيب حياتهم المبعثرة دون أن يشعروا في البداية بآلام الظهر جرَّاء الانحناء، لكن مع الوقت يشعر كل عاشق بالثقل الذي تُسببه إضافته إلى شخصٍ آخر، فتكون العزلة والوحدة هي وسيلة الحفظ الوحيدة ليبقى الحُب مجمدًا بذات المشاعر والأحاسيس في ثلاجة الحياة التي تحميه من أن يَذبل أو يُصبح حامضًا، حتى لا يكون مصيره أقرب سلة مهملات مثلما حدث مع قصص حب عشاق آخرين كانوا يُقسمون يومًا أن مشاعرهم لن تسقط كأوراق الخريف، لكنها خذلتهم وسقطت بعد أن تركوها مكشوفةً أكثر من اللازم دون حفظ.

تسلل الدمع إلى عينيْ (دميانة) التي كانت أكثر من يشعر بكل حرف يستنطقها وكأنها هي التي تتكلم، فمسح أسفل جفنيها بأربعة أصابع لم يكن الإبهام من بينها، ثم ضمها إليه بذراعه وهو يُكمل حديثه معي:

- صدقيني يا ابنتي، من يمرون بحالة بائسة مثلك، عليهم أن يقولوا مرحى بالدموع التي تجعلنا نعيش على أمل العثور على ما ضاع منا ذات يوم، بدلًا من ضحكاتٍ تنتهي بخوفٍ من الفراق والفقد بعد أن عثر أصحابها على السعادة بالفعل ولم يعد في انتظارهم سوى الوجه الآخر للظروف المستعدة لتقلب الصفحة الأخيرة في أي لحظة.. فالحب الباقي حقًّا هو الذي يؤسس على عزلة قلبين كل منهما منحه القدر فرصة ليرى الأمور بعد انفصاله عن حبيبه كميتٍ يراقب الدنيا من قبره ويكتشف بنفسه كيف ستصبح الحياة من بعده عند من يُحب، بفارق أنه موت مؤقت سيقوم منه يومًا ليقف أمام معشوقه من جديد، فإما أن تكون وقفة احتفاء، أو وقفة عتاب وتوبيخ.

العزلة تجعلنا لا نُخطئ عنوانًا جميلًا لكتاب يسكن الرفَّ البعيد

في مكتبتنا المليئة بكُتب لم نقرأها بعد، تجعلنا نعيد التأمل في كل اللوحات الرائعة، كل الموسيقى الخاصة بصوت الحنين، كل الأشواق والتَعلّق.. تجعلنا نُرسل برقياتنا عبر نور القمر والنجوم قائلين فيها لنصفنا الآخر: حتى وإن كنت هناك وأنا هنا وحيد فستظل وحدك معي، بجانبي، وكل الباقي كماليات لا مبرر لها.

متى تفهمين ذلك ستوقنين أن هذه العزلة تكشف عن تذوق للحب بمتعة أكبر، عن التناقض اللذيذ بين الحضور والغياب.. عن أهميةً الصمت الذي يُلهمنا الحكمة المناسبة في الأوقات المتأخرة من الليل بعيدًا عن ضجيج النهار، ودبيب البشر والدواب، فنرى الصورة بشكلٍ أوضح، ونضع أيدينا على ما وراء الظاهر من المشاعر والغرام.

ثم صمت وهو يتأمل عينيَّ اللتين زادت دموعهما الباكيتان، دون أن يسمع صوت نفسي المبهورة بكلماته وهي تردد بصوتٍ مفعمٍ بالألم:

- ما أعظم رجال الدين حين يكونون قديسين بدرجة عُشّاق، فيفكون شفرة الحُب بروحانية الدين وحكمة الوجع، التي لا يستقيها إلا من أحب لدرجة العشق.

حاولت ألا أبدو كئيبةً إلى الحد الذي يفسد فرحتهما وقد نالا من البؤس ما يكفي، فمسحت دموعي واختبرت قدرتي على التمثيل وأنا أبذل قصارى جهدي لتخرج نبرتي مرحةً حين قلت لهما:

- هيا استعدا.. أريد أن أفرح بكما قبل أن تسافرا إلى إسرائيل وتتركا لي هذه الغرفة لعلي أقاسم فيها من أحِب بعد أن يعود بعد "مائة عام من العزلة".

فكنت كمن قال نكتةً سمجةً، قبل أن يلتفت إليَّ (موريس) ويقول بجديةٍ شديدةٍ:

- محال أن أغادر الإسكندرية مرةً أخرى.. فهنا شتاء قديم وجميل خبأته في عيون البلاد التي رحلت إليها مضطرًا، كي لا يضيع مني وسط شعوري بالاغتراب وأنا أبحث في كل الوجوه والأشياء عن كل ما هو سكندري.. مُدن وأحلام، شواطئ وسُفن، رحلة

مؤلمة انتهت بعودتي إلى منبتي من جديدٍ بطريقةٍ جعلتني أغفر للحياة قسوتها بعد أن أظهرت لي رغبتها في التصالح معي.. فالإسكندرية يا ابنتي هي المدينة العريقة التي كان يأتيها الناس من كل مكان للعيش فيها، لكني أنا لم أفكر بها إلا كمدينة جميلة يمكن الموت فيها وهذا بالنسبة لي قمة الرضا.

انقبض قلبي مع كلماته.. ربما لذكر سيرة الموت، وربما لأن هذا يعني أنهما قد يتزوجان في تلك الغرفة ولا يبقى لي سوى الشارع..

"اطمئني يا فتاة.. فموريس يقوم الآن بتصفية كل ما يملك في الخارج وسنشتري شقة صغيرة نعيش فيها ما بقي لنا من العمر.. هل جال بخاطرك أني سألقيكِ في الشارع بعد كل هذه العِشرة؟"

قالتها (دميانة) بنبرةٍ مشاكسةٍ وقد قرأت نظراتي الممتقعة، فسألتها بدهشة:

- وهل ستوافق الكنيسة على زواجكما؟

نظرت (دميانة) إلى (موريس) وتبادلا ابتسامةً حزينةً قبل أن تقول:

- ولماذا ألهث وراء إرضاء البشر والرب نفسه أخبرنا أن الله محبة.. ما الذي سيضيفه موريس للمسيحية أو أضيفه أنا لليهودية لو خدعنا الرب وغيرنا عقيدتنا، لا من أجل إيمان وقناعة حقيقية؛ بل من أجل إتمام زيجة أيامها في الدنيا معدودة.. فمنذ آلاف السنين وجيوش البشر تتطاحن، كل فريق يرى أن دينه هو الصواب، ولم تنجح السيوف والقذائف في حل المسألة بشكلٍ نهائي، وبالتأكيد البشرية لا تنتظر عجوزين مثلينا لحل معضلةً المعضلات التي لم يحسمها يسوع نفسه بشكلٍ نهائي حين كان على الأرض.. ثم إن العهد الجديد في المسيحية لا يمكننا أن نفهمه ونشعر بعظمته بدون الإيمان بالعهد القديم التوراتي.. لنكتفي بالحب ولنترك أمر الإيمان بيد الله عند ملاقاته.

شجعني سياق الكلام على الإفراج عما يجيش في صدري تجاه مسألة الخلاف بين المسيحية واليهودية، رغم أني لست قديسة ولا متبحرة بالدين، لكن مناقشة حاخام كانت فكرة رائعة تنبع روعتها من أنها قد لا تُتاح في

العمر سوى مرةٍ واحدةٍ، لذا سألت (موريس):

- سيدي، بالفعل مسيحيتنا تعترف بأسفار التوراة الخمسة، وتعتبرها جزءًا لا يتجزأ من عقيدتنا، فإذا دخلت ديننا فستجد نفس الأسفار التي تؤمن بها بالفعل ومعها عهدٌ جديدٌ سيضمن لك أن تكون مع حبيبتك في الجنة أيضًا.. ألا يبدو ذلك أكثر إغراء من التشدق بملاقاة بعضكما في آخر أيام العمر ثم تعودان لافتراق أبدي؟

رد على سؤالي بسؤالٍ بدا لي ساذجًا حين قال:

- ولماذا لا تؤمنين أنتِ باليهودية ما دامت في صميم عقيدتك؟

أجبته بعقلانية:

- لو آمنت أنت بالمسيحية، فستؤمن بأسفارك ومعها أناجيلنا التي حوَت استكمالا لناموس الرب الذي يحمل المحبة والخير لكل البشر، بما يجعل الفوز بالجنة أمرًا مؤكدًا، في حين لو آمنت أنا باليهودية وحدها وثبت في الآخرة أن المسيح الذي صلبتموه كان على حق، فسيكون مصيري ومصيرك النار.

ابتسم وأجاب:

- هذا منطقٌ رائعٌ يُشبه ما ساقه لي أحد أصدقائي المسلمين حين قال لي ذات يوم: "حتى وإن كانت اليهودية هي الصواب، فستدخلون الجنة ونحن معكم لأننا نؤمن بموسى كليم الله ورسالته السماوية، ولو ثبت أن المسيحية هي الصواب فسندخل الجنة مع النصارى لأننا نؤمن مثلهم بتعاليم المسيح الراقية وطهارة أمه العذراء البتول التي نزلت فيها سورة قرآنية كاملة"، فهل تُطبّقين منطقك الخاص على نفسك وتتحولين إلى الإسلام؟

بُهتُ من سؤاله وأنا أهز رأسي بالنفي دون أن أعرف ما أقول، فاتسعتْ ابتسامته وأردف:

- ما الذي سيضيفه تحولي للدين المسيحي لو كنت مسيحيًا استباح دم إخوانه المسيحيين مثلما حدث في مذبحه (سانت

بارتليميو) في الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٥٧٢ حين انقض الكاثوليك بمباركة البابا جريجوري الثالث عشر على البروتستانت أثناء أحد الأعياد وذبحوا منهم الآلاف وشنقوا العديد علي أغصان الشجر، وبلغ عدد القتلى في هذه المذبحة أكثر من ٣٠ ألف قتيل نتيجة لظهور المذهب البروتستانتي الذي لا يعترف بسلطة البابا*

هل كان المسيح سيفتخر بي لو كنتُ واحدًا من الإنجليز الذين حاولوا إخضاع أيرلندا دينيًا بفرض المذهب البروتستانتي لتستمر الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت من بداية القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر؟

ماذا لو كنتُ مسيحيًا وشاركت في حرب الثلاثين عامًا التي اندلعت بين الكاثوليك والبروتستانت في أغلب دول أوربا سواء ألمانيا أو فرنسا أو النمسا او إسبانيا من عام ١٦١٨ إلى عام ١٦٤٨ فأسفرت عن إبادة ثلث الأوربيين، وهبطت بسكان ألمانيا وحدها من ٢٠ مليون نسمة إلى ١٣,٥ مليون نسمة، وانخفض تعداد الرجال في أوربا كلها لدرجة أن رجال الدين المسيحي قاموا بتشريع تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم، وقالوا بالنص: "لا يُقبَل في الأديرة الرجال دون الستين، وعلى القساوسة ومساعديهم إذا لم يكونوا قد رسموا، وكهنة المؤسسات الدينية، أن يتزوجوا، ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين ؟!**

يمكنك أن ترجعي للتاريخ لتقرئي أيضًا عن الحرب الأهلية التي اندلعت في إسبانيا بين الكاثوليك والبروتستانت بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ وبلغ عدد القتلى فيها ٣٠٦ آلاف شخص، من ضمنهم ٦٨٤٥ رجل دين كاثوليكيًا تم ذبح معظمهم كالخراف، بخلاف استعباد الرجال البيض للهنود الحمر والأفارقة في أمريكا التي انتشرت فيها المسيحية بحد السيف باعتراف بابا الفاتيكان.

* من كتاب (معجم الحروب) للكاتب د.فردريك جروس برس.

** من موسوعة (قصة حضارة) للمؤرخ وول ديورانت.

واذا كنتِ اليوم تقرئين أسفار العهد القديم ولا يكتمل إيمانك الأرثوذوكسي إلا بها، فلتعلمي أنه ما كان ذلك ليحدث إلا بفعل تلك الحروب الشنيعة التي اشتعلت بين الكاثوليك والبروتستانت، ليحصل بموجبها المحتجون على كتب العهد القديم بعد ما كانت حبيسة الأديرة، ويصبح في متناول الجميع قراءتها وترجمتها، بعد أن كانت في يد رجال الكنيسة الكاثوليكية وحدها.

بحثت عن كلمات أهرب بها من تحدٍّ تأكدت أن لساني كان يستحق أن يُقطَع قبل أن ينسحب مني ويزج بي في معركةٍ لا قِبَل لي بها قبل أن يقطع (موريس) عليَّ أي أمل في الانسحاب مستدركًا:

- وفي الإسلام نفسه لا يختلف الأمر كثيرًا.. فما أن مات نبيه حتى تقاتل المسلمون فقتلوا الصحابي والخليفة عثمان بن عفان، ثم اقتتلوا في موقعة الجمل، وموقعة صفين، وتفرقوا إلى سُنة وشيعة وفرق ومذاهب وجماعات.

وحين دعاني صديقي المسلم للتخلي عن معتقدي اليهودي ودخول الاسلام، واصفًا يهوديتي بالكفر الذي سينتهي بي إلى نار الله في الآخرة أخبرته بتلك القصة الجميلة عن النبي محمد وجاره اليهودي الذي كان يلحق به الأذى والرسول يصبر عليه، وعندما مرض اليهودي زاره النبي فخجل اليهودي من أخلاقه ودخل الاسلام، حين كانت تصرفات وأخلاق محمد كانت هي مقياس اليهودي للإعجاب بالإسلام واعتناقه قبل حتى أن يقرأ ما في القرآن، وسألت صديقي حينها: "تُرى ما الذي سيغري به المسلمون اليوم يهوديًا مثلي لدخول الإسلام؟".

تلعثم صديقي وقتها، فأخبرته أن المسلمين اليوم مذاهب متعددة والكثيرون في كل مذهب يعتبرون أبناء المذاهب الأخرى كافرين ويحللون قتلهم، وسألته مجددًا: "هب أني أردت دخول الإسلام، فهل أدخله من باب السنة أم الشيعة أم المذاهب الأخرى؟ وفي أي منها أعيش فيه بسلام ولا يحل دمي على يد مسلمٍ مثلي لا سيما أن المسلمين يُرددون كلامًا مقدسًا للنبي محمد بأن الإسلام سيتفرق إلى ٧٠ فرقة جميعهم سيعذبهم الله في النار باستثناء فرقةٍ واحدةٍ ستدخل الجنة، وكل فرقة تدّعي أنها هي

الفرقة الناجية؟

وأخيرًا وحتى لا أطيل عليك، فقد قرأت تقريرًا تم تقديمه للأمم المتحدة يتحدث عن ٨٠ ألف مسلم تم قتلهم في سوريا خلال سنتين فقط بأيدي المسلمين سواء من النظام أم المعارضة، ورأيت مقطع فيديو لأحد مقاتلي المعارضة وهو يخرج قلب جندي ويأكله، فأي مسلم هذا الذي يأكل قلب أخيه المسلم؟

كما قرأتُ إحصائيات عن عدد القتلى في العراق خلال الحرب الأهلية المذهبية بين السنة والشيعة، ووصلوا لأكثر من ٢٨٠ ألف عراقي غالبيتهم العظمى مسلمون وقليل جدًا بينهم مسيحيون، ونفس ما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت في حرب الثلاثين عامًا في أوربا، ما زال شبحها يُخيم على الأجواء بين السنة والشيعة المسلمين منذ ١٤٠٠ عام, كحرب مفتوحة النهايات، ولا أحد سوف يضع خاتمة لها سوى نظام قوي يضع السني والشيعي في زنزانةٍ واحدةٍ لو تخاصموا يومًا على أساسٍ ديني أو مذهبي، لتكون الدول العلمانية الديمقراطية هي السدادة الملائمة التي تُغلق فتحة القنينة التي تتسرب منها غازات الطائفية السامة.

ابتسمت (دميانة) رغم هول كلماته المفزعة والتقطت من كلامه طرف الخيط قائلة:

- مهلًا يا عزيزي، فكلماتك قد تجعل هذه المسكينة تعتقد أنك عنصري تُمجد من يزعمون أنهم شعب الله المختار.. أخبرها أن اليهود أيضًا منقسمون لقرائين وربانيين، بخلاف أولئك السامريين الذين وردوا في الأناجيل بوصفهم جماعةً منبوذةً ومحتقرةً وما زال احتقارهم ممتدًا حتى اليوم حتى إن بعض اليهود في المجتمع الإسرائيلي ما زالوا يعتبرون السامري مصدر نجاسة، ويوقفون الحافلة أحيانًا لإنزال السامري منها، بخلاف التفرقة العرقية بين اليهود الأشكيناز واليهود السفارديم في إسرائيل.. عد معها أيضًا بالتاريخ والأسفار واحك لها كيف شن اليهود حروب إبادة ضد بعضهم البعض منذ آلاف السنين وخير شاهد على ذلك إبادة بني إسرائيل لسبط بنيامين حين رجع رجال بني إسرائيل إلى بني بنيامين وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها، حتى البهائم

وكل ما وُجد، وأيضًا جميع المدن التي وُجدت أحرقوها بالنار، وقتل يفتاح الجلعادي من سبط أفرايم 42 ألفًا وجميعهم من بني إسرائيل.

تنهد (موريس) بأسى، وقال:

- نعم يا حبيبتي، بخلاف تبرؤي التام من كل ما فعله الإسرائيليون تجاه الفلسطينيين من مجازر ومذابح أغلبها بدون وجه حق، والغريب أن كل هذه الوقائع المؤسفة حدثت بين من يزعمون أنهم ينتمون لأديان سماوية ووصلت أعدادهم لنصف تعداد سكان البشرية، وهذا يثبت أن النجاة من عذاب الرب لا يتم بالانتماء لدين بحد ذاته وكفى.. فالبوذي أو الهندوسي أو الزرادشتي أو الشنتو وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى، الذين لم تنغمس أياديهم في دماء البشر أشرف عندي ممن يفتخر بدينه السماوي الذي يجعله يستحل إزهاق الأرواح من بني الإنسان بدون وجه حق.

ثم صوَّب بصره نحوي وهو ينهي كلامه قائلًا:

- كل أبناء الأديان في النار ما لم يرتبط انتماؤهم الديني بمحبة حقيقية لإخوانهم في نسل آدم وحواء، وترك أمر الحساب بيد من له السلطة العليا في هذا الكون فحسب.

....

استقبلني العزيز (ألبرت) بابتسامته المرحة وروحه الشفافة في مبنى الخدمات، مؤكدًا أنه افتقدني كثيرًا، وأمَّن على كلامه كل من (أندرو) و(أمير) وعدد آخر من شباب وفتيات انضموا لفريق (تسابيح) بعد أن قررت الكاتدرائية إحياء حفلٍ ضخمٍ تُلقى فيه الترانيم المسيحية والأناشيد الإسلامية، ولم يعد باقيًا سوى اختيار المنشدين المسلمين، وبدء البروفات، قائلين إنهم كانوا سيتصلون بي اليوم، لكنني سبقتهم وجئت بنفسي لأنني -يا سبحان الله- ابنة حلال.

لم أهتز للخبر السعيد الذي قام على فكرتي التي أيدها القُمص (يوسف)، ولم أبد أي تحمس واستعداد للمشاركة في الحفل.. فكل ما كنت أشعر به وقتها هو اختناقٌ شديدٌ وكأن أحدهم جرد الهواء من الأكسجين، أو بمعنى أدق جرَّد المبنى من الشاب الوسيم.

ما أن لمحني الأطفال حتى التفوا حولي وسألوا عن صديقي الذي تعلقت به القلوب، فسألتهم بالمثل عن ذلك الصغير الذي كان لديهم رسمة رائعة له، فأتوا به وكأنهم قبضوا على لصٍّ خطير أعلنت الشرطة عن مكافأة مجزية لمن يقودهم إليه، ولم أتركه إلا بعد أن أخذت منه رسمته مقابل 10 جنيهات فطار من الفرح وهو يأخذهم، وطرت أنا من السعادة وأنا أمسك آخر ما تبقى من حبيبي، بفارق أن سعادتي كانت بطعم الدموع.

بدون قصد جلدني الجميع وهم يسألون عنه، وقد نمى إلى مسامعهم أنه رحل بشكل مفاجئ دون أن يعرفوا السر، وظنوا أني قد أعرف التفاصيل، وعلى رأسهم عم (حنا) الذي نافسني بحزنه وعينيه الباكيتين على غيابه.

ما الذي أتى بي إلى هنا؟!

آه، نسيت.. إنها (كريستين)..

اتصلت على هاتف حبيبي في ساعة متأخرة من الليل، والغريب أنها لم تندهش حين قمت بالرد عليها.. قاطعت فظاظتي عندما صحت فيها: "عايزة إيه" بنبرة بكاء ثم طلبت مني بصوتٍ باكٍ متقطع الحروف أن ألتقي في مبنى الخدمات.

أخذت أبحث عنها بعيني دون أن تظهر في حيز الرؤية قبل أن يباغتني صوتها من الخلف:

- أنا هنا.

التفتُّ نحوها، واكتشفت أن عيني قد مرَّت عليها لكنها لم تميزها.. فما كانت هذه ملامحها الجميلة بعد أن دب فيها الهزال والشحوب وفقدت ما لا يقل عن 25 كيلو من وزنها، ولا كان هذا اللبس المحتشم هو لبسها!

بعدها بدقائق كنا نجلس في أحد الكافيهات في مائدة بركن قَصيٍّ، بعيدٍ عن زحام الشباب والفتيات وضجيجهم، وبدأت تقص عليَّ مأساتها.

- أنا مصابة بمرض نادر وخطير لا يقل في خطورته عن سرطان القولون، وهو القولون التقرحي الذي يحرق القولون ويتسبب في الإسهال المصاحب بنزف كتلٍ من الدم، وآلام شديدة بأسفل البطن، مع الإحساس بفقد الشهية والضعف العام وقلة الوزن،



ولا بد من استئصال القولون في أسرع وقت وسأضطر بعدها أن أعيش والمصران خارج بطني.

لمعت عيناها بالدموع، ففرّت من مواجهتي بالنظر للأسفل وتابعت:

- حدث ذلك بشكلٍ سريع ومتلاحق، بعد أن حاولت إغراء ذلك الوسيم لأنام معه.. فطالما عشقت تعذيب كل ذكر ساقه حظه العاثر ليمر في حياتي حتى وإن كان ذكر العنكبوت!.. لعبت بالجميع وجعلتهم أضحوكة ألهو بها لتمضية أوقات الملل.. استمتعت ببكائهم وتوسلاتهم.. بعضهم قبّل حذائي وبعضهم ركع أمامي بلا أدنى تفكير حين أخبرتهم أن هذا شرطي لأتأكد من صدق مشاعرهم.. وحده الذي حطم أسطورتي وأذل أنفي.. وحين قابلته بعد أن غادر الشاليه وحكيت له ما كان بلهجة متفاخرة يملأها الزهو، وأكدت له أني لن أتركه مهما كان، قال لي بلهجةٍ لن أنساها ما حييت: "طالما سقط من هم أكثر منك جبروتًا وقوةً بأتفه وأحقر الأسباب مثل مرض عضال لم تُجدِ معه حيلهم وأساليبهم.. أسأل الله أن يطهرك قبل فوات الأوان".

ثم بكت بحرقةٍ وهي ترفع رأسها نحوي ببطء:

- ها هي ذي دعوته تُستجاب، ليطهرني المرض ويذل ناصيتي لأدرك مؤخرًا أن كل جمال مصيره إلى زوال، وكل قوة مآلها إلى ضعف، وكل المشاعر الجميلة يُزايلها القدر، لتبلى وتفنى مثل الرماد.

تمامًا مثلما أدركت أن رأس المال الحقيقي، ليس الأشياء التي يملكها المرء في يده أو في رصيده البنكي، ولكنها الأشياء التي يستطيع أن يستغنى عنها ويعيش بدونها مهما كانت غالية أو ثمينة في نظر باقي الناس.. فطوبى لأغنياء النفس.

سأترهبن يا آيات، وكنت أتمنى أن يكون فتاكِ موجودًا مكانك اليوم لأطلب منه أن يصلي من أجلي.. فهذا الفتى موصول بالله بشكلٍ أو بآخر رغم ماضيه الذي نجهل عنه كل شيء.

* * *



فقدت هاتفي المحمول، لذا طلبت من الشيخ (خضر) قلمًا وأوراقًا حتى أواصل تسجيل كل ما أمر به وأتعلمه بالكتابة بدلًا من الصوت، بعد أن اكتشفت أن التدوين ليس خيارًا أو رفاهية لمن يخوض رحلة عجيبة كرحلتي، لعله يعثر على نفسه بين السطور.

كان ذلك بعد أن عدت معه إلى بيته القديم المكوّن من 4 أدوار، وتربط بوابته سلسلة حديدية ضخمة، ما أن فتحها لندخل ثم أغلقها من الداخل وبدأنا نصعد إلى أعلى حتى وجدت أن كل الشقق مفتوحة دون أن تكون لها أبواب تغلقها، وكل شقة مَلأى بمئات الكتب التي تغطي حوائطها وأرضيتها، صانعة ممرات ضيقة تكفي للمرور من بينها بالجنب إذا ما أردت الدخول، بخلاف ألوف الوثائق الملفوفة والمطويات المحفوظة خلف زجاج سميك.

"هنا يقبع رأس مالي الوحيد الذي أخشى عليه من الضياع، والكنز الحقيقي الذي لا يُقدّر بثمن، ومن حسن الحظ أنه الكنز الوحيد الذي لا يجذب اللصوص والخطافين رغم بريقه الأخاذ وقيمته اللامحدودة لو كانوا يعلمون".

قالها عم (خضر) وهو يواصل صعوده على السلم دون أن يلتفت نحوي، وهو على يقين أن عينيّ تتأملان المشهد المبهر بأعتى علامات الدهشة والتعجب.

"إنها نفائس العلم الذي جمعته من منابعه الأولى بكل اللغات على مدار سنوات طويلة.. بعضها لا توجد نسخ أخرى له على وجه الأرض سوى في هذا المكان".

جاءت جملته الثانية حين وصلنا إلى السطح المفروش بالحصير، وتراصت فوقه مجموعةٌ من الوسائد على غرار (القعدة العربي)، وتتوسطها صينيةٌ عريضة القطر، ذات لون ذهبي لامع، وعليها نقوش تُشبه تلك الموجودة على الكئوس النحاسية المتراصة فوقها، وعلى إحدى الوسائد كان هناك جهاز حاسوب محمول علمت أن اسمه "لاب توب".

أما في ركن السطح، فكان هناك موقد كيروسين عليه برَّاد ضخم من المعدن، يكفي كمية كبيرة من الماء، وإلى جواره برطمانات من الشاي والقهوة والسكر واليانسون وغيرهم من فصيلة المشروبات الساخنة.

"هنا نقيم الحضرات مع أهل الله وأحبائه الطامعين في العروج إليه في ملكوته، والتنعم بأنواره المتجلية حول سبحات وجهه الكريم، وكل إنسان يعرج بقدر عشقه الإلهي والإيمان الكامن في قلبه ومتغلغل في كيانه وروحه".

دفعتني كلماته للنظر نحو السماء في تلك الليلة المقمرة التي تلألأت فيها النجوم المتناثرة في صفحة السماء فشعرت وأنا أتأملها أني وحدي في هذا الوجود المضيء، وأن الأرض ومن عليها قد خُلقت لأجلي، غير أني لم أفهم كيف ينفذ الإنسان عبر أقطار السماوات في الأعالي إلى عالم الملكوت وقدماه لا تزالان رابضتين هنا في الأسفل، ولم أخرج من تلك الحالة العجيبة إلا ويده تربت على كتفي وهو يردف مبتسمًا بعد أن اختلس نظرة نحو السماء ثم صوَّب بصره نحوي وقال بلهجته المعتادة كقارئ أفكار لم أر له مثيلًا:

- سترى كل شيء بنفسك يا ولدي.. فالإيمان لا يأتي إلا بالتأمل، والتجربة، والإبحار في آيات الله حولنا، وفي أنفسنا.. وسأتولى تلخيص وشرح ما جاء في كل الكتب والوثائق التي بهرتك كثرتها بعد أن صرت حافظًا كل حرف فيها.. فقد خضت رحلة طويلة أخشى أن الوقت المتبقي لك لن يكفي لتخوضها، وليس على الإنسان أن يمر بكامل خبرات الآخرين ليصل إلى ما وصلوا إليه فافهم!

ثم أعد الرجل لنا كوبين من الشاي وبدأ يحكي..

"ينتمي أنبياء اليهود والمسيحيين والمسلمين لأصلٍ واحدٍ وهو نبي الله إبراهيم عليه السلام، وبدون تتبع الخيوط والأنسال والوصايا والتعاليم التي بدأت من الجد الأكبر إبراهيم بعد أبينا آدم، سيكون من العسير علينا العثور على رابط منطقي بين تلك الجزر المنعزلة التي يعيش فيها أتباع هذه الأديان، فتعال نبدأ الحكاية من عند أبي الأنبياء".

وقبل أن يواصل خضر حديثه قاطعه هذه المرة صوت السماء ونداء

الخالق متمثلًا في أذان الفجر، فابتسم وقال لي:

- لن أدعوك للصلاة بجسدك حتى تؤمن بقلبك أولًا، فقط تعال معي إلى المسجد واسأل الله بكل كيانك أن يأتيك من لدنه رحمة، وأن يهيئ لك من أمرك رشدا.

....

انتهى الخضر من حكاية قصة الخلق منذ أبينا آدم حتى بعثة نبي الإسلام محمد بن عبد الله، ولمست فيما حكى الكثير من الأمور المشتركة بين جواهر الأديان الإبراهيمية..

وما كنت لأفهم الصورة الكاملة للإسلام بدون الجذور القصصية والتاريخية التي وردت في العهدين القديم والجديد، والتي جعلتني أعرف أسماء وتفاصيل تمت الإشارة إليها بأسلوبٍ رمزي لا سيما في قصة موسى مع قومه، إذا جاء في القرآن :{قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}، فعلمت أنهما كالب بن يفنه ويوشع بن نون الذي قاد بني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة وهزيمة الكنعانيين.

وحين قال القرآن: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين}، علمت أن هذا النبي اسمه صموئيل، مثلما علمت أن شاول في العهد القديم هو طالوت في القرآن، وجليات هو جالوت، وغيرها من الأسماء والتفاصيل.

والمذهل أني وجدت نفسي – للمرة الثانية– حافظًا لبعض آيات القرآن التي أنزلها حتى إني كنت أرددها في أحاديثي قبل أن أعرف أنها مأخوذة من كتاب مقدس يؤمن به ملايين البشر، تمامًا مثلما حدث معي في بعض الآيات الإنجيلية!

لكن بعض الخلافات بين التوراة والإنجيل والقرآن كانت مربكةً بحق، إلى حد أعيى عقلي عن الاستيعاب والفهم..

فقصة ذبح إسحق في التوراة والعهد القديم وفدائه بكبش عظيم، وجدتها

في القرآن تنطبق على إسماعيل بن إبراهيم وهاجر، وكل الأنبياء الذين وردوا في الإسلام نزهتهم الآيات القرآنية والسيرة النبوية عما علق بهم من خطايا وآثام وموبقات، فلم يذكر الإسلام بأي حالٍ واقعة زنا بنات لوط عليه السلام بأبيهما، ولا كراهية يعقوب لأخيه عيشو واحتياله عليه ليأخذ البركة من أبيه إسحق بدلًا منه، ولا مصارعة يعقوب لربه يهوه وانتصاره عليه حتى أخذ البركة منه وتحول اسمه بعدها إلى إسرائيل، وكلها وقائع قرأتها في سفر التكوين، بخلاف زنا داود بزوجة أحد قواده، ثم تآمره على قتله بعد ذلك كما جاء في سفر صموئيل الذي ذكر أيضًا ما قام به داود وشاول (طالوت) من احتيال وسفك دماء الكهنة الصالحين والأبرياء من النساء والأطفال والرضع دون أرى لذلك مثيلًا في الإسلام.

حتى قصة موسى التي استفدت من قراءتي التوراتية في فهمها في السياق القرآني جاء في سفر الخروج أن أخاه هارون هو الذي صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل حين صعد موسى الجبل لميقات ربه وأخذ الألواح المقدسة التي فيها وصايا وتعاليم الرب، بينما نفى القرآن ذلك وقال إن من فعل ذلك كان شخصًا يُدعى السامريُّ.

أما مفهوم الرب نفسه بين الثلاثة أديان فكان الاختلاف فيه من أعجب ما يكون..

في العهد القديم التوراتي شعرت أن الرب يهوه مثله كمثل إمبراطور أو ملك يتحدث مع البشر كمن يخطب في جنده، فهو يتعب ويستريح وينام، ويغير، ويغضب ويتشكل في صورة بشر.

وفي العهد الجديد يأخذ طبيعة إنسانية ناسوتية فينزل في صورة يسوع ليفدي البشر من خطيئة أبيهم آدم ويُصلب من أجل خلاصهم رغم أنهم لا ذنب لهم في خطيئة لم يقترفوها من الأساس.

وفي الإسلام نرى الرب بقدراتٍ لا نهائية، تجعله مع مخلوقاته طول الوقت دون أن يحتويه زمانٌ ولا مكانٌ، ووجود عرشه فوق سبع سماوات لا يرتبط بوجوده هناك دون الأرض أو أي مكان في الكون الفسيح.. صفاته غير محدودة، وأفعاله لا يحدها حد، لكني لم أفهم بعد كيف يمكر الإله، وما جدوى وجود الجنة إن كان الله قد قال: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»؟!

«ما كل هذا التخبط الذي تركنا الله فيه يا شيخ خضر؟»

قلتها وأنا أشعر بحيرةٍ لا نهاية لها، فأجاب:

- الله لم يخلق التخبط.. كما لم يخلق الشر.. إنما انعدام الطيبات من حياتنا هو الذي يحيلها إلى خبائث.. فالشر في حقيقته انعدام الخير.. والتخبط في حقيقته انعدام المعرفة.. الشيطان ينفي الطيبات ليعم الخَبَث يا ولدي ويسهل الإغواء.

- ولماذا تركنا الله في حيرةٍ تفوق قدراتنا ثم يحاسبنا في النهاية على حمل ما لا طاقة لنا به؟

- لو لم يكن لك طاقة به لما حمله لك.. هكذا قال في كتابه العزيز: {ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به}.. فرغم كل هذه الشرور والتخبط.. منحك الله عقلا ليفكر، وقلبًا ليستشعر.. منحك الورقة والقلم لتدوِّن.. منحك صفحات التاريخ والعلوم والمعارف لتقرأ، فإذا ما أخلصت النية واجتهدت حقًا، استطعت ربط كل المتفرقات وحكْت منها ثوب الهُدى والفهم ليرتديه عقلك وقلبك الحائران وتصبح من العارفين، لذا كان أول أمر إلهي في الإسلام: "اقرأ"، حتى تخرج البشرية من جهلها وضلالتها، وتصل إلى الحقائق التي زيفها الشيطان وعبث بها وشوهها لتكون معينًا له في رحلة الإغواء التي بدأت منذ عهد أبينا آدم.

يقول المولى عز وجل: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.. كنت أعتقد في البداية أن المشيئة المذكورة في الآية تعود على الله الذي يهدي من يريد الله له الهداية، لكني اكتشفت فيما بعد أن كلمة (من يشاء) في الآية تعني الشخص الذي يريد الهداية ويسعى لها، لذا أعقبها بقوله: {وهو أعلم بالمهتدين}، أي الذين يريدون نور الهدى ويبحثون عن الحقيقة، وكل إنسان سيُحاسب على قدر صعوبة الاختبار والابتلاءات التي مرَّ بها.. فمحاسبة الله للإنسان الفقير الضعيف المقهور لن تتساوى بمحاسبته لذي الجاه والمال.. ومحاسبة الشخص السليم الصحيح لن تتساوى بمحاسبة ذي العاهة والمرض.. ومحاسبة الشخص الذكي لن تتساوى بمحاسبة محدود الفكر.. لكن جميعهم على اختلافاتهم عليهم واجبٌ مشتركٌ هو عبادة الله حق عبادته، والتأمل والتفكر وعدم التقصير في الفهم والبحث والتحري ومحاولة الوصول للحقيقة.. حتى أولئك الذين على صواب لمجرد أنهم ورثوه سيحاسبهم على

الاكتفاء بالوراثة.. فما جدوى الصواب لو لم يقتنعوا به ويستقر الإيمان به في قلوبهم عن حق.

ستجد يا ولدي الأمر صعبًا وشائكًا، وستشعر باختلاط الأمر عليك كثيرًا، لكن ثق أن تمسكك بحبل الله سيجعلك في مأمن من سهام القدر.

- إن كان الله تعالى يرمينا بسهام القدر التي تُصيبنا، كيف لنا بالنجاة؟!

- كن بجوار الرامي تنجو!

....

لي حبيب أزوره في الخلوات .. حاضر غائب عن اللحظات

ما تراني أصغى إليه بسري .. كي أعي ما يقول من كلمات

كلمات من غير شكل ولا نقط .. ولا مثل نغمة الأصوات

حاضر غائب قريب بعيد .. لم تحوه رسوم الصفات*

هزتني تلك الأبيات الشعرية التي رددها الشيخ خضر في حضرة العشق الإلهي التي يردد فيها أشعارًا قالها سادة وأقطاب التصوف، وتحمل معاني عميقة تحتاج للتفكر والتدبر فيها مرات ومرات، ومع كل مرة يتضح بها دلالة جديدة وإشارة خفية، ويشاركه في ذلك تلك الجماعة التي تجتمع معه كل يوم بعد صلاة الفجر كل يوم، فيجلسون يذكرون الله بتسابيح ومحامد ومشاكر بكلمات شديدة الجمال والروعة، وبأصوات خلابة شجية لا أدري متى سمعت أصواتًا تُشبهها لكني أشعر معها بالألفة الشديدة، ومع كل حرف في الأذكار والتسابيح يزداد انتفاضهم وتأثرهم حتى تحل بهم أحوالٌ غريبةٌ وكأنهم ذهبوا لعالم غير العالم، يشاهدون فيه مخلوقات لا وجود لها إلا في أعينهم وينجلي أثر ذلك في ملامحهم ونظراتهم، ويصلون على النبي محمد حتى تفيض أعينهم بالدمع، وهم يبدون جل أشواقهم للقائه في الفردوس الأعلى، والشرب من يده الشريفة شربة هنيئة لا يظمأون بعدها أبدًا.

---

* هذه الأبيات لـ: أبو عبد الله حسين بن منصور الحلاج، أحد أعلام التصوف في التاريخ الإسلامي، نشأ في مدينة واسط جنوب بغداد والعراق، وقد ذاعت شهرته وأخباره وراج أمره عند كثير من الناس، حتى وصلت لوزير المقتدر بالله الخليفة العباسي، وتم اتهامه بالزندقة والكفر، وحكم عليه بالإعدام سنة ٣٠٩هـ.

بالحق أقسم.. ما رأيت عشقًا للإله ولأحد أنبيائه مثل هذا من قبل.

«لكن ماذا تعني كلمة الصوفيين يا شيخنا؟»

سألته، فأجابني:

- إن بحر التصوف لا قرار له يا ولدي، به طرق ومعاريج تؤدي بسالكيها إلى الله، وبه دجل وشعوذات وأساطير أقحمت عليه وتورد متبعيها مورد الهلاك.. البعض يحذر من شطحات الصوفيين، والبعض يقول إنهم أهل شطط وضلال وانحراف، وينصح برفض التراث الصوفي كله لأنه لم يرد فيه نص قرآني أو من السنة النبوية، والبعض يؤمن بتقديس كامل لكبار الصوفيين ويتناول أقوالهم وأفعالهم على أنهم معصومون، لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا خلفهم، والحقيقة هو بحر عميق فيه اللآلئ والأصداف، وفيه أيضًا التماسيح والحيتان، وسالك طريق التصوف يشبه من ينشد الملاحة في بحار الظلمات بقارب شراعي، والنور الوحيد الهادي للسالك في هذا البحر هو نور القرآن والسنة، وبدون الشريعة لا يمكن أن يصل القارئ لبر أمان. وقد يئس الباحثون والدارسون في حصر تعريف التصوف، لكن ثمة تعاريف تبدو أقرب من غيرها.. البعض قال إن التصوُّف مشتقٌ من الصوف الذي كان رداء الأنبياء والزهاد، ويدل على التقشف.. والبعض رأى أنه مشتقٌ من الصفا لما يؤدي إليه من صفاء النفس عن كدر المحسوسات، ويؤهلها للترقي في طريق الأحوال والمقامات..

والبعض ذهب إلى أنه مأخوذٌ من الكلمة اليونانية "سوفيا" وتعني الحكمة باعتبار الصوفية هم الحكماء الإلهيون الذين جمعوا بين العلم الظاهر والمعرفة اللدنية التي يمد بها الله قلوب من يصطفيهم من عباده.. والبعض نسبه إلى أهل الصُفَّة وهم جماعة من فقراء الصحابة انقطعوا للعبادة في المسجد النبوي بالمدينة.. والبعض نسبه إلى صوفة، وهي قبيلة يمنية كانت تُجيز الحجيج وتخدم الكعبة، فصار الاسم علمًا على الانقطاع لخدمة الله، لكن ما يعنينا أنه طريق روحي ونور يتخلل سريرة العبد، فتحمل حركاته وسكناته على جناحي المحبة والإخلاص

لله، وتظل ترقى به من أوهام الحياة الدنيوية إلى حقائق العيش الأبدي بقرب الحق تعالى وكل هذا يبدأ بالالتزام بظاهر العبادات والمعاملات التي أمر بها الإسلام ولا يغني عنها أبدًا، وإلا لصار السائر في هذا الطريق كحاطب الليل الذي لا يأمن الأفاعي، وربما خدعته الأماني كما خدعت كثيرين فخرجت به عن مراده.. فطريق أهل الحقائق شائك مملوء بالمخاطر، ولولا التزود بمصابيح الشرع وظاهر الشريعة، لانغرست في القلب الأشواك.

ما أن جاء ذكر كلمة الشريعة على لسانه حتى سألته:

- لماذا أرسل الله محمدًا بشريعةٍ جديدةٍ بعد ما جاء في العهدين القديم والجديد من دين به الكثير من التعاليم والوصايا بشكلٍ واضح لكافة البشر، ومن شأنه أن يوصل أتباعه أيضًا لملكوت السماء؟

ابتسم، ثم أجاب:

- لو كنت تؤمن بالكتاب المقدس بعهديْه القديم والجديد، لأدركت أن الله ما أرسل أنبياءه منذ بدء الخليقة بشكلٍ عشوائي، بل كان لكل منهم أهميته سواء في عصره أو المنطقة الجغرافية التي بُعث فيها، فتعالَ نتحدث بشكلٍ عقلي.. من كان لهداية شبه الجزيرة العربية وأمة العرب أبناء إبراهيم من نسل إسماعيل؟

كان هناك يهود في مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية يا ولدي فماذا فعلوا تجاه عبادة الأصنام التي تفشت في ذلك الحين بجانب انتشار الظلم والقسوة؟ فقط اكتفوا باعتزال ذلك، ولم يُحاولوا استيعاب العرب حولهم وتنويرهم بتعاليم التوراة انتصارًا لوحدانية الإله الذي به يؤمنون، بل ظلوا يُرددون أن الوقت قد حان لميلاد نبي آخر الزمان ليوحدهم ويقودهم لاستعادة أمجاد بني إسرائيل، ويؤكد التاريخ نبوءاتهم وأقاويلهم.

كان هناك مسيحيون أيضًا، وكانت هناك نبوءات كذلك بينهم بنبي كثير الحمد يأتي من بعد المسيح، فلم تفلح اليهودية ولا المسيحية في تهذيب وتوحيد ذلك المجتمع العربي البدوي بكل

ما فيه من قبائل ترتكب أشد الموبقات جرمًا سواء عبادة الآلهة الوثنية، أو قطع الطرق وسبي الأحرار، بخلاف القمار وشرب الخمر وغيرهم، أليس ذلك وحده كافيًا لبعث نبي جديد لهذا المكان وهؤلاء القوم؟

ففي العهد القديم كان من الممكن أن يبعث أكثر من نبي في وقتٍ ومكانٍ واحدٍ ليشدوا من أزر بعضهم في إتمام الرسالة ومواجهة قومهم مثل موسى وأخيه هارون، فماذا عن مجتمع لم تقم فيه اليهودية والمسيحية بدورهما.. ألم يكن في حاجة ولو لشخصٍ واحدٍ يتمم رسالة الله؟

وقد جاءت في القرآن آياتٌ كثيرةٌ عن بشارة الرسل والأنبياء بنبوة محمد مثل دعوة إبراهيم حين قال: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وقد توافقت تعاليم الإسلام مع تعاليم ووصايا الجد الأكبر إبراهيم أبي الأنبياء الذي كان حنيفًا عابدًا لله وموحدًا به، ولن تجد في الإسلام ما يتناقض مع هذه التعاليم والمنهج الرباني المشترك بين جميع الرسل والأنبياء.

وكان أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين يعلمون بمجيئه أيضًا بشكله ووصفه مثل الأب الذي يعرف ابنه تمام المعرفة ولا يمكن أن يخطئه، فآمن به البعض من اليهود مثل أبي بن كعب بن قيس الذي كان من أحبار اليهود، وكعب بن ماتع الحِميري الشهير بكعب الأحبار وغيرهما، والبعض الآخر من المسيحيين مثل سليمان الفارسي وعديّ حاتم الطائي وأخته سفانة، وهناك من أنكره من كلا الفريقين لأن محمدًا لم يُبعث من قومه أو عشيرته، وهو ما قال الله تعالى عنه: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين}.

فضلًا عن آخر رسالة إلهية كان لا بد وأن تعيد تصحيح الكثير من المفاهيم والتشريعات في الأديان السابقة، مثل قضية صلب المسيح، وما ألصق بأنبياء الله من تصرفات وأفعال هم منها براء.. والطبيعي أن أتباع كل دين يرون في دينهم الكمال

والتمام الذي يُغني عن الإيمان بدين آخر جديدٍ يُصحح المفاهيم ويُيسر على الناس حياتها.. فلا اليهود يؤمنون بالمسيحية، ولا المسيحيون يؤمنون بالإسلام، ولا الإسلام يؤمن بالبهائية.

قلتُ له ملهوفًا:

- هذه النقطة تؤرقني بشدةٍ يا سيدي، فالخلافات التي بين..

قاطعني بإشارةٍ من يده قائلًا:

- في آلاف الكتب الموجودة تحتنا يا ولدي هناك آلاف الأبحاث والمناظرات والتفسيرات في كل الأديان والملل سواء الإبراهيمية أو غيرها.. الإسلام، المسيحية، اليهودية، البوذية، الهندوسية، الزرادشتية، المانوية، الجانتية، البهائية، الداوية، بخلاف وثائق وأبحاث أخرى عن علاقة الأديان بالأساطير، لكن ما قادني للإيمان بالله على نهج نبيه الكريم كان الحب في المقام الأول قبل عقد أي مقارنة مع باقي الأديان، أو قراءة أبحاث ودراسات في هذا الصدد.

- الحب؟

- نعم.. الحب الصافي الذي يُعيد الإنسان لمنابعه الأولى.. فعندما تذكر كلمة (الحب) أول ما يخطر ببالك هي تلك المشاعر والأحاسيس بين رجل وامرأة، رغم أنه حب هامشي جاء فرعًا من جذورٍ أبعد وأعمق تقود لحب الخالق الذي هو أصل كل شيء..

- فالحب هو المرادف الوحيد للإيمان، لأنه ينفذ للقلب مثله ويكشف مثله عن ذاتنا العميقة، ويطلعنا على كنوزنا وأسرارنا، والحب الذي هو أعمق من كل حب لا يفجره في القلب إلا التصوف والشعور الديني، لأن الدين هو الذي يأخذ الإنسان الساقط في حدود الزمان والمكان ليرفعه إلى سماوات الأبدية، ولا يرفعه إلى هذه السماوات إلا الحب.

فما حب الإنسان للبشر، وما حب الإنسان للفن، وما حب الإنسان للجمال إلا محطات سفر مؤقتة تقودنا إلى محطة

الوصول النهائية التي ينتظرنا فيها أعظم محبوب يستحق الحب.

هو أصل كل شيء، وصورة جميع الصور، وقد اتجه العالم كله إلى الله بالحب منذ لحظة كُن، حينما نظر الله إلى أعيان المخلوقات في العدم وأمرها بالوجود، فتطلعت إليه وهامت به حباً، ولولا هذا الحب الخفي ما كانت حركة العالم وسيره نحو الكمال ولا كمال إلا وجهه.. وهو سبحانه المطلوب وإن تخفى تحت أسماء وصور عديدة.. فكل أنواع الحب ما هي إلا أقنعة وأسماء لحب الله وصفاته المتنزلة فينا.. فالطفل يحب في أمه وأبيه أوصاف المُعطي الوهاب الرزاق الحافظ.. والفنان المبدع يحب ما تجسده صنعته من أسماء الخالق البارئ المصور البديع.. والمفكر والفيلسوف يحب أسماء الحق العليم اللطيف الخبير المحيط.

ومحب الله لا يخاف فراقه.. فليس عنده هذه المشاعر السوقية المبتذلة سواء اللوعة أو الضنى أو الصبابة أو الهجر.. فهو يشعر أن محبوبه أقرب إليه من حبل الوريد، وأقرب إليه من نفسه حتى إنه يراه ظاهرًا له في كل شيء.. في بسمة وليده، وأوراق الشجر، ورقصة عصفور الصباح، ويزداد الشوق مع ازدياد المشاهدة والتأمل، بخلاف أشواق المحبين التي تخفت عند اللقاء.

أما ما هو دون الله من حب فهو مجرد وسيلة لها فترة صلاحية حتما ستنتهي.. فمرة بعد مرة يكتشف الإنسان أن موضوعات حبه لا تملك وجودًا حقيقيًا.. الوردة تذبل، والشمس تغرب، والجديد في الفن يبلى، وما رآه في المرأة جمالًا يكتشف أنها لا تملكه، وأنه يزايلها بالشيخوخة، فقد كان وديعة أودعت عندها ثم استردها صاحبها، وتبرد الشهوة، وتفتر العاطفة، ويتجه إلى امرأة أخرى لتتجدد الخيبة، ويتجدد الملل، ويتجدد الضجر، قبل أن يكتشف أن حبه أكبر من تستوعبه ذراعان وفرج.

حبه الحقيقي يعبر به الغايات المحدودة حتى يتجرد عنها، وحين يقف على عتبة المجردات سيدرك أن الله هو الغاية الأسمى التي يجب أن نعشقها بكل ما فينا.. هو الواحد الذي تتجسد فيه كل

هذه القيم اللانهائية.. هو اللا محدود في مقابل المحدود.

إن حب الإنسان لنفسه، وحبه للمرأة، وحبه للجاه والسلطان يقوده إلى يأسٍ بعد يأس، وملل بعد ملل، وإحباطٍ بعد إحباط، حتى يشرق فيه حب الحق ليدله على الطريق إلى الواحد الأحد الذي تجتمع فيه كل الكمالات، فيزداد حبه عمقًا ويصبح عبادة وصلاة وهو يصعد في طريق العودة إلى منبع الأنوار.

عندها سيشعر أنه وجد نفسه حقًا، وعرف إلهه، وعرف هدفه وطريقه.. سيدرك أن كل ما عاناه من عذاب وألم وإحباط ويأس لم يذهب عبثًا، فقد كانت كل تلك الآلام هي بوصلته وطريقه في بحر الظلمات.

أهل العزائم بالأرواحِ قد ساروا   لم تُلهِهِم زينةُ الدنيا وآثارُ

غابوا بمولاهم عنهم فقرَّبهم   لا جنةُ الخلد تشغلهم ولا النارُ

غابوا عن الكون والأشواق تجذبهم   لأنهم في سما الملكوت أنوارُ

قد وجهوا الوجه لله العليّ فلم   يقهرهم حالهم فيه وأوطارُ

....

الآن بدأت أعرف الله أكثر من ذي قبل، حين توجهت إليه بقلب المحب لخالقه، وحاولت استجلاء سره الخفي خلف حجاب المظاهر..

فمعرفة حقيقة الإله لا تقتصر فقط على ما أنبأنا به عن نفسه في كتبه المقدسة؛ بل يقول الصوفيون إن عدد الطرائق إلى الله كثيرة جدًا بعدد أنفاس مخلوقاته، ولها مسالك أخرى مثل التأمل والتفكر حولنا وربطهما بصفاته وقدراته المُتجلية لنا في الكون..

تيقنت من ذلك حين وجدت الشمس تأفل، والزهور تذبل، والربيع ينتهي إلى خريف، والصحة تنتهي إلى مرض، والحياة تنتهي إلى موت، والإمبراطوريات تزدهر وتندثر، والقارات يبتلعها المحيط، والنجوم تنفجر في فضاء الكون وتختفي، وعالم المظاهر حولنا عالم خادع مخادع، يتلون كالأكاذيب، ويتحرك إلى زوال وفناء، وكأنه رسوم على الماء، أو نقش على رمال تذروها الرياح، بينما الله ليس من هذا العالم، وإنما

"متعال" عليه.

العالم باطل، والله حق.. العالم زائل، والله دائم.. العالم متغير والله ثابت.. العالم سجين في حدود الزمان والمكان، والله لا يتحيز في زمان أو مكان، فليس له حجم، ولا مواصفات مكانية، ولا يمكن أن يقال إنه فوق أو تحت، أو عن يمين أو شمال، أو داخل أو خارج، وليس له عمر، وليس له بداية أو نهاية، وليس له ماضٍ وحاضر ومستقبل، وإنما هو حضورٌ مطلقٌ، وآنٍ مستمر، وديمومة أبدية ماثلة في الغيب والشهادة على الدوام.

ولأنه منزهٌ عن الزمان والمكان، فهو لا يتحرك ولا ينتقل، وإنما هو ساكن سكونًا مطلقًا.. صامد.. وكل ما حوله يضطرب، وهذا معنى "الصمد"، أي الثابت ثباتًا مطلقًا، ولهذا فهو الملجأ والأمان من خضم الاضطراب..

تلقي النفوس إليه مراسيها كما ترسو السفن وتلقي بمراسيها إلى القاع الساكن، وتستمد ثباتها من ثباته.. فهو الصمد الذي يصمد إليه.

نحن في القيد (الزمان والمكان).. والله في الإطلاق (الأزل والأبد)، ليس له مبتدأ ولا منتهى ولا حدود.

وهو "اللطيف"، منتهى اللطف.. ليس له جسم ولا مادة ولا كتلة ولا ثقل ولا كثافة تعوقه، ومن ثم فهو يتخلل كل شيء في حضور كامل مع كل شيء، في كل وقت.

هو معنا أينما كنا، قريب منا، منتهى القرب بحيث لا نراه كما لا يرى الواحد منا سواد عينيه..

هو الواحد في وجوده.. الأحد في تفرده، والأحدية هي أنه لا ينقسم ولا يتجزأ، ولا يمكن أن يكون له بعض أو جزء أو ضد أو ند، ولا يجوز عليه التعدد أو التناقص أو الازدياد.. وهو لا ينحل ولا يتركب ولا ينفرط ولا يتحد ولا يتصل ولا ينفصل.

الله يتجلى فينا لكنه لا يحل بنا، مثل الرقم واحد المدرج في جميع الأعداد ويسري فيها باستمرار، وباقي الأعداد تُعد من مضاعفاته، فرقم اثنان أصله واحد وواحد، لكنه في النهاية اسمه اثنان، حيث يسري فيه الواحد بشكلٍ خفي، وبالمثل تسري الأحدية الإلهية في كثرة المظاهر والعلوم،

لتبقى خفية ككنزٍ مطموسٍ جاهز أن يكتشفه كل ذي عقل راجح، وقلب مؤمنٍ ينظر إليَ ما وراء المظاهر، فإن افتتن بالمظاهر احتجب عنه الكنزُ وضل الطريق، ومن تجاوز الظاهر إلى الخافي المرموز، اهتدى إلى المسار السليم ونال نعمة النعم.

فالنور الذي يتجلى في مصابيح النيون، قد يكون نورًا أحمر، أو أزرق، لكنه في النهاية له أصل واحد وهو النور الأبيض، ذلك مثل الله، نبعٌ واحدٌ، تتعدد صفاته وقدراته كتعدد ألوان الضياء النابعة من أصل نوراني واحد.. وقد يكون المصباح نفسه على شكلٍ حلزوني، أو أنبوب أسطواني، أو شكل قلب، أو دائرة، تلك هي المخلوقات.. تأخذ أشكالًا وقوالب مختلفة تحل فيها صفات الله وعلومه وقدراته، لنعاين الخالق المحتجب خلف صفاته الدالة عليه فينا وحولنا.

تلتقي فيه الأضداد (الجبار الرحيم) و(المعز المذل) و(النافع الضار) في وحدة مطلقة لا تضاد فيها ولا تناقض ولا تصارع مثلما تحدث الصراعات داخل البشر، ومن هنا كان اسمه "السلام" حيث لا حرب داخله، بينما تجتمع هذه الأضداد داخل البشر فتجعل أحوالهم تتبدل وأمزجتهم تتغير.

هو "القيوم" الذي يقيم كل شيء حي، ويمنح الحياة للعدم، وكل شيء يقوم بالله ولله.. النجوم في أفلاكها تمسكها قوانين الله فتقوم به، والأشجار ترفع قامتها به وبمدده، ونحن نقوم كل يوم من نومنا به وبمدده.. نرى به، ونسمع به.. بالمواهب التي بثها فينا.. والكون كله يدين بقيومته لله.. فهو قيوم كل شيء..وهو مقيمنا من الموت يوم القيامة.

في بعض المخطوطات القديمة هنا في الدار عثرت على واحدة لمتصوفٍ قديمٍ اسمه النِّفَّري, تناول تفسير اسم الله "العزيز"، فقال:

"يقول الله لعبده: ما أنا معيون للعيون، وما أنا معلوم للعلوم, وما أنا مُعرَّف للمعارف, أنا العزيز الذي لا يُنال".

أنا الملك الظاهر بالكرم، المحتجب بالعزة, أنا الظاهر ولا تراني العيون, وأنا الباطن ولا تطيف بي الظنون.

أعجبني كلامه، فتابعت كتاباته حتى شعرت بقشعريرةٍ غير عادية وأنا أقرأ له تفسير الآية القرآنية القائلة: {إن إلى ربك المنتهى}، التي استشعر

في تفسيرها أن الله يقول لعبده:

يا عبد إذا حصلت على كل شيء فأين غناك؟!

إذا فاتك كل شيء, فأين فقرك؟!

إذا أعذتك من النار, فأين سكينتك؟!

إنما أنا سكنك، وعندي مقرك، وبين يديَّ موقفك.. أنا المنتهى وليس دون المنتهى راحة.

لم أعرف إلى أين أوجه بصري لله وأنا أسأله، فرددت في قلبي: **"ألهذا السبب يعيش أغلب البشر في بؤس وشقاء يا رب؟!"**

....

"والآن وقد عرفت الله بقلبك، وحاولت الوصول إليه بالتأمل والتدبر، تعال نعرفه بطريق آخر، ووسيلة مختلفة وهي العلم المادي".

قالها الشيخ خضر ونحن نجلس فوق السطح المضيء بنور القمر والنجوم، وبدأ يتحدث بلسان العلوم والمعارف:

- أنا وأنت، وكل ركاب هذه السفينة الفضائية التي اسمها الأرض، نعلم أنها تمخر عباب هذا الفضاء منذ ملايين السنين، في صحبة كوكبة من الفرسان من أبناء أسرة الشمس، والشمس بدورها مع مائة ألف مليون شمس أخرى تؤلف مدينة سابحة اسمها المجرة، ومثلها من المجرات مائة ألف مليون مجرة تسبح في طول الكون وعرضه على مدى اللانهاية من الرؤية.

رفع رأسه لأعلى ولوَّح بيده مشيرًا للنجوم وتابع:

- نظرة في السماء في منتصف ليل ساجٍ إلى هذه العمارة الكونية الهائلة سوف تثير ذهولك إذا ما سألت: إلى أين نسير؟ وما النهاية؟ ومن الذي خلق؟ وكيف؟

فيأتينا العلم بالإجابة حين يقول لنا إن هذه العمارة الهائلة على



سعتها وتراميها، كلها مبنية من نسيج واحدٍ وخامةٍ واحدةٍ، ومصممة كلها بأسلوبٍ واحدٍ وخطةٍ واحدةٍ، ومحكومةٌ بقوانين واحدة.

سوف يقول لنا العقل لا بد أن الخالق واحد، والمبدع واحد، فإذا أدرنا البصر عائدين إلى الأرض وأحوالها ورحنا نتأمل ما فيها من حياة ونبات وحيوان وانسان، وجدنا نفس الشيء.. نفس القوانين الواحدة، والخامة الواحدة، والنسيج الواحد، والأسلوب الواحد، والخطة الواحدة في الجميع..

الذي بنى السماء، هو هو الذي صنع أوراق الشجر، وهو الذي وضع السم في العقرب، والعطر في الورد، والعقل في البشر، وهو الذي صنع الجميع من خلايا متشابهةٍ، كما تبنى البيوت من لبناتٍ واحدةٍ، لذا فإن وحدة القوانين المعمارية تؤكد لنا وحدة الخالق الذي انفرد وحده ببناء كل شيء قبل أن يكون هناك شيء.

صوَّب بصره إلى عينيَّ واستطرد:

- أكبر شيء في الدنيا كلها هو الواحد الصحيح.. فبإمكانه أن ينقسم إلى 2 ثم إلى 4 ثم إلى 8 ثم إلى 16 إلى ما لا نهاية فيعطيك كل الأرقام التي تخطر بذهن عمالقة الحساب.

ثم التقط حاسبه الآلي الموجود إلى جواره وأشار لشاشته وبدأ يقلب صورًا عديدة قائلًا:

بدأت الحياة بخلية واحدة، انقسمت فأصبحت خليتين، ثم أربعة ثم ألوفًا وملايين وبلايين تنوعت بحسب البيئات والظروف، وخرج منها كل ما نرى حولنا من زواحف وطيور وفراشات وديدان وقردة وآدميين.

وبدأ الكون بغاز بسيطٍ واحدٍ هو الأيدروجين، الذي يشتعل الآن في باطن النجوم ليعطيناً النور والدفء مع أشعة الشمس كل صباح، ومن الأيدروجين في باطن الأفران النجمية الهائلة جاء الحديد والنحاس والذهب والقصدير والرصاص والكربون

والسليكون، وغيرها من عناصر ومكونات الطبيعة سواء الموجودة في صورة مواد أولية منفصلة أو متحدة على شكل مركبات.. وما نرى حولنا على الأرض من تصانيف الغازات والسوائل والجمادات ليست إلا هذه التواليف التي نشأت كلها من قسمة واحدٍ صحيحٍ اسمه ذرة الأيدروجين.

حتى أنت في حد ذاتك واحد صحيح.. تبدو في نظر نفسك صغيرًا ومحدودًا، لكنك تستطيع أن تستوعب من المشاعر والمدركات والمعارف ما لا حد له.. ورغم أنك أصغر من العالم بكثير لكنك تحتويه في داخلك وتتصوره وتتخيله وتراه.. على شبكية عينيك ترتسم صورة واضحة ودقيقة للشمس والقمر والنجوم والمجرات، وفي عقلك تختصر الرموز والشفرات وهندسة الكون وسره ومفاتيحه ومغاليقه.. وكما قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أتزعم أنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ   وفيك انطوَى العالمُ الأكبرُ

وكل ما في الوجود من ظواهر ونبات وجماد وحيوان وانسان هي في الحقيقة أجزاء الواحد الصحيح الذي أوجدنا في الوجود وكسانا بهيئاتنا وأشكالنا.. كل منا لحن وجملة موسيقية في سيمفونية متكاملة، والعذاب والألم لا يأتيان إلا مع الإحساس بالانفصال.. حين تنفصل في أنانية عن الكل، وتنسى أنك حرفٌ وسطرٌ في آية الوجود الكبرى.. أما إذا توجهت إلى الوجود في شعورٍ حميمٍ بالنسب والقرابة، فستشعر بأنك تستطيع أن تؤاخي الأسد، وتصاحب ضباع الغاب، وتروض الثعابين والأفاعي، فتلهو معك وتلهو معها، وكأنها عائلتك.. ذلك بأن الوجود كله ما هو إلا وجوه مختلفة للواحد الصحيح.. كلنا أقربون يا بُني، وما فواصل المكان والزمان إلا وهم الأوهام، ومتاع الغرور، وما أن تخترق هذه الفواصل بعين وجدانك حتى تكتشف الإخوة والنسب والقرابة بينك وبين كل شيء، وتدرك أن حياتك الحقيقية في فنائك في هذا الكل الذي تعيش فيه، لأنك بهذا تسترد وحدتك وحقيقتك.. وما الحب بينك وبين الآخرين إلا الحنين إلى وحدتك الأولى، وما الحب الذي يؤلف الأسر والقبائل والمجتمعات والدول إلا محاولة للعودة بها إلى الوحدة الأولى والواحد الأحد..

وما الجاذبية بين النجوم التي تؤلف الكواكب والمجرات إلا عودة بالكل

إلى نظامٍ واحدٍ..

وفي النهاية يعيدنا الموت إلى أمنا الأرض ليتغذى علينا النبات كما كنا نتغذى عليه، ويصبح الآكل منا مأكولًا.. ففي حقلٍ واحدٍ يعطي نفس الطين ألف صنف وصنف من الفاكهة والخضراوات والزهور.. من الواحد يخرج الكل، وإلى الواحد يعود الكل.. وحين تحرقنا النار، جميعًا نتحول إلى فحم.. أشجار، وثعابين، وقردة، وبشر، وجماد، الكل ينتهي إلى نفس المصير.. فحم.. إشارة إلى أصلنا الواحد، وما الحياة على الأرض إلا تصانيف تعود بنا للواحد، والفارق فقط في النسب والعلاقات والكيفية..

ذرتان من الأكسجين تعطيانك ذلك الغاز اللطيف الذي تتنفسه، وثلاث ذرات تعطيك سمًّا زعافًا قاتلًا اسمه الأوزون.. الفرق بين سم الثعبان وطبق شهي من البيض المقلي مجرد فرق شكلي في معمار الذرات، لكنهما في الأصل مادة واحدة هي البروتين.. والفرق بين الإنسان والحيوان والحشرة هو الفرق في النسق والترتيب والكيفية التي تصطف بها الأحماض الأمينية في الجينات الوراثية والتي تصطف بطرقٍ مختلفة كما تصطف الحروف فتؤدي إلى مخلوقاتٍ مختلفة كما يؤدي ترتيب الحروف بطرق مختلفة إلى عددٍ لا نهائي من الكلمات والعبارات في مختلف العلوم والمعارف والأدب..

كل مباهج الحياة ومتعها وألوانها النابضة يمكن اختزالها في شفرة رياضية.. فالفرق بين مقطوعة موسيقية يطرب لها قلبك وتحلق بها روحك في السماوات ومقطوعة أخرى منفرة تؤلم أذنيك، مجرد ذبابات وموجات صوتية تطرق طبلة الأذن، فأصل الموسيقى مجرد معادلات رياضية وذبذبات، لكنك تتعامل مع كل مقطوعة كما لو كانت كيانًا مستقلًا، ومخلوقًا ذا شخصية.. الفرق بين الألوان الأحمر والأصفر والأخضر هو فرق في أطوال موجات الضوء.. مجرد فرق رقمي.. مشهد الغروب الذي يضفي على نفسيتك السكينة والهدوء، مجرد معادلة رياضية من الأطوال الموجية.. وفي النهاية تستقبل حواسك كل هذه الأرقام فيحولها جهاز الاستقبال إلى معانٍ مختلفة من صور وأشكالٍ وأصواتٍ، وهي نفس الآلية التي اقتبسناها حين صنعنا أجهزة التلفاز والراديو، كمخلوقاتٍ عاقلةٍ خلقها الإله على صورته كما جاء في سفر التكوين، لكن المقصود بصورته هي صفاته وقدراته وأفعاله لنكون خلفاءه على الأرض ونسير على دربه، والكون شيء واحدٌ يُعاد صبه وسبكه في

قوالب وأشكال وتراكيب لا حصر لها، والأصل في النهاية واحدٌ صحيح..

والخلية الأولى التي بدأت حياتها بنشدان درجة معينة من الحرارة والجو والغذاء لانتعاشها وتكاثرها، كانت تضمر في جوفها غايات أبعد استمدتها من الخالق، وما ملكت ناصية حياتها في عقل الإنسان وتركيب باقي المخلوقات حتى أفصحت عن هذه الغايات البعيدة، فبدأت تنشد قيم الجمال والحق والخير والعدل والسلام.. فزهرة عباد الشمس تتطلع إلى الشمس، ونباتات الصبَّار تخرج تصانيف جميلة كأنها منحوتة بيد نحاتٍ فنانٍ عاكفٍ على ابتكار أفانين الجمال، والنحلة تبني بيتها في معمارٍ هندسي بديع، والفراش يرسم زخارف بديعة على واجهة أجنحته.. حتى بلورات الحديد والنيكل والصخور تحت الميكروسكوب لها أشكال هندسية مختلفة بديعة التصميم.

من هنا أراد الله أن يقرب تلك الدروس بشكل إشاري رمزي جميل يقول إننا جميعًا نبعٌ منه، فخاطبنا في التوراة والإنجيل بلغة الأبوة والبنوة على سبيل الاستعارة والتقريب في زمن لم يكن هناك فيه الميكروسكوب ولا التليسكوب، لنعرف أننا خلفاؤه ونماذج مصغرة منه، وتدرك يا ابن الإنسان أنك أحد آحاد الأحد الأكبر، وما تعلن من حروب هي حروب تعلنها على نفسك، وما تقتل حينما تقتل إلا نفسك.

فحقائق الأشياء الداخلية تبدو دائمًا لنا عكس ظواهرها.. وكلما كانت الأشياء قريبة أصبحت رؤيتها بالعين أسهل وأوضح، لكن الابتعاد عنها لمسافة أبعد وفترة أطول يجعل القلب والعقل يقفان على جوهرها الحقيقي الخفي.

"يا الله.. ما كل هذا العلم يا سيدي؟"

قلتُها مبهورًا كالمشدوه، فارتسم الخجلُ على ملامح الخضر وأجاب:

- بل هو الجهل يا ولدي، لأن المعلوم بحره لا ينضب، وكلما ازددت علمًا كلما أدركت مدى جهلك وجهالتك، أما الآخرون من مدعي العلم وأهل التفاصح فتنطبق عليهم جملة القرآن {كل حزبٍ بما لديهم فرحون}، فإحساس النفس بعلمها يوردها أحيانًا موردَ الهلاك، لا سيما المتعصبين الذين أغلقوا عقولهم وتصوروا أن ما عندهم من العلم هو كل العلم، فقال فيهم ربك: {فلما

جاءتهم رُسُلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم} فأضلهم الله على علمهم، وكفروا رغم أنهم مستبصرون.. ولهذه الدنيا علومٌ كثيرةٌ، متشعبةٌ ومختلفةٌ، لكن أشرف العلوم هو العلم بأشرف معلوم.. إلهنا العظيم، أما من أعجبتهم باقي العلوم المادية حتى شغلتهم عن العلم بربهم، فقد قيل فيهم: {يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون}.

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمالِكُمْ لا تَنْظُـرُ وَسِوَاكُمُ فِي خَاطِرِي لاَ يَخْطُرُ

فَـإذا نَطقْتُ فَفِي حَدِيثِ جَمالِكُم وإذَا سَكَتُّ فَفِيكُـمُ أَتَفَكَّـرُ

حُبِّي لَكُمْ طَبْعٌ مِنْ غَيْرِ تَكَلّفِ وَالطَّبْعُ فِي الإنْسَـانِ لاَ يَتَغَيَّـرُ

صَبَّرتُ قَلْبِي عَنْكُمُ فَأَجَابَنِي لاَ صَبْرَ لِي لاَ صَبْرَ لِي لاَ أَصْبِرُ

لاَ صَبْرَ لِي حَتَّى يَرَاكُمُ نَاظِرِي وَعَلَى مَحَبَّتِكُمْ أَمُوتُ وَأُحْشَرُ

....

وبدأت رحلتي مع (محمد بن عبد الله)..

قرأت وتعلمت كيف كانت الحياة في شبه الجزيرة العربية قبل مولده، وذلك الموقف الغريب حين همَّ جده عبد المطلب بذبح أحد أولاده العشرة عند الكعبة حتى يفي بنذرٍ قديمٍ كان قد قطعه على نفسه، ووقع الاختيار على ابنه عبد الله والد محمد، لكنه نجا بمعجزةٍ بعد أن افتدته قريشٌ بمائةٍ من الإبل، ليتزوج بعدها من ابنة عمه آمنة بنت وهب ويسافر بعدها بأيامٍ في رحلةٍ تجاريةٍ مات فيها، تاركًا خلفه بذرته التي ذرعها بين أحشائها، فحزنت عليه حزنًا شديدًا، وحين بلغ محمد 6 أعوام أخذته أمه وسافرت به لزيارة قبر أبيه وظلت تبكي عنده، قبل أن تمرض مرضًا شديدًا في رحلة العودة وتموت بين ذراعي طفلها، ليعاين الطفل في سنه الصغيرة فجيعة الموت وفقد الأحبة، ويذوق مرار اليُتم وفقد الأبوين، ويعيش مع جده، ثم ينتقل بعد وفاته للعيش عند عمه.

بهرتني شخصية هذا الرجل الفذ قبل حتى أن يكون نبيًّا..

حسن سيرته في زمنٍ سادت فيه الرذائل والنقائص حتى لقبته قريش

بالصادق الأمين.. انعزاله عن الملذات والشهوات التي غرقت فيها القبائل، فلم يشرب الخمر، ولم يلعب القمار، ولم يواقع الجواري والعاهرات مثلما كان يفعل كل الشباب الذين في مثل سنه.. عمله في رعي الغنم، ثم انتقاله إلى مجال التجارة مع خديجة بنت خويلد، تلك المرأة الثرية الجميلة، صاحبة المال والجاه التي تقدم الكثيرون بطلب الزواج منها بعد وفاة زوجها لكنها رفضتهم جميعًا حتى أعجبت بذكاء وحسن أخلاق محمد فأرسلت له تطلب الزواج.. حكمته في التعامل مع أدق الأزمات التي كادت أن تشعل حربًا بين قبائل قريش حول أحقية كل منهم في وضع الحجر الأسود.. رفضه للانسياق خلف قبائل قريش في عبادة الأصنام الموجودة حول الكعبة، وتأمله في خلق السماوات والأرض في غار حراء، في محاولةٍ للوصول إلى إجابةٍ عن تساؤلاته بشأن حقيقة خالق هذا الكون الذي كان في خياله قبل أن يكون نبيًّا أكبر وأرقى وأعظم من أصنام من الحجارة التي لا تنفع ولا تضر.

كان خضر محقًّا فعلًا في ضرورة بعثته.. وكانت فعلا آلامه وأخلاقه قبل البعثة تليق بسيرة نبي..

إبراهيم، ولوط، وموسى، والمسيح، ومحمد.. جميعهم رعوا الغنم، وربوا الخراف، حتى تشرَّبوا وداعتها، وسكنت في قلوبهم الرأفة واللطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هُذب أولًا.

وكان هناك من يُعِدَّني لتلك اللحظات، قادتني الأقدار لدخول المعبد اليهودي، ثم الكاتدرائية، قبل دخول المسجد، وقرأت أسفار العهد القديم والجديد قبل قراءة القرآن، ثم خضت رحلة العلم وسلكت مسلك الروح معًا في ظل العشق الإلهي، حتى زال لديَّ أي التباس، وفسرت الأشياء نفسها بنفسها.

لم أنزعج أو أندهش من الغزوات والفتوحات والجهاد الإسلامي، بعد أن قرأت الأسفار التاريخية التي تحكي أوامر الرب إلى بني إسرائيل بالجهاد أيضًا لإعلان عظمته التي أنكرها الوثنيون، وما سال في حروبهم من دماء، وما أزهقت فيها من أرواح، بشكلٍ يفوق أي غزوة إسلامية بما فيها واقعة بني قريظة التي كانت من أقسى الغزوات الإسلامية في عهد النبوة، فيما جاء في وصايا النبي محمد في الحروب: أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من

كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا راهبًا منعزلًا بصومعة، ولا تقربوا نخلًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تذبحوا بعيرًا ولا بقرةً إلا لمأكل، ولا تهدموا بناءً.

بينما جاء في سفر حزقيال:

"واضربوا، لا تشفق أعينكم، ولا تعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء.. اقتلوا للهلاك... املأوا الدور قتلى".

وفي سفر يشوع:

"وَأَخَذُوا الْمَدِينَةَ. وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ".

وفي سفر أخبار الأيام الأول:

"أَخْرَجَ (داود) الشَّعْبَ الَّذِينَ بِهَا (بلدة رَبَّة) وَنَشَرَهُمْ بِمَنَاشِيرِ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسٍ".

لم أشمئز أو أندهش من فكرة تعدد الزوجات والجواري، فقد كانت شريعة إبراهيم ومن بعده موسى تُجيز تعدد الزوجات، فكان لإبراهيم زوجته سارة، وأنجب من جاريته هاجر ولده إسماعيل.. ويعقوب أو إسرائيل كان متزوجًا من 4 نساء أنجب منهن 11 ولدًا وبنتًا، وكان لسليمان مئات الزوجات، وحين قرأت تعدد زوجات محمد بعد أن بلغ من العمر خمسين عامًا لنساء من قبائل وبلدان مختلفة لتوطيد دولة الإسلام، واختيار عائشة ابنة صاحبه أبي بكر رغم فارق السن الكبير الذي كان شائعًا وقتها، لتبقى من بعد وفاته وتنقل سيرته وتجيب عن السائلين ممن لم يحضروا عهد النبوة، كان في عقلي صورة لما جاء في نشيد الإنشاد لسليمان من غزل وخمر وسكر وأوصاف جسدية صريحة للنساء.

سألت نفسي.. إذا كان محمد يدَّعي نبوةً مكذوبةً فما مكسبه؟ أهو المال والجاه؟ لقد عرضت قريش على عمه أبي طالب أن يجعلوا ابن أخيه ملكًا عليهم ويعطوه المال والنساء على أن يترك أمر هذا الدين الجديد الذي يُساوي بين الأسياد والعبيد، فرد على عمه ردًا حاسمًا: "وَاللَّهِ يَا عَمِّ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا

الأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ"، فهذا إذن إصرار نبي تام اليقين في دعوته المُنزَّلة عليه من الله، ولا يوجد في قلبه مثقال ذرة من الادعاء والكذب.

عاش فقيرًا زاهدًا، يصحو أحيانًا فلا يجد الطعام فينوي الصيام، وكان يرفض الصدقة من البشر، وكان أهله فقراء، حتى إن ابنته فاطمة كانت مريضة ضعيفة في حاجةٍ لمن يخدمها ويساعدها وبكت له من شدة فقرها وضعفها، فلم يستغل مقامه كنبي ويأمر أحدًا بخدمتها رغم أنه كان يستطيع.

تعرَّض للتنكيل والعذاب والاستهزاء من قومه أكثر من 10 أعوام في مكة دون أن تنثني إرادته أو يلين إصراره، ولو كان هذا محض ادعاء فما الذي كان يحمله على فعل ذلك وهو من داخله يعلم أنه لا إله خلفه أو ملائكة تعضده؟!

لم يدع الرجل سوى لعبادة الله عز وجل حق عبادته، وجعله إلهًا وحيدًا ليس كمثله شيء، وتنفيذ وصاياه وتعاليمه التي تماشت مع وصايا وتعاليم باقي الأنبياء، آدم، وادريس، ونوح، وابراهيم، واسحق، واسماعيل، وموسى، وهارون، الذين قالَ عنهم إنهم إخوته، ولم يُنكر نبوة أحدهم أو يعيب فيه، بل انتصر لهم وطهَّر سيرتهم مما لحق بها من إضافاتٍ مليئةٍ بالنقص والخزي الذي لا يليق أبدًا بسيرة الأنبياء.

ظهر معه أنبياء كذبة مثل مسيلمة الكذاب الذي ألف كلامًا مخبولًا قال إنه من عند الله فجاء فيه: "الفيل، وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل"، وحين دعا لرجلٍ أصابه وجعٌ في عينه، أصابه العمى وفقد بصره، وسقى بوضوئه نخلةً فيبست، وجيء له بطفلين ليباركهما، فمسح على رأسيهما فقرع رأس أحدهما وزال شعره، ولثغ لسان الآخر، فما وجه المقارنة بين مُسيلمة اليوم وبين دين الحق الذي نزل من السماء وصار له اليوم أكثر من مليار مسلم لم يمت نبيهم إلا بعد إتمام الرسالة كاملة، وفتح مكة التي هاجر منها مضطرًا ضعيفًا، فعاد إليها قويًّا مع جيشٍ من الموحدين الذين كانوا مثله فقراء أذلاء فعزَّهم الإيمان، حتى تمَّت كلمةُ ربهم وانتصروا لوحدانيته وهم يكسرون ٣٦٠ صنمًا حول وداخل وفوق الكعبة الشريفة، ويجعلون العبادة لله وحده، فآمن الناس ودخلوا في دين الله أفواجًا، ونزلت من السماء آيات مبينات قالت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} في حجة الوداع التي أجّلها النبي محمد لآخر عام في حياته حتى ينهي حياته خير نهاية، بعد أن هيأ أمته لرحيله بخطبةٍ لا يقولها إلا نبي يضع آخر لبنةٍ في بناء دينه الذي أخذ يبني ويؤسس فيه على مدار ٢٣ عامًا، فقال للمسلمين الذين معه: «قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ فأجابه المسلمون: «نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ»، فأشار بإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، وهو يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ قائلا: «اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ».

ولا أعلم لماذا أبكي الآن وأنا أردد: "**يا حبيبي يا رسول الله**» بينما ما زال صوت أولئك الصوفيين الأطهار يتردد في أذني وهم يتغنون في حضرتهم قائلين:

وأحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني ... وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ

خلقتَ مبرأً منْ كلّ عيبٍ ... كأنكَ قدْ خلقتَ كما تشاءُ

....

يبدو أنني على موعد مع أكثر الأمور جدلًا..

فالإسلام يأمر أتباعه بالإيمان بكل الأديان والرسالات، ويؤكد على وجود التوراة والإنجيل، لكنه ينفي ألوهية المسيح، وينفي أيضًا واقعة صلبه الشهيرة، ويؤكد على بشريته كنبي مثل باقي الأنبياء، فكيف يستشهد القرآن بالإنجيل في بعض الآيات، وينفي في الوقت نفسه واحدة من أهم ركائز الدين المسيحي التي تم ذكرها في الإنجيل؟!

ابتسم الشيخ خضر حين سألته، وأجابني:

- بين القرآن والتوراة والإنجيل خطوطٌ عريضةٌ مشتركةٌ كثلاثة كتب جاءت من نفس الإله، وتشترك في وصاياها وتعاليمها الرئيسية مع ما تعلمه آدم، ثم أخذه الله على نبيه نوح في العهد النوحي، وما تلاه من أنبياء ورسل، لكن الجدل والخلاف لم يتوقف بين أبناء أي دينٍ منذ نزوله وحتى يومنا هذا..

على مرِّ التاريخ كانت هناك في كل دين فرقٌ كثيرةٌ اختلفت

رواياتهم التي حكوها حول أمورٍ جوهريةٍ تمسُّ صميم دينهم، لتتفرع الحقيقة الكبرى إلى حقائق صغيرة بعضها صحيح، وبعضها تم دسُّه وتلفيقه ليثبت حجة الفريق ضعيف الحجة.. حدث ذلك في اليهودية، وفي المسيحية، ولا أستثني الإسلام من ذلك، الذي ستجد داخله اليوم سنة وشيعة وفرقًا أخرى، ومن يقرأ ويبحث ويعيد كل الفرق إلى بداية نقطة الخلاف ويربط الروايات المختلفة أو المتناقضة بالتاريخ دون أي تحيز لفريقٍ أو مذهبٍ، سيصل إلى حقيقة الحقائق.

وبالرجوع إلى التاريخ، والتنقيب في رواياته وأخباره عن حقيقة حادثة الصلب، ومَن المصلوب فيها سنجد أن قدماء المسيحيين كثر منهم منكرو صلب المسيح، وقد ذكر المؤرخون المسيحيون أنفسهم أسماء فرقٍ كثيرةٍ أنكرت الصلب فى البيئة المسيحية أصلًا قبل ظهور الإسلام نفسه مثل أتباع فرقتي السيرنثيين والكربوكراتيين، الذين قالوا إن المسيح نفسه لم يُصلب ولم يُقتل، وانما صُلب واحدٌ من تلاميذه، يُشبهه شبهًا تامًّا، وهناك أيضًا الباسيليديين الذين يعتقدون أن شخصًا آخر صُلب بدلًا من المسيح.

وثمة فِرق مسيحية قالت بأن المسيح نجا من الصلب، وأنه رفع إلى السماء، ومنهم الروسيتية والمرسيونية والفلنطيانية، وهذه الفرق الثلاث تعتقد بألوهية المسيح بشكل يخالف عقيدتنا، لكنهم يرون أن القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البنوة والإلهية.

بخلاف فرقٍ أخرى أنكرت صلب المسيح مثل الكورنثيين، والساطرينوسيّة، والماركيونية، والبارديسيانية، والبارسكاليونية، والبولسية، والماينسية، والتاتيانيسيون، والدوسيتية، والمارسيونية، والفلنطانيائية، والهرمسيين، وبعض هذه الفرق قريبة العهد بميلاد المسيح، إذ يرجع بعضها للقرن الميلادي الأول، وقد تم وصف كل من أنكر ألوهية المسيح أو صلبه بالهراطقة وتمت مطاردتهم، حتى وإن كانوا يؤمنون بوصاياه وتعاليمه، وتم وصفهم بالغنوصيين.

- الغنوصيين؟

- الغنوصية كلمةٌ يونانيةٌ تعني المعرفة، وقد بدأت قبل المسيحية في فترة سيطرة الإمبراطورية الرومانية، وبدأت تعتمد على الفلسفة والتفكير في محاولة للوصول لأصل هذا العالم، وتذهب الغنوصية إلى أن الخلاص هو في تعلّم الأسرار الخفية ومعرفة أصل الروح ومصدرها الحقيقي، وتؤمن أن الروح الخيِّرة دائمًا ما تكون في مواجهة الجسد الشرير، وفي حالة تعارض دائم مع المادة الفاسدة، مما تسبب في كراهيتهم للدنيا المادية ودعوتهم الدائمة إلى التقشف. وفي العقيدة الغنوصية، فإن الإله الحقيقي هو إله يخفى عن عيون البشر ويتجلى بإله سفلي هو خالق العالم، وترفض الغنوصية إله العهد القديم التوراتي، وتعتبره خالقًا شيطانيًا، شريرًا وغيورًا ومسؤولًا عن كل مثالب العالم. وتعتبر المسيح معلمًا روحيًا مكلفًا بقيادة البشرية نحو معرفة الله الحقيقي الخفي، والمسيح حسب الغنوصية ليس ابن إله العهد القديم، بل هو من شيث الابن الثالث لآدم، وهي حركة فكرية شديدة الشبه بالتصوف الإسلامي، وتعتبر من ينتمي لها عارفًا من العارفين، غير أنها تنقسم إلى فرقٍ مختلفةٍ بعضها بعيدٌ كل البعد عن أي دينٍ سماوي.

واستمر صراع الغنوصيين مع المؤيدين لألوهية المسيح وصلبه حتى القرن الثاني، إذ يقول المؤرخ جون فنتون: "إن إحدى الطوائف الغنوصية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيروني الذي ذكر في أناجيل مرقس ومتى ولوقا، قد صُلب بدلًا من يسوع". فقد أجمعت الأناجيل الثلاثة المتوازية على أن سمعان القيروني هو الذي حمل الصليب وليس يسوع، ودون ذكر سبب يبرر ذلك، عكس ما كان سائدًا وقتها وهي أن الشخص المقرر صلبه هو الذى يحمل صليبه وليس غيره، حيث كان الرومان يحرصون على أن يشعر من يُساق لعقوبة الصلب بالذل والخوف وهو يحمل الوسيلة التي سيموت عليها.

واعتبر القديس إيرينيؤس الذي جاء في القرن الثاني، أن الفرقة التي قالت عن المسيح ليس هو الذي مات بل سمعان القيروني الذي حمل الصليب وأخذ شبه يسوع وصُلب مكانه بينما يسوع أخذ صورة سمعان وكان يضحك على صالبيه وهو يقف بجوارهم، أنهم هراطقة.

واستمر إنكار صلب المسيح بعد القرن الثاني، فكان من المنكرين الراهب تيودورس الذي عاش في القرن السادس، والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص الذي عاش في القرن السابع وغيرهما.

وفي أعمال يوحنا وهو من أسفار الأبوكريفا غير القانونية يقول المسيح: "لست أنا يسوع المعلق على الصليب".

وتوجد أناجيل أخرى تحمل أسماء تلاميذ يسوع تؤكد نجاة المسيح دون أن تذكر اسم المصلوب كرؤية بطرس صخرة الكنيسة التي جاء فيها: "قال لي يسوع إن الذي شاهدته يضحك على الشجرة فهو يسوع الحي، أما الذي تسمَّر المسامير في يده وساقيه فهو الجسد البديل آخذًا شبهي ليُساق للعار".

فإلى جانب الأناجيل الأربعة المعتمدة حاليًا، والتي اعتُبرت وحدها قانونية، تداول المسيحيون خلال القرون الأولى الميلادية عددًا كبيرًا من الأناجيل والرؤى والأعمال التي دُعيت منحولة فيما بعد، ومُنع المسيحيون من قراءتها وتداولها، رغم أنها تتضمن رواياتٍ عن أسرة مريم العذراء، وميلادها، وحياتها، وتاريخ يوسف النجار، وميلاد المسيح، وطفولته، ويفاعته، مما يغطي الفترة التي تجاهلتها الأربعة أناجيل، حيث لم ترد فيها أي تفاصيل أو وقائع بعد ميلاد المسيح إلى أن عاد إلى بيت لحم بعد إتمامه الثلاثين عامًا، باستثناء واقعة وحيدة انفرد بها إنجيل لوقا حين كان عمره 12 سنة.. فلم نقرأ كيف عاش الإله وفقًا للعقيدة المسيحية مرحلة طفولته وصباه ومراهقته.. وهكذا أصبحت هناك أناجيل رسمية لكنها ليست ثرية، وأخرى منحولة بها الخيال الشعبي والتقوى المسيحية البسيطة ورغم منعها إلا أنها كان لها بالغ التأثير في الفن التشكيلي المسيحي، والموسيقى الكنسية، والمناسبات والأعياد الدينية، ونوع آخر من الأناجيل والمؤلفات الغنوصية أحدثت شرخًا حقيقيًا في الكنيسة مبكرًا.

- لكن يا سيدي الكنيسة لا تؤمن سوى بالأربعة أناجيل الرسمية فقط، فما الذي يُمكن قوله لمن لم يقرأ سوى هذه الأناجيل فقط؟

- إذا كانت الكنيسة الرسمية لا تؤمن سوى بالأربعة أناجيل الرسمية

فقط، فعقل الإنسان وقلبه لا يمكن احتكاره.. ونهر العلم والمعرفة والاطلاع لا حراس عليه يمنعون أحدًا يريد أن يشرب.. وحتى هذه الأناجيل الأربعة توضّح أن اليهود الذين جاءوا للقبض على المسيح لم يكونوا على علمٍ تام بشكله وأوصافه، وإلا لماذا كانت هناك علامة بين يهوذا والجنود على تعريف المسيح.. فقد ورد في إنجيل متّى: "وكان الذي أسلمه قد جعل لهم علامة إذ قال: هو ذاك الذي أقبله، فأمسكوه". كما يقول إنجيل يوحنا: "فجاء يهوذا بحرس الهيكل والحرس الذين أرسلهم عظماء الكهنة والفريسيون حتى بلغ ذلك المكان، ومعهم المصابيح والمشاعل والسلاح. وكان يسوع يعلم جميع ما سيحدث له، فخرج وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم: أنا هو. وكان يهوذا الذي أسلمه واقفًا معهم"، كما توضح تلك الأناجيل أن المسيح كانت لديه قدراتٌ هائلةٌ في التخفي، وجعل العيون لا تعرفه، والدخول على تلامذته والأبواب مغلقة، إذن عملية إلقاء الشبه على آخر كانت سهلة وميسورة وقد أرانا يسوع منها الكثير.

ثم أن الأناجيل الأربعة القانونية منسوبةٌ في كتابتها إلى أسماء 4 شخصيات من عصر الرسل الذين كانوا يبشرون الناس بالمسيحية، وهم مرقس، ومتى، ولوقا، ويوحنا، لكن يبدو أن نسبة كل إنجيل من الأناجيل الأربعة إلى واحدٍ من هؤلاء ووضع أسماء هؤلاء الرسل على تلك الأناجيل كعناوين لها، قد حدث بعد كتابتها بزمن طويل لإضفاء السلطة والمصداقية عليها، بدليل إن أقدم إشارة إلى متّى ومرقس بوصفهما مؤلفين لإنجيليهما قد وردت لدى أوزيبوس القيساري الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، ووضع في تاريخ الكنيسة كتابًا اعتمد في أخباره عن الإنجيليين على الأسقف بابياس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، وقال الأسقف بابياس إن متّى كان أول من جمع تعاليم يسوع، في كتابٍ دعاه بالـ "أقوال" باللغة الآرامية، ثم قام الآخرون بترجمته كلٌ حسب مقدرته، ولا أحد يعرف إذا كان هذا الكتاب هو إنجيل متّى المعروف حاليًا أم لا، ولا أحد يعرف إذا متّى الذي نقل أقوال المسيح هو نفسه متّى العشار تلميذ المسيح أم لا، لا سيما أن معظم الباحثين في العهد الجديد في



القرن التاسع عشر يشكّون بنسبة إنجيل متّى إلى متّى العشار تلميذ المسيح، وبالنظر إلى فكرة كتاب الأقوال التي أخذها متّى من المسيح ومقارنتها بإنجيل متّى الحالي، سنلاحظ أن مؤلفي الأناجيل الأربعة قد اعتمدوا مجموعة أو أكثر لأقوال المسيح مما نزل عليه من الله، ثم وضعوا لها مناسبات معينةً وشبّكوا هذه المناسبات إلى بعضها لتعطي الإنطباع وكأنها سيرةٌ أو ملحمةٌ عن حياة المسيح رغم أنها ملحمةٌ ينقصها الكثير من التفاصيل عن حياتها كما أخبرتك، وبشكلٍ عام هناك شبه إجماع بين دارسي العهد الجديد أن متّى ومرقس ولوقا مؤلفي الأناجيل الثلاثة لم يروا يسوع أو يسمعوا منه بشكلٍ مباشر، وإنما كتبوا أناجيلهم بعد مضي جيلٍ أو جيلين على وفاة يسوع.

وبالمثل يقول الدكتور القس فهيم عزيز في كتابه (المدخل إلى العهد الجديد): "هذا الأمر يختلفُ عما يقوله الإسلام من أن الإنجيل نزل على يسوع أو (عيسى) بلغة القرآن, فالمسئول الأول عن كتابة هذا الكتاب الذي نسميه العهد الجديد ليس يسوع؛ بل المسيحيين, سواء من الجيل الأول أو من الجيل الثاني من التلاميذ. وهذا الكتاب ليس كتابًا أزليًا كان محفوظًا في اللوح المحفوظ, ولكنه كتاب نشأ في وسط الكنيسة وبواسطتها ومن أجلها".

- ألهذا السبب هناك تناقضات بين تلك الأناجيل في الكثير من النقاط الجوهرية؟

- بكل تأكيد يا ولدي.. فإذا تتبعنا ميلاد يسوع في إنجيل متى وانجيل لوقا لوجدنا العجب العجاب في قضية نسبه.. فإنجيل متّى يقول إن السيدة مريم أم المسيح كانت متزوجةً من يوسف النجار الذي يمتد نسبه إلى أنبياء الله داود، واسحق وابراهيم، وان اسم والد يوسف النجار كان يعقوب فإذا كانت مريم تشتهر بأنها العذراء فكيف كانت متزوجةً من يوسف؟ وما حاجتنا لمعرفة نسب يوسف النجار إلى أنبياء الله داود وابراهيم إن لم يكن هو الوالد الحقيقي للمسيح؟ وطالما المسيح ليس ابنًا ليوسف النجار الذي يمتد نسبه إلى نبي الله داود، فكيف جاء في إنجيل متى أن المسيح تَبِعَهُ أَعْمَيَانِ يَصْرَخَانِ وَيَقُولاَنِ: "ارْحَمْنَا يَا ابْنَ

دَاوُدَ" رغم أن المسيح هو ابن الله وليس ابن يوسف النجار؟

والآن تعالَ نتعرف على نسب المسيح في إنجيل لوقا.. سنجد أن والد يوسف النجار كان اسمه هالي وليس يعقوب، وأن نسب يوسف النجار يمتد إلى نبي الله داود وابراهيم ثم يكمل هذه المرة إلى نبي الله آدم أبي البشرية، وكمية التناقض بين سلسلة نسب يوسف النجار في كلا الإنجيلين رهيبة حتى لكأن كلا الإنجيلين يتحدث عن شخصيْن مختلفيْن وليس شخصًا واحدًا، والسؤال هنا: ما جدوى معرفة نسب يوسف النجار ما دام ليس الأب الحقيقي للمسيح؟ ولماذا للمرة الثانية يأتي في إنجيل لوقا وصف للمسيح بأنه ابن داود رغم أن الكتاب المقدس يقول إن يوسف ليس هو الوالد الحقيقي للمسيح؟ والطريف أن الذي يقول على المسيح إنه ابن داود هذه المرة هو الملاك جبرائيل نفسه حين قال لمريم: "وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ"، فأيهما والد المسيح.. الرب أم داود؟

أتعرف السر في ذلك؟

سألني فهززت رأسي نافيًا، فأجاب:

- لأن نبوءات اليهود كانت تقول إن المسيح المنتظر سيكون من نسل بني إسرائيل، وكان لقب ابن داود يشير إلى ملك اليهود المنتظر، لذا كان لا بد من تلفيق نسبٍ للمسيح يمتد إلى داود ويعقوب وابراهيم رغم أن هذا ينسف عذرية مريم من الأساس.. أمَا كان من الأفضل ما دام المسيح ابن مريم أن يتم تتبع سلسلة أجداد مريم نفسها؟

وأين واقعة اتهام بني إسرائيل لمريم بالزنا في هذين الإنجيلين رغم أن التاريخ والتلمود اليهودي يقولان إن اليهود رموا مريم بتهمة الزنا؟ وحده القرآن الذي ذكر الواقعة ودافع عن طهارة وعذرية مريم وفضَّلها على نساء العالمين، بينما يذكر التلمود اليهودي أن يسوع – حاشا لله– هو ابن العاهرة، وأسهم إنجيلا متّى ولوقا في تعضيد ذلك دون قصد!

ثم أخذ الشيخ خضر يُعدد لي التناقضات بين الأناجيل الأربعة في الكثير

من الأمور الرئيسية المهمة، مثل اختلاف تاريخ ميلاده في الأناجيل، واختلاف تفاصيل واقعة الصلب، واختلاف تفاصيل قيامته من الموت بعد ثلاثة أيام، وغيرها دون أن أملك سوى الدهشة والحيرة، مع كل حرفٍ يقوله، لينهي كلامه قائلًا:

- كل هذه التناقضات المحيرة لبني الإنسان أسهم في صناعتها الشيطان وأعوانه من الذين أراد بعضهم الانتصار لعقيدته فزاد عليها من خياله ما يُغري الناس على اتباعها، أو حذف منها ما قد يُنفر الناس من الانضمام لها، أو أولئك الذين بدَّلوا كلمات الله ليرضوا الملوك والقياصرة يبتغون عوضًا من المال والجاه، وجميعهم على اختلاف النوايا في حزبٍ واحدٍ أسهم في بؤس البشر وتشتيت تعاليم السماء.

فقد هوَّن الشيطان من قدرات المسيح وهو حي فاتهمه اليهود بالسحر.. ثم هوَّل من قدراته بعد رفعه فاعتقد أتباعه بألوهيته.. وهذه فتنة من أعظم الفتن التي هزت أرجاء الأرض.

حينها تساءلت في نفسي:

- لماذا لم ألاحظ ذلك حين قرأت الأناجيل الأربعة من قبل في الكاتدرائية؟ هل يقع الإنسان تحت تأثير حالةٍ معينة حين يُحاول الانتماء لدينٍ ما تجعله لا يُلاحظ أمورًا قد تبدو جليَّة لغيره؟

....

جذبني الفضول للاطلاع على صورةٍ من المخطوطات الغنوصية التي عثر عليها بالمصادفة في نجع حمادي عام 1945 ميلاديًا، وتعود للقرن الخامس الميلادي، وتنفي واقعة صلب المسيح، لأرى وجه الشبه بين العارفين المسيحيين والمتصوفين المسلمين الذين ينشدون على اختلاف انتماءاتهم إلى العروج إلى السماء والارتقاء بالروح عن ظلام الجسد، وكان الأمر رهيبًا بحق.

فقد تبحَّرت أكثر وأكثر في الغنوصية وعلمت أن المسيحية السائدة اليوم على اختلاف طوائفها ترجع في أصولها إلى صيغةٍ اتخذت ملامحها العامة في نهايات القرن الثاني الميلادي، عندما تبنت كنيسة روما

الأناجيل الأربعة المعروفة إضافة إلى رسائل بولس التي كانت متداولةً بشكلٍ مكتوبٍ قبل تدوين الأناجيل الأربعة بوقتٍ طويلٍ، وفي نهاية القرن الرابع الميلادي تم اعتماد أسفار العهد الجديد بشكلها الحالي بأمر الكنيسة الرسمية التي انتقتها من بين عشرات الأسفار المقدسة التي كانت متداولةً بين المسيحيين، ووصمت بقية الأسفار بالزيف ودعتها بالمنحولة، ودعت أولئك الذين يتداولونها بالهراطقة، مما يعني ان المسيحية الرسمية لم تتشكلْ إلا عبر صراعٍ طويلٍ بين مجموعةٍ من الفرق التي تنازعت فيما بينها بعد واقعة الصلبْ، وكان أول انشقاقٍ بين كنيسة أورشليم وكنيسة الأمم.

وفي نهاية القرن الثاني، نجحت كنيسةُ الأمم في صياغة الشكل المبكر من قانون الإيمان المسيحي، ونظمت الكنيسةُ نفسها في مؤسسة لها هيكلٌ تنظيمي يتكون من 3 شرائح كهنوتية، هي الأساقفة، والقساوسة، والشمامسة، الذين نظروا لأنفسهم باعتبارهم حماة الإيمان الحق، والمصدر الوحيد لتفسير الكتاب المقدس.

في تلك الأثناء التي كان فيها صراعاتٌ بين كنيسة أورشليم وكنيسة الأمم، بدأ بالظهور في سوريا ومصر الحركة الغنوصية التي عارضت كلتا الكنيستين، واتخذت شكلًا كنسيًّا غير نمطي، ولا توجد فيه المراتب الكنسية الموجودة في الكنيسة الرسمية، وقالوا إن لديهم تعاليم ووصايا أخرى للمسيح، وعزلوا أنفسهم تمامًا عن كل ما هو يهودي، بعدما رأوا في التوراة أمورًا لا تليق بإله، وقالوا إن الإله الموجود في الكتب التوراتية جدير بأن يكون إلهًا للشر، ثم أنتجوا أناجيلهم الخاصة، التي قالوا باعتمادها على فهمهم الأصيل لتعاليم يسوع، بالإضافة إلى الرؤى والمكاشفات الروحانية التي جعلتهم يصلون إلى الحقيقة، وحين تحداهم البعض وسخروا منهم، قالوا لهم إن بولس الرسول الذي تعتمد الكنيسة الرسمية على كتاباته قال أيضًا إنه اختطف إلى السماء الثالثة، ورأى الفردوس، وسمع كلمات لا تُلفظ، ولا يحل لإنسان أن يذكرها، وكما تلقى بولس تعاليم خفية من الملأ الأعلى، قال المعلمون الغنوصيون إنهم تلقوا حكمةً خفيةً من يسوع الحي، حيث تلعب شخصية يسوع الروحاني لا يسوع الناصري دورًا مركزيًّا في تعاليمهم، وتبدأ بعض أناجيلهم من حيث تنتهي الأناجيل الأربعة.

وفي كتاب يوحنا السري، ظهر المسيح الروحاني لتلميذه يوحنا، وأوضح

له أهم المسائل التي خفيت عليهم حول أصل الكون والإنسان والشر وطبيعة الخلاص ليطمئن قلوبهم، وفي نص الأطروحة الثانية لشيث الكبير قال لهم إنه لم يمت حقيقةً على الصليب، وإن ما رأوه من موته لم يكن سوى مظهرٍ خادعٍ، وأنهم ما ضربوه وما أهانوه وما سقوه الخل والمرار، وإنما فعلوا ذلك بآخر اتخذ شبهه.

والمذهل أن الغنوصيين يرون في يهوذا الإسخريوطي قديسًا، ضحى بنفسه وبسمعته، ووافق أن يلاحقه العار بوصمة خيانة المسيح وتسليمه الفريسيين التي اتهمته بها الأناجيل الرسمية، بينما كان في حقيقة الأمر هو الشخص الأقرب ليسوع، وهو الوحيد الذي كان يفهمه بعمق، وحين جاءت اللحظة المناسبة التي كان على المسيح فيها أن يُغادر هذا العالم، كان لا بد وأن يظهر أحدهم بمظهر الخائن حتى يطمئن إليه اليهود ويعطوه النقود الفضية مقابل تسليمهم يسوع، إذ يقول إنجيل يهوذا الغنوصي إن المسيح قال ليهوذا قبل واقعة الصلب بفترة: "لنبتعد عن الآخرين حتى أستطيع أن أروي لك عن أعجوبة العالم. أنت ستصل إليها، ولكنها ستقدم لك مشاكل كبيرة".

ويؤمن الغنوصيون أن كل من تبع الروح وعرف مسلكها يستطيع التواصل الإلهي دون واسطة.. "يؤمن الناس بناء على شهادة الآخرين أولًا، ثم يأتي وقت يستمدون إيمانهم فيه من الحقيقة نفسها، وتصبح الرؤيا منبع عرفانه الخاص".

علمت أيضًا أن بعض الغنوصيين يقول إن الذين يبشرون بالأناجيل الرسمية، ما زالوا تحت تأثير الفكر اليهودي لذا يرى كاتب (رؤيا بطرس) أن الأساقفة والقساوسة والشمامسة الذين يدَّعون تلقي سلطتهم من الله، ليسوا إلا جداول ماء جافة، ويتفاخرون بامتلاكهم وحدهم أسرار الحقيقة، على الرغم من أنهم لا يفقهون الأسرار، وأسسوا لكنيسةٍ زائفةٍ بدلًا من الأخوية المسيحية الحقيقية، لكنهم في حقيقة الأمر مجرد موظفين كنسيين، لذا فإن من حاز على العرفان فقد تخطاهم بكثير، ولم يعد خاضعًا لسلطتهم، وهذا ما قاد إلى عدم وجود مؤسسة دينية غنوصية، لأن القيادة فيها تبقى تلقائية ومفتوحة ومتبدلة.

وفي إنجيل فيليب الغنوصي فإن ما يهم الكنيسة القويمة الرسمية هو تغطيس الناس في ماء العماد لزيادة الكم، وطاعة الأتباع العمياء لرجال

الدين، بينما تركز الغنوصية على حرية الفرد في سلوك طريقه.

ويقول مؤلف نص بيان الحقيقة الغنوصية:" إن طاعة رجال الدين تسلم المؤمنين إلى قيادة عمياء تستمد سلطتها من إله العهد القديم، لا من الله الحق، وتربطهم إلى أيديولوجيا سقيمة وطقوسٍ ساذجة، مثل طقس المناولة ذي الطابع السحري، وطقس العماد الذي يدّعي ضمان الخلاص لهم، لكن الخلاص الحقيقي أكثر مشقةً من ذلك، ويقوم على معرفة النفس، ومعرفة الله في الداخل، وينتهي بالاستنارة التي تليها القيامة الروحية في هذا العالم لا بعد الموت، حين تسكن الروح إلى الساكن الأبدي.

ويقول مؤلف نص التعاليم المعتمدة الغنوصي:"إن المعرفة تكشف عن الأصل السماوي للروح، التي هبطت مثل شرارة من الروح الأسمى، وسُجنت في الجسد المادي، وأن أتباع الكنيسة القويمة هم في غفلة عن أنفسهم لأنهم لا يبحثون عن الله؛ بل يقنعون بعددٍ من الإجابات السطحية المطمئنة"، ذلك أن أتباع الكنيسة القويمة يعبدون إله العهد القديم على أنه الله، ويعتقدون بأن المسيح الذي قام من بين الأموات سوف ينجيهم من الخطيئة، أما الذين تلقوا العرفان فقد تعرفوا على المسيح باعتباره مرسلًا من "أبي الحقيقة".

ويأتي الخلاص عند الغنوصيين عن طريق فعالية روحانية داخلية تقود إلى معرفة النفس، ومعرفة النفس تقود إلى الطبيعة الإنسانية ومصير الإنسان، وفي أعمق مستوياتها تقود إلى معرفة الله ذوقًا وكشفًا وإلهامًا. عند ذلك يمكن تحرير الروح الحبيسة في الجسد المادي والعالم المادي لتعود إلى العالم النوراني الذي صدرت عنه بعد أن تقوم قيامتها وهي على الأرض وتولد الميلاد الثاني.

"اترك التفتيش عن الله، والبحث في مسائل الخلق والتكوين وما إليها.. لمعرفة الله ابدأ بنفسك، واهتد إلى من في داخلك يقول: إلهي، وعقلي، وأفكاري، وروحي، وجسدي. اهتد إلى مصدر الأحزان، والغبطة، والحب، والكراهية... فإذا استقصيت هذه الأمور فإنك واجد الله في ذاتك".

"خبيئتك تنطوي على طاقة جبارة هائلة" و"من لم يعرف نفسه، لم يعرف شيئًا، ولكن من عرف نفسه حقق في الوقت نفسه معرفة بأعماق الكل".

"الجهل نقيض المعرفة، ومن هنا فإن البؤس الإنساني يعود إلى الجهل لا إلى الخطيئة، حيث يعيش البشر في هذه الحياة في حالة نسيان وغفلة، وعدم إحساس بذواتهم الحقيقية".

"الوجود أشبه بالكابوس، فالنائم يرى أحيانًا أنه يسقط من جبلٍ عالٍ، أو تطارده الوحوش المفترسة، أو يُلاحقه قاتل، أو يطير في الهواء من دون جناح، لكنه حين يستيقظ من نومه يتلاشى كل ذلك.. هذا هو حال أهل العرفان الذين تخلصوا من جهلهم، مثلما يتخلص النائم من كابوسه، تاركين حياة الجهل مثلما يترك من أفاق من نومه أحلامه وكوابيسه، مقبلين على عالمٍ جديدٍ يتلاشى فيه الجهل، مثلما يتلاشى الظلام أمام نور الصباح".

"قم من هذا النوم الذي يثقل عليك.. اصح من الغفلة التي تملؤك بالظلام. لماذا تطلب الظلام مع أن النور متاح لك؟ الحكمة تناديك، ولكنك تطلب الحماقة. الإنسان الأحمق يتبع طريق الرغبات والشهوات، ويغرق في مستنقعاتها..مثل سفينة جانحة تدفعها الرياح في كل اتجاه، أو مثل حصان جامح بلا فارس، يحتاج لجامًا هو الرشد.. فالعقل والرشد هما المرشد والمعلم".

"اقرع على باب ذاتك، وامش عليها كما تمشي على طريق ممهد مستقيم، فإذا مشيت في هذا الطريق لن تضل أبدًا".

[illegible]امت من الغنوصيين كيف سأل التلاميذ المسيح أن يريهم مكان الحياة والنور النقي، فأجاب: "من علم منكم نفسه رآه.. ومن يبحث عن الحقيقة هو الذي يكشف عنها".

"من يحقق العرفان لا يغدو مسيحيًا فحسب؛ بل يغدو مسيحًا".

"إن الوجود الإنساني هو نوعٌ من الموت الروحي، أما القيامة فهي لحظة الكشف والاستنارة التي تنقل العارف إلى عالمٍ جديدٍ، ومن يصحو على هذه الحقيقة يغدو حيًّا من الناحية الروحية.. باستطاعتك الانبعاث من عالم الموتى هنا والآن.. فالقيامة تحدث هنا، لا في مستقبلٍ ما".

نظرت إلى السماء بعد هذه الجولة المعرفية، فوجدت النجوم أقرب إلى يدي من أي وقتٍ مضى.. الآن صرت فاهمًا لعالم الملكوت، ومحيطًا

بعظمة الروح والنفس القادرة على احتواء الكون بأكمله داخلنا رغم هذا الجسد الطيني الضيق الذي يُكبلنا..

في نفسك يا ابن آدم الكون بأكمله.. الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وإبليس وجنده.. أنت مسيح نفسك ومحمدها، أو شيطانها كيفما أردت.

....

"مع كل يوم يمضي، تقترب أكثر من الحقيقة، وتتخلص من قيود الجسد وأوحاله الطينية.. ألم أقل لك إن الحد الفاصل بين الإنسان والملائكة يمكن تجاوزه بسهولة".

قالها لي الشيخ خضر بابتسامةٍ أبويةٍ أطلت فيها من عينيه لمعة دامعة لم أعرف مصدرها، لكني سألته على أي حال:

- بلى يا أبي، غير أنك لم تقل لي بعد كل شيء عن الملائكة.
- القرآن والسيرة النبوية بمثابة مأدبةٍ لكل من يريد أن يغترف من العلم والمعرفة لا سيما عن عالم الملكوت.

فمنذ بدء الخليقة، وزع الله مهامه على ملائكته ليصنفهم إلى درجاتٍ ورتبٍ وتخصصاتٍ لإدارة شئون الكون تحت إشرافه وسلطانه، وأناط بجزء منهم متابعة آدم ونسله المرتقب ما بين ملائكة لأنه يعلم أن الإنسان في جسده الطيني الضعيف لن يحتمل التواصل المباشر مع الله، ولأن ظهور الله وحديثه المباشر ينسف اختباره الأزلي للبشر.. فجعل هناك ملائكة موكلين بتدوين حسنات وسيئات البشر، ليخصص لكل إنسان ملكين أحدهما عن يمينه، يدون أفعاله الحسان، أو يتأمل الهالة النورانية المحيطة بالإنسان دون أن يراها البشر أو يدركوا ماهيتها، فإذا ما همَّ ابن آدم بفعل حسنة أو شيء محمود يضمره في نفسه تتوهج الهالة المحيطة به فتعرف الملائكة أن بداخله نوايا طيبة، فيكتب له الملك في صحيفة أعماله حسنة حتى وإن لم ينفذ الفعل الذي كان ينتوي القيام به، أما إذا نفذه فيسجل له بدلًا من الحسنة 10 حسنات، مع إمكانية أن يضاعف الله الأجر لعباده الذين يُحبهم ويُريد إكرامهم، وجعل هناك ملكًا آخر عن شمال الإنسان ليدون

ذنوبه وخطاياه فإذا ما همَّ الإنسان بفعل السيئة توهجت الهالة النورانية المحيطة به بما يشي بالشر المقدم عليه، فلا يكتبه الملك بسيئة إلا إذا تحولت النوايا إلى واقع نفذه الإنسان وصار أمرًا مفعولًا، بعد أن ينتظر مدة من الوقت قبل تدوين السيئة لعل ابن آدم يتوب أو يستغفر، فلا تُكتَب السيئة في صحيفة أعماله وكأنه لم يرتكبها.

هكذا تعلمت الملائكة أن تطلع على تفكير البشر من الخارج بفعل وهج نوراني يبرز تصنيف الأفكار الكامنة في النوايا ما بين خير أو شر، دون أن يبرز طبيعة الفكرة نفسها وماهيتها وأبعادها، بعد أن تعلمت الملائكة أن الرب يوقف كل جنده على باب ذات الإنسان العميقة التي تكمن فيها حقيقته الخالصة ونواياه وأحلامه، ولا يسمح لأحدٍ بالدخول في تلك الذات بعد أن جعلها حرمًا نسج حوله الخصوصية الشائكة، وخلقها حرة كالطائر الغرد.

فرض الله حول ضمير الإنسان قيودًا سريةً تقف على أعتابها ملائكته وجميع مخلوقاته فلا يحاسبه أحدٌ على ذلك التدفق الرهيب من الأفكار، والتساؤلات، والهواجس، والرغبات، في طوفان محموم داخله لا أول له ولا آخر، ما دام كل ذلك يسبح في الذات ولم ينفذ إلى عالم الواقع، والماديات المتجسدة.

فكم من مؤمنين ستثني عليهم الملائكة وتصلي لهم، دون أن يكشفوا تلك اللحظات التي يتطرقون فيها لأسئلةٍ محرمةٍ من عينة: كيف نشأ الله؟ ولماذا يتحكم فينا بهذا الشكل؟ وما جدوى الخلق؟ وما حقيقة الأنبياء والرسالات ويوم الدينونة؟ وبأي ذنب يدفع الإنسان ثمن خطيئة أبيه آدم حين أكل من الشجرة ليتوارث نسله المصير البائس؟ ليحتفظ الرب وحده بالقدرة على المروق داخل الأنفس والذوات، والاطلاع على الأسرار والخفايا والتساؤلات، فيعرف ما تنوء عن حمله القلوب والعقول، وتخشى في الوقت نفسه أن تجهر به، باعتباره الوحيد القادر على تفهم نقائص مخلوقاته والتجاوز عنها.

دمعت عيناي وسالت الدموع ساخنة على وجنتيَّ وقد جاء كلامه على

جرحٍ في أعمق أعماق النفس وكأنه يحكي عني في فترةٍ من الفترات، فمدّ يده بحنانٍ أبوي يمسح دموعي وتابع:

- بخلاف ما سبق، هناك ملائكة الأرحام، التي تتنزل في رحم كل أم تخصبت بويضتها بحيوانٍ منوي وأصبحت داخلها نطفة في نواتها كل عوامل الوراثة لتكوّن خليةً حية بسر الحياة الذي ابتدأ بخلق النفس الواحدة في آدم، وانتقل بعدها إلى كل فرد من ذريته لتتوارثه البشرية حتى قيام الساعة، وتلازم هذه الملائكة الجنين ملازمةً تامةً، ويشاهدون مراحل تصوره في الأرحام لكنهم لا يعلمون سر ما يشاهدون، ليسألوا الله بعد فترةٍ من خلق النطفة عن هذا المخلوق القادم: أذكر أم أنثى؟ أسوي أم غير سوي؟ ما رزقه؟ ما خُلُقه؟ أشقي أم سعيد؟ لتدون الملائكة إجابات الخالق في صحيفةٍ خاصةٍ بكل مولودٍ جديدٍ، في سجل القيد المدني بوحدة إدارة الكون!

كما خلق الله ملائكة سيّارة ليسيحوا في الأرض حتى إذا وجدوا مجلس ذكر يتحدث المجتمعون فيه عن الله وقدسياته جلسوا يستمعون، حتى يتوافد الملائكة على المكان ويجلسون فوق بعضهم البعض درجاتٍ فوق درجاتٍ حتى يصلوا إلى السماء من فرط عددهم، فيسألُ الله أعلاهم من أين جئت؟ – وهو أعلم – فيحكي الملاك عن أهل الذكر وكلامهم الطيب، فيغفر الله ذنوب الجمع ويبدلها حسنات.

وملائكة من الحفظة، يحمون البشر من أي طارئ أو مكروه غير مكتوبٍ في أقدارهم، فيتدخلون لمنعه والعمل على نجاة الإنسان، كما يتصدون للشياطين والجان ويحمون البشر من فتكهم وبطشهم ولولاهم لفتكت المخلوقات النارية ببني آدم.

وملائكة زاجرات، تزجر السحاب من موضعٍ إلى موضعٍ في السماء، ويزجرون قلوب بني آدم عن المعاصي، ويزجُرون الشياطين عن التعرض للمؤمنين بالإيذاء.

وملائكة مقسّمات، تقسم الأرزاق على العباد بإذن ربها..

وأخرى مُدبرات، تُدبر أمر هذا الكون بأمر الخالق وحكمته التي

ترشدهم إلى ما ينبغي عليهم فعله، وتكون هذه الملائكة وسيطًا بين الله تعالى وخلقه، إذ إن جميع المخلوقات سواء أحياء أو جمادات لا تطيق تجلي الله تعالى لهم، حيث حجابه النور، ولو كُشف الحجاب عنه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فجعل ملائكة، للجبال، والرعد، والسحب، والرياح.

وملائكة معقبات، يتعاقبون في الأرض ليلا ونهارًا، ويكون عددهم 10 ملائكة حول كل إنسان، بخلاف ملك قرين يكون على يمينه لا يأمره إلا بالخير، ويقابله جني قرين على الشمال يزين له سوء عمله، وهكذا يُخصص لكل ابن آدم 13 ملكًا، اثنين لحسناته وسيئاته، وملك قرين، و10 معقبات، وملائكة أخرى تتواجد مع الإنسان عند الحاجة.

وملائكة لزيارة المرضى ومراقبة صبرهم على الابتلاء، وملائكة تستغفر للمؤمنين وتدعو لهم بالرحمة، وملائكة تلعن الكفار والفاسقين.

وفي السماء، جعل الله أنواعًا أخرى من الملائكة، ما بين حملة العرش، والطائفين حوله يُسبحون الملك القدوس، ويعبدونه حتى يذهبوا خلف العرش ولا يعودون، دون أن يعلم أحد إلى أين ذهبوا، بخلاف الملائكة الصافات الذين يقفون في السماء صفوفًا في مواقف العبودية يسبحون الله ويحمدونه ويصلون على المؤمنين، لكل فريق منهم رتبة معينة، ودرجة محددة في الشرف والفضيلة، حتى إنه ما من موضع 4 أصابع في السماء إلا وعليها ملكٌ ساجدٌ لرب العالمين.

وفوق كل هذه الدرجات والرتب، كانت هناك أكابر الملائكة العظام، (جبرائيل) كلمة الله وروحه القدس الموكل بالوحي، وله ستمائة جناح، طول كل جناح من المشرق إلى المغرب، و(إسرافيل) صاحب البوق العظيم، الذي ينفخ فيه أشهر ثلاث نفخات في الكون، نفخة القيام، ونفخة صعق من في السماوات ومن في الأرض، ونفخة البعث، وله ستمائة جناح، كل جناح قدر جميع أجنحة (جبرائيل)، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسمائة عام، والسموات السبع إلى ركبتيه، وعنقه

ملوي تحت عرش الله المسنود على كاهله، واللوح المحفوظ بين عينيه، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى، والتقم الصور وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ في الصور، و(ميكائيل) صاحب إنزال الأرزاق من الله تعالى إلى عباده وتوزيعها عليهم مع معاونيه وهو الذي يحمل اسم (ميخائيل) في المسيحية، و(عزرائيل) ملك الموت ورسله من الملائكة الذين يعاونونه في قبض الأرواح، ما بين {نازعات غرقًا} ينزعون نفوس الكفار من أجسادهم، و{ناشطات نشطا} يأخذون أرواح المؤمنين النشطة المقبلة على مغادرة الجسد بعد أن رأوا مقعدهم في الجنة عند مليك مقتدر، و(رضوان) رئيس ملائكة الجنة، و(مالك) رئيس ملائكة النار.

فالعلوم السياسية الموجودة فى الدنيا وتقسِّم الناس لملوك ووزراء ورعية، مأخوذةٌ من السماء الموجود فيها التقسيم نفسه، مع الفارق أن في الأعالي لا يوجد حاكم يظلم محكومًا.. ولا محكوم يدعو بالانتقام على الحاكم.

وهناك ما ورد عن الملاك رتائيل الذي يسل الحزن من صدور المؤمنين، لكنه غير مؤكدٍ ولا وجود له في السيرة النبوية.. ويدعي إخواننا الشيعة وجود ملك من الملائكة اسمه فطرس، تروي قصصهم عنه أنه تأخر عن إجابة الله فغضب عليه وكسر جناحه ولم يجبر كسر جناحه إلا بعد أن تمرغ بفراش الإمام الحسين يوم مولده، ومنذ ذلك الحين وهو موكل بحمل السلام للإمام الحسين، وهناك ملك آخر في كتبهم اسمه صرصائيل مكتوب على كتفه: تزويج النور من النور، أي علي بن أبي طالب بفاطمة الزهراء بنت النبي محمد، وملك آخر يُقال له خرقائيل له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام، لكن أهل السنة لا يؤمنون بما جاء في كتب الشيعة، وأهل الشيعة لا يؤمنون بأغلب كتب أهل السنة، شأن أي دينٍ تحزب أتباعه لأكثر من فريق وجماعة، لكن كما قلت لك سلفًا يا ولدي.. من يقرأ ويبحث ويعيد كل الفرق إلى بداية نقطة الخلاف ويربط الروايات المختلفة أو المتناقضة بالتاريخ دون أي تحيز لفريق أو مذهب، سيصل إلى حقيقة الحقائق.

أيهما أفضل يا شيخ.. البشر أم الملائكة؟

قال الله جلّ وعلا في كتابه العزيز: **{وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}**.. فالإنسان لم يُخلق من أجل العالم كما يظن البعض، وانما تم خلق الكون نفسه من أجل الإنسان الذي مهد الله لخلقه في لوحه المحفوظ قبل بدء الخليقة نفسها، وجعله رمانة الميزان لصنع التوازن في الوجود كله بين باقي المخلوقات والخلائق، فإذا لم ينتج مثل هذا الإنسان لزم العبث في الخلق، وسارت الأمور على وتيرةٍ واحدةٍ بلا مخلوقٍ عاقلٍ يجمع قطع البازل ليُعيد ترتيب لوحة الإله بشكلٍ صحيحٍ.. نعم خلق الله الإنسان بعيوب صُنع متعمدة وجعله ظلومًا جهولا، لكنه غرس داخله كل مقومات العلم والعدل، حتى يبحث أول ما يبحث في نفسه، ويغير ضبط المصنع ليقدم نسخًا أعلى وأفضل مهيأة لإعمار الوجود، بعد وصول قوتي الفكر العقلي والإيمان القلبي إلى أفعال، وتحول النقص إلى كمال، فلم يقل الله على أي من مخلوقاته: {إني جاعل في الأرض خليفةً}.

أنت لغز ربك ورمزه.. أنت الهيكل الطيني الذي يُخفي داخله الأنوار الإلهية مثلما تُخفي الصدفة اللؤلؤة.. فالخالق يقول في كتابه العزيز: **{الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم}**..

والمعنى العميق من وراء الآية أن الدنيا مثل تلك الفجوة المحفورة في حائط بيتٍ قديمٍ حيث كانوا يضعون فيها المصابيح المنيرة، لعل تلك الفجوة تجمع ضوء المصباح وتركزه ليزداد سطوعه في البيت، والمقصود بالمصباح قلبك الذي كلما عمر بالإيمان كلما سطع وأنار الطريق أمام عينيك داخل الدنيا، هذا المصباح داخل زجاجة والمقصود بالزجاجة هو جسدك الطيني، الذي إذا تشبَّع بالإيمان صار مثل الكوكب الدري الساطع في الكون،

ومصباح النفس الإلهي لا يأتي من اتجاه واحد، لذا قال الرب: "يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية" أي أن أنواره لا تأتي من الشرق فقط فتخفق وتتوارى بالغروب، ولا تأتي من الغرب فقط فيزايلها الشروق، بل هي أنوار مطلقة لا تتقيد بالجهة والمكان والمقدار، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم.

فنحن نرى بالنور الأشياء التي يكشف عنها حين يبدد ظلمتها، وكلما كان ذلك الكشاف داخلك ذا إضاءة أقوى كلما أضاء لك أكثر وجعلك ترى وتستكشف ما لا يراه أصحاب الكشافات الضعيفة.

وفي الوقت نفسه أنت ظل الله الذي يلقي سراج نوره في عالم الامتداد والإمكان فينعكس ظله فيك، وهو ما أشار إليه في قوله: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنًا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا".

فأنت ظل الإله وهو شمسك، وحين يأتي الأجل سيقبضك قبضًا يسيرًا، أي قصير الوقت لأن الموت مرحلة يتلوها برزخ ثم بعث.

ومثلما يجتمع فيك النور والظل، يجتمع في خالقك الأضداد، ما بين مقدم ومؤخر، وقابض وباسط.

فالإنسان مجمع البحرين، يلتقيان ولا يمتزجان بينهما برزخ لا يبغيان.. بحر الروح، وبحر المادة.. بحر هوان العبودية، وبحر نور الألوهية..

إننا نسبح بين عوالم متعددة، عالم الصورة وما يتضح فيه من ماديات لها قشور ظاهرة، وستور بارزة، ويطلق عليه عالم المُلك، وخلف الصور أمورٌ باطنةٌ ومعانٍ خافية، ومخلوقات لطيفة تنتمي لعالم "الملكوت، فالروح مجانسة للملكوت والملأ الأعلى في صفائها ونورانيتها، والجسد مجانس لعالم المُلك والصورة بكثافته وظلامه وغلظته.

والإنسان ما هو إلا صورة مصغرة للعوالم والأكوان.. عالم المُلك كعالم جسمانيته، وعالم الملكوت كعالم روحانيته، كثيف العالم السفلي ككثيف جسمانيته، ولطيف العالم العلوي كلطيف روحانيته، وكل ما في الكون له ما يناظره ويقابله فيك.. فمثلما جُعِلَت جبال الأرض أوتادًا لتثبيتها وتقويتها، كذلك جُعِلَت العظام جبال جسدك وأوتاده.

وما في الكوكب من بحار مسجورة جارية وغير جارية، عذبة وغير عذبة لها ما يناظرها في جسدك من دم يجري في تيار العروق، ويسكن في جداول الأعضاء.. فيكون الماء في جسدك أحيانًا عذبًا مثل ماء الريق، فيطيب بعجينه المآكل والمشارب، أو مالحًا، مثل ماء العين الذي ينزل في صورة دموع، أو مرًّا مثل ماء الأذن المتجمد فيها لحمياتها من حيوان ودبيب يصل إليها فيقتله.

ثم في أرض جسد الإنسان ما ينبت كالأرض الخصيبة وهو رحم المرأة الولودة، وما لا ينبت كالأرض البور وهو رحم المرأة العقيمة، ومثلما في الأرض أنهار عظيمة تتفرع منها ترع وسواقٍ لنفع الناس بها، كذلك في أرض جسدك عروق غلاظ كالوتين الذي يبث الدم، وتستمد العروق منه إلى سائر الجسد.

حتى عالم السماء العلوي، الذي جعل الله فيه شمسًا كالسراج يستضيء به أهل الأرض، له ما يناظره في جسد الإنسان فجُعلَت الروح في الجسد يستضيء بها الجسد، ولو غابت بالموت لأظلم الجسد كظلمة الأرض إذا غابت عنها الشمس.

ثم جُعِل العقل بمنزلة القمر يستنير في فلك السماء، تارة يزيد وتارة ينقص، فابتداؤه صغير وهو هلال كابتداء عقل الصغير في صغره، ثم يزيد كزيادة القمر ليلة تمامه، ثم يبدو بالنقص، فهو بمنزلة بلوغ الأجل إلى تمام الأربعين، ثم يعود في النقص في تركيبه وقوته.

وجُعِلَ في عالم السماء عرشٌ وكرسي، فالعرش أوجده الله وجعله وجهة قلوب عباده، ومحل رفع الأيدي إليه، لا محلا لذاته،

ولا مجانسًا لصفاته، لأن العرش خلقٌ من خلقه، لا متصلٌ به، ولا ملامسٌ له، ولا يُحمَل الرحمن عليه، وأما الكرسي فهو وعاء أسراره، وكنانة أنواره، ومستودع ما في دائرة **{وسع كرسيه السموات والأرض}**.

فجُعِلَ الصدر بمنزلة الكرسي، لأن فيه تحصيل العلوم، وجعل القلب بمنزلة العرش، وعرش القلوب أفضل من عرش السماء، لأن عرش السماء لا يسع الخالق، ولا يحمله، ولا يدركه، وعرش القلب يستوعبه حين ينظر إليه، ويتجلى عليه، وينزل من سماء كرمه إليه، كما جاء في حديثه القدسي (ما وسعني سماواتي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن).

ولما جعل في عالم الآخرة جنة ونارًا للنعيم والعذاب، جعل مكان سويداء القلب جنة عبده المؤمن، لأنه محل المشاهدة والتجلي والمناجاة والمنازلات ومنبع الأنوار، وجعل النفس بمنزلة النار، لأنها منبع الشر، ومحل الوسواس، وزيغ الشيطان، ومحل الظلمة.

ثم جعل اللوح والقلم نسخة كتاب الكون والتكوين، وما كان وما يكون إلى يوم الدين، وجعل الملائكة تستنسخ ما يؤمرون بنسخه، من محو وإثباتٍ، وموتٍ وحياةٍ، ونقصٍ وزيادة، فكذلك اللسان بمنزلة القلم، والصدر بمنزلة اللوح، فما نُطق به اللسان، رقمته الأذهان في ألواح الصدور، وما أرخته إرادة القلب إلى الصدر عبَّر عنه اللسان كالترجمان.

ثم جعل الحواس مقابلا للأنبياء والرسل، لتعبر عن رسالة الإنسان وتوصلها لمن حوله، ثم توصل له ردود أفعال البشر.

ثم جعل في الإنسان ما هو دلالة على الربوبية، وتصديق الرسالة المحمدية، فذلك الهيكل الإنساني يفتقر دائمًا إلى مدبر وهو الروح غير المرئية، التي لا تتحيز في شيء من الجسد، ولا يتحرك شيء من الجسد إلا بشعورها به، وإرادتها له، ولا يحس ولا يمس إلا بها، وكان ذلك كله دلالة على أن العوالم لا بد لها من مدبرٍ ومحركٍ، عالمٍ بما يحدث في ملكه، قادرٍ على حدوثه،

وأنه غير مكيف، ولا متمثل، ولا مرئي، ولا متحيز، ولا محسوس، ولا ملموس؛ بل **{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}**.

ولما كان رسوله إلى خلقه اثنين: ظاهرًا وباطنًا، فرسوله الظاهر محمد رسول الله، ورسوله الباطن جبريل الذي كان يأتي محمدًا بالوحي بين قومه ولا يحسونه ولا يعرفونه، كذلك كان للروح المدبرة لجسدك رسولان باطنٌ وظاهر، فالرسول الباطن هو الإرادة، بمنزلة جبريل الذي يوحي إلى اللسان، واللسان هو الرسول الظاهر الذي يُعبر عن الإرادة، وهو بمنزلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم لما جعل فيك دلالةً على صحة نبوته، وصدق رسالته، جعل فيك أيضًا دلالةً على ما جاء به من تحقيق شريعته، واتباع سنته، فكان أصلُ الأيدي خمسة أصابع وهي أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام.

لذا جاء في كتاب المخاطبات للمتصوف العظيم النِّفَّري على لسان رب العزة:

سرك يُرى بدون عين، ويُسمع بدون أذن..

سرك يعيش في الأبد، وجسدك يعيش في المواقيت..

سرك تُحيط به الألباب، ولا تتعلق به الأسباب.. أنت مني.. أنت تليني.. وكل شيء في الوجود يأتي بعدك.. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت ولزمت مقامك.. فأنت أقوى من الأرض والسماء.. أقوى من الجنة والنار.. أقوى من الحروف والأسماء.. أقوى من كل ما بدا.. في دنيا وآخرة.

اتسعت عيناي، ووجدتني أردد بلا وعي مني: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ترقرقت عينا الخضر ونظر للسماء وقال باكيًا:

- اللهم اشهد أني أديت رسالتك، وحافظت على أمانتك

ثم وضع يده على كتفي، وتابع:

- ليس الجهل وحده هو الفتنة والخطر على قلوب البشر فاحترس يا ولدي.

- مم؟

- من إيمانك.

- إيماني؟

- نعم.. فالإغواء بالإيمان كثيرًا ما يكون أخطر من الإغواء بالجهل، حين يقود صاحبه إلى الكبر والتعالي على من هم أقل منه إيمانًا أو فهمًا للدين.. كأولئك الذين يعتقدون أن رفض القرآن لواقعة صلب المسيح وألوهيته تعني أن نسبَّ المسيحيين ليلًا ونهارًا ونقلل من شأنهم ونطلق عليهم النكات والمساخر، ونسوا أن الله قال في كتابه: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}، و :{فذكر إنما أنت مذكر.. لست عليهم بمسيطر، إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر}، و :{إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

الله وحده هو الذي أطلق أحكامه، ووضع قوانينه، وترك للجميع حرية الاختيار، حتى لا تكون هناك حجةٌ لأحدٍ عند الحساب، ووحده من سيفصل بين مخلوقاته دون أن ينازعه أحدٌ في ذلك، والإسلام الذي أمرنا بالحفاظ على النبات والحيوان، أجدر بنا أن نفهم منه كيف نحترم إخواننا في البشرية ولا نؤذي منهم أحدًا أو نحقر شأنه باسم الدين، لأن الله ما كان ليخلقهم وينفخ فيهم من روحه لو لم يكن لوجودهم أهمية ودليل في تلك الحياة.. وأغلب الذين تبحروا في الأديان الأخرى ليصلوا إلى الحقيقة واقتنعوا في نهاية المطاف بصحة دينهم الذي يتبعون، تبحروا في باقي الأديان بعين الشك والبحث عن النقائص والمبهمات ليثبتوا لأنفسهم أنهم على صواب ثم يتخذونه منطلقًا لإطلاق موجات العنف والكراهية، لا بحثًا عن الحقيقة المجردة، دون أن يدروا أن الصواب حين تصنعه الأهواء والانتماءات من أجل الفوز

بمكانة مقدسة أو اغتنام المغانم بقهر الآخرين وظلمهم، يصبح من أكبر الأكاذيب، وأن أي دين نضيف إليه البارود من السهل أن ينشر الدم ويصنع الإرهاب، وهكذا يتم اليوم هدم الإسلام من داخله، وعلى يد الكثير من أتباعه الذين أساءوا إليه أكثر من أي عدو أو كاره، ومن يردد قول الله:{ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**} أمام غير المسلمين وكأنه يجلدهم بالكلام، عليه أن يسأل نفسه ما شكل الإسلام الذي وصل إليهم حتى يُقبلوا عليه؟ فالله لن يُحاسب غير المسلم على عدم اختيار الإسلام لو كان الإسلام قد وصل إليه منقوصًا مشوهًا، وحينها سيتحمل الوزر المسلم الذي تسبب في تشويه سماحة دينه، ومن هنا قالها الحق جلَّ وعلا يومًا: **{لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}** إذ لن يستثني أحدًا من العقاب لمجرد انتمائه لدين أو جماعة، لأنه لا أفضلية بين المخلوقات العاقلة إلا بالإيمان والمحبة الغامرة في القلوب.

....

"لكن لماذا تخلَّفت الدول الإسلامية اليوم يا شيخ إذا كان الإسلام بهذه العظمة؟".

كان السؤال يقض مضجعي، ويشتت سكينتي التي وجدتها في هذا الدين العظيم، فأجابني المُعلِّم:

- ما هوى بعظمة الإسلام وقلل من شأنه اليوم، هو نفس ما قلل من شأن اليهودية والمسيحية في حقبٍ زمنيةٍ طويلةٍ على مرِّ العصور، وألصق بهما ما ليس فيهما من تعاليم وأفعال.. وحدهم أتباع الأديان يا ولدي الذين يهبطون بأديانهم إلى الحضيض وليس أبناء الأديان الأخرى.. هكذا يقول لنا التاريخ.

ففي قديم الزمان، كان البحارة متى أحدقت بسفينتهم المتاعب، ورأوا اضطراب البحر وصخب الأمواج والريح، هتفوا صائحين: "لا بد أن ثمة جثة قد أخفيت في أحد صناديق البضائع المشحونة على ظهر السفينة"، ثم إذا بهم يشرعون في البحث عنها للتخلص منها، مؤمنين بأنها سبب محنتهم، وبأن التخلص

منها بإلقائها في البحر كفيلٌ بأن يرفع عنهم ما حلَّ بهم من بلاءٍ ولعنةٍ، واليوم وقد عصفت بأقطار العالم الإسلامي الرياح، وتهددت سفينته بالغرق، بات من الجدير بالبحارة المسلمين بالتنقيب عن الجثة التي تهدد سلامة السفينة بكل من فيها.. حينها سيجدون الكثير من الجثث، وأخطرها هي تلك التي بلغت حدًا من الضخامة والتعفن، وصارت المسئولة الأولى عما أصاب السفينة من نقمة وابتلاء، ألا وهي استعداد أبناء الأمة لتمكين يد الماضي الميتة من القبض على أعناقهم، وتتحكم قيم هذا الماضي ومعتقداته ومفاهيمه في حاضرهم ومستقبله.

- ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام اتبع ولا تبتدع؟

- هذا صحيح.. لكنه أوصى باتباع الدين، وليس تقديس أقوال البشر من المفكرين والفقهاء الذين تناسبت أقوالهم وارهاصاتهم مع أزمانهم ومجتمعاتهم.. فالكثير مما نخاله من الدين اليوم، سيكتشف من يقرأ ويعود إلى أصوله وتاريخه أنه من نتاج اعتبارات تاريخية واجتماعية معينة، ومن إضافات بشر من حقبٍ متعاقبة، فأسدلت هذه الإضافات والاجتهادات حجابًا كثيفًا على جوهر الدين وحقائقه الأساسية الخالدة.. قل لي يا بني.. هل يمكنك أن تحتفظ بالماء في يدك دون أن يكون هناك إناء يحتويه، أو الاحتفاظ بعنصر كيميائي غازي إلا بخلطه بعنصر غريبٍ يحوله لأقراص صلبة؟

هززت رأسي نفيًا، فاستطرد:

- كذلك هو الدين.. حقيقة مطلقة وردت في إطار تاريخي، وظهرت في بيئةٍ اجتماعيةٍ انعكست معالمها عليه، ثم مرَّت عليه حقبٌ تاريخيةٌ متتالية، وانتشر في مجتمعاتٍ متباينةٍ، فتراكم عليه المزيد والمزيد مما هو محلي محض وعارض مؤقت، ناهيك عما خضع له من تأثيراتٍ أجنبيةٍ غريبةٍ عليه، سواء تأثيرات حضارية أو من باقي أديان المجتمعات التي دخل عليها واختلط بأهلها، وبوسع العالم أو المؤرخ أن يرد كل هذه التراكمات إلى مصادرها وزمنها، ليفرق بين الأصلي والدخيل، بل ويبين ما كان في الأصلي نفسه من تعاليم راعت ظروف المجتمع الذي

ظهر فيه الدين أول ما ظهر، وظروف العصر، والمستوى الذهني والروحي والأخلاقي عند أهله، كما بوسعه أن يثبت أن هذا الدخيل وهذه التراكمات والتعاليم المحلية العارضة، هي من صنع التطور التاريخي، وليست من صميم الدين ولا صلة لها بجوهره، ومثلما تدفع الغازات الكيميائية ثمن دخول العنصر الغريب لتأخذ شكلًا ماديًا ملموسًا في صورة الأقراص، ما كان للرسالة الدينية بحقائقها العالمية الخالدة أن تصلَ بشكلها المطلق دون أن تدفع ثمن وجود الدخيل المؤقت والعارض المحلي غير الجوهري.. ولو أن الرسالة الخالدة لم تراع جهاز الاستقبال لدى من تسعى إلى مخاطبته والوصول إليه لضاعت في الأثير واستحال التقاطها.. فكانت الضرورة بتغليف الرسالة بما ليس من صلبها، وترجمة المحتوى العالمي الخالد إلى لهجةٍ محليةٍ تراعي غلاظة الأذهان، وضعف المستوى الثقافي والحضاري، والتشبث العنيد بالمفاهيم الموروثة والتقاليد.

والتقط الشيخ نفسًا عميقًا، ثم تابع:

- وبعد تلون الرسالة بلغة ولون المجتمع والعصر الذي نزلت فيه، كان عليها أن تتلون فيما بعد حسب المجتمعات الجديدة الموجودة في نفس العصر، ثم يستمر تلونها ليواكب توالي الأزمان والمجتمعات الأخرى حتى تلبي الاحتياجات الروحية لأهل هذه الاجتماعات والعصور بنفس الفاعلية التي لبت بها احتياجات أهل المجتمع والعصر اللذين جاءت الرسالة فيهما، لكن بكل أسف تملكت يد الماضي من الدين وأوقفت نموه بنصوصٍ بشريةٍ قدَّسها البعض كتقديس كلام الإله نفسه، حتى أصبحت الرسالة قيدًا ثقيلًا يشل قدرة المسلمين على التطور والتقدم في مضمار الحضارة والعلوم، وعائقًا خطيرًا دون انتشار الدين في البقاع التي لم يصل إليها.

بخلاف ذلك الجدال الذي شبَّ مبكرًا بين المسلمين الأوائل وأبناء الأمم الجديدة التي دخلها الإسلام، ووجد المسلمون أنفسهم أمام أحوالٍ جديدةٍ عليهم تمامًا، لم يألفوها من قبل أو يتحصنوا بإجاباتٍ عليها، واشتعل الصراع الفكري والعقدي حين بدأ اليهود يُناظرون المسلمين ويتفاخرون بمعجزات موسى بن عمران

الهائلة، وتفاخر المسيحيون بمعجزات المسيح واحيائه للموتى، فكان لا بد من الاجتهاد والتفكير بشكلٍ مختلف، بينما لجأ بعض الأساقفة إلى إشاعة أن نبي الإسلام ما هو إلا كاردينال مسيحي مارق، سرق النصوص والأسفار المقدسة وصاغها بلغته مع الحذف والتعديل ليصنع دينًا جديدًا يضعه فوق سُلم المجد على قدم المساواة مع المسيح.. وفي ظل كل هذا لجأ بعض المسلمين للعقل المستنير وتفهم الفارق بين جوهر الإسلام والقشور التي لصقت به بفعل المجتمع البدوي الذي نشأ وفيه وحان وقت التخلص منها ليواكب البيئة الجديدة، والبعض الآخر لجأ لتزييف النصوص وافتعال الأحاديث انتصارًا لنبي الإسلام أمام باقي الأنبياء وكأن المفاضلة بين الأنبياء لا تكون إلا بمعجزات مادية فحسب، وكأن الكثير من الأنبياء الأقدمين الذين لم يأتوا بمعجزاتٍ ما كانوا يستحقون التصديق والإيمان بنبوتهم.

ولو كان الملفقون الذين دسُّوا عن الرسول أعاجيب ومعجزات ليرفعوا من شأنه، قرأوا في أديان الآخرين واجتهدوا فيها لوجدوا أنبياء عظامًا كانت رسالتهم وأخلاقهم وتوقيت ظهورهم هو المعجزة في حد ذاتها، ولأدركوا أن معجزة إحياء الموتى التي يؤكدون أنها أكبر دليلٍ على ألوهية المسيح سبق القيام بها على يد أنبياء العهد القديم من بني إسرائيل، مثل حزقيال الذي أحيا جيشًا كاملًا من بعد موته كما ورد في سفر حزقيال في الإصحاح السابع والثلاثين: "فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جدا جدا"، والنبي أليشع الذي أحيت عظامه وهو ميت رجلًا آخر بمجرد أن مسّه، كما جاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الثاني: "وفيما كانوا يدفنون رجلًا إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرجل في قبر إليشع فلما نزل الرجل ومس عظام إليشع عاش وقام على رجليه".

ثم تحول النبي محمد نفسه إلى سلعة تجاذبها الأمويون والعباسيون في صراعاتهم على الحُكم والخلافة، كل فريق ينسب إليه أحاديث تمجد في قومه وتذم في المنافسين، قبل أن تظهر جماعات من القصّاصين الذين جابوا المساجد وأخذوا يحكون قصصًا وسيرًا عجيبةً ممتعةً ومسليةً في قالب ديني ما أنزل الله به من سلطان حتى أصبح العامة والبسطاء يميلون إليهم

أكثر من ميلهم للعلماء والفقهاء، وظلت الشوائب والأحاديث المدسوسة المنسوبة للرسول كذبًا تزيد من القيود التي علقت بأهداب الدين ومنعت الروح من التحرر من ربقة الجسد.

ألهذا السبب لا يوجد للإسلام حضارة قوية مثل حضارة الغرب؟

ومن الذي قال لك إن الإسلام رغم كل ذلك لم يصنع حضارة لا تقل عظمة وروعة عن حضارة الغرب المعاصر؟.. فبعد توطيد دولة الإسلام، وتوحيد قبائل شبه الجزيرة العربية بوثيقة النبي المدنية تحت راية واحدة، تحول العرب من مجرد قبائل بدائية متناحرة إلى ماردٍ عظيمٍ خرج من قمقمه وجاب الصحارى والفيافي حتى كسر أنوف القياصرة والأباطرة الذين استعبدوا شعوبهم، ونشر تعاليم ومبادئ الإسلام في شتى ربوع الأرض رغم قلة العدد والعتاد في الكثير من المواقف أمام الجيوش التي واجهته، ومع منتصف القرن الثامن الميلادي وحتى القرن الخامس عشر كان هناك عصرٌ ذهبي للإسلام، من حدود الصين شرقًا وحتى حدود فرنسا وإسبانيا غربًا.

وفي عصر الدولة العثمانية توسعت الأراضي إلى أوروبا واليونان، وخلال هذه الفترات، قام مهندسو وأطباء وعلماء وتجار العالم الإسلامي بالمساهمة بشكلٍ كبيرٍ في حقول الهندسة والطب والفن والزراعة والاقتصاد والصناعة والأدب والملاحة والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا والفلك، بعد أن استوعبوا علوم الحضارات السابقة، وأضافوا إليها بصمتهم واجتهادهم، وكافأ الخلفاء العلماء والمترجمين والنوابغ بغض النظر عن أديانهم وجنسياتهم، إلى حد منح وزن الكتب التي يتم تأليفها ذهبًا لأصحابها، وانتشار المكتبات في كل مكان، صانعين حضارةً تمزج بين العقل والروح، في الوقت الذي كان الغرب يتخبط فيه بين جدران عصور الظلام التي بدأت في نهاية القرن الرابع الميلادي بعد قرار الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول

بحرق وتجريم جميع العلوم والفلسفات، ومنع القراءة والكتابة، بل ونسخ العقائد المسيحية المختلفة الموجودة آنذاك لتعارضها مع عقيدته المسيحية الشخصية، وتم عقد محاكم تفتيش لحرق من بحوزته تلك العلوم.

والمدهش أن اختلاف وتنافس هاتين الحضارتين إضافة إلى التنافس المستمر بين الحضارات المتعاقبة منذ فجر التاريخ إلي يومنا هذا، كان سبباً في حفظ المعرفة والعلوم دوماً، وكان الدرس التاريخي الذي أراد أن يخبرنا به الخالق أنه: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض (ولولا تنافسهم) لفسدت الأرض}.

- وكيف حدث السقوط للحضارة الإسلامية؟

منذ أن بدأت الروح والدين يغيبان شيئًا فشيئًا حتى صار المسلمون والعرب يتقاتلون فيما بينهم من أجل مُلك زائل، إلى أن مروا بفتراتٍ مشابهةٍ لعصر الغرب الظلامي حين قاموا بحرق كتب ومؤلفات الفلاسفة والمفكرين، وقتل وصلب البعض منهم، وانتشرت الخمور ومضاجعة الغلمان داخل قصور الخلافة نفسها حتى صار العامة يتبعون نهج ملوكهم وصارت النساء رخيصةً لا تجد من يشتريهن في سوق النخاسة، وحتى يسهل بيعهن كانت الجواري يقمن بقص شعورهن والتشبه بالغلمان في الهيئة واللبس، وتم استخدام الدين كسلاحٍ في تكفير المخالفين بدلًا من تطوير فقهه ليلائم روح العصر ويرتقي بنفوس ووجدان المسلمين، فأصبح الدين عبئًا في النفوس، غير قادر على الارتقاء بأتباعه بعد أن عطلوا أحكامه وتجاهلوا تعاليمه، وفي الوقت نفسه ابتعدوا أيضًا عن الاجتهادات العلمية والبحث والاستكشاف وتشجيع النوابغ والمجتهدين في شتى المجالات. كان هذا بالتزامن مع تحرر الغرب من سلطة الكنيسة، واستعادته من جديدٍ لكل الكتب والعلوم المفقودة التي سبق حرقها، ليبدأ عصر النهضة الذي بنى حضارةً على العلم والمادة فقط، دون

أدنى اهتمام بالروح والدين بعد تجربته الأليمة مع القساوسة والباباوات.

وحين عزلت حضارة الغرب الدين عن الدولة، جعلت هذا العزل مبالغًا فيه، فجاءت تلك الحضارة قويةً متماسكةً في بنيانها الخارجي الشاهق، لكنها هشةٌ ضعيفةٌ داخل النفوس التي خلت من الإيمان والروحانيات، فزادت نسبة الإلحاد والانتحار والإدمان والأمراض النفسية في نفوس البسطاء والعامة هناك وتباعدت السعادة عن أرواحهم رغم أن أيديهم امتلكت كل مقوماتها، بينما ما زال القادة والساسة هناك يتحالفون مع الشيطان.

عقد الشاب حاجبيْه بدهشةٍ:

- الشيطان؟

- نعم.. فمع انهيار الدول الإسلامية ونهضة أوربا والغرب، تم الانقضاض على الأراضي العربية وتقسيم مقدراتها وخيراتها على الدول الأوربية، واستعباد الشعوب المسالمة ونشر الجهل والدجل مع اختيار السفهاء الخونة وتثبيتهم على عروش الحكم، وكلما كادت دولة منهم تنهض من كبوتها، كانوا ينفقون المليارات ليبقى الوضع على ما هو عليه من فوضى ودمار وتشرذم، ثم يمدون أيديهم للنوابغ والمفكرين والعلماء ويأخذونهم إلى بلادهم، ليغنموا بعقولهم الذهبية وأفكارهم الخلاقة، فتزداد دولهم ومجتمعاتهم تمدنًا وتحضرًا وعلمًا وفكرًا، بينما تتم تصفية البلدان الفقيرة المتدهورة من عقول وأفكار أبنائها الذين لديهم ما يستطيع أن ينتشلها من مستنقعات الجهل والفقر والتخلف والمرض، فيجني الآخرون ثمارهم ويغنمون بها وحدهم، وبعد تحويل علومهم إلى منتجاتٍ وسلع، يأخذون منها ما هو بنّاء خلّاق ويخصون به دولهم ومجتمعاتهم فتزداد إنتاجًا وتطورًا، أما المنتجات الاستهلاكية التي لا تنهض بالأمم، يتم تصديرها للبلدان المستهلكة ويجنون من ورائها المليارات بعد أن حولوها إلى أسواقٍ تابعةٍ لهم، لا تأكل ولا تشرب ولا تتسلح إلا بما يُلقى إليهم من فُتات.

يلقون ما يتبقى من محاصيلهم ومنتجاتهم في المحيط حتى يحافظوا على أسعار سلعهم، ويتركون أطفالًا وعجائز ونساء محتاجين يموتون فقرًا وجوعًا بعد أن يتحولوا إلى هياكل عظمية تمشي على قدمين.

يتصنعون أنهم يمنحوننا المساعدات والمعونات وهم في حقيقة الأمر كمن يُربي الدجاج والخراف في مزارعه ومراعيه حتى يحين موعد الذبح ليأكل أسمنها ثم يُعيد تسمين الباقية بقدر معلومٍ فقط حتى يجعلها وجبةً دسمةً يفترسها بشوكة وسكين التحضر على مائدة العولمة.

فالإرهاب والتخلف المحدق بنا جاءا من الفقر والجهل والظلم.. فمن الذي نشر الظلم وضمن تقسيم الأمة وأخذ بترولها وخيراتها؟ من زرع الحكام العملاء الخاضعين التابعين ليحفظ ولاءهم؟ من افتعل الحروب والصراعات ليضمن بيع أسلحته التي تنتجها مصانعه؟ من اقتنص العقول النابغة وفتح الهجرة للمفكرين والنوابغ؟ ألف مَن ومَن ستكشف إجابتها لماذا تخلفت الدول المسلمة التي ينتشر فيها الإسلام، لكن شعوب الغرب نفسها شعوبٌ طيبةٌ مسالمةٌ، مضحوك عليهم مثلنا.

واليوم، لم يتبق من المسيحية في الخارج سوى الكنائس العريقة الأثرية التي لا يذهبون إليها إلا في المناسبات والأعياد فقط، وحتى الأحزاب الدينية المسيحية لم يتبق من مسيحيتها سوى اسمها بعد أن دخلت في تحالفاتٍ حزبيةٍ وسياسية، وحتى الديموقراطية حين انفصلت عن الروحانية وتعاليم السماء نشرت الموبقات لأنها لا ترتبط بسياقٍ ديني يهذبها ويقودها إلى النور، ولو صوتت الأغلبية على أمرٍ مخالف لتعاليم الخالق لصار حقًا مثل اللواط الذي سنوا له تشريعًا على سبيل المثال، والغريب أن المسلمين اليوم بعد أن ابتعدوا عن دينهم وشوَّهوا تعاليمه ووصاياه، تجدهم يريدون نقل تجربة الغرب بأكملها في الوقت الذي اكتشف فيه الغرب نفسه أن سلعته معيوبة ولها عيوب صنع خطيرة تحول دون تسويقها، ومثلما سقطت الحضارة الإسلامية ستسقط حضارة الغرب قريبًا جدًا، وسقوط هذه الحضارة سيكون بيد أبنائها وليس بيد أبناء الحضارات الأخرى.

- كيف؟
- سيبتلعها الفم القبيح للعلم دون أن يشعروا، ليجردهم من المشاعر والإنسانيات والأخلاقيات.. ومع الوقت سينهار اقتصادهم، والسلاح الذي صنعوه ليفنوا به الآخرين سيفني كل الأطراف دون أن يميز بين الأيادي التي تحمله والصدور الموجه إليها، حينها سيعود العالم مئات السنين إلى الوراء، وتحين اللحظة لترفع حضارة أخرى لواء القيادة وسط الخراب والركام المنتشر في كل شبر على الأرض.. فالتاريخ يُعيد نفسه في دورات، واليوم يُعيد نفسه في أوقاتٍ متتاليةٍ من الليل والنهار.. والفصول تتعاقب من ربيع إلى صيفٍ إلى خريفٍ إلى شتاء، لتعاودنا بنفس الطقس ونفس المحاصيل ونفس الأمراض الموسمية في دوراتٍ مكررةٍ من البدء والإعادة.. والإنسان نفسه يتقلب هو الآخر من نومٍ إلى يقظة، ونفهم من ذلك أن كل شيء في مملكة الله يجري على سنن ثابتة من البدء والإعادة، ويتحرك في دورات، وكذا الأمر في الحضارات التي تولد وتزدهر وتصبح قويةً ثم تضمحل في نفس الدورات التي يحكيها لنا التاريخ.
- يا إلهي.. لماذا لا توصل هذا الكلام المهم عبر الميكروفونات؟

ابتسم الخضر ابتسامةً حزينةً وأجاب بلهجةٍ يملؤها الأسى:

- في وطننا يشوهون أصحاب الفضيلة، وينزلون بهم إلى الدرك الأسفل من المهانة والاحتقار في نفوس العامة والبسطاء الذين يسهل خداعهم رغم كثرتهم.. ويرفعون أصحاب الخطيئة إلى أعلى الدرجات سواء في الوظيفة أو تسليط الأضواء عليهم في وسائل الإعلام.. وعلى من يريد الحقيقة أن يصل إليها بنفسه.
- وماذا عن الأمانة التي كلفنا بها الله؟
- كل منا على قدر تكليفه.
- لا أفهم.
- ستفهم في الوقت المناسب.

....

هذه هي كلماتي الأخيرة، قبل الانتقال من الكلام إلى الأفعال.

ربما بدا موقف الخضر غامضًا وغير مفهوم في تقاعسه عن خوض المواجهة وتبليغ البشر بما فتح الله به عليه من علومٍ وإشراقاتٍ قلبية، لكن يكفي أني تعلمت قبل أن ألقاه وبعد أن التقيته كيف حمل الأنبياء الأمانة من السماء، وأصبح كل من قرأ سيرتهم ونمى إلى علمه تعاليمهم ووصاياهم مجبورًا على توصيل الحقيقة التي ما أن يصل إليها حتى تصير أمانة في عنقه عليه توصيلها لكل من حوله من البشر، حتى يفك قيود العبودية من على عقولهم وقلوبهم الغافلة.

فثمة تشابهاتٌ إلى حد يفوق الذهول بين بني آدم من عصرٍ لعصر، ومن حضارةٍ إلى حضارة..

وقائع تتشابه إلى حدِّ التطابق، وأبطال لهم نفس السمات، وأنبياء يظهرون في نفس الظروف..

في كل دين، تنجست قدسيات الله بنفس الطريقة ودخلت فيها الأوثان، مثلما أدخل الشعب اليهودي العبادات الوثنية إلى طقوسه، حتى إنه نُجِّس هيكل النبي سليمان بإقامة تماثيل للآلهة الوثنية، وكانت من ضمن هذه العبادات ممارسة الجنس، وتقديم الذبائح البشرية.

وفي مكة المكرمة تكرر الأمر بنفس التفاصيل بين بني وأحفاد النبي إسماعيل الذين حاوطوا بيت الرب بـ360 صنمًا سواء حوله أو داخله أو فوقه، ومارسوا طقوسًا متشابهةً، وتقرَّبوا للآلهة بذبح البشر.

تم وصف الغنوصيين والمانويين بالهراطقة، وتم وصف المتصوفين المسلمين بالزنادقة، وفي ظروفٍ مشابهةٍ تم صلب البعض منهم، أو قتله، ورغم الصلب والقتل ظلت أقوال القتلى منتشرةً وبقيت رغم أنف قاتليهم.

تكررت واقعةُ الصلب من مكانٍ لمكانٍ ومن زمانٍ لزمانٍ.. تكررت عقيدة التثليث من حضارةٍ لحضارةٍ.. تكررت حكاياتُ الميلاد المعجزة من امرأة عذراء لم يمسسها بشر من عصرٍ لعصر ومن ملةٍ إلى ملة.. تكررت واقعة قتل الأنبياء وتعذيبهم واتهامهم بنفس الاتهامات.. تكررت

المشاهدات الروحانية للمتصوفين المسلمين والمسيحيين وجميعهم قالوا أبدوا متشابهاتٍ رغم أنهم لم يلتقوا، وانتمى كل منهم لعصرٍ ومكانٍ مختلف.. تكررت وقائع الصعود إلى السماء سواء بالجسد أو الروح ورؤيةَ الفردوس ومشاهدة عالم الملكوت من دين لدين، وكأن هناك من يُملي على البشر نفس التصرفات، وردود الأفعال، في مختلف المجتمعات والأزمنة، ثم يسلط عليهم خصومهم بنفس الطريقة ونفس العقاب.

حتى ولو عثرنا على أرضٍ جديدةٍ، وقارة لم تُكتشف بعد، فستجد في تراثها وتاريخها نفس الوقائع والأساطير، ومحنة البشر في رحلة البحث عن الحقيقة، لتتكرر الاختبارات الإلهية وفتن الشيطان بنفس الشكل، ومن نفس المنهج، في كتاب الوجود الذي لا يقرأه البشر، فتتشابه مصائرهم من عصر لعصر، ويعيد التاريخ نفسه بطريقةٍ مذهلةٍ، ويأخذ التحدي بين الخير والشر نفس أنماط الجولات المتكررة عبر كل الأزمان والعهود، وفي كل الأمم والبلدان والحضارات مهما كان الفاصل الجغرافي والزمني بين بني الإنسان.

كل هذا يدل على أن الوجود يحكمه اثنان من أبرع كتاب السيناريو الأزلي، أحدهما الله، والآخر إبليس - مع فارق المكانة بالقطع- في أعظم تحدٍّ وجودي بدأ قبل حتى أن نُخلَق وسيظل حتى قيام الساعة.. كلاهما له أدواته وطريقته المميزة في تعديل النص، والتدخل لتغيير مسارات الشخوص، واضافة العقدة والحبكة ليصل إلى النهاية التي يريدها، وبينهما تسير الخلائق نحو مصيرها المحتوم من خير أو شر حسب ميولها للسيناريو الأقرب لنفسها، بعد أن ألهمها الله الفجور والتقوى، وترك لها حرية الاختيار.

سأعيد زمن الفتوحات والغزوات من جديد، لكن بالمحبة والحوار ومقارعة الحجة بالحجة، ومقارنة المعلومة بالمعلومة، والمصادر بالمصادر، حتى أوصل الأمانة مهما بدت ثقيلة، بعد أن تعلمت أن لكل عصرٍ من العصور شهودًا عرفوا حقائق غير التي وصلتنا عبر كتب التاريخ، لا سيما في الأوقات الحالكة التي زاد فيها القتل والتعذيب والظلم.. منهم من كتم الأمر خوفًا من مصيرٍ مشابهٍ، ومنهم من حاز على منصب لكي يسكت، وحاشا لله أن أكونَ هذا أو ذاك.

سأقول لليهود: لا يوجد إنسانٌ وُلد ليكره إنسانًا آخر بسبب لون بشرته أو أصله أو دينه.. الناس تعلمت الكراهية، وإذا كان بالإمكان تعليمهم الكراهية فبإمكاننا تعليمهم الحب أيضًا، خاصةً أن الحب أقرب لقلب الإنسان من الكراهية.*

سأقول للمسيحيين: إن الله محبة، وإن المسيح قال: أَحِبُّوا أعداءَكم .باركوا لاعنيكم .أحسنوا إلى مُبغِضيكم. لكنكم لم تعودوا تطبقون ذلك خلف الجدران المغلقة.

سأقول للمسلمين: لو أنكم قدَّستم الخلاف بينكم وبين المختلفين معكم واتخذتموه سببًا للمحبة والتقارب بين القلوب بدلًا من اتخاذه ذريعة للتناحر والصراع، لذابت الفواصل بين السماء والأرض، ووجدتم أنفسكم في دولة الروح وعالم الملكوت السماوي حتى وإن كانت أجسادكم على الأرض.

سأقول للجميع: من يعلمك ألا ترى في المختلف معك في الدين سوى أنه كافر، فهو يسرق إيمانك.. ومن يعلمك أنه مباح في دمه وعرضه وماله وأرضه لمجرد أنه مختلف معك بدون جرم يرتكبه، فهو يسرق إنسانيتك.. ومن يُعلِّمك أن الكذب لخدمة أهدافك حيلة شرعية، فهو يسرق صدقك.

سأقص عليهم خلاصة رحلتي حتى وصلت إلى الحقيقة.

لن أختبئ بعد الآن، وسأواجه بكل ما أوتيت من قوة..

فإما أن أوصِّل الأمانة.. أو أهلَك دونها.

* * *

* هذه المقولة للزعيم الجنوب إفريقي: نيلسون مانديلا، لكنه لم يوجهها لليهود؛ بل للإنسانية كلها.



(29)

"حمدًا لله على سلامتك يا يحيى بك"

"سلامتك يا باشا"

"ألف ألف مليون سلامة عليك يا فندم"

هكذا أمطرت الأفواه التحيات والتهانى على مسامع العقيد (يحيى) وهو يسير في أروقة مديرية الأمن، فيما اكتفى بإشارةٍ بسيطةٍ من يده التي لم يرفعها إلى آخرها، متعمدًا أن يُظهِر تعاليه وعجرفته عملًا بمبدأ: "الكبر على أهل الكِبر صدقة"، لا سيما أولئك المتوددين الكذبة الذين لم يسألوا عليه أو يزوروه وهو يُصارع الموت الذي نجا منه بمعجزة.

كانت ملامحه أثناء السير جامدةً متجهمةً من تحت نظارته الشمسية التي يرتديها رغم حلول الشتاء، ووجوده تحت سقفٍ بعيدًا عن أي أشعة، لكن يبدو أن هذا التغيير الذي حلَّ على وجهه - بشكلٍ أفزعه بعد الحادث- سيجعل من النظارة رفيقًا اضطراريًا سيقيم في النصف الأعلى من وجهه إلى الأبد.

دلف إلى حجرة مكتبه وأخذ يتأمل جدرانها، وتلك الصور التي تُزيِّنها، سواء لوحة عليها لفظ الجلالة، أو صورته مع مساعده الشهيد، أو صورته مع زوجته وطفليه، وبذل جهدًا جهيدًا ليمنع دمعةً حارقةً ألهبت مقلتيه في محاولةٍ يائسةٍ للخروج، قبل أن يتهاوى على مقعده الجلدي الفخم ويشعر في داخله أنه يجلس على مزرعةٍ من الأشواك.

أحضر له العسكري مشروب القهوة، وصبَّه بحرصٍ محافظًا على الـ "وش" وهو يقول كلماتٍ مليئةً بالتودد والترحاب، غيرَ أنها كانت تخرج هذه المرة من القلب.

فيما عدا ذلك، كان كل شيء حوله مقززًا، يبعث على الاشمئزاز والامتعاض..

محاولاتٌ متعمدةٌ ومفضوحةٌ من قياداته في التستر على (ريمون)، وتحرياتٌ وتحقيقاتٌ لم تسفر عن هوية الذين تسببوا في إصابته واستشهاد



مساعده، أما حادث المعبد اليهودي فقد..

تك تك تك

قطعت الطرقات الخافتة أفكاره، قبل أن ينثني مقبض الباب وينفتح، ليظهر على عتبته الشاب الوسيم الذي وقف ثواني تأمل فيها العقيد وهو يهب واقفًا فور رؤيته، متأرجحًا في مشاعره بين الرهبة من نظرة الشاب وهيبته التي لا يعرف مصدرها، والتحفز لما هو آتٍ من مشاكل دائمًا ما ترتبط بظهوره، قبل أن يدخل الشاب المكتب بخطواتٍ بطيئةٍ واثقةٍ، اقترب بها من (يحيى) وطال بينهما النظر.

* * *

تراقصت الأوتار وصدحت المعازف في مبنى الخدمات التابع للكاتدرائية فيما صعد صوت (آيات) القيثاري إلى السماوات في ساعة الغروب، حاملًا كلمات ترنيمة (شق السما وانزل إلينا)، بتدريجاتٍ صوتيةٍ تعلو وتخفق بموهبة عبقرية وحلاوة صوت أهلتها أن تكون خليفةً (فيروز) التي تعتبرها مثلها الأعلى، وينافسها في الغناء (أندرو) الذي كان حريصًا أن يغني تلك الترنيمة تحديدًا، وخلفهما كورال فريق (تسابيح)، بينما احتشد شباب وفتيات وأطفال الكنيسة للاستماع إلى البروفة وقد أخذ بعضهم يتمايل دون وعي، فيما ردد البعض الآخر الكلمات بشفتين صامتتين لتتوافق حركة شفاههم مع صوت (آيات) و(أندرو):

اللي بتشوفه عينينا .. مش كل الحقيقة
في عالم روحي في السما.. وفي الله مشيئة

بالإيمان صلاتنا.. تغير التاريخ
تعالى يا رب بنطلبك.. ونصرخ كل دقيقة

شُق السما.. وانزل إلينا
في أرضنا.. من حوالينا
قول كلمتك .. شعبنا يعرفك
وبقوتك ..تيجي وتشفينا

وأثناء ترديد (آيات) للكلمات أغمضت عينيها باندماجٍ وتأثر، وفجأة.. اخترق حواسها شذى عطره الذي لا مثيل له!

توقفت عن الغناء فورًا، واستعادت روحها المُحلِّقة في السماوات، وقد وجدت – أخيرًا– على الأرض ما هو أعذب وأروع، لتفتح عينيها غير مصدقةٍ أن المعجزة قد حدثت وحملت إليها الرياح رائحته من بعد طول غياب، بينما ما زالت أوتار الجيتار وإيقاع الدرامز تعمل في الخلفية.

ومن جانبه، أخذ الشاب الوسيم الميكروفون من يد (أندرو) فتوقف العزف، واتجهت الأنظار جميعها إليه، ثم أرهف الكل سمعه حين بدأ يردد أبيات الحلاج التي هام بها عشقًا في الحضرات الصوفية مُنشِدًا:

واللهِ ما طلعتْ شمسٌ ولا غربَت

إلا وحُبُكَ مقرونٌ بأنفاسي

ولا جلستُ إلى قومٍ أحدثهم

إلا وأنت حديثي بين جُلَّاسي

ولا ذكرتُكَ محزونًا ولا فرحًا

إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممتُ بشُربِ الماءِ من عطشٍ

إلا رأيتُ خيالًا مِنكَ في الكاسِ

ولو قدِرتُ على الإتيانِ جئتكُمُ

سعيًا على الوجهِ أو مشيًا على الراسِ

وحين انتهى من الإنشاد كانت الأعين متسعة، فيما ركض الأطفال نحو صديقهم المقرب وارتموا عليه وأخذوا يتمسحون فيه كقط يرحب بصاحبه الغائب، وأخذ بدوره يمسح رؤوسهم ويوزع ابتساماته عليهم ثم احتضن

أصغرهم سنًّا، قبل أن يقول (أندرو) بانبهار:

- منذ متى وأنت تُجيد غناء الأغاني والأناشيد الإسلامية يا صاحبي؟ هل تحفظ أناشيد أخرى؟

غربت ابتسامة (آيات) واحتل ملامح وجهها الوجوم والدهشة حين أجاب الشاب:

- بكل تأكيد.

فقال له (أندرو):

- نحتاجك معنا في الفرقة إذن، فلدينا حفلٌ قريبٌ سأحكي لك كل شيء عنه.

إلا أن (آيات) أزاحته بيدها متجاهلةً كل قواعد الذوق واللياقة، قائلة:

- بعدين يا أندرو.. فلديَّ موضوع أكثر أهمية.

ثم أمسكت معصم الشاب وسارت به خطواتٍ باعدتهما عن الباقين قبل أن تنظر إلى عينيه نظرةً مباشرةً وتسأله بتحفز:

- أين كنت خلال الفترة الماضية؟ وكيف تعلمت هذه الأناشيد؟

* * *

"لا أصدق أني أسير معك الآن بحريةٍ كاملة، لا نخشى من أي مطاردة، أو فراق.. الأمر حقًّا يُشبه الأفلام والمسلسلات حين تضيق الدائرة على البطل وتحين لحظة تسليم نفسه، فإذا بالقدر يتدخل في اللحظة الأخيرة بحلٍ ما كان ليَخطُر على بال الجميع".

قالتها (آيات) بسعادة طفل في محل ألعاب، وهي تسير مع فتاها الوسيم في شارع (الحرية) متجهين إلى محل (نوتيلوبيا) لمأكولات الشيكولاتة، فالتفت لها وقال بدهشة:

- ألم يلفت انتباهك في كل ما حكيته، سوى أن الشرطة عثرت على مرتكبي حادث المعبد اليهودي، ولم أعد متهمًا أو متورطًا؟

- لفت نظري أيضًا أن العقيد يحيى أخذك إلى المستشفى ووقَّع عليك الكشف الطبي من جيبه الخاص ليتأكد من صحة كلامك ويخبره الأطباء بأنك فاقد لذاكرتك.

انفعل متسائلًا:

- وماذا عن رحلتي الطويلة مع الخضر وما وصلت إليه من خلالها؟

وصلا إلى محل الشيكولاتة الشهير، ففتحت (آيات) بابه وهي تقول بلهجةٍ رقيقةٍ تُحاول تلطيف الجو:

- جئنا هنا للاحتفال بالخلاص، ولسنا بحاجةٍ إلى أي غضب أو توتر.. هلمّ فطعم الشيكولاتة يُنادينا.. إنها الشيء الوحيد في الوجود الذي فاقت متعته متعة الجنس.

قالتها هامسةً على سبيل الدعابة، ثم اكتشفت أنها مزحةٌ رخيصةٌ تؤكد أنها لم تتخلص بعد من كامل عهرها القديم، فغمغمت بصوتٍ تعمدت أن يسمعه: "إحم.. يا أرض انشقي وابلعيني".

جلس كلاهما على كرسي عالٍ حتى يُناسب ارتفاع البار المقابل لهما، وطلبت (آيات) شاورما نوتيلا، واختارت لفتاها وافل بالشيكولاتة البيضاء والآيس كريم، ثم نظرت إلى عينيه بكل الحب والهيام وقالت:

- الأمر أبسط من كل هذا التعقيد والعبء الثقيل الذي يثقل كاهلك.. هو اختبار سنتحمل جميعًا فيه تبعية اختياراتنا، والقراءة والبحث والاطلاع متاحة لكل من يرغب.

- وماذا عن اختيارك؟

- اخترت دين المحبة.

- هذا لأنك لم تقرئي في الإسلام، أو وصلتك عنه صورة مشوهة سواء من أتباعه، أو من لقنك عنه نصف الحقيقة بشكلٍ مغلوط.. أتعلمين؟ سألت الخضر كيف استطعت أن أصل للحقيقة بهذه السرعة والسهولة فأجابني: أنت ترى الحقائق لأن عقلك لم يتلوث

بمغالطات البشر في تفسير الأديان حسب أهوائهم واحتكار الصواب وجنات الخُلد وفقًا لعقيدتهم.. رأيت الأديان على صورة الخالق وفهمت التعاليم في صورتها البكر وليس في تأويلات البشر التي تحقق المصالح وتلوي عنق النصوص.

- هذا صحيح.. لقد تفرق أبناء الأديان والمذاهب العقلية إلى فرقٍ كثيرةٍ، وكل فريق يريد جذب الله قسرًا ليكون كابتن فريقه ويحرز لهم الأهداف، ونسوا جميعًا أن الله هو حَكم المباراة.. (**ضحكت وتابعت**) لكني قلت دين المحبة، فلماذا فهمت أني أقصد المسيحية فحسب؟

عقد حاجبيْه قائلًا:

- لأنكم في المسيحية تقولون الله محبة.

- نعم، وهذا جلّ ما يعنيني في الأمر.. الله محبة.. من محبته أستمد حبك وحب كل البشر والخلائق حولي.. أنا الآن مسيحية، لكني لست أرثوذوكسية ولا كاثوليكية ولا إنجيلية.. كل ما يعنيني أن لهذا الكون إلهًا عظيمًا مُحبًّا لمخلوقاته وأنا أسير على دربه.. "فقد تجد الحُب في كل الأديان، لكن يبقى الحب نفسه لا دين له"*.. لذا عشت عمري كله أختبئ من رغبتي في الحكم على البشر.. أهرب من ميول بني الإنسان داخلي في الفرز والتصنيف.. والشخص الوحيد الذي أحاول جاهدةً أن أكون أفضل منه، هو أنا في الأمس.

- لكن لا بد وأن تعرفي إلهك بشكلٍ صحيح.

- صدقني محبته هي أعظم وأصح صورة له.. هل لي أن أسألك سؤالًا؟

- تفضلي!

* هذه المقولة للمتصوف العظيم مولانا جلال الدين الرومي.

- في تاريخ كل دينٍ شفعاؤه المقربون من الخالق، القادرون على إنقاذ العوام من ضعيفي الإيمان وأصحاب السيئات والخطايا حين يصبحون على شفا حُفرةٍ من النار.. في اليهودية حاخامات وأحبار، وفي المسيحية قديسون، وفي الإسلام أولياء، ولكل من هؤلاء معجزاتٌ وكراماتٌ يتغنى بها الأتباع في ملاحم دينيةٍ عن حرب الخير والشر، ونعمة التقرب من الله التي يكافئ بها عباده بمنحهم معجزاتٍ وقدراتٍ غير عادية لا تتوافر لضعيفي الإيمان.. فإذا كان للجميع معجزاتهم فأي دين على الباطل ويستحق أتباعه النار إذن؟ وكيف يُكرِّم الخالق مخالفي إرادته ودينه الصحيح بمعجزات وكرامات؟

صمت الشاب وغرق في بحر من التفكير والتساؤلات، فابتسمت وأجابت:

- الإجابة الوحيدة التي أراحت عقلي، أن الرب يكرم في دنياه من يصل إليه بقلبه أيًّا ما كان المسلك والطريق، فيكفي أن يرى داخل العابدين بوصلة المحبة وهي تشير للخالق ورغبتهم الأكيدة في الوصول إليه حتى يفيض عليهم من محبته.

هذا ما تعلمته خلال الفترة الماضية من نقاشاتي مع موريس وتأملاتي للسماء التي كنتُ أسألها أن تسرع من عودتك.. (**ضاقت عيناها بابتسامةٍ مليئةٍ بالمحبة، وأضافت**) والآن كرر خلفي مثل الشطار: الرب يكرم في دنياه من يصل إليه بقلبه أيًّا ما كان المسلك والطريق.

- وماذا عن آخرته؟

أمسكت يديْه بكل الحب، وأجابت:

- لنعش جنتنا هنا على الأرض أولًا.. هذا كل ما يعنيني الآن.

نظر إلى عينيْها بحب وتأثر قائلًا:

- من يحب شخصًا يريد له الخير في الدنيا والآخرة.

ثم سحب يديه وقال بحزم:

- لا شك لديَّ في أن قلبك الطيب سيصل للحقيقة مثلي بعد أن أشرح لك الأمر بكل تفاصيله وأبعاده، لكني لست أنانيًّا حتى أهتم بشأني أنا وحبيبتي وأترك الباقين للجحيم.

غزا الوجوم ملامحها بعد أن بهتتها كلماته التي أفصحت عن إصرارٍ لن ينثني مهما حدث، وسألته برهبة:

- ما الذي تنوي على فعله؟

- سأشرح الأمر للعالم، الحقيقة بصورتها الكاملة بدلًا من أنصاف الحقائق التي خلقت كل هذه الكراهية والخلافات.. سأمسك الميكروفونات أمام الملايين وأناظر الجميع.

لمعت عيناها بالدموع وفرَّت آخر لمحة من ملامح السعادة التي كانت تحتل قسماتها وهي تقول:

- لماذا لا تجعل خُلُقك وتصرفاتك هي أفضل دعاية للحقيقة التي وصلت إليها؟ ألا يقول الإسلام إن الدين المعاملة؟.. ما هكذا تتجلى الحقائق، وكل ما ستجنيه هو التعجيل بنهايةٍ مأساويةٍ فحسب.. صدقني ما سار أحدٌ في هذا الطريق إلا ونال كل صنوف العذاب والهوان.. وسرعان ما ستكتشف أن تورطك في حادث المعبد اليهودي كان أهون بكثيرٍ مما أنت مُقدم عليه.

- ربما.. لكن ما أصبو إليه من تنوير العالم المظلم حولنا يستحق ما سألاقيه، والله المستعان أولًا وأخيرًا.

نجحت دموعها اللامعة في الفرار من عينيْها وهي تقول بصوتٍ متهدجٍ:

- افعل ذلك بأناشيدك وصوتك الخلاب الذي ما سمعت في حياتي صوتًا أجمل وأحن منه.. اغرس المحبة في نفوس السامعين وانتظر بعدها حصادًا من الوفاق والمؤاخاة بلا حاجة للصدام.. فالفن هو المرادف الثالث للإيمان والحب لأنه ينفذ للقلب

والوجدان مثلهما ويسيطر على الكيان والحواس.. ها هي الدنيا بدأت تبتسم لنا أخيرًا، والأشعار الصوفية التي تحفظها بهرت الجميع بطبقات صوتك التي أقسم الجميع أنهم ما رأوا لها مثيلًا، حتى إنهم ألحوا عليك أن تغني معنا في الفريق، وكلي ثقة أنك ستبهر الجمهور وتخطف الأضواء في الحفل الذي ستغطيه قنواتٌ عديدةٌ، لتنهال بعدها العروض عليك ويصبح لك شأنٌ آخر.

برقت عيناه فجأة مع كلماتها الأخيرة، وقال لها بنبرة استدراج:

- حدثيني أكثر عن عدد الحضور والقنوات التي ستُغطي الحدث.

* * *



(30)

وأخذت الأيامُ تتوالى على مبنى الخدمات الذي ذابت داخله كل الفواصل الزمنية بين شروق الشمس وغروبها، وبين الأيام وبعضها، وقد انغمس كل أعضاء فريق (تسابيح) في حالةٍ أبديةٍ علت على الزمن نفسه.. لم يلتفتوا سوى لأنغام الموسيقى وآهاتِ الحناجر، وكلمات الإيمان التي يرددونها بكل الثقة والطمأنينة، سواء في الترانيم المسيحية التي ترنّمها (آيات) وخلفها الكورال، أو الأناشيد الصوفية التي ينشدها الشاب الوسيم على ألحان وتوزيع (أندرو)، وكل منهم يسأل نفسه في غمار سكرته وخطفته الروحية: "كيف للعقل أن يُثمِل دون خمر؟"

تُغمض (آيات) عينيْها وتسبح في السماء وهي تردد:

يا رب اسمع صلاتي ... اقبل واستجيب

تعال وزور حياتي ... واملاها لهيب

أنا طلبي إني أشوف المجد ... أملي إني أشوفك

وحتى إن آخر باب اتسد ... هلمس هدب ثُوبك

وينظر الشاب للأعالي ويحمل الهواء تدريجات صوته الجبارة إلى الملأ الأعلى وهو يناجي رب الأرض والسماء:

زدني بفرطِ الحُبِّ فيكَ تحيُّرًا ... وارحمْ حشا بلظى هواكَ تسعَّرا

وإذا سألتكَ أنْ أراكَ حقيقةً ... فاسمَحْ، ولا تجعلْ جوابي لن تَرَى

يا قلبُ أنتَ وعدتَني في حُبّهمْ ... صبرًا فحاذرْ أنْ تضيقَ وتضجرا

إنّ الغَرامَ هوَ الحَياة فَمُتْ بِهِ ... صَبًا، فحقّكَ أن تَموتَ، وتُعذَرا

اقترحت (آيات) على الشاب الوسيم أن يحمل اسمًا مستعارًا حتى يتم تقديمُه إلى الجمهور به، ويُكتَب على لوحات الدعاية الخاصة بالحفل، وحين سألها إذا ما كان لديها اسم تقترحه أجابت بلا تردد:

- زجزاج.
- زجزاج؟!

قالها بدهشةٍ شديدةٍ، فابتسمت مجيبة:

نعم.. فأنت ذلك حقًّا منذ أول لحظةِ التقيتك فيها.. تسير في مساراتٍ متعرجةٍ ولا تعرف الطريق المستقيم.. قذفتك الأقدار في معبدٍ يهودي وكاتدرائية ومسجد، وسرت في دروب الثلاثة أديان.. حتى في داخلك، متبدل الأحوال من النقيض إلى النقيض.. تحمل شدةً تذيب الجبال، ورحمةً تطيب الجراح وتجبر القلوب الحزينة.. في كلماتك حكمة الأجداد، وفي نظراتك طفولة وليد ما زالت براءته بكرًا لم تفُضَّها الأيام.. لا تثبت على حالٍ أبدًا.

ابتسم رغمًا عنه وقال لها:

- هذه هي طبيعة البشر.. وجود الضد لديهم لن يصبح له معنى إلا بتواجد ضده.. فوجود الشر ما هو إلا تأكيدٌ على وجود الخير، ووجود الكرب ما هو إلا تأكيدٌ على وجود الفرج، حتى رسم القلب لا بد وأن يكون زجزاجًا ما دام هناك نفسٌ يتردد في جسد صاحبه، ولو سار في طريقٍ مستقيم لدل ذلك على انتهاء الحياة، لكن على كل حال لقد أعجبني الاسم.

ثم شرد وهو يردده بعمق:

- زجـزاج.

ومن جديدٍ عادت (آيات) تُرنِّم في مبنى الخدمات وخلفها الكورال:

ملك الملوك وجلالك .. مالي الوجود حوالينا

وجبال بتدوب قدَّامك .. اسمك عالي يا فادينا

دي الأنهار بتسقف لك .. كل الآلات تعزف لك

ويارب بكلمة منك .. كل الملوك تخضع لك

إنت عالي ... فوق كل اسم مهما يكون

عالي ... فوق السحاب ومالي الكون

عالي ... هتشوف مُلكك كل العيون

بينما أخذ الشاب ينشد بصوته الذي عادل فريقًا بأكمله:

كان لي ظلّ رسومٍ .. فاستوت شمسي فزالَ *
عشتُ بالمحبوبِ حقا .. بعدما كُنتُ خَيَالَ
عاد محبوبي وجودي .. فتجلى و تعالى
و تَخَفّى عن عياني .. فِيَّ عزا وجلالا

* * *

"كنت محقًّا يا سيدي.. إنهم يجرون البروفات ليلًا ونهارًا على قدمٍ وساق، وسيُقام الحفل خلال أيامٍ على مسرح سيد درويش بدار أوبرا الإسكندرية، والدخول مجانًا للجميع".

قالها (نصحي) إلى الرجل ذي العينين الزرقاوين الذي نفث دخان سيجاره في وجه (ريمون) وهو ينظر له نظرةً ساخرةً تقول فيها عيناه: "ألم أقل لك؟"، قبل أن يستطرد (نصحي):

- الكنيسة دعت للحفل شخصياتٍ عامةً، وحرصت على دعوة رئيس الطائفة اليهودية وباقي اليهود السكندريين.

ألقى الرجل سيجاره، وفركه بحذائه وهو ينزع ملامح وجهه الساخر ويستبدلها بوجهٍ صارمٍ لا يعرف الهزل قائلًا لـ (ريمون):

- حانت الآن لحظة الحسم التي انتظرتها.. فلتستعد لها وتنفذ ما سأقوله لك حرفيًّا بلا نقاش.

* * *

* هذه الأبيات الصوفية التي يغنيها الشاب الوسيم، يمكن سماعها على موقعي يوتيوب وساوند كلاود بصوت مطرب اسمه زجزاج أيضًا!

عاد صياحُ الديوك من جديدٍ حول سطح ذلك المنزل العتيق، الذي جلس الشاب الوسيم مرةً أخرى على مصطبته أمام غرفة (دميانة)، ناظرًا إلى البعيد متطلعًا إلى السماء التي يظهر فيها القمر في ليلة التمام، ملقيًا بضوئه الفضي على وجهه الخلاب ليزيد من أسطوريته التي ما رأت مثلها العيون، فيما أخذت (آيات) تنظر إلى ملامحه بانهماكٍ شديدٍ وهي ترسمه بالفحم على لوحةٍ مثبتةٍ أمامها على حامل، وفي خلفيتهما أخذت (ماجدة الرومي) تشدو بكلماتِ (نزار قباني) التي تساءلت (آيات) في نفسها كيف كان شكل الحب قبل أن يقول أشعاره:

يُسمعني حينَ يراقصُني

كلماتٍ ليست كالكلمات

يأخذني من تحتِ ذراعي

يزرعني في إحدى الغيمات

"أتعلم أن هذه أول مرة أرسم فيها منذ 10 سنوات؟"

قالتها (آيات) بنبرةٍ مرحةٍ خرجت من قلبٍ يتراقصُ فرحًا، وهي تواصل الرسم صانعةً لوحةً رائعةً لوجه الفتى:

والمطرُ الأسودُ في عيني

يتساقطُ زخاتٍ زخات

يحملني معهُ يحملني

لمساءٍ ورديّ الشُرفات

ومع غناء (ماجدة الرومي) واصلت (آيات) الرسم لتقول وهي تدقق في رسم عينيه:

- كنت مستعدةً أن أدفع عمري بأكمله، وتعود لي ليلةٌ واحدةٌ نقضيها معًا لأحقق فيها كل الأحلام المؤجلة.. أرسمك، وأغني معك مجددًا، ونَعُدّ نجوم السماء حتى تختفي مع لحظة الشروق



دون أن يلوح في الأفق أي خطر أو تهديد، ثم نحتفل بذكرى زواجنا مثلما يحتفل الآن موريس ودميانة بعد أن قام بتصفية ممتلكاته -أخيرًا- واشترى شقة في الإسكندرية.. سيتركون لنا تلك الغرفة لتشهد قصة حبنا مثلما شهدت قصة حبهما التي كانت أقوى من الزمان.

توقف الشاب عن تأمل السماء والتفت لها قائلًا لها بنبرةٍ غامضة:

- سيتوقف كل شيء على نجاح الهدف المنشود من الحفل.. فلتدعي معي بالنجاح والتوفيق.

وقبل أن تُفكر في المعنى الخفي لكلامه رسم ابتسامةً رصينةً على ملامحه ونهض قائلًا:

- هل انتهيتِ؟

صاحت فيه بشقاوةٍ:

- عُد مكانك، لقد أوشكت..

لكنه تقدم نحوها بمرحٍ حتى يشاهد ما أنجزته، فاحتضنت اللوحة لتخفيها عنه بجسدها وهي تداعبه بشقاوة طفلة في مدينة الملاهي:

- لن ترى شيئًا حتى أنتهي.

أمسكها من كتفيها وأزاحها بحب وحنان فاستسلمت لذراعيْه وهي تنظر له بكل الهيام والوله، وتطرب أذنيها وهي تسمع كلماته التي خرجت من شفتين قريبتين:

- من منتصف المشوار يظهر باقي الطريق لو كنتِ صادقةً في نيتك.

أخذ منها اللوحة برفقٍ وتأملها، فرأى نفسه فى شكلٍ جميلٍ أثار إعجابه، قبل أن يتغير وجهه ويقول بخشوع:

- يا رب.. لا تجعلني من الذين دخلوا المتحف فانبهروا باللوحات

ونسوا أن يملأوا زكائبهم بالذهب الحقيقي الموجود في البدروم.

ثم نظر إلى عيني (آيات) وتابع:

- علينا أن نلحق بتعبئة الذهب يا آيات.. ميعاد الزيارة محدود، ومن ينبهر بلوحات المتحف وينسى تعبئة زكائبه ستنتهي الزيارة ويخرج بزكائب فارغة.. لوحات المتحف حولنا للعرض فقط ولا يمكن اصطحابها معنا للخارج بينما الكنز الحقيقي تحت الأرض.

انقبض قلبها من كلماته الغامضة، ولاح لها في الأفق شبح أحزان ودموع قادمة، فأرادت غلق باب السماء في وجوههم وهي تغير دفة الحديث قائلة بمرح:

- ألا تشعر بالخوف من حفل الغد، خاصة أنها أول مواجهة فعلية لك مع الجمهور؟

برقت عيناه وأجاب:

- لا بأس، فأنا أعشق المواجهة.

* * *

وجاء اليوم الموعود..

اكتظ مسرح (سيد درويش) بمئات البشر.. كاميرات الفضائيات الشهيرة منصوبة في كل مكان تجري لقاءات قبل بدء الحفل مع القائمين على تنظيمه.. القمص (يوسف) يتحدث عن رغبة الكنيسة الأكيدة في البحث عن جوانب الاتفاق بين الأديان الإبراهيمية ونشر ثقافة التوافق بين أبناء العقائد المختلفة.. الحاخام (موريس) يتحدث عن الوجه الآخر الذي لا يعرفه المصريون عن اليهود والديانة اليهودية، ويؤكد على الفارق بين الصهيونية واليهودية.. (آيات) و(ألبرت) و(أندرو) يبدون سعادتهم الجمّة في اعتماد الفن كلغة حوار تضرب في القلوب والأرواح بشكلٍ مباشر حتى وإن غلّف الظلام بعض الأجزاء في العقول، بينما رفض (زجزاج) الحديث مع المراسلين، وطلب منهم التركيز على كلمته التي سيقولها على المسرح مباشرة، مبديًا سعادته بالتسجيل معهم بعدها، ثم

انزوى في الكواليس مع حاله يطلب من الله السداد والتوفيق فيما هو مقبل عليه، وفي غمار مناجاته وابتهاله، إذا بباقة ورد بديعة، مجموعة بذوق رفيع نادر التكرار، تحملها يدٌ رقيقةٌ امتدت بها إليه بينما همست شفتا صاحبتها:

- فلتحتفظ بهذه الورود من إنسانةٍ تعلمت على يديك الكثير، ولتهد بعضها إلى حبيبتك، عاشقةَ الوردِ.

"كريستين؟"

قالها الشاب بدهشة شديدة عاقدًا حاجبيْه، وهو يتأمل أسطورة الأمس، فاتنة الجمال والملامح وقد اكتست بطهارة واحتشام الراهبات، لكنها نظرت إلى الأرض في انكسارٍ وحزن، ثم انصرفت في صمتٍ دون أن تنبس ببنت شفة، لتظل عيناه متعلقتين بها بحيرةٍ وذهولٍ حتى اختفت.

وفي المسرح، كانت الصفوف الأولى مليئةً بالجمهور المسيحي الذي مثّل النسبة الأكبر في الحضور، وفي الصفوف الخلفية جلست (دميانة) و(موريس) كعاشقين جاءا في نزهةٍ يُعيدان فيها الأيام الخوالي، بعيدًا عن فضول العيون وزحام وسائل الإعلام، وإلى جوارهما جلس (إبراهيم منير) رئيس الطائفة اليهودية في الإسكندرية بجانب مجموعةٍ من اليهود المصريين العجائز، قبل أن يدخل الشيخ (خضر) المسرح ويجلس في صحبتهم، ثم عمَّ الظلام وبدأ الحفل، بغناء (آيات) و(أندرو) وخلفهما صوت الكورال:

أم وحاضنة ضناها بحرقة .. وبتبكي من نار الفرقة
جسمه متلج جتته زرقا .. وبينزف ومفيش إسعاف
قبل ما يكبر ويزيد ألمه .. كان في الفصل وماسك قلمه
فجأة المريلة شربت دمه .. مات ولا حد سمع ولا شاف
مش فاهمين
إحنا هناخد إيه من الدنيا غير شبرين
دنيا ومين هايخلد فيها .. طيب ليه نقتل بعض عليها
حتى كفنا مالوهش جيوب
ياللي بتنعس ولا بتنام .. ده العمر اللي مافوهش سلام
عمر وضايع مش محسوب
يا مولانا اسمع لدعانا .. فيه جوانا سواد وذنوب

يا سَيِّدنا ساعدنا اسندنا.. وانجدنا وكفاية حروب*

ومع انتهاء الأوبريت التمعت الأعينُ بالدموع التي لم تفرق بين مسلمٍ ومسيحي ويهودي، والتهبت الكفوف بالتصفيق الحار..

ثم دخل (زجزاج) مرتديًا بذلته المبهرة التي هبط بها من السماء، ليبهر الجميع فور طلته الأولى بوسامته وهيئته وتلك الهيبة والوقار الذي صاحبه فور أن سُلِّطت الأضواء عليه، وبدأ يغني:

أم يستغيثُ بنا المستضعفونَ وهُم .. قتلى وأسرى فما يهتزُ إنسانُ**
لماذا التقاطع في الإسلامِ بينَكُمُ .. وأنتُمُ يا عبادَ اللهِ إخوانُ؟
لابد من ميتةٍ في صَرفِها عِبَرٌ .. والدَهرُ في صَرفِهِ حولٌ وأطوارُ
لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ .. فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتُها دِوَلٌ .. مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتَهُ أزمان

اهتزت أرجاء المسرح بالتصفيق وصرخات التشجيع والتصفير بعدما أبدع الشاب في الأداء بصوت مليء بالإحساس والشجن مع كل حرفٍ نطقه بقلبه وروحه قبل لسانه، وغمرته أضواء فلاشات الكاميرات الفوتوغرافية، فقبضت يده على الميكروفون بشدة والتزم الصمت وهو يستجمع في ذهنه الكلمات التي انتظر من أجلها مجيء هذا اليوم، وألقى نظرةً خاطفةً على (آيات)، ثم بدأ يوزع نظراته على الجماهير وكاميرات القنوات التي تسلط العدسات عليه وبدأ يتكلم:

- أحييكم بتحية الإسلام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. جئنا اليوم من أجل المحبة.. من أجل الخير.. من أجل أن نعيش جميعًا في سلام، وهي رسالة سامية لا بد وأن نصطف جميعًا خلفها حتى تحتملنا هذه الأرض فوقها بدلًا من أن نُدفن فيها جميعًا.. لكن ثمة شيء ناقص في تلك المحبة التي علينا جميعًا

* هذه الكلمات من أوبريت بعنوان (سيبني أعيش) ويمكن الاستماع إليه عبر موقعي يوتيوب أو ساوندكلاود.

** هذه الكلمات من نشيد بعنوان (يا غافلًا) ويمكن الاستماع إليها عبر موقعي يوتيوب أو ساوند كلاود.

- أن نتحلى بها فيما بيننا.. فمن يحب إنسانًا مثله، يجب عليه أن يخشى عليه من الجحيم والعذاب وسوء المصير الأبدي.

تسارعت دقات قلب (آيات) وارتسم الخوف والتوتر على ملامحها وقد أدركت –مؤخرًا– كل تفسير كلماته الغامضة التي كان يقولها ولم تنتبه لمقصدها.

همَّت أن تصرخ فيه: "كفى".. أن تخطف الميكروفون من يده.. لكنها كانت تعلم أنه ما من قوةٍ في الأرض قادرة على منعه إذا ما أقدم على أمرٍ ما، فتركته يواصل وهي تتمنى من الله أن يلطف به في اللحظات المقبلة حين واصل كلامه:

- هناك خلافٌ عقائدي بين المسلم والمسيحي واليهودي، لم يولد اليوم على أيدينا، وإنما جئنا إلى هذه الحياة وقد ورثناه من آبائنا وأجدادنا، ولا شك أن من يحمل تبعية الذنب الأول، أولئك الذين بدأوا في إنكار وتكذيب ما جاءهم من الحقِ وبيِّنات الهُدى، وعلَّموا أتباعهم من بعدهم كيف يُنكرون ويُكذِّبون.

في تلك الأثناء كان (ريمون) و(نصحي) والرجل ذو العينين الزرقاوين يتابعون ما يُقال من خلال شاشة التلفاز التي تعرض بثًّا حيًّا مباشرًا من الحفل، قبل أن ينظر (ريمون) إلى ساعته ويقول للرجل:

- تبقى من الزمن ثوانٍ.

وعلى خشبة المسرح استكمل الشاب كلامه:

- وإذا كنتُ اليوم أحث على احترام الآخرين في حرية اختيار عقيدتهم باسم الإنسانية، فباسم الدين أحثهم على الوصول إلى الحقيقة قبل أن ينفض السامر وتحين لحظة حساب عسيرة لن يحترم فيها الإله حرية الاختيار حين نكتشف أن من بين كل الاختيارات، اختيارًا وحيدًا كان هو الأصح والأصوب، وما عداه

غير مقبول.. أقسم بالذي رفع السماء بلا عمد أني أحبكم حقًّا، وحتى يكتمل هذا الحب عليَّ أن أخاف عليكم من عذابٍ وهولِ يومٍ عظيم، لذا فاسمعوني جيدًا وليصحح لي خطئي من لديه الحجة والعلم قبل أن تنفتح أبواب الجحيم.

لكن للأسف.. سبق السيف العذل، وانفتحت أبواب الجحيم بالفعل مع آخر حروف نطقها الشاب..

فجأة حدث انفجارٌ ضخمٌ صمَّ صوته الآذان وارتجَّت معه جنبات المسرح، في اللحظة التي اندلعت فيها النيران من الصفوف الأولى لتنسف معظم الحضور من المسيحيين، وتتجه نحو خشبة المسرح في لمح البصر.

وفي اللحظة التي انطلق فيها الصراخ من الحضور، وعمَّت الفوضى والبلبلة والجماهير تركض في كل اتجاه ولسان حالهم يقول: "نفسي نفسي"، تجاهلت (آيات) مصيرها وحياتها وتعلقت عيناها بفتاها الحبيب، دون أن تخشى على حياتها من الموت بقدر ما خشيت عليه، لتتطاير حولها الأشلاء، والدماء، وتحيطها النيران التي لفحت وجهها، دون أن يعنيها وسط كل ذلك سوى النظر إليه وهي تراقب مصيره، فإذا به الجبل الوحيد الراسخ وسط أوراق الخريف التي تتساقط حولها، دون أن تلتهمه النيران أو حتى تمسه، قبل أن يندفع نحوها وهو يمد يد العون في محاولةٍ يائسةٍ لحمايتها، لكن قبل أن يصل إليها كان الظلام قد حلَّ.. وانطفأ نور الوعي.

* * *

(31)

حمل الشاب الوسيم جثمان (آيات) بفستانها الأبيض الملطخ بالدماء، وسار بها في الصحراء وخلفه مسيرةٌ من آلاف المسيحيين يحمل كل منهم جثمان ذويه من الضحايا..

القُمص (يوسف) يحمل جثمان (كريستين)، و(ألبرت) الذي تشوّه نصف وجهه يحمل جثمان (أندرو)، قبل أن يتوقف الشاب الوسيم عن المسير ويستدير نحو الجميع صائحًا فيهم:

- **يا مسيحيي الشرق الأوسط.. ماذا تفعلون عندكم؟ هذه الأوطان لم تعد أوطانكم؟**

اخرجوا يا مسيحيي مصر من الإسكندرية وأسيوط.. غادروا الظاهر وشبرا، اتركوا خلفكم كنائسكم الأثرية التي علّمت العالم بأسره الدين المسيحي، وهذا في حد ذاته جرمٌ فادحٌ ستدفعون ثمنه ما حييتم إن رغبتم في البقاء هنا.. اخرجوا يا مسيحيي دمشق ويبرود ومعلولا من أوطاننا، واخرجوا يا مسيحيي الموصل ونينوى وبغداد من بلداننا، واخرجوا يا مسيحيي لبنان من جبالنا ووديانا، واخرجوا يا مسيحيي فلسطين والجزيرة من شواطئنا وترابنا، اخرجوا جميعا من تحت جلودنا، اخرجوا جميعا فنحن نبغضكم، ولا نريدكم بيننا، فقد سئمنا التقدم والحضارة والانفتاح والتسامح والمحبة والإخاء والتعايش والعفو.

سئمنا كونكم الأصل في مصر والعراق وسوريا وفلسطين.. اخرجوا لكي لا نستحي منكم عندما تتلاقى أعيننا بأعينكم المتسائلة عما جرى؟

نظر إلى جسد (آيات) الذي زادت الدماء المتساقطة منه وانحدرت من عينيه دمعة ساخنة واستطرد:

- **ارتحلوا عنا.. فإننا نريد العودة إلى صحارينا، واشتقنا إلى سيوفنا وأتربتنا ودوابنا، ولسنا بحاجة لكم ولا لحضارتكم ولا لمساهماتكم، فلدينا ما يغنينا عنكم من جماعات وقتلة وسفاكي دماء.. اغربوا أيها المسيحيون عنا بثقافتكم، فقد استبدلنا بها**

ثقافة حفر القبور.*

إلا يدًا سمراء نزلت على كتفه وقال صاحبها ذو الملامح الفلسطينية: «على رسلك يا فتى.. فهذه أوطانهم، ولن أتركهم أبدًا يرحلون».

قطب الشاب حاجبيه وسأله بتحفز:

- من أنت؟

أجابه المتكلم:

- أنا المسيح ابن مريم البتول.

اتسعت عينا الشاب غير مصدّق نفسه، وقبل أن يهتف بحرفٍ واحدٍ، إذا برجل يرتدي ثيابًا بيضاء، منير الوجه، ذي لحية سوداء لم يطلها الشيب، يظهر في الأفق متقدمًا آلاف البشر الذين يرفعون راية مكتوبًا عليها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، اتجه نحو المسيح قائلًا:

- لست وحدك من يناصرهم أخي عيسى.. فمن قتلهم ظلمًا ظنًّا منه أنه ينصر دعوتي سيدخل وحده الجحيم ولن تناله شفاعتي.

فغر الشاب فاه وهو يردد بانبهار:

- محمد بن عبد الله؟

"ما كل هذه الضجة يا أبنائي؟ أهذا ما أوصيتكم به؟"

ودون أن يُعرّف القائل نفسه هذه المرة، أدرك الشاب الوسيم أن هذا القادم فوق فرس أبيض، مرتديًا ملابسٍ خضراء تبرق وكأنها مضيئة، هو نبي الله (إبراهيم)، وإلى جواره خيولٌ يمتطيها أولاده (إسماعيل) و(إسحق) و(يعقوب) و(موسى بن عمران)، قبل أن يأتي ملايين البشر من كل حدب وصوب ويختلطون بمسيرة المسيحيين، وتختفي راية المسلمين وينصهرون جميعًا في حشدٍ واحدٍ ملأ الصحراء الشاسعة مترامية

---

* هذه الكلمات مأخوذةٌ بتصرف من مقالٍ بعنوان (اخرجوا أيها المسيحيون من أوطاننا) للكاتب أحمد الصراف، ونشر في صحيفة القبس الكويتية.

الأطراف، بينما تراص أمامهم الأنبياء والرسل، وفجأة إذا بغمامة ضخمة تظلل الجميع لتتردد مع حلولها الهمهمات، وتتجه الأنظار إلى أعلى فإذا به عرش ضخم يحمله ثمانية ملائكة تغطي أجنحتهم مشارق الأرض ومغاربها ومن فوقه أنوار لا تبلغها الأبصار، ليرتجف الكل بلا استثناء ويخِرُّوا سُجَّدا وبُكيًا، في اللحظة التي عمَّ فيها الصراخ والعويل.

استيقظ الشاب مفزوعًا من رؤيته وما زال صراخ البشر يتردد في أذنيه حتى إنه ظل يرتجف لثوانٍ على مقاعد الانتظار أمام الغرفة التي ترقد فيها (آيات) غائبة عنِ الوعي بين الحياة والموت رغم مرور أيام على الحادث خضع فيها لسلسلة استجوابات مع العقيد (يحيى) مجددًا وأحد وكلاء النيابة الذين سألوا الجميع، دون أن يتلقوا إجاباتٍ مفيدة تكشف هوية الجاني، بخلاف أمطار من كاميرات الفضائيات وعدسات المصورين الصحفيين والمراسلين الذين ملأوا أرجاء المستشفى لأيام وأجروا لقاءات مع الجميع وعلى رأسهم الشاب الذي وجهوا له نفس الأسئلة بنفس الطريقة التي لم تختلف من صحفي لصحفي، ولا من مراسل لمراسل، وعلى رأسها: ماذا كنت تقصد بكلماتك التي قلتها قبل وقوع الانفجار؟ فأعطاهم بدوره إجاباتٍ واحدةً لا تتغير كلماتها بتغير السائل، مؤكدًا: "أردت توضيح حقيقةً تنقذ البشر من جحيم خارجي، فاكتشفت أن الجحيم صار يسكن القلوب".

احتلت تصريحاته وصورته صدر الصفحات الأولى في الصحف والمواقع الإخبارية، ما بين من صاغها بأمانةٍ ودقةٍ، ومن تلاعب فيها وحرّفها عن سياقها تمامًا، وصار ظهوره حديث الساعة، لكنه رفض الظهور في جميع برامج الـ "توك شو" حتى لا يغادر المستشفى الذي أقام فيه إقامة كاملة أمام غرفة الإنسانة الوحيدة التي ذاق معها طعم الحُب.. فكم ترددت في المستشفيات دعوات وصلاوات أصدق بكثير من تلك التي تتردد في المساجد والكنائس وباقي دور العبادة!

هز الشاب رأسه وهو يطرد عن رأسه كل ما عاناه خلال الأيام الماضية، ونظر يمينه فوجد الحاخام (موريس) إلى جواره، قبل أن يتسلل إلى أذنيه صوت القُمص (يوسف) وهو يردد منتحبًا بالقرب منه:

- صدقت يا يسوع حين قلت: وتأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.. يا رب اغفر لهم واحمهم من الشيطان الذي

يسكن عقولهم، وامنحنا القوة لنبارك لاعنينا ونصليَ لأجل الذين يسيئون إلينا، ويسكن فينا السلام رغم كل ما نقاسيه حولنا. هللويا هللويا.

امتزجت دموع الأب (يوسف) بدموع الشيخ (خضر) الذي قال بصوتٍ بنشيج:

- نشهد يا رسول الله بأنك قلت من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوقَ طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة.

اقترب منه أحد شباب الكنيسة وقبض على عنقه وهو يقتلعه من فوق مقعده قائلًا بغضبٍ هادر:

- لا تذكر سيرة نبيكم هنا.. فكل ما حلَّ بنا من أذى وخراب بسبب دينه الذي تتبعون.

علت همهمة عشرات الشباب المسيحي الذين يملأون المستشفى، وأخذوا يلتفون حول الشيخ والشاب الغاضب في اللحظة التي تدخل فيها القُمص (يوسف) وأمسك بذراع الشاب، وصرخ فيه:

- اصمت يا ضعيف الإيمان.. فمن يتصرف بطريقتك الحمقاء لا يعرف شيئًا عن المسيح.

أزاح الشيخ (خضر) يد القمُص، وقبَّل رأس الشاب المسيحي قائلًا:

- "لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين.."، هكذا يقول الإسلام الحقيقي يا بُني، وبخصوص ما فعلته معي منذ ثوانٍ فقُبلتي على رأسك تطبيقًا لوصايا الرحمن التي قال فيها: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المُحسنين".. أما ما وصلكم من دينٍ مشوه فلا علاقة له بتعاليم الخالق التي أوحاها لنبينا المظلوم على يدِ أتباعه قبل أن يكون مظلومًا من أتباع الأديان الأخرى.

اكتفى الحاخام (موريس) بهز رأسه بأسى وحزن وهو يُتابع ما يحدث دون

أن يلفظ بحرف، قبل أن يخترق الشاب الوسيم ذلك الزحام الذي أحاط بالقُمص (يوسف) والشيخ (خضر) وقال بلهجة انكسار واعتذار:

- يبدو أني تسرعت حين ظننت أن تبيان الحق يجب أن يبدأ من عندكم.. فالمسلمون في حاجةٍ إلى أن يعرفوا دينهم أولًا.

قال له القُمص (يوسف) وهو يُحاول أن يزن دفة الحديث:

- ما زال الأمر مبكرًا على هذا الكلام يا ولدي.. فحتى الآن لم يثبُت بعد أن مرتكبي الحادث مسلمون، حتى وإن كان هذا هو الاحتمال الأقرب للحدوث.

انفتح باب غرفة (آيات)، وخرجت منه (دميانة) وهي تبكي بنحيبٍ شديد مرددة:

- يا خسارة شبابك وجمالك يا ابنتي.. ليتك متِ قبل أن تشاهدي ذلك اليوم.

اقترب منها الشاب الوسيم وأمسك بكتفيها وهو يسألها بهلع:

- ماذا حدث؟

أجابته بانهيارٍ ودموعها تنهمر كالطوفان:

- ادخل وانظر بنفسك.

تركها واقتحم الغرفة التي انتهى فيها الطبيب من نزع الشاش من على وجه (آيات) التي ما زالت غارقةً في غيبوبتها، ومن هول المشهد هوى جسده رغمًا عنه ليسقط على ركبتيه وهو يرتجف غير مصدقٍ ما ترى عيناه.. فتلك الراقدة أمامه لم تعد تمت إلى (آيات) بأدنى صلةٌ، بعد أن انمحت معالم وجهها تماما، ولم تبقَ منها سوى عينيها.

انهمرت دموعُه لأول مرة في حياته بهذه الكثرة، واقترب زاحفًا من سرير حبيبة الأمس، غير قادر على التحكم في عضلات قدميه اللتين شلتهما الصدمة، لينكب عليها فور وصوله إليها وينهار في البكاء، وقد فقد السيطرة على مشاعره وانفعالاته تمامًا.

باختصار كان ما يمرُّ به كفيلًا بإصابة فقدان الذاكرة نفسه، بفقدان في الذاكرة!

لم يدرِ كم عدد الدقائق والساعات التي مرَّت عليه وهو في هذه الحالة، دون أن ينجح أحدٌ في تخليصه من معشوقته أو تخليصها منه، قبل أن يرفع رأسه وكأنه يستيقظ من كابوسٍ وجد الواقع أسوأ منه.

نظر نحو الكومودينو المجاور للسرير فوجد مزهرية بها ورود طبيعية وظلت عينيه تتسع في دهشةٍ حين وجدها شديدة الشبه بتلك الباقة التي أهدتها له المرحومة (كريستين)، ليلتقط أجمل وردةٍ فيهم ويقربها من أنف (آيات)، ثم استأنفت عيناه البكاء وهو يغني بصوتٍ باكٍ متوجعٍ أغنية (يا عاشقة الورد)، بصوتٍ وإحساسٍ شديد الشبه بأداء (مايك ماسي)، لكن بإحساسٍ أقوى، وألم أشدّ، وإيقاعٍ أبطأ:

يا عاشقة الوردِ.. إن كنتِ على وعدي

فحبيبك منتظرٌ.. يا عاشقة الوردِ

دون أن يرى ما كان يدورُ في خيال حبيبته في تلك اللحظات التي جمعت بين اليقظة والغيبوبة، إذ كان يقف أمام عينيْها على خشبة المسرح ويمد يده نحوها بعد أن سقطت أرضًا ليعينها على النهوض وهو يردد نفس الأغنية، وما أن وقفت على قدميْها حتى ضمها في صدره بحنان الكون، ثم وضع رأسها بين كفيه وهو يُملّي عينيْه منها، لتتباعد بعدها صورته في الحلم وتبهت الرؤية وهو ينادي عليها قائلًا: «سأنتظرك في أرض الواقع، هيا، الحقي بي».

وبالفعل بدأت تفتح عينيها ليقع ناظرها أول ما وقع على وجهه الجميل، ثم قالت بضعفٍ:

- حمدًا الله أنك بخير.. أي شيء بعدها مقدور عليه.

ضمها في صدره مجددًا، وتجمدت الدموعُ في عينيْه فيما تحولت ملامحه من الحزن والانكسار إلى غضبٍ هادرٍ وتحفزٍ لا حد له قائلًا:

- عديني ألا تنظري للمرآة مرةً أخرى، حتى أعيد لك ملامحك التي سرقها منك الانفجار.

اتسعت عيناها في هلع، وسألت بصوتٍ متقطعٍ متكسر النبرات:

- هل تشوَّه وجهي؟

وضع يده على فمها ليمنعها من الكلام ثم احتضنها دافنًا وجهها في صدره حين تحوَّلت كلماتُها المبتورة إلى بكاءٍ شديدٍ بينما قال بعينين تجمدت فيهما الدموع اللامعة:

- أقسم لك بأنك ستعودين كما كنتِ، حتى ولو كلفني ذلك عمري كله.

* * *

دخلت (آيات) السطح مرتديةً نقابًا يُخفي ما فعله بها القدر، لكن يد الشاب الوسيم التي أخذت بيدها واحتضنت كفها في رحمة ورفق كانت سببًا كافيًا حتى لا تكفر بجرعة الخير الباقية في أقدار الرب رغم كل ما عانته على مدار سنوات عمرها الماضي.

فور دخولهما السطح وقع بصرهما على غرفة (دميانة) المفتوحة، فسحبت (آيات) يدها من كفه واقتربت من باب الغرفة وهي تنادي بتوتر:

- دميانة.. دميانة!

وتحوَّل توترها إلى فزعٍ حين وجدت الغرفة خاويةً على عروشها فيما انزاح الدولاب عن الحائط ومن خلفه كانت الخزنة السرية مفتوحةً خالية الوفاض من أي شيء، لتنظر خلفها بارتياعٍ وتقول للشاب:

- دميانة اختفت، ولا أثر لأي شيء في خزينتها.

وقبل أن يلفظ بحرف، صك سمعهما صوتُ خطوات أتى من خلفهما، فإذا بها (دميانة) التي حمل وجهها الحزن الشديد، فهتفت بها (آيات):

- أين كنتِ يا دميانة؟ وماذا حدث للخزنة؟



أجابتها (دميانة) بندم:

- للأسف يا ابنتي.. كنت أظن أني لن أحتاج لأموالي فتبرعت بها بالكامل للكنيسة، وخبأت شيكاتك وأسطواناتك مع أبونا يوسف.. ذهبت له اليوم عسى أن أسترد منه ما تبقى من أموال حتى أجري لك عملية تجميل، لكنه أخبرني أنها ذهبت بالفعل لمن يستحقونها من الفقراء والمحتاجين.

رغم نقابها الذي أخفى ملامحها، أطل البؤس والألم الذي لا حد له من عينيْ (آيات)، وهي تقول بمرحٍ مصطنعٍ لم يخف الألم والانكسار الحقيقي:

- ولماذا كنتِ تعتقدين أن الحظ من الممكن أن يبتسم لأمثالي.. إنه فصل الختام هذه المرة ولا حيلة قادرة على تغيير نهايته المؤسفة.

بكت (دميانة) كما لم تبك منذ زمنٍ طويل نسيت فيه عيناها طعم الدمع، فيما نظر الشاب الوسيم لفتاته قائلًا بحزم:

- لا تقلقي يا حبيبتي.. فهناك خطوةٌ مؤجلةٌ حان وقت اتخاذها، وأعدك بعدها أن كل شيء سيتغير.

* * *

(32)

غادرت (آيات) والشاب الوسيم منزل (دميانة) القديم واتجها يمينًا ليمرا بجوار عربة كارو يجرها حمارٌ ثم اختفى أثرهما من الشارع..

وعلى يسار العقار في الوقت نفسه، تحركت سيارةٌ فاخرةٌ تسير ببطء حتى توقفت أمام باب المنزل وغادرها (ريمون) و(نصحي) والرجل ذو العينين الزرقاوين الذي ما أن مرَّ بجوار العربة الكارو حتى جنَّ جنون الحمار وأخذ يهز رأسه وينهق بشدة، قبل أن تحذو حذوه باقي الحمير الموجودة في عربات الكارو المجاورة للمنزل، فيما دخل الثلاثة رجال في المنزل وصعدوا لأعلى.

وعلى باب حجرة (دميانة) هوت طرقاتٌ غليظةٌ بشكلٍ متواصلٍ، فاتجهت لفتح الباب بملامح غاضبةٍ وهي تقول:

– فلتهمد يا ابن الكلب الذي يقف على الباب!

وما أن انفتح الباب حتى وجدت نفسها وجهًا لوجهٍ أمام أكثر رجلٍ أذاقها العذاب والهول على وجه الأرض حين كان يحتل جسدها..

انتفضت وهي ترتد للخلف كمن سقطت عليها صاعقةٌ من السماء، بينما ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ لزجةٌ وهو يتقدم نحوها قائلًا بشماتةٍ ونبرة جمَّدت الدم في عروقها:

– افتقدتك جدًّا يا عزيزتي.

ومن خلف كتفيْه اندفعت لكمةٌ أودعها (نُصحي) كل قوته، لتحيل أنفها إلى كومةٍ من اللحم المفري، ويحلّ بعدها الظلام وقد اسودت الدنيا تمامًا.

* * *

أسفل شجرةٍ وارفة الأوراق، في حديقةٍ عامةٍ مليئةٍ بالأشجار والورود، وقفت (آياتُ) مع الشاب وهي تتأمله بحب، ورهبة، وتوتر، في مزيجٍ من المشاعر المتفاوتة التي يصعب اجتماعها في وقتٍ واحدٍ، وقد أخذ كل شعور منفصلٍ فيهم يتنازع على احتلال ملامح وجهها المخفي عن أعين البشر حين قالت من تحت نقابها:

- هذه أكثر مرة أتذكر فيها زوجة أبي وما فعلته بي.. لو كانت أنصفت في تربيتي وردت الجميل إلى ذلك الرجل الطيب الذي انتشلها من الفقر لما حدث ما حدث.. ربما كنت اليوم إنسانةً صالحةً تتبرع لفقراء الكنيسة مثلما فعلت دميانة.. لم أكن لأسقط في الخطيئة وأتقلب بين الأسِرَّة وأحضان الغرباء.

قاطعها الشاب:

- ولم نكن لنلتقي.

انتفض جسدها وهي تقول بذعر:

- رباه.. مرحبًا بكل ما عانيته إذن إن كان سيؤدي إلى وجهك الجميل.

التمعت عيناه بالدموع رغمًا عنه ورفع النقاب عن وجهها المُدمَّر تمامًا باستثناء عينيْها الجميلتين اللتين تفيضان بالجراح والبؤس، وتأملهما لحظاتٍ قبل أن يقول:

- حان وقت الحساب يا آيات في ميراثك المسلوب ظلمًا وزورًا.. سنسترد حقك وتسافرين للعلاج في ذلك المستشفى الألماني الشهير الذي حدثتنا عنها الطبيب.

نظرت له بخوفٍ وقلقٍ ثم قالت بنبرة صوت مترددةٍ مليئةٍ بالرهبة:

- نفسي لكن خائفة.. لقد اصطدمت بها مرتين.. في الأولى دخلت الأحداث وسُرقت مني أجمل سنين عُمري، وفي الثانية خسرت الإنسان الذي كنت سأتزوجه.. هل تظن أننا سننجح هذه المرة؟

منحها ابتسامةً مطمئنةً وأجابها بكلماتٍ يتقاطر منها الإيمان والثقة:

- لو آمنتِ بذلك، فكل شيء مستحيل سيغدو ممكنًا.

* * *

في غرفتها تمددت (دميانة) على الأرض نائمةً على بطنها وهي تنظر

للبلاط المُتسخ الذي امتلأ بخصلات شعرها بعد أن تم نزعه نزعًا من منتصف فروة رأسها، ليظهر جلد رأسها الأصلع، فيما أحاطتها أنظار الثلاثة رجال، قبل أن يقول (ريمون) بكل قسوة الدنيا:

- ألا تريدين أن تنطقي بعد كل ما ذقتيه يا ابنة العاهرة؟.. ارحمي نفسك وأخبرينا أين الشيكات والأسطوانات.. لن نمل من تعذيبك حتى لو استمر ذلك على مدار عمرك كله.

رفعت رأسها ببطءٍ شديدٍ وقد تخضب بالدماء التي سالت من مواضع شتى وصبغت وجهها كاملًا باللون الأحمر، ورغم ذلك قالت ساخرةً:

- عُمر؟ صدق المثل القائل: "ما تخافش من الهبلة خاف من خلفتها".. لم يعد في عُمري ما أخشى على فقده يا جحش.. لقد كنت أعيش فقط لأني كنت متمسكة بالدنيا وأريد ذلك، والآن لم أعد في حاجة لحياة فيها أمثالك.

قبض (نصحي) على عنقها بشدةٍ وأجبرها على الوقوف قائلًا:

- وحياة أمك لو جاء عزرائيل نفسه، فلن يستطيع أن يأخذك منا.

نظرت لعينيه الغاضبتين ثم أخذت تضحك ببطءٍ ازداد حتى تحوّل لضحكةٍ ساخرةٍ كبيرةٍ، قبل أن تقول:

- لقد حضر بالفعل.. فلترني كيف ستمنعه لو كنتَ رجلًا!

ثم واصلت الضحك باستفزازٍ حتى همَّ (نُصحي) بلكمها، إلا أن الرجل ذا العينين الزرقاوين استوقفه بإشارةٍ من يده فظل (نُصحي) ممسكًا بها، بينما اقترب الرجل من خلف أذنيها وقال بلهجةٍ ثعلبيةٍ بطيئة:

- فلتستقبليه وأنتِ مرتاحة إذن.. فمن يشقى طوال عمره يتمنى على الأقل أن يرتاح وهو يموت.

ضاقت حدقتاها وهي تلتفت نحوه بنظرةٍ ثعلبيةٍ مماثلةٍ قائلة:

- من يعش في شقاء يموت مرتاحًا، ومن يرتاح في معيشته يموت في شقاء.. لقد عشت عُمري كله لا أؤمن بشيء، ويكفيني أن أموت من أجل شيء آمنت به (**ضحكت من جديدٍ وتابعت**) ليتكم جئتم مبكرًا يا أولاد الكلب.

ثم واصلت الضحك المُجلجل بمزيدٍ من الاستفزاز حتى ألقاها (نُصحي) بقسوة، وأخرج مسدسه المزود بكاتم الصوت، قبل أن يصيح فيها (ريمون):

- إذن فما زلتِ مصممةً ألا تُخبرينا أين خبأوا الشيكات والأسطوانات.

ردت عليه بابتسامةٍ وهي تنظر خلفه بنظرة رضا:

- لقد حضر عزرائيل خلفك.. خلَّصنا بقى الراجل لسه وراه شغل!

ثم ضحكت ضحكتها الأخيرة ليسحب (نُصحي) أجزاء مسدسه ويصوبه نحوها بعينيْن غاضبتيْن للغاية، في اللحظة التي انفتح فيها باب الغرفة مع صوت (موريس) الذي يقول بمرح:

- أرجو ألا أكون قد تأخرت على مولاتي.

وما أن شاهد ما يحدث حتى اتسعت عيناه في ذهولٍ، وارتعدت فرائصه فيما قالت له (دميانة):

- دائمًا تأتي في الوقت المناسب.

* * *



(33)

هبَّت (إريني) زوجة والد (آيات) في مكتبها الفخم الواسع، ذي الأثاث الفاخر للغاية، وقد ارتدت ملابس أنيقة على أحدث صيحات الموضة، لكنها لا تناسب سنها، وتحفزت ملامح ابنها (أمير) ذي الجثة الضخمة الذي يقف على يسارها، لتضرب سطح مكتبها وهي تصرخ في (آيات):

- أنتِ مرةً أخرى؟ ألم تتعلمي من كل ما حدث لكِ؟

نزعت (آيات) النقاب عن وجهها لتظهر من تحته ملامحها المشوهة فشهقت (إريني) دون أن تقصد حتى وضعت يدها على فمها، قبل أن تقول الأولى باكية:

- هذا ما حدث لي بعد كل ما قاسيته على يدك أيتها الجبارة، ولم يعد لديَّ ما أخسره.. أعطيني حقي الذي سلبتيه حتى أعالج وجهي، وسأسامحك على كل ما فعلتيه معي طوال السنين الماضية.. صدقيني لن تجدي عرضًا أفضل من هذا قبل أن نقف جميعًا أمام الرب في يوم الحساب.. فكل من ماتوا كانوا يعتقدون أنهم سيعيشون إلى الغد.

همَّت (إريني) بالكلام لكن (أمير) ابنها استوقفها بإشارةٍ من يده قبل أن يتابع بلهجةٍ تفيض بالشر وهو يقترب من (آيات):

- في المرة الماضية كان قلبي رحيمًا بكِ واكتفيت بقطع عيشك من مكتب الجرافيك فقط.. وإذا كان أحد فينا سيقدم عرضًا للآخر اليوم، فأنا الذي يعرض عليكِ أنتِ وهذا الشاب الطري أن تأخذا بعضكما وتنصرفا في سلام لتستكملا قصة حبكما في الشارع الذي أتيتما منه، وإلا فقسمًا برحمة شرفك فسيكون مصيرك السجن المؤبد هذه المرة.

ثم مدَّ يده نحو خدها متابعًا وقد ضاقت حدقتاه ليصبح مثل الشياطين:

- ماشي يا حلوة؟

لكن يد الشاب الوسيم كان لها رأي آخر، إذ امتدت لتقبض على عنق

(أمير) قبل أن تلمس يده خد (آيات)، لترفعه عن الأرض وتحبس عنه الأكسجين، وحين قرَّبه الشاب الوسيم منه وهو معلق في الهواء، أخذ يرجمه بنظرات نارية خلت من أي رحمة أو شفقة، فيما أخذ ابن زوجة الأب يركل الفَراغ بقدَميه وقد انتفضت عروق وجهه الذي امتقع وتحوَّل إلى اللون الأزرق، في حين صرخت (إيريني) برعب:

- أميييييير!

ثم مدَّت يدها إلى زرٍّ في مكتبها وضغطت عليه بسرعة، قبل أن تجري نحو ابنها برعبٍ ولوعةٍ لتتعلق بذراع الشاب الوسيم في محاولةٍ يائسةٍ لتنزيله، في الوقت الذي قال فيه الشاب لابنها بلهجةٍ تُجمِّد الدم في العروق:

- ما رأيك الآن في الشاب الطري الذي تعرَّف عليها من الشارع وقد علقك مثل الذبيحة!

حاولت (إيريني) تخليص ابنها الذي حاكى وجهه وجوه الموتى بلا جدوى وهي تصرخ في الشاب:

- أنزله يا حيوان.. أقسم أنك ستموت.

وفجأة، انفتح باب المكتب ودخل منه 4 من ضباط الأمن ضخام الجثة، لينغلق الباب خلفهم في اللحظة التي صاحت فيهم (إريني) بلهجةٍ آمرة:

- اقتلوه!

ترك الشاب الوسيم ابنها يسقط أرضًا وهو يُحاول أن يبلع أكبر كم من الهواء من فمه الذي انفتح على آخره وقد جحظت عيناه، في اللحظة التي أخرج فيها ضباط الأمن مسدساتهم وصوَّبوها نحو الشاب قبل أن تقف (آيات) أمام مسدساتهم وهي تفرد ذراعيها لتحمي بجسدها جسد حبيبها، لكنه أزاحها وهو يقول لهم بصرامةٍ شديدة:

- ليست هناك عداوةٌ بيني وبينكم.. لا تجبروني على الفتك بكم!

إلا أن (إريني) صاحت فيهم:



- 100 ألف جنيه لمن يقتله.

جميعهم سحبوا أجزاء مسدساتهم، وقبل أن يصوبوها نحو الشاب الوسيم قبض يده وانثنى بسرعةٍ شديدةٍ ليلكم الأرض لكمةً حملت قوة السماء وجبروت الملائكة، فاهتز المبنى بأكلمه، وتشققت الأرض لتمتد الشقوق نحو رجال الأمن ليسقطوا جميعًا ويفلتوا مسدساتهم في رعبٍ وهم ينكمشون في أماكنهم كتماثيل نحت الهلع والفزع بصماته على وجوهها، وتسقط معهم (إيريني) و(آيات).

انتصب الشاب بقامته قائلًا لـ (إيريني) التي اتسعت عيناها غير مصدقة ما تراه وأخذت ترتعش وهي ساقطة على الأرض كعُصفورٍ صغيرٍ في ليلةٍ شاتيةٍ:

- أمامك أسبوع حتى تراجعي فيه أوراقك وحساباتك.. بعد انتهاء المهلة لن يكون هناك كلام آخر يُقال.. فقط أفعال لا تخطر على بالك في أبشع كوابيسك، وما حدث كان مجرد عينة.

ثم مدَّ الشاب يده إلى (آيات) التي ما زالت ساقطةً على الأرض، وعاونها على النهوض بينما ما زال الباقون يتطلعون إلى الأرض المشققة، غير مصدقين ما حدث أمام أعينهم.

وما أن تقدم (الشاب) و(آيات) نحو باب المكتب وهمَّا بالانصراف حتى انفتح الباب فجأةً ليطل منه الرجل ذو العينين الزرقاوين ليلكم الشاب الوسيم في وجهه بقوةٍ شديدةٍ دفعته ثلاثة أمتار للخلف قبل أن يسقط ويحتك بالأرض في عنف، ثم اقتحم (ريمون) و(نصحي) المكتب من النافذة وقد أتيا من السطح، وكل منهما يحمل مسدسًا مزودًا بكاتم للصوت، وفي لمح البصر جذب (ريمون) (آيات) إليه ووضع مسدسه على رقبتها، بينما أغلق الرجل ذو البذلة الرمادية الغريبة باب المكتب بإحكامٍ شديدٍ بعد أن ألقى نظرةً ساخرةً على جثة السكرتيرة في الخارج هي والساعي.

وحين التقط ضباط الأمن الأربعة مسدساتهم داخل المكتب وحاولوا السيطرة على الوضع، تعامل معهم (نصحي) وريمون بدفعةٍ سخيةٍ من الطلقات لتسبح جثثهم خلال ثوانٍ في بحيرةٍ صغيرةٍ من الدم، بينما دسَّ الرجل المريب سيجارًا بين شفتيه وأشعله وهو يتقدم بخطواتٍ بطيئةٍ واثقةٍ

نحو الشاب الذي نهض من سقطته مصدومًا، لا يفهم ما يحدث، ليأخذ نفسًا عميقًا من سيجاره ثم ينفثه في وجهه قائلًا في برود:

- دورك انتهى إلى هذا الحد.. الحياة ليست دائمة المكسب حتى لأمثالك.

تطلع الشاب الوسيم إلى وجهه في محاولةٍ يائسةٍ لتبيان هويته متسائلًا:

- من أنت؟

تراقص اللهب في عينيْ الرجل وهو يُجيب بمقت:

- كنت أتمنى أن تكون ذاكرتك حاضرةً لأُذكِّرك بذلك القَسَم القديم الذي افترقنا عليه بالأمس وأنا أسقيك من كأس الهزيمة اليوم.

ثم برقت في ذاكرته ومضاتٌ من سنواتٍ سحيقةٍ جاوزت الألفي سنة، حين دبَّت في السماء معركة (الرق المنشور).

المخلوقات النارية أخذت تقذف حممها وتخلق حول نفسها جحيمًا مستعرًا يحول بينها وبين الملائكة، وجنود السماء يرسلون موجاتٍ من البرق والعواصف، وتخفق أجنحتهم بشدة لإطفاء جحيم الأرواح النجسة، قبل أن تهبط من السماء السابعة ملائكة تحمل قذائف من جهنم انطلقت معها صيحات وصرخات المخلوقات النارية، ليبدأوا في التقهقر والتراجع ناكصين على أعقابهم باحثين عن خروج آمن من المعركة، لتنقض الملائكة على فلول الهاربين وتقبض عليهم في الوقت الذي فر فيه البعض عبر دروب الكون ليختبئوا في الكواكب والنجوم..

ووسط كل ذلك انطلق ملاك الرب النوراني نحو أحد الأرواح النارية الهائلة دون أن يدري أن هذا المخلوق لم يكن سوى ابن القائد الذي أعدَّه والده لانتحال دور الإله حين تنجح الخطة!

وبسرعةٍ فاقت سرعة الضوء فر ابن القائد مارقًا بين الكواكب والنجوم، وخلفه ملاك الرب النوراني الوسيم، الذي فرد أجنحته وهمَّ أن يَطبِقَها عليه، لكن ابن القائد فلت في اللحظة الأخيرة ليخترق الغلاف الجوي للأرض وخلفه جندي الرب لتتقارب المسافة بينهما، وحين شارفت أن تذوب فوجئ ملاك الرب بصوت فحيح يأتيه من خلفه فالتفت نحوه



بسرعة البرق، وإذا بالقائد نفسه ينقض عليه لإنقاذ ابنه، فاستقبله جندي السماء وأحاطه بأجنحته ثم توهج جسده بنور ساطع، أجبر قائد الأرواح النجسة على إطلاق أعتى موجات الألم ليستسلم ويقع في الأسر، وحين عاد الملاك النوراني الوسيم ينظر حيث ترك ابن القائد كان قد اختفى تمامًا تاركًا خلفه رسالةً مكتوبةً على الأرض بالنيران، وبلغة لا تمت إلى اللغات البشرية بصلة على الإطلاق جاء فيها:

- **في يوم مثل هذا، سنلتقي مجددًا يا ابن النور.. لكنك ستكون الطرفَ المهزوم الخاضع لسلطاني لتدرك أن النار لا يمكن هزيمتها أبدًا.**

عاد الرجل ذو العينين الزرقاوين من ذاكرته وقال للشاب بلهجةٍ تفيضُ بالشر والغل:

- هل ستنفذ أمري أم ستتسبب في إراقة المزيد من الدماء؟

عقد الشاب حاجبيْه متسائلًا:

- أي أمر؟

ضاقت عينا الرجل وهو يقول بلهجةٍ قاسيةٍ:

- اركع!

اتسعت عينا الشاب ثم تحوَّلت دهشته إلى زمجرةٍ رهيبةٍ فاقت زئير الأسود وهو يغوص في عيني الرجل المريب الذي ألقى سيجاره ثم نظر لـ (نصحي) نظرةً ذات مغزى، فوجَّه الأخير مسدسه نحو (إيريني) وابنها في اللحظة التي صرخت فيها (آيات):

- لا.. لا تقتلهما!

لكن صرختها تبددت في الهواء حين سبق السيف العذل وفتح (نُصحي) نيران مسدسه لتخترق جسد (أمير) الذي احتضن أمه وحاول أن يفديها فاخترقت الطلقاتُ جسده ونفذت منه إليها وسبح كلاهما في دمائه، لتصرخ (آيات) في فزعٍ، بينما أشار الرجل المريب لجثث الجميع المتكومة وقال للشاب:

- دماؤهم في رقبتك.. تمامًا مثلما ستتحمل دم تلك المسكينة التي زادها وجودك بؤسًا على بؤسٍ حين أنهي عمرها الآن.

انتفض الشاب الوسيم وهو ينظر لـ (آيات) نظرة عجز، وقال بصوتٍ متلجلج وشبح فقد حبيبته يتراقص أمام عينيه:

- الأعمار بيد الله وحده.

اقترب منه الرجل المريب وتلاقت عيناهما قائلًا بتحد:

- ولو أخذها منك فلن يُعيدها إليك مرةً أخرى **(ضاقت حدقتاه وصرخ صرخةً هادرة)** اركــع!

نظر الشاب إلى (آيات) في قلقٍ وارتياع، ورأى دموعها الساخنة تنزل بغزارة وهي تهز رأسها ببطءٍ، وكأنها تطلبُ منه ألا يفعل، ثم نظر مجددًا للرجل المريب في حيرةٍ، فصاح الأخير:

- ريمون.

مع صيحته بدأت سبابة (ريمون) بسحب زناد مسدسه ببطء لتغمض (آيات) عينيها في رعب، وتدفن رأسها بين كتفيها وهي تتوقع خروج الطلقة في أي لحظة، فأشار الشاب فجأة للرجل المريب مقاطعًا:

- انتظر!

ثم نظر للأرض بخزيٍ، وانحنى في طريقه للركوع، قبل أن تلمع عيناه فجأة وينثني ليلكم الأرض بقوةٍ شديدةٍ لتهتز الأرض وتتشقق من جديدٍ بينما يسقط الجميع أرضًا، في الوقت الذي تحرك فيه الشاب في لمح البصر نحو (ريمون) الساقط أرضًا ليركل من يده المسدس، ثم انقض على (نصحي) وركل سلاحه بالمثل، لكنه فجأة سمع ضحكة الرجل الساخر الذي يقف على باب النافذة ممسكًا بـ (آيات) من رقبتها، وما أن نظر له الشاب بعينين متسعتين يطل منهما الهلع حتى قال بسخريةٍ مقيتة:

- تأخرت كثيرًا.. لو كنتَ تحبها فلتذهب خلفها!



ثم ترك (آيات) لتسقط من ارتفاعٍ شاهقٍ.

* * *

ما أن سقطت (آيات) من النافذة وبدأت في إطلاق صرخات الفزع والتخبط في الهواء، حتى قفز الشاب خلفها مخترقًا النافذة، ليمسكها من يدها ويجذبها بقوة للداخل بينما اندفع جسده للخارج ليواجه السقوط بدلًا منها، في مشهدٍ لو كان مخرجٌ سينمائي يريد إخراجه، لما وجد له تصورًا أفضل من حركةٍ بطيئة الإيقاع ترصد سقوط الشاب من أسفل وهو مغمض العينين، تتطاير خصلات شعره للخلف، بينما في الأعلى تنظر له (آيات) نظرةً ملتاعة وهي تتجه للداخل قبل أن تدخل من النافذة وتختفي.

وما أن دخلت بفعل دفعة الشاب القوية، حتى سقطت أرضًا على رأسها لتحتك برخام الأرضية في عنفٍ وتفقد الوعي، فحملها الرجل المريب واتجه بها نحو النافذة متجاهلا أصوات الطرق الشديدة على باب المكتب من الخارج بعد أن انتبه العاملون بالشركة أن ثمة أمرًا مريبًا يحدث، وصاح في (ريمون) و(نصحي) بلهجةٍ آمرة:

- اتبعاني للسطح من هنا!

ثم غادر المكتب من النافذة وتبعه كلاهما حتى اختفوا جميعًا.

وخارج الشركة سقط الشابِ فوق إحدى السيارات التي تحطمت تمامًا بفعل سقوطه عليها، والتفَّ الناس حوله في تزاحمٍ شديدٍ غير مصدقين نجاته بعد السقوط من هذا الارتفاع الشاهق، قبل أن يغادر الشركة 3 من ضباط الأمن متجهين نحوه وهم يصوبون مسدساتهم نحوه ليقول أحدهم:

- قف مكانك!

اختلط صوت رجل الأمن بهمهمة وجلبة الناس المحتشدة، بينما نهض الشاب وقفز من فوق السيارة نحو رجال الأمن الثلاثة في سرعةٍ خاطفة ليركل أقرب مسدس إليه ثم يدفع صاحبه نحو الاثنين الباقيين بقوةٍ هائلةٍ أطارت بأجسادهم لمسافة10 أمتار، قبل أن يخترق الشاب الشركة ويدخلها من جديدٍ بغضبٍ هادرٍ لم تُخلق بعد الكلمات القادرة على وصفه.

ما أن دخل حتى هرع نحوه المزيد من أفراد الأمن والموظفين ليكيل اللكمات والركلات في قوةٍ وقسوةٍ شديدةٍ تردد مع كل واحدة منها صوتُ تحطم العظام، في حين غادرتْ الموظفات الشركة في فوضى وصراخٍ متتابع.

اشتد زحام المتشاجرين معه ونجحوا في صنع دائرة حوله جعلوه في مركزها، وحاول البعض التعلق في رقبته من الخلف غير مصدقين أن فردًا واحدًا قادرٌ على هزيمتهم أجمعين، وداخل كل منهم أمل بأنه سيقضي عليه، فطفح به الكيل وضاعف قوة ضرباته قبل أن ينزع من أحد رجال الأمن مسدسه ويبدأ في ضرب النار بشكلٍ عشوائي في غمرة انفعاله الذي لم يفق منه إلا بعد سقوط أول قتيل، وعندها فقط توقف عن القتال غير مُصدِّق أنه قتل، وتوقفوا عن قتاله غير مصدقين إمكانياته وقدراته الخارقة، ففروا من حوله، بينما صعد بدوره الأدوار العليا في طريقه إلى مكتب (إيريني) حتى وصل إليه واقتحمه في عنفٍ بركلة وحدة حطمته تحطيمًا، ليجد جثث ضباط الأمن و(إيريني) وابنها غارقةً في دمائها، بينما لا وجود لـ (آيات) و(ريمون) و(نصحي) والرجل المريب، فصرخ بغضبٍ هادرٍ وهو يدور حول نفسه:

- آيات.. آيااااااااااااات

وبعد مرور دقائق من الصدمة والوجوم، كان الشاب يهبط سلالم الشركة مُنكّس الرأس، حاملًا على كتفيه عار فقد أغلى إنسانة على قلبه في الوجود، وعار دماء سالت على يديه، ليغادر المكان الذي خلا من البشر وأي أثر لحياة كانت تدب فيه منذ قليل، باستثناء بعض أجساد رجال الأمن والموظفين الذين فقدوا وعيهم وأصابتهم إصاباتٌ متعددةٌ في الوجوه والأجساد، وجثة ذلك القتيل الذي سقط بطريقةٍ غير مقصودة، ليتأملهم الشاب بحزنٍ وحسرةٍ، قبل أن ينظر ليديْه غير مصدقٍ أنهما ارتكبتا ما ارتكبتا في حق موظفين بسطاء لا ذنب لهم، ثم غادر الشركة بعينيْن دامعتيْن، غير عابئٍ بصوت سارينة سيارات الشرطة التي أخذت تقترب وتقترب.

* * *

(34)

وصل الشاب إلى شارع (سعد زغلول) حيث منزل (دميانة) العتيق، وهناك تسارعت دقات قلبه وهاله المنظر حين رأى سيارة الشرطة تقف أمام العقار وقد غادرها العقيد (يحيى) الذي يتابع الموقف لحظة بلحظة، وإلى جواره سيارة إسعاف حولها زحامٌ كثيفٌ من البشر الذين يبذل رجال الأمن مجهودًا مضنيًا في إبعادهم، قبل أن ينقبض قلبه ويهز رأسه في استنكار وهو يكذب عينيه حين أطل من مدخل المنزل نقالتان محمولتان من رجال الإسعاف، وتحمل كل نقالةٍ فيهما جسدٌ مُغطى بملاءة بيضاء عليها بقعةٌ كبيرةٌ من الدم، ليضرب بعض أهل المنطقة كفًا بكف حين وضع رجال الإسعاف جثتيْ (دميانة) و(موريس) في السيارة، ثم أغلقوا بابها الخلفي لتغادر السيارة المكان، في حين سقطت دموع الشاب بكل الحسرة والهوان وهو يبتعد عن المكان حتى لا يلحظ وجوده رجال الشرطة.

* * *

داخل بدروم الملهى الليلي تم تقييد (آيات) من يديْها وقدميْها في خشبة بين كرسيين بحيث يتدلى رأسها للأسفل..

من زاويةٍ مقلوبةٍ رأت كلًّا من الرجل المُريب و(نُصحي) و(ريمون) الذي نظر لها بمقتٍ وشماتةٍ شديدةٍ قائلًا:

- ترى ما الذي ستفعله أم وجه مسلوخ بعد وفاة السيد سوبرمان؟

صرخت باكية:

- لأ، لأ.. أنت تكذب عليَّ.

قبض على شعرها ورفع رأسها نحوه بقسوةٍ قائلًا:

- هل تستطيعين أن تخبريني أين هو الآن إذن؟ لماذا لم يأتِ لينقذك في اللحظة الأخيرة مثلما كان يفعل؟.. لقد انتهى أمرك أيتها العاهرة وأصبحت بمفردك مجددًا، ولن تنقذك قوة في الكون من قبضة يدي لو بقيتِ على عنادك.

ثم أخرج قداحته الفضية ذات اللمعة العاكسة للأشياء وكأنها مرآة

وقرّبها من عينيها حتى ترى وجهها فيها قائلًا:

- انظري إلى وجهك الدميم الذي لم يعد قادرًا على جذب أنظار كلبٍ مخصي يبصق عليه البشر، وأخبريني بما نفعك الإيمان والذهاب للكنيسة؟

صرخت بألمٍ شديدٍ حين رأت وجهها لأول مرة، قبل أن تغمض عينيْها في ألم فيما تسللت دموعها من بين جفونها المغلقة، فأشعل قداحته وصاح فيها وهو يقرب النار من عينيها بغضبٍ هادر:

- افتحي عينيكِ!

صرخت في ألمٍ وهي تفتح عينيها بخوفٍ شديدٍ، قبل أن يأخذ الرجل المريب نفسًا من سيجاره قائلًا ببروده الذي نافس القطب الشمالي:

- لا تقلق.. ستخبرك بكل شيء.. فمن غير المعقول بعدما مات بطلها الأحمق، وتورطت في قضية قتل زوجة أبيها وابنها ودميانة وموريس أن تفكر ولو مجرد تفكير في الخروج عن طاعتك.

اتسعت عيناها وهزت رأسها في استنكار وهي تبكي بلوعة وألم الكون كله:

- لأ.. لأ.

ثم تقدم الرجل نحو (ريمون) وأردف:

- كنْ على استعدادٍ حتى أعود لك.

سأله (ريمون):

- إلى أين ستذهب؟

شرد الرجل ببصره وتابع بغموضٍ مليء بالشر:

- مشوار مؤجل منذ آلاف السنين.

فغر (ريمون) فاهه مثل طفلٍ يتلقى التطعيم بالتنقيط في الفم، وهو يُكذِّب ما سمعه بأذنيه، بينما تركه الرجل وغادر المكان.

* * *

لم يدر الشاب كم مرَّ عليه من وقتٍ وهو على هذه الحالة من التخبط والحزن وقلة الحيلة، بعد أن غُلِّقَت في وجهه كل الأبواب، حتى الشيخ (خضر) الذي كان ملاذه الأخير لم يجده في منزله بمنطقة (بحري)، ليسير بعدها مرتديًا بذلته الرائعة على غير هُدى حتى وجد نفسه في شارع (خليل حمادة) بحي (سيدى بشر)، بين كنيسة (القديسين مار مرقص الرسول والبابا بطرس خاتم الشهداء) التي كانت على يساره، ومسجد (شرق المدينة) الذي كان على يمينه، في وقتٍ متأخرٍ من الليل خلا فيه الشارع من البشر والدواب، لا سيما مع هطول المطر الشديد الذي رافقه سطوع البرق وهزيم الرعد بفعل النوّة.

نظر إلى السماء بحزنٍ وقد تلألأت عيناه بالدموع التي اختلطت بماء السيول، ثم قال بخجلٍ وضعفٍ:

- كما تشتاق الإبل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله.. **(بكى لثوانٍ ثم واصل)** يا رب.. لا أعرف ماذا أقول.

"لا تقل له شيئًا لأنه غير موجود"

ترددت كلماتُ الرجل ذي العينيْن الزرقاويْن من خلف الشاب، فالتفت الأخير نحو الأول بغضبٍ هادرٍ ليجده بنفس هيئته وملامحه الساخرة، وقد ابتل شعره الذي تتساقط منه قطرات الماء، ليتقدم نحو الشاب بثقة متابعًا:

- هل صدَّقت أنه موجودٌ حقًّا لتدعوه؟ أفق يا عزيزي إنه كذبة خلقناها!

بُهت الشاب من الكلمة، ومن طريقة كلام الرجل الذي يتحدث بحميمية شديدةٍ وكأنهما أصدقاء منذ زمنٍ فتساءل بدهشةٍ عارمة:

- خلقناها؟

- بكل تأكيد.. فأنا وأنت لسنا من هذا العالم البائس الذي نلهو به كيفما

نشاء ونتحكم في مقدوراته ومسارات تاريخه.. أوه يا عزيزي.. يبدو أن ذاكرتك التي فقدتها في حاجة إلى إنعاشها والعودة بها إلى أصلك الأول حيث كوكبنا الذي ننتمي إليه قبل أن تسقط في تلك الليلة بمقابر الثغر وتلتقي بتلك الفتاة.

ارتسم الذهول والحيرة في عينيْ الشاب وعلى ملامح وجهه وهو يفغر فاهه وترتعش شفتاه، متذكرًا كيف سقط فجأة في المقابر لا يدري من أين سقط، ولا إلى أي عالمٍ ينتمي، قبل أن يمسكه الرجل من كتفيه ويقربه من وجهه حتى تلامست أنفاسهما قائلًا:

- انظر إلى عينيَّ جيدًا وحاول أن تتذكر!

شعر الشاب أن عينيْ الرجل تتسعان حتى صارتا شاشتيْ عرض عملاقتين ابتلعتاه إلى داخل عالمٍ آخر اختفت فيه الحضارة المدنية الحديثة، وذابت الأبراج والبيوت والسيارات، واستحالت الشوارع الأسفلتية إلى أراضٍ رمليةٍ غير ممهدة بينما توالت كلمات الرجل بصوتٍ عميقٍ رنان:

"منذ ملايين السنين بتوقيت الأرض، كان هذا الكوكب أرضًا خربة، عثر عليها أجدادنا أصحاب الحضارة المتطورة في كوكبٍ ينتمي لمجرةٍ أخرى خلف غياهب هذا الكون السحيق.. عندها قرروا أن يجعلوا من هذا الكوكب معمل اختبار لخلق حياة موازية داخل مخلوقاتٍ كثيرةٍ تم اختيار أشكالها وتصانيفها بعنايةٍ شديدةٍ في معاملنا".

رأى الشاب في عيني الرجل أنوارًا تهبط من الأعالي ثم تخرج منها أطباقٌ طائرةٌ هائلة الضخامة، تقترب من أرض الكوكب الصخرية وتخرج منها الديناصورات والأسود والنمور وغيرها من المخلوقات التي أخذت تجري في كل مكان، حيث بدت في الأفق أنهارٌ وأشجارٌ وجبالٌ وكهوفٌ، ليتجه كل مخلوقٍ إلى البيئة التي تناسبه، فيما تواصل صوت الرجل في الحكي.

"وبعد فترةٍ من الزمن تم الاستقرار على أن هذه المخلوقات في حاجةٍ إلى مخلوقٍ جديدٍ بمواصفاتٍ أعلى تجعله على قمة هرم الأحياء التي تمرح في هذا الكوكب، فصنعنا آدم، ووضعناه في حديقة غناء كبيرة حتى يعيشَ فيها بعيدًا عن المخلوقات الشرسة، لكنه ظل بائسًا وحيدًا فتم الانتباه إلى ضرورة خلق مخلوقٍ آخر يُؤنس وحشته، ويُساعده

على النمو والتكاثر، ومن هنا جاءت حواء، لكن جرعة الفهم التي غرسناها داخل هذا النوع المتطور من المخلوقات كانت تنمو بشكل مثير فاق التوقعات، فكان لا بد من خلق فزاعة تُحجّم قدراته وإمكانياته، وفي الوقت نفسه تقيسُ مدى طاعته للأوامر التي ترد إليه، فكان الشيطان هو هذه الفزاعة، وشجرة المعرفة هي معيار قياس درجة الطاعة، وبدأنا نخاطبهم من على بُعد بصوتٍ عميقٍ أخبرهم أنه الإله".

رأى الشاب الوسيم في عينيْ الرجل (آدم) و(حواء) وهما يُغادران الحديقة الضخمة، ويسيران هائمين في الأرض لتطاردهم بعض المخلوقات الشرسة فيختبآن منها، وكلمات الرجل تقول:

"ومن جديد بهرتنا قدرات آدم وحواء ونسلهما في التعايش مع البيئة الجديدة، بعد تمثيلية طردهما من الجنة إذ كنا نحن المتحكمين في إرادته حين أكل من الشجرة المُحرمة، لكن ظلت المشكلة التي تهدد بفشل التجربة أن ذكاءهم كان يقترب من كشف اللعبة، وإفساد مخطط التجربة، وكان الحل الوحيد هو تشتيت انتباههم بلعبة تعدد الآلهة وخلق الصراعات بينهم، وبالفعل نجحت اللعبة بشكل مؤقت وسالت الدماء وانتشر الخراب ونشطت الدراسات والتقارير في معاملنا، حتى تمرد بعض علمائنا على ما يحدث وقرروا الانفصال، وفي الخفاء صنعوا خطة عكسية تعتمد على اختطاف نماذج من البشر وتعريضهم لتجارب روحية يخبرونهم بعدها أنهم أنبياء اصطفاهم الخالق لهداية البشر وتنفيذ تعاليمه، ونشأت الصراعات في كوكبنا بين قوتين عظميين، قوة تقوم تجاربها على الفتن والصراعات والشر لتعميق الدراسات والتجارب، وكنت أنا أحد جنودها، وقوة أخرى تقوم على الهداية والخير والسلام لدراسة التأثيرات الروحية، وكنت أنت أحد جنودها، ثم تم عقد اتفاق بين القوتين أن يتلاعبا ضد بعضهما من خلال البشر، دون أن يتحول صراعنا في التجارب إلى صراعات شخصية فيما بيننا على كوكبنا، ووقعنا على هذه الاتفاقية حتى تمتد لشهور.. فثمة فارق زمني هائل بين مقياس زماننا ومقياس زمانهم، حتى إن يومًا واحدًا لدينا يُعادل نصف قرن من زمانهم، لذا فكل رحلة الإنسانية لا تتعدى في زمننا مجرد شهور".

انفتحت أبواب السماء المعروضة في عينيْ الرجل أمام الشاب الوسيم، وانهمرت منها سيول الأمطار، فيما تشققت الأرض وتدفقت منها شلالات

الماء، لتحمل المياه مركبين ضخمتين تفصلهما مسافةٌ جغرافيةٌ شاسعة، وداخل كل منهما بشر ومخلوقات، والرجل يستطرد:

"في وقتٍ ما تعقدت اللعبة ووصلت إلى طريقٍ مسدود، فقررنا إغلاقها وبدئها من جديد، فكان الطوفان العظيم الذي تلاعبنا من بعده بعقول البشر حتى تتوه الحقيقة.. فريقي كتب السيناريو للفئة الناجية التي انتخبناها من الحضارة السومرية حين خاطبنا أوتنابشتيم ملك مدينة شوروباك في إحدى الليالي وأخبرناه أن مجمع الآلهة اتخذ بتحريض من إله العاصفة إنليل قرارًا بإفناء الحياة على الأرض، ولكن قبل الشروع بتنفيذ خطتهم قام الإله إيا بنقل الخبر إلى أوتنابشتيم ملك مدينة شوروباك وكلّمه من وراء جدار، وأمره أن يبني سفينةً عملاقةً وفق مخطط خاص شرحه له، وأمره أن يحمل إليها كل ما يملك من ذهب وفضةَ، وأهله وأقاربه، ونخبة من أصحاب الصناعة والحرف ليختبئوا بها عند اندياح الطوفان، وتم تخليد ذلك باللغة السومرية في ملحمة جلجامش على ألواح من الفخار، بينما كنت أنت ورفاقك من الذين نفذوا مخطط نوح الذي انتخبه علماؤكم ليكون نبيًا".

لاحظ الشاب الوسيم كيف كانت الأطباق الطائرة تزاور الأرض، وتخرج أشعة ترسم على صفحة السماء صور مخلوقات أشبه بالبشر فيجري البعض ويسقط البعض الآخر مغشيًا عليه، بينما يثبت نوع ثالث من الإنس ليتحدث مع مخلوقات السماء بينما الرجل يردف:

"وظلت أزمانهم تتتابع وكل منا يسير في مخططه، ليدوّن نتائج التجارب والاختبارات التي يمرون بها عندما يشاهدون سفننا ومخلوقاتنا.. فقبل أكثر من 3000 عام بتاريخ زمانهم، أمر فرعونهم تحتمس الثالث بتوثيق تلك الواقعة الشهيرة في بردياتهم، حين شاهد كتبة البيت المقدس وجيوش الفرعون العظيم دوائر من النار تحوم في السماء، ثم نزل منها أناسٌ تخرج من أنفاسهم ألوان عديدة، وقد ذهب الشعب لإخبار الفرعون فأمر بكتابة ما حصل على أوراق البردي.. وفي أسفار الكتاب المُقدس قال حزقيال النبي حين رأى مخلوقاتنا: "انفَتَحَت السَّماواتُ فنزلت عليَّ رُؤيا مِنَ الله.. كانَ ذلِكَ في السَّنةِ الخامسة مِنْ سَبْي المَلِكِ يوياكينَ.. وهُناكَ في أرضِ البابليِّينَ، على نهرِ خابورَ، كلَّمني الرَّبُّ، أنا حزقيالُ بنُ بوزيَ الكاهِنُ، وكانت يَدُهُ عليَّ.. فنَظرتُ إلى فوق، فرأيتُ عاصفةً مُقبلةً مِنَ الشَّمالِ، وبرقا ينفجِرُ مِنْ سحابةٍ

عظيمةٍ مُحاطةٍ بهالةٍ منَ الضَوء، وفي البَرقِ كانَ ما يُشبهُ الأحابيل اللامعَ.. وفي وسَطِ العاصفةِ تَراءى لي شيءٌ كأنَّهُ أربعةُ كائنات حية تُشبهُ البشَرَ".. صنعت لهم بدوري الأساطير والآلهة والفزاعات التي تحكّمت في مجتمعاتهم من مكان لمكان، ومن عصر لعصر، في البداية أفزعتهم بحكايات التنانين العظيمَة فانتشرت تلك الحكاوى في الكتاب المُقدس، وفي الديانة الفيدية، وفي عقيدة الفيداس، وفي أساطير التنانين اليابانية التي اندمجت مع القصص المستوردة من الصين وكوريا والهند.. ثم أشعت فكرة الأرواح الشريرة التي تتلبس الحيوانات والبشر فانتشرت بين الأصلاء من الإفريقيين والأمريكيين والأوربيين والأستراليين والهنود على حدٍّ سواء في شتى الأقاليم، وعاش الإنسان البدائي رهينًا بمشيئة الأرواح.. ثم خلقت فكرة آلهة الشر والحروب بين الحضارات الكبرى، فجاء ست في الحضارة الفرعونية، وشيفا وزوجته كالي في الحضارة الهندية، وفي الحضارة البابلية ربة الأرض تيامات التي استعانت بالطوافين على حكم أقطارها وخلقت من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها، وفي الفارسية أهريمان.. حتى حين قررتم بدوركم خلق مسارٍ روحاني واصطفيتم الأنبياء وراسلتموهم في صورة وحي ورؤى، كانَ لا بد من إقحام الفزاعة فانتحلت شخصيات إبليس وعزازيل وسطنائيل وبعلزبول، وانتحلت أنت وفريق شخصيات ملائكية أطلقتم عليها جبرائيل، وميكائيل، وغيرهم من الهيئات التي اتخذتموها وأنتم تراسلون المصطفين في بلاد الشرق التي أنجبت الأنبياء، أما العقلانية الغربية التي بهركم نضجها وعبقريتها في روما وأثينا وغيرهما من بلاد الغرب، فقد أنجبت فلاسفة أغنوكم عن تكرار سيناريو الأنبياء معهم".

اختفت صورة الأطباق الطائرة والمخلوقات الفضائية من عينيْ الرجل، وظهرت حدائق غنّاء تجري من تحتها الأنهار، وتحيطها نخل باسقات لها طلع نضيد، وأشجار تتدلى منها فواكه لا مثيل لها على الأرض، وتتوسطها قصورٌ من الذهب والفضة تطل منها حور عين لا مثيل في جمالهن بين كل النساء، ويطوف حولها ولدان مخلدون مثل اللؤلؤ المنثور، وفي سماء تلك الحدائق كانت هناك أطياف تُشبه أجساد البشر لكنها كانت روحانية، ليشعر الشاب الوسيم أن هناك فارقًا بين أطياف البشر التي في السماء وبين سكان الحدائق الغناء، في الوقت الذي قال فيه الرجل:

"ولأن كل بيئة جغرافية كانت لها بالغ التأثير في تركيب ساكنيها، فاختلف وصف الجنة في كل دين حسب المكان الموجه إليه.. أخبرنا من يسكنون الصحارى والوديان أن الجنة بها النساء والخمر لذة للشاربين.. وأخبرنا من يعيشون في أرض الزيتون أنهم سيتحولون إلى أجسادٍ سماويةٍ تسمع موسيقى الفردوسِ وينظرون إلى الجالس فوق عرشِ النعمة.. وأيًّا ما كانت صورة الجنة، فقد أطلقنا في نفوسهم الرهبة من يوم القيامة المنتظر وظللنا نغذي لديهم الإحساس بقرب وقوعه.. فجعلنا يوحنا المعمدان يقول منذ أكثر من ألفي سنة: توبوا لأنه اقترب منكم ملكوت السماء، وجعلنا المسيح يقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.. وجعلنا محمد يقول: ويل للعرب من شر قد اقترب، ورغم مرور مئات السنين، ما زالوا يُصدقون أن هذا اليوم آتٍ".

فجأة اختفت صور الحدائق والجنات، ورأى الشاب الوسيم في عينيْ الرجل جماعاتٍ من البشر تبني برجًا شاهقًا، ثم جماعاتٍ أخرى تصنع طائراتٍ وسفن فضاء، بينما تابع الرجل:

"ولأننا أمددنا هذه الأرض بمخلوقاتها من السماء، لم يتوقف نسل آدم يومًا عن محاولة بلوغ الأعالي.. حاولوا ذلك حين شرعوا في بناء الصرح الشاهق فبلبلنا ألسنتهم بلغاتٍ عديدةٍ حتى يفشل تواصلهم في أرض بابل، لكنهم لم ييأسوا.. صنعوا من الريش أجنحة وقفزوا بها من فوق الجبال.. ثم صنعوا طائرات تطير بإمكانياتٍ ظلت تتقدم مع الوقت، إلى أن غزوا الفضاء بسفنٍ وصواريخ وصاروا قريبين منا أكثر من اللازم، ثم انتبهت فئة بالغة الذكاء منهم إلى لعبتنا وكوّنوا العقيدة الرائيلية في فرنسا، وقالوا إن البشر خلقوا من قِبَل كائنات فضائية متقدمة علميًا وحضاريًا، قدموا من كوكب آخر وخلقوهم بواسطة علم الجينات والهندسة الوراثية وسمي الرائيليون سكان كوكبنا بالألوهيم، ومن يومها زاد الانشقاق بين فريقيْ العلماء في كوكبنا.. الفريق الذي أتبعه أرسلني في مهمة استكشاف أعيش بموجبها كواحدٍ منهم، لأراقب مدى تقبل مجتمعات الشرق الأوسط لهذه الفكرة وهل اقتربت معدلات ذكائهم من العقيدة الرائيلية أم لا، والفريق الذي تتبعه أنت فكّر في صياغة دينٍ جديدٍ يجمع بين الثلاثة أديان حتى يجذب الانتباه بعيدًا عن كوكبنا وحقيقتنا، ومحا ذاكرتك وأرسلك لتعيش بينهم وتجرب محنة الانتقال بين الأديان في سيناريو محكم يقودك لذلك، حتى

يروا من خلالك كيف يمكن تغذية هذه الأديان بشكلٍ يتصدى للمعتقد الرائيلي الذي سيكشف هويتنا، وبكل أسف كان لا بد وأن يحدث صدام بيني وبينك بعد انتهاء مهمتنا حتى لا يفطن أحدهم إلى حقيقة الأمر وينشغلوا بالتساؤل عن مصيرنا وأين اختفينا بعد عودتنا.. مؤخرًا حدث اجتماع بين الفريقين اللذين أرسلانا وأخبروني بضرورة العودة وأنت معي بعد أن حاول فريقك التواصل معك ولم ينجح لخلل مفاجئ حدث في أجهزة استشعارك المزروعة داخلك".

عادت عينا الرجل إلى طبيعتهما وهو يمد يده لتمسك يد الشاب ويجذبه للسير معه قائلًا:

- والآن هيا يا صديقي نعود من حيث أتينا حيث عالمنا الحقيقي.

تجمد الشاب في مكانه ولم يتجاوب، فنظر له الرجل بدهشةٍ وسأله:

- ماذا هناك؟

باغته الشاب بنظرةٍ صارمةٍ وهو يرد على سؤاله بسؤال:

- إن كنا نحن من خلقنا سكان هذا الكوكب، فمن خلق سكان كوكبنا؟

ضحك الرجل ضحكةً مجلجلةً، ثم أجاب:

- لا يوجد خالقٌ يا عزيزي.. فنحن من خلقنا سكان هذا الكوكب، وسكان كوكبنا وُجِدوا بشكلٍ تلقائي من غبار الكون الموجود قبل حتى أن يتكون الزمن، حيث لم تكن هناك شموسٌ وأقمارٌ لتحدد الليل والنهار.. فقط كان الظلام، ثم حدثت تفاعلات مصادفة وانفجاراتٌ قسمت الكون إلى كواكب ونجوم، بعضها مضيء وبعضها معتم، ومن تفاعل النور والظلام مع تكوينات التربة بدأت الحياة تتشكل بصورٍ وأنماطٍ مختلفة، صانعة ملايين التصنيفات، التي تعيشُ لفترة ثمّ تموت وتتحول إلى صورةٍ أخرى في تتابعٍ لا نهائي.

ظل الشاب جامدًا في مكانه ينظر له بارتياب، فقال له الرجل:

- أإلى هذا الحد نسيت كل شيء؟ أنت بحاجة لعلاج عاجلٍ في كوكبنا إذن، هيا تعالَ معي.. هناك ستعرف كل شيءٍ بالتفصيل.

سأله الشاب من جديد:

- وماذا عن آيات؟ هل ستتركها هكذا؟

ابتسم الرجل بدهشةٍ شديدةٍ وأجابه:

- أيعنيك أمرها؟ لا.. لا تقل لي إنك وقعت في غرام دمية من صنع أيدينا.. إنها لا ترقى لِبَنِي جنسنا أيها الساذج.. هل نسيت حبيبتك على كوكبنا؟

هز الشاب رأسه وكأنه يُحاول أن يطرد كابوسًا غير حقيقي من رأسه وقال بضيق:

- فلتعد وجهها إلى ما كان عليه إذن وتنقذها من براثن أولئك الخاطفين!

اتسعت ابتسامة الرجل وهو يُجيب بلهجةٍ غامضةٍ:

- ليكن ما تريد.

ثم أمسك بِكَتِفَيْ الشاب وسحره بعينه من جديدٍ ليرى داخلهما (آيات) وهي تهرول خارج الملهى الليلي الذي كانت مختطفة فيه وقد نزعت عن وجهها النقاب وعاد إلى جماله الذي كان عليه، وما أن يقع نظرها على أول نافذة سيارة وترى وجهها الذي شفي تمامًا حتى تتجمد في مكانها وتضع يديها على الزجاج لتقرب وجهها أكثر وتُطيل النظر وهي لا تُصدِق عينيها اللتين انهمرت منهما دموع السعادة، قبل أن تتلاشى صورتها من عينيْ الرجل، في الوقت الذي التمعت فيه الدموع في عينيْ الشاب قبل أن تنزل كحبات الماس المصهور، ويصاحبها صوت النحيب لا تأثرًا فقط برؤية وجهها الوضّاء من جديدٍ وقد استعاد شروقه وإشراقه، بل لأنها لن تعود له كما كان يتمنى.

"كما رأيت.. مصائرهم بالنسبة لنا كن فيكون.. فطاقة تفكيرنا قادرة على تبديل أحوالهم في أقل من غمضة عين، وعندما نعود لعالمنا سترى ما

هو أكثر.. هيا بنا".

قالها الرجل وهو يمسك بيد الشاب من جديدٍ ويسير معه، وقد استسلم الأخير له تمامًا لتترافق خطواتهما ويبتعدا عن المكان.

"خدعة رائعة، لكنها لن تكتمل ما دُمتُ حيًّا".

ترددت الكلمات بصوت الشيخ (خضر) هذه المرة، ليلتفت الشاب خلفه في لهفة وسعادة، وينتزع يده من يد الرجل ليجري نحو مُعلمه كطفلٍ تائه عثر على والده بعد شهرٍ من البُكاء، بينما تجمَّد الرجل في مكانه وظل معطيًا ظهره للشيخ لنصف دقيقة، قبل أن يلتفت ببطء، وقد أضاءت عيناه الزرقاوان كعينيْ قط، فيما كشَّر عن أنيابه التي سال الزبد منها كذئبٍ يتأهب للانقضاض:

"ماذا تريد مني أيها الكهل العجوز؟"

قالها الرجل بلهجةٍ رهيبةٍ لا تُشبه أبدًا أصوات البشر، وإن تشابهت مع تحفز القياصرة والأباطرة حين يدقون طبول الحرب، ثم تَقدم نحو الشيخ وهو يتابع بصوته المثير للرجفة حتى إن شعر الشاب تطاير إلى الخلف مع كلماته التي لازمتها الرياح، قبل أن يجيب الخضر الرجل بنبرةٍ هادئة:

- لا أريد شيئًا.. أنت الذي تريد.. منذ بدء الخليقة وأنت وبنو جنسك تصنعون الأساطير وتتلاعبون بوثائق التاريخ لتضربوا بها مصداقية الأديان، وتُغرقوا البشر في الحيرة والتخبط حتى يظلوا طوعًا لكم ولعبة في أياديكم القذرة، تمامًا مثلما تُحاول الآن اللعب في دماغ هذا الشاب الطيب لتصطحبه معك إلى الجحيم.

اتسعت عينا الشاب في ذهول، بينما عقد الرجل حاجبيْه وقال بغلظة:

- فلتتركني أصحبه معي أو تحتفظ بجثمانه.

ورغم دقة الموقف، ابتسم الخضر ساخرًا وسأله بتحد:

- لماذا لا تصحبني معك بدلًا منه؟

صرخ فيه الرجل:

- لا حاجة لي بمُسنٍّ مثلك.

ثم وجَّه لكمةً مباغتةً إلى وجه الشيخ، وفي لمح البصر مدَّ الشاب يده ليتلقى اللكمة على ساعده حتى يحمي وجه معلمه، قائلًا بكل غضب الدنيا:

- الآن عرفت من أنت.

قبل أن يوجه بدوره نحو الرجل لكمةً أودع فيها كل قوته..

وبسهولةٍ وخفة، أمسك الرجل قبضة الشاب وقبض عليها بأصابعه الفارطة فتوجَّع الشاب بينما مصمص الرجل شفتيْه ساخرًا:

- تؤ تؤ تؤ تؤ.. فلتنس أيام الماضي التي ولت وانتهت أيها المسكين.. **(تلتمع عيناه بالشر ويُضيف بلهجةٍ قاسيةٍ)** صاحب الضربة القوية اليوم هو أنا.

ثم لكم الشاب لكمةً ساحقةً جعلته يطير للخلف بقوةٍ شديدةٍ قبل أن يسقط ويمسح الأرض وهو يحتك بها لأمتارٍ طويلةٍ، فيما قال الرجل وهو يتقدم نحوه وكل خلجة من خلجات وجه تنتفض غضبًا:

- هزمك قلبك وتسببت مشاعرك في سفك الدماء وإزهاق الأرواح.. والآن وقد تملكت منك الخطيئةُ فقدت قوتك التي كانت تميزك، وصارت كلمتي هي العليا.

أصبحت قدما الرجل عند رأس الشاب الذي يُحاول الصعود بصعوبةٍ، فجذبه من شعره قائلًا:

- كل الحمقى الذين عرفوك قالوا عليك ملاك.. لكن من الذي قال إن الملائكة لا تنهزم؟!

ثم قفز لأعلى ممسكًا برأس الشاب قبل أن يهبط بها ويدبها في الأسفلت دبًّا لتسيل منه الدماء وهو يتأوه بشدة، وبدأ بعدها في لكمه وركله بلكماتٍ وركلاتٍ متتالية، ليتلقى الشاب اللكمات والركلات دون أي مقاومة لتسيل منه الدماء وتغرق ملامحه تمامًا، وفجأة هوت يد الشيخ (خضر) على

كتف الرجل من خلف ظهره ليجذبه نحوه، ويكيل له لكمةً بدت أقوى من سنوات عمره بكثير، حتى إن الرجل اتسعت عيناه وهو يطير للخلف ويسقط أرضًا، قبل أن يقفز الخضر ويدهس وجهه بحذائه قائلًا:

- هذه من أجل آدم.

ثم هوى على وجهه بلكمةٍ أشد:

- وهذه من أجل حواء.

ثم هوى بلكمةٍ ثالثة:

- وهذه من أجل هابيل.

وفي اللكمة الرابعة صاح:

- وهذه من أجل هذا الفتى.

وفي مكانه بكى الشاب وهو طريح الأرض متسائلًا في نفسه:

- أهذه قوة من لم يقعوا في الخطيئة؟

توقف (الخضر) عن معركته ونظر للشاب وهو ينهج قائلًا:

- بل قوة من سقطوا وتابوا يا ولدي.. يا من عدى، ثم اعتدى، ثم اقترف.. ثم استحى، ثم انتهى، ثم اعترف.. أبشر بقول الله في آياته: إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف.

نظر الشاب للسماء مجددًا وقال بصوتٍ لم يخل من نبرته الباكية وهو ينهض من سقطته متوجهًا بكل قلبه إلى الأعالي:

- **يا رب.. أستغفرك وأتوب إليك.**

ومع آخر حرف من كلمات الشاب، نهض الرجل من سقطته وتراجع للخلف سريعًا قبل أن يفر ويُطلق ساقيْه للرياح وهو يردد ضحكاتٍ ساخرة مجلجلةً ظل صداها في الشارع حتى بعد اختفائه من المكان تمامًا.

ابتسم الشاب للخضر بامتنانٍ عجز لسانه عن تحويله إلى كلمات، فيما ردّ الخضر ابتسامة مماثلة ثم نظر إلى السماء هامسًا بخشوع:

- إلهي.. من توكل عليك فلن يخيب، ومن جعلك ملاذه فلن يضيع، ومن اعتصم بك فقد هُدي إلى صراط مستقيم.. فكُن لنا وليًا ونصيرا.. وكُن لنا مُعينًا ومُجيرًا.. إنك كنت بنا بصيرا.

في تلك الأثناء، كان هناك طيفٌ رقيقٌ يقترب من خلف الشاب حتى انعكس نوره المشع على وجه الخضر، فلاحت من الشاب نظرة للخلف، ليقع نظره على رجلٍ يبدو وكأن النور يشع من وجهه وعينيه، وقد ارتدى ملابس بيضاء فضفاضة واسعة، ليتضح من تحتها جسده الفارع الضخم الذي زاد من هيبته، ليطول بينهما النظر لدقيقة كاملة، وعندها فقط.. بدأ الشاب يسترد ذاكرته المفقودة ولمعت فيها ومضاتٌ حملت أثر حديث سابق.

- **كيف حال أهل الأرض؟**

- **كما ترى يا سيدي.. حتى الأماكن المقدسة يطردون منها بركات الرب بالدنس والرجز.**

- **هذه طبيعتهم التي جُبلوا عليها.**

- **ليتني ظللت أعذبهم ولم أتعاطف معهم.**

- **ربما أدركت في مهمتك الجديدة أمورًا ما زلت لا تدركها بعد كل تلك السنين التي عشتها بينهم.. لفترة من الزمن ستعيش حياة البشر.. ربما ظلت داخلك ملامح من علومنا وقدراتنا.. لكن بما يفيد ذلك حين تُغرَس داخلك الشهوة والغضب والقدرة على المعصية.. باختصار ستحيا بينهم كأنك واحدٌ منهم.**

- **حاشا لله أكون منهم أو مثلهم.. ترى ما موعد التنفيذ؟ ومتى سأعود؟**

وحين اكتملت ذاكرة الشاب ردد بانبهار:

- رباااااه.. يا لها من رحلة.

ثم التفت للشيخ (خضر) وقال بانبهار:

- أكنت تعلم كل شيء من البداية؟

نظر (الخضر) للرجل المهيب بابتسامةٍ واسعةٍ ثم أجاب الشاب:

- يبدو أنك لم تستعد كامل ذاكرتك بعد.

ثم خلع عمامته واقترب من الشاب أكثر قائلًا:

- لقد التقينا منذ مئات السنين.. هناك، في عصر الشهداء.

ثم تحولت هيئة الخضر إلى هيئةٍ أخرى غير بشريةٍ.. واتسعت عينا الشاب في ذهولٍ تام وبدأت الومضات تعمل أمام عينيه من جديد..

حين هبط من السماء بسرعة تفوق إدراك البشر ولم تخلق بعد الألفاظ والتشبيهات القادرة على وصفها، في مهمة جديدة لإنقاذ أحد القديسين في عصر الإمبراطور الروماني الشهير (دقلديانوس) الذي أمر بهدم الكنائس وإزالتها من الوجود، وحرق الأناجيل، وقتل المسيحيين..

تجمعت الجنود على باب ذلك الدير السري الذي أسسه ذلك القديس بعد أن ترهبن في عبادته للرب، ودعا الأقباط إلى عبادة الله في الصحارى وصومعته التي لا يعرفها سوى ثلة من المؤمنين للحفاظ على الدين من الزوال..

وحين همَّ ملاك الرب النوراني بالتعامل مع جنود الإمبراطور الباطشين لإنقاذ ذلك القديس العابد، فوجئ بكرات من النار تهوي على الجنود لتبيدهم في ثوانٍ معدودة، لينجو واحد فقط منهم قبل أن يتجسد كيانًا هلاميًا من النار أمامه ويصيح فيه بصوتٍ أجش عميق:

- أخبر إمبراطورك أن لهؤلاء المستضعفين مخلوقات وهبت نفسها للذود عنهم بعد أن آمنت بما يؤمنون، وسخرت من أوثانكم الضالة.

ليصرخ الجندي الناجي ويركض في الصحراء كالممسوس، قبل أن

ملاك الرب النوراني لصاحب الكيان الهلامي الناري ويسأله:

- من كلفك بما فعلت؟

- "الرب"

أجابه الكيان الهلامي الناري بنبرةٍ واثقةٍ لم يتردد أو يفكر قبل أن قالها، لتتسع عينا ملاك السماء في دهشةٍ متسائلًا:

- كيف.. هل تَمَجَّد اسمُك بالحديث معه؟

أجابه الكيان الهلامي:

- كلام الرب غير مرتهن بالحديث المباشر مع مخلوقاته يا ابن النور، فصوته يتردد في أعماق كل نفسٍ مؤمنة لينبع من إيمانها أوامر تملي على صاحبها ما يجب القيام به.

- وماذا عن قومك.. هل سمحوا لك بالإيمان بالمسيح ومناصرة أتباعه؟

ابتسم الكيان الهلامي وأردف:

- ربما حان الوقت ليجرب أمثالي معنى العذاب والاستشهاد في سبيل ما آمن به.

ملاك الرب النوراني حاجبيه وهو يتأمل صاحب الكيان الناري الهلامي، ثم قال له:

- وربما جاء الوقت ليقدم بني جنسي خدماته لمخلوقاتٍ أخرى غير البشر.. لقد نذرت نفسي لحمايتك من بطش بني جنسك الكفار.

سأله صاحب الكيان الناري:

- بدون تكليف إلهي؟

ابتسم الملاك النوراني مجيبًا:

- كلام الرب غير مرتهنٍ بالحديث المباشر مع مخلوقاته.

وحين عاد الشاب من ذكرياته الغابرة ابتسم الخضر وقال:

- يقول أهل هذه المدينة: «كله سلف ودين.. قدِّم السبت تلاقي الحد»، ويبدو أن هذا المثال صار ينطبق علينا من الآن.. لقد تنكرت منذ هذا اليوم في هيئة البشر وساعدتني بدورك في ذلك حتى صرتُ واحدًا من أقدم سكان الإسكندرية، وأكثرهم إلمامًا بالتاريخ الحي الذي عاصرته بنفسي ولم أقرأه عبر الكُتُب، حتى جاء موعدك الذي انتظرته منذ آلاف السنين.

عقد الشاب حاجبيْه وسأل بدهشة:

- انتظرته؟

- نعم.. فقد كنتُ من أولئك الأشرار الذين كانوا يتجسسون على الملأ الأعلى، وعلمتُ بأمر ما سيحدث لك من حديث دار هناك بشأنك.. وقبل توبتي كنتُ واحدًا ممن شاركوا في مهمة يوم القيامة التي أبطلتها أنت والملائكة بعملية الرق المنشور حين قبضت على عمي القائد الأكبر وفر منك ابنه الذي كاد أن يغويك الآن، وجاء إلى الأرض خصيصًا لأجلك.

- ابن عمك؟

ضحك الخضر وأجاب:

- نعم، واليوم صار عدوي الأكبر.. يبدو أن هناك مشاكل بين أبناء العمومة دائمًا!

سأله الشاب:

- هل فعلا شُفيت آيات؟

- كلا بكل أسف، لقد كان يخدعك.

التفت الشاب نحو رئيسه المهيب وقال له بتوسل:

- كيف انتهت مهمتي عند هذا الحد؟ لا بد أن أساعدها.

أجابه الرجل المهيب:

- لقد انتهت مهمة السماء عند هذا الحد.. حان الآن دور الأرض.

قال له الشاب بتوسل:

- أريد أن أبقى على هيئتي البشرية.. لقد تعلمت ما يمكنني أن أغير به من حياتهم حتى أخرجهم جميعًا من هذا الظلام الذي يعيشون فيه.

ابتسم الرجل وأجابه:

- "ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ".. عليهم أن يجدوا الحل بمفردهم.

- هل تعتقد أنهم يستطيعون؟

- لا يوجد من هو عاجزٌ وضعيفٌ.. لكن هناك من يجهل سر قوته.

* * *

(35)

استقبل العقيد (يحيى) أمام غرفة العمليات الطبيب الذي انتهى للتو من إجراء جراحة عاجلة لـ (إريني) وسأله باهتمامٍ شديد:

– ما الأخبار يا دكتور؟

نزع الطبيب الكمامة من على وجهه وقال في أسى:

– لقد توفي ابنها قبل وصوله إلى المستشفى، أما هي فنجت بمعجزةٍ لكن حالتها خطيرة.

ثم انفتح باب حجرة العمليات لتخرج مجموعةٌ من الممرضات وهن يسحبن ترولل ترقد فوقه (إيريني) الغارقة في غيبوبة عميقة، ليلقي العقيد نظرة عليها قبل أن يسأل الطبيب:

– تُرى متى سيمكنني أن أسألها؟

أجابه الطبيب بلهجةٍ رتيبةٍ روتينيةٍ:

– لا يمكنني أن أخبرك بموعدٍ محددٍ الآن.. فلندع الله أن تعيش أصلًا.

* * *

دخل الرجل المريب مكفهر الوجه، على (ريمون) و(نصحي) في بدروم الملهى، بينما تم حل وثاق (آيات) التي جلست سارحةً بوجهٍ شاحب حاكى وجوه الموتى، قبل أن يقول (ريمون) بجذل:

– لن تصدق أين كانت تُخبيء الأسطوانات والشيكات.. الهانم وضعتهم..

قاطعه الرجل بلهجةٍ غير مكترثةٍ وهو يشعل سيجاره معطيًا له ظهره:

– في الكنيسة.

فغر (ريمون) فاهه لثوانٍ وتبادل النظر مع (نصحي) ثم قال بدهشة:

– هل كنت تعلم المكان؟

نفث الرجل دخانه بشرودٍ دون أن يلمح كلاهما تلك النيران التي يلمع لهيبها في عينيه قائلًا:

– نعم.. لكني كنتُ أريد أن تسقط تلك المرأة العجوز قبل موتها الذي كان حتميًّا، بعد أن علمت الكثير.

هز (ريمون) كتفيه في حيرةٍ وقال:

– أنا لا أفهم شيئًا.

التفت له الرجل وقال ببرود:

– لا تشغل بالك، دعنا نسترد أشياءك في أسرع وقت.. فالافتتاح خلال يومين.

تهللت أسارير (ريمون) وهو يشعر بأن حملًا ثقيلًا قد سقط عن كاهله وابتسم بتشفٍ وهو ينظر نحو (آيات) قائلًا:

– غدًا سنصحب فاتنة الحي ذات الوجه البهي لتجلب لنا الأمانة، من داخل الكاتدرائية.. لا تنسي أن تداري وجهك يا أميرتي حتى لا تفتني القسيسين!

نفث الرجل دخانه من جديدٍ قائلًا:

– سأنتظركم في الخارج.

سأله (نصحي):

– لماذا؟

منحه الرجل نظرةً ناريةً أرعبته، ثم قال:

– لا بد أن يقف أحدنا خارج المكان لتأمين الموقف.. لا تقلقا.. سيمضي كل شيء كما هو مخطط له.

* * *

تجددت كوابيس (آيات) في تلك الليلة الليلاء، بعد أن خسرت كل شيء، وباتت في حُكم الهالكين..

من جديدٍ أخذت تعزف مقطوعة لحظة دخول الجنة، بينما يتعثر فتاها الوسيم فوق الجسر الذي تفور من تحته حمم الجحيم، لينهار الجسر فجأة من أسفله قبل أن يصل إلى نهايته بخطوةٍ واحدةٍ، لكن في هذه المرة إذا بـ (آدم) يقفز نحوه قفزةً هائلةً ويمد يده ليمسك به ويُنجيه من السقوط، بينما نظر الشاب للأسفل وهو يتأرجح، وشاهد المصير الذي كان في انتظاره، ليتنفس الصعداء، ثم يصعد بمعونة (آدم) ويشكره بامتنان.

ثم نظر لعينيها الباكيتين بعد أن توقفت عن العزف، وطلب منها أن تعزف من جديد!

وعند تلك اللحظة استيقظت من نومها العميق، وفي عينيها دموعٌ ساخنة، لكن دقات قلبها كانت منتظمة الإيقاع وهي تشعرُ بحالةٍ غريبةٍ من الطمأنينة لا تعرف سرها أو مصدرها.

* * *

احتجبت أشعة الشمس خلف غيوم السحب، ليبدو صباح ذلك اليوم لو كان غروبًا، قبل أن تبدأ الأمطار في الهطول مع حلول النوة، في نفس لحظة انطلاق صوت أجراس الكاتدرائية الذي أعلن عن بدء القدّاس بالتزامن مع توقف سيارة (ريمون) الفاخرة أمام البوابة، ليغادرها مع (نُصحي) و(آيات) التي تخلت عن نقابها وارتدت فستانًا محتشمًا، وغطت شعرها وجانبي وجهها المشوه بطرحة عريضة، في حين بقي الرجل ذو العينين الزرقاوين على مقعد القيادة.

على أبواب الكاتدرائية دخل عددٌ من شعب الكنيسة حاملين مظلات مفتوحةً لتقيهم من ماء المطر، وخلفهم دخل (ريمون) بنظراتٍ متأهبة، وبينه وبين (نُصحي) سارت (آيات) في ضعفٍ واستسلامٍ، كغزالةٍ محاصرةٍ بين أسدين.

ما أن أصبحوا داخل الكنيسة حتى نظرت (آيات) باكيةً لصورة المسيح، وبكت في القدّاس كما لم تبكِ من قبل، حتى تحول بكاؤها لنحيبٍ شديد

والهاية لم تستطع نظرات (ريمون) و(نُصحي) في كبح جماحها، ودون أن تنجح يدها التي وضعتها على فمها في كتمها، وفي نهاية القدّاس قامت (آيات) لتتناول من جسد المسيح وتشرب من دمه، وهي تنظر إلى الصليب بعينين دامعتين، ولم يتناول (ريمون) أو (نُصحي).

وبعد أن غادر الشعب الهيكل، وصل ثلاثتهم إلى غرفة القُمص (يوسف) التي كان يقف على بابها خادم عجوز، فقالت له (آيات):

- أريد أبونا يوسف في موضوع ضروري لو سمحت.

سألها الخادم:

- من حضرتك؟

- آيات صديقة دميانة.

- لحظة واحدة.

طرق الخادم باب الغرفة ودخل، ثم خرج بعد ثوانٍ قائلًا:

- تفضلي يا ابنتي.

دخلت (آيات) الغرفة، وهمَّ الخادم بغلق الباب لكن (ريمون) و(نصحي) أزاحا يده ودخلا في صلفٍ، وأغلقا الباب خلفهما بينما ينظر لهما الخادم بدهشة.

وداخل الغرفة جلس القُمص (يوسف) على مكتبه وفي المقعد المقابل جلست (آيات)، بينما وقف كل من (ريمون) و(نصحي)، قبل أن يقول رجل الكنيسة الوقور:

- الله يُقدِّس روحك يا دميانة.. رغم أي شيء كانت امرأةً حنونةً تبرعت بكل ما تملك للفقراء والمحتاجين.. لن أنسى ما حييت آخر كلمة قالتها لي: لقد عرفت الرسالة التي جئت من أجلها، ولست في حاجة إلى البقاء أكثر من ذلك.

بكت (آيات) بتأثر رغمًا عنها، فنظر لها (ريمون) بقسوةٍ وقالت لها عيناه:

"إنجزي"، فأجابته بنظرةٍ خائفةٍ: "حاضر"، ثم قالت للقُمص بضعف:

– قدَّس الله روحها يا أبونا.. لقد أخبرتني أنها تركت لي في أمانك حقيبة سوداء تخصني.

نظر القُمص لـ (ريمون) و(نصحي) وتأمل ملامحيهما قبل أن يسأل (آيات) بغتة:

– تمام يا ابنتي، لكن أود أن أسألك أولًا.. هل في الحقيبة ما يخص هذين الأخين؟

لجمها سؤاله المفاجئ، فنظرت لـ (ريمون) و(نصحي) بتساؤلٍ، قبل أن يجيب (ريمون) وهو يتحسس مسدسه:

– ما لزوم هذا السؤال يا أبونا.. ألا يجب أن تعود الأمانة لأصحابها دون تدخل من الآخرين؟

ابتسم القُمص بحذرٍ وأجاب:

– طبعًا يا بُني بلا شك.. لكن هذا إذا كانت الأمانة تخص أشخاصًا بعينهم، ولا تحوي في طياتها أسرار دولة.

بُهت (ريمون) من إجابته وأشهر مسدسه بشكلٍ مباغتٍ وصوَّبه في وجه القُمص صائحًا:

– إذن فقد فتحت الأسطوانات يا أبونا.

شهقت (آيات) قبل أن ينفتح الباب فجأة ليدخل منه العقيد (يحيي) ومعه قواتٌ سيطرت على الموقف في ثوانٍ وقبضت على (ريمون) و(نُصحي) قبل أن يقول العقيد:

– نحن الذين فتحناها يا أذكى إخواتك، واطلعنا على الأسرار التي حصلت عليها مومساتك من أبناء كبار المسئولين.. كنت تنوي بيعها للخارج بملايين، أليس كذلك؟

سقط المسدس من يد (ريمون) وهو ينظر للعقيد بصدمةٍ شديدةٍ، بينما

وضع أحد الضباط الكلابشات في يده هو و(نصحي)، قبل أن يشق الشيخ (خضر) طريقه وسط الجنود ليصبح داخل مكتب القُمص قائلًا بفرحة وسعادةٍ وهو ينظر لـ (آيات):

– حمدًا لله على نجاتك يا ابنتي.

لم تستطع أن ترد عليه وهي تتأمل ما يحدث حولها وكأنه حلم.

"الشيخ يقول لك حمدًا لله على نجاتك يا آيات"

قالها القُمص (يوسف) بابتسامةٍ أبويةٍ، فالتفتت لهما (آيات) وقالت بنبرة من لا تصدق ما يحدث حولها:

– الله يسلمكما من كل سوء.. **(سالت من عينيْها الدموع وتحولت نبرة صوتها إلى بكاء وهي تكرر)** الله يسلمكما.

نظر (الخضر) إلى القُمص (يوسف) قائلًا:

– حمدًا لله على سلامتك يا أبونا.

ضحك القُمص وهو يعانقه:

– البركة فيك فضيلتك.. فأنت الذي نبهني لمحتوى الأسطوانات وأبلغت معي الشرطة.

وبينما سحبت القوات (ريمون) و(نصحي) للخارج، قال العقيد (يحيى) لـ (آيات) في تعاطف:

– زوجة والدك نجت بمعجزة، وأخبرتني أن ريمون ونصحي هما اللذان قتلا ابنها وحاولا قتلها، وبتفريغ كاميرا المراقبة في مكتبها تأكدنا تمامًا من براءتك أنتِ وفتاكِ المثير للمصائب من دمائها هي وابنها.. لكنه متهمٌ في دماء أخرى.

انتفضت مع ذكر سيرة الفتى، وقبل أن تنبس ببنت شفة، تابع العقيد:

– هيا اذهبي إليها في المستشفى فورًا لأن حالتها حرجة.. لقد



طلبت رؤيتك وقالت إن لديها سرًا خطيرًا تريد أن تقوله لك قبل أن تموت.. وبعد زيارتها أريدك في مكتبي.

* * *

وقف الرجل المريب خارج السيارة بالقرب من بوابة الكاتدرائية يدخن سيجاره بترقب، قبل أن يرى فجأة القوات تصطحب (ريمون) و(نصحي) إلى الخارج، دون أن يعلم كيف دخلوا وأين كانوا مختبئين، ليتراجع للخلف بسرعة، في اللحظة التي غادرت فيها (آيات) الكاتدرائية وهي تركض حتى اختفت..

ظل الرجل المريب يتراجع للخلف ليبتعد عن المشهد قبل أن يصطدم فجأة بشخصٍ ما فالتفت خلفه ليلقي نظرة، وحينها فقط اكتشف أنه اصطدم بالشاب الوسيم الذي نظر له بشماتةٍ وثقةٍ بالغةٍ، في حين ارتسم الرعب والهلع على ملامح الرجل، قبل أن يتوقف الشاب عن الابتسام ثم قبض بشكلٍ مفاجئٍ على عنق الرجل المريب وقد تحوَّلت ملامحه إلى الغضب والصرامة قائلًا:

- إلى هنا وانتهى دورك.. هذه هي النهاية.

حاول الرجل التملص قائلًا بصعوبة:

- نهايتي ليست بيدك أنت.. سأظل باقيًا ما داموا باقين.

ضغط الشاب على عنقه أكثر قائلًا بغلظة:

- سأعزلك عنهم على الأقل.

تحشرج صوت الرجل وإن لم يخل رغم ذلك من نبرة التحدي وهو يقول:

- لو خيَّرتهم في ذلك لمنعوك.. فمن الذي سيذبحونه على مذبح الضمير ويُحملّونه كل الخطايا والذنوب حتى يريحوا ضمائرهم

ويبرئوا ساحتهم من الذنوب والخطايا.. الأمر في حاجة إلى استفتاء كوني لو كنت تستطيع.. سلهم في السماء لو كانوا يوافقون على فعلتك التي لم ترجع فيها إليهم.

صمت الشاب ثواني تخلى فيها عن غضبه ثم ترك عنق الرجل قائلًا بتوعد:

- سنلتقي مجددًا.. يكفي أن مخططك قد فسد هذه المرة وكان كيدُك ضعيفًا.

إلا أن الرجل قابل توعد الشاب بصوتٍ ساخر لم يخل من الشراسة مرددًا:

- المجد للشيطان .. معبود الرياح*

من قال "لا" في وجه من قالوا "نَعَمْ"

من علَّم الإنسان تمزيق العدم

من قال "لا".. فلم يَمُتْ..

وظلَّ روُحًا أبديّة الألَمْ!

ثم أخذ يقهقه قهقهات مجلجلة وهو يتراجع حتى اختفى.

* * *

---

* من قصيدة (كلمات سبارتكوس الأخيرة) للشاعر الراحل أمل دنقل

(36)

اقتحمت (آيات) استقبال المستشفى وهي تركض نحو السلالم متجاهلة المصعد، حتى وصلت إلى الدور الرابع حيث ترقد زوجة والدها في غرفة العناية المركزة.

وفي الممر، أخذت تجري بين الغرف بلهفةٍ وسرعةٍ شديدةٍ حتى وصلت أمام غرفة (إيريني)، وقبل أن تدخل اعترضتها إحدى الممرضات قائلة:

– ممنوع يا أفندم.

إلا أن (آيات) أزاحتها من طريقها بقوة وهي تصيح فيها:

– موضوع حياة أو موت، ابتعدي عن طريقي!

ثم فتحت الباب وسارت بترقب وحذر وهي تتجه نحو سرير (إيريني) التي زالت عنها أناقتها، وغرب جمالها المصطنع حين خلا وجهها من المكياج، وباتت هامدة الحراك، ترقد بين يدي الخالق، تنتظر حكمه ومشيئته، وقد تم توصيل جسدها بجهاز رسم القلب، وتم تعليق المحاليل الطبية لها.

ما أن أصبحت (آيات) أمام السرير الذي ترقد عليه زوجة أبيها حتى اقتربت من وجهها، ونظرت إليها بعينين دامعتين قائلة:

– لم أصدق نفسي حين أخبرني العقيد يحيى أنك تريدينني.

أجابتها (إيريني) بضعفٍ:

– أنا التي لم تُصدق نفسها حين صرختِ وحاولتِ منعهم من قتلي أنا وابني رغم ما فعلته بكِ.. **(بكت بحرقةٍ وتابعت بصعوبةٍ)** أمير مات وأنا في طريقي للحاق به.. أتعدينني أن تسامحيني لو رددت إليكِ حقكِ؟

نظرت لها (آيات) بحيرةٍ ووجومٍ، فمدَّت (إيريني) يدها بضعف لتمسك يد (آيات) قائلةً بخفوتٍ وتهالك:

– عديني أرجوكِ ولا تجعلينا نضيع الوقت المُتبقي في توسل ورجاء.. فلديَّ سرٌّ خطيرٌ أريد أن أخبرك به.

عقدت (آيات) حاجبيْها بحيرةٍ ثم قالت:

– سامحتك.. ما هو السر؟

– صالح بالفعل لم يكن والدك.. هذه النقطة تحديدًا لم أكذب عليكِ بشأنها.

اتسعت عينا (آيات) بدهشةٍ، وهي تقول:

– ماذا تقولين؟

– سأصف لك مكان الخزنة التي تحوي كل أوراقي المهمة في الفيلا، وكلمة السر الخاصة بها.. هناك ستجدين الوصية الأصلية التي كتبها لك قبل أن نُغيِّرها أنا وشوقي.

وبعد أقل من ساعة، كانت (آيات) تقف بمفردها أمام الخزينة في الفيلا، وفي يدها نص الوصية الأصلية التي أصبحت مجرد وُريقات قديمةٍ باليةٍ، تتطلع إليهم بعينين زائغتين غير مصدقةٍ ما تقرأ.

"آيات"

لم تصدق أذنيها حين التقطت صوت فتاها الوسيم، وتسلل شذا عطره إلى أنفها، لتلتفت نحوه ببطءٍ وهي تُغالب هواجسها بأن كل ما تشعر به مجرد تهيؤات، فإذا به بالفعل واقفٌ أمامها في شموخ!

تأرجحت خلجاتُ وجهها ما بين الفرحة الغامرة والرهبة والذهول قبل أن تسأله بنصف وجه سعيد، ونصف وجه منبهر وهي تمد يدها نحو وجهه ببطء:

– أما زلت حيًّا؟

ابتسم وأجاب:

– الآن فقط يمكنني أن أرفع من عليكِ النسيان.

ثم مدَّ يده ووضع رأسها بين راحتيْ يده، وعاد كلاهما بالزمن لسنوات.. وخلال رحلة العودة شعرت (آيات) أن كل ما تمر به مجرد فيلم لا تخص أحداثه حياتها الماضية، حتى إنها شعرت بموسيقى تصويرية لأغنية "Stolen Child" التي طالما عشقت سماعها لـ Loreena McKennitt

- الطفل الصغير (أيمن) ابن صاحب السيارة الرمسيس يظهر فجأة أمام السيارة المرسيدس الخنزيرة التي يقودها والدها الحقيقي عندما كان مسافرًا معها هي ووالدتها..

- السيارة تتفادى الطفل وتنقلب..

- الشاب الوسيم يقتحم السيارة فجأةً وينقذ الطفلة (آيات) ويظل يتدحرج معها قبل أن يغادرا السيارة.

- الشاب والطفلة يتحدثان في السماء وقد تحولا إلى طيفين نورانيين.

- الشاب يضع يده على رأسها ليلقي عليها النسيان..

- عم (صالح) المزارع البسيط، يجدها وهي صغيرة فاقدة الوعي في قلب الزراعات فينحني ليحملها مرددًا في توتر لا مثيل له: "بسم الصليب"، قبل أن يجد في رقبتها سلسلةً ذهبيةً معلق بها اسم "آيات".

- في الوحدة الطبية المتواضعة الخاصة بالأرياف يفحص الطبيب الطفلة (آيات) وهي نائمة وعلى وجهها الكدمات والسحجات قبل أن يسأل عم (صالح): "هل أنت والدها؟" فيتلعثم الفلاح البسيط وقد بوغت بالسؤال قبل أن يجيب: "ها؟ آآآ نعم".

- عم (صالح) يعود بالطفلة (آيات) إلى داره البسيطة ويضعها على سريره المتواضع ثم يغطيها بحنانٍ جارفٍ.

وذهبت (آيات) مع الشاب الوسيم إلى مقابر الثغر لتزور الرجل الذي عاشت عمرها كله وهي تظن أنه والدها، وانهارت من البكاء أمام قبره، ثم أخرجت من حقيبتها وصيته واستكملت التذكر..

- شاخ عم (صالح) في السن، ورقد على فراش الموت، ليقول لـ (شوقي) المحامي الذي يكتب وصيته: "اكتب لها في الوصية أن تسامحني.. فقد كان كل همي أن أربيها وأكبِّرها بعدما ضاقت بي الظروف ولم أجد من تتزوج بائسًا مثلي.. ما أن سمَّيتها آيات على نفس الاسم الذي وجدته في سلسلتها الذهبية وشرعت في تربيتها، حتى انفتحت لي أبواب الرزق على مصراعيها، لذا أوصي بأن ترث نصف ثروتي، والمكان الذي وجدتها به ستجده مذكورًا بالتفصيل في الوصية حتى تعود إليه وتسأل عن أصحاب الحادث الذي وقع في الليلة التي وجدتها فيها".

سالت دموع (آيات) أكثر وأكثر أمام القبر وهي تثني ورقة الوصية بعدما فهمت الأحداث، ثم تأملت السلسلة الذهبية القديمة التي كانت ترتديها عند وقوع الحادث، واحتضنتها بتأثرٍ شديدٍ وكأنها تضم بذراعيها والدها ووالدتها الحقيقيين اللذين لم تعرفهما، وإلى جوارها كان يقف الشاب الوسيم..

نظرت له باكيةً، فقال بابتسامةٍ هادئةٍ ونبرةٍ يملؤها الإيمان:

- منذ نبتتكم الأولى في الأرحام ونحن معكم.. نكلمكم وتكلموننا.. نراكم وترووننا.. نُعرِّفكم أسرار الكون، ونُطلِعُكم على مسار حياتكم بأكملها من البداية للنهاية، حتى تأتي ساعة لا بد فيها أن نسحب كل ما تعلمتموه من ذاكرتكم حتى تتعلموا كيف تصلون إلى الحقيقة بمفردكم، وتعيشون على الأرض بدون معونة السماء، وهذه هي محنة الاختبار.

قالت له بتوتر لا حد له:

- لكنني علمت الآن كل شيء.. هل معنى ذلك أن اختباري قد انتهى؟

- اختبارك لم ينته، وما علمتيه سيضيعُ من عقلك مرةً أخرى حتى تصلي إليه بمفردك.. أو لا تصلين إليه أبدًا.

تلألأ الدمع في عينيها وهي تقول بلهجة من يُكذِّب نفسه:



- لا.. لا تقل لي أنك ستُلقي عليَّ النسيان مرةً أخرى.

نظر لها بتأثر، وقال بكلماتٍ بطيئة:

- لست أنا من يقول، ولا أنا من يقرر.

أجابته بكلماتٍ يقطر منها الحب وعينين تنزف بالدمع:

- طوال عمري أعشق سيرتكم العطرة وأتمنى أن أصبح مثلكم حتى أبتعد عن هذا العالم الكريه.. الآن فقط أتمنى أن أكون مثلكم فقط لأبقى إلى جوارك إلى الأبد دون أن أخشى ألم الفراق أو الخطية.

لمعت عيناه هو الآخر بالدموع حين قال:

- طوال عمركم تحسدوننا على عدم ارتكابنا للخطأ والذنوب، لكن بعد رحلتي معكم صدقيني صرت أحسدكم على نعمة الخطيئة والإحساس بالندم.. هذا ما قلته للتو أمام قبر آدم وأنا أسجد له للمرةِ الثانية بعد أن بُلِّغت أن هذا ثمن التكفير عن ذنبي.

بكت بحرقةٍ وهي تقول بضعفٍ:

- لكنك أكيد تشعر بي.. عيناك تقولان ذلك.

لانت ملامحه وتأثر صوته وهو يقول لها:

- لكن لم يعد لي قلبٌ يستطيع أن يمنحك ما تستحقينه من مشاعر البشر وعشقهم.. ابحثي عن قلبٍ خُلق من طين مثلك.. أنتم أولى ببعض منا.

ازداد انهمارُ دموعها الساخنة التي ألهبت وجنتيها وهي تقول بصوتٍ مبحوح:

- لا أريد أن أنساك.

رد عليها بتأثر أكبر:



- قلت لك ليس الأمر بيدي.

هزت رأسها بتفهم رغم دموعها التي ما زالت تلمع في عينيْها، ثم تقدمت نحوه قائلة باستعطاف:

- أتأذن لي بطلبٍ أخيرٍ قبل أن تُلقي عليَّ النسيان؟

- تفضلي!

مدت يدها نحوه بالمصافحة وقالت:

- أريد أن أُسلِّم عليك.

ابتسم برقةٍ ومدَّ يده بدوره مصافحًا، فقبضت على يده بحُبٍّ طاغٍ وهي تودعه بنظراتٍ جريحةٍ، ثم ألقت نفسها في حضنه بغتة وقالت:

- إذا كان الشيطان قد وسوس لي بتقبيل شفتيك يومًا، فهذا الحُضن نابع من ملاك.

* * *

ومضت أيامٌ طويلةٌ بعد اختفاء الشاب الغامض..

كان آخر ما توقفت عنده ذاكرتُها بعد أن ألقى عليها النسيان هو مشهد سقوطه من شركة زوجة والدها، عندما أخبرها (ريمون) والرجل ذو العينيْن الزرقاوين حينها بوفاته.

لكن شهود العيان أخبروها أنه لم يمت رغم سقطته، وسار على قدميه ثم اختفى، ومن يومها لم تكف عن البحث عنه، وكذا لم يتوقف العقيد (يحيى).

حصلت من الشيخ (خضر) على مذكراته التي تركها عنده، وصار النظر إلى خطه الجميل المنمق ورائحة شذا عطره التي تملأ الصفحات هو سلواها الوحيدة التي هوَّنت عليها غيابه، إلى جانب تلك الصورة التي رسمتها له بالفحم.

علمت عن الإله في كتاباته ما لم تتعلمه طوال عمرها.. ورأت للإسلام

وجهًا آخر بخلاف ذلك الوجه الذي اعتادت عليه من أتباعه الذين شوّهوا صورته وخالفوا مبادئه وتعاليمه ووصاياه.

وحين حصلت على أموالها المسلوبة من والدها بالتبني، أجرت عملية التجميل بالخارج، لتستعيد تسعين بالمائة من شكلها وجمالها القديم، وعادت لزيارة (صالح الراعي) في قبره مجددًا وشكرته ببالغ السعادة والامتنان، ثم لمعت عيناها بالدموع حين لاحت منها نظرة إلى قبر مجاور تسكنه (دميانة)، وعلى بعد أمتار كانت هناك مقابر اليهود المدفون فيها (موريس)، ولم تفكر رغم أموالها الكثيرة أن تغادر غرفة (دميانة) التي لم تعد تليق بفتاةٍ ثريةٍ مثلها.

وفي مبنى الخدمات، صارت تُغني مع من تبقى من فريق (تسابيح) الترانيم المسيحية، والأناشيد والأشعار الصوفية التي حفظتها من الشاب، وخلفها يغني الأطفال الذين أحبوه ولم يكفوا عن السؤال عنه.

وقف القُمص (يوسف) إلى جوارها في رحلة البحث عن أهلها الحقيقيين، وزاروا مكان الحادث وبدأوا يتتبعون الخيط بلا كلل أو ملل، دون جدوى.

وبعد انتهاء إحدى الحفلات، زارها القُمص في الكواليس وقال لها بابتسامة سعيدة أن معجزة المسيح قد تحققت، وتوصَّل إلى هوية أهلها الحقيقيين، لكنه أخبرها بنبرةٍ غامضةٍ أنه لا يعرف سر ارتباط قدرها بالصدف والمفاجآت إلى هذا الحد، خاصة المفاجأة القادمة، ورفض بشدة أن يخبرها حتى تكتشفها بنفسها!

* * *

في منزل بسيط الأثاث، جلس رجلٌ عجوزٌ على أريكةٍ متواضعةٍ وأمامه فتاة في نفس عمر (آيات)، إذ تناوله كوب ماء وقرص أسبرين، ليبتلع القرص ويشرب وراءه الماء قائلًا لها في امتنان:

- جزاكِ الله كل خير يا ابنتي.

قبل أن تهوي على باب شقتهما طرقات سريعة، فنظر الرجل العجوز للساعة وقال لابنته بلهجةٍ يشوبها القلق:

- تُرى من الذي جاء في وقتٍ متأخرٍ كهذا.. اسألي مَن الطارق

قبل أن تفتحي!

اتجهت الفتاة نحو الباب وسألت:

- مَن؟

فجاءها صوت (آيات) من الخارج:

- أنا آيات ابنة عمك.

اتسعت عينا الرجل وهبَّ واقفًا بحماسةِ شاب متجاهلًا مرضه وضعفه قائلًا:

- آيات؟

ليهرول نحو الباب بنفسه، ويفتحه بسرعةٍ غير مصدقٍ أذنيه، وما أن فتحه حتى تبادل هو وابنة أخيه التي ظهرت بغتةً من العدم نظرة طويلة، ليفحصها بعينيْه من قمة رأسها وحتى أخمص قدميْها، وفي كل تفصيلةٍ يُمعن فيها النظر كان يرى فيها آخر ما تبقى من ملامح شقيقه وزوجته الراحليْن لا سيما تلك السلسلة الذهبية القديمة التي حملت اسمها..

نعم.. إنها هي بلا شك.. لكن.. ما هذا الصليب المُعلَّق الذي يجاور كلمة (آيات) المتدلية من السلسلة؟!

بينما كانت بدورها تتطلع إلى ملامحه الطيبة، لكن ما تلك البقعة البُنية التي تتوسط جبهته من أثر السجود؟ وما تلك الآية القرآنية المعلقة خلفه في مدخل الشقة؟!

تاهت الكلماتُ على الشفاه، ولم يبقَ سوى السكوت..

فالصمتُ مقطوعةٌ موسيقيةٌ يُتقن عزفها جميعُ الحزانى دون الحاجة لمُعلِّم أو موهبة.

* * *

علمت (آيات) أن والدها كان رجل أعمال ثريًّا، وأن عمها حاول أن يُدير

أعماله من بعده لكنه لم يكن بمهارته وكفاءته، لذا تلاحقت الخسائر الفادحة، فقرر تصفية تلك الأعمال حتى يحولها إلى رأس مال يضعه في البنك، ليكون من نصيبها لو ظهرت في يوم من الأيام، لكنه فقد الأمل في عودتها بمرور السنين، قبل أن ينهشه المرض، ويتدهور به الحال حتى اضطر أن يمد يده على أموال أخيه الراحل، فتكفلت بعد ظهورها بعلاجه ومنحته المال اللازم ليتم حلم حياته بحج بيت الله الحرام!

جهّزت ابنة عمها وأسهمت في حفل زفافها.

صارت تتبرع للجامع والكنيسة، وتواصل غناء الترانيم المسيحية والأناشيد الإسلامية بنفس طريقة غناء الشاب وأدائه، ورغم كثرة من أعجبوا بها وطلبوا منها الزواج، كان ردها القاطع دائمًا هو الرفض، دون أن تفقد الأمل في العثور على فتاها الوسيم بمعجزةٍ ليست ببعيدةٍ مثلما عثرت على أهلها الحقيقيين بعد سنين طويلة.

جمّعت تسجيلاته الصوتية ومذكراته ومذاكراتها، ومزجت الواقع بالخيال حتى صنعت رواية ضخمة، جعلت من نفسها بطلتها، والغريب أنها حين حاولت تحريف الواقع وإضفاء لمسة خيالية على أحداثه التي حاكها القدر، جعلت من البطلُ ملاكًا ما أن أتمّ مهمته حتى عاد مجددًا إلى مملكة السماء!

وأحدثت الرواية فور طرحها، ضجةً هائلةً في الأوساط الدينية والثقافية، لا سيما بعد أن كُتب على غِلافها من الخارج: مستوحاة من أحداثٍ حقيقية!

* * *

وفي السماء وقف الشاب الوسيم يستمع إلى صريف الأقلام وهي تُدوّن في عالم الملكوت أفعال أهل الأرض، ليُرهِف السمع ويتابع أنباء تلك الإنسية التي غيّرت مجرى حياته، قبل أن يستقبل رئيسه المهيب الذي أتاه وهو يبتسم ابتسامةً غامضةً ثم ناوله كتابًا ضخمًا قائلًا:

- يبدو أن حبيبة الأمس كانت أكثر ذكاء مما نتوقع.. لقد جعلتك بطل روايتها.



تناول الشاب الكتاب وطالع غلافه، فرفع حاجبيه بانبهار وهو يقرأ ذلك العنوان المكتوب عليه مردداً بدهشة:

- ملكوت؟!

وفي مكتبها، أخذت (آيات) تتصفح حسابها الشخصي على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك"، لتجيب على عشرات الرسائل التي تستقبلها يوميًا، وتتابع ردود الفعل على روايتها وأغنياتها، دون أن تنسى -كالمعتاد- أن تمر على حساب فتاها الوسيم المُسجَّل باسم (نور)، وتتأمل صورته التي التقطتها له بهاتفها المحمول. وكالمعتاد أيضًا سالت من عينيْها الدموع، لتتقافز أصابعها على لوحة المفاتيح وتكتب:

- من الممكن أن تشعر نفسك بالغربة وأنت داخل وطنك.. ومن الممكن أن تشعر روحك بالغربة وهي داخل جسدك.. هاجروا بأرواحكم إلى العالم السماوي مثلما تريدون الهجرة من هذا الوطن الضيق.. وحينها ستجدون ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفجأةً أتاها إشعارٌ جديدٌ بمنشورٍ تمت فيه الإشارة إليها، وكانت هذه الإشارة من حساب الشاب الوسيم، لتتسع عيناها بدهشةٍ وانبهارٍ وتفتح منشوره الذي كُتب من ثوانٍ قائلًا:

- **إن الواقفين عند حائط المبكى يبتهلون.. والذين يوقدون الشموع في الكنائس ويتلون الترانيم ويحضرون القُدّاس.. والذين يُكبِّرون في المساجد ويركعون ويسجدون، ويطوفون حول بيت الله الحرام، مستحضرين عظمة الله في قلوبهم.. جميعهم يُصلّون لإلهٍ واحدٍ لديهم الأمل في رحمته وخلاصه.. يحبونه بصدق ويثقون في حبه لهم.. يعطونه القليل وينتظرون منه الكثير.. فلا حاجة لهم أن يتصارعوا عليه وقد وهب نفسه ملكيةً عامةً للجميع..**

جميعهم في غنى عن الحُكم على المخالفين لهم لأن الحُكم أولًا وأخيرًا للخالق الوحيد الذي سيفصل بينهم يوم الدينونة، فليوقفوا آلة الحرب باسمه، وليملأوا الكون بتراتيل المحبة بينهم كإخوة من نسلٍ واحدٍ، وأبناء عمومة للكون بكل ما فيه، لعل في حبهم خلاصًا ومغفرةً حتى وإن كان الرابح في النهاية دينًا واحدًا.. فالمحبة بين المخلوقات بعد الدين دين.

وإلى جانب الإشارة إلى الحساب الشخصي لـ (آيات) في منشوره، ظهرت أيقونة وجه مبتسم وإلى جوارها جملة: **يَشعُر بالإيمان!**

تمت بحمد الله

شريف عبد الهادي

29/9/2015



استأنس الكاتب بالمراجع الآتية:

- القرآن الكريم
- الكتاب المُقدَّس
- أرشيف موقع الأنبا تكلاهيمانوت
- موسوعة ويكيبيديا
- كتاب "الإنسان وعالم الملائكة" تأليف الدكتور أحمد شوقي إبراهيم
- كتاب "يهود مصر من الازدهار إلى الشتات" تأليف الدكتور محمد أبو الغار
- كتاب "ثلاث نوافذ تطل على السماء" تأليف الدكتور علي السمان
- كتاب "إبليس" تأليف عباس محمود العقاد
- كتاب "لغز الموت" تأليف الدكتور مصطفى محمود
- كتاب "السر الأعظم" تأليف الدكتور مصطفى محمود
- كتاب "الله" تأليف الدكتور مصطفى محمود
- كتاب "التصوف" تأليف الدكتور يوسف زيدان
- كتاب "1001 اختراع وحقيقة مدهشة عن الحضارة الإسلامية" تحقيق البروفيسور سليم الحسني
- كتاب "دليل المسلم الحزين" تأليف حسين أحمد أمين
- كتاب "الوجه الآخر للمسيح" تأليف فراس السواح
- كتاب "قصة الديانات" تأليف سليمان مظهر
- موسوعة "قصة حضارة" تأليف وول ديورانت
- كتاب "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" تأليف ابن قيم الجوزي
- خواطر للكاتب الليبي محمد الترهوني، استعنت بمقتطفات منها بتصرف في الجزء الخاص بمذكرات (أيات).
- الجزء الذي يرصد حي العطارين في جولة (موريس) و(دميانة) تم الاعتماد فيه على مقالة بعنوان "حي العطارين.. رائحة تقاوم الضياع" للكاتب الصحفي أحمد الفخراني، وتم نشرها في جريدة أخبار الأدب بتاريخ 23/10/2010

شكر خاص

إلى أمي، وأبي، وإخوتي الرائعين هادي، وأحمد، وكامليا

إلى زوجتي الحبيبة التي طالما تحملتني لميا، وابنتي الجميلة وملهمتي جنى

إلى الكاتب الليبي الرائع الذي تعلمت منه الكثير/ محمد الترهوني

إلى أهلي وأصدقائي الأعزاء وشركاء الكفاح :

محمود زينهم – هالة البشبيشي – شريف الليثي – أحمد القرملاوي – أحمد عبد المجيد – أمير عاطف – محمد ناجي عبد الله – عاطف حسانين – محمد فاروق المليجي – محمد عبد القوي مصيلحي – وليد عبدالمنعم – ألبرت يعقوب – محمد نجيب ويفي – مي أشرف حمدي – مي عادل – محمد عصمت – إبراهيم أحمد عيسى – تامر أنور – رويدا أحمد عرابي – إيمان عبد المقصود – إيمان يوسف

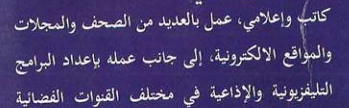
هبة الله مصطفى – هايدي صقر – جون ماهر – ميرا مجدي – محمد مصطفى

مَلَكُوتْ

منذ بدء الخليقة، لم يتوقف بنو آدم عن التطلع إلى السماء، ومحاولة استجلاء الأسرار الكامنة فيها خلف الحُجُب والغيوم، حتى أتى هذا الغامض من هناك، وقال: «أنا أعرف الإجابة».



شريف عبد الهادي



كاتب وإعلامي، عمل بالعديد من الصحف والمجلات والمواقع الالكترونية، إلى جانب عمله بإعداد البرامج التليفزيونية والإذاعية في مختلف القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية. صدر له حتى الآن: كوابيس سعيدة (أول فيلم سينمائي مقروء)، أبابيل (رواية)، تيستروجين (رواية سينمائية)، حبيبة قلب بابا (مقالات تنتمي لأدب الاعترافات).

لوحة الغلاف: كريم أحمد kareemahmed.artstation.com







ISBN 9789778520484

9 789778 520484

تويا